مُقدِّمَةُ الطَّبعَةِ الجَدِيدَةِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أنفسنا ومِن سيئاتِ أعمالنا، مَنْ يهده اللهُ فَلَا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِي لَهُ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهَدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

فَهَذِهِ طَبعةٌ جَديدةٌ مِن كِتابِ: «**فضل العلم**»، زِدتُ فِيهَا أَشْيَاءَ فِي مَواضعَ، ونَقَّحتُهَا فِي مَواضعَ، وَحَرَّرتُ فِيهَا بعضَ شَيءٍ كَانَ فِي حَاجَةٍ إِلَىٰ التَّحرِيرِ.

وَهَذَا الكِتَابُ يَضُمُّ أُصُولًا فِي بَيَانِ فَضلِ العِلْمِ، وَآدَابِ طَلَبتِهِ، وَآفَاتِ طَلَبِهِ، وَالثمَرَةِ المرجوَّةِ من تعلُّمِهِ، وَهِي العملُ بِهِ.

وَلَو أَنَّ طَالبَ العِلْمِ وُفِّقَ -بِحَولِ الله وقوتِهِ- لإدمَانِ النَّظَرِ فِيهِ، وَرُزِقَ -بِفَضلِ اللهِ وَمِنَّتِهِ- البَصِيرةَ فِي مَرَامِيهِ، لاستقَامَ مِنهَاجُهُ فِي العِلْمِ وَالعَمَلِ جَميعًا، وَلَمَا رأينا تلك المسوخَ المشوَّهَة مِمَّن يُحْسَبُون عَلَىٰ العِلْمِ وهُم حَربٌ عَلَيهِ، ويُنْسَبُون إِلَيهِ وهُم أبعدُ شَيءٍ عَنْهُ.

وَلَقد طُبع الكتابُ قبلُ -بِحولِ اللهِ تَعَالَىٰ وَقوتِهِ- مَرَّاتٍ عَديدةً، وَلَكنَّ هَذِهِ الطبعةَ هِي مَا أَعتمدُهُ، وَهِي مَا انتهىٰ إِلَيهِ -بِفضلِ اللهِ- أمرُهُ، فَمَنْ كَانَ قَارئَهُ فَليقرأْ هَذِهِ، وَمَنْ كَانَ نَاظِرًا إِلَيْهِ فلينظر إِلَىٰ هَذِهِ.

أَسأَلُ اللهَ تَعَالَىٰ أن ينفعَ بِهَا، وَأَن يَتقبَّلَهَا بقبولٍ حَسَنٍ؛ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ.

وَالحَمدُ للهِ أَوَّلًا وَآخِرًا، وَظَاهِرًا وَبَاطِنًا، الحمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِين.

وَصَلَّىٰ الله عَلَىٰ نَبيِّنَا مُحمَّدٍ وَعَلَىٰ أبويه إبراهيم وإسماعيل، وَعَلَىٰ سَائِرِ الأنبياءِ والمرسلين وَسَلَّم تَسْلِيمًا كَثِيرًا.

وَكَتَبَ

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

-عفا الله عنه وعن والديه-

سبك الأحد - الثلاثاء

٢١من شوال ١٤٢٩هـ

٢١من أكتوبر ٢٠٠٨م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّ الحمدَ لله، نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفرُهُ، ونعوذُ بالله مِنْ شُرُورِ أنفسنا وسيئاتِ أعمالنا، مَنْ يهده اللهُ فَلَا مُضِلَّ له، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ لَهُ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ مُحمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

أَمَّا بعدُ:

فَإِنَّ أَصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُها، وكلَّ مُحْدَثَةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

أخرج الإمامُ مسلمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «**صحيحه**»، بسندِهِ، عن أبي رُقَيَّةَ، تَمِيمِ بن أوسٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**الدِّينُ النَّصِيحَةُ**» قُلنَا: لِـمَن؟ قال: «**لله ولِكِتَابِهِ ولِرَسُولِهِ ولأئِمَّةِ المسلمينَ وعَامَّتِهِم**».

قال الإمامُ النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا حديثٌ عظيمُ الشأنِ، وعليه مدارُ الإسلامِ»(١).

وذكَرَ النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **عن الإمامِ أبي سليمان الخطابيِّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **أنَّه قال:** «النصيحةُ: كلمةٌ جامعةٌ معناها: حيازةُ الحظِّ للمنصوحِ له، ويقال: هو(٢) من وَجِيزِ الأسماءِ ومختصر الكلامِ، وليس في كلامِ العربِ كلمةٌ مفردةٌ يُستوفىٰ بها العبارةُ عن معنىٰ هذه الكلمةِ، كما قالوا في «الفلاحِ»: ليس في كلامِ العربِ كلمةٌ أجمعَ لخيرِ الدنيا والآخرةِ منه.

قال الخطَّابيُّ: وقيل: النصيحةُ مأخوذةٌ من: نَصَحَ الرَّجُلُ ثوبه، إذا خَاطَه، فَشَبَّهوا فِعلَ الناصحِ فيما يتحرَّاه من صلاح المنصوحِ له بما يَسُدُّه من خَلَلِ الثوبِ، قال: وقيل: إنَّها مأخوذةٌ من: نصحتُ العسلَ، إذا صفَّيتُه من الشمعِ، شبَّهوا تخليصَ القولِ من الغِشِّ بتخليصِ العسلِ من الخَلطِ، ومعنىٰ الحديث: عمادُ الدِّينِ وقِوَامُه النصيحةُ؛ كقوله ﷺ: «**الحجُّ عَرَفَةُ**»(٣)، أي: عمادُه ومعظَمُهُ عرفة»(٤).

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا تفسيرُ النصيحةِ، وأنواعُها، فقد ذَكَرَ الخطَّابيُّ

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٣٧).

(٢) أي: لفظ: «النصيحة».

(٣) بعضُ حديثٍ أخرجه أحمد (٤/ ٣٣٥)، وأبو داود (١٩٤٩)، والترمذي (٨٨٩)، والنسائي (٥/ ٢٥٦)، وابن ماجه (٣٠١٥) وغيرهم، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣١٦٧)، وصحَّحه مُحقِّقُ «شرح السنة» (٧/ ٢٩٠).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٣٧).

وقِوَامُ كلِّ شيءٍ: عمادُهُ ونظامُهُ، **وَقِوَامُ الأمرِ**: مَا يقومُ بِهِ.

وغيرُهُ من العلماءِ فيها كلامًا نفيسًا، أنا أضمُّ بعضَه إلىٰ بعضٍ مختصرًا.

قالوا: أما النصيحةُ لله تعالىٰ: فمعناها منصرِفٌ إلىٰ الإيمانِ به، ونفي الشريكِ عنه، وتركِ الإلحادِ في صفاتِهِ، ووصفِهِ بصفاتِ الكمالِ والجلالِ كلِّها، وتنزيهِهِ ﷻ من جميع النقائصِ، والقيامِ بطاعتِهِ، واجتنابِ معصيتِهِ، والحبِّ فيه، والبغضِ فيه، وموالاةِ مَن أطاعه، ومعاداةِ مَن عصاه، وجهادِ مَن كفر به، والاعترافِ بنعمتِهِ، وشكرِهِ عليها، والإخلاصِ في جميعِ الأمورِ، والدعاء إلىٰ جميعِ الأوصافِ المذكورةِ، والحثِّ عليها، والتلطُّفِ في جمعِ الناسِ أو مَن أمكن منهم عليها.

قال الخطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: وحقيقةُ هذه الإضافةِ -قلتُ: يقصدُ النصيحةَ لله تعالىٰ- راجعةٌ إلىٰ العبدِ في نُصحه نفسَهُ، فالله تعالىٰ غنيٌّ عن نُصحِ الناصحِ.

وأمَّا النصيحةُ لكتابِهِ ﷻ: فالإيمانُ بأنَّه كتابُ الله تعالىٰ وتنزيلُه، لا يُشبهه شيءٌ من كلامِ الخَلقِ، ولا يقدر علىٰ مثلِه أحدٌ من الخَلقِ، ثم تعظيمُهُ، وتلاوتُهُ حقَّ تلاوتِهِ، وتحسينُها، والخشوعُ عندها، وإقامةُ حروفِهِ في التلاوةِ، والذَّبُّ[1] عنه لتأويلِ المحرِّفين وتعرُّضِ الطاعنين، والتصديقُ بما فيه، والوقوفُ مع أحكامِهِ، وتفهُّمُ علومِهِ وأمثالِهِ، والاعتبارُ بمواعظِهِ، والتفكُّرُ في عجائبِهِ، والعملُ بمُحكَمِهِ، والتسليمُ لمتشابهِهِ، والبحثُ عن عمومِهِ وخصوصِهِ، وناسخِهِ ومنسوخِهِ، ونشرُ علومِهِ، والدعاءُ إليه[2] وإلىٰ ما ذكرنا من نصيحته.

وأمَّا النصيحةُ لرسولِ الله ﷺ: فتصديقُه علىٰ الرسالةِ، والإيمانُ بجميعِ ما جاء

(١) **الذَّبُّ**: المنعُ والدَّفعُ. «مختار الصحاح» للرازي، مادة «ذ ب ب» (ص٢١٩).

(٢) **الدعاءُ إليه**: الدعوةُ إليه، والدلالةُ عليه.

به، وطاعتُه في أمرهِ ونهيه، ونصرتُه حيًّا وميِّتًا، ومعاداةُ مَن عاداه،وموالاةُ مَن والاه، وإعظامُ حقِّه، وتوقيرُه، وإحياءُ طريقتهِ وسنَّتِهِ، وبثُّ دعوتِهِ، ونشرُ شريعتِهِ، ونفيُ التُّهمةِ عنها، واستثارةُ علومِها، والتفقُّهُ في معانيها، والدعاءُ إليها، والتلطُّفُ في تعلُّمِها وتعليمها، وإعظامُها وأجلالُها، والتأدُّبُ عند قراءتها، والإمساكُ عن الكلامِ فيها بغيرِ علمٍ، وإجلالُ أهلِها لانتسابِهم إليها، والتخلُّقُ بأخلاقهﷺ، والتأدُّبُ بآدابِهِ، ومحبةُ أهلِ بيتِهِ وأصحابِهِ، ومجانبةُ مَن ابتَدَعَ في سنَّتِهِ أو تعرَّضَ لأحدٍ من أصحابِهِ، ونحو ذلك.

وأمَّا النصيحةُ لأئمَّةِ المسلمين: فمعاونتُهم علىٰ الحقِّ، وطاعتُهم فيه، وأمرهُم به، وتنبيههُم وتذكيرُهم بلطفٍ ورفقٍ، وإعلامُهم بما غَفَلُوا عنه ولم يبلغهم من حقوقِ المسلمين، وتركُ الخروجِ عليهم، وتألُّفُ قلوب الناسِ لطاعتهم.

قال الخطَّابيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن النصيحةِ لهم: الصلاةُ خلفهم، والجهادُ معهم، وأداءُ الصدقات إليهم، وتركُ الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حَيفٌ أو سُوءُ عِشرَةٍ، وألاَّ يُغَرُّوا بالثناءِ الكاذبِ عليهم، وأن يُدعىٰ لهم بالصلاحِ، وهذا كلُّه علىٰ أنَّ المرادَ بأئمةِ المسلمين: الخلفاء وغيرُهم ممَّن يقوم بأمورِ المسلمين من أصحابِ الولاياتِ، وهذا هو المشهورُ.

وأمَّا نصيحةُ عامَّةِ المسلمين -وهم مَن عدا وُلاةِ الأمرِ-: فإرشادُهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكفُّ الأذىٰ عنهم؛ فيعلِّمهم ما يجهلونه من دينهم ويُعينهم عليه بالقولِ والفعلِ، وسَترُ عوراتِهم، وسَدُّ خَلَّاتِهم[1]، ودفعُ المضارِّ عنهم، وجَلبُ المنافعِ

(١) **الخَلَّةُ:** الفُرجة في الخُصِّ وغيره، والثُّقبَةُ الصغيرةُ، والحاجةُ والفقرُ. «المعجم الوسيط» (١/ ٢٥٣).

لهم، وأمرُهم بالمعروفِ، ونهيهُم عن المنكرِ برفقٍ وإخلاصٍ، والشفقةُ عليهم، وتوقيرُ كبيرِهم، ورحمةُ صغيرهم، وتخوُّلُهم بالموعظةِ الحسنةِ، وتركُ غِشِّهم وحسدِهم، وأن يحبَّ لهم ما يحبُّ لنفسِهِ من الخيرِ، ويكره لهم ما يكره لنفسِهِ من المكروهِ، والذَّبُّ عن أموالِهم وأعراضِهم وغيرِ ذلك من أحوالهم بالقولِ والفعلِ، وحثُّهم على التخلُّقِ بجميعِ ما ذكرناه من أنواعِ النصيحة، وتنشيطُ هممهم إلى الطاعاتِ، وقد كان في السلفِ رضي الله عنهم مَن تبلغُ به النصيحةُ إلى الإضرار بدنياه، والله أعلم»[(١)].

عن جريرِ بن عبدِ الله رضي الله عنه قال: «بَايَعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَىٰ إِقَامِ الصَّلاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، والنُّصحِ لِكُلِّ مُسلِمٍ». رواه مسلمٌ في صحيحه.

وفي «الصحيحين» عن جريرٍ رضي الله عنه قال: «بَايَعتُ النَّبِيَّ ﷺ عَلَىٰ السَّمعِ والطَّاعَةِ فَلَقَّنَنِي: «فيمَا استَطَعتُ»، والنُّصحِ لِكُلِّ مُسلِمٍ».

ولـمَّا كان أمرُ النصيحةِ للمسلمين بهذه المثابةِ[(٢)]، فقد وَجَبَ علىٰ كلِّ مسلمٍ عَلِمَ أمرًا من أمورِ الخيرِ -علىٰ مقتضىٰ الكتابِ والسنةِ- غيرَ مطروقٍ، أو رأىٰ شأنًا من شئونِ الشرِّ قد كَثُرَ عليه الطُّروقُ، فقد وَجَبَ علىٰ كلِّ مسلمٍ عَلِمَ ذلك أو رآه أن يُنَبِّهَ عليه؛ حَثًّا عليه، أو ذَبًّا عنه، وترغيبًا فيه، أو ترهيبًا منه.

وقد راعني -عَلِمَ الله- نهجُ المسلمين في فعلهم ما يظنُّونَه الخيرَ، وعزوفِهم عمَّا يَنعَتُونَه بالشرِّ، من غير قَيدِ ذلك بالكتاب والسنةِ، أومن غير ضبطِ الفهمِ للكتابِ والسُّنَّةِ حتىٰ يمكن القولُ: إنَّ هذا هو عينُ مرادِ الكتابِ والسنةِ.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢/ ٣٧).

(٢) **المَثَابَةُ**: البيتُ والملجأُ؛ قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٢٥].

فلمَّا نظرتُ في ذلك هداني الله ﷻ إلىٰ أنَّ موطنَ الداءِ فيه هو: إغفالُ ضبطِ النسبةِ بين الوسائلِ والغاياتِ، دلَّ علىٰ ذلك قُولُ عبد الله بنِ مسعودٍ ﷺ «لأصحابِ الحِلَقِ» إذ نَصَّ صراحةً أنَّه: «كَم مِن مُرِيدٍ للخيرِ لن يُصيبَهُ».

وتفصيلُ ذلك ما أخرجه الدارميُّ في «سننه» (١/ ٧٩) رقم (٢٠٤)، بإسنادٍ صحيحٍ، قال: أخبرنا الحكمُ بنُ المباركِ، أنا عمرُ بنُ يحيىٰ[١]، قال: سمعتُ أبي يحدِّثُ عن أبيه، قال: «كنا نجلسُ علىٰ بابِ عبد الله بن مسعودٍ قبل صلاةِ الغَدَاةِ، فإذا خرج مشينا معه إلىٰ المسجدِ، فجاءنا أبو موسىٰ الأشعريُّ فقال: أَخَرَجَ إليكم أبو عبد الرحمن بعدُ؟ قلنا: لا، فجلسَ معنا حتىٰ خرج، فلما خرج قمنا إليه جميعًا، فقال له أبو موسىٰ: يا أبا عبد الرحمن إني رأيتُ في المسجدِ آنفًا أمرًا أنكرتُه، ولـم أرَ -والحمدُ للهِ- إلا خيرًا[٢]، قال: فَمَا هُوَ؟ فقال: إن عشتَ فستراه، قال: رأيتُ في المسجدِ قَومًا حِلَقًا،

(١) في المطبوع: عمر بن يحيىٰ، وهو تصحيفٌ، والصوابُ: عمرو بن يحيىٰ بن عمرو بن سلمة بن الحارث الكوفي. انظر: تهذيب الكمال (٧/ ١٣٢)، ترجمة الحكم بن المبارك الباهلي.

(٢) انظر كيف يلتبس أمرُ البدعةِ بأمرِ السُّنَّةِ، حتىٰ إنَّ أبا موسىٰ ﷺ، وهو مَن هو يُنكر ولم يرَ -كما قال- إلا خيرًا، فلا رجَّح الإنكارَ، ولا رجَّح الخير، حتىٰ جاء ابن مسعودٍ ﷺ.

وهذا الالتباسُ ملازمٌ للبدعةِ الإضافية، وهي قسيمُ البدعة الحقيقية التي لم يدلَّ عليها دليلٌ شرعيٌّ لا من كتابٍ، ولا سنةٍ، ولا إجماعٍ، ولا استدلالٍ معتبرٍ عند أهلِ العلم، لا في الجملة ولا في التفصيل.

وأمَّا البدعة الإضافية فهي التي لها شائبتان: إحداهما: لها من الأدلة متعلَّقٌ، فلا تكون من تلك الجهةِ بدعةً، والأخرىٰ: ليس لها متعلَّقٌ، إلا مثل ما للبدعةِ الحقيقية؛ أي أنها أوهامٌ وظنونٌ وليست بأدلَّة ولا حجج.

ومن أمثلةِ البدعة الإضافية: الصلاة والسلام من المؤذن بعقب الأذان مع رفع الصوت بهما، =

جُلوسًا، ينتظرون الصلاةَ، في كلِّ حَلقَةٍ رَجُلٌ، وفي أيديهم حصًىٰ، فيقولُ: كَبِّروا مئةً، فيكبِّرُون مئةً، فيقولُ: هَلِّلوا مئةً، فَيُهَلِّلون مئةً، ويقول: سَبِّحوا مئةً، فيسبِّحون مئةً، قال: فماذا قُلتَ لهم؟ قال: ما قُلتُ لهم شيئًا انتظارَ رَأيكَ -أو: انتظارَ أمرِكَ-. قال: أفَلا أمرتَهم أن يَعُدُّوا سيِّئاتِهم، وضَمِنتَ لهم ألا يضيعَ من حسناتِهم، ثمَّ مضىٰ ومضينا معه، حتىٰ أتىٰ حَلقةً من تلك الحِلَقِ فوقفَ عليهم، فقال: ما هذا الذي أراكم تصنعون؟! قالوا: يا أبا عبد الرحمن حصًىٰ نَعُدُّ به التكبيرَ والتهليلَ، والتسبيحَ، قال: فَعُدُّوا سيئَاتِكم فأنا ضَامِنٌ ألا يضيعَ من حسناتكم شيءٌ، وَيْحَكُمْ يا أمَّةَ محمدٍ! ما أسرعَ هلكَتَكُم! هؤلاء صحابةُ نبيِّكم ﷺ متوافرون، وهذه ثيابُه لم تَبلَ، وآنيتُه لم تُكسر، والذي نفسي بيده إنكم لَعَلَىٰ مِلَّةٍ أَهدَىٰ من مِلَّةِ محمَّدٍ أو مُفتَتِحُو بابِ ضلالةٍ، قالوا: والله يا أبا عبد الرحمن ما أردنا إلا الخيرَ، قال: وكَم من مريدٍ للخيرِ لن يُصيبَه، إنَّ رسولَ الله ﷺ حَدَّثَنَا: «**إنَّ قَومًا يَقرَءُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم**»، وايمُ الله، ما أدري لعلَّ أكثرَهم منكم، ثمَّ تولَّىٰ عنهم، فقال: عمرو بن سلمة: رأينا

=

فالصلاة والسلام مشروعان بذاتهما، ولكنَّ الجهر بهما وتنزيلهما منزلةَ ألفاظ الأذانِ، بدعةٌ، وكذلك التأذين للعيدين أو الكسوفين، فالأذان من حيث هو قربةٌ، وباعتبار كونه للعيدين أو الكسوفين بدعة. انظر: «الاعتصام» للشاطبي (١/ ٣٦٧) تحقيق سليم الهلالي، و«الإبداع» لعلي محفوظ (ص٥٥)، و«علم أصول البدع» لعلي حسن عبد الحميد (ص١٤٧).

وما وقع من أصحاب الحِلَقِ في حديثنا هذا من قبيل البدعة الإضافية؛ فالذِّكْرُ من حيث هو: قُربةٌ وعبادةٌ، وأما الكيفية التي وقع بها، والكمية التي حُدِّد بها، والزمان الذي وُقِّت لكميته وكيفيته، وكذلك المكان الذي حُدِّد له، كل ذلك أدخله في البدعة من بابها الوسيع، ومن أجله أنكر ابن مسعود ﷺ علىٰ أصحابِ الحِلَقِ ما أتوا به.

عامَّةَ أولئك الحِلَقِ يُطاعنونا يومَ النَّهروانِ مع الخوارجِ»[(١)].

وعبدُ الله بنُ مسعودٍ ﷺ لم يرضَ من هؤلاء غايةً شرعيةً صحيحةً؛ وهي التسبيحُ والتهليلُ والتكبيرُ، ماداموا متخذين لها وسيلةً لم ينصَّ عليها الشرع ولم يأذن بها، فانحصر موطنُ الداء -علىٰ هذا- في إغفالِ ضَبطِ النسبةِ بين الوسيلةِ والغايةِ، في حين أنَّ الذي شَرَعَ الغايةَ لم يُغفل الوسيلةَ إليها، فالوسيلةُ لابُدَّ أن تكونَ مشروعةً كالغايةِ سواءً بسواءٍ.

ولكنَّا كثيرًا ما ننسىٰ هذا الأصلَ، ونرىٰ كثيرًا من الغايات محمودةً في ذاتها؛ فتتلهَّفُ نفوسُنا علىٰ بلوغها، وتنسىٰ في غَمرةِ سعيها أن تنظرَ أيَّ وسيلةٍ تتوسَّل بها إلىٰ غايتها، وأيَّ سبيلٍ تَسلكُ من أجلِ الوصولِ إليها.

العقلُ حاكمٌ أنَّ إنسانًا لا يمكن أن يصلَ إلىٰ الشاطئِ نظيفَ الثوبِ والبَدَنِ وهو يخوضُ إليه مُستَنقَعًا من الوَحلِ والطينِ.

والشرعُ قاضٍ أن علىٰ المسلمِ أن ينظرَ في الوسيلةِ التي يتوسَّلها إلىٰ الغايةِ الشرعيَّةِ المحمودةِ التي يريد، فإن كانت هي أيضًا شرعيةً فبها وقُرَّةُ عَينٍ، وإلَّا فلا.

واللهُ ﷻ عندما أمر العبادَ أن يعبدوه، لم يَدَعهُم يسلكون إلىٰ هذه الغايةِ العظيمةِ أيَّ نهجٍ يريدونه، ويتخذون أيَّةَ وسيلةٍ يرونها، وإنما شَرَعَ العبادةَ وشَرَعَ معها كيفيَّتها، وضبَطَ هيئتها، فأيُّ ناقصٍ من هذا أو زائدٍ عليه فهو من المعتدين،

(١) انظر أيضًا: «المعجم الكبير» للطبراني تحقيق حمدي عبد المجيد (٩/ ١٣٣-١٣٤) رقم (٨٦٢٨)، وابن وضاح في «البدع» (١٧، ١٩، ٢٢، ٢٣)، والسلسلة الصحيحة (٥/ ٢٠٠٥).

وأمرُهُ مردودٌ عليه، ففي «الصحيحين» عن عائشة ﵂ قالت: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَن أحدَثَ فِي أمرِنَا هذَا مَا لَيس مِنهُ فَهُوَ رَدٌّ**».

قال ابنُ رجبٍ ﵀: «هذا الحديثُ أصلٌ عظيمٌ من أصولِ الإسلامِ، وهو كالميزانِ للأعمالِ في ظاهرها، كما أنَّ حديثَ «**الأعمالُ بالنياتِ**»[١] ميزانٌ للأعمالِ في باطنها، فكما أنَّ كلَّ عملٍ لا يُرادُ به وجهُ الله تعالىٰ فليس لعامِلِهِ فيه ثوابٌ، فكذلك كلُّ عملٍ لا يكون عليه أمرُ الله ورسولِهِ فهو مردودٌ علىٰ عامِلِهِ، وكلُّ مَن أحدثَ في الدين ما لم يأذن به اللهُ ورسولُهُ فليس من الدين في شيءٍ»[٢].

وقال أيضًا: «فهذا الحديثُ يدلُّ بمنطوقه علىٰ أنَّ كلَّ عملٍ ليس عليه أمرُ الشارعِ فهو مردودٌ، ويدلُّ بمفهومه علىٰ أنَّ كل عملٍ عليه أمره فهو غيرُ مردودٍ، والمرادُ بأمرِهِ هاهنا دينُهُ وشرعُهُ كالمرادِ بقوله في الروايةِ الأخرىٰ: «**مَن أحدَثَ في أمرِنَا هَذَا مَا لَيسَ مِنهُ فَهُوَ رَدٌّ**»[٣].

---

(١) **متفقٌ عليه**: أخرجه البخاري في صدر صحيحه وهو أول حديث فيه، وأخرجه مسلم أيضًا، وهو في صحيحه برقم (١٩٠٧).

(٢) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور(١/ ١٨٣).

(٣) أخرجه البخاري (٢٥٥٠)، مسلم (١٧١٨).

والمفهومُ: أنْ يدلَّ اللفظُ المنطوقُ علىٰ حكمِ أمرٍ مسكوتٍ عنه، سُمِّي بذلك لأنه يُفهم من المنطوقِ دون أن يُصرِّحَ به المتكلِّمُ.

والمفهومُ نوعان: مفهومُ موافقةٍ، ومفهومُ مخالفةٍ. وقولُهُ تعالىٰ: ﴿**فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ**﴾ [الإسراء:٢٣]؛ المنطوقُ: النهيُ عن التأفُّفِ من الوالدين، ويُفهم من لفظِ الآيةِ: تحريمُ شتمهما وضربهما، ولم يُذكرا في الآية.

فالمعنىٰ إذن: أنَّ مَن كان عملُه خارجًا عن الشرعِ غيرَ محكومٍ بالشرعِ فهو مردودٌ.

وقولُه: «**لَيس عَلَيهِ أَمرنُا**» إشارةٌ إلىٰ أنَّ أعمالَ العاملين كلِّهم ينبغي أن تكون تحت أحكامِ الشريعةِ؛ فتكون أحكامُ الشريعةِ حاكمةً عليها بأمرِها ونهيها؛ فمَن كان عملُه جاريًا تحت أحكامِ الشريعةِ، موافقًا لها فهو مقبولٌ، ومَن كان خارجًا عن ذلك فهو مردودٌ»(١).

فلابُدَّ -إذن- أن تكون الوسيلةُ محمودةً كالغايةِ المحمودةِ، وإن كان ضَبطُ النسبةِ بين الوسائلِ والغاياتِ ليس وحدهُ ضامنًا للوصولِ إلىٰ الحقِّ، والرُّسُوِّ علىٰ مَرفَأ الهدايةِ والرُّشدِ، فقد يتخذ المسلمُ وسيلةً صحيحةً منضبطةً بالشرعِ إلىٰ غايةٍ صحيحةٍ منضبطةٍ بالشرعِ، ولا يُقَدَّرُ له الوصولُ؛ لأنه ربما تخلَّفت عنده مرحلةٌ من مراحل الوصولِ إلىٰ الحقِّ.

* * *

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١٨٤).

مراحلُ الوصول إلى الحقِّ

مراحلُ الوصولِ إلىٰ الحقِّ أربعٌ هي:

المرحلةُ الأولىٰ: أن يُدَّعىٰ علىٰ أمرٍ ما بأنَّه هو الحقُّ.

المرحلةُ الثانيةُ: أن يُقام الدليلُ علىٰ صِدقِ هذه الدعوىٰ، من الكتابِ أو السنةِ أو الإجماعِ أو آثارِ الصحابةِ.

المرحلةُ الثالثةُ: أن يُفهم الدليلُ فهمًا صحيحًا بحيث يمكن الجزمُ بأنَّه هو عينُ المرادِ من الكتابِ أو السنةِ أو الإجماعِ أو آثار الصحابةِ.

المرحلةُ الرابعةُ: أن يُطَبَّقَ الفهمُ المستقيمُ للدليلِ الصحيح تطبيقًا صحيحًا، كما كان يطبَّق في الصدرِ الأولِ.

وتفصيلُ ذلك ومثالهُ أن نقولَ:

المرحلةُ الأولىٰ:

أن يَدَّعي مُدَّعٍ من أهل العلمِ أنَّ السنَّةَ في الوقوفِ في الصَّفِّ في الصلاة تكون بإلزاقِ الرَّجُلِ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صاحبِهِ، وكَعبَهُ بكعبِهِ.

المرحلةُ الثانيةُ:

فإذا طُولب بالدليلِ قال: أخرج البخاريُّ تعليقًا عن النعمانِ بن بشيرٍ رضي الله عنهما

قال: «رأيتُ الرَّجُلَ منَّا يُلزِقُ كعبَه بكعبِ صاحبِهِ»، وهو طَرَفٌ من حديثٍ أخرجه أبو داود، وصحَّحه ابن خزيمة، من روايةِ أبي القاسم الجُدَلِيِّ، واسمُهُ حسين بن الحارث، قال: سَمِعتُ النُّعمَانَ بنَ بَشِيرٍ يقولُ: أقبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَىٰ النَّاسِ بِوَجهِهِ فَقَالَ: «**أقيمُوا صُفُوفَكُم** -ثَلاثًا-، **واللهِ لَتُقِيمُنَّ صُفُوفَكُم أَو لَيُخَالِفَنَّ الله بَينَ قُلُوبِكُم**»، قَالَ: فَلَقَد رَأيتُ الرَّجُلَ مِنَّا يُلزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ وكَعْبَهُ بِكَعبِهِ»(١).

المرحلةُ الثالثةُ:

فإذا قيل: كيف يُفهم الدليلُ فهمًا صحيحًا؟ فإنه قد يتبادر إلىٰ الذِّهنِ أنَّ الكعبَ هو كذا أو كذا من عظامِ القَدَمِ، فما هو الكعبُ حتىٰ نفهمَ كيفيةَ الإلزاقِ؟

قيل: إنَّ الكعبَ علىٰ حسب ما يستدلُّ بحديثِ النعمانِ بن بشيرٍ عليه هو: العَظْمُ الناتئُ في جانبي الرِّجلِ عند ملتقىٰ السَّاقِ بالقَدَمِ، وهو الذي يُمكن أن يُلزقَ بالذي بجنبِهِ، خلافًا لمن ذهب أنَّ المرادَ بالكعبِ: مُؤَخَّرُ القَدَمِ، وهذا هو الفهمُ المستقيمُ للدليلِ.

المرحلةُ الرابعةُ:

فإن قيل: هَب رَجُلًا يعلمُ هذه السُّنَّةَ من سننِ الصلاةِ، ويريد أن يُطبِّقَهَا مع مَن بجانبه في الصَّفِّ، وهذا لا يعلم هذه السنَّةَ ولا يدري خبرها، فكلَّما أرادَ الأولُ أن يُلزِقَ رِجلَه برجلِ صاحبِهِ، ضَمَّ هذا رِجلَيه، فهل يكون تطبيقُ الفهمِ المستقيمِ

(١) «فتح الباري» لابن حجر (٢/ ٢٤٧).

وقد صحَّح الألباني الرواية الموصولة من طريق أبي داود في صحيح سنن أبي داود رقم (٦٦٢)، وكذا صحَّح وصله عند ابن خزيمة في «مختصر صحيح الإمام البخاري» (١/ ١٨٤).

وَالمَنْكِبُ: مجتمعُ رأسِ العَضُدِ وَالكَتِفِ. (ج) مناكب.

للدليل الصحيحِ أن يُلزق الرَّجُلُ رِجلَهُ بِرِجلِ صاحبِهِ وإن بَالَغَ هذا في ضَمِّ رِجلَيه، والبُعدِ عن مجاورِه؟ أو يحاول معه علىٰ رجاءِ أن يكون عالمًا بالسنَّةِ، فإن لم يكن تَظَلُّ النيَّةُ ويُكَفُّ العملُ، حتىٰ يُفرغَ من الصلاةِ فيعلَّم؟

لابُدَّ -إذن- أن يطبَّقَ الفهمُ المستقيمُ تطبيقًا سديدًا، يقع علىٰ الوجهِ الذي أراده الشارعُ الحكيمُ، ولا يكفي أن يُدَّعىٰ علىٰ أمرٍ أنه هو الحقُّ فَيُصبحَ حقًّا، ولا يكفي أن يُقام عليه دليلٌ صحيحٌ، وإنما يجب أن يُفهم الدليلُ فهمًا يمكن الجَزمُ معه بأنه هو فهمُ السلفِ الصالحين، ولا يكفي أن يكون الفهمُ مستقيمًا، والدليلُ صحيحًا، حتىٰ يُطَبَّقَ كما طبَّقه السلفُ الصالحُ من غيرِ زيادةٍ ولا نقصانٍ، فإن تخلَّف من تلك المراحلِ شيءٌ فلن يُتوصَّل إلىٰ الحقِّ الذي أحقَّه الشارعُ وارتضاه.

وعليه فليس لأحدٍ أن يصيرَ حاطبَ ليلٍ، يخلط الدُّرَّ بالبَعرِ، ويأتي بأقوالٍ متهافتةٍ لا تتماسكُ، ثم يدَّعي أن معه علىٰ ما صار إليه دليلًا، بل يجب أن يكون الدليلُ صحيحًا.

وليس لأحدٍ أن يأتي بدليلٍ صحيحٍ، ثمَّ يطوِّعه لفهمه هو، ويغدو ويروح بفلسفةٍ كمضغِ الماء يدَّعي أنَّ معه الدليلَ الصحيحَ، وما معه إلا فهمُهُ هو، وما معه إلا دينٌ شَرَعَهُ له هواه.

وليس لأحدٍ أن يأتي بدليلٍ صحيحٍ، ويفهمه فهمًا صحيحًا، ثم يطبِّقه تطبيقًا ليس من الدين بسببٍ، بل يجب أن يُطَبَّقَ الفهمُ الصحيحُ للدليلِ الصحيحِ تطبيقًا صحيحًا.

ومن كلام الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: «آمنتُ باللهِ، وبما جاء عن اللهِ علىٰ مُرَادِ اللهِ، وآمنتُ برسولِ اللهِ، وبما جاء عن رسولِ الله عَلَىٰ مُرَادِ رسولِ اللهِ ﷺ».

❊ ❊ ❊

عَوْدٌ عَلَىٰ بَدْءٍ

عملًا بحديثِ «النصيحةِ» المسوقِ آنفًا، ونظرًا لاختلالِ ضبطِ النسبةِ بين الوسائلِ والغاياتِ الشرعيةِ، وعدمِ مراعاةِ كثيرٍ من الناسِ بعضَ مراحلِ الوصولِ إلىٰ الحقِّ، فقد رأيتُ بحولِ الله وقوتِهِ أن أجمع ما ييسِّره الله ﷻ لي من مسائلَ تحضُّ علىٰ العلمِ، وتحثُّ عليه، وترغِّبُ فيه، وتَصِفُ السبيلَ إلىٰ تحصيله، وتُبيِّنُ أنَّ العلمَ الحقَّ لا فاصلَ بينه وبين العملِ، بل العملُ هو ثمرتُه الأولىٰ وجَنَاهُ الدائمُ البهيجُ.

وقد دفعني إلىٰ هذا حديثُ رسولِ اللهﷺ الذي أخرجه الشيخان عن عبد الله ابن عمروٍ رضي الله عنهما قال: سَمِعتُ رَسُولَ اللهﷺ يَقُولُ: «**إنَّ الله لا يَقبِضُ العِلْمَ انتِزَاعًا، يَنتَزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، ولكِن يَقبِضُ العِلمَ بِقَبضِ العُلَمَاءِ، حَتَّىٰ إذَا لَم يُبقِ عَالِمًا، اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالا، فَسُئِلُوا، فَأَفتَوا بِغَيرِ علمٍ، فضَلُّوا وأَضَلُّوا**»[١].

وقد نصَّ النبيُّ ﷺ في هذا الحديثِ علىٰ أنَّ اتخاذَ الرءوسِ الجهَّالِ لا يكون إلا بعد قبضِ العلماءِ، فدلَّ مفهومُ الحديثِ[٢] علىٰ أنَّ وجودَ العلماءِ يمنعُ اتخاذَ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه». صحيح البخاري بترقيم الدكتور مصطفىٰ ديب البغا، رقم (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).

«**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا**»: أي: محوًا من الصدور. «**بقبض العلماء**»: أي بقبض أرواحهم، وموتِ حملته.

(٢) مفهومُ الحديثِ: أن يدلَّ اللفظُ المنطوقُ علىٰ حكمِ أمرٍ مسكوتٍ عنه.

الرءوسِ الجهَّالِ، وتَبَعًا يمنع سؤالهم وإفتاءَهم بغير علمٍ، وفي النهاية يمنع الضلالَ والإضلالَ.

وهذا -إذن- نصٌّ صحيحٌ صريحٌ علىٰ أنَّ عصمةَ الأمةِ من الضلالِ إنما هي العلم والعلماء، ومَن أراد أن تُشغَلَ الأمةُ عن هذا الأصلِ الأصيلِ فقد أراد -بحسنِ نيَّةٍ أو سُوءِ طَويَّة- للأمةِ الضلالَ والإضلالَ.

ولمَّا كان طُلابُ العلمِ الشرعيِّ في هذا الزمانِ كأندرِ شيءٍ يكون، ولما كانت هِمَمُ أهلِ هذا الزمانِ مصروفةً عن العلمِ الحقِّ وشئونِ المعادِ إلىٰ همومِ أحوالِ الدنيا وخطوبِ المعاشِ [فقد] أردتُ جمعَ ما ييسِّره العليمُ الحكيمُ من مسائلَ لا يستغني عنها مسلمٌ فضلًا عن طالبِ علمٍ شرعيٍّ.

وأسأل الله تعالىٰ أن يجعلها في ميزانِ حسناتي، وأن ينفعني بها، وكلَّ مَن نظر فيها ودلَّ عليها وأرشد إليها، وأن يجعلها مفتاحًا من مفاتحِ الخيرِ، تحبِّبُ في العلمِ وترغِّبُ فيه، وتهدي إلىٰ سبيلِهِ محبِّيه وطالبيه، إنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

قال البزَّارُ عن شيخه شيخِ الإسلامِ ابن تيمية: «قد أكثر رَحِمَهُ ٱللَّهُ من التصنيفِ في الأصولِ، فسألتُه عن سببِ ذلك، والتمستُ منه تأليفَ نصٍّ في الفقهِ يجمعُ اختياراتِهِ وترجيحاتِهِ ليكونَ عمدةً في الإفتاءِ، فقال ما معناه: إنَّ الفروعَ أمرُهَا قريبٌ، فإذا قلَّدَ المسلمُ فيها أحدَ العلماءِ المقلَّدين جاز له العملُ بقوله ما لم يتيقَّنْ خطأَهُ، وأمَّا الأصولُ فإني رأيتُ أهلَ البدعِ والضلالاتِ والأهواءِ كالمتفلسفةِ والباطنيةِ والمعطِّلَةِ قد تجاذبوا فيها بأزمَّةِ الضلالِ، وبان لي أنَّ مقصدَهُم إبطالُ

الشريعةِ، فهذا هو الذي أوجبَ أنِّي صرفتُ جُلَّ همِّي إلىٰ الأصولِ»[1].

وقال الذهبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «فينبغي للمسلم أن يستعيذَ من الفتنِ، ولا يشغبَ بذكرِ غريبِ المذاهبِ، لا في الأصولِ ولا في الفروعِ، فما رأيتُ الحركةَ في ذلك تُحصِّلُ خيرًا، بل تثيرُ عداوةً وشرًّا، ومقتًا للصالحين والعُبَّادِ من الفريقين، فتمسَّكْ بالسُّنَّةِ، ولا تَخُضْ فيما لا يعنيك»[2].

* * *

(١) «الأعلام العلية» للبزار (ص٢٣)

(٢) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (٢٠/ ١٤٢).

باب: بَيَان مَا هُوَ العِلمُ الفَرضُ

أخرج ابنُ ماجه في «سننه» بسنده عن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ**»(١).

ولَّما كان الفهمُ عن الله تعالىٰ وعن رسولِهِ ﷺ مشروطًا فيه أن يكون علىٰ مرادِ الله ورسولِه ﷺ لا علىٰ حسبِ الأهواءِ، كان لِزَامًا أن يُنظر في مدلولِ اللفظِ الذي تلفَّظَ به الرسولُ ﷺ، حتىٰ يكون فهمُ اللفظِ علىٰ مرادِ الرسولِ ﷺ، لذلك ننظر -إن شاءَ الله- في معنىٰ: «الواجب» وفي معنىٰ: «الفرض» ثم ننظر -إن شاء الله- في معنىٰ: «فرض العين» وفي معنىٰ: «فرض الكفاية» حتىٰ نكون علىٰ بيِّنةٍ من الأمرِ.

قالَ الشوكانيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «الواجبُ في الاصطلاحِ: ما يُمدح فاعلُه، ويُذَمُّ تاركُه، علىٰ بعضِ الوجوهِ، ويرادفُه الفرضُ عند الجمهورِ، وقيل: الفرضُ ما كان دليلُه

(١) الحديثُ صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» رقم (١٨٣)، واستوفىٰ في «تخريج أحاديث مشكلة الفقر»، طرقَهُ بحثًا واستقراءً وتتبُّعًا، ثم قال: فالحديثُ بمجموع ذلك صحيحٌ بلا ريب عندي، ثم نقل عن العراقي تصحيحَ بعضِ الأئمة لبعضِ طرقه، ونقل تحسينَ المزي والسيوطي للحديث، ثم قال: «والتحقيق أنه صحيح، والله أعلم».
ثم قال: اشتهر الحديث في هذه الأزمنة بزيادة «مسلمة» ولا أصل لها ألبتة، وقد نبَّه علىٰ ذلك السخاوي فقال: قد ألحق بعضُ المصنفين بآخر هذا الحديث و «مسلمة»، وليس لها ذكرٌ في شيءٍ من طرقه، وإن كان معناها صحيحًا. انظر «تخريج أحاديث مشكلة الفقر»، للألباني (ص٤٨-٦٢).

قطعيًّا، والواجبُ ما كان دليلُه ظنيًّا، والأولُ أَوْلَىٰ»[١].

فالفرضُ عند الجمهورِ هو ما طلب الشارعُ فعله علىٰ وجهِ اللزومِ، بحيث يُذَمُّ تاركُه، ومع الذمِّ العقابُ، ويُمدح فاعلُه ومع المدحِ الثوابُ[٢].

والواجبُ وهو الفرضُ عند الجمهورِ ينقسم علىٰ: «واجبٍ عينيٍّ، وواجبٍ علىٰ الكفاية.

فالواجبُ العينيُّ هو: ما ينظر فيه الشارعُ إلىٰ ذاتِ الفاعلِ؛ كالصلاةِ والزكاةِ والصومِ لأنَّ كلَّ شخصٍ تلزمه بعينه طاعةُ الله ﷻ لقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وأمَّا الواجبُ علىٰ الكفاية: فضابطُه أنه ما ينظر فيه الشارعُ إلىٰ نفسِ الفعلِ، بقطعِ النظرِ عن فاعلِهِ؛ كدفنِ الميت، وإنقاذِ الغريقِ ونحو ذلك، فإنَّ الشارعَ لم ينظر إلىٰ عينِ الشخصِ الذي يدفنُ الميتَ أو ينقذُ الغريقَ، إذ لا فرقَ عنده في ذلك بين زيدٍ وعمرو، وإنما ينظر إلىٰ نفس الفعل الذي هو الدفنُ أو الإنقاذ مثلًا »[٣].

(١) «إرشاد الفحول إلىٰ تحقيق الحق من علم الأصول» للشوكاني.تحقيق الدكتور شعبان محمد إسماعيل (١/ ٥٠).

(٢) عند الأحناف أن «الفرض» غير «الواجب»، ويوجد في بعض كلام غير الحنفية التفريقُ بين الفرض والواجب، علىٰ قلَّةٍ، والجمهور علىٰ ترادف اللفظين، راجع في ذلك: «الإحكام في أصول الأحكام» للآمدي (١/ ١٣٩)، و«أصول الفقه» للشيخ محمد أبو النور زهير (١/ ٥٣)، و«الوجيز في أصول الفقه» لزيدان (ص٣١)، و«الواضح في أصول الفقه» (ص٢٤).

(٣) «مذكرة أصول الفقه» للشيخ العلَّامة محمد الأمين الشنقيطي (ص١٢).

فالواجبُ العينيُّ: هو ما توجَّه فيه الطلبُ اللازم إلىٰ كلِّ مكلَّفٍ، أي: هو ما طلب الشارعُ حصوله من كلِّ واحدٍ من المكلَّفين، فلا يكفي فيه قيامُ البعضِ دون البعضِ الآخرِ، ولا تبرأُ ذِمَّةُ المكلَّفِ منه إلا بأدائِهِ؛ لأنَّ قصدَ الشارع في هذا الواجبِ، لا يتحقَّق، إلا إذا فعله كلُّ مكلَّفٍ، ومن ثَمَّ يأثم تاركُه ويلحقه العقابُ، ولا يُغني عنه قيامُ غيره به.

فالمنظورُ إليه في هذا الواجبِ: الفعلُ نفسهُ والفاعلُ نفسهُ، ومثالُه: الصلاةُ، والصيامُ، والوفاءُ بالعقودِ، وإعطاءُ كلِّ ذي حقٍّ حقَّه.

والواجبُ علىٰ الكفاية: هو ما طلب الشارعُ حصولَه من جماعةِ المكلَّفين، لا من كلِّ فردٍ منهم؛ لأنَّ مقصودَ الشارعِ حصولُه من الجماعةِ، أي: إيجادُ الفعلِ لا ابتلاءُ المكلَّفِ، فإذا فعله البعضُ سقط الفرضُ عن الباقين؛ لأنَّ فعلَ البعضِ يقوم مقامَ فعلِ البعضِ الآخرِ، فكان التاركُ بهذا الاعتبار فاعلًا، وإذا لم يقم به أحدٌ أَثِمَ جميعُ القادرين؛ فالطلبُ في هذا الواجبِ منصبٌّ علىٰ إيجاد الفعل لا علىٰ فاعلٍ معيَّنٍ، أمَّا في الواجبِ العينيِّ فالمقصود تحصيلُ الفعل، ولكن من كلِّ مكلَّفٍ.

وإنما يأثم الجميعُ إذا لم يحصل الواجبُ الكفائيُّ؛ لأنه مطلوب من مجموعِ الأمةِ، فالقادر علىٰ الفعلِ عليه أن يفعله، والعاجزُ عنه عليه أن يَحُثَّ القادرَ، ويحمله علىٰ فعله، فإذا لم يحصل الواجبُ كان ذلك تقصيرًا من الجميع: من القادرِ، لأنه لم يفعله، ومن العاجزِ، لأنه لم يحمل القادرَ علىٰ فعلِهِ ويحثَّه عليه[1].

(١) «الوجيز في أصول الفقه» (ص٣٦).

وقد يئول واجبُ الكفايةِ إلىٰ أن يكون واجبًا عينيًّا، فلو كانت البلدَةُ مضطرةً إلىٰ قاضيين، وكان هناك عشرةٌ يصلحون للقضاءِ، فإنَّ تولِّيه واجبٌ كفائيٌّ علىٰ العشرةِ.

أمَّا إن لم يكن هناك غيرُ اثنين، فإنه يكون واجبًا عينيًّا عليهما(١).

*   *   *

(١) «الواضح في أصول الفقه» (ص٣٧).

رَجعٌ إلى حديثِ أنسٍ

عن أنسٍ ﵁ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**طَلَبُ العِلمِ فَريضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ**».

قال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللهُ في كتاب «جامع بيان العلم» بعد أن روىٰ هذا الحديثَ من عدَّةِ طرقٍ ذكرها: «قد أجمع العلماءُ علىٰ أنَّ من العلمِ ما هو فرضٌ متعيَّنٌ علىٰ كلِّ امرئٍ في خاصَّة نفسِه، ومنه ما هو فرضٌ علىٰ الكفايةِ إذا قام به قائمٌ سقط فرضُه عن أهلِ ذلك الموضعِ، واختلفوا في تلخيصِ ذلك.

والذي يلزم الجميعَ فرضُه من ذلك: ما لا يسعُ الإنسانَ جهلُه من جُملةِ الفرائضِ المفترضةِ عليه، نحو: الشهادةُ باللسانِ والإقرارُ بالقلب بأنَّ الله وحده لا شريك له، ولا شِبْهَ له ولا مِثلَ، لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كُفُوًا أحدٌ، خالقُ كلِّ شيءٍ، وإليه مرجعُ كلِّ شيءٍ، المحيي المميتُ، الحيُّ الذي لا يموتُ.

والذي عليه جماعةُ أهلِ السنةِ أنه لم يزل بصفاتِهِ وأسمائِهِ، ليس لأَوَّليَّته ابتداءٌ، ولا لآخريتِهِ انقضاءٌ، وهو علىٰ العرشِ استوىٰ.

والشهادةُ بأنَّ محمدًا ﷺ عبدُهُ ورسولُهُ، وخاتمُ أنبيائِهِ، حقٌّ، وأنَّ البعثَ بعد الموتِ للمجازاةِ بالأعمالِ، والخلودَ في الآخرة لأهلِ السعادةِ بالإيمانِ والطاعةِ في الجنةِ، ولأهل الشقاوةِ بالكفرِ والجحودِ في السعيرِ حقٌّ، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله، وما فيه حقٌّ من عند الله يجب الإيمانُ بجميعِهِ واستعمالُ مُحكَمِهِ، وأنَّ الصلواتِ

الخمسَ فرضٌ، ويلزمه من علمها علمُ ما لا تتمُّ إلا به من طهارتها وسائرِ أحكامها، وأنَّ صومَ رمضان فرضٌ، ويَلزَمُهُ علمُ ما يُفسِدُ صومَه وما لا يتمُّ إلا به، وإن كان ذا مالٍ وقدرةٍ علىٰ الحجِّ لزمه فرضًا أن يعرف ما تجب فيه الزكاةُ ومتىٰ تَجِبُ وفي كم تجبُ، ويلزمه أن يعلمَ بأنَّ الحجَّ عليه فرضٌ مرَّةً واحدةً في دهرِهِ إن استطاعَ إليه سبيلًا، إلىٰ أشياءَ يلزمُهُ معرفةُ جُمَلِهَا ولا يُعذر بجهلها، نحو: تحريمُ الزنا والربا، وتحريمُ الخمرِ والخنزيرِ وأكلِ الميتةِ والأنجاسِ كلِّها والغَصبِ والرِّشوةِ علىٰ الحكمِ والشهادةِ بالزُّورِ وأكلِ أموالِ الناسِ بالباطلِ وبغيرِ طِيبٍ من أنفسِهم إلا إذا كان شيئًا لا يُتَشَاحُّ فيه ولا يُرغَبُ في مثلِهِ، وتحريمُ الظُّلم كلِّه، وتحريمُ نكاحِ الأمهاتِ والأخواتِ ومَن ذُكر معهنَّ، وتحريمُ قتلِ النفسِ المؤمنةِ بغير حقٍّ، وما كان مثلَ هذا كلِّه مما قد نطقَ الكتابُ به وأجمعت الأمةُ عليه.

ثم سائر العلمِ وطلبِهِ والتفقُّهِ فيه وتعليمِ الناسِ إياه، وفتواهم به في مصالحِ دينهم ودنياهم فهو فرضٌ علىٰ الكفايةِ يلزم الجميعَ فرضُه، فإذا قام به قائمٌ سقط فرضُه عن الباقين، لا خلافَ بين العلماءِ في ذلك، وحجَّتُهُم فيه قولُ الله ﷻ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

فألزم النفيرَ في ذلك البعضَ دون الكلِّ، ثم ينصرفون فيُعلِّمون غيرهم، والطائفةُ في لسانِ العربِ: الواحدُ فما فوقه»[١].

(١) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (ص٥-٧).

وقد ساق ابن قدامة رَحِمَهُ اللَّهُ حديثَ أنسٍ رضي الله عنه في فرضيةِ طلبِ العلمِ، ثم قال: «قال المصنِّفُ -رحمه الله تعالىٰ-: اختلف الناسُ في ذلك:

فقال الفقهاءُ: هو علمُ الفقهِ؛ إذ به يُعرف الحلالُ والحرامُ.

وقال المفسِّرون والمحدِّثون: هو علمُ الكتابِ والسُّنَّةِ؛ إذ بهما يُتَوصَّلُ إلىٰ العلومِ كلِّها.

وقالت الصوفيةُ: هو علمُ الإخلاصِ وآفاتِ النفوسِ.

وقال المتكلِّمون: هو علمُ الكلامِ.

إلىٰ غير ذلك من الأقوالِ التي ليس فيها قولٌ مَرْضِيٌّ.

والصحيحُ: أنَّه علمُ معاملةِ العبدِ لربِّه.

والمعاملةُ التي كُلِّفَهَا [العبدُ] علىٰ ثلاثة أقسامٍ: اعتقادٌ، وفِعلٌ، وتركٌ.

فإذا بَلَغَ الصبيُّ، فأولُ واجبٍ عليه تَعَلُّمُ كلمتي الشهادةِ وفهمُ معناها وإن لم يحصل ذلك بالنظرِ والدليلِ، لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم اكتفىٰ من أجلاف العربِ بالتصديقِ من غيرِ تعلُّمِ دليلٍ، فذلك فرضُ الوقتِ، ثم يجب عليه النظرُ والاستدلالُ[1].

فإذا جاء وقتُ الصلاةِ وَجَبَ عليه تعلُّمُ الطهارةِ والصلاةِ، فإذا عاش إلىٰ رمضانَ وَجَبَ عليه تعلُّمُ الصومِ، فإن كان له مالٌ، وحال عليه الحَولُ وجب عليه تعلُّمُ الزكاةِ، وإن جاء وقتُ الحجِّ وهو مستطيعٌ وَجَبَ عليه تعلُّمُ المناسكِ.

(١) في وجوب هذا النظر نظر.

وأمَّا التروكُ: فهو بحسب ما يتجدَّد من الأحوالِ: إذ لا يجب علىٰ الأعمىٰ تعلُّمُ ما يَحرُمُ النظرُ إليه، ولا علىٰ الأبكمِ تعلُّمُ ما يَحرُم من الكلامِ، فإن كان في بلدٍ يُتعاطىٰ فيه شُرب الخمرِ ولُبسُ الحريرِ، وجب عليه أن يعرفَ تحريمَ ذلك.

وأمَّا الاعتقاداتُ: فيجب علمُهَا بحسبِ الخواطرِ، فإن خَطَرَ له شَكٌّ في المعاني التي تدلُّ عليها كلمتا الشهادةِ، وَجَبَ عليه تعلُّمُ ما يصل به إلىٰ إزالةِ الشكِّ، وإن كان في بلدٍ قد كَثُرَت فيه البدعُ، وَجَبَ عليه أن يتلقَّن الحقَّ، كما لو كان تاجرًا في بلدٍ شاع فيه الربا، وجب عليه أن يتعلَّمَ الحذرَ منه، وينبغي أن يتعلَّم الإيمانَ بالبعثِ والجنةِ والنَّارِ.

فبان بما ذكرنا أن المرادَ بطلبِ العلمِ الذي هو فرضُ عينٍ: ما يتعيَّنُ وجوبُهُ علىٰ الشخصِ.

وأما فرضُ الكفاية: فهو كلُّ علمٍ لا يُستغنىٰ عنه في قِوَامِ أمورِ الدنيا؛ كالطبِّ: إذ هو ضروريٌّ في حاجةِ بقاء الأبدانِ علىٰ الصحةِ،والحسابِ: فإنَّه ضروريٌّ في قسمةِ المواريث والوصايا وغيرها، فهذه العلومُ لو خَلا البلدُ عمَّن يقوم بها حَرِجَ أهلُ البلدِ، وإذا قامَ بها واحدٌ كفىٰ وسقط الفرضُ عن الباقين»[(١)].

قال شيخُ الإسلامِ: «وطلبُ العلمِ الشرعيِّ فرضٌ علىٰ الكفاية إلَّا فيما يتعيَّنُ؛ مثلُ طلبِ كلِّ واحدٍ علمَ ما أمره اللهُ به وما نهاه عنه، فإنَّ هذا فرضٌ علىٰ الأعيانِ»[(٢)].

(١) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة المقدسي، تحقيق علي حسن عبد الحميد (ص٢٤).
(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام (٢٨/ ٨٠).

والقاعدةُ: ما وَجَبَ عليك عملُهُ (فعلُهُ) وَجَبَ عليك تعلُّمُهُ.

تبيَّن مما سَبَقَ أنَّ من العلمِ ما هو فرضُ عينٍ، وهو ما لا يصحُّ اعتقادُ أحدٍ، ولا عبادتُه ولا معاملتُه إلا به، ومنه ما هو فرضُ كفايةٍ، وهو علمُ ما ليس مفروضًا عليه في الوقتِ، وقد قام به قائمٌ فسقطت فرضيتُه في الوقت عنه.

وهاهنا مسألتان عظيمتان:

المسألةُ الأولى: اختلافُ النَّاسِ في مُسَمَّى العلمِ

سبقت الإشارةُ قريبًا إلىٰ تنازعِ أهلِ العلومِ المختلفةِ في بيانِ ما هو العلمُ الفرضُ، وبان ادِّعَاءُ كلٍّ منهم أن ما هو آخذٌ به من علمٍ هو العلمُ الفرضُ.

والذي أدَّىٰ إلىٰ هذا الخلطِ: أنَّ المصطلحاتِ التي طرأت علىٰ العلوم المختلفة، استخدمت الألفاظَ التي كانت مستعملةً في الصدر الأولِ من غير مراعاةِ التطابقِ بين المعنىٰ الاصطلاحيِّ الحادث،والمعنىٰ الذي دلَّ عليه اللفظُ في الصدر الأولِ.

وإنه وإن كان لا مشاحَّةَ في الاصطلاحِ، إلا أنَّ عدمَ البيانِ والتفرقةِ بين ما اصطُلح عليه مؤخَّرًا، وما كان معمولًا به من قبل، أدَّىٰ إلىٰ خلطٍ عظيمٍ، ولفظُ «العلمِ» من هذا القبيلِ.

«فقد كان يُطلق -أي: لفظُ العلمِ- علىٰ العلمِ بالله تعالىٰ وبآياتِهِ، أي: نعمِهِ وأفعالِهِ في عبادِهِ، فخصُّوه وسمَّوا به في الغالبِ المناظِرَ في مسائلِ الفقهِ وإن كان جاهلًا بالتفسيرِ والأخبارِ»[1].

فينبغي للمسلم أن يحرِّرَ معانيَ الألفاظِ التي كان السلفُ يستعملونها تحريرًا تامًّا قبل أن يتلقَّىٰ باسمِها ما لا يَمُتُّ لها بصِلَةٍ من قريبٍ أو بعيدٍ حتىٰ لا يقعَ في خلطٍ عظيمٍ.

(١)«مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٨).

قال شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَمَن لم يَعْرِفْ لُغَةَ الصَّحَابَةِ الَّتِي كَانُوا يَتَخَاطَبُونَ بِهَا، وَيُخَاطِبُهُمْ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، وَعَادَتَهُمْ فِي الْكَلَامِ، وَإِلَّا حَرَّفَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ؛ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ يَنْشَأُ عَلَىٰ اصْطِلَاحِ قَوْمِهِ وَعَادَتِهِمْ فِي الْأَلْفَاظِ، ثُمَّ يَجِدُ تِلْكَ الأَلْفَاظَ فِي كَلَامِ اللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الصَّحَابَةِ، فَيَظُنُّ أَنَّ مُرَادَ اللهِ أَوْ رَسُولِهِ أَوْ الصَّحَابَةِ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ مَا يُرِيدُهُ بِذَلِكَ أَهْلُ عَادَتِهِ وَاصْطِلَاحِهِ، وَيَكُونُ مُرَادُ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالصَّحَابَةِ خِلَافَ ذَلِكَ.

وَهَذَا وَاقِعٌ لِطَوَائِفَ مِنْ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ الْكَلَامِ وَالْفِقْهِ وَالنَّحْوِ وَالْعَامَّةِ وَغَيْرِهِمْ، وَآخَرُونَ يَتَعَمَّدُونَ وَضْعَ أَلْفَاظِ الْأَنْبِيَاءِ وَأَتْبَاعِهِم عَلَىٰ مَعَانٍ أُخَرَ مُخَالِفَةٍ لِمَعَانِيهِمْ، ثُمَّ يَنْطِقُونَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ مُرِيدِينَ بِهَا مَا يَعْنُونَهُ هُمْ، وَيَقُولُونَ: إنَّا مُوَافِقُونَ لِلْأَنْبِيَاءِ!!

وَهَذَا مَوْجُودٌ فِي كَلَامِ كَثِيرٍ مِنْ الْمَلَاحِدَةِ الْمُتَفَلْسِفَةِ، والْإِسمَاعِيلِيَّة، وَمَنْ ضَاهَاهُمْ مِنْ مَلَاحِدَةِ الْمُتَكَلِّمَةِ وَالْمُتَصَوِّفَةِ...

وَمَنْ عَرَفَ الْأَنْبِيَاءَ وَمُرَادَهُمْ عَلِمَ بِالِاضْطِرَارِ أَنَّ هَذَا لَيْسَ هُوَ ذَاكَ»(١).

قال ابن القيم -رحمه الله تعالىٰ-: «غَلِطَ كثيرٌ من المتأخرين علىٰ أئمتهم بسببِ ذلك؛ حيث تورَّعَ الأئمةُ عن إطلاقِ لفظِ التحريم، وأطلقوا لفظَ الكراهةِ، فنفىٰ المتأخرون التحريمَ عمَّا أطلق عليه الأئمةُ الكراهةَ، ثم سَهُلَ عليهم لفظُ الكراهةِ وخفَّت مؤنتُه عليهم فحمله بعضهم علىٰ التنزيه، وتجاوز به آخرون إلىٰ كراهةِ

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (١/ ١٧٥) ط. دار الوفاء.

تركِ الأَوْلَىٰ، وهذا كثيرٌ جدًّا في تصرفاتهم، فحصل بسبَبِهِ غلطٌ عظيمٌ علىٰ الشريعةِ وعلىٰ الأئمةِ.

وقد قال الإمامُ أحمدُ في الجمعِ بين الأختين بملكِ اليمينِ: أكرهُهُ، ولا أقول هو حرامٌ، ومذهبُه تحريمه، وقال في رواية ابنه عبد الله: لا يعجبني أكل ما ذُبح للزُّهرةِ ولا الكواكبِ ولا الكنيسةِ، وكلِّ شيءٍ ذُبح لغيرِ الله، قال الله ﷻ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة:٣]، فتأمَّل كيف قال: «لا يُعجبني»، فيما نصَّ الله سبحانه علىٰ تحريمه، واحتَجَّ هو أيضًا بتحريمِ الله له في كتابهِ.

ومن هذا أيضًا: نصُّ الإمامِ الشافعيِّ علىٰ كراهةِ تزوُّجِ الرجلِ بنتَه من ماءِ الزنا، ولم يقل قطُّ إنه مباحٌ ولا جائزٌ، والذي يليق بجلالتِهِ وإمامتِهِ ومنصبِهِ الذي أحلَّه الله به من الدينِ أنَّ هذه الكراهةَ منه علىٰ وجهِ التحريمِ، وأطلق لفظ الكراهةِ لأنَّ الحرامَ يكرهه الله ورسولُه، وقد قال تعالىٰ عَقِيبَ ذكر ما حرَّمه من المحرمات من عند قولِهِ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ إلىٰ قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ إلىٰ آخر الآيات، ثم قال: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء:٢٣-٣٨].

وفي الصحيح: «**إنَّ الله ﷻ كَرِهَ لكم قِيلَ وقالَ، وكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وإضَاعَةَ المَالِ**»(١).

(١) أخرجه البخاري (١٤٠٧) وفي مواضع أخر من «صحيحه»، عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

فالسلفُ كانوا يستعملون الكراهةَ في معناها الذي استُعملت فيه في كلامِ الله ورسولِهِ، ولكنَّ المتأخِّرين اصطلحوا علىٰ تخصيصِ الكراهةِ بما ليس بمحرَّم، وتركُه أرجحُ من فعلِهِ، ثم حَمَلَ مَن حَمَلَ منهم كلامَ الأئمةِ علىٰ الاصطلاحِ الحادثِ، فَغَلِطَ في ذلك، وأقبحُ غلطًا منه مَن حَمَلَ لَفظَ: «الكراهة»، أو لفظَ: «لا ينبغي» في كلامِ الله ورسولِهِ علىٰ المعنىٰ الاصطلاحيِّ الحادث»[1].

«إنَّ من الواجبِ علىٰ أهلِ العلمِ أن يتنبَّهوا للمعاني الحديثةِ التي طرأت علىٰ الألفاظِ العربيةِ التي تحمل معاني خاصةً معروفةً عند العربِ، هي غير هذه المعاني الحديثةِ؛ لأنَّ القرآن نزل بلغةِ العربِ، فيجب أن تُفهم مفرداته وجُمَلُه في حدودِ ما كان يفهم العربُ الذين أُنزل عليهم القرآن، ولا يجوز أن تفسَّر بهذه المعاني الاصطلاحيةِ الطارئةِ التي اصطلح عليها المتأخِّرون، وإلا وقع المفسِّرُ بهذه المعاني في الخطأ، والتقوُّل علىٰ الله ورسولِهِ من حيث لا يشعر.

وقد تقدَّم مثلًا علىٰ ذلك لفظُ «الكراهة»، وإليك مثالًا آخر لفظ «السُّنَّة»؛ فإنه في اللغةِ: الطريقة، وهذا يشمل كلَّ ما كان عليهﷺ من الهدىٰ والنور فرضًا كان أو نفلًا، وأما اصطلاحًا: فهو خاصٌّ بما ليس فرضًا من هديهﷺ، فلا يجوز أن يفسَّر بهذا المعنىٰ الاصطلاحي لفظُ «السُّنَّة» الذي ورد في بعض الأحاديثِ الكريمةِ؛ كقولهﷺ: «...**وعَلَيكُم بِسُنَّتِي**...». وقولهﷺ: «...**فَمَن رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيسَ مِنِّي**...».

ومثلُه الحديثُ الذي يورده بعضُ المشائخِ المتأخِّرين في الحضِّ علىٰ التمسُّكِ

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم تحقيق رضوان جامع رضوان (١/ ٤٣).

بالسُّنةِ بمعناها الاصطلاحي، وهو: «**من ترك سنتي لـم تنله شفاعتي**» فأخطأوا مرتين:

الأولىٰ: نسبتُهم الحديثَ إلىٰ النبيِ ﷺ، ولا أصلَ له فيما نعلم.

الثانية: تفسيرهم للسنةِ بالمعنىٰ الاصطلاحيِّ، غفلةً منهم عن معناها الشرعيِّ، وما أكثر ما يُخطئ الناسُ فيما نحن فيه بسببِ مثل هذه الغفلةِ»[(١)].

«وقد كان العلمُ يُطلق علىٰ العلمِ باللهِ تَعَالَىٰ وبآياتِهِ؛ أي: نعمه وأفعاله في عباده، فخصُّوه وسمَّوا به في الغالبِ المناظِرَ في مسائلِ الفقه، وإن كان جاهلًا بالتفسيرِ والأخبارِ»[(٢)].

قال ابنُ رجبٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلمُ النافعُ هو ضبطُ نصوصِ الكتابِ والسُّنَّةِ، وفهمُ معانيها، والتقيُّدُ في ذلك بالمأثورِ عن الصحابةِ والتابعين وتابعيهم في معاني القرآنِ والحديثِ، وفيما وَرَدَ عنهم من الكلامِ في مسائلِ الحلالِ والحرامِ، والزهدِ، والرقائقِ والمعارفِ وغير ذلك، والاجتهادُ في تمييز صحيحِهِ من سقيمِهِ أوَّلًا، ثُمَّ الاجتهادُ في الوقوفِ علىٰ معانيه وتفهُّمِهِ ثانيًا.

وفي ذلك كفايةٌ لِمَنْ عَقَلَ، وشُغُلٌ لِمَنْ بالعلمِ النافعِ عُني واشتغل»[(٣)].

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَالْمُرَاد بِالْعِلْمِ: الْعِلْمُ الشَّرْعِيُّ الَّذِي يُفِيدُ مَا يَجِبُ عَلَىٰ الْمُكَلَّفِ مِنْ أَمْرِ دِينه فِي عِبَادَتِهِ، وَمُعَامَلَاتِهِ، وَالْعِلْمُ بِاللهِ وَصِفَاتِهِ،

(١) «تحذير الساجد» للألباني (ص٣٦).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة، تحقيق علي حسن عبد الحميد (ص٢٨).

(٣) «فضل علم السلف علىٰ الخلف» لابن رجب (ص٤٥).

وَمَا يَجِب لَهُ مِن الْقِيَامِ بِأَمْرِهِ ، وَتَنْزِيهِهِ عَن النَّقَائِصِ، وَمَدَارُ ذَلِكَ عَلَىٰ التَّفْسِيرِ، وَالْحَدِيثِ، وَالْفِقْهِ»[١].

* * *

(١) «فتح الباري» لابن حجر (١/ ١٤١).

المَسألةُ الثانيةُ: تقسيمُ العلومِ الشرعيةِ

العلومُ الشرعيةُ كلُّها محمودةٌ، ولكنَّ هذه العلومَ درجاتٌ ومناقلُ بعضها أولىٰ من بعضٍ.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلوم الشرعيةُ كلُّها محمودةٌ، وتنقسم إلىٰ أصولٍ، وفروعٍ، ومقدِّماتٍ، ومتمِّماتٍ:

فالأصولُ: كتابُ الله تعالىٰ، وسنةُ رسولِ اللهﷺ، وإجماعُ الأمةِ، وآثارُ الصحابةِ.

والفروعُ: ما فُهم من هذه الأصولِ من معانٍ تنبَّهت لها العقولُ حتىٰ فُهم من اللفظ الملفوظِ غيره، كما فُهم من قولِهِﷺ: «**لا يقضي القاضي وهو غضبانُ**»[1] أنه لا يقضي جائعًا.

والمقدماتُ: هي التي تجري مجرىٰ الآلاتِ؛ كعلمِ النحوِ واللغةِ، فإنهما آلةٌ لعلمِ كتاب الله وسنةِ رسولِهﷺ.

والمتمِّماتُ: كعلمِ القراءاتِ، ومخارجِ الحروفِ، وكالعلمِ بأسماء رجالِ الحديثِ وعدالتِهم وأحوالِهم، فهذه هي العلومُ الشرعيةُ، وكلُّها محمودةٌ»[2].

(١) متفق عليه: من حديث أبي بكرة رضي الله عنه بلفظ: «**لا يقضينَّ حكمٌ بين اثنين وهو غضبانُ**». أخرجه البخاري (٦٧٣٩)، ومسلم (١٧١٧).

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٦).

باب: بَيَان فَضلِ العلمِ والعُلَمَاءِ

تضافرت نصوصُ الكتابِ والسنَّةِ بما لا يُحصىٰ عِدَّةً، ولا يُستقصىٰ كثرةً، علىٰ بيانِ رفعةِ شأنِ العلمِ وأهلِهِ، والترغيبِ في النَّهلِ من مَعِينِهِ الصافي وسلسبيلِهِ العَذبِ الشافي.

وسوف أتعرَّض -إن شاء الله- لبيانِ بعضِهَا، مع التعليقِ الوجيزِ علىٰ ما مِن حقِّه التعليقُ والبيانُ.

أولاً: مِن نُصُوصِ الكِتَابِ العَزيزِ:

١- قال الله تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذه الآيةِ دليلٌ علىٰ فضلِ العلمِ وشرفِ العلماءِ وفَضلِهِم؛ فإنَّه لو كان أحدٌ أشرفَ من العلماءِ لقَرَنَهم الله باسمِهِ واسمِ ملائكتهِ كما قَرَنَ اسمَ العلماءِ.

وقال تعالىٰ في شرفِ العلمِ لنبيِّهِ ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤].

فلو كان شيءٌ أشرفَ من العلمِ لأمر الله تعالىٰ نبيَّهُ ﷺ أن يسأله المزيدَ منه كما أمر أن يستزيدَهُ من العلمِ»[1].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي، طبعة دار الحديث بالقاهرة (٤/ ٤٤).

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَرَنَ -تعالىٰ- شهادةَ ملائكتِهِ وأُولي العلم بِشهادتِهِ، فقال: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ وهذه خصوصيةٌ عظيمةٌ للعلماءِ في هذا المقام»[(١)].

وقال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ **بعد هذه الآيةِ**: «هذا يدلُّ علىٰ فَضلِ العلمِ وأهلِهِ من وجوهٍ:

أحدها: استشهادُهُم دونَ غيرهم من البشرِ.

والثاني: اقترانُ شهادَتِهِم بشهادتِهِ.

والثالثُ: اقترانُها بشهادةِ ملائكتِهِ.

والرابعُ: أنَّ في ضمنِ هذا تزكيَتَهُم وتعديلَهم، فإنَّ الله لا يَستَشهدُ مِن خَلقِهِ إلا العُدولَ، ومنه الأثرُ المعروفُ عن النبيِّ ﷺ: «**يَحمِلُ هَذَا العلمَ مِن كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنفُونَ عَنهُ تَحريفَ الغَالِينَ، وانتِحَالَ المبطِلينَ، وتَأويلَ الجَاهِلِينَ**»[(٢)].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٥٥٥).

(٢) ذكر ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تخريج الحديث في كتاب «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٩٧)، وذكر رَحِمَهُ اللَّهُ من طرقِ الحديث: ما رواه ابن عديٍّ في «الكامل» والخطيب في «شرف أصحاب الحديث»، والطبري، وابن أبي حاتم في «تقدمة الجرح والتعديل»، وتمامٌ في «فوائده» وذكر كذلك رواية القاضي إسماعيل.
ولا تخلو طريقٌ من طرق الحديث من مقالٍ، ولكن الحديث بمجموع تلك الطرق يرتقي إلىٰ رتبة الحسن -إن شاء الله-.
روىٰ الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص٢٩) عن مُهنَّا بن يحيىٰ قال: سألتُ أحمد =

وقال محمَّدُ بنُ أحمد بن يعقوبَ بن شيبة: رأيتُ رجلًا قدَّم رجلًا إلىٰ إسماعيلَ ابن إسحاقَ القاضي، فادَّعىٰ عليه دعوىٰ، فسأل المدَّعىٰ عليه؟ فأنكر، فقال للمدَّعي: ألك بيِّنةٌ؟ قال: نعم، فلانٌ وفلانٌ، قال: أمَّا فلانٌ فمن شهودي، وأمَّا فلانٌ فليس من شهودي، قال: فيعرفُهُ القاضي؟ قال: نعم، قال: بماذا؟ قال: أعرفه بِكَتَبِ الحديثِ، قال: فكيف تعرفُه في كَتَبِهِ الحديثَ؟ قال: ما علمتُ إلا خيرًا، قال: فإنَّ النبيَّ ﷺ قال: «**يَحمِلُ هذَا العِلمَ مِن كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ**» فَمَن عدَّلَهُ رسولُ الله ﷺ أولَىٰ ممَّن عدَّلتَهُ أنتَ، فقال: قُم فهاتِهِ، فقد قبلتُ شهادتَه[1].

الخامسُ: أنَّه وصفَهم بكونهم أُولي العلم، وهذا يدُلُّ علىٰ اختصاصِهم به، وأنهم أهلُهُ وأصحابُهُ، ليس بُمستعارٍ لهم.

السادسُ: أنَّه سبحانه استشهد بنفسِهِ، وهو أجلُّ شاهدٍ، ثم بخيارِ خلقِهِ وهم ملائكتُهُ والعلماءُ من عبادِهِ، ويكفيهم بهذا فضلًا وشرفًا.

=

-يعني ابن حنبل- عن حديث معاذ بن رفاعة عن إبراهيم [هذا] فقلت لأحمد: كأنه كلامٌ موضوعٌ، فقال: لا، هو صحيحٌ، فقلت له: ممن سمعته أنت؟ قال: من غير واحدٍ، قلت: مَن هم؟ قال: حدثني به مسكينٌ إلا أنه يقول: معاذ عن القاسم بن عبد الرحمن، قال أحمد: معاذ بن رفاعة لا بأس به.

قال الألباني: الحديث روي موصولًا من طريق جماعة من الصحابة، وصحَّح بعضَ طرقه الحافظُ العلائي في «بغية الملتمس» (ص٣)، مشكاة المصابيح (١/ ٨٣).

والعُدولُ جمعُ عَدْلٍ؛ وهو أن يكونَ الشاهدُ أو الراوي مسلمًا، بالغًا، عاقلًا، سليمًا من أسبابِ الفسقِ، وخوارمِ المروءةِ.

(١) أخرجه الخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (ص٣٠)

السابعُ: أنَّه استشهد بهم علىٰ أجلِّ مشهودٍ به وأعظمِهِ وأكبرِهِ، وهو شهادةُ أن لا إله إلا هُوَ، والعظيمُ القَدرِ إنما يَستشهدُ علىٰ الأمرِ العظيمِ أكابرَ الخلق وساداتِهم.

الثامنُ: أنَّه سبحانه جعل شهادتَهم حُجَّةً علىٰ المنكرين، فهم بمنزلةِ أدلَّتِهِ وبراهينِهِ الدالَّةِ علىٰ توحيدِه.

التاسعُ: أنَّه سبحانه أفردَ الفعلَ المتضمِّنَ لهذه الشهادةِ الصادرةِ منه ومن ملائكتهِ ومنهم، ولم يعطف شهادتَهم بفعلٍ آخرَ علىٰ شهادتهِ، وهذا يدلُّ علىٰ شِدَّةِ ارتباطِ شهادتهم بشهادتِهِ، فكأنه سبحانه شَهِدَ لنفسهِ بالتوحيدِ علىٰ ألسنتهم، وأنطقهم بهذه الشهادةِ، فكان هو الشاهدَ بها لنفسهِ إقامةً وإنطاقًا وتعليمًا، وهم الشاهدون بها له إقرارًا واعترافًا وتصديقًا وإيمانًا.

العاشرُ: أنه سبحانه جعلهم مُؤَدِّين لحقِّه عند عبادهِ بهذه الشهادةِ، فإذا أدَّوها فقد أدَّوا الحقَّ المشهودَ به، فثبت الحقُّ المشهودُ به، فوجب علىٰ الخلقِ الإقرارُ به، وكان ذلك غايةَ سعادتهم في معاشهم ومعادِهم، وكلُّ مَن نَالَهُ الهُدىٰ بشهادتهم، وأقرَّ بهذا الحقِّ بسبب شهادتهم، فلهم من الأجرِ مثلُ أجرِهِ.

وهذا فضلٌ عظيمٌ لا يدري قَدرَهُ إلا الله، وكذلك كلُّ مَن شهد بها عن شهادتهم فلهم من الأجرِ مثلُ أجرِهِ أيضًا، فهذه عشرةُ أوجهٍ في هذه الآية»[1].

قال الشوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسير الآيةِ الكريمة: «في ذلك فضيلةٌ لأهلِ العلمِ جليلةٌ، ومنقَبَةٌ نبيلةٌ؛ لقرنهم باسمه واسم ملائكته، والمرادُ بأُولي العلمِ هنا: علماءُ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم، تحقيق علي حسن عبد الحميد (١/ ٢١٩).

الكتابِ والسنة، وما يُتَوَصَّلُ به إلىٰ معرفتهما، إذ لا اعتدادَ بعلمٍ لا مدخلَ له في العلم الذي اشتمل عليه الكتابُ العزيزُ والسنةُ المطهَّرةُ»(١).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذه الآيةِ فضيلةُ العلمِ والعلماءِ؛ لأنَّ الله خصَّهم بالذِّكرِ، من دون البَشَرِ، وقَرَنَ شهادتَهم بشهادتِهِ، وشهادةِ ملائكتِهِ، وجعل شهادتَهم من أكبرِ الأدلَّةِ والبراهين علىٰ توحيدِه ودينِهِ وجزائِهِ، وأنه يجب علىٰ المكلَّفين قبولُ هذه الشهادةِ العادلةِ الصادقةِ.

وفي ضمن ذلك: تعديلُهم، وأنَّ الخلقَ تَبَعٌ لهم، وأنهم هم الأئمةُ المتبوعون، وفي هذا من الفضلِ والشرفِ، وعلُوِّ المكانةِ، ما لا يُقَادَرُ قَدرُهُ»(٢).

٢- وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر:٩].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّه سبحانه نفىٰ التسويةَ بين أهلِهِ وبين غيرهم، كما نفىٰ التسويةَ بين أصحابِ الجنةِ وأصحاب النَّارِ، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر:٩] كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الحشر:٢٠] وهذا يدُلُّ علىٰ غايةِ فضلِهم وشرفِهم»(٣).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الزَّجَّاجُ: أي: كما لا يستوي الذين يعلمون،

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (١/ ٣٢٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للسعدي (ص١٠٣).

(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢١).

والذين لا يعلمون، كذلك لا يستوي المطيعُ والعاصي، وقال غيرُهُ: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأمَّا مَن لم ينتفع بعلمِهِ ولم يعمل به، فهو بمنزلةِ مَن لم يعلم»(١).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ﴾، ربَّهم ويعلمون دينَه الشرعيَّ، ودينَه الجزائيَّ وما له في ذلك من الأسرارِ والحكمِ، ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، شيئًا من ذلك؟ لا يستوي هؤلاء ولا هؤلاء، كما لا يستوي الليلُ والنهارُ، والضياءُ والظلامُ، والماءُ والنارُ.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾، إذا ذكِّروا ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أهلُ العقولِ الزكيةِ الذكية، فهم الذين يُؤثرون الأعلىٰ علىٰ الأدنىٰ، فَيُوثرون العلمَ علىٰ الجهلِ، وطاعةَ الله علىٰ مخالفتِهِ، لأنَّ لهم عقولًا، ترشدهم للنظرِ في العواقبِ، بخلافِ مَن لا لُبَّ له ولا عقلَ، فإنه يتخذ إلهه هواه»(٢).

٣- وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الرعد:١٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «جَعَلَ -سبحانه- أهلَ الجهلِ بمنزلةِ العُميانِ الذين لا يُبصرون، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩]، فما ثَمَّ إلا عالـمٌ أو أعمىٰ، وقد وصف سبحانه أهلَ الجهلِ بأنهم صُمٌّ بُكمٌ عُميٌ في

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٥/ ٢٢٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٦٦٦).

غيرِ موضعٍ من كتابِهِ»[(١)].

وقال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَستوي مَن يعلم من النَّاسِ أنَّ الذي ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمدُ ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو الحقُّ الذي لا شكَّ فيه ولا مِريةَ، ولا لَبس فيه ولا اختلافَ فيه، بل هو كلُّه حقٌّ يصدِّق بعضُه بعضًا، لا يضادُّ شيءٌ منه شيئًا آخر، فأخبارُهُ كلُّها حقٌّ، وأوامره ونواهيه عدلٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار، وعدلًا في الطلبِ، فلا يستوي مَن تحقَّق صدقَ ما جئت به يا محمد، ومَن هو أعمىٰ لا يهتدي إلىٰ خيرٍ ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدَّقه ولا اتَّبعه، كقوله تعالىٰ: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]، وقال في هذه الآيةِ الكريمةِ: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: إنما يتعظُ ويعتبرُ ويعقلُ أولو العقولِ السليمةِ الصحيحةِ، جعلنا الله منهم»[(٢)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يقول تعالىٰ مفرِّقًا بين أهلِ العلمِ والعملِ وضدِّهم: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ ففَهِمَ ذلك، وعَمِلَ به: ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ لا يعلم الحقَّ، ولا يعمل به، فبينهما من الفَرقِ، كما بين السماء والأرضِ، فحقيقٌ بالعبدِ أن يتذكَّر ويتفكَّر، أيُّ الفريقين أحسنُ حالًا، وخيرٌ مآلًا، فيُؤثر طريقَها، ويَسلُكُ خلفَ فريقها، ولكن ما كلُّ أحدٍ يتذكَّر ما ينفعُهُ ويضرُّهُ ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي:

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٨٢٧).

أولو العقولِ الرزينةِ، والآراءِ الكاملةِ، الذين هم لُبُّ العالـمِ وصَفوَةُ بني آدم»[1].

٤- وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ [سبأ:٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر سبحانه عن أُولي العلمِ بأنهم يَرَونَ ما أُنزِل إليه من ربِّه حَقًّا، وجعل هذا ثناءً عليهم واستشهادًا بهم»[2].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لما ذكر تعالىٰ إنكارَ مَن أنكر البعثَ،وأنهم يرون ما أُنزل علىٰ رسولِه ليس بحقٍّ، ذكر حالةَ الموفَّقين من العبادِ، وهم أهلُ العلمِ، وأنهم يرون ما أنزل الله علىٰ رسولِه، من الكتابِ، وما اشتمل عليه من الأخبار، هو الحق، وما خالفه وناقضه فإنَّه باطلٌ، لأنهم وصلوا من العلمِ إلىٰ درجةِ اليقين.

ويرون أيضًا أنه في أوامرِهِ ونواهيهِ: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴾ وذلك لأنهم جزموا بصدقِ ما أخبر بها من وجوهٍ كثيرةٍ: من جهةِ علمهم، بصدقِ مَنْ أخبر بها.

ومن جهةِ موافقتِهَا للأمورِ الواقعةِ، والكتبِ السابقةِ.

ومن جهةِ ما يشاهدون من أخبارِها، التي تقع عيانًا.

ومن جهةِ ما يشاهدون من الآياتِ الدالَّةِ عليها في الآفاقِ، وفي أنفسِهم.

ومن جهةِ موافقتها، لما دلَّت عليه أسماؤهُ تعالىٰ وصفاتُهُ.

ويرون في الأوامرِ والنواهِي، أنها تهدي إلىٰ الصراطِ المستقيم، وبرِّ الوالدين،

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣٧١).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٢).

وصلة الأرحامِ والإحسانِ إلىٰ عمومِ الخلقِ، ونحو ذلك، وتنهىٰ عن كلِّ صفةٍ قبيحةٍ، تدنِّس النفسَ، وتُحبط الأجرَ، وتُوجب الإثمَ والوزرَ، من الشركِ، والزنا، والربا،والظلمِ في الدماءِ والأموالِ والأعراضِ.

وهذه منقبةٌ لأهلِ العلمِ وفضيلةٌ، وعلامةٌ لهم، وأنه كلما كان العبدُ أعظمَ علمًا وتصديقًا بأخبارِ ما جاء به الرسولُ، وأعظمَ معرفةً بحكمِ أوامرِهِ ونواهيه، كان من أهلِ العلمِ الذين جعلهم الله حُجَّةً علىٰ ما جاء به الرسولُ، واحتجَّ اللهُ بهم علىٰ المكذِّبين المعاندين، كما في هذه الآيةِ، وغيرها»(١).

٥- وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أهلُ الذِّكرِ: أهلُ القرآنِ وقيل: أهلُ العلمِ، والمعنىٰ متقاربٌ»(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أمَرَ سبحانه بسؤالِ أهل العلمِ، والرجوعِ إلىٰ أقوالِهم، وجعل ذلك كالشهادةِ منهم، فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]، وأهلُ الذِّكرِ هم أهلُ العلمِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٦٢١).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ١١٤).

بما أُنزل علىٰ الأنبياءِ»(١).

وقال السعديُّ: «يقول تعالىٰ لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾، أي: لستَ ببدعٍ من الرسلِ، فلم نُرسل قبلك ملائكةً، بل رجالًا كاملين لا نساءً، ﴿نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ﴾؛ من الشرائع والأحكامِ، ما هو من فضلِهِ وإحسانِهِ علىٰ العبيدِ، من غير أن يأتوا بشيءٍ من قِبَل أنفسِهم، ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ﴾، وعمومُ هذه الآية فيها مدحُ أهلِ العلمِ، وأنَّ أعلىٰ أنواعِهِ: العلمُ بكتابِ الله المنزَّلِ، فإنَّ الله أمر مَن لا يعلم بالرجوعِ إليهم في جميعِ الحوادثِ، وفي ضمنِهِ تعديلٌ لأهلِ العلمِ وتزكيةٌ لهم حيث أمرَ بسؤالهم، وأنَّه بذلك يخرج الجاهلُ من التَّبِعَةِ، فدلَّ علىٰ أنَّ الله ائتمنهم علىٰ وحيه وتنزيلِهِ، وأنهم مأمورون بتزكيةِ أنفسِهِم، والاتصافِ بصفاتِ الكمال.

وأفضلُ أهلِ الذِّكرِ: أهلُ هذا القرآنِ العظيمِ فإنهم أهلُ الذكر علىٰ الحقيقةِ، وأولىٰ من غيرهم بهذا الاسمِ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ﴾، أي: القرآن الذي فيه ذِكرُ ما يحتاج إليه العبادُ، من أمورِ دينهم ودنياهم، الظاهرةِ والباطنة، ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ﴾ وهذا شاملٌ لتبيين ألفاظِهِ، وتبيين معانيه، ﴿وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيه، فيستخرجون من كنوزِهِ وعلومِهِ، بحسبِ استعدادِهِم وإقبالهم عليه»(٢).

وقال عند تفسير قوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧]: «هذه الآيةُ وإن كان سببُها خاصًّا بالسؤالِ عن حالةِ الرسلِ المتقدمين من أهلِ الذِّكرِ، وهم أهلُ العلمِ، فإنها عامةٌ في كلِّ مسألةٍ من

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣٩٤).

مسائلِ الدينِ، أصولِهِ وفروعِهِ، إذا لم يكن عند الإنسانِ علمٌ منها، أن يسألَ مَن يعلمها، ففيه الأمرُ بالتعلُّمِ والسؤالِ لأهلِ العلم، ولم يؤمر بسؤالهم إلا لأنَّه يجب عليهم التعليمُ والإجابةُ عمَّا علموه.

وفي تخصيصِ السؤالِ بأهلِ الذكرِ والعلمِ، نهيٌ عن سؤالِ المعروفِ بالجهلِ، وعدم العلمِ، ونهيٌ له أن يتصدَّىٰ لذلك»[١].

٦- وقال تعالىٰ: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام:١١٤].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شَهِدَ سبحانه لأهلِ العلمِ شهادةً في ضمنها الاستشهادُ بهم علىٰ صحَّةِ ما أنزل الله علىٰ رسولِهِ، فقال تعالىٰ: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [الأنعام:١١٤]»[٢].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قل يا أيها الرسولُ: ﴿ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا ﴾ أحاكم إليه، وأتقيَّدُ بأوامرِهِ ونواهيهِ، فإنَّ غيرَ الله محكومٌ عليه، لا حاكمٌ، وكلُّ تدبيرٍ وحُكمٍ للمخلوقِ فإنه مشتملٌ علىٰ النقصِ، والعيب، والجورِ، وإنما الذي يجب أن يُتَّخَذَ حاكمًا، هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلقُ والأمرُ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٤٦٨).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٢).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ مُفَصَّلٗاۚ﴾، أي: مُوَضَّحًا فيه الحلالُ والحرامُ، والأحكامُ الشرعيةُ، وأصولُ الدِّينِ وفروعُهُ، الذي لا بيانَ فوق بيانِهِ، ولا برهانَ أجلىٰ من برهانِهِ، ولا أحسنَ منه حكمًا، ولا أقومَ قِيلًا؛ لأنَّ أحكامَهُ مشتملةٌ علىٰ الحكمةِ والرحمةِ.

وأهلُ الكتبِ السابقةِ من اليهودِ والنصارىٰ يعترفون بذلك: ﴿يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ ولهذا تواطأت الأخبارُ (فلا) تشكَّنَّ في ذلك، ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ﴾»[1].

٧- وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

قال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: وما يفهمُها ويتدبَّرُها إلا الراسخون في العلمِ المتضلعون منه، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا عليُّ بن الحسين، ثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا أبي، حدثنا سنان بن عمرو بن مُرَّةَ قال: ما مررتُ بآيةٍ من كتابِ الله لا أعرفها إلا أحزنني، لأني سمعتُ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾»[2].

وقال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر سبحانه عن أمثالِهِ التي يضربها لعبادِهِ، يدلُّهم علىٰ صحةِ ما أخبر به: أنَّ أهلَ العلمِ هم المنتفعون بها المختصُّون بعلمِهَا، فقال

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٢٣٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٦٨٣).

تعالىٰ: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾.

وفي القرآن بضعةٌ وأربعون مثَلًا، وكان بعضُ السَّلَفِ إذا مرَّ بمثلٍ لا يفهمُهُ، يبكي ويقولُ: لستُ من العَالِمين»(١).

وقال الشوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الأمثالُ التي في القرآنِ يضربُها الله للناسِ تنبيهًا لهم، وتقريبًا لما بَعُدَ من أفهامِهِم ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ أي: يفهمها، ويتعقَّل الأمرَ الذي ضربناها لأجلِهِ، ﴿إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ﴾ بالله الراسخون في العلم، المتدبِّرون المتفكِّرون لما يتلىٰ عليهم ويشاهدونه»(٢).

٨- وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه جعل صَيدَ الكلبِ الجاهلِ مَيتَةً يَحرُمُ أكلُها، وأباحَ صَيدَ الكلبِ المُعَلَّمِ، وهذا من شَرَفِ العلمِ: أنَّه لا يُباح إلا صيدُ الكلبِ العالِمِ، وأمَّا الكلبُ الجاهلُ فلا يَحِلُّ أكلُ صيدِهِ، فدلَّ علىٰ شرفِ العلمِ وفضلِهِ، ولولا مَزيَّةُ العلمِ والتعليمِ وشرفُهما كان صيدُ الكلبِ المعلَّم والجاهلِ سواءً»(٣).

وقال الشوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ﴾ أي: وأحلَّ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٦).
(٢) «زبدة التفسير من فتح القدير للشوكاني» (ص٥٢٦).
(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٣٥).

الله لكم صيدَ ما علَّمتم من الجوارحِ، وهي الكواسِبُ من الكلابِ والفهودِ وسائرِ السباعِ، وسباع الطيرِ، كالصقرِ والبازي».

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الكلبَ إذا لم يأكل من صيدِهِ الذي صاده، وأثَّر فيه بجرحٍ أو تنييبٍ، وصاد به مسلمٌ، وذكر اسم الله عند إرسالِهِ، فإنَّ صيدَهُ صحيحٌ يُؤكل بلا خلافٍ».

﴿مُكَلِّبِينَ﴾، المكلِّبُ: معلمُ الكلابِ لكيفيةِ الاصطيادِ، ومعلِّمُ سائرِ الجوارحِ مثلُه.

﴿تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾، بما خلقه فيكم من العقلِ الذي تهتدون به إلىٰ تعليمها وتدريبها حتىٰ تصير قابلةً لإمساكِ الطيرِ [وعلامةُ كونِ الكلبِ أصبح معلَّمًا بعد تدريبِهِ أن يمسكَ الصيدَ مرَّةً بعد أخرىٰ، ثم لا يأكلَ منه].

﴿فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾، فإن أكلَ منه فإنما أمسكه علىٰ نفسِهِ، فلا يَحِلُّ.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، علىٰ الجارحِ عند إرساله علىٰ الصيدِ، فإن تركَ الصائدُ التسميةَ فلا يحلُّ، إلا إذا تركتم ذلك نسيانًا [وإذا أدرك الصائدُ الصيدَ وفيه حياةٌ مستقرَّةٌ فليذبحه، وليسمِّ الله عليه][1].

٩- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه أخبرنا عن صفيِّه وكليمِهِ، الذي كتب له

---

(١) «زبدة التفسير» من «فتح القدير» للشوكاني (ص١٣٦).

التوراةَ بيدِهِ، وكلَّمه منه إليه، أنَّه رَحَلَ إلىٰ رجُلٍ عالمٍ يتعلَّم منه، ويزدادُ علمًا إلىٰ علمِهِ، فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠]، حرصًا منه علىٰ لقاء هذا العالمِ، وعلىٰ التعلُّمِ منه، فلمَّا لَقِيَهُ سَلَكَ معه مَسلَكَ المتعلِّمِ مع معلِّمِهِ، وقال له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦] فبدأه بعد السَّلام بالاستئذانِ علىٰ متابعتِهِ، وأنَّه لا يتَّبعُهُ إلا بإذنِهِ، وقال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فلم يجئ مُمتَحِنًا ولا مُتَعنِّتًا وإنما جاء متعلِّمًا مستزيدًا علمًا إلىٰ علمه، وكفىٰ بهذا فضلًا وشرفًا للعلم، فإن نبيَّ الله وكليمَهُ سَافر ورَحَلَ حتىٰ لَقِيَ النَّصَبَ من سَفَرِهِ في تعلُّم ثلاثِ مسائلَ من رجلٍ عالمٍ، ولما سمع به لم يَقَرَّ له قرارٌ حتىٰ لَقِيَهُ، وطَلَبَ منه مُتَابَعتَهُ وتعليمَهُ»[1].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

فيه مسألتان:

الأولىٰ: قولُه تعالىٰ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ هذا سؤالُ الملاطِفِ، والمخاطِبِ المستنزِلِ المبالغِ في حُسن الأدبِ، والمعنىٰ: هل يتفقُ لك ويخفُّ عليك؟

الثانيةُ: في هذه الآية دليلٌ علىٰ أنَّ المتعلِّمَ تَبَعٌ للعالِمِ وإن تفاوتت المراتبُ، ولا يُظَنُّ أنَّ في تعلُّمِ موسىٰ من الخضرِ ما يدلُّ علىٰ أنَّ الخضِرَ كان أفضلَ منه، فقد يشذُّ عن الفاضلِ ما يعلمه المفضولُ، والفضلُ لمن فضَّله الله، فالخضِرُ إن كان

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٣٥).

وَليًّا، فموسىٰ أفضلُ منه؛ لأنَّه نبيٌّ والنبيُّ أفضلُ من الوليِّ، وإن كان نبيًّا فموسىٰ فَضَلَه بالرسالةِ، والله أعلم»[(١)].

واستدلَّ القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **بقوله تعالىٰ:** ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَـٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾ [الكهف:٦٠] **علىٰ أنَّ من الفقهِ الرحلةَ في طلبِ العلمِ، فقال:** «في هذا من الفقهِ: رحلةُ العالمِ في طلبِ الازديادِ من العلمِ، والاستعانةُ علىٰ ذلك بالخادمِ والصاحبِ، واغتنامِ لقاءِ الفضلاءِ والعلماءِ وإن بَعُدَت أقطارُهم، وذلك كان دَأْبَ السَّلَفِ الصالحِ، وبسببِ ذلك وصل المرتحلون إلىٰ الحظِّ الراجحِ، وحصلوا علىٰ السعي الناجحِ فرسخت لهم في العلومِ أقدامٌ، وصحَّ لهم من الذِّكرِ والأجرِ والفضلِ أفضلُ الأقسامِ، قال البخاري: ورحل جابرُ بنُ عبد الله مسيرةَ شهرٍ إلىٰ عبد الله بن أُنيسٍ في حديثٍ»[(٢)].

وقال ابن كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦]، يخبر تعالىٰ عن قِيلِ موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ لذلك الرجلِ العالمِ، وهو الخَضِرُ، الذي خصَّه الله بعلمٍ لـم يطَّلع عليه موسىٰ، كما أنَّه أعطىٰ موسىٰ من العلمِ ما لـم يُعطِهِ الخضرِ.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾، سؤالُ تلطُّفٍ لا علىٰ وجهِ الإلزامِ والإجبارِ، وهكذا ينبغي أن يكون سؤالُ المتعلِّم من العالـمِ، وقولهُ: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾ أي: أصحبُك وأرافقُك، ﴿عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ أي: ممَّا علَّمك الله شيئًا أسترشِدُ به في أمري من

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/ ١٥).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/ ٢١).

علمٍ نافعٍ وعملٍ صالحٍ»(١).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالىٰ عن نبيِّه موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وشدَّةِ رغبتِهِ في الخيرِ وطلبِ العلمِ، أنَّه قال لفتاهُ، أي: خادمه الذي يلازمُهُ في حضرِهِ وسفرِهِ، وهو: يوشع بن نون، الذي نبَّأه الله بعد ذلك: ﴿لَآ أَبۡرَحُ حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾، أي: لا أزال مسافرًا وإن طالت عليَّ الشُّقةُ ولحقتني المشقَّةُ، حتىٰ أصل إلىٰ مجمعِ البحرين، وهو: المكان الذي أوحي إليه أنك ستجد فيه عبدًا من عباد الله العالِـمين، عنده من العلم، ما ليس عندك.

﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبٗا﴾، أي: مسافةً طويلةً، المعنىٰ: أنَّ الشوقَ والرغبةَ حملا موسىٰ علىٰ أن قال لفتاه هذه المقالةَ، وهذا عزمٌ منه جازمٌ، فلذلك أمضاه.

وفي هذه القصةِ العجيبةِ الجليلةِ من الفوائد، والأحكامِ، والقواعدِ، شيءٌ كثيرٌ، نُنبِّهُ علىٰ بعضِهِ بعونِ الله:

فمنها: فضيلةُ العلمِ، والرحلة في طلبهِ، وأنه أهمُّ الأمورِ؛ فإنَّ موسىٰ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رحَلَ مسافةً طويلةً، ولَقِيَ النَّصَبَ في طلبهِ، وتَرَكَ القعودَ عند بني إسرائيل، لتعليمهم وإرشادهم، واختار السفرَ لزيادة العلم علىٰ ذلك.

ومنها: البُدَاءَةُ بالأهمِّ فالأهم، فإنَّ زيادةَ العلمِ وعلمَ الإنسان، أهمُّ من تركِ ذلك والاشتغالِ بالتعليم، من دون تزوُّدٍ من العلمِ، والجمعُ بين الأمرين أكملُ.

ومنها: التأدُّبُ مع المعلمِ، وخطابُ المتعلِّمِ إياه ألطفَ خطاب، لقولِ موسىٰ

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ١٥٨).

عليه السلام: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ فأخرج الكلامَ بصورةِ الملاطفةِ والمشاورةِ، وأنَّك هل تأذن لي في ذلك أَمْ لا؟ وإقرارُه بأنَّه يتعلَّم منه، بخلافِ ما عليه أهلُ الجفاءِ أو الكبرِ، الذين لا يظهرون للمعلِّم افتقارَهم إلىٰ علمه بل يدَّعون أنهم يتعاونون هم وإياه، بل ربما ظنَّ أنَّه يعلِّم معلِّمَه، وهو جاهلٌ جدًّا، فالذُّلُّ للمعلِّمِ وإظهارُ الحاجةِ إلىٰ تعليمِهِ من أنفعِ شيءٍ للمتعلِّم.

ومنها: تواضعُ الفاضلِ للتعلُّمِ ممَّن دونه، فإنَّ موسىٰ بلا شكٍّ أفضلُ من الخضرِ.

ومنها: تعلُّمُ العالمِ الفاضلِ للعلمِ الذي لم يتمهَّر فيه مَّمن مَهَرَ فيه، وإن كان دونه في العلمِ بدرجاتٍ كثيرةٍ؛ فإنَّ موسىٰ عليه السلام من أولي العزمِ من الرُّسُلِ، الذين منحهم الله وأعطاهم من العلمِ ما لم يُعط سواهم، ولكن في هذا العلمِ الخاصِّ كان عند الخضِرِ ما ليس عنده؛ فلهذا حرص علىٰ التعلُّمِ منه.

فعلىٰ هذا، ينبغي للفقيه المحدِّث، إذا كان قاصرًا في علم النحوِ أو الصرفِ أو نحوهما من العلومِ، أن يتعلَّمه ممن مَهَرَ فيه، وإن لم يكن محدِّثًا ولا فقيهًا.

ومنها: إضافةُ العلمِ وغيرِهِ من الفضائلِ لله تعالىٰ، والإقرارُ بذلك، وشكرُ الله عليها، لقوله: ﴿تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ أي: مما علَّمك الله تعالىٰ.

ومنها: أنَّ العلمَ النافعَ هو العلمُ المرشدُ إلىٰ الخيرِ، فكلُّ علمٍ يكون فيه رُشدٌ وهدايةٌ لطريقِ الخيرِ، وتحذيرٌ من طريقِ الشرِّ، أو وسيلةٌ لذلك، فإنَّه من العلمِ النافعِ، وما سوىٰ ذلك فإمَّا أن يكون ضارًّا، أو ليس فيه فائدةٌ، لقولِهِ: ﴿أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

ومنها: أنَّ مَن ليس له قوةُ الصبرِ علىٰ صحبةِ العالِمِ والعلمِ، وحُسنِ الثباتِ علىٰ ذلك، أنَّه ليس بأهلٍ لتلقِّي العلمِ، فمن لا صبرَ له، لا يدرك العلمَ، ومَن استعمل الصبرَ ولازمه، أدرك به كلَّ أمرٍ سعىٰ فيه، لقولِ الخضرِ يعتذر عن موسىٰ بذكر المانعِ لموسىٰ من الأخذِ عنه: إنه لا يصبر معه.

ومنها: أنَّ السببَ الكبيرَ لحصولِ الصبرِ، إحاطة الإنسانِ علمًا وخبرةً، بذلك الأمرِ الذي أُمر بالصبرِ عليه، وإلا فالذي لا يدريه، أو لا يدري غايته ونتيجتَه، ولا فائدتَه، وثمرتَه، ليس عنده سببُ الصبرِ لقوله: ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴾ فجعل الموجبَ لعدمِ صبره، عدمَ إحاطتِهِ خُبرًا بالأمرِ.

ومنها: أنَّ المعلِّمَ إذا رأىٰ المصلحةَ في إيزاعِهِ للمتعلِّم، أن يترك الابتداءَ في السؤالِ عن بعضِ الأشياءِ، حتىٰ يكون المعلِّمُ هو الذي يوقفه عليها، فإنَّ المصلحةَ تُتَّبَعُ، كما إذا كان فهمهُ قاصرًا، أو نهاه عن الدقيقِ في سؤالِ الأشياء التي غيرها أهمُّ منها، أو لا يدركها ذهنُه، أو يسأل سؤالًا لا يتعلَّق بموضعِ البحثِ»[(١)].

١٠- وقال تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة:١١].

قال القرطبيُّ: «قولُه تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾ أي: في الثوابِ في الآخرةِ وفي الكرامةِ في الدنيا، فيرفع الله المؤمنَ علىٰ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٤٣٣).

مَن ليس بمؤمنٍ والعالمَ علىٰ مَن ليس بعالمٍ.

وقال ابن مسعودٍ ﵁: مدح الله العلماء في هذه الآيةِ.

والمعنىٰ: أنه يرفع الله الذين أوتوا العلمَ علىٰ الذين آمنوا ولـم يؤتوا العلمَ ﴿دَرَجَٰتٍ﴾، أي: درجات في دينهم إذا فعلوا ما أُمِرُوا به»(١).

وقال ابن القيمِ ؒ: «قد أخبر سبحانه في كتابهِ برفعِ الدرجاتِ في أربعةِ مواضعَ:

أحدها: هذا.

والثاني: قولُه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال:٢-٤].

والثالثُ: قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ﴾ [طه:٧٥].

والرابعُ: قولُه تعالىٰ: ﴿وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً﴾ [النساء:٩٥-٩٦].

فهذه أربعةُ مواضعَ، في ثلاثةٍ منها الرِّفعةُ بالدرجاتِ لأهلِ الإيمانِ، الذي هو العلمُ النافعُ والعملُ الصالحُ، والرابعُ الرِّفعةُ بالجهادِ، فعادت رِفعَةُ الدرجاتِ كلها

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٧/ ٢٨٥).

إلىٰ العلمِ والجهادِ اللَّذَين بهما قِوامُ الدِّين»(١).

وقال الشوكانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ﴾ في الدنيا والآخرةِ بتوفيرِ نصيبهم فيهما، ﴿وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾، أي: ويرفعُ الذين أُوتوا العلمَ منكم درجاتٍ عاليةً في الكرامةِ في الدنيا والثواب في الآخرةِ، فَمَن جَمَعَ الإيمانَ والعلمَ رفعه الله بإيمانِهِ درجاتٍ، ثم رفعه بعلمِهِ درجاتٍ، ومن جملةِ ذلك رَفعُهُ في المجالسِ»(٢).

١١- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه لمَّا أخبر ملائكته بأنَّه يريد أن يجعلَ في الأرضِ خليفةً، قالوا له: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠ وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٠-٣٢]. إلىٰ آخرِ قصة آدمَ، وأمرَ الملائكة بالسجودِ له، فأبىٰ إبليسُ فَلَعَنَهُ وأخرجَهُ من السماءِ.

وبيانُ فضلِ العلمِ من هذه القصةِ من وجوهٍ:

أحدها: أنَّه سبحانه ردَّ علىٰ الملائكةِ لما سألوا: كيف يجعل في الأرضِ مَن

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٤).

(٢) «زبدة التفسير» من «فتح القدير» (ص٧٢٧).

هم أطوعُ له منه؟ فقال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ فأجاب سؤالَهم بأنَّه يعلم من بواطنِ الأمورِ وحقائقها ما لا يعلمونه، وهو العليمُ الحكيمُ، فظهر من هذا الخليفةِ من خيار خلقهِ، ورسلِهِ، وأنبيائِهِ، وصالحي عبادِهِ، والشهداءِ، والصِّدِّيقين، والعلماء، وطبقاتِ أهل العلمِ والإيمانِ مَن هو خيرٌ من الملائكةِ، وظهر من إبليسَ مَن هو شرُّ العالمين، فأخرج سبحانه هذا وهذا، والملائكةُ لم يكُن لها علمٌ لا بهذا ولا بهذا، ولا بما في خَلقِ آدمَ وإسكانِهِ الأرضَ من الحِكَمِ الباهرةِ.

الثاني: أنَّه سبحانه لَّما أرادَ إظهارَ تفضيلِ آدمَ وتمييزِهِ وفضلهِ مَيَّزَهُ عليهم بالعلمِ، فعلَّمَهُ الأسماء كلَّها، ثمَّ عَرَضَهُم على الملائكةِ فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:٣١] جاء في التفسير أنهم قالوا: لن يخلقَ ربُّنا خلقًا هو أكرمُ عليه منَّا، فظنوا أنهم خيرٌ وأفضلُ من الخليفةِ الذي يجعله الله في الأرضِ، فلما امتحنهم بعلمِ ما علَّمه لهذا الخليفة أقرُّوا بالعجزِ، وجَهلِ ما لم يعلموه، فقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢] فحينئذٍ أظهر لهم فضلَ آدم بما خصَّهُ به من العلمِ، فقال: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ﴾ [البقرة:٣٣] أقرُّوا له بالفضلِ.

الثالثُ: أنَّه سبحانه لما أن عرَّفهم فَضلَ آدمَ بالعلمِ، وعَجزَهم عن معرفةِ ما علَّمه، قال لهم: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة:٣٣]، فعرَّفَهم سبحانه بالعلمِ، وأنَّه أحاط علمًا بظاهِرهم وباطِنهم، وبغيبِ السمواتِ والأرضِ، فتعرَّف إليهم بصفةِ العلمِ، وعرَّفهم فضلَ نبيِّه وكليمِهِ بالعلمِ، وعجزَهم عمَّا آتاه آدمَ من العلمِ، وكفىٰ به شرفًا للعلمِ.

الرابعُ: أنَّه سبحانه جَعَلَ في آدمَ من صفاتِ الكمالِ، ما كان به أفضلَ من غيرِهِ من المخلوقاتِ، وأراد سبحانه أن يُظهر لملائكتِهِ فضلَه وشرفَه، فأظهرَ لهم أحسنَ ما فيه وهو علمُهُ، فدلَّ على أنَّ العلمَ أشرفَ ما في الإنسانِ، وأنَّ فضلَه وشرفَه إنَّما هو بالعلمِ»[١].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾: «في هذه الآيةِ دليلٌ علىٰ فضلِ العلمِ وأهلِهِ، وفي الحديثِ: «**وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم**»[٢]، أي: تخضعُ وتتواضعُ، وإنما تفعل ذلك لأهلِ العلمِ خاصةً من بين سائر عمَّالِ الله؛ لأنَّ الله تعالىٰ ألزمها ذلك في آدمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فتأدَّبت بذلك الأدبِ.

فكلما ظهر لها علمٌ في بشرٍ خضعت له وتواضعت وتذلَّلت إعظامًا للعلمِ وأهلِهِ، ورضًا منهم بالطلبِ له والشغلِ به، هذا في الطُّلابِ منهم فكيف بالأحبارِ فيهم والربَّانيين منهم؟ جعلنا الله منهم وفيهم، إنه ذو فضل عظيمٍ»[٣].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ إلىٰ قوله: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة:٣٠-٣٤]، في هذه الآياتِ من العبرِ والآياتِ:

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٨).

(٢) بعضُ حديثٍ أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٠٧)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٣)، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٣)، ويأتي الحديثُ بطولِهِ -إن شاء الله- في نصوصِ السنة.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١/ ٣٠٢).

إثباتُ الكلامِ لله تعالىٰ، وأنه لم يزل متكلِّمًا، يقول ما يشاء، ويتكلَّم بما شاء، وأنَّه عليمٌ حكيمٌ، وفيه أنَّ العبدَ إذا خفيت عليه حكمةُ الله في بعضِ المخلوقاتِ والمأموراتِ فالواجبُ عليه التسليمُ، واتهامُ عقلِهِ، والإقرارُ لله بالحكمةِ، وفيه اعتناءُ الله بشأنِ الملائكةِ، وإحسانُهُ بهم، بتعليمهم ما جهلوا، وتنبيههم علىٰ ما لم يعلموه.

وفيه فضيلةُ العلمِ من وجوهٍ:

منها: أنَّ الله تعرَّفَ لملائكتهِ، بعلمِهِ وحكمتِهِ.

ومنها: أنَّ الله عرَّفهم فضلَ آدمَ بالعلمِ، وأنه أفضلُ صفةٍ تكون في العبدِ.

ومنها: أن الله أمرهم بالسجودِ لآدمَ؛ إكرامًا له، لمَّا بانَ فضلُ علمهِ.

ومنها: أنَّ الامتحانَ للغيرِ إذا عجزوا عما امتُحنوا به، ثم عرفه صاحبُ الفضيلةِ فهو أكملُ مما عرفه ابتداءً.

ومنها: الاعتبارُ بحالِ أبوي الإنسِ والجنِّ، وبيانُ فضلِ آدمَ، وأفضالِ الله عليه، وعداوةِ إبليسَ له»[(١)].

١٢-وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٥٥].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما أراد الله إظهارَ فضلِ يوسف وشرفِهِ علىٰ أهلِ زمانِهِ كلِّهم، أظهر للملكِ وأهلِ مصرَ مِن علمِهِ بتأويلِ رُؤيَاهُ ما عجز عنه علماءُ التعبيرِ[(٢)] فحينئذ قدَّمَهُ، ومكَّنَه، وسلَّم إليه خزائنَ الأرضِ، وكان قبل ذلك قد حَبَسَهُ علىٰ ما

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣١).

(٢) التعبير: تأويل الأحلام، وتفسير الرؤىٰ.

رآه من حُسنِ وجهِهِ، وجمالِ صورتِهِ، ولَّما ظهر له حُسنُ صورةِ علمِهِ، وجمالُ معرفتِهِ، أطلقه من الحبسِ، ومكَّنَه من الأرضِ، فدلَّ علىٰ أنَّ صورةَ العلمِ عند بني آدمَ أبهىٰ وأحسنُ من الصورة الحسيَّةِ، ولو كانت أجملَ صورةٍ»(١).

١٣- وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر سبحانه أنَّ أهلَ العلمِ هم أهلُ خشيتِهِ، بل خصَّهم من بين الناسِ بذلك، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. وهذا حصرٌ لخشيته في أُولي العلم»(٢).

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ أي: إنَّما يخشاه حقَّ خشيتِهِ العلماءُ العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت المعرفة للعظيم، القديرِ، العليمِ، الموصوفِ بصفاتِ الكمالِ، المنعوتِ بالأسماء الحسنىٰ، كلَّما كانت المعرفةُ به أتمَّ، والعلمُ به أكملَ، كانت الخشيةُ له أعظمَ وأكثرَ»(٣).

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾. يعني بالعلماءِ: الذين يخافون قدرتَه، فمن عَلِمَ أنه عَزَّ وَجَلَّ قديرٌ أيقن بمعاقبته علىٰ المعصيةِ، كما رَوىٰ عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباسٍ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾. قال: الذين علموا أن الله علىٰ كل شيء قديرٌ.

وقال الربيعُ بنُ أنسٍ: مَن لم يَخشَ الله فليس بعالِمٍ، وقال مجاهدٌ: إنَّما العالمُ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٩).
(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٥).
(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٩١٣).

مَن خشي الله ﷻ، وعن ابن مسعودٍ ﷺ: كفىٰ بخشية الله تعالىٰ علمًا، وبالاغترارِ جهلًا»[(١)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، فكلُّ مَن كان بالله أعلمَ، كان أكثرَ له خشيةً، وأوجبت له خشيةُ الله الانكفافَ عن المعاصي، والاستعدادَ للقاءِ مَن يخشاه، وهذا دليلٌ علىٰ فضيلة العلمِ، فإنَّه داعٍ إلىٰ خشيةِ الله، وأهلُ خشيتِهِ هم أهل كرامتِه كما قال تعالىٰ: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ [البينة:٨]. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ كاملُ العزَّةِ، ومن عِزَّته: خَلقُ هذه المخلوقاتِ المتضاداتِ ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبِ التائبين»[(٢)].

وقال القاسميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]، تكملةٌ لقولهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ [فاطر:١٨] بتعيين مَن يخشاه ﷻ من الناسِ، بعد بيانِ اختلافِ طبقاتِهم، وتباين مراتبِهم، أمَّا في الأوصافِ المعنويةِ فبطريقِ التمثيل، وأمَّا في الأوصافِ الصوريةِ فبطريقِ التصريحِ، توفيةً لكلٍّ واحدةٍ منهما حقَّها اللائقَ من البيانِ.

أي: إنما يخشاه تعالىٰ بالغيب العالمون به ﷻ، وبما يليق به من صفاتِهِ الجليلةِ وأفعالِه الجميلةِ، لما أنَّ مدارَ الخشيةِ معرفةُ المخشيِّ والعلمُ بشئونهِ، فمن كان أعلمَ به تعالىٰ، كان أخشىٰ منه ﷻ، كما قال –عليه الصلاة والسلام–: «**أنَا أخشاكُم لله**

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٤/ ٣٣١).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٦٣٥).

وأتقَاكُم لَهُ»[(١)] ولذلك عقَّب بذكرِ أفعالِهِ الدالَّةِ علىٰ كمالِ قدرتِهِ، وحيث كان الكفرةُ بمعزلٍ من هذه المعرفةِ، امتنع إنذارُهُم بالكليَّةِ، أفاده أبو السعود.

وقال القاشانيُّ: أي: ما يخشىٰ الله إلا العلماءُ العرفاءُ به، لأنَّ الخشيةَ ليست هي خوفَ العقابِ، بل هيئةٌ في القلبِ خشوعيةٌ انكساريةٌ عند تصوُّرِ وصفِ العظمةِ واستحضارِهِ لها، فمَن لم يتصور عظمته لم يمكنه خشيتُه، ومَن تجلَّىٰ الله له بعظمته، خشيه حقَّ خشيته، وبين الحضورِ التصوُّريِّ للعالمِ غيرِ العارفِ، وبين التجلِّي الثابتِ للعالمِ العارفِ بونٌ بعيدٌ، ومراتبُ الخشيةِ لا تُحصىٰ بحسب مراتبِ العلمِ والعرفانِ»[(٢)].

١٤- وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ [القصص:٨٠].

قلتُ: لمَّا خرج قارونُ علىٰ قومِهِ في زينتِهِ، وتمنَّىٰ مَن تمنَّىٰ من قومه أن يكون مكانَهُ، عَصَمَ اللهُ أهلَ العلمِ أن يغترُّوا بالظاهرِ الفاسدِ، فلم تتحرَّك في قلوبهم أمنيةٌ، ولم تبدُر في أفئدتهم بوادرُ شهوةٍ، ولم يودُّوا أن يكونوا مثله، فضلًا عن أن يكونوا مكانه، بل بَلَغَ أمرُهُم في عدمِ اغترارِهم بظاهرِهِ المموَّهِ، أنهم كانوا يقظين لأنفسهم ولمن حولهم، فردُّوا القولَ علىٰ مَن تمنَّىٰ مكانَه، يُفهِمونَهُ أنَّ ثوابَ الله خيرٌ وأبقىٰ، ولمَّا وَقَعَ الخَسفُ بعد ذلك كانت عصمةُ الله لأهلِ العلم بعلمهم مُنجيةً لهم من أن يقعوا في النَّدمِ الذي وقع فيه مَن تمنَّىٰ ما تمنَّىٰ من قبلُ ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾.

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٧٧٦).

(٢) «محاسن التأويل» للقاسمي (٨/ ١٦٧).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿فَخَرَجَ﴾ ذاتَ يومٍ ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦٓ﴾ أي: بحالةٍ أرفع ما يكون من أحوالِ دنياه، وقد كان له من الأموالِ ما كان، وقد استعدَّ وتجمَّل بأعظمِ ما يمكنه، وتلك الزينةُ في العادةِ من مثلِهِ تكون هائلةً، جمعت زينةَ الدنيا وزهرتَها وبهجتَها وغضارتَها وفخرَهَا، فرمقته في تلك الحالةِ العيونُ، وملأت بِزَّتُهُ القلوبَ، واختلبت زينتُه النفوسَ، فانقسم فيه الناظرون قسمين، كلٌّ تكلَّم بحسب ما عنده من الهمَّةِ والرغبةِ.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾، أي: الذين تعلَّقت إرادتُهم فيها، وصارت منتهىٰ رغبتهم، ليس لهم إرادةٌ في سواها، ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾، من الدنيا ومتاعِها، وزهرتها، ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

وصدقوا إنَّه لذو حظٍّ عظيمٍ، لو كان الأمرُ منتهيًا إلىٰ رغباتهم، وأنَّه ليس وراء الدنيا دارٌ أخرىٰ، فإنه قد أُعطي منها ما به غايةُ التنعُّمِ بنعيم الدنيا، واقتدر بذلك علىٰ جميعِ مطالبِهِ، فصار هذا الحظُّ العظيمُ، بحسب هِمَّتهم، وإنَّ همَّةً جعلت هذا غايةَ مرادِها، ومنتهىٰ مطلبِها لمن أدنىٰ الهممِ، وأسفلها، وأدناها، وليس لها أدنىٰ صعودٍ إلىٰ المراداتِ العاليةِ، والمطالب الغاليةِ.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾، الذين عرفوا حقائقَ الأشياءِ، ونظروا إلىٰ باطنِ الدنيا، حين نظر أولئك إلىٰ ظاهرها: ﴿وَيْلَكُمْ﴾ متوجِّعين مما تمنَّوا لأنفسهم، رائين لحالهم مُنكرين لمقالهم.

﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ العاجلُ، من لَذَّةِ العبادةِ، ومحبَّته، والإنابةِ إليه، والإقبالِ عليه،

والآجلُ من الجنةِ، وما فيها، مما تشتهيه الأنفسُ، وتلذُّ الأعينُ: ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ من هذا الذي تمنَّيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقةُ الأمرِ، ولكن ما كلُّ مَن يعلم ذلك يُقبل عليه، فما يُلَقَّىٰ ذلك ويوفَّق له ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ الذين حبسوا أنفسهم علىٰ طاعةِ الله، وعن معصيتِهِ، وعلىٰ أقدارِهِ المؤلمةِ، وصبروا علىٰ جواذِبِ الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم، وبين ما خُلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثوابَ الله علىٰ الدنيا الفانيةِ.

فلما انتهت بقارونَ حالةُ البغي والفخرِ، وازَّيَّنَت الدنيا عنده، وكَثُرَ بها إعجابُهُ، بَغَتَهُ العذابُ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ جزاءً من جنسِ عملِهِ، فكما رفعَ نفسَه علىٰ عبادِ الله، أنزله الله أسفلَ سافلين، هو وما اغترَّ به؛ من دارِهِ، وأثاثِهِ، ومتاعِهِ.

﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أي: جماعةٍ، وعصبةٍ، وخَدَمٍ، وجنودٍ ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: جاءه العذابُ، فما نُصر، ولا انتصر.

﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ﴾، أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾، ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوعِ العذابِ بهم: ﴿وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيِّقُ الرزقَ علىٰ مَن يشاء، فعلمنا حينئذٍ، أن بسطَهُ لقارونَ، ليس دليلًا علىٰ خيرٍ فيه، وأننا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

و﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا علىٰ ما قلنا، فلولا فضلُه ومنَّتُهُ ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاكُ قارون، عقوبةً له، وعبرةً وموعظةً لغيره، حتىٰ إنَّ الذين غبطوه، سمعتَ كيف ندموا وتغيَّر فكرهم الأول، ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: لا في

الدنيا ولا في الآخرة»[١].

١٥- وقال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

قال في عمدة التفسير: «قوله تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ قال ابن عباسٍ: يعني المعرفةَ بالقرآنِ، ناسخِهِ ومنسوخِهِ، ومحكمِهِ ومتشابهِهِ، ومقدَّمه ومؤخَّره، وحلالِهِ وحرامِهِ وأمثالِهِ.

وقال مجاهدٌ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ﴾ ليست بالنبوةِ، ولكنَّه العلمُ والفقهُ والقرآنُ، وقال مالكٌ: إنه ليقع في قلبي أنَّ الحكمةَ هو الفقهُ في دينِ الله، وأمرٌ يُدخلُه الله في القلوبِ من رحمتِهِ وفضلِهِ، ومما يبيِّن ذلك: أنك تجد الرجلَ عاقلًا في أمرِ الدنيا ذا نظرٍ فيها، وتجد آخرَ ضعيفًا في أمرِ دنياه، عالِمًا بأمر دينه، بصيرًا به، يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا، فالحكمةُ: الفقهُ في دينِ الله.

والصحيحُ: أنَّ الحكمةَ -كما قاله الجمهورُ- لا تختصُّ بالنبوَّةِ، بل هي أعمُّ منها، وأعلاها النبوةُ، والرسالةُ أخصُّ، ولكنْ لأَتباعِ الأنبياءِ حظٌّ من الخيرِ علىٰ سبيلِ التَّبَعِ»[٢].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ يقال: إنَّ من أُعطي الحكمةَ والقرآنَ فقد

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٥٧٤).

(٢)«عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير»، لأحمد محمد شاكر (٢/ ١٨١).

أُعطي ما أُعطي مَن جَمَعَ علم كتب الأوَّلين من الصحفِ وغيرها، لأنَّه قال لأولئك: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]، وسمَّىٰ هذا خيرًا كثيرًا؛ لأنَّ هذا هو جوامعُ الكلمِ.

وقال بعضُ الحكماء: مَن أُعطي العلمَ والقرآنَ ينبغي أن يعرف نفسَه، ولا يتواضع لأهلِ الدنيا لأجل دنياهم؛ فإنما أُعطي أفضلَ مما أُعطي أصحابُ الدنيا؛ لأنَّ الله تعالىٰ سمَّىٰ الدنيا متاعًا قليلًا، فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء:٧٧]، وسمَّىٰ العلمَ والقرآنَ ﴿خَيْرًا كَثِيرًا﴾»(١).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شَهِدَ الله سبحانه لمن آتاه العلمَ بأنَّه قد آتاه خيرًا كثيرًا، فقال تعالىٰ: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قال ابن قُتيبَةَ والجمهورُ: الحكمةُ: إصابةُ الحقِّ، والعملُ به، وهي العلمُ، النافعُ والعملُ الصالحُ»(٢).

وقد ذكر الله تعالىٰ الحكمةَ في عِدَّةِ مواضعَ مقرونةً بالكتابِ العزيزِ في مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة:٢٣١]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب:٣٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣]، ومن أجل هذا الاقترانِ ذكر بعضُ أهلِ العلم أنَّ الحكمةَ في هذه

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٣/ ٣٣١).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٧).

المواضعِ هي: «السُّنَّةُ»، وهو اختيارُ الشافعيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قال: «ذكر الله الكتابَ، وهو القرآن، وذكر الحكمةَ، فسمعتُ مَن أرضىٰ من أهلِ العلمِ بالقرآنِ يقول: الحكمةُ سنةُ رسولِ الله ﷺ، وهذا يشبه ما قال، والله أعلم؛ لأنَّ القرآنَ ذُكر وأُتبِعَته الحكمةُ، وذكر الله مَنَّهُ علىٰ خَلقِهِ بتعليمهم الكتابَ والحكمةَ، فلم يَجُز -والله أعلم- أن يقال: الحكمةُ، هاهنا، إلا سنة رسول الله.

وذلك أنها مقرونةٌ مع كتابِ الله، وأنَّ الله افترض طاعةَ رسولِه وحتَّم علىٰ الناسِ اتباعَ أمره فلا يجوز أن يقالَ لقولٍ: فرضٌ، إلا كتاب الله ثم سنة رسوله ﷺ»[(١)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لما ذكر -تعالىٰ- أحوالَ المنفقين للأموالِ، وأنَّ الله أعطاهم، ومَنَّ عليهم بالأموالِ التي يدركون بها النفقاتِ في الطرقِ الخيرية، وينالون بها المقاماتِ السنيةَ، ذكر ما هو أفضلُ من ذلك، وهو أنه يعطي الحكمة مَنْ يشاء من عبادهِ، ومن أراد بهم خيرًا من خلقه.

والحكمةُ هي العلومُ النافعةُ، والمعارفُ الصائبةُ، والعقولُ المسدَّدةُ، والألبابُ الرزينةُ، وإصابةُ الصوابِ في الأقوالِ والأفعالِ، وهذا أفضلُ العطايا، وأجلُّ الهِبَاتِ، ولهذا قال: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؛ لأنَّه خرج من ظلمةِ الجهالاتِ إلىٰ نورِ الهدىٰ، ومن حُمقِ الانحرافِ في الأقوالِ والأفعالِ، إلىٰ إصابةِ الصوابِ فيها، وحصولِ السَّدَادِ، ولأنَّه كَمَّلَ نفسَه بهذا الخيرِ العظيمِ، واستعدَّ لنفعِ

(١) «الرسالة» للإمام المطلبي محمد بن إدريس الشافعي، تحقيق أحمد محمد شاكر (ص٧٦)، وانظر: «ضوابط الرواية عند المحدِّثين» رسالة التخصص في علم الحديث لمحمد بن سعيد ابن رسلان (ص٢٠).

الخلقِ أعظمَ نفعٍ، في دينهم ودنياهم.

وجميعُ الأمورِ لا تصلح إلا بالحكمةِ، التي هي وضعُ الأشياء في مواضعِها، وتنزيلُ الأمورِ منازِلها، والإقدامُ في محلِّ الإقدامِ، والإحجامُ في موضعِ الإحجامِ.

ولكن، ما يتذكَّر هذا الأمرَ العظيمَ، وما يعرف قَدْرَ هذا العطاءِ الجسيم: ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وهم أهلُ العقولِ الوافيةِ، والأحلامِ الكاملةِ، فهم الذين يعرفون النافعَ فيعملونه، والضارَّ فيتركونه»(١).

١٦- وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مدح سبحانه أهلَ العلمِ، وأثنىٰ عليهم، وشرَّفهم بأن جَعلَ كتابَهُ آياتٍ بيِّناتٍ في صدورهم، وهذه خاصِّيةٌ ومَنقَبَةٌ لهم دون غيرهم.

وسواءٌ كان المعنىٰ أنَّ القرآنَ مستقرٌّ في صدور الذين أوتوا العلمَ، ثابتٌ فيها، محفوظٌ، وهو في نفسهِ آياتٌ بيِّناتٌ، فيكونُ قد أخبر عنه بخبرين:

أحدُهُما: أنَّه آياتٌ بيِّناتٌ.

الثاني: أنَّه محفوظٌ، مستقِرٌّ، ثابتٌ في صدورِ الذين أوتوا العلمَ.

أو كان المعنىٰ: أنَّه آياتٌ بيِّناتٌ في صدورِهم، أي: كونُهُ آياتٍ بيِّناتٍ معلومٌ لهم، ثابتٌ في صدورِهم، والقولان متلازمان، ليسا بمختلفين.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٩٥).

وعلىٰ التقديرين: فهو مدحٌ لهم، وثناءٌ عليهم، في ضمنِهِ الاستشهادُ بهم»[١].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ يعني: القرآن.

قال الحسنُ: أُعطيت هذه الأمةُ الحفظَ، وكان مَن قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظرًا، فإذا أطبقوه لم يحفظوا ما فيه إلا النبيون، فقال كعبٌ في صفةِ هذه الأمةِ: إنهم حكماءُ علماءُ. ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ أي: ليس هذا القرآنُ كما يقوله المبطلون من أنَّه سحرٌ أو شِعرٌ، ولكنه علاماتٌ ودلائلُ يُعرف بها دينُ الله وأحكامُهُ، وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلمَ، وهم أصحابُ محمَّدٍ ﷺ والمؤمنون به، يحفظونه ويقرءونه، ووصفَهم بالعلمِ؛ لأنهم ميَّزوا بأفهامهم بين كلامِ الله وكلام البشرِ والشياطين»[٢].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي: هذا القرآن ﴿ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ﴾ لا خَفِيَّاتٌ ﴿فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ وهم سادةُ الخلقِ، وعقلاؤهم، وأولو الألباب منهم، والكُمَّلُ منهم.

فإذا كان آياتٍ بيناتٍ، في صدور أمثالِ هؤلاء، كانوا حُجَّةً علىٰ غيرهم، وإنكارُ غيرهم لا يضرُّ، ولا يكون ذلك إلا ظلمًا، ولهذا قال: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ لأنه لا يجحدها إلا جاهلٌ تكلَّم بغيرِ علمٍ، ولم يقتد بأهلِ العلمِ ومَن وهو متمكِّنٌ من معرفتِهِ علىٰ حقيقتِهِ، أو متجاهِلٌ عَرف أنه حقٌّ فعانده،

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٣).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٣/ ٣٦٧).

وعَرف صدقَه فخالفه»(١).

١٧- قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ [العصر:١-٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الشافعي رضي الله عنه: لو فكَّرَ الناسُ كلُّهم في هذه السورةِ لكَفَتْهم.

وبيانُ ذلك أن المراتبَ أربعٌ، وباستكمالها يحصلُ للشخصِ غايةُ كمالِهِ.

إحداها: معرفةُ الحقِّ.

الثانيةُ: عملُهُ به.

الثالثةُ: تعليمُهُ مَن لا يحسنُهُ.

الرابعةُ: صبرُهُ علىٰ تعلُّمِهِ، والعملِ به، وتعليمِهِ.

فذكر تعالىٰ المراتبَ الأربعَ في هذه السورةِ، وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصرِ أنَّ كلَّ أحدٍ في خُسرٍ، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ، وهم الذين عَرفوا الحقَّ وصدَّقوا به، فهذه مرتبةٌ.

وعملوا الصالحاتِ؛ وهم الذين عَمِلوا بما عَلِموهُ من الحقِّ، فهذه مرتبةٌ أخرىٰ.

وتواصوا بالحقِّ؛ وصَّىٰ به بعضُهم بعضًا تعليمًا وإرشادًا، فهذه مرتبةٌ ثالثةٌ.

وتواصوا بالصبرِ؛ صَبَروا علىٰ الحقِّ، ووصَّىٰ بعضُهم بعضًا بالصبرِ عليه والثبات،

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٥٨٣).

فهذه مرتبةٌ رابعةٌ.

وهذا نهايةُ الكمالِ؛ فإنَّ الكمالَ أن يكونَ الشخصُ كاملًا في نفسهِ، مُكَمِّلًا لغيرِهِ، وكمالُه بإصلاحِ قُوَّتيه العلميةِ والعمليةِ، فصلاحُ القوةِ العلميةِ بالإيمانِ، وصلاحُ القوةِ العمليةِ بعملِ الصالحاتِ وتكميلِهِ غيرَهُ، وتعليمه إيَّاهُ، وصبرِهِ عليه، وتوصيتِهِ بالصبرِ على العلمِ والعملِ.

فهذه السورةُ على اختصارها هي من أجمع سُوَرِ القرآنِ للخيرِ بحذافيره، والحمدُ لله الذي جَعلَ كتابَهُ كافيًا عن كلِّ ما سواه، شافيًا من كلِّ داءٍ، هاديًا إلى كلِّ خيرٍ»[1].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أقسم تعالى بالعصرِ، الذي هو الليلُ والنهارُ، محلِّ أفعالِ العبادِ وأعمالهم أنَّ كلَّ إنسانٍ خاسرٌ، والخاسرُ ضدُّ الرابح.

والخسَارُ مراتبُ متعددةٌ متفاوتةٌ:

قد يكون خسارًا مطلقًا: كحال مَن خَسِرَ الدنيا والآخرةَ، وفَاتَهُ النعيمُ، واستحقَّ الجحيمَ.

وقد يكون خاسرًا من بعضِ الوجوهِ، دون بعضٍ، ولهذا عمَّمَ الله الخسارَ لكلِّ إنسانٍ إلا من اتصفَ بأربعِ صفاتٍ:

الإيمانُ بما أمر الله بالإيمانِ به، ولا يكون الإيمانُ بدون علمٍ، فهو فرعٌ عنه، لا يتمُّ إلا به.

والعملُ الصالحُ: وهذا شاملٌ لأفعالِ الخيرِ كلِّها ، الظاهرةِ والباطنةِ، المتعلِّقةِ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٣٨).

بحقوقِ الله، وحقوقِ عبادِه، الواجبةِ والمستحبَّةِ.

والتواصي بالحقِّ، الذي هو الإيمانُ والعملُ الصالحُ، أي: يُوصي بعضُهم بعضًا بذلك، ويحثُّه عليه، ويرغِّبه فيه.

والتواصي بالصبرِ علىٰ طاعةِ الله، وعن معصيةِ الله، وعلىٰ أقدارِ الله المؤلمةِ. فبالأمرين الأولين يكمل العبدُ نفسَه، وبالأمرين الآخرين، يكمل غيره.

وبتكميلِ الأمورِ الأربعةِ، يكون العبدُ، قد سَلِمَ من الخسَارِ، وفاز بالربح العظيمِ»[1].

١٨- وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة:١٢٢].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «نَدَبَ تعالىٰ المؤمنين إلىٰ التفقُّهِ في الدين، وهو تعلُّمُهُ، وإنذارِ قومهم إذا رجعوا إليهم، وهو التعليمُ.

وقد اختُلفَ في الآيةِ، فقيل: المعنىٰ: أنَّ المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلُّهم للتفقُّهِ والتعلُّمِ، بل ينبغي أن ينفروا من كلِّ فرقةٍ منهم طائفةٌ، تتفقَّه تلك الطائفةُ ثم ترجع تعلِّم القاعدين، فيكون النفيرُ علىٰ هذا نفيرَ تعلُّمٍ، والطائفةُ تُقال علىٰ الواحدِ فما زادَ.

قالوا: فهو دليلٌ علىٰ قبولِ خبرِ الواحدِ، وعلىٰ هذا حملها الشافعيُّ وجماعةٌ.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٨٦٤).

وقالت طائفةٌ أخرىٰ: المعنىٰ: وما كان المؤمنون لينفروا إلىٰ الجهادِ كلُّهم، بل ينبغي أن تَنفِرَ طائفةٌ للجهادِ، وفرقةٌ تقعُدُ تتفقَّه في الدين، فإذا جاءت الطائفةُ التي نَفَرَت فَقَّهَتهَا القاعدةُ وعلَّمتها ما أُنزل من الدِّينِ والحلالِ والحرامِ.

وعلىٰ هذا فيكون قولُهُ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾، و﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ للفِرقةِ التي نَفَرَت منها طائفةٌ، وهذا قولُ الأكثرين.

وعلىٰ هذا فالنفيرُ نفيرُ جهادٍ علىٰ أصلِهِ، فإنَّه حيث استُعمل إنما يُفهم منه الجهادُ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة:٤١]، وقال النبيُّ ﷺ: «**لا هِجرَةَ بَعدَ الفَتحِ، ولكنِ جهادٌ وَنِيَّةٌ، وإذَا استُنفِرتُم فانفِرُوا**»[1] وهذا هو المعروفُ من هذه اللفظةِ.

وعلىٰ القولين فهو ترغيبٌ في التفقُّه في الدِّينِ، وتعلُّمِه، وتعليمِه، فإن ذلك يَعدِلُ الجهادَ، بل ربما يكونُ أفضلَ منه»[2].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآيةُ أصلٌ في وجوبِ طلبِ العلمِ؛ لأنَّ المعنىٰ: وما كان المؤمنون لينفروا كافَّةً،والنبيﷺ مقيمٌ لا ينفِرُ فيتركوه وحده.

﴿فَلَوْلَا نَفَرَ﴾، بعدما علموا أنَّ النفيرَ لا يَسَعُ جميعَهم، ﴿مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾، وتبقىٰ بقيتُهَا مع النبيِّ ﷺ ليتحمَّلُوا عنه الدِّينَ ويتفقَّهوا؛ فإذا رجع النافِرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموه.

(١) البخاري (٢٩١٢، ٢٩١٣)، ومسلم (١٣٥٣، ١٨٦٤).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٣٧).

وفي هذا إيجابُ التفقُّهِ في الكتابِ والسنَّةِ، وأنَّه علىٰ الكفايةِ دون الأعيانِ، ويدلُّ عليه أيضًا قولُهُ تعالىٰ: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء:٧] فدخَلَ في هذا مَن لا يعلم الكتابَ والسُّنَنَ.

قولُهُ تعالىٰ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ الضمير في ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾، و﴿وَلِيُنذِرُواْ﴾ للمقيمين مع النبي ﷺ قاله قتادةُ ومجاهدٌ، وقال الحسنُ: هما للفِرقة النافرةِ؛ واختاره الطبريُّ.

ومعنىٰ ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي: يتبصَّروا ويتيقنوا بما يريهم الله من الظهورِ علىٰ المشركين ونُصرةِ الدِّينِ»[(١)].

وقال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾، يقول: ما كان المؤمنون لينفروا جميعًا ويتركوا النبيَّ ﷺ وَحْدَهُ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ يعني: عُصبةً، يعني: السرايا، ولا يسيروا إلا بإذنِه، فإذا رجعت السرايا، وقد أُنزل بعدهم قرآنٌ تعلَّمه القاعدون من النبيِّ ﷺ، وقالوا: إنَّ الله قد أنزل علىٰ نبيِّكم قرآنًا وقد تعلَّمناه، فتمكث السرايا يتعلَّمون ما أنزل الله علىٰ نبيِّهم بَعدَهُم، ويبعثُ سرايا أخرىٰ، فذلك قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ يقول: ليعلموا ما أنزل الله علىٰ نبيِّهم، وليعلِّموا السرايا إذا رجعت إليهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾»[(٢)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ: منبِّهًا عبادَهُ المؤمنين علىٰ ما ينبغي لهم:

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٨/ ٢٧٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٦٤٨).

﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً﴾، أي: جميعًا لقتالِ عدوِّهم، فإنه يحصل عليهم المشقَّةُ بذلك، ويفوتُ به كثيرٌ من المصالحِ الأخرىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: من البلدانِ، والقبائلِ، والأفخاذِ ﴿طَآئِفَةٌ﴾ تحصلُ بها الكفاية والمقصودُ، لكان أولىٰ.

ثمَّ نبَّه علىٰ أنَّ في إقامةِ المقيمين منهم، وعدمِ خروجِهم مصالحَ لو خرجوا لفاتتهم، فقال: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ﴾ أي: القاعدون ﴿فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ أي: ليتعلَّموا العلمَ الشرعيَّ، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسرارَه، وليعلِّموا غيرهم، ولينذروا قومَهم إذا رجعوا إليهم.

ففي هذا فضيلةُ العلمِ، خصوصًا الفقه في الدِّين[١]، وأنَّه أهمُّ الأمورِ، وأنَّ مَن تعلَّم علمًا، فعليه نَشرُهُ وَبثُّهُ في العبادِ، ونصيحتُهم فيه، فإنَّ انتشارَ العلمِ عن العالِمِ من بَرَكَتِهِ وأجرِهِ الذي ينمىٰ.

وأمَّا اقتصارُ العالمِ علىٰ نفسِهِ، وعدمُ دعوتِهِ إلىٰ سبيلِ الله بالحكمةِ والموعظةِ الحسنةِ، وتركُ تعليمِ الجهَّالِ ما لا يعلمون، فأيُّ منفعةٍ حصلت للمسلمين منه؟ وأيُّ نتيجةٍ نَتَجَتَ من علمه؟ وغايتُه أن يموتَ فيموتَ علمُهُ وثمرتُهُ، وهذا غايةُ الحرمانِ لمن آتاه الله علمًا ومنَحَهُ فهمًا.

وفي هذه الآية أيضًا دليلٌ، وإرشادٌ، وتنبيهٌ لطيفٌ، لفائدةٍ مهمةٍ، وهي: أنَّ

---

(١) تقدَّم -بحول الله وقوته- أنَّ الفقه في الدين؛ أي في نصوص الكتاب والسنة، أعمُّ منه في المعنىٰ الاصطلاحي.

المسلمين ينبغي لهم: أن يُعِدُّوا لكلِّ مصلحةٍ من مصالحهم العامَّةِ، مَن يقوم بها، ويُوَفِّر وقتَه عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلىٰ غيرها، لتقومَ مصالحُهم، وتتمَّ منافِعُهُم، ولتكون وِجهَةُ جميعهم، ونهايةُ ما يقصدون قصدًا واحدًا؛ وهو قيامُ مصلحةِ دينهم، ودنياهم، ولو تفرَّقت الطرقُ، وتعدَّدت المشاربُ، فالأعمالُ متباينةٌ والقصدُ واحدٌ، وهذه من الحكمةِ العامةِ النافعةِ في جميع الأمورِ»(١).

١٩- وقال تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ [طه:١١٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّ﴾ أي: تنزَّه وتقدَّسَ الملكُ الحقُّ، الذي هو حقٌّ، ووَعدُهُ حقٌّ، ووعيدُهُ حقٌّ، ورسلُهُ حقٌّ، والجنةُ حقٌّ، والنارُ حقٌّ، وكلُّ شيءٍ منه حقٌّ، وعدلُهُ تعالىٰ ألا يعذِّبَ أحدًا قبل الإنذارِ وبَعثِهِ الرُّسُلَ، والإعذارِ إلىٰ خلقِهِ، لئلا يبقىٰ لأحدٍ حُجَّةٌ ولا شُبهَةٌ. وقولُه: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾ كقولِه تعالىٰ في سورة «لا أقسمُ بيومِ القِيامَةِ»: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة١٦-١٧] أي: أن نجمعَهُ في صدرِكَ، ثمَّ تقرَأهُ علىٰ النَّاسِ من غير أن تنسىٰ منه شيئًا، ﴿فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٨-١٩]، وقال في هذه الآيةِ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ﴾ أي: بل أنصت، فإذا فَرَغَ الملكُ من قراءتِهِ عليك فاقرأهُ بَعدَهُ، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾، أي: زدني منك علمًا.

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣١٢).

قال ابنُ عُيينةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولـم يَزَل ﷺ في زيادةٍ حتىٰ توفَّاه الله عَزَّ وَجَلَّ »(١).

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه أمَرَ نبيَّه أن يسألَه مزيدَ العلمِ، وكفىٰ بهذا شَرفًا للعلمِ أن أمر نبيَّه أن يسأله المزيدَ منه»(٢).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾ أي: جَلَّ وارتفع، وتقدَّسَ عن كل نقصٍ وآفةٍ ﴿ٱلۡمَلِكُ﴾ الذي الملكُ وصفُهُ، والخلقُ كلُّهم مماليكُ له، وأحكامُ الملكِ القدريةُ والشرعيةُ نافذةٌ فيهم ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ أي: وجودُهُ، وملكُهُ، وكمالُهُ حقٌّ، فصفاتُ الكمالِ، لا تكون حقيقةً، إلا لذي الجلالِ، ومن ذلك: المُلْكُ، فإن غيره من الخلقِ، وإن كان له مُلكٌ في بعضِ الأوقاتِ علىٰ بعضِ الأشياءِ، فإنَّه مُلكٌ قاصرٌ باطلٌ، يزول، وأما الرَّبُّ، فلا يزال ولا يزول، مَلِكًا حَيًّا قيومًا جليلًا.

﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥ﴾، أي: لا تبادِر بتلقُّفِ القرآنِ حين يتلوه عليك جبريلُ، واصبر حتىٰ يفرغ منه، فإذا فَرَغَ منه فاقرأه، فإنَّ الله قد ضمن لك جمعهَ في صدرك، وقراءتَك إياه، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٦-١٩].

ولما كانت عَجَلَتُهُ ﷺ علىٰ تلقُّفِ الوحي ومبادرتُه إليه، تدلُّ علىٰ محبَّته التامَّةِ للعلمِ، وحرصِهِ عليه؛ أمره تعالىٰ أن يسأله زيادةَ العلمِ، فإنَّ العلمَ خيرٌ،

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٢٧٥).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٣).

وكثرةُ الخيرِ مطلوبةٌ، وهي من الله، والطريق إليها الاجتهاد، والشوق للعلمِ، وسؤال الله، والاستعانة به، والافتقار إليه في كلِّ وقتٍ.

ويؤخذ من هذه الآيةِ الكريمةِ: الأدبُ في تلقِّي العلم، وأنَّ المستمعَ للعلمِ، ينبغي له أن يتأنَّىٰ ويصبر، حتىٰ يَفرُغَ المملي والمعلمُ من كلامِهِ المتصلِ بعضُه ببعضٍ، فإذا فرغ منه؛ سأل، إن كان عندهُ سؤالٌ، ولا يبادر بالسؤالِ وقَطعِ مُلقِي العلمِ فإنَّه سببٌ للحرمان، وكذلك المسئولُ، ينبغي له أن يستمليَ سؤالَ السائلِ، ويعرفَ المقصودَ من قبل الجوابِ، فإنَّ ذلك سببٌ لإصابةِ الصوابِ»[1].

٢٠- وقال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه السورةُ أوَّلُ ما نزل من القرآنِ؛ في قولِ معظمِ المفسِّرين، نزل بها جبريلُ علىٰ النبيِّ ﷺ وهو قائمٌ علىٰ حِراء، فعلَّمه خمسَ آياتٍ من هذه السورةِ...

ثمَّ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قولُه تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ يعني: الخطَّ والكتابةَ، أي: علَّم الإنسانَ الخطَّ بالقلمِ، وروىٰ سعيدٌ عن قتادة قال: القلمُ نعمةٌ من الله تعالىٰ عظيمةٌ، لولا ذلك لم يقم دينٌ، ولم يصلُحْ عيشٌ، فدلَّ علىٰ كمالِ كرمِهِ سبحانه، بأنَّه علَّم عبادَه ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمةِ الجهلِ إلىٰ نورِ العلمِ، ونبَّه علىٰ فضل علمِ الكتابةِ لما فيه من المنافعِ العظيمةِ، التي لا يحيط بها إلا هو.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٤٦٣)

وما دُوِّنت العلومُ، ولا قُيِّدَت الحِكَمُ، ولا ضُبِطَت أخبارُ الأوَّلين ومقالتُهم، ولا كتبُ الله المنزَلَةُ إلا بالكتابة، ولولا هي ما استقامت أمورُ الدين والدنيا، وسُمِّيَ قلمًا لأنه يُقلَم؛ أي: يُقطع، ومنه تقليمُ الظفرِ...

ثمَّ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: قولُهُ تعالىٰ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، قيل: الإنسانُ هنا: آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، علَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ؛ حسب ما جاء به القرآنُ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة:٣١]، فلم يبق شيءٌ إلا وعَلَّمَ سبحانه آدمَ اسمَهُ بكلِّ لغةٍ، وذكره آدمُ للملائكةِ كما علَّمه، وبذلك ظهر فضلُهُ، وتبيَّن قدرُهُ، وثبتت نبوَّتُه، وقامت حُجَّةُ الله علىٰ الملائكةِ وحُجَّتُهُ، وامتثلت الملائكةُ الأمرَ لِمَا رأت من شرفِ الحالِ، ورأت من جلال القدرةِ، وسمعت من عظيم الأمرِ، ثم توارثت ذلك ذُرِّيتُه خَلَفًا بعد سَلَفٍ، وتناقلوه قومًا عن قومٍ.

وقيل: «الإنسانُ» هنا: الرسولُ ﷺ، ودليلُهُ قولُه تعالىٰ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء:١١٣]، وعلىٰ هذا فالمرادُ بـ (عَلَّمَكَ) المستقبلُ، فإنَّ هذا من أوائل ما نَزَلَ.

وقيل: هو عامٌّ لقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل:٧٨]»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ أوَّلَ سورةٍ أنزلها الله في كتابِهِ سورةُ القلمِ، فَذَكَرَ فيها ما مَنَّ به علىٰ الإنسانِ من تعليمه ما لم يعلم، فذكر فيها فَضلَه بتعليمِهِ،

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢٠/ ١١٩).

وتفضيلَه الإنسانَ بما علَّمه إياه، وذلك يدلُّ علىٰ شَرَفِ التعليمِ والعلمِ، فقال تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق:١-٥] فافتتح السورةَ بالأمرِ بالقراءةِ الناشئةِ عن العلمِ، وذكر خلقَه خصوصًا وعمومًا فقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ وخصَّ الإنسانَ من بين المخلوقاتِ، لِـمَا أودَعه من عجائبِهِ وآياتِهِ الدالَّةِ علىٰ ربوبيته، وقُدرتِهِ، وعلمِهِ وحكمتِهِ، وكمالِ رحمتِهِ وأنَّه لا إله غيرُهُ، ولا ربَّ سواه.

وذكر هنا مبدأ خَلقِهِ من عَلَقٍ لكونِ العَلَقَةِ مبدأَ الأطوارِ التي انتقلت إليها النُّطفَةُ، فهي مبدأُ تعلُّقِ التخليق، ثم أعاد الأمرَ بالقراءةِ مُخبِرًا عن نفسِه بأنَّه الأكرمُ؛ وهو (الأفعل) من الكرم -وهو كَثرَةُ الخيرِ- ولا أحدَ أولىٰ بذلك منه سبحانه، فإن الخيرَ كلَّه بيديه، والخيرُ كلُّه منه، والنِّعَمُ كلُّها هو مولاها، والكمالُ كلُّهُ والمجدُ كلُّه له، فهو الأكرمُ حَقًّا.

ثمَّ ذكرَ تعليمَه عُمومًا وخصوصًا، فقال: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾، فهذا يدخل فيه تعليمُ الملائكة والناسِ.

ثم ذكر تعليمَ الإنسانِ خصوصًا، فقال: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، فاشتملت هذه الكلماتُ علىٰ أنَّه مُعطي الموجودات كلِّها بجميع أقسامها، فإنَّ الوجودَ له مراتبُ أربعٌ:

إحداها: مرتبتُها الخارجيةُ، المدلولُ عليها بقوله: ﴿خَلَقَ﴾.

المرتبةُ الثانيةُ: الذِّهنيَّةُ المدلولُ عليها بقولِهِ: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

المرتبةُ الثالثةُ والرابعةُ: اللفظيةُ، والخَطِّيَّةُ،فالخطِّيةُ مُصَرَّحٌ بها في قوله: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ واللفظيةُ من لوازمِ التعليمِ بالقَلَمِ، فإنَّ الكتابةَ فرعُ النطقِ، والنطقُ فرعُ التصورِ.

فاشتملت هذه الكلماتُ علىٰ مراتبِ الوجودِ كلِّها، وأنه سبحانه هو مُعطيها بخلقهِ وتعليمِه، فهو الخالقُ المعَلِّمُ، وكلُّ شيءٍ في الخارجِ فبخلقهِ وُجِدَ، وكلُّ علمٍ في الذِّهنِ فبتعليمه حَصَلَ، وكلُّ لفظٍ في اللِّسانِ أو خَطٍّ في البنانِ فبإقدارهِ وخلقهِ وتعليمِهِ.

وهذا من آياتِ قُدرتِهِ، وبراهينِ حكمتهِ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم.

والمقصودُ: أنَّه سبحانه تعرَّفَ إلىٰ عبادِهِ بما علَّمهم إياه بحكمتهِ من الخطِّ واللفظِ والمعنىٰ، فكان العلمُ أحدَ الأدلَّةِ الدَّالَّةِ عليه، بل من أعظمِها وأظهرِها، وكفىٰ بهذا شرفًا وفضلًا له»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذكر تعالىٰ التعليمَ بالقلمِ الذي هو من أعظمِ نعمِهِ علىٰ عبادِهِ؛ إذ به تُخَلَّدُ العلومُ، وتُثَبَّتُ الحقوقُ، وتُعلَمُ الوصايا، وتُحفظُ الشهاداتُ، ويُضبط حسابُ المعاملاتِ الواقعةِ بين الناسِ، وبه تُقَيَّدُ أخبارُ الماضين للباقين اللاحقين.

ولولا الكتابةُ لانقطعت أخبارُ بعض الأزمنةِ عن بعضٍ، ودَرَسَت السُّنَنُ، وتخبَّطت الأحكامُ، ولم يَعرف الخَلَفُ مذاهبَ السَّلَفِ، وكان يَعظُمُ الخَلَلُ الداخلُ علىٰ الناسِ في دينهم ودنياهم لِمَا يعتريهم من النسيانِ الذي يمحو صُوَرَ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٤٢).

العلمِ من قلوبهم، فجعل لهم الكتابَ وعاءً حافظًا للعلمِ من الضياعِ كالأوعيةِ التي تحفظُ الأمتعةَ من الذهابِ والبطلانِ.

فنعمةُ الله ﷻ بتعليمِ القلمِ بعد القرآنِ من أجلِّ النِّعَمِ، والتعليمُ به وإن كان مما يتخلَّصُ إليه الإنسانُ بالفطنةِ والحيلةِ، فإنَّ الذي بَلَغَ به ذلك وأوصله إليه عطيَّةٌ وهبها الله له، وفَضلٌ أعطاه الله إياه، وزيادةٌ في خلقِهِ وفضلِهِ، فهو الذي علَّمه الكتابةَ، وإن كان هو المتعلِّمَ ففعله فعلُ مطاوعٍ لتعليمِ الذي علَّم بالقلمِ، فإنَّه علَّمه فتعلَّمَ، كما أنَّه علَّمه الكلامَ فتكلَّمَ»[(١)].

وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أولُ شيء نزل من القرآنِ هذه الآياتُ الكريماتُ المباركاتُ، وهنَّ أولُ رحمةٍ رَحِمَ الله بها العبادَ، وأوَّلُ نعمةٍ أنعم الله بها عليهم، وفيها التنبيهُ علىٰ ابتداءِ خَلقِ الإنسانِ من علقةٍ، وأنَّ مِن كرَمِهِ تعالىٰ أن علَّم الإنسان ما لـم يعلم، فشرَّفه وكرَّمه بالعلمِ، وهو القَدرُ الذي امتاز به أبو البريَّةِ آدمُ علىٰ الملائكةِ، والعلمُ تارةً يكون في الأذهانِ، وتارةً يكون في اللسانِ، وتارةً يكون في الكتابة بالبنان، ذهنيٌّ ولفظيٌّ ورسميٌّ، والرسميُّ يستلزمهما من غير عَكسٍ، فلهذا قال: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾»[(٢)].

٢١- وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ [الملك:٢].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ العلمَ إمامُ العملِ، وقائدٌ له، والعملُ تابعٌ له ومُؤتَمٌّ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢/ ٢٣٩).
(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٨٧٩).

به، فكلُّ عملٍ لا يكون خَلفَ العلمِ مقتديًا به فهو غيرُ نافعٍ لصاحبِهِ، بل مَضَرَّةٌ عليه، كما قال بعضُ السَّلَفِ: مَن عَبَدَ الله بغيرِ علمٍ كان ما يُفسدُ أكثرَ ممَّا يُصلحُ.

والأعمالُ إنَّما تتفاوتُ في القبولِ والردِّ بحسبِ مُوافقتها للعلمِ ومُخَالفتِها له، فالعملُ الموافقُ للعلمِ هو المقبولُ، والمخالفُ له هو المردودُ.

فالعلمُ هو الميزانُ وهو المِحَكُّ، قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك:٢]، قال الفضيلُ بن عياضٍ: هو أخلصُ العلمِ وأصوبُهُ، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصُهُ وأصوبُهُ؟ قال: إنَّ العملَ إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا؛ لم يُقبَل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا؛ لم يقبل، فالخالصُ أن يكون لله، والصوابُ أن يكون علىٰ السنَّةِ، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

فهذا هو العملُ المقبولُ الذي لا يقبلُ الله من الأعمالِ سواه، وهو أن يكون موافقًا لسُنَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، ومُرَادًا به وجهُ الله.

ولا يتمكَّن العاملُ من الإتيانِ بعملٍ يجمع هذين الوصفين إلا بالعلم، فإنَّه إن لم يعلم ما جاء به الرسولُ لم يُمكِنهُ قَصدُهُ، وإن لم يعرف معبودَه لم يمكنه إرادتُهُ وحده، فلولا العلمُ لما كان عملُه مقبولًا، فالعلمُ هو الدليلُ علىٰ الإخلاصِ، وهو الدليلُ علىٰ المتابعَةِ.

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]، وأحسنُ ما قيلَ في تفسيرِ الآيةِ، أنَّه: إنَّما يتقبَّلُ عَمَلَ مَن اتقاه في ذلك العملِ، وتقواه فيه: أن يكون لوجهِهِ علىٰ موافقةِ أمرِهِ، وهذا إنما يحصلُ بالعلمِ.

وإذا كان هذا منزلَ العلمِ وموقعهُ عُلِمَ أنَّه أشرفُ شيءٍ وأجلُّهُ وأفضلُهُ، والله أعلم»[(١)].

٢٢- وقال تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر:١٦-١٧].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العابدُ الجاهلُ آفتُهُ من إعراضِهِ عن العلمِ وأحكامِهِ، وغلبةِ خيالِهِ، وذوقِهِ، ووجدِهِ، وما تهواه نفسُهُ، ولهذا قال سفيانُ بنُ عُيينةَ وغيرُهُ: احذروا فتنةَ العالِمِ الفاجرِ، وفتنةَ العابدِ الجاهلِ، فإن فتنتهما فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ فهذا بجهلهِ يصدُّ عن العلمِ وموجبِهِ، وذاك بغيِّه يدعو إلىٰ الفجورِ.

وقد ضرب الله سبحانه مثَلَ النوعِ الآخرِ بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر:١٦-١٧].

وقصَّتُه معروفةٌ، فإنه بنىٰ أساسَ أمرِهِ علىٰ عبادةِ الله بجهلٍ، فأوقعه الشيطانُ بجهلِهِ، وكفَّره بجهلِهِ، فهذا إمامُ كلِّ عابدٍ جاهلٍ، يكفر ولا يدري، وذاك[(٢)] إمامُ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٣٠٢).

(٢) يقصد به ما ضربه الله تعالىٰ مثلًا لعالِمِ السُّوءِ في قوله تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

كلِّ عالمٍ فاجرٍ يختار الدنيا علىٰ الآخرة، وقد جعل سبحانه رضا العبدِ بالدنيا وطمأنينتَه وغفلته عن معرفةِ آياتِهِ وتدبُّرها، والعملِ بها، سببَ شقائهِ وهلاكِهِ، ولا يجتمع هذا -الرضا بالدنيا، والغفلةُ عن آياتِ الربِّ- إلا في قلبِ مَن لا يؤمن بالميعادِ، ولا يرجو لقاءَ ربِّ العبادِ، وإلا فلو رسَخَ قدمُهُ في الإيمانِ بالميعادِ لما رضيَ الدنيا ولا اطمأنَّ إليها، ولا أعرضَ عن آيات الله»[(١)].

وأمَّا القصةُ المعروفةُ التي أشار إليها الإمامُ ابنُ القيمِ، فقد ذكرها الإمامُ ابنُ كثيرٍ في تفسيرِ سورةِ الحشرِ، فقال -رحمه الله تعالىٰ-: «قولُه تعالىٰ: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ﴾، يعني: مثلُ هؤلاء اليهودِ في اغترارهم بالذين وَعَدُوهم النصرَ من المنافقين، وقول المنافقين لهم: ﴿وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ﴾، ثمَّ حقَّت الحقائقُ وَجَدَّ بهم الحصارُ والقتالُ، تخلَّوا عنهم وأسلموهم للهلكةِ، مثالُهم في هذا كَمَثَل الشيطانِ إذ سوَّل للإنسانِ -والعياذُ بالله- الكفرَ، فإذا دخل فيما سوَّله له تبرَّأ منه، وتنصَّل وقال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾.

وقد ذكر بعضُهم هاهنا قصةً لبعضِ بني إسرائيلَ هي كالمثالِ لهذا المثَلِ، لا أنَّها المرادةُ وحدَهَا بالمثَلِ، بل هي منه مع غيرِها من الوقائع المشاكِلَةِ لها، فقال ابنُ جريرٍ: حدثنا خلادُ بنُ أسلم، أخبرنا النضرُ بن شميل، أخبرنا شعبةُ عن أبي إسحاق قال: سمعتُ عليًّا ﷺ يقول: إنَّ راهبًا تعبَّد ستين سنةً، وإنَّ الشيطانَ أراده فأعيَاهُ، فعَمَدَ إلىٰ امرأةٍ فَأَجَنَّهَا[(٢)]، ولها إخوةٌ، فقال لإخوتها: عليكم بهذا القسِّ فيداويها، قال:

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٣٧).

(٢) أصابها بمسٍّ من جنونٍ.

فجاءوا بها إليه فداواها، وكانت عنده، فبينما هو يومًا عندها إذ أعجبته فأتاها فحملت، فعمد إليها فقتلها، فجاء إخوتُها، فقال الشيطانُ للراهبِ: أنا صاحبُك إنك أعييتني، أنا صنعتُ بك هذا فأطعني أُنجِكَ مما صنعتُ بك، فاسجد لي سجدةً، فسجد له فلما سجدَ له قال: إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين، فذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقال ابن جريرٍ: حدثني يحيىٰ بن إبراهيم المسعودي، حدثنا أبي عن أبيه عن جدِّه عن الأعمشِ عن عمارة عن عبد الرحمن بن يزيد عن عبد الله بن مسعود في هذه الآية: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾. قال: كانت امرأةٌ ترعىٰ الغنمَ وكان لها أربعةُ إخوةٍ، وكانت تأوي بالليل إلىٰ صومعةِ راهبٍ، قال: فنزل الراهبُ فَفَجَر بها فحملت، فأتاه الشيطانُ فقال له: اقتلها ثمَّ ادفنها، فإنَّك رجلٌ مُصَدَّقٌ يُسمع قولُك، فقتلها ثم دفنها، قال: فأتىٰ الشيطانُ إخوتَها في المنامِ، فقال لهم: إنَّ الراهبَ صاحبَ الصومعةِ فَجَرَ بأختكم، فلما أحبَلَها قتلها ثم دفنها في مكانِ كذا وكذا، فلمَّا أصبحوا قال رجلٌ منهم: والله لقد رأيتُ البارحةَ رؤيا ما أدري أَقُصُّهَا عليكم أم أترك؟ قالوا: لا، بل قُصَّهَا علينا. قال: فَقصَّها، فقال الآخرُ: وأنا والله لقد رأيتُ ذلك، فقال الآخرُ: وأنا والله لقد رأيتُ ذلك؛ قالوا: فوالله ما هذا إلا لشيءٍ.

قال: فانطلقوا فاستعدَوْا ملكَهم علىٰ ذلك الراهبِ، فَأَتَوْهُ فأنزلوه ثمَّ انطلقوا به فلقيه الشيطانُ، فقال: إني أنا أوقعتُك في هذا، ولن ينجيك منه غيري، فاسجد لي سجدةً واحدةً وأنجيك مما أوقعتُك فيه، قال: فسجد له، فلما أتَوا به ملكَهم تبرَّأ

منه وأُخِذَ فقُتل. وكذا رُوي عن ابن عباسٍ وطاوس ومقاتل بن حيان نحو ذلك، واشتُهر عند كثير من الناسِ أنَّ هذا العابدَ هو برصيصا ، والله أعلم»[(١)].

فهذه هي القصةُ التي أشار إليها ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي مذكورة بسياقٍ أبسطَ من هذا السياق في تفسير القرطبي[(٢)].

٢٣- وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَـٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَـٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩﴾ [الإسراء:١٠٦-١٠٩].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه سلَّىٰ نبيَّهُ بإيمانِ أهلِ العلمِ به، وأمرَهُ ألَّا يَعبأَ بالجاهلين شيئًا، وهذا شرفٌ عظيمٌ لأهلِ العلمِ، وتحته أنَّ أهلَه العالِمِين قد عرفوه وآمنوا به وصدقوا، فسواءٌ آمن به غيرُهم أَو لا...»[(٣)].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾، هذه مبالغةٌ في صفتهم، ومدحٌ لهم، وحقٌّ لكلِّ مَن توسَّم بالعلمِ وحصَّل منه شيئًا أن يجري إلىٰ هذه المرتبةِ، فيخشعَ عند استماعِ القرآنِ ويتواضَع ويَذِلَّ.

وفي مسند الدارميِّ[(٤)] **أبي محمدٍ، عن التَّيميِّ قال:** مَن أُوتِي من العلم ما لم

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٥٥٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٨/ ٣٨).

(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٢).

(٤) «سنن الدارمي» تحقيق فؤاد أحمد زمرلي، وخالد السبع (١/ ١٠٠).

يبكِّه لَخَلِيقٌ ألا يكون أُوتي علمًا، لأنَّ الله تعالىٰ نَعَتَ العلماءَ، ثمَّ تلا هذه الآية، ذكره الطبريُّ أيضًا»(١).

وقال الشوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في هذا تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ، وحاصلُها أنه إن لم يؤمن به هؤلاء الجهَّال الذين لا علم عندهم، ولا معرفة بكتب الله ولا بأنبيائهِ، فلا تُبال بذلك، فقد آمنَ به أهلُ العلمِ، وخَشَعُوا له، وخَضَعُوا عند تلاوتِهِ عليهم خضوعًا ظَهَرَ أثَرُهُ البالغُ بكونهم يخرُّون علىٰ أذقانِهم سُجَّدًا لله.

﴿وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ أي: يقولون في سجودهم: تنزيهًا لربِّنا عمَّا يقولُه الجاهلون من التكذيبِ، أو تنزيهًا له عن خُلفِ وَعدِهِ»(٢).

٢٤- وقال تعالىٰ: **﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾** [الأنعام:٨٣].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه ذَكَرَ مناظرةَ إبراهيمَ لأبيهِ وقومِهِ، وغَلَبَتِهِ لهم بالحُجَّةِ، وأخبر عن تفضيلهِ بذلك، ورَفعِهِ درجتَه بعلمِ الحُجَّةِ، فقال تعالىٰ عَقِيبَ مناظرتِهِ لأبيه وقومِهِ في سورة الأنعامِ: **﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾**. قال زيدُ بن أسلم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: نَرفعُ درجاتٍ من نشاء بعلمِ الحُجَّة»(٣).

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: **﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ﴾**، أي: بالعلمِ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ٣٤٧).

(٢) «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ٢٦٤).

(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٦).

والفهمِ والإمامةِ والملكِ»(١).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾، أي: علا بها عليهم، وفَلَجَهُم بها.

﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾، كما رفعنا درجاتِ إبراهيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ في الدنيا والآخرةِ، فإنَّ العلم يرفع الله به صاحبَهُ، فوقَ العبادِ درجاتٍ، خصوصًا: العالم، العامل، المعلم؛ فإنه يجعله الله إمامًا للناسِ، بحسب حاله، تُرمَقُ أفعالُهُ، وتُقتفىٰ آثارُهُ، ويُستَضَاءُ بنورِه، ويُمشىٰ بعلمه في ظلُمةِ ديجورِه.

قال تعالىٰ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾، فلا يضع العلم والحكمةَ إلا في المحلِّ اللائقِ بهما، وهو أعلمُ بذلك المحلِّ وبما ينبغي له»(٢).

٢٥- وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

قال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر سبحانه أنَّه خَلَقَ الخَلقَ، ووضعَ بيتَه الحرامَ، والشهرَ الحرامَ، والهَدي، والقلائدَ، ليَعلَمَ عبادُهُ أنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وعلىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، فقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ فدلَّ علىٰ أنَّ عِلمَ العبادِ بربِّهم

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧/ ٣٣).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٢٢٥).

وصفاتِهِ وعبادتِهِ وَحدَهُ هو الغايةُ المطلوبةُ من الخلقِ والأمرِ»[١].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أخبر تعالىٰ أنَّه خَلَقَ السمواتِ والأرضَ ومَن فيهنَّ، والأرضين السبعَ ومَن فيهنَّ، وما بينهنَّ، وأنزل الأمرَ وهو: الشرائعُ والأحكامُ الدينيةُ، التي أوحاها إلىٰ رسلِهِ لتذكيرِ العبادِ ووعظِهم، وكذلك الأوامرُ الكونيةُ والقدريةُ، التي يدبِّرُ بها الخَلقَ، كلُّ ذلك لأجلِ أن يعرفَهُ العبادُ ويعلموا إحاطة قدرتِه بالأشياءِ كلِّها، وإحاطةَ علمِهِ بجميعِ الأشياءِ.

فإذا عرفوه بأسمائهِ الحسنىٰ وأوصافه المقدَّسةِ: عبدوه، وأحبُّوه، وقاموا بحقِّه، فهذه هي الغايةُ المقصودةُ من الخَلقِ والأمرِ: معرفةُ الله وعبادتُهُ.

فقام بذلك الموفَّقون من عبادِ الله الصالحين، وأعرضَ عن ذلك الظالمون المعرضون»[٢].

٢٦- وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء:١١٣].

قال ابن القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عَدَّدَ سبحانه نِعَمَهُ وفضلَهُ علىٰ رسولِهِ، وجَعَلَ من أجَلِّهَا أن آتاه اللهُ الكتابَ والحكمةَ، وعلَّمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾»[٣].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٦).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٨٠٨).

(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٢٧).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكر تعالىٰ نعمتَه علىٰ رسولهِ ﷺ بالعلم، فقال: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ أي: أنزل عليك هذا القرآنَ العظيمَ والذِّكرَ الحكيمَ، الذي فيه تبيانُ كلِّ شيءٍ، وعلمُ الأوَّلين والآخِرين.

والحكمةُ: إمَّا السنةُ التي قد قال فيها بعضُ السلف: إنَّ السُّنَّةَ تنزل عليه، كما ينزل القرآنُ، وإمَّا معرفةُ أسرارِ الشريعةِ الزائدةِ، علىٰ معرفةِ أحكامِها، وتنزيلُ الأشياء منازلها، وترتيبُ كلِّ شيءٍ بحسبه.

﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ وهذا يشمل جميعَ ما علَّمه الله تعالىٰ، فإنَّه ﷺ كما وصَفَهُ الله قبل النبوةِ بقولهِ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ [الشورىٰ:٥٢]، ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحىٰ:٧].

ثم لم يزل يُوحي الله إليه، ويعلِّمه ويكمِّله، حتىٰ ارتقىٰ مقامًا من العلمِ يتعذَّرُ وصولُه علىٰ الأولين والآخرين، فكان أعلمَ الخلقِ علىٰ الإطلاقِ، وأجمعَهم لصفاتِ الكمالِ، وأكملهم فيها، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ فَفَضلُه علىٰ الرسولِ محمدٍ ﷺ، أعظمُ من فضلِهِ علىٰ كلِّ الخَلقِ، وأجناسُ الفضلِ التي قد فَضَّلَه الله به لا يُمكنُ استقصاؤها، ولا يتيسَّرُ إحصاؤها»[1].

٢٧- وقال تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة:١٢٩].

قال أبو جعفر محمدُ بنُ جريرٍ الطبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يعني تعالىٰ ذكرُهُ بقولِهِ: ﴿يَتْلُواْ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص١٦٥).

عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ ﴾ يقرأ عليهم كتابَكَ الذي تُوحيه إليه.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والصوابُ من القولِ عندنا في (الحكمَةِ): أنَّها العلمُ بأحكامِ الله التي لا يُدرَكُ علمُهَا إلا ببيانِ الرسولِ ﷺ، والمعرفةُ بها، وما دلَّ عليه ذلك من نظائرِهِ.

وهو عندي مأخوذٌ من (الحكمِ) الذي بمعنىٰ الفَصلِ بين الحقِّ والباطلِ، بمنزلةِ (الجِلسَةِ والقِعدَةِ) من الجلوس والقعودِ، يقال منه: (إنَّ فلانًا لحكيمٌ بَيِّنُ الحكمةِ، يعني به: إنَّه لَبَيِّنُ الإصابة في القَولِ والفعلِ.

وإذا كان ذلك كذلك، فتأويلُ الآيةِ: ربَّنَا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتِك، ويعلِّمهم كتابَكَ الذي تنزِّلُه عليهم، وفصلَ قضائِك، وأحكامَكَ التي تعلِّمه إياها»[(١)].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾، يعني محمدًا ﷺ، و(رَسُولًا) أي: مُرسَلًا، وهو فَعُولٌ من الرسالةِ.

قال ابنُ الأنباريِّ: يُشبه أن يكونَ أصلُه من قولهم: ناقةٌ مِرسَالٌ ورَسْلَةٌ؛ إذا كانت سهلة السَّيرِ، ماضيةً أمام النُّوقِ، ويقال: جاء القومُ أرسالًا، أي: بعضهم في إثرِ بعضٍ، ومنه يقال لِلَّبَنِ: رِسْلٌ؛ لأنَّه يُرسل من الضرعِ.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، (الكِتَابُ): القرآنُ، و(الحِكمَةُ): المعرفةُ بالدِّينِ، والفقهُ في التأويلِ، والفهمُ الذي هو سجيَّةٌ ونورٌ من الله تعالىٰ؛ قاله مالكٌ، ورواه عنه ابن وهبٍ، وقاله ابنُ زيدٍ، وقال قتادةُ: (الحكمَةُ): السُّنةُ

(١) «جامع البيان عن تأويل آي القرآن» للطبري (٣/ ٨٦).

وبيانُ الشرائعِ، وقيل: الحكمةُ: القضاءُ خاصَّةً، والمعنىٰ متقاربٌ، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ أي: يطهرهم من وَضَرِ[(١)] الشركِ، عن ابن جريجٍ وغيره: والزكاةُ: التطهيرُ»[(٢)].

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾، يعني: القرآن، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾، يعني: السُّنَّة، قاله الحسنُ وقتادةُ ومقاتلٌ وغيرُهُم، وقيل: الفهم في الدين، ولا منافَاة.

﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ قال ابن عباسٍ: يعني بالزكاةِ: طاعةَ الله والإخلاصَ، وقال محمد ابن إسحاق: يعلِّمهم الخيرَ ليفعلوه، والشرَّ ليتَّقوه، ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه، ليستكثروا من طاعتِه، ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته، وقولُهُ: ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، أي: (العزيزُ) الذي لا يُعجزُهُ شيءٌ، وهو قادرٌ علىٰ كلِّ شيءٍ، (الحكيمُ) في أفعالِهِ وأقوالِهِ، فيضعُ الأشياءَ في محالِّها، لعلمِهِ وحكمتِهِ وعدلِهِ»[(٣)].

وقال الشنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ لم يُبَيِّن هنا مَن هذه الأمَّةُ التي أجاب الله بها دعاءَ نَبِيِّه إبراهيمَ وإسماعيل، ولم يُبَيِّن هنا أيضًا هذا الرسولَ المسئولَ بعثهُ فيهم من هو؟ ولكنَّه يبيِّن في سورة الجمعة تلك الأمةَ: العربُ، والرسولُ هو: سيِّدُ الرُّسُلِ محمدٌ ﷺ، وذلك في قولِهِ:

(١) **الوَضَرُ**: الدَّرَنُ، والدَّسَمُ، والوسَخُ من الدَّسَمِ وغيره. «المعجم الوسيط» مادة (وضر) (ص١٠٣٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢/ ١٣٦).

(٣) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٢٨٨).

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾ [الجمعة:٢-٣] لأنَّ الأمِّيين: العربُ بالإجماعِ، والرسولُ المذكورُ: نبيُّنا محمدٌ ﷺ إجماعًا.

ولم يُبعث رسولٌ من ذُرِّيَّةِ إبراهيمَ وإسماعيلَ إلا نبيُّنا محمدٌ ﷺ وحده، وثبت في الصحيحِ أنَّه هو الرسولُ الذي دعا به إبراهيمُ[(١)] ولا ينافي ذلك عمومَ رسالتِهِ إلىٰ الأسودِ والأحمرِ»[(٢)].

٢٨- وقال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢].

قال ابنُ جريرٍ الطبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا﴾، يعني: آيات القرآنِ، وبقوله: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ ويطهِّركم من دَنَسِ العيوبِ و﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ وهو الفرقانُ، يعني: أنَّه يعلِّمهم أحكامَه ويعني: بـ ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾: السُّنَنَ والفقهَ في الدِّينِ.

وأمَّا قَولُهُ: ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ﴾ فإنه يعني: ويعلِّمكم من أخبارِ الأنبياءِ وقَصَصِ الأممِ الخاليةِ، والخبرِ عمَّا هو حادثٌ وكائنٌ من الأمورِ التي لم

(١) يريد حديثَهُ ﷺ: «**أنا دعوةُ أبي إبراهيم**» وهو حديثٌ صحيحٌ. «السلسلة الصحيحة» رقم (١٥٤٦)، و«صحيح الجامع الصغير» (١٤٧٦)، وانظر تعليق الشيخ أحمد شاكر علىٰ تفسير الطبري، هامش (ص٨٢/ ج٣) طبعة المعارف.

(٢) «أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن» للشنقيطي (١/ ٧٣).

تكن العربُ تعلمها، فعلِموها من رسولِ الله ﷺ، فأخبرهم -جَلَّ ثناؤه- أنَّ ذلك كلَّه إنما يدركونه برَسُولِه ﷺ»[١].

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُذكِّر تعالىٰ عبادَه المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثةِ الرسولِ محمدٍ ﷺ، يتلو عليهم آياتِ الله مبيِّناتٍ، ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾، أي: يطهرهم من رذائلِ الأخلاقِ ودَنَسِ النفوسِ وأفعالِ الجاهليةِ، ويخرجهم من الظلمات إلىٰ النورِ، ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾، وهو القرآنُ، ﴿وَٱلْحِكْمَةَ﴾ وهي السنةُ[٢]، ويعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون، فكانوا في الجاهليةِ الجَهلاءِ يَسفَهُون بالقولِ الفِرَىٰ[٣]، فانتقلوا ببركةِ رسالتِهِ، ويُمنِ سفارتِهِ، إلىٰ حالِ الأولياءِ، وسجايا العلماءِ فصاروا أعمقَ الناسِ علمًا، وأبرَّهم قلوبًا، وأقلَّهم تكلُّفًا، وأصدقَهم لهجةً.

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

وذمَّ مَن لم يعرف قَدرَ هذه النعمةِ، فقال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ

(١) «جامع البيان» للطبري (٣/ ٢١٠).

(٢) **قال الشيخ أحمد شاكر** رَحِمَهُ اللَّهُ: تفسير الحكمة بالسنة هو الحق الصحيحُ، وهو الذي اختاره الإمامُ الشافعيُّ، ونصره بأقوىٰ الدلائلِ والحجج، انظر كتاب «الرسالة» للشافعي بتحقيقنا، في الفقرات: (٢٤٥-٢٥٤) «عمدة التفسير» هامش (ص٢٧١/ ج١).

(٣) قال الشيخ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: الفِرَىٰ -بكسر الفاءِ: جمعُ فِرية، ووصفُ القولِ، وهو مفردٌ بالجمع، يوجَّه بأنه في معنىٰ الجمعِ، لأنه يصدق علىٰ الكلامِ الكثيرِ والقليلِ، وفي المطبوعةِ: العقول الغراء!! وهو لا معنىٰ له. «عمدة التفسير» (١/ ٢٧١).

ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم:٢٨].

قال ابن عباسٍ: يعني بنعمة اللهِ: محمدًاﷺ.

ولهذا نَدَبَ الله المؤمنين إلىٰ الاعترافِ بهذه النعمةِ ومقابلتِها بذكرهِ وشكرهِ، فقال: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وروىٰ ابنُ أبي حاتمٍ عن مكحولٍ الأزديِّ قال: قلتُ لابنِ عمرَ: أرأيتَ قاتلَ النَّفسِ، وشاربَ الخمرِ، والسارقَ، والزاني، يذكر الله؟ وقد قال تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾؟ قال: إذا ذكر الله ذكرَه الله بلعنتهِ حتىٰ يسكتَ[١]»[٢].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عَدَّدَ سبحانه نعمَهُ وفضلَهُ علىٰ رسولِهِﷺ، وجعل من أجَلِّها أن آتاه الكتابَ والحكمةَ وعلَّمه ما لم يكن يعلم، فقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ

(١) **قال الشيخ أحمد شاكر** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إسناده صحيحٌ، ومكحولٌ الأزدي هذا: هو العتكي البصري، وهو تابعيٌّ ثقةٌ، وهو غير مكحولٍ الشاميِّ التابعيِّ الكبير.
وهذا الذي قال ابن عمر حقٌّ، ينطبق تمامًا علىٰ ما يصنع أهلُ الفسق والمجونِ في عصرنا، من ذكر الله ﷻ في مواطن فسقهم وفجورهم، وفي الأغاني الداعرة، والتمثيل الفاجر الذي يزعمونه تربيةً وتعليمًا، وفي قصصهم المفترىٰ، الذي يجعلونه أنه هو الأدب وحده أو يكادون، وفي تلاعبهم بالدين، بما يسمُّونه (القصائد الدينية) و(الابتهالات)، التي يتلاعب بها الجاهلون من القراء، يتغنُّون بها في مواطن الخشوعِ وأوقات التخلي للعبادةِ، حتىٰ لَبَّسوا علىٰ عامةِ الناسِ شعائرَ الإسلامِ، فكلُّ أولئك يذكرون الله فيذكرهم الله بلعنته حتىٰ يسكتوا. «عمدة التفسير» (١/ ٢٧٢).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٣٠٥).

عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣]، وذكَّر سبحانه عبادَهُ المؤمنين بهذه النعمةِ وأمرهم بشكرها، وأن يذكروه علىٰ إسدائها إليهم، فقال تعالىٰ: ﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِيٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة:١٥١-١٥٢]»[(١)].

٢٩- وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنفال:٢٠-٢٣].

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يأمر تعالىٰ عبادَه المؤمنين بطاعتِهِ وطاعةِ رسولِهِ، ويزجرهم عن مخالفتِهِ والتشبُّهِ بالكافرين به، المعاندين له، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ﴾، أي: تتركوا طاعتَه وامتثالَ أوامرِهِ وتركَ زواجرِهِ ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴾ أي: بعدما علمتم ما دعاكم إليه ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ قيل: المرادُ المشركون، واختاره ابن جريرٍ، وقال ابن إسحاق: هم المنافقون، فإنهم يُظهرون أنهم قد سمعوا واستجابوا، وليسوا كذلك.

ثم أخبر تعالىٰ أن هذا الضَّربَ من بني آدمَ شرُّ الخَلقِ والخليقةِ، فقال: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ﴾ أي: عن سماع الحقِّ ﴿ٱلْبُكْمُ﴾ عن فهمِهِ، ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾. فهؤلاء شرُّ البريَّةِ، لأنَّ كلَّ دابَّةٍ مِّما سواهم مطيعةٌ لله فيما

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٧٧).

خلقها له، وهؤلاء خُلقوا للعبادةِ فكفروا، ولهذا شبَّههم بالأنعامِ في قوله: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]. وقال في الآية الأخرىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

وقيل: المرادُ بهؤلاء المذكورين نَفَرٌ من بني عبد الدَّارِ من قريش، رُوي عن ابن عباس ومجاهد واختاره ابن جرير. وقال محمد بن إسحاق: هم المنافقون، قلتُ: ولا منافاةَ بين المشركين والمنافقين في هذا؛ لأنَّ كُلًّا منهم مسلوبُ الفهمِ الصحيحِ والقصدِ إلىٰ العملِ الصالحِ، ثم أخبر تعالىٰ بأنهم لا فَهمَ لهم صحيح، ولا قصدَ لهم صحيح، لو فُرض أنَّ لهم فهمًا، فقال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾، أي: لأفهمهم وتقديرُ الكلامِ (وَ) لكن لا خيرَ فيهم فلم يُفهمهم؛ لأنَّه يعلم أنَّه ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ أي: أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوا۟﴾ عن ذلك قصدًا وعنادًا بعد فهمهم ذلك ﴿وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عنه»[1].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾، أخبر أنَّ الجُهَّالَ شرُّ الدَّوابِّ عنده، علىٰ اختلاف أصنافِها من الحميرِ، والسِّبَاعِ، والكلابِ والحشراتِ، وسائرِ الدَّوَابِّ، فالجهَّالُ شَرٌّ منها، وليس علىٰ دينِ الرُّسلِ أَضَرُّ من الجهَّالِ، بل هم أعداؤُهم علىٰ الحقيقةِ.

وقال تعالىٰ لنبيِّه وقد أعاذه: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام:٣٥].

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٤٨٥).

وقال كليمُهُ موسىٰ عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧].

وقال لأوَّلِ رسُلِهِ نوحٍ عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [هود:٤٦] فهذه حالُ الجاهلين عنده»(١).

٣٠- وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٥-٤٦].

قال ابنُ كثيرٍ رحمه الله: «يقول تعالىٰ لرسولِه محمدٍ ﷺ: وإذا قرأت يا محمدُ علىٰ هؤلاء المشركين القرآنَ، جعلنا بينك وبينهم حجابًا مستورًا.

وقولُه: ﴿حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ بمعنىٰ: ساترٍ، كميمون، ومشئوم، بمعنىٰ: يامن وشائم، لأنَّه من يُمنهم، وقيل: مستورًا عن الأبصار فلا تراه، وهو مع ذلك حجابٌ بينهم وبين الهدىٰ، ومال إلىٰ ترجيحه ابنُ جريرٍ رحمه الله.

وقولُهُ: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ هي جمعُ كنان: الذي يغشىٰ القلبَ، ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ أي: لئلَّا يفهموا القرآنَ، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ هو الثِّقَلُ الذي يمنعهم من سماعِ القرآنِ سماعًا ينفعهم ويهتدون به»(٢).

وقال ابنُ القيم رحمه الله: «أخبر سبحانه عن عقوبتِهِ لأعدائِه أنه منعهم علمَ كتابِهِ ومعرفتَه وفقهَه، فقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٣١).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٧٢).

بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً أَن يَفۡقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾، وأمر نبيَّه بالإعراضِ عنهم فقال: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وأثنىٰ علىٰ عبادِهِ بالإعراضِ عنهم ومتاركتهم كما في قولِهِ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغۡوَ أَعۡرَضُواْ عَنۡهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [القصص:٥٥]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [الفرقان:٦٣]، وكلُّ هذا يدلُّ علىٰ قُبحِ الجهلِ عنده، وبُغضِهِ للجهلِ، وأهلِهِ، وهو كذلك عند النَّاسِ، فكلُّ أحدٍ يتبرأُ منه وإن كان فيه»[(١)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُخبر تعالىٰ عن عقوبتِهِ للمكذِّبين بالحقِّ، الذين ردُّوه وأعرضوا عنه، أنَّه يحولُ بينهم وبين الإيمانِ فقال: ﴿وَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الذي فيه الوعظُ والتذكيرُ، والهدىٰ والإيمانُ، والخيرُ والعلم الكثيرُ، ﴿جَعَلۡنَا بَيۡنَكَ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ حِجَابٗا مَّسۡتُورٗا﴾ يسترهم عن فهمِهِ حقيقةً، وعن التحقُّقِ بحقائقِهِ، والانقيادِ إلىٰ ما يدعو إليه من الخيرِ.

﴿وَجَعَلۡنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ أَكِنَّةً﴾، أي: أغطيةً وأغشيةً لا يفقهون معها القرآنَ، بل يسمعونه سماعًا تقوم به الحُجَّةُ عليهم، ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٗا﴾ أي: صممًا عن سماعِهِ، ﴿وَإِذَا ذَكَرۡتَ رَبَّكَ فِي ٱلۡقُرۡءَانِ وَحۡدَهُۥ﴾ داعيًا إلىٰ توحيده، ناهيًا عن الشرك به ﴿وَلَّوۡاْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِمۡ نُفُورٗا﴾ من شدَّةِ بغضهم له ومحبتهم لما هم عليه من الباطلِ»[(٢)].

٣١- وقال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٣١).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٤١٠).

ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٢٢].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا مثَلٌ ضربه الله تعالىٰ للمؤمنِ الذي كان ميتًا، أي في الضلالةِ هالكًا حائرًا، فأحياه الله، أي أحيا قلبه بالإيمانِ وهداه ووفَّقه لاتباع رُسُلِه، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ أي: يهتدي كيف يسلك وكيف يتصرَّف به، والنورُ هو القرآنُ كما رواه العوفي، وابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وقال السُّدِّيُّ: الإسلام، والكلُّ صحيحٌ: ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي: الجهالاتِ والأهواءِ والضلالاتِ المتفرقةِ ﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ أي: لا يهتدي إلىٰ منفذٍ ولا مَخلَصٍ مما هو فيه. وقولُه تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي: حَسَّنَّا لهم ما كانوا فيه من الجهالةِ والضلالةِ قَدَرًا من الله وحكمةً بالغةً، لا إله إلا هو وحده لا شريكَ له».

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصحيحُ أنَّ الآيةَ عامَّةٌ؛ يدخلُ فيها كلُّ مؤمنٍ وكافرٍ»[١].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والصحيحُ أنَّها عامةٌ في كلِّ مؤمنٍ وكافرٍ، وقيل: كان ميتًا بالجهلِ فأحييناه بالعلمِ»[٢].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ العلمَ حياةٌ ونورٌ، والجهلَ موتٌ وظُلمَةٌ، والشرُّ كلُّه سَبَبُهُ عَدَمُ الحياةِ والنورِ، والخيرُ كلُّه سَببُهُ النورُ والحياةُ، فإنَّ النورَ يكشفُ عن

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٢٨٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧/ ٧٩).

حقائقِ الأشياءِ، ويبيِّن مراتبها، والحياةُ هي المصَحِّحةُ لصفاتِ الكمالِ، والموجِبَةُ لتسديدِ الأقوالِ والأعمالِ، وكلُّ ما تصرَّفَ من الحياةِ فهو خيرٌ كلُّه، كالحياءِ، الذي سَبَبُهُ كمالُ حياةِ القلبِ وتصوُّرُه حقيقةَ القُبحِ ونفرتُهُ منه، وضدُّه الوقاحةُ والفُحشُ، وسببُهُ موتُ القلبِ، وعدمُ نفرته من القبيحِ، وكالحياءِ الذي هو المطرُ الذي به حياةُ كلِّ شيءٍ، قال تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيۡتٗا فَأَحۡيَيۡنَٰهُ وَجَعَلۡنَا لَهُۥ نُورٗا يَمۡشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَاۚ﴾ كان ميتًا بالجهلِ قلبُهُ فأحياه بالعلمِ، وجعل له من الإيمان نورًا يمشي به في الناسِ»[1].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ﴾، مِن قَبلِ هدايةِ الله له ﴿مَيۡتٗا﴾ في ظلماتِ الكفرِ والجهلِ، والمعاصي.

﴿فَأَحۡيَيۡنَٰهُ﴾، بنورِ العلمِ والإيمانِ والطاعةِ ، فصار يمشي بين الناسِ في النورِ، مُتبَصِّرًا في أمورِه، مُهتديًا لسبيلِهِ، عارفًا للخيرِ مُؤثرًا له، مجتهدًا في تنفيذِهِ في نفسِهِ وغيرِه، عارفًا بالشرِّ، مُبغِضًا له، مجتهدًا في تركِهِ وإزالتِهِ عن نفسِهِ وعن غيرِهِ.

أفيستوي هذا بمن هو في الظلماتِ ظلمات الجهل والبغي، والكفر والمعاصي.

﴿لَيۡسَ بِخَارِجٖ مِّنۡهَا﴾ ، قد التبست عليه الطرقُ، وأظلمت عليه المسالكُ، فحضره الهمُّ والغَمُّ والحزنُ والشقاءُ؟!

فَنَبَّهَ تعالىٰ العقولَ بما تدركُهُ وتعرفهُ أنَّه لا يستوي الليلُ والنهارُ، والضياءُ والظُّلمَةُ، والأحياءُ والأمواتُ.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٣١).

فكأنَّه قيل: فكيف يُؤثِرُ مَن له أدنىٰ مُسكَةٍ من عقلٍ، أن يكون بهذه الحالةِ، وأن يبقىٰ في الظلمات متحيِّرًا: فأجاب بأنَّه: ﴿زُيِّنَ لِلْكَـٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، فلم يزل الشيطانُ يُحَسِّنُ لهم أعمالَهم، ويزيِّنها في قلوبهم، حتىٰ استحسنوها، ورَأوها حقًّا، وصار ذلك عقيدةً في قلوبهم، وصفةً راسخةً ملازمةً لهم، ولذلك رَضُوا بما هم عليه من الشرِّ والقبائح»(١).

٣٢- وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠-١١].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله سبحانه وَصَفَ أهلَ النَّارِ بالجهلِ، وأخبر أنَّه سَدَّ عليهم طُرُقَ العلمِ، فقال تعالىٰ حكايةً عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَـٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فأخبروا أنهم كانوا لا يسمعون ولا يعقلون.

والسمعُ والعقلُ هما أصلُ العلمِ وبهما يُنَالُ، وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، فأخبر سبحانه أنَّهم لم يحصل لهم علمٌ من جهةٍ من جهاتِ العلمِ الثلاثِ، وهي: العقلُ والسمعُ والبصرُ، كما قال تعالىٰ في موضعٍ آخر: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٢٣٤).

فقد وصف الله أهلَ الشقاء كما ترىٰ بعدمِ العلمِ وشَبَّهَهُم بالأنعامِ تارةً، وتارةً بالحمارِ الذي يحمل الأسفارَ، وتارةً جعلهم أضلَّ من الأنعامِ، وتارةً جعلهم شرَّ الدوابِّ عنده، وتارةً جعلهم أمواتًا غير أحياءٍ، وتارةً أخبر أنهم في ظلماتِ الجهلِ والضلالِ، وتارةً أخبر أنَّ علىٰ قلوبهم أكِنَّةً، وفي آذانهم وَقرًا، وعلىٰ أبصارِهم غشاوةً.

وهذا كلُّه يدلُّ علىٰ قُبحِ الجهلِ وذَمِّ أهلهِ وبُغضِهِ لهم، كما أنَّه يحبُّ أهلَ العلمِ ويمدحُهم ويُثني عليهم»(١).

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: لو كانت لنا عقولٌ ننتفعُ بها، أو نسمعُ ما أنزله الله من الحقِّ، لما كُنَّا علىٰ ما كُنَّا عليه من الكفرِ بالله والاغترارِ به، ولكن لم يكن لنا فهمٌ نعي به ما جاءت به الرُّسُلُ، ولا كان لنا عقلٌ يرشدنا إلىٰ اتِّباعهم، قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾»(٢).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟﴾ معترفين بعدمِ أهليتهم للهدىٰ والرشادِ: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، فَنَفَوا عن أنفسِهم طُرقَ الهدىٰ، وهي السمعُ لما أنزل الله وجاءت به الرسل، والعقلُ الذي ينفع صاحبَه، ويُوقفه علىٰ حقائقِ الأشياءِ، وإيثارِ الخيرِ، والانزجارِ عن كلِّ ما عاقِبتُه ذميمةٌ، فلا سمعَ لهم ولا عقلَ.

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٤٥).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٦٥٣).

وهذا بخلافِ أهل اليقينِ والعرفانِ، وأربابِ الصدقِ والإيمانِ، فإنَّهم أيَّدُوا إيمانَهم بالأدلَّةِ السمعيةِ، فسمعوا ما جاء من عند الله، وجاء به رسولُ الله علمًا ومعرفةً وعملًا.

والأدلَّةُ العقليةُ: المعرفةُ للهدىٰ من الضلالِ، والحَسَنِ من القبيحِ، والخيرِ من الشرِّ، وهم في الإيمانِ بحسب ما مَنَّ اللَّه عليهم به من الاقتداءِ بالمعقولِ والمنقولِ، فسبحان مَن يختصُّ بفضلِهِ من يشاء، ويَمُنُّ علىٰ مَن يشاءُ من عبادِهِ ويَخذُلُ مَن لا يصلح للخيرِ»(١).

٣٣- وقال تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ: يكذِّبك هؤلاء الكفارُ ويقولون: ﴿لَسۡتَ مُرۡسَلٗا﴾ أي: ما أرسلك الله، ﴿قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ﴾، أي: حسبي الله هو الشاهدُ عليَّ وعليكم، شاهدٌ عليَّ فيما بلَّغت عنه من الرسالةِ، وشاهدٌ عليكم أيها المكذِّبون فيما تفترونه من البهتانِ، وقوله: ﴿وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾، قيل: نزلت في عبدِ الله بنِ سلامٍ، قاله مجاهد: وهذا القولُ غريبٌ؛ لأنَّ هذه الآيةَ مكيةٌ، وعبدُ الله بن سلام إنما أسلم في أولِ مَقدَمِ النبيِّ ﷺ المدينةَ.

والأظهرُ في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباسٍ قال: هم من اليهود والنصارىٰ، وقال قتادةُ: منهم ابنُ سلامٍ وسلمانُ وتميمٌ الداريُّ، وقال مجاهدٌ في روايةٍ عنه: هو

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٨١١).

الله تعالىٰ، وكان سعيدُ بن جبيرٍ يُنكر أن يكون المرادُ بها عبد الله بنَ سلامٍ، ويقول: هي مكيَّةٌ.

والصحيحُ في هذا أنَّ ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ اسمُ جنسٍ يشملُ علماءَ أهلِ الكتابِ الذين يجدون صفةَ محمدٍ ﷺ ونعتَه في كُتبِهم المتقدِّمَةِ من بشاراتِ الأنبياءِ به، كما قال تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧] وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء:١٩٧]، وأمثالُ ذلك مما فيه الإخبارُ عن علماءِ بني إسرائيلَ أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلةِ»(١).

قلتُ: وفي هذه الآيةِ دلالةٌ علىٰ شَرَفِ العلمِ وفَضلِ العلماءِ؛ حيث قَرَنَ الله تعالىٰ شهادتَهم بشهادتِهِ علىٰ أمرٍ جليلٍ، ومشهودٍ به عظيمٍ؛ وهو: صِدقُ الرسول ﷺ في رسالتِهِ وإخباره عن ربِّه ﷻ، وهذا كقولِه تعالىٰ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:١٨].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾، أي: يكذِّبونك، ويكذِّبون ما أُرسلت به، ﴿قُلْ﴾ لهم إن طلبوا علىٰ ذلك شهيدًا، ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾، وشهادتُه بقولِهِ وفعلِهِ وإقرارِه، أمَّا قوله: فبما أوحاه اللهُ إلىٰ أصدقِ خلقِهِ، مما يثبت به رسالتَه.

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٨٤٦).

وأمَّا فعلهُ، فلأنَّ الله تعالىٰ أيَّد رسولَه، ونصره نصرًا خارجًا عن قدرتِهِ وقدرةِ أصحابِهِ وأتباعِهِ، وهذا شهادةٌ منه له بالفعلِ والتأييدِ.

وأمَّا إقرارُهُ، فإنَّه أخبر الرسولُ عنه أنَّه رسولٌ، وأنَّه أمر الناسَ باتباعِهِ، فَمنِ اتبعه فله رضوانُ الله وكرامتُه، ومَن لم يَتَّبعه فله النارُ والسخطُ، وحَلَّ له مالُهُ ودمُهُ، والله يقرُّهُ علىٰ ذلك، فلو تقوَّلَ عليه بعضَ الأقاويلِ لعاجَلَهُ بالعقوبةِ.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾، وهذا شاملٌ لكلِّ علماء أهلِ الكتابين، فإنهم يشهد منهم للرسولِ مَن آمن واتَّبع الحقَّ، فصرَّح بتلك الشهادةِ التي عليه، ومَن كتم ذلك، فإخبارُ الله عنه أنَّ عنده شهادةً أبلغُ من خبرِهِ، ولو لم يكن عنده شهادةٌ لردَّ استشهادَهُ بالبرهانِ، فسكوتُه يدلُّ علىٰ أنَّ عنده شهادةً مكتومةً.

وإنَّما أمرَ الله باستشهادِ أهلِ الكتابِ، لأنَّهم أهلُ هذا الشأنِ، وكلُّ أمرٍ إنَّما يستشهد فيه أهلُه، ومَن هم أعلم به من غيرهم، بخلافِ مَن هو أجنبيٌّ عنه، كالأمِّيين، من مشركي العربِ وغيرهم، فلا فائدةَ في استشهادِهم لعدمِ خبرتِهم ومعرفتِهم، والله أعلم»(١).

٣٤- وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء:٨٣].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾، أي:

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣٧٥).

يستخرجونه، أي: لعلموا ما ينبغي أن يُفشىٰ منه وما ينبغي أن يُكتمَ، والاستنباطُ مأخوذٌ من استنبطت الماءَ إذا استخرجته.

والنَّبَطُ: الماءُ المستنبطُ أوَّلَ ما يخرج من ماءِ البئرِ أول ما تُحفر، وسمِّيَ النَّبَطُ نَبطًا لأنَّهم يستخرجون ما في الأرضِ، والاستنباطُ في اللغةِ: الاستخراجُ، وهو يدلُّ علىٰ الاجتهادِ إذا عُدم النصُّ والإجماعُ»(١).

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الاستنباطُ هو استخراجُ الشيءِ الثابتِ الخَفِيِّ الذي لا يَعثُرُ عليه كلُّ أحدٍ، ومنه استنباطُ الماءِ، وهو استخراجُه من موضعِهِ، ومنه قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ [النساء:٨٣]، أي: يستخرجون حقيقتَه وتدبيرَه بِفِطَنهم وذكائهم وإيمانهم ومعرفتهم بمواطنِ الأمن والخوفِ»(٢).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا تأديبٌ من الله لعبادِهِ عن فعلِهم هذا غير اللائقِ، وأنَّه ينبغي لهم إذا جاءهم أمرٌ من الأمورِ المهمة، والمصالحِ العامة، مما يتعلَّق بالأمن، وسرورِ المؤمنين، أو بالخوفِ الذي فيه مصيبةٌ عليهم، أن يتثبتوا ولا يستعجلوا بإشاعةِ ذلك الخبرِ، بل يردونه إلىٰ الرسولِ، وإلىٰ أولي الأمرِ منهم؛ أهلُ الرأي والعلمِ، والنُّصحِ، والعقلِ، والرزانةِ، الذين يعرفون الأمورَ ويعرفون المصالحَ وضدَّها.

فإن رأوا في إذاعتهِ مصلحةً ونشاطًا للمؤمنين، وسرورًا لهم، وتحرُّزًا من

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٥/ ٢٩٢).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢/ ٥٣٩).

أعدائهم، فعلوا ذلك وإن رَأوا ما فيه مصلحةٌ، أو فيه مصلحةٌ ولكن مضرته تزيد علىٰ مصلحتهِ لـم يذيعوه؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾ أي: يستخرجونه بفكرهم وآرائِهم السديدةِ، وعلومِهم الرشيدةِ.

وفي هذا دليلٌ لقاعدةٍ أدبيةٍ، وهي أنَّه إذا حَصَلَ بحثٌ في أمرٍ من الأمورِ، ينبغي أن يولَّىٰ مَن هو أهلٌ لذلك، ويُجعل إلىٰ أهلِه، ولا يُتَقَدَّمَ بين أيديهم، فإنه أقربُ إلىٰ الصوابِ وأحرىٰ للسلامةِ من الخطأ.

وفيه النهي عن العَجَلَةِ والتسرُّعِ لنشرِ الأمورِ، من حين سماعِها، والأمرُ بالتأملِ قبل الكلامِ والنظر فيه، هل هو مصلحةٌ فيُقدِمَ عليه الإنسانُ، أم لا؟ فيحجم عنه؟

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ﴾، أي: في توفيقكم، وتأديبكم، وتعليمكم ما لـم تكونوا تعلمون، ﴿لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، لأنَّ الإنسانَ بطبعِهِ ظالـمٌ جاهلٌ؛ فلا تأمره نفسُهُ إلا بالشرِّ، فإذا لَجأَ إلىٰ ربِّه، واعتصَم به، واجتهدَ في ذلك، لَطُفَ به ربُّهُ، ووفَّقَهُ لكلِّ خيرٍ، وعَصَمَهُ من الشيطانِ الرجيمِ»[1].

٣٥- وقال تعالىٰ: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيۡرَ سَاعَةٖۚ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤۡفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَٱلۡإِيمَٰنَ لَقَدۡ لَبِثۡتُمۡ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡبَعۡثِۖ فَهَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡبَعۡثِ وَلَٰكِنَّكُمۡ كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الروم:٥٥-٥٦].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أفضلُ ما اكتسبته النفوسُ وحصَّلته القلوبُ، ونال به العبدُ الرِّفعَةَ في الدنيا والآخرة، هو العلمُ والإيمانُ، ولهذا قَرَنَ بينهما سبحانه في

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص١٥٤).

قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ وقوله: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [المجادلة:١١]، وهؤلاء هم خلاصةُ الوجودِ ولُبُّهُ، والمؤهَّلون للمراتبِ العاليةِ، ولكنَّ أكثرَ الناسِ غالطون في حقيقةِ مسمَّىٰ العلمِ والإيمانِ اللَّذين بهما السعادةُ والرفعةُ وفي حقيقتهما؛ حتىٰ إنَّ كلَّ طائفةٍ تظنُّ أنَّ ما معها من العلمِ والإيمان هو هذا الذي تنال به السعادةَ، وليس كذلك، بل أكثرهم ليس معهم إيمانٌ ينجي ولا علمٌ يرفع، بل قد سدُّوا علىٰ أنفسِهم طُرقَ العلمِ والإيمانِ اللَّذينِ جاء بهما الرسولُ ﷺ، ودعا إليهما الأمَّةَ، وكان عليهما هو وأصحابُهُ من بَعده، وتابعوهم علىٰ منهاجِهم وآثارِهم.

فكلُّ طائفةٍ اعتقدت أنَّ العلمَ ما معها وفرحت به، وتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبُرًا، كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون، وأكثرُ ما عندهم: كلامٌ، وآراءٌ، وخَرصٌ(١)، والعلمُ وراء الكلامِ، كما قال حمادُ بن زيدٍ، قلتُ لأيوبَ: العلمُ اليوم أكثرُ أو فيما تقدَّم؟ فقال: الكلامُ اليوم أكثرُ، والعلمُ فيما تقدَّم أكثرُ.

فَفَرَّقَ هذا الراسخُ بين العلمِ والكلامِ، فالكتبُ كثيرةٌ جدًّا، والكلامُ والجدالُ والمقدَّرَاتُ الذهنيةُ كثيرةٌ، والعلمُ بمعزلٍ عن أكثرِها، وهو ما جاء به الرسولُ ﷺ، قال تعالىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران:٦١]،، وقال: ﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة:١٢٠]، وقال في القرآن: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء:١٦٦]، أي: وفيه علمُهُ.

ولـمَّا بَعُدَ العهد بهذا العلمِ آلَ الأمرُ بكثيرٍ من الناسِ إلىٰ أن اتخذوا هواجسَ

(١) **الخَرصُ**: الكذبُ، وأصلُ الخَرصِ: التَّظَنِّي فيما لا تستيقنه.

الأفكارِ، وسوانحَ الخواطرِ والآراءِ علمًا، ووضعوا فيها الكتب، وأنفقوا فيها الأنفاسَ، فضيَّعوا فيها الزمانَ، وملئوا بها الصُّحُفَ مِدَادًا، والقلوبَ سوادًا[١]، حتىٰ صَرَّحَ كثيرٌ منهم أنَّه ليس في القرآن والسنة علمٌ، وأن أدلتهما لفظيةٌ لا تفيد يقينًا ولا علمًا، وصرخ الشيطانُ بهذه الكلمةِ فيهم، وأذَّنَ بها بين أظهرِهم، حتىٰ أسمعها دانيهم لقاصيهم، فانسلخت بها القلوبُ من العلمِ والإيمانِ كانسلاخِ الحَيَّةِ من قِشرها، والثوبِ عن لابِسِهِ»[٢].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي: يحلف المشركون، ﴿مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ في معناها قولان: أحدهما: أنه لابدَّ من خَمدَةٍ قبل يوم القيامةِ، فعلىٰ هذا قالوا: ما لبثنا غيرَ ساعةٍ، والقولُ الآخرُ: أنَّهم يعنون في الدنيا لزوالها وانقطاعها، كما قال تعالىٰ: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات:٤٦]، كأن لم يلبثوا إلا ساعةً من نهارٍ، وإن كانوا قد أقسموا علىٰ غيبٍ وعلىٰ غيرِ ما يدرون.

قال الله ﷻ : ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كانوا يكذبون في الدنيا، يُقال: أُفِكَ الرجلُ إذا صُرِفَ عن الصدقِ والخيرِ، وأرضٌ مأفوكةٌ: ممنوعةٌ من المطرِ.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، اختُلف في الذين أوتوا العلم؛ فقيل: الملائكةُ، وقيل: الأنبياءُ، وقيل:

(١) ما أشدَّ انطباقَ هذا الكلامِ علىٰ عصرنا! كأنَّه كُتب له خاصة، فما أشبه الليلةَ بالبارحة! والله المستعان.

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص١٣٨).

علماءُ الأممِ، وقيل: مؤمنو هذه الأمةِ، وقيل: جميعُ المؤمنين؛ أي: يقول المؤمنون للكفَّارِ ردًّا عليهم: لقد لبثتم في قبوركم إلىٰ يوم البعث»[1].

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالىٰ عن جهلِ الكفَّارِ في الدنيا والآخرةِ، ففي الدنيا فعلوا ما فعلوا من عبادَةِ الأوثانِ، وفي الآخرةِ يكون منهم جهلٌ عظيمٌ أيضًا، فمنه إقسامُهم بالله أنهم ما لبثوا غيرَ ساعةٍ واحدةٍ في الدنيا، ومقصودهم بذلك عدمُ قيامِ الحُجَّةِ عليهم، وأنَّهم لـم يُنظَروا حتىٰ يُعذَرَ إليهم.

قال الله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ۝٥٥ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، أي: فيردُّ عليهم المؤمنون العلماءُ في الآخرةِ، كما أقاموا عليهم حُجَّةَ الله في الدنيا، فيقولون لهم حين يحلفون ما لبثوا غير ساعةٍ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في كتابِ الأعمالِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ أي: من يوم خُلقتم إلىٰ أن بُعثتم ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ قالَ الله تعالىٰ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي: يومَ القيامةِ ﴿لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي: اعتذارُهم عمَّا فعلوا ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ أي: ولا هم يرجعون إلىٰ الدنيا»[2].

وقال الشوكانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، اختُلف في تعيينِ هؤلاء الذين أوتوا العلمَ، فقيل: الملائكةُ، وقيل: الأنبياءُ، وقيل: علماءُ الأممِ، وقيل: مؤمنو هذه الأمَّةِ، ولا مانعَ من الحملِ علىٰ الجميعِ.

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٤/ ٤٩).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٧٢٥).

ومعنىٰ ﴿فِي كِتَابِ ٱللَّهِ﴾ في علمِهِ وقضائِهِ»[(١)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾، أي: مَنَّ الله عليهم بهما، وصار وصفًا لهم، العلمُ بالحقِّ، والإيمانُ المستلزِمُ إيثارَ الحقِّ، وإذا كانوا عالمين بالحقِّ مؤثرين له، لَزِمَ أن يكونَ قولُهم مطابقًا للواقعِ، مناسبًا لأحوالهم، فلهذا قالوا الحقَّ: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: في قضائِهِ وقَدَرِهِ الذي كتبه الله عليكم وفي حكمِهِ ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾، أي: عمرًا يتذكَّر فيه المتذكِّرُ، ويتدبَّرُ فيه المتدبِّرُ، ويعتبر فيه المعتبِرُ، حتىٰ صار البعثُ، ووصلتم إلىٰ هذه الحالةِ.

﴿فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، فلذلك أنكرتموه في الدنيا، وأنكرتُم إقامتكم في الدنيا وقتًا تتمكَّنون فيه من الإنابةِ والتوبةِ، فلم يزل الجهلُ شعارَكم، وآثارُهُ من التكذيب والخسارِ دثارَكم»[(٢)].

٣٦- وقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالىٰ عن فضلهِ ورحمتِهِ بخلقِهِ أنَّه أنزل علىٰ عبادِهِ القرآنَ، ويسرَّ حفظه وفهمَه علىٰ مَن رحمه فقال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾، قال الحسنُ: يعني: النطقَ، وقال

---

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٤/ ٢٣٢).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٥٩٤). والشِّعَارُ: ما وَلِيَ جسدَ الإنسانِ دون ما سواه من الثياب، والدِّثَارُ: الثوبُ الذي يكون فوق الشِّعَارِ.

الضحَّاكُ وقتادةُ وغيرُهما: يعني الخيرَ والشَّرَّ، وقولُ الحسنِ هاهنا أحسنُ وأقوىٰ؛ لأنَّ السياقَ في تعليمهِ تعالىٰ القرآنَ، وهو أداءُ تلاوتِهِ، وإنما يكون ذلك بتيسيرِ النطقِ علىٰ الخَلقِ، وتسهيلِ خروجِ الحروفِ من مواضِعِها من الحَلقِ واللسانِ والشفتين علىٰ اختلافِ مخارجِها وأنواعِها»(١).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾، أي: علَّم عبادَهُ ألفاظَه ومعانيه ويسرَّها علىٰ عبادِهِ، وهذا أعظمُ منَّةٍ ورحمةٍ رحم بها العبادَ؛ حيثُ أنزلَ عليهم قرآنًا عربيًّا بأحسنِ الألفاظِ، وأوضحِ المعاني، مشتملًا علىٰ كلِّ خيرٍ، زاجرًا عن كلِّ شَرٍّ.

﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ في أحسنِ تقويمٍ، كاملَ الأعضاءِ، مستوفِيَ الأجزاءِ، محكمَ البناءِ، قد أتقن البارئُ تعالىٰ البديعُ خلقَه أيَّ إتقانٍ، وميَّزَهُ علىٰ سائرِ الحيواناتِ بأن: ﴿عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ﴾، أي: التبيين عمَّا في ضميرِهِ، وهذا شاملٌ للتعليمِ النطقيِّ والتعليمِ الخطِّيِّ، فالبيانُ الذي مَيَّزَ الله به الآدميَّ علىٰ غيرِهِ من أجَلِّ نعمِهِ، وأكبرِها عليه»(٢).

٣٧- وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ بَعَثَ لَكُمۡ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ عَلَيۡنَا وَنَحۡنُ أَحَقُّ بِٱلۡمُلۡكِ مِنۡهُ وَلَمۡ يُؤۡتَ سَعَةً مِّنَ ٱلۡمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰهُ عَلَيۡكُمۡ وَزَادَهُۥ بَسۡطَةً فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ وَٱللَّهُ يُؤۡتِي مُلۡكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٤٤٠).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٧٦٩).

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَّما طلبوا من نبيِّهم أن يعيِّنَ لهم مَلِكًا منهم، فعيَّنَ لهم طالوتَ، وكان رجلًا من أجنادِهم، ولم يكن من بيتِ الملكِ فيهم، لأنَّ الملكَ كان في سبطِ يهوذا، ولم يكن هذا من ذلك السِّبطِ، فلهذا قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا﴾، أي: كيف يكون مَلِكًا علينا، ﴿وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ﴾ أي: هو مع هذا فقيرٌ لا مالَ له يقوم بالملكِ.

وقد ذكر بعضُهم أنَّه كان سَقَّاءً، وقيل: دَبَّاغًا، وهذا اعتراضٌ منهم علىٰ نبيِّهم وتعنُّتٌ، وكان الأولَىٰ بهم طاعةٌ وقولٌ معروفٌ، ثمَّ قد أجابهم نبيُّهم قائلًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ﴾، أي: اختاره لكم من بينكم، واللهُ أعلمُ به منكم، ويقول: لستُ أنا الذي عيَّنته من تلقاء نفسي، بل الله أمرني به لَمَّا طلبتم مني ذلك.

﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ أي: وهو مع هذا أعلمُ منكم وأنبلُ وأشكلُ منكم، وأشدُّ قوةً وصبرًا في الحربِ ومعرفةً بها، وأتمُّ علمًا وقامةً منكم، ومن هاهنا ينبغي أن يكونَ الملكُ ذا علمٍ وشكلٍ حَسَنٍ، وقوةٍ شديدةٍ في بدنِهِ ونفسِهِ.

ثمَّ قال: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ﴾، أي: هو الحاكمُ الذي ما شاء فعَلَ، ولا يُسألُ عمَّا يفعل وهم يُسألونَ؛ لعلمِهِ وحكمتهِ، ورأفتِهِ بخلقِهِ، ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، أي: هو واسعُ الفضلِ يختصُّ برحمتهِ من يشاء، عليمٌ بَمن يستحقُّ الملكَ مَّمن لا يستحقُّه»[(١)].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ﴾، أي: اختاره وهو

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٤٧١).

الحُجَّةُ القاطعةُ، وبيَّنَ لهم مع ذلك تعليلَ اصطفاء طالوتَ، وهو بسطتُهُ في العلمِ الذي هو مِلاكُ الإنسانِ، والجسمِ الذي هو مُعِينُهُ في الحربِ وعُدَّتُهُ عند اللقاء؛ فتضمَّنت بيانَ صفةِ الإمامِ وأحوالِ الإمامةِ وأنها مستَحَقَّةٌ بالعلمِ والدينِ والقوةِ لا بالنَّسَبِ، فلا حظَّ للنَّسَبِ فيها مع العلمِ وفضائلِ النَّفسِ وأنها متقدِّمةٌ عليه؛ لأنَّ الله تعالىٰ أخبر أنه اختاره عليهم لعلمِهِ وقوتِهِ، وإن كانوا أشرفَ مُنتَسَبًا»(١).

٣٨- وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران:٧].

قال في «عمدة التفسير»: «يخبر تعالىٰ أنَّ في القرآنِ آياتٍ محكماتٍ ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، أي: بيِّناتٌ واضحاتُ الدَّلالةِ، لا التباسَ فيها علىٰ أحدٍ، ومنه آياتٌ أُخَرُ فيها اشتباهٌ في الدَّلالَةِ علىٰ كثيرٍ من النَّاسِ أو بعضهم، فَمَن ردَّ ما اشتبه إلىٰ الواضحِ منه، وحَكَّمَ مُحكَمَهُ علىٰ متشابهِهِ عنده فقد اهتدىٰ، ومن عكس انعكس.

ولهذا قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾، أي: أصلُهُ الذي يُرجَعُ إليه عند الاشتباه، ﴿وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ﴾ أي: تحتمل دلالتُها موافقةَ المحكمِ، وقد تحتمل شيئًا آخرَ من حيثُ اللفظُ والتركيبُ، لا من حيث المرادُ.

قولُهُ تعالىٰ: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾، أي: ضلالٌ وخروجٌ عن الحقِّ إلىٰ

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٣/ ٢٤٣).

الباطلِ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾، أي: إنما يأخذون منه بالمتشابهِ الذي يمكنهم أن يحرِّفوه إلىٰ مقاصدِهم الفاسدةِ وينزِّلُوه عليها، لاحتمالِ لفظِهِ لما يصرِّفونه، فأمَّا المحكمُ فلا نصيبَ لهم فيه، لأنَّه دافعٌ لهم وحُجَّةٌ عليهم.

ولهذا قال: ﴿ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ﴾ أي: الإضلال لأتباعِهم، إيهامًا لهم أنهم يحتجُّون علىٰ بدعتهم بالقرآنِ، وهذا حُجَّةٌ عليهم لا لهم.

وقولهُ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، قال ابن عباس: التفسيرُ علىٰ أربعة أنحاءَ: تفسيرٌ لا يُعذَرُ أحدٌ في فهمِهِ، وتفسيرٌ تعرفُهُ العربُ من لغاتها، وتفسيرٌ يعلَمهُ الراسخون في العلمِ، وتفسيرٌ لا يعلمُهُ إلا الله، وقال مجاهدٌ: والراسخون في العلمِ يعلمون تأويلَه، ويقولون: آمنا به.

وقال محمدُ بن جعفر بن الزبير: وما يعلم تأويلَه الذي أراد ما أراد، إلا الله، والراسخون في العلمِ يقولون: آمنَّا به، ثم ردُّوا تأويلَ المتشابهِ علىٰ ما عرفوا من تأويلِ المحكَمَةِ التي لا تأويل لأحد فيها إلا تأويلٌ واحدٌ، فاتَّسَقَ بقولهم الكتابُ، وصَدَّقَ بعضهُ بعضًا، فنفذت الحُجَّةُ، وظهر به العذرُ، وزاح به الباطل، ودفع به الكفر»[١].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يخبر تعالىٰ عن عظمتهِ، وكمالِ قيُّوميَّته، أنَّه هو الذي تفرَّدَ بإنزالِ هذا الكتابِ العظيمِ الذي لم يُوجد ولن يوجد له نظيرٌ أو مقارِبٌ في هدايتِهِ، وبلاغتِهِ وإعجازِهِ، وإصلاحِهِ للخلقِ، وأنَّ هذا الكتابَ يحتوي علىٰ المحكمِ الواضحِ المعاني، البيِّنِ الذي لا يشتبه بغيره، ومنه آياتٌ متشابهاتٌ، تحتمل بعضَ المعاني، ولا يتعيَّنُ منها واحدٌ من الاحتمالين بمجرَّدِها، حتىٰ تُضَمَّ إلىٰ المحكمِ.

(١) «عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير»، اختصار وتحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر (٢/ ٢١٨).

فالذين في قلوبهم مرضٌ وزيغٌ وانحرافٌ، لسوءِ قصدِهم، يتَّبعون المتشابه منه، فيستدلُّون به علىٰ مقالاتهم الباطلةِ، وآرائهم الزائفةِ، طلبًا للفتنةِ، وتحريفًا لكتابهِ، وتأويلًا له علىٰ مشاربهم ومذاهبهم ليَضلُّوا ويُضِلُّوا.

وأمَّا أهلُ العلمِ الراسخون فيه، الذين وَصَلَ العلمُ واليقينُ إلىٰ أفئدتِهم، فأثمرَ لهم العملَ والمعارفَ فيعلمون أنَّ القرآنَ كلَّه من عند الله، وأنَّه كلَّه حَقٌّ، محكمَهُ ومتشابهَهُ، وأنَّ الحقَّ لا يتناقضُ ولا يختلفُ.

فلعلمهم أنَّ المحكماتِ، معناها في غايةِ الصراحةِ والبيانِ، يردُّون إليها المشتبهَ، الذي تحصل فيه الحيرةُ لناقصِ العلمِ، وناقصِ المعرفةِ، فيردُّون المتشابهَ إلىٰ المحكمِ فيعود كلُّه محكمًا، ويقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ للأمورِ النافعةِ والعلومِ الصائبةِ ﴿إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: أهلُ العقولِ الرزينةِ.

ففي هذا دليلٌ علىٰ أنَّ هذا من علامةِ أولي الألباب، وأنَّ اتِّبَاعَ المتشابِهِ من أوصافِ أهلِ الآراءِ السقيمةِ، والعقولِ الواهيةِ، والقصودِ السيِّئَةِ.

وقولُهُ: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، إن أُريد بالتأويلِ معرفةُ عاقبةِ الأمورِ، وما تنتهي إليه وتئولُ، تعيَّنَ الوقوفُ علىٰ ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ حيث هو تعالىٰ المتفرِّدُ بالتأويلِ بهذا المعنىٰ، وإن أُريدَ بالتأويلِ: معنىٰ التفسيرِ، ومعرفةُ معنىٰ الكلامِ، كان العطفُ أَولَىٰ، فيكون هذا مدحًا للراسخين في العلم، أنهم يعلمون كيف ينزِّلُون نصوصَ الكتابِ والسنةِ محكمَهَا ومتشابِهَهَا»[1].

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص١٠١).

٣٩- وقال تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾ [الحج:٥٤].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: وليعلم الذين أُوتوا العلمَ النافعَ الذي يفرِّقون به بين الحقِّ والباطلِ، والمؤمنون بالله ورسولِهِ أنَّ ما أوحيناه إليك هو الحق من ربك، الذي أنزله بعلمِهِ وحفظِهِ، وحَرَسَهُ أن يختلطَ به غيره بل هو كتابٌ عزيزٌ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت:٤٢]، وقولُهُ: ﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: يصدِّقوه وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل له قلوبهم، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ﴾، أي: في الدنيا والآخرةِ، أمَّا في الدنيا فيرشدهم إلىٰ الحقِّ واتباعه، ويوفِّقهم لمخالفةِ الباطلِ واجتنابِهِ، وفي الآخرةِ يهديهم الصراطَ المستقيمَ الموصِّلَ إلىٰ درجاتِ الجنَّاتِ، ويزحزحهم عن العذابِ الأليم والدركاتِ»[1].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ وأنَّ الله منحهم من العلمِ، ما به يعرفون الحقَّ من الباطلِ، والرُّشدَ من الغَيِّ، فيفرِّقون بين الأمرين، الحقِّ المستقرِّ الذي يحكمه الله، والباطلِ العارضِ الذي ينسخُهُ الله، بما علىٰ كلٍّ منهما من الشواهدِ، وليعلموا أن الله حكيمٌ، يقيِّضُ بعضَ أنواعِ الابتلاءِ، ليُظهِرَ بذلك كمائنَ النفوسِ الخَيِّرَةِ والشريرةِ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٣٨٢).

﴿فَيُؤْمِنُواْ بِهِۦ﴾ بسببِ ذلك، ويزداد إيمانُهم، عند دفعِ المعارضِ والشُّبهَةِ ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾، أي: تخشع وتخضع، وتسلِّم لحكمتهِ، وهذا من هدايتِهِ إياهم.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، بسبب إيمانهم، ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، علمٍ بالحقِّ، وعملٍ بمقتضاه، فيثبِّت الله الذين آمنوا بالقولِ الثابتِ في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ، وهذا النوعُ من تثبيتِ الله لعبدِهِ»(١).

٤٠- وقال تعالىٰ: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٣٨-٤٠].

لمَّا رجعت الرُّسُلُ إلىٰ ملكةِ سبأ بما قال سليمانُ ﷺ قالت: قد والله عرفتُ ما هذا بملكٍ وما لنا به من طاقةٍ، وما نصنع بمكابرتهِ شيئًا، وبعثت إليه إني قادمةٌ عليك بملوكِ قومي لأنظر ما أمرُك وما تدعونا إليه من دينك.

قال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «...فقال -سليمانُ- لمن حَضَرَهُ من الجِنِّ والإنسِ: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾، أي: لأجلِ أن نتصرَّفَ فيه، قبل أن يُسلموا، فتكون أموالُهم محترمةً، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، والعفريتُ: هو القويُّ النشيطُ جدًّا: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾، والظاهرُ أنَّ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٤٩١).

سليمانَ إذ ذاكَ في الشامِ، فيكون بينه وبين سبأ، نحوُ مسيرة أربعةِ أشهرٍ، شهران ذهابًا، وشهران إيابًا، ومع ذلك يقول هذا العفريتُ: أنا ألتزمُ بالمجيء به، علىٰ كِبَرِهِ وثِقَلِهِ وبُعده، قبل أن تقومَ من مجلسِك الذي أنت فيه، والمعتادُ من المجالسِ الطويلةِ، أن تكون معظمَ الضُّحىٰ، نحو ثُلُثِ يومٍ، هذا نهايةُ المعتادِ، وقد يكون دون ذلك، أو أكثر.

﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال المفسِّرون: هو رجلٌ عالـمٌ صالحٌ عند سليمان يُقال له: آصف بن برخيا كان يعرف اسمَ الله الأعظمَ، الذي إذا دُعي الله به أجاب، وإذا سُئلَ به أعطىٰ. ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، بأن يدعوَ الله بذلك الاسمِ، فيحضر حالًا، وأنَّه دعا الله فحضر، فالله أعلمُ، هل هذا هو المراد، أم أنَّ عنده علمًا من الكتابِ، يقتدرُ به علىٰ جَلبِ البعيدِ، وتحصيلِ الشديدِ؟

﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ حمد الله تعالىٰ علىٰ إقدارِه وملكه وتيسير الأمورِ له و ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ أي: ليختبرني بذلك، فلم يغترَّ عليه السلام بملكِهِ وسلطانِهِ وقدرتِهِ، كما هو دأبُ الملوكِ الجاهلين، بل علم أنَّ ذلك اختبارٌ من ربِّه فخاف ألا يقومَ بشكرِ هذه النعمةِ، ثم بيَّن أنَّ هذا الشكرَ لا ينتفعُ الله به، وإنما يرجع نفعُهُ إلىٰ صاحبِهِ، فقال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ غنيٌّ عن شكرِ الشاكرِ، كريمٌ كثيرُ الخيرِ يعمُّ به الشاكرَ والكافرَ، إلا أنَّ شكرَ نعمِهِ داعٍ للمزيدِ منها، وكفرَهَا داعٍ لزوالها»[١].

قلت: بيَّن الله سبحانه أنَّه أقدَرَ صاحبَ العلمِ علىٰ أن أتىٰ ما أتىٰ من أمرٍ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٥٥٤).

عجيبٍ وفعلٍ غريبٍ بما آتاه الله من قوةِ العلمِ، حتىٰ إنَّه ليفعل ما عجز العِفريتُ الجنيُّ أن يفعلَه في ذاتِ الزمن، وكفىٰ بهذا شرفًا للعلمِ وأهلِهِ.

٤١- وقال تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [النحل:٢٧].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ﴾ أي: يُظهر فضائحَهُم، وما كانت تُجِنُّه ضمائرهُم فيجعله علانيةً، كقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾ [الطارق:٩]، أي: تُظهر وتشتهر، فهؤلاء يُظهر للناسِ ما كانوا يسرُّونه من المكرِ، ويُخزيهم الله علىٰ رءوسِ الخلائقِ ويقول لهم الربُّ -تبارك وتعالىٰ- مُقرِّعًا ومُوبِّخًا: ﴿أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ﴾ تحاربون وتعادون في سبيلهم، أين هم عن نصركم وخلاصكم هاهنا؟ ﴿هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ﴾ [الشعراء: ٩٣]، ﴿فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾ [الطارق:١٠] فإذا توجَّهت عليهم الحجَّةُ وقامت عليهم الدَّلالةُ، وحقَّت عليهم الكلمةُ وسكتوا عن الاعتذارِ حين لا فرار ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهم السادةُ في الدنيا والآخرةِ، والمخبرون عن الحقِّ في الدنيا والآخرةِ، فيقولون حينئذ: ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: الفضيحةُ والعذابُ محيطٌ اليوم بمَن كفر بالله وأشرك به ما لا يضرُّه وما لا ينفعُهُ»(١).

وقال الشوكانيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾، قيل: هم

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٩٢٤).

العلماءُ، قالوه لأممهم الذين كانوا يعظونهم، ولا يلتفتون إلىٰ وعظهم، وكان هذا القولُ منهم علىٰ طريق الشماتةِ؛ وقيل: هم الأنبياءُ، وقيل: الملائكةُ، والظاهرُ الأولُ لأنَّ ذكرهم بوصفِ العلمِ يفيد ذلك، وإن كان الأنبياءُ والملائكةُ هم من أهل العلمِ، بل هم أعرقُ فيه، لكن لهم وصفٌ يُذكرون به هو أشرفُ من هذا الوصفِ، وهو كونُهم أنبياءَ أو كونهم ملائكةً، ولا يقدح في هذا جوازُ الإطلاقِ، ولأنَّ المرادَ الاستدلالُ علىٰ الظهورِ فقط، ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: الذلُّ والهوانُ والفضيحةُ يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾، أي: العذابُ ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ مختصٌّ بهم»(١).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿ثُمَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُخۡزِيهِمۡ﴾ أي: يفضحهم علىٰ رءوس الخلائقِ، ويبيِّنُ لهم كذبَهم، وافتراءَهم علىٰ الله.

﴿وَيَقُولُ أَيۡنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمۡ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمۡ﴾ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبَهُ لأجلهم، وتزعمون أنهم شركاءُ لله، فإذا سألهم هذا السؤالَ، لم يكن لهم جوابٌ، إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ أي: العلماءُ الربَّانيون ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾ أي: سوء العذابِ ﴿عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وفي هذا فضيلةُ أهلِ العلمِ، وأنَّهم الناطقون بالحقِّ في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهادُ، وأنَّ لقولهم اعتبارًا عند الله، وعند خلقِهِ»(٢).

٤٢- وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ

(١) «فتح القدير» للشوكاني (٣/ ١٥٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣٩١).

وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [يوسف:٦٧-٦٨].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ إخبارًا عن يعقوبَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: إنَّه أمر بنيه لَّما جَهَّزهم مع أخيهم بنيامين إلىٰ مصر ألا يدخلوا كلُّهم من بابٍ واحدٍ، وليدخلوا من أبوابٍ متفرِّقةٍ؛ فإنَّه كما قال ابنُ عباسٍ ومحمدُ بنُ كعبٍ ومجاهدٌ والضحَّاكُ وقتادةُ والسُّدِّيُّ وغيرُ واحدٍ أنَّه: خشي عليهم العين، وذلك أنهم كانوا ذوي جمالٍ وهيئةٍ حسنةٍ ومنظرٍ وبهاءٍ، فخشي عليهم أن يصيبهم الناسُ بعيونهم، فإنَّ العينَ حقٌّ تستنزلُ الفارسَ عن فرسِهِ.

وروىٰ ابن أبي حاتمٍ عن إبراهيمَ النخعيِّ في الآيةِ في قولِهِ: ﴿وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖ﴾ قال: عَلِمَ أنَّه سيلقىٰ إخوتَه في بعضِ تلك الأبواب.

وقولُه: ﴿وَمَآ أُغۡنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ﴾ أي: إنَّ هذا الاحترازَ لا يردُّ قَدَرَ الله وقضاءَه، فإنَّ الله إذا أراد شيئًا لا يُخالَفُ ولا يُمانع. ﴿إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةٗ فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَاۚ﴾ قالوا: هي دَفعُ إصابةِ العينِ لهم.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ قال قتادةُ والثوريُّ: لذو علمٍ يعلمه.

وقال ابنُ جريرٍ: لذو علمٍ لتعليمنا إياه ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾»[(١)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا﴾ ذهبوا و ﴿دَخَلُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَهُمۡ أَبُوهُم مَّا كَانَ﴾ ذلك الفعلُ ﴿يُغۡنِي عَنۡهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفۡسِ يَعۡقُوبَ قَضَىٰهَا﴾ وهو موجبُ الشفقةِ والمحبة للأولادِ، فحصل له في ذلك نوعُ طمأنينةٍ وقضاءٍ لما في خاطره، وليس هذا قصورًا في علمِهِ فإنه من الرسلِ الكرامِ والعلماءِ الربَّانيِّين، ولهذا قال عنه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٍ﴾ أي: لصاحبُ علمٍ عظيمٍ، ﴿لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ أي: لتعليمنا إياه لا بحولِهِ وقوتهِ أدركه، بل بفضلِ الله وتعليمه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ عواقبَ الأمورِ، ودقائقَ الأشياءِ، وكذلك أهلُ العلمِ منهم يخفىٰ عليهم من العلمِ وأحكامِهِ ولوازمِهِ شيءٌ كثيرٌ»[(٢)].

* * *

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٧٨٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣٥٧).

ثانيًا: مِن نُصُوصِ السُّنَّةِ المُطَهَّرَةِ

١- قال حُمَيدُ بنُ عبدِ الرَّحمَنِ: سَمِعتُ مُعَاوِيَةَ خطيبًا يَقُولُ: سَمِعتُ النبيَّ ﷺ يقولُ: «**مَن يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ واللهُ يُعطِي، وَلَن تَزَالَ هذهِ الأُمَّةُ قَائمَةً عَلَىٰ أَمرِ الله، لا يَضُرُّهُم مَن خَالَفَهُم حَتَّىٰ يَأتِيَ أَمرُ الله**» متفقٌ عليه[١].

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديث مشتملٌ علىٰ ثلاثةِ أحكامٍ:

أوَّلُها: فضلُ التفقُّهِ في الدِّينِ.

وثانيها: أنَّ المعطي في الحقيقةِ هو الله.

وثالثُها: أنَّ بعضَ هذه الأمةِ يبقىٰ علىٰ الحقِّ أبدًا.

فالأولُ لائقٌ بأبوابِ العلمِ، والثاني لائقٌ بقسمِ الصدقاتِ؛ ولهذا أورده مسلمٌ في الزكاة والمؤلِّفُ -أي: البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ- في الخُمسِ، والثالثُ لائقٌ بذكر أشراطِ الساعةِ.

وقد تتعلَّقُ الأحاديثُ الثلاثةُ بأبوابِ العلمِ، بل بترجمةِ هذا البابِ خاصَّةً[٢] من جهةِ إثباتِ الخيرِ لمن تفقَّه في دينِ الله، وأن ذلك لا يكون بالاكتسابِ فقط، بل لمن يفتح الله عليه به، وأنَّ من يفتح الله عليه بذلك لا يزالُ جنسُهُ موجودًا حتىٰ يأتيَ

(١) البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧) والأرقام في صحيح البخاري علىٰ حسب ترقيم الدكتور مصطفىٰ ديب البغا في طبعته، وفي صحيح مسلم علىٰ حسب ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) ترجم البخاري للباب بقوله: مَن يُرِدِ الله به خيرًا يُفقِّهه في الدِّين.

أمرُ الله، وقد جزم البخاريُّ بأنَّ المرادَ بهم أهلُ العلمِ بالآثارِ، وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ: إن لـم يكونوا أهلَ الحديثِ فلا أدري مَن هم، وقال القاضي عياضٌ: أراد أحمدُ أهلَ السنَّةِ ومَن يعتقدُ مذهبَ أهل الحديثِ.

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يحتمل أن تكون هذه الطائفة فرقةً من أنواعِ المؤمنين مَّمن يقيم أمرَ الله تعالىٰ من مجاهدٍ وفقيهٍ، ومحدِّثٍ وزاهدٍ، وآمرٍ بالمعروفِ، وغير ذلك من أنواعِ الخيرِ، ولا يلزم اجتماعُهم في مكانٍ واحدٍ، بل يجوزُ أن يكونوا متفرِّقين.

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: قولُهُ: «**يُفَقِّهْهُ**» أي يُفَهِّمْهُ، وهي ساكنةُ الهاءِ لأنها جوابُ الشرطِ، يقال: فَقُهَ -بالضمِّ- إذا صار الفقهُ له سَجِيَّةً، وفَقَهَ -بالفتحِ-إذا سَبَقَ غيره إلىٰ الفَهمِ، وفَقِهَ -بالكسرِ- إذا فَهِمَ.

ونكَّر «**خَيرًا**» ليشمل القليلَ والكثيرَ، والتنكيرُ للتعظيمِ لأنَّ المقامَ يقتضيه.

ومفهومُ الحديث: أنَّ مَن لـم يتفقَّه في الدينِ -أي: يتعلَّم قواعدَ الإسلامِ وما يتَّصل بها من الفروعِ- فقد حُرِمَ الخيرَ.

وقد أخرج أبو يَعلىٰ حديثَ معاويةَ من وجهٍ آخرَ ضعيفٍ وزاد في آخرهِ «**ومَن لـم يتفقَّه في الدينِ لـم يُبَالِ الله به**»، والمعنىٰ صحيحٌ؛ لأنَّ مَن لـم يعرف أمورَ دينهِ لا يكون فقيهًا ولا طالبَ فقهٍ، فيصحُّ أن يُوصفَ بأنَّه ما أُريد به الخيرُ.

وفي ذلك بيانٌ ظاهرٌ لفضل العلماء علىٰ سائر الناسِ، ولفضلِ التفقُّهِ في الدينِ علىٰ سائر العلومِ»(١).

(١) «فتح الباري» للحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق الأستاذ طه عبد الرءوف سعد (١/ ٢٨٥).

وفي لفظٍ لمسلمٍ من طريقِ حُميد بن عبدِ الرحمنِ أيضًا قال: سَمِعتُ مُعَاوِيةَ ابنَ أبي سفيانَ وهو يَخطُبُ يقولُ: إني سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**مَن يُرِدِ الله بِهِ خَيرًا يُفقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَيُعطِي الله**».

وفي رواية لمسلمٍ من طريقِ عبد الله بن عامرٍ اليَحصُبِيِّ قالَ: سَمِعتُ مُعَاويَةَ يَقولُ: إِيَّاكُم وأَحَادِيثَ، إلا حَديثًا كَانَ فِي عَهدِ عُمَرَ؛ فإِنَّ عُمَرَ كَانَ يُخيفُ النَّاس في الله ﷻ ، سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ وهوَ يَقُولُ: «**مَن يُرِدِ الله بِهِ خَيرًا يُفَقِّههُ فِي الدِّينِ**»، وسَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**إِنَّما أنا خَازِنٌ، فَمَن أَعطيتُهُ عَن طِيبِ نَفسٍ فَيُبَارَكُ لَهُ فيهِ، ومَن أعطيتُهُ عَن مسألةٍ وشَرَهٍ، كَانَ كالَّذي يَأكُلُ ولا يَشبَعُ**».

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قوله: «سَمِعتُ مُعَاويَةَ يَقُولُ: إِيَّاكُم وأَحَاديثَ إلا حَدِيثًا كَانَ فِي عَهدِ عُمَرَ فَإِنَّ عُمَرَ كَانَ يُخِيفُ النَّاسَ في الله ﷻ » هكذا هو في أكثرِ النُّسَخِ وَ«أَحَادِيثَ»، وفي بعضِها: «والأحادِيثَ» وهما صحيحان، ومرادُ معاويةَ؛ النهي عن الإكثارِ من الأحاديثِ بغيرِ تَثَبُّتٍ، لِمَا شاعَ في زمنهِ من التحدُّثِ عن أهلِ الكتابِ، وما وُجِدَ في كتبهم حين فُتحت بُلدانُهم، وأَمَرَهُم بالرجوعِ في الأحاديثِ إلىٰ ما كان في زمنِ عمرَ ﷺ؛ لضبطهِ الأمرَ وشدَّتِه فيه، وخوفِ النَّاسِ من سطوتهِ، ومنعهِ الناسَ من المسارعةِ إلىٰ الأحاديثِ، وطلبهِ للشهادةِ علىٰ ذلك حتىٰ استقرَّت الأحاديثُ، واشتهرت السُّنَنُ.

قولُهُ ﷺ: «**مَن يُرِدِ الله بِهِ خَيرًا يُفقِّههُ فِي الدِّينِ**»، فيه فضيلةُ العلمِ والتفقُّهِ في الدينِ، والحثُّ عليه وسببُهُ أنَّه قائدٌ إلىٰ تقوىٰ الله ﷻ .

وقولُه ﷺ: «**إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ**» وفي الرواية الأخرىٰ: «**وإِنَّما أَنَا قَاسِمٌ ويُعطِي الله**» معناه: أنَ المعطي حقيقةً هو الله تعالىٰ، ولست أنا مُعطيًا، وإنما أنا خازنٌ علىٰ ما عندي، ثم أقسم ما أُمرتُ بقسمتهِ علىٰ حسب ما أُمرتُ به، فالأمورُ كلُّها بمشيئةِ الله تعالىٰ وتقديرِه»[(١)].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «في الصحيحين» من حديث معاويةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**مَن يُرِدِ الله بِهِ خَيرًا يُفَقِّههُ فِي الدِّينِ**»، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ من لـم يُفَقِّههُ في دينهِ لـم يُرِد به خيرًا، كما أنَّ منَ أرادَ به خيرًا فَقَّهَهُ في دينهِ، ومَن فَقَّهَهُ في دينهِ فقد أراد به خيرًا، إذا أُريد بالفقهِ العلمُ المستلزمُ للعملِ.

وأمَّا إن أُريدَ به مُجَرَّدُ العلمِ فلا يَدُلُّ علىٰ أنَّ منَ فَقُهَ في الدينِ فقد أُرِيدَ به خيرًا؛ فإنَّ الفقهَ حينئذٍ يكون شرطًا لإرادةِ الخيرِ، وعلىٰ الأولِ يكون مُوجبًا، والله أعلم»[(٢)].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفِقهُ في الأصل: الفَهمُ، واشتقاقُه من الشَّقِّ والفتحِ، يقال: فَقِه الرجلُ -بالكسرِ- يَفقَهُ فِقهًا، إذا فَهِمَ وَعلِم، وفَقُهَ -بالضمِّ- يَفقُهُ، إذا صار فقيهًا عالمًا.

وقد جعله العُرفُ خاصًّا بعلمِ الشريعةِ، وتخصيصًا بعلمِ الفروعِ منها»[(٣)].

«وتخصيصهُ بعلمِ الفروعِ لا دليلَ عليه، فقد روىٰ الدارميُّ عن عمرانَ المِنْقَرِيِّ

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ١٢٧).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم تحقيق علي حسن عبد الحميد (١/ ٢٤٦).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير تحقيق الأستاذين طاهر الزاوي ومحمود الطناحي (٣/ ٤٦٥).

قال: قلتُ للحسنِ يومًا في شيءٍ: ما هكذا قال الفقهاءُ. قال: ويحك! هل رأيتَ فقيهًا؟ إنَّما الفقيهُ الزاهدُ في الدنيا، الراغبُ في الآخرة، البصيرُ بأمرِ دينهِ، المداومُ علىٰ عبادةِ ربِّه»(١).

ولفظُ الفقه كلفظِ العلمِ، من الألفاظ التي وقَعَ التنازعُ في مدلولها، وحرِّفت عمَّا هي لها، فَلَفظُ «الفقه»: «تَصَرَّفُوا فيه بالتخصيصِ، لا بالنقلِ والتحويل؛ إذ خَصَّصُوه بمعرفةِ الفروعِ الغريبة في الفتاوىٰ، والوقوفِ علىٰ دقائقِ عِلَلها، واستكثار الكلامِ فيها، وحفظِ المقالات المتعلِّقةِ بها، فَمَن كان أشدَّ تعمُّقًا فيها وأكثر اشتغالًا بها يُقال هو الأفقه.

ولقد كان اسمُ الفقهِ في العصرِ الأولِ مُطْلَقًا علىٰ علمِ طريقِ الآخرةِ، ومعرفةِ دقائق آفاتِ النفوس، ومُفسِدَاتِ الأعمالِ، وقوةِ الإحاطةِ بحقارةِ الدنيا وشدةِ التطلُّعِ إلىٰ نعيمِ الآخرةِ، واستيلاء الخوفِ علىٰ القلبِ.

ويدلُّك عليه قولُه ﷻ: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٢٢]، وما يحصل به الإنذارُ والتخويفُ هو هذا الفقهُ، دون تفريعاتِ الطلاقِ والعتاقِ واللِّعَانِ والسَّلَمِ والإجارةِ؛ فذلك لا يحصل به إنذارٌ ولا تخويفٌ، بل التجرُّدُ له علىٰ الدوامِ يقسِّي القلب، وينزع الخشيةَ منه، كما تشاهدُ الآن من المتجرِّدين له، وقال تعالىٰ: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف:١٧٩]، وأراد به معانِيَ الإيمان دون الفتاوىٰ»(٢).

---

(١) «صحيح الترغيب والترهيب» للألباني (١/ ٣١).

(٢) «تهذيب إحياء علوم الدين» للأستاذ عبد السلام هارون (١/ ٣٨).

٢- عن كثيرِ بن قيسٍ قالَ: كُنتُ مَعَ أبي الدَّرداءِ في مَسجدِ دِمَشق، فَجَاءَ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا أبَا الدَّرداءِ إنِّي جِئتُكَ مِن مَدينةِ الرَّسُولِ ﷺ فِي حَدِيثٍ بَلَغَني أَنَّكَ تُحَدِّثُ عَن رَسُولِ اللهِ ﷺ، قالَ: مَا كَانَت لَكَ حَاجَةٌ غَيرَهُ؟ قَالَ: لا، قال: ولا جئتَ لِتجَارَةٍ؟ قَالَ: لا، قَالَ: ولا جئتَ إلا فيه؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: فَإنِّي سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقول: «**مَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلتَمِسُ فيه عِلمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَىٰ الجَنَّةِ، وإِنَّ الملائكَةَ لَتَضعُ أجنحَتَها لِطَالبِ العِلمِ رِضًا بِمَا يَصنَعُ، وإِنَّ العَالِمَ لَيَستَغفِرُ لَهُ مَن فِي السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ حَتَّىٰ الحيتَانُ في الماءِ، وفَضلُ العَالِم عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضلِ القَمَرِ علَىٰ سَائِرِ الكَواكِبِ، وإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبِيَاءِ، وإِنَّ الأنبيَاءَ لَم يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولا دِرهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلمَ، فَمَن أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وافِرٍ**» رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان، والدارمي[1].

غريبُ الحديثِ[2]:

رِضًا: مفعولٌ له، أي: إرادة رضا.

الحيتانُ: جمعُ حوتٍ، وهو العظيمُ من السَّمَكِ، وهو مذكَّرٌ، قال تعالىٰ: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ

---

(١) رواه أحمد في «المسند» (٥/ ١٩٦-حلبي)، وأبو داود (٣٦٤١)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤٠٧)، والترمذي (٢٦٨٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٤٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٣)، وابن حبان (٨٨)، والدارمي (٣٤٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٣)، وأفاض ابن عبد البر في تخريجه وتتبُّع طرقِهِ في «جامع بيان العلم» (١/ ٣٣).

(٢) انظر: «سنن ابن ماجه» (١/ ٨١)، و«صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٣).

ٱلْحُوتُ﴾ [الصافات:١٤٢].

لـم يورثوا: من التوريثِ.

الحَظُّ: النصيبُ، والمعنىٰ: أخذ نصيبًا «وافرًا»، أي: تامًّا لا حظَّ أوفر منه.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الطريقُ التي يسلُكُهَا إلىٰ الجنَّةِ: جزاءٌ علىٰ سلوكِهِ في الدنيا طريقَ العلمِ الموصلَةَ إلىٰ رضا ربِّهِ.

وَوَضعُ الملائكةِ أجنحتَها له تواضعًا، وتوقيرًا، وإكرامًا لما يحملُهُ من ميراثِ النبوةِ ويطلبُهُ، وهو يدلُّ علىٰ المحبَّةِ والتعظيمِ، فمن محبَّةِ الملائكةِ له وتعظيمِهِ تَضَعُ أجنحَتها له؛ لأنَّه طالبٌ لِمَا به حياةُ العالَمِ ونجاتُهُ، ففيه شبهٌ من الملائكةِ، وبينه وبينهم تناسبٌ، فإنَّ الملائكةَ أنصحُ خلقِ الله وأنفعُهم لبني آدم، وعلىٰ أيديهم حَصَلَ لهم كلُّ سعادةٍ وعلمٍ وهدىٰ، ومِن نفعِهم لبني آدمَ ونُصحِهم، أنَّهم يستغفرون لمسيئهم، ويُثنون علىٰ مؤمنيهم، ويُعينونهم علىٰ أعدائِهم من الشياطين، ويحرصون علىٰ مصالحِ العبدِ أضعافَ حرصِهِ علىٰ مصلحةِ نفسِهِ، بل يريدون له من خيرِ الدنيا والآخرةِ ما لا يريد العبدُ ولا يخطرُ له ببالٍ؛ كما قال بعضُ التابعين: وجدنا الملائكة أنصحَ خلقِ الله لعبادِهِ، ووجدنا الشياطين أغَشَّ الخلقِ للعبادِ.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن

تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [غافر: ٧-٩].

فأيُّ نُصحٍ للعبادِ مثلُ هذا إلا نُصحَ الأنبياء؟! فإذا طَلَبَ العبدُ العلمَ فقد سعىٰ في أعظمِ ما ينصحُ به عبادَ الله، فلذلك تحبُّه الملائكةُ وتعظِّمُهُ، حتىٰ تضَعَ أجنحتَهَا له رضًا ومحبةً وتعظيمًا.

وقال أبو حاتمٍ الرازي: سمعتُ ابنَ أبي أُوَيس يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: معنىٰ قولِ رسولِ الله ﷺ: «**تَضَعُ أجنِحَتَها**»، يعني: تبسُطها بالدعاءِ لطالبِ العلمِ بَدَلًا من الأيدي.

وقال أحمدُ بن مروان المالكي في كتاب «المجالسة» له: حدَّثنا زكريا بن عبد الرحمن البصري، قال: سمعتُ أحمد بن شعيبٍ يقول: كُنَّا عند بعضِ المحدِّثين بالبصرةِ فحدَّثنا بحديثِ النبيِّ ﷺ: «**إنَّ الملائكةَ لتَضَعُ أجنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلمِ**» وفي المجلسِ معنا رجلٌ من المعتزلةِ، فجعل يستهزئُ بالحديثِ، فقال: والله لأطرُقَنَّ غدًا نعلي بمسامير، فأطأُ بها أجنحةَ الملائكةِ، ففعل، ومشىٰ في النعلين، فجفَّت رجلاه جميعًا، ووقعت فيهما الأَكِلَةُ(١).

وقال الطبرانيُّ: سمعتُ أبا يحيىٰ زكريا بن يحيىٰ الساجي قال: كُنَّا نمشي في بعضِ أَزِقَّةِ البصرةِ إلىٰ بابِ بعضِ المحدِّثين، فأسرعنا المشيَ، وكان معنا رجلٌ ماجِنٌ متَّهمٌ في دينهِ، فقال: ارفعوا أرجُلَكم عن أجنحةِ الملائكةِ لا تكسروها! كالمستهزئِ، فما زال من موضعهِ حتىٰ جَفَّت رجلاه وسَقَطَ.

---

(١) الأَكِلَةُ: داءٌ يقعُ في العضوِ فَيأتَكِلُ منه.

ففي هذا الحديثِ وَضعُ الملائكةِ أجنحتَها لطالبِ العلمِ، والوضعُ تواضعٌ وتوقيرٌ وتبجيلٌ، فتضمَّنَ الحديثُ تعظيمَ الملائكةِ له، وحُبَّهَا إيَّاه، فلو لم يكن لطالبِ العلمِ إلا هذا الحظ الجزيل لكفىٰ به شَرَفًا وفضلًا.

وقولُهُ ﷺ: «**وإنَّ العَالِـمَ لَيَستَغفِرُ لَهُ مَن فِي السَّمَواتِ ومَن في الأرضِ حَتَّىٰ الحيتَانُ في الماءِ**»؛ فإنَّه لما كان العالـمُ سببًا في حصولِ العلمِ الذي به نجَاةُ النفوسِ من أنواعِ المهلكاتِ، وكان سعيُهُ مقصورًا علىٰ هذا، وكانت نجاةُ العبادِ علىٰ يديه، جُوزِيَ من جنس عملِهِ، وجُعل مَن في السمواتِ والأرض ساعيًا في نجاتِهِ من أسباب المهلكاتِ؛ باستغفارِهم له.

وإذا كانت الملائكة تستغفرُ للمؤمنين، فكيف لا تستغفر لخاصَّتِهم وخُلاصتهم، وقد قيل: إنَّ مَن في السمواتِ ومنَ في الأرض -والمستغفرِين للعالمِ- عامٌّ في الحيواناتِ ناطِقها وبهيمِها، طيرِها وغيره.

ويؤكدُّ هذا قولُهُ: «**حتَّىٰ الحِيتَانُ في المَاء، وحَتَّىٰ النَّملَةُ في جُحرِهَا**»، فقيل: سَبَبُ هذا الاستغفارِ أنَّ العالمَ يُعَلِّمُ الخَلقَ مراعاةَ هذه الحيواناتِ، ويُعَرِّفُهم كيفيةَ تناولِهَا، واستخدامِها، وركوبها، والانتفاعِ بها، وكيفيَّةَ ذبحها علىٰ أحسنِ الوجوهِ وأرفقِها بالحيوانِ والعالِـمُ أشفقُ الناسِ علىٰ الحيوانِ، وأقومُهم ببيانِ ما خُلِقَ له.

وبالجملةِ، فالرحمةُ والإحسانُ التي خُلِقَ بهما ولهما الحيوانُ، وكُتِبَ لهما حَظُّهما منه إنَّما يُعرفُ بالعلمِ، فالعالِـمُ مُعَرِّفٌ لذلك، فاستحقَّ أن تستغفرَ له البهائمُ، والله أعلم.

وقولُهُ: «وَفَضلُ العَالِـمِ عَلَىٰ العَابِدِ كَفَضلِ القَمَرِ عَلَىٰ سَائِرِ الكَواكِبِ» تشبيهٌ مُطابقٌ لحالِ القمرِ والكواكبِ، فإنَّ القمرَ يُضيءُ الآفاقَ، ويمتدُّ نورُهُ إلىٰ العالَـمِ، وهذه حالُ العالِمِ، وأمَّا الكوكبُ فنورُهُ لا يجاوزُ نفسَهُ، أو ما قَرُبَ منه، وهذه حالُ العابدِ الذي يُضيءُ نورُ عبادتِهِ عليه دون غيرِه، وإن جاوَزَ نورُ عبادتِهِ غيرَهُ فإنَّما يجاوزهُ غيرَ بعيدٍ، كما يجاوزُ ضوءُ الكوكبِ له مُجَاوَزَةً يسيرةً.

وفي التشبيه المذكورِ لطيفةٌ أخرىٰ: وهي أنَّ الجهلَ كالليلِ في ظُلمتِهِ وحِندسِهِ[1]، والعلماءُ والعبَّادُ بمنزلةِ القمرِ والكواكبِ الطالعةِ في تلك الظُّلمةِ، وفَضلُ نورِ العالمِ فيها علىٰ نور العابدِ كَفضلِ نور القمرِ علىٰ الكواكب.

وأيضًا، فالدينُ قِوامُهُ وزينتُهُ وأمنتُهُ بعلمائهِ، وعُبَّادهِ، فإذا ذَهَبَ علماؤُهُ وعُبَّادُهُ ذهَبَ الدِّينُ، كما أنَّ السماءَ أَمَنَتُهَا وزينتُهَا بقمرِها وكواكبِها، فإذا خُسِفَ قَمَرُهَا وانتثرت كواكبُهَا أتاها ما تُوعَدُ، وفَضلُ علماءِ الدِّينِ علىٰ العُبَّادِ كَفَضلِ ما بين القمرِ والكواكبِ.

فإن قيلَ: كيف وَقَعَ تشبيهُ العالِمِ بالقمر دون الشمسِ، وهي أعظمُ نورًا؟

قيل: فيه فائدتان:

إحداهما: أنَّ نورَ القمرِ لما كان مستفادًا من غيرِهِ كان تشبيهُ العالِمِ الذي نورُهُ مستفادٌ من شمسِ الرسالةِ بالقمرِ أَولَىٰ من تشبيهه بالشَّمسِ.

(١) الحِندِسُ: الظُّلمَةُ، وفي الصحاح: الليلُ الشديدُ الظُّلمة. «لسان العرب» مادة (حندس) (ص١٠٢٠).

الثانيةُ: أنَّ الشمسَ لا يختلفُ حالُها في نورِها، ولا يلحقُهَا مُحَاقٌ[1]، ولا تفاوتٌ في الإضاءةِ، وأمَّا القمرُ فإنَّه يقلُّ نورُهُ ويكثُرُ، ويمتلئُ وينقُصُ، كما أنَّ العلماءَ في العلمِ علىٰ مراتبهم من كثرتِهِ وقلَّتِهِ فيفضَّلُ كُلٌّ منهم فِي عِلْمِهِ بِحَسبِ كثرتِه وقلَّتِهِ وظهورِهِ وخفائِهِ، كما يكون القمرُ كذلك، فعَالِـمٌ كالبَدرِ ليلةَ تمامِهِ، وآخرُ دونه بِلَيلَةٍ ثانيةٍ وثالثةٍ، وما بعدها إلىٰ آخرِ مراتبِهِ، وهم درجاتٌ عند اللهِ.

فإن قيل: تشبيهُ العلماءِ بالنجومِ أمرٌ معلومٌ، فكيف وقع تشبيههم هنا بالقمر؟

قيل: أما تشبيه العلماء بالنجوم فإنَّ النجومَ يُهتَدىٰ بها في ظُلُماتِ البَرِّ والبحرِ، وكذلك العلماءُ، والنجومُ زينةٌ للسماءِ، فكذلك العلماءُ زينةٌ للأرضِ، وهي رجومٌ للشياطين حائلةٌ بينهم وبين استراقِ السمعِ لئلا يُلبِّسوا بما يَستَرقُونَه من الوحي الواردِ إلىٰ الرُّسُلِ من الله علىٰ أيدي ملائكتِهِ، وكذلك العلماءُ رجومٌ لشياطين الإنسِ والجنِّ، الذين يُوحِي بعضُهم إلىٰ بعضٍ زُخرُفَ القولِ غرورًا، فالعلماءُ رجومٌ لهذا الصِّنفِ من الشياطينِ، ولولاهم لَطُمِسَت معالـمُ الدينِ بتلبيسِ المضلِّين، ولكنَّ اللهَ سبحانه أقامهم حُرَّاسًا وحَفَظَةً لدينهِ، ورجومًا لأعدائِه وأعداءِ رُسُلِهِ، فهذا وجهُ تشبيههم بالنجومِ.

وأمَّا تشبيهُهُم بالقمرِ؛ فذلك إنَّما كان في مقام تفضيلهم علىٰ أهلِ العبادةِ المجرَّدَةِ، ومُوَازنَةِ ما بينهما في الفَضلِ، والمعنىٰ: أنَّهم يَفضُلُون العبَّادَ الذين ليسوا بعلماءَ، كما يفضلُ القَمرُ سائرَ الكواكبِ، فكلٌّ من التشبيهينِ لائقٌ بموضعه، والحمدُ للهِ.

(١) **المُحَاقُ والمِحَاقُ والمَحَاقُ**: آخرُ الشَّهرِ إذا امَّحَقَ الهِلالُ فلم يُرَ، والمُحَاقُ أيضًا أن يَستَسِرَّ القمرُ ليلتين فلا يُرىٰ غُدوَةً ولا عَشيَّةً.

وقولُه ﷺ: «**إنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ**»؛ هذا من أعظمِ المناقبِ لأهلِ العلمِ، فإنَّ الأنبياءَ خيرُ خَلقِ الله، فَوَرَثَتُهُم خيرُ الخَلقِ بَعدهم، ولَّما كان كلُّ موروثٍ ينتقل ميراثُه إلىٰ ورثته، إذ هم الذين يقومون مقامَهُ من بَعدِهِ، لم يكن بعد الرُّسُلِ مَن يقوم مقامَهم في تبليغِ ما أُرسِلوا به إلا العلماءُ كانوا أحقَّ الناسِ بميراثهم.

وفي هذا تنبيهٌ علىٰ أنَّهم أقربُ النَّاسِ إليه، فإنَّ الميراثَ يكون لأقرب الناسِ إلىٰ الموروثِ، وهذا كما أنَّه ثابتٌ في ميراثِ الدينارِ والدرهمِ، فكذلك هو في ميراثِ النبوَّةِ، والله يختصُّ برحمتهِ مَن يشاءُ.

وفيه أيضًا إرشادٌ وأمرٌ للأمَّةِ بطاعتِهم، واحترامهِم، وتعزيرِهم، وتوقيرهم، وإجلالهم، فإنَّهم ورثةُ مَن هذه بعضُ حقوقِهم علىٰ الأمَّةِ، وخلفاؤهم فيهم.

وفيه تنبيهٌ علىٰ أنَّ محبَّتُهُم من الدِّينِ، وبُغضَهم منافٍ للدِّينِ، كما هو ثابتٌ لموروثهم.

وكذلك معاداتُهم ومحاربتُهم، معاداةٌ ومحاربةٌ لله كما هو في موروثهم.

قال عليٌّ ﷺ: محبَّةُ العلماءِ دينٌ يُدَانُ الله به.

وقال ﷺ فيما يرويه عن ربِّه ﷻ: «**مَن عَادَىٰ لي وليًّا فَقَد بَارَزَني بالمُحَارَبَةِ**»[1]

(١) بعضُ حديثٍ أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦١٣٧) عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الله تعالىٰ قال: مَن عادىٰ لي وليًّا فقد آذنْتُهُ بالحَربِ، ومَا تقَرَّبَ إليَّ عَبدي بشَيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترضتُ عليه، وما يزالُ عبدي يتقربُ إلي بالنوافلِ حتَّىٰ أُحبَّهُ، فإذَا أَحْبَبْتُهُ، كُنتُ سَمعَهُ الَّذي يَسمَعُ بهِ، وبَصرَهُ الَّذي يُبصرُ بهِ، ويَدَهُ الَّتي يَبطِشُ بهَا، ورِجْلَهُ الَّتِي يَمشِي**

ووَرَثةُ الأنبياءِ ساداتُ أولياء الله ﷻ .

وفيه تنبيهٌ للعلماءِ علىٰ سُلوكِ هَدي الأنبياءِ وطريقتهم في التبليغِ؛ من الصبرِ، والاحتمال، ومقابلةِ إساءَةِ النَّاسِ إليهم بالإحسانِ، والرِّفقِ بهم، واستجلابِهم إلىٰ الله بأحسنِ الطُّرُقِ، وبَذلِ ما يُمكن من النصيحةِ لهم، فإنَّه بذلك يحصُلُ لهم نصيبُهُم من هذا الميراثِ العظيمِ قدرُهُ، الجليلِ خطرُهُ.

وفيه أيضًا تنبيهٌ لأهلِ العلمِ علىٰ تربيةِ الأُمَّةِ كما يُرَبِّي الوالدُ وَلَدَهُ؛ فيربُّونهم بالتدريجِ والتَّرَقِّي من صغار العلمِ إلىٰ كبارِه، وتحميلِهم منه ما يطيقون، كما يفعلُ الأبُ بولَدِهِ الطِّفلِ في إيصالِهِ الغذاءَ إليه، فإن أرواحَ البَشرِ بالنسبةِ إلىٰ الأنبياءِ والرسُلِ كالأطفالِ بالنسبةِ إلىٰ آبائِهم، بل دونَ هذه النسبةِ بكثيرٍ، ولهذا كلُّ رُوحٍ لم يُرَبِّهَا الرسلُ لم تُفلح ولم تَصلح لصالحةٍ، كما قيل:

وَمَن لَم يُربِّهِ الرَّسُولُ وَيَسقِهِ لِبَانًا لَهُ قَد دَرَّ مِن ثَدي قُدسِهِ
فَذَاكَ لَقِيطٌ مَا لَهُ نِسبَةُ الوَلا[(١)] وَلا يَتَعَدَّىٰ طَورَ أَبنَاءِ جِنسِهِ

وقولُه ﷺ: «**إِنَّ الأنبِيَاءَ لَم يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرهَمًا، إِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ**»، فهذا من كمالِ الأنبياءِ وعِظَمِ نُصحِهم للأُمَمِ، وتمامِ نعمةِ الله عليهم، وعلىٰ أُمَمِهم، أن أَزَاحَ جميعَ العِلَلِ، وحَسَمَ جميعَ الموادِّ التي تُوهمُ بعضَ النفوسِ أنَّ الأنبياءَ من

=

بِهَا، وإن سَأَلَني لأعطينَّهُ، ولَئِن استَعاذَني لأعيذَنَّهُ، ومَا تَرَدَّدتُ عَن شيءٍ أَنَا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَن نَفسِ المؤمِنِ، يكرَهُ الموتَ وأنَا أكرَهُ مسَاءَتَهُ».

(١) الولا: الولاء.

جنسِ الملوكِ الذين يريدون الدنيا ومُلكَها، فحماهُم ﷻ من ذلك أتَمَّ الحمايةِ.

ثُمَّ لَّما كان الغالبُ علىٰ النَّاسِ أنَّ أحدَهم يريدُ الدنيا لولدِهِ من بعده، ويسعىٰ ويتعبُ ويحرمُ نفسَهُ لولدِهِ، سَدَّ هذه الذريعةَ عن أنبيائِهِ ورسلِهِ، وقطعَ هذا الوَهَمَ الذي عساه أن يُخالطَ كثيرًا من النفوسِ التي تقولُ: فلعلَّهُ إن لم يطلب الدنيا لنفسهِ فهو يُحصِّلها لولدِهِ، فقال: «**نَحنُ مَعَاشِرَ الأنبِيَاءِ لا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ**»(١)، فلم تُوَرِّث الأنبياءُ دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما وَرَّثُوا العلمَ.

وأما قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل:١٥]، فهو ميراثُ العلمِ والنبوَّةِ، لا غيرَ، وهذا باتفاقِ أهلِ العلمِ من المفسِّرين وغيرهم، وهذا لأنَّ داودَ ﵇ كان له أولادٌ كثيرٌ سوىٰ سليمانَ، فلو كان الموروثُ هو المالَ لم يكن سليمانُ مُختَصًّا به، وأيضًا؛ فإنَّ كلامَ الله يُصان عن الإخبارِ بمثلِ هذا؛ فإنَّه بمنزلَةِ أن يُقال: مات فلانٌ وورثَهُ ابنُهُ، ومعلومٌ أنَّ كلَّ أحدٍ يرثُهُ ابنُهُ، وليس في الإخبارِ بمثلِ هذا فائدةٌ، وأيضًا؛ فإنَّ ما قبل الآيةِ وما بَعدها يُبَيِّنُ أنَّ المرادَ بهذه الوراثةِ وراثةُ العلم والنبوَّةِ، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ﴾ [النمل:١٥-١٦]، وإنَّما سيقَ هذا لبيانِ فضلِ سليمانَ وما خَصَّه الله به من كرامتِهِ وميراثِهِ ما كان لأبيه من أعلىٰ المواهبِ، وهو العلمُ والنُّبُوَّةُ؛ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل:١٦].

وكذلك قولُ زكريا ﵇: ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦)، ومسلم (١٧٥٨).

فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم:٥-٦] فهذا ميراثُ العلمِ والنبوَّةِ والدعوةِ إلىٰ الله، وإلا فلا يُظَنُّ بنبيٍّ كريمٍ أنَّه يخاف عصبتَه أن يرثوه مالَهُ، فيسألَ الله العظيمَ وَلَدًا يمنعُهم ميراثَهُ، ويكونُ أحقَّ به منهم، وقد نَزَّهَ الله أنبياءَهُ ورسلَهُ عن هذا وأمثالِهِ.

وقولُهُ ﷺ: «**فَمَن أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»، أعظمُ الحظوظِ وأجداها ما نفعَ العبدَ ودام نفعُهُ له، وليس هذا إلا حَظَّهُ من العلمِ والدِّينِ، فهو الحظُّ الدائمُ النافعُ، الذي إذا انقَطَعت الحظوظُ لأربابِها فهو موصولٌ له أبدَ الآبدين، وذلك لأنَّه موصولٌ بالحيِّ الذي لا يموتُ، فلذلك لا ينقطعُ ولا يفوتُ، وسائرُ الحظوظِ تُعدمُ وتتلاشىٰ بتلاشي مُتَعَلَّقاتها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]؛ فإنَّ الغاية لمَّا كانت مُنقطعةً زائلةً تبعَتْها أعمالُهُم، فانقطَعَت عنهم أحوجَ ما يكون العاملُ إلىٰ عملِهِ، وهذه هي المصيبةُ التي لا تُجبَرُ، عِياذًا بالله، واستعانةً به وافتقارًا، وتوكُّلًا عليه، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله»[1].

وقال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: «**وإنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أجنِحَتَهَا**»، قيل معناه: أنَّها تتواضعُ لطالبِ العلم توقيرًا لعلمه، كقولِهِ سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤] وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٢٥] أي: تَوَاضَع لهم.

وقيل: معنىٰ وَضعِ الجَناحِ: هو الكفُّ عن الطيرانِ والنزولُ للذِّكرِ.

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (٢٥٥-٢٦٤) بتصرف يسيرٍ.

وقيل: معناه: بَسطُ الجناحِ وفرشُها لطالبِ العلمِ لتحملَه عليها، فَيُبَلِّغُه حيث مَقصِدُهُ من البلادِ في طلبِ العلمِ.

وقيل: معناه: المعونةُ، وتيسيرُ السعي له في طَلبِهِ»[1].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ ﷺ: «**وإنَّ الملائِكَةَ لَتَضَعُ أجنِحَتَهَا**»، الحديثُ يحتملُ وجهين:

أحدهما: أنَّها تعطفُ عليه وترحمُهُ؛ كما قال الله تعالىٰ فيما وصَّىٰ به الأولادَ من الإحسانِ إلىٰ الوالدين بقولِهِ: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ ﴾ [الإسراء:٢٤] أي: تواضع لهما.

والوجه الآخر: أن يكونَ المرادُ بوضعِ الأجنحةِ: فرشها، أي: إنَّ الملائكة إذا رأت طالبَ العلمِ يطلبُهُ من وجهِهِ ابتغاءَ مرضاةِ الله وكانت سائرُ أحواله مشاكلةً لطالب العلمِ فرشت له أجنحَتها، في رحلتِهِ وحملته عليها؛ فمن هناك يَسلَمُ فلا يَحفَىٰ إن كان ماشيًا ولا يَعيَا، وتقرُبُ عليه الطريقُ البعيدةُ، ولا يصيبُهُ ما يصيبُ المسافِرَ من أنواعِ الضَّرَرِ كالمرضِ وذَهَابِ المالِ وضلالِ الطريق»[2].

وقال في مختصر منهاج القاصدين: «قال الخطابي في معنىٰ: وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال:

أحدُها: أنَّه بمعنىٰ التواضعِ تعظيمًا لطالبِ العلمِ.

(١) «شرح السنة» للبغوي تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط (١/ ٢٧٧).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٨/ ٢٧٥).

الثاني: أنَّه بَسطُ الأجنحة.

الثالثُ: أنَ المرادَ به النزولُ عند مجالسِ العلمِ وتركُ الطيرانِ»[١].

٣- عَن أَبِي مُوسَىٰ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«**مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الهدَىٰ وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الْكَثِيرِ، أَصَابَ أَرضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنها أَجَادِبُ أَمسَكَتِ الماءَ فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَىٰ إِنَّمَا هِي قِيعَانٌ لا تُمسِكُ مَاءً، ولا تُنْبِتُ كلًا، فَذَلِكَ مَثَلُ مَن فَقُه فِي دِينِ الله ونَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَن لَم يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَـمْ يَقْبَلْ هُدَىٰ الله الَّذِي أُرسِلْتُ بِهِ**»[٢] مُتفَقٌ عليه.

غريبُ الحديثِ[٣]:

الغيْثُ: المطرُ الذي يأتي عند الاحتياجِ إليه.

نقيَّةٌ: طيبةٌ.

الكلأ: نباتُ الأرضِ؛ رطبًا كان أم يابسًا.

العُشبُ: النباتُ الرطبُ.

أَجَادِبُ: جمعُ جَدبٍ، وهي الأرضُ التي لا تشربُ الماءَ ولا تُنبتُ.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة (ص٢٢).

(٢) رواه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

(٣) انظر: «صحيح البخاري»، تعليق وترقيم الدكتور مصطفىٰ ديب البغا (١/ ٤٢).

قيعانٌ: جمعُ قاعٍ، وهي الأرضُ المستويةُ الملساءُ. فذلك: النوعُ الأول.

فقه: صار فقيهًا، بِفهمِهِ شرعَ الله ﷻ.

مَن لم يرفع بذلك رأسًا: كنايةٌ عن شِدَّةِ الكِبرِ والأَنَفَةِ عن العلمِ والتعلمِ.

قبلت الماءَ: شربته.

قال الإمام القرطبيُّ وغيرهُ من شُرَّاحِ الحديث: «ضَرَبَ النبيُّ ﷺ لما جاءَ به من الدين مَثَلًا بالغيثِ العامِّ الذي يأتي الناسَ في حَالِ حاجتهم إليه، وكذا كان حالُ النَّاسِ قبل مبعثِهِ، فكما أنَّ الغيثَ يحيي البلدَ الميتَ فكذا علومُ الدين تحيي القلبَ الميتَ، ثمَّ شبَّه السامعين له بالأرضِ المختلفةِ التي ينزلُ بها الغيثُ؛ فمنهم العالِمُ العاملُ المعلِّمُ، فهو بمنزلةِ الأرضِ الطيِّبَةِ شَرِبَتْ فانتفعت في نفسِها، وأنبتت فنفعت غيرَها.

ومنهم الجامعُ للعلمِ المستغرقُ لزمانِهِ فيه، غيرَ أنَّه لـم يعمل بنوافِلِهِ أو لم يتفقَّه فيما جَمَعَ، لكنَّه أدَّاه لغيرِهِ، فهو بمنزلةِ الأرضِ التي يستقرُّ فيها الماءُ فينتفع الناسُ به.

ومنهم مَن يسمع العلمَ فلا يحفظُهُ ولا يعملُ به، ولا ينقلُهُ لغيره، فهو بمنزلةِ الأرضِ السَّبِخَةِ أو الملساءِ التي لا تقبلُ الماءَ أو تفسدُهُ علىٰ غيرها.

وإنَّما جمع في المثلِ بين الطائفتين الأُولَيَيْنِ المحمودتين لاشتراكهما في الانتفاعِ بهما، وأفرد الطائفةَ الثالثةَ المذمومَةَ لعدمِ النفعِ بها»[1].

(١) «فتح الباري» (١/ ٢١٢) طبعة الأستاذ محب الدين الخطيب.

وقال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا معاني الحديثِ ومقصودُهُ، فهو تمثيلُ الهُدَىٰ الذي جاء بهﷺ بالغيثِ، ومعناه: أنَّ الأرضَ ثلاثةُ أنواعٍ، وكذلك النَّاسُ.

فالنوعُ الأولُ من الأرضِ: ينتفعُ بالمطرِ فَيَحيَا بعد أن كان مَيتًا، ويُنبتُ الكلأ، فتنتفع بها الناسُ والدوابُّ والزرعُ وغيرُها، وكذا النوعُ الأولُ من الناسِ يبلغُهُ الهُدَىٰ والعلمُ فيحفظه فَيَحيَا قَلبُهُ، ويعملُ به ويعلِّمُهُ غيرَهُ، فينتفعُ وينفعُ».

والنوعُ الثاني من الأرضِ: ما لا تقبل الانتفاعَ في نفسِها، لكن فيها فائدةٌ، وهي إمساكُ الماءِ لغيرِها فينتفع بها الناسُ والدوابُّ، وكذا النوعُ الثاني من الناسِ لهم قلوبٌ حافظةٌ، لكن ليست لهم أفهامٌ ثاقبةٌ، ولا رسوخَ لهم في العقلِ يستنبطون به المعاني والأحكامَ، وليس عندهم اجتهادٌ في الطاعةِ والعمل به، فهم يحفظونه حتىٰ يأتي طالبٌ محتاجٌ متعطِّشٌ لما عندهم من العلمِ، أَهلٌ للنفعِ والانتفاعِ فيأخذه منهم فينتفع به، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم.

والنوعُ الثالثُ من الأرض: السِّبَاخُ التي لا تُنبت، ونحوها، فهي لا تنتفع بالماء، ولا تُمسكه لينتفعَ به غيرُها، وكذا النوعُ الثالثُ من الناسِ، ليست لهم قلوبٌ حافظةٌ، ولا أفهامٌ واعيةٌ، فإذا سمعوا العلمَ لا ينتفعون به، ولا يحفظونه لنفعِ غيرهِم والله أعلمُ.

وفي هذا الحديثِ أنواعٌ من العلمِ؛ منها: ضَربُ الأمثالِ، ومنها: فضل العلمِ والتعليمِ، وشِدَّةُ الحثِّ عليهما، وذمُّ الإعراضِ عن العِلمِ، والله أعلم»(١).

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ٤١).

وقال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جَعَلَ النبيُّ ﷺ مَثَلَ العالِـمِ كَمَثَلِ المَطَرِ، ومَثَلَ قلوبِ النَّاسِ فيه، كَمَثَلِ الأرضِ في قَبُولِ الماءِ، فشبَّه مَن تحمَّلَ العلمَ والحديثَ، وتفقَّه فيه بالأرضِ الطيبةِ، أصابها المطرُ فتنبتُ، وانتفع بها النَّاسُ، وشبَّه مَن تحمَّلَه، ولم يتفقَّه بالأرضِ الصُّلْبَةِ التي لا تنبتُ، ولكنها تُمسكُ الماءَ، فيأخذه النَّاسُ، وينتفعون به، وشبَّه مَن لم يفهم، ولم يحمِل بالقِيعَانِ التي لا تُنبتُ، ولا تُمسكَ الماءَ، فهو الذي لا خيرَ فيه»[١].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «شَبَّهَ ﷺ العلمَ والهُدَىٰ الذي جاءَ به بالغَيثِ، لِمَا يحصُلُ بكلِّ واحدٍ منهما من الحياةِ والمنافعِ والأغذيةِ والأدويةِ وسائرِ مصالحِ العبادِ، فإنها بالعلمِ والمطرِ.

وَشَبَّه القلوبَ بالأراضي التي يقعُ عليها المطرُ لأنَّها المحَلُّ الذي يُمسِكُ الماءَ، فَيُنْبِتُ سائرَ أنواعِ النباتِ النافعِ، كما أنَّ القلوب تَعِي العلمَ فَيُثمِرُ فيها ويزكو، وتظهرُ بركتُهُ وثمرتُهُ.

ثمَّ قَسَّمَ النَّاسَ إلىٰ ثلاثةِ أقسامٍ بحسبِ قَبولهم واستعدادِهم لحفظِهِ، وفَهمِ معانيه، واستنباطِ أحكامهِ واستخراجِ حِكَمِهِ وفوائدِه:

أحدُها: أهلُ الحفظِ والفهمِ الذين حَفِظوهُ وعَقَلوهُ، وفهموا معانيه، واستنبطوا وجوهَ الأحكامِ والحكَم والفوائد منه، فهؤلاء بمنزلة الأرضِ التي قَبِلَتِ الماءَ وهذا بمنزلةِ الحفظ -فأنبتت الكلأ والعُشبَ الكثيرَ- وهذا هو الفهمُ فيه والمعرفةُ

---

(١) «شرح السنة» للبغوي (١/ ٢٨٩).

والاستنباطُ- فإنَّه بمنزلةِ إنباتِ الكلأ والعُشبِ بالماء، فهذا مثلُ الحُفَّاظِ الفقهاءِ، وأهل الروايةِ والدرايةِ.

القسمُ الثاني: أهلُ الحفظِ الذين رُزقوا حفظَهُ ونقلَه وضَبطَه، ولم يُرزقوا تفقُّهًا في معانيه ولا استنباطًا ولا استخراجًا لوجوهِ الحِكَمِ والفوائدِ منه، فهم بمنزلةِ مَن يَقرَأُ القرآنَ ويحفظُهُ ويُراعي حروفَه وإعرابَه ولـم يُرزَق فيه فهمًا خاصًّا عن الله، كما قال عليُّ بن أبي طالبٍ ﵁: «إلا فَهمًا يُؤتيهِ الله عَبدًا في كِتَابِهِ»(١).

والنَّاسُ متفاوتون في الفهمِ عن الله ورسولِهِ أعظمَ تفاوتٍ، فَرُبَّ شخصٍ يفهمُ من النصِّ حُكمًا، أو حكمين، ويفهمُ منه الآخَرُ مئةً أو مئتين.

فهؤلاء بمنزلة الأرضِ التي أمسكت الماءَ للناسِ فانتفعوا به، هذا يشربُ منه، وهذا يسقي منه، وهذا يزرعُ.

فهؤلاء القسمان هم السُّعَدَاءُ، والأَوَّلُون أرفعُ درجةً وأعلىٰ قَدرًا ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الجمعة:٤].

القسم الثالثُ: الذين لا نصيبَ لهم منه، لا حفظًا ولا فهمًا، ولا روايةً ولا درايةً، بل هم بمنزلةِ الأرضِ التي هي قيعانٌ، لا تُنبتُ ولا تُمسِكُ الماءَ، وهؤلاء هم الأشقياءُ.

والقسمان الأوَّلانِ اشتركا في العلمِ والتعليمِ كلٌّ بحسب ما قَبِلَهُ ووصل إليه، فهذا يُعَلِّمُ ألفاظَ القرآنِ ويحفظُهَا، وهذا يُعَلِّمُ معانيه وأحكامَهُ وعلومَهُ، والقسمُ الثالثُ لا علمَ ولا تعليمَ، فهم الذين لم يرفعوا بهدي الله رأسًا، ولم يقبلوه، وهؤلاء

(١) رواه البخاري (١١١).

شرٌّ من الأنعامِ وهم وقودُ النَّارِ.

فقد اشتملَ هذا الحديثُ الشريفُ العظيمُ علىٰ التَّنبيهِ علىٰ شرفِ العلم والتعليمِ، وعِظَمِ موقعِهِ، وشقاءِ مَن ليس من أهلِهِ.

وذَكَرَ أقسامَ بني آدمَ بالنسبة فيه إلىٰ شَقيِّهم وسعيدهم، وتقسيم سعيدهم إلىٰ سابقٍ مُقَرَّبٍ وصاحبِ يمينٍ مُقْتَصِدٍ.

وفيه دلالةٌ علىٰ أنَّ حاجةَ العبادِ إلىٰ العلمِ كحاجتهم إلىٰ المطر، بل أعظم، وأنهم إذا فقدوا العلمَ فَهُم بمنزلةِ الأرضِ التي فَقَدَت الغيثَ.

قال الإمامُ أحمدُ: النَّاسُ محتاجون إلىٰ العلمِ أكثرَ من حاجتهم إلىٰ الطعامِ والشرابِ؛ لأنَّ الطعامَ والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليومِ مرَّةً أو مرتين، والعلمُ يُحتاجُ إليه بعدَدِ الأنفاسِ»[١].

٤- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**مَن دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ كَانَ لَهُ مِنَ الأجرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِن أُجُورِهِم شَيئًا، وَمَن دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإِثْمِ، مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِن آثَامِهِم شَيئًا**»[٢] رواه مسلمٌ.

قال ابنُ القيم رحمه الله: «أخبر ﷺ أنَّ المتسبِّبَ إلىٰ الهُدىٰ بدعوتِهِ، له مِثْلُ أجرِ من اهتَدىٰ به، والمتسبِّبَ إلىٰ الضلالةِ بدعوتِهِ عليه مِثْلُ إثمِ مَن ضلَّ به؛ لأنَّ هذا بَذَلَ قُدرتَهُ في هدايةِ النَّاسِ، وهذا بَذَلَ قُدرتَهُ في ضلالهم، فنزَّلَ كلَّ واحدٍ منهما

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٤٧).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٤).

بمنزلةِ الفاعلِ التَّامِّ.

وهذه قاعدةُ الشريعةِ؛ قال تعالىٰ: ﴿ لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ [النحل:٢٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡ ﴾ [العنكبوت:١٣]، وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ مَن دعا الأمةَ إلىٰ غيرِ سنَّةِ رسولِ الله ﷺ فهو عَدُوُّهُ حَقًّا؛ لأنَّه قَطَعَ وصولَ أجرِ مَن اهتدىٰ بسنَّتِهِ إليه، وهذا من أعظمِ معاداتهِ نعوذُ بالله من الخذلان»[1].

وقال الشيخُ العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**مَن دَعَا إِلَىٰ هُدًىٰ**»، يعني: بيَّنه للنَّاسِ ودعاهم إليه، مثل أن يُبَيِّنَ للناسِ أنَّ ركعتي الضُّحَىٰ سنةٌ، وأنَّه ينبغي للإنسان أن يصلِّي ركعتين في الضحىٰ، ثم تَبِعَهُ النَّاسُ وصاروا يُصَلُّون الضُّحَىٰ، فإنَّ له مثلَ أجورِهم من غيرِ أن ينقص من أجورِهم شيئًا؛ لأنَّ فضلَ الله واسعٌ.

أو قال للنَّاسِ مثلًا: اجعلوا آخرَ صلاتِكم بالليلِ وترًا، ولا تناموا إلا علىٰ وترٍ، إلا مَن طمعَ أن يقومَ من آخرِ الليلِ فليجعل وترَهُ في آخرِ الليلِ، فَتَبِعَهُ ناسٌ علىٰ ذلك، فإنَّ له مثلَ أجرِهم، يعني كلَّما أوتر واحدٌ هداه الله علىٰ يدهِ فله مثلُ أجرِهِ، وكذلك بقيةُ الأعمالِ الصالحةِ.

«**وَمَنْ دَعَا إِلَىٰ ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإثمِ مِثلُ آثَامِ من تَبِعَهُ، لا يَنْقُصُ ذَلِكَ من آثَامِهم شَيئًا**»، أي: إذا دعا إلىٰ وِزرٍ وإلىٰ ما فيه الإثمُ، مثل أن يدعوَ الناسَ إلىٰ لَهوٍ أو باطلٍ أو غِناءٍ أو رِبًا أو غيرِ ذلك من المحارِمِ، فإنَّ كلَّ إنسانٍ تأثَّر بدعوتِهِ فإنَّه

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٥١).

يُكتبُ له مثلُ أوزارِهم، لأنَّه دعا إلىٰ الوزرِ والعياذُ بالله.

واعلم أنَّ الدعوةَ إلىٰ الهدىٰ، والدعوةَ إلىٰ الوِزرِ تكون بالقولِ؛ كما لو قال: افعل كذا، افعل كذا، وتكون بالفعلِ خصوصًا من الذي يُقتدىٰ به من النَّاسِ، فإنَّه إذا كان يُقتدىٰ به ثمَّ فعل شيئًا فكأنَّه دعا النَّاسَ إلىٰ فعلهِ، ولهذا يحتجُّون بفعلِهِ ويقولون فَعَلَ فلانٌ كذا وهو جائزٌ، أو ترك كذا وهو جائز.

فالمهمُّ أنَّ من دعا إلىٰ هدًىٰ كان له مِثلُ أَجرِ مَن اتَّبعه، ومَن دعا إلىٰ ضلالةٍ كان عليه مثلُ وِزرِ مَن اتَّبعه.

وفي هذا دليلٌ علىٰ أنَّ المتسبِّبَ كالمباشِرِ، المتسبِّبُ للشيء كالمباشرِ له، فهذا الذي دعا إلىٰ الهدىٰ تسبَّبَ فكان له مثلُ أجرِ مَن فَعَلَهُ، والذي دعا إلىٰ السُّوءِ أو الوِزرِ تسبَّبَ فكان عليه مثلُ وِزرِ مَن اتبعه»[1].

٥- عن أبي أُمَامَةَ البَاهِليِّ ﷺ قالَ: ذُكِرَ لِرَسُولِ الله ﷺ رَجُلانِ: أَحَدُهُمَا عَابِدٌ، والآخَرُ عَالِـمٌ، فَقَالَ ﷺ: «**فَضْلُ العَالِـمِ عَلَىٰ العَابِدِ، كَفَضْلِي عَلَىٰ أَدْنَاكُم**»، ثم قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ الله ومَلائِكَتَهُ وَأهلَ السَّمَواتِ والأَرضِ، حَتَّىٰ النَّمْلَةَ فِي جُحرِهَا، وَحَتَّىٰ الحُوتَ، لَيُصَلُّونَ عَلَىٰ مُعَلِّمِ النَّاسِ الخَيرَ**»[2] رواه الترمذيُّ.

(١) «شرح رياض الصالحين» للشيخ محمد بن صالح بن عثيمين (٤/ ٤٣٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٥)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٤٣)، وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٧).

وروىٰ نحوه الدارمي في «سننه» (١/ ١٠٩) عن الحسن مرسلًا وسنده إلىٰ الحسن صحيحٌ، وانظر أيضًا: «شرح السنة» للبغوي (١/ ٢٧٨).

٦- وَقَالَ المُنذرِيُّ: ورواه البزَّارُ من حديثِ عائشةَ مختصرًا، قال: «**مُعَلِّمُ الخَيرِ يَستَغفِرُ لَهُ كُلُّ شَيءٍ حَتَّىٰ الحِيتَانُ فِي البَحرِ**»(١).

قالَ البَغويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قيل: إنَّ اللهَ تَعَالَىٰ ألهَمَ الحيتانَ وغيرَها من أنواعِ الحيوانِ الاستغفارَ للعلماءِ؛ لأنَّهم هم الذين بيَّنوا الحُكمَ فيما يحِلُّ منها ويَحرُمُ للنَّاسِ، فَأوصَوا بالإحسانِ، ونفي الضَّرَرِ عنها، مُجَازَاةً لهم علىٰ حُسنِ صنيعِهِم، وفَضْلُ العلمِ علىٰ العبادةِ من حيث إنَّ نَفْعَ العلمِ يتعدَّىٰ إلىٰ الخلقِ كافَّةً، وفيه إحياءُ الدِّينِ، وهو تلوُ النُّبُوَّةِ»(٢).

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «قوله ﷺ: «**إنَّ الله ومَلائكَتَهُ وَأهلَ السَّمَواتِ والأرضِ يُصَلُّونَ عَلَىٰ معلم النَّاسِ الخَيرَ**» لَّما كان تعليمُهُ للنَّاسِ الخير سببًا لنجاتهم وسعادتهم وزكاة نفوسهم جزاه الله من جنس عمله بأن جعل عليه من صلاتهم وصلاة ملائكته وأهل الأرض ما يكون سببًا لنجاتِهِ وسعادِتِه وفلاحِهِ.

وأيضًا؛ فإنَّ مُعَلِّمَ النَّاسِ الخيرَ لَمَّا كان مُظهِرًا لدين الرَّبِّ وأحكامِهِ، ومُعَرِّفًا لهم بأسمائهِ وصفاتِهِ، جعل الله من صلاتِهِ وصلاةِ أهل سمواتِهِ عليه ما يكون تنويهًا به، وتشريفًا له، وإظهارًا للثناءِ عليه بين أهلِ السَّمَاءِ والأرض»(٣).

٧- وعن الحَسَنِ مُرسَلًا، قال: سُئِلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَن رَجُلَينِ كَانَا فِي بَنِي

---

(١) «الترغيب والترهيب» للمنذري تعليق الدكتور محمد خليل هراس (١/١٠٧)، وقد صحَّح الألبانيُّ الحديثَ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٧).

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١/ ٢٧٨).

(٣) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٥٣).

إسرَائيلَ: أَحَدُهُمَا كَانَ عَالِمًا يُصلِّي المكتُوبَةَ، ثُمَّ يَجلِسُ فَيُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيرَ، والآخَرُ يَصُومُ النَّهَارَ ويَقُومُ اللَّيلَ، أيُّهُمَا أَفضَلُ؟ قَالَ رسُولُ اللهِ ﷺ:

«**فَضْلُ هَذَا العَالِمِ الَّذي يُصَلِّي المَكتُوبَةَ ثُمَّ يَجلِسُ فَيُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيرَ عَلَىٰ العَابِدِ الَّذِي يَصُومُ النَّهَارَ ويَقُومُ اللَّيلَ كَفَضلِي علَىٰ أدنَاكُم**»، رواه الدارميُّ[١] وقال الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: «وسندُهُ إلىٰ الحسَنِ صحيحٌ، لكنَّه مرسلٌ، ويقوِّيه أنَّ له شاهدًا موصولًا»[٢].

والشاهدُ الموصولُ -كما قال الألبانيُّ- هو حديثُ أبي أُمَامَةَ الباهليِّ رضي الله عنه قال: ذُكِرَ لرسولِ اللهِ ﷺ رَجُلانِ: أَحَدُهُمَا عَابِدٌ، والآخَرُ عَالِمٌ، فَقَالَ ﷺ: «**فَضلُ العَالِمِ عَلَىٰ العَابِدِ، كَفَضلِي عَلَىٰ أدنَاكُم**» رواه الترمذيُّ، وصححه الألبانيُّ، كما تقدَّمَ.

٨- وعن حُذَيفَةَ بنِ اليَمَانِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**فَضْلُ العِلمِ خَيرٌ مِن فَضلِ العِبَادَةِ، وَخَيرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ**» رواه الطبرانيُّ في الأوسط، والبزارُ بسندٍ حسنٍ، وصححه الألباني في «صحيح الترغيبِ والترهيبِ»[٣].

قال الشيخ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه ﷺ: «**فَضلُ العِلمِ خَيرٌ مِن فَضلِ العِبَادَةِ**»؛ لأنَّ قليلَ العبادةِ مع العلمِ خيرٌ من كثيرِ العبادةِ مع الجهلِ، فكانت زيادةُ العلمِ خيرًا من زيادةِ العبادةِ».

وقولُه ﷺ: «**وَخَيرُ دِينِكُمُ الوَرَعُ**»، يعني: أنَّ الزهدَ والكَفَّ عن المحارِمِ واجتنابَ

---

(١) رواه الدارمي (١/ ١٠٩).

(٢) «مشكاة المصابيح» للخطيب التبريزي، تحقيق الألباني (١/ ٨٣).

(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» للألباني (١/ ٣١).

الشُّبُهَاتِ هو خيرُ شُعَبِ هذا الدين وأفضلُها»[١].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «العالمُ يُفسِدُ علىٰ الشيطانِ ما يسعىٰ فيه، ويهدمُ ما يبنيه، فكلَّما أراد إحياءَ بدعةٍ وإماتةَ سُنَّةٍ؛ حَالَ العالِـمُ بينه وبين ذلك، فلا شيءَ أشدُّ عليه من بقاءِ العالِـمِ بين ظَهْراني الأمةِ، ولا شيءَ أحبُّ إليه من زوالِهِ من بين أظهرهم؛ ليتمكَّن من إفسادِ الدينِ وإغواءِ الأمَّةِ، وأمَّا العابدُ فغايتُه أن يجاهدَه ليَسلَمَ منه في خاصَّةِ نفسِه، وهيهات له ذلك»[٢].

٩- وعن أبي هريرةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قِيلَ يا رسولَ الله: مَن أكرمُ النَّاسِ؟ قالَ: «**أَتقَاهُم**»، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فَيُوسُفُ نَبِيُّ الله ابنُ نَبِيِّ الله ابن نَبِي الله ابنِ خَلِيلِ الله**»، قالوا: ليس عَن هَذَا نسأَلُكَ، قَالَ: «**فَعَن مَعَادِنِ العَرَبِ تَسأَلُونَ، خِيَارُهُم في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُم في الإسلامِ إِذَا فَقُهُوا**» متفقٌ عليه[٣].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماءُ: لما سُئِلَ رسولُ الله ﷺ: أيُّ الناسِ أكرمُ؟ أخبر بأكملِ الكرمِ وأعَمِّه، فقال: «**أتقاهم لله**».

وأصلُ الكرمِ: كثرةُ الخيرِ، ومَن كان متَّقِيًا كان كثيرَ الخيرِ، وكثيرَ الفائدةِ في الدنيا، وصاحبَ الدرجاتِ العُلا في الآخرةِ.

فلمَّا قالوا: ليس عن هذا نسأَلُكَ، قال: يوسفُ، الذي جمعَ خيراتِ الدنيا والآخرة وشرفهما، فلمَّا قالوا: ليس عن هذا نسأَلُكَ فَهِمَ عنهم أنَّ مرادَهم: قبائلُ

---

(١) «الترغيب والترهيب» للمنذري، تعليق الشيخ محمد خليل هراس (١/ ٩٣).

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٦٩).

(٣) رواه البخاري (٣١٧٥)، ومسلم (١٣٧٨).

العربِ، قال: «**خيارُهُم في الجاهليةِ خيارُهم في الإسلامِ إذا فَقُهُوا**».

ومعناه: أنَّ أصحابَ المروءاتِ ومكارمِ الأخلاقِ في الجاهليةِ إذا أسلموا وفقهوا فَهُم خيارُ النَّاسِ، قال القاضي: وقد تَضَمَّن الحديثُ في الأجوبةِ الثلاثةِ أنَّ الكرمَ كلَّه، عمومَه وخصوصَه، ومجملَه ومبناه، إنَّما هو الدينُ؛ من التقوىٰ، والنبوةِ والإعراقِ فيها، والإسلامِ مع الفقه.

ومعنىٰ: معادنُ العربِ: أصولُها، وفَقُهوا -بضمِّ القافِ علىٰ المشهورِ، وحُكي كسرُها-، أي: صاروا فقهاءَ عالِمِينَ بالأحكام الشرعية الفقهية، والله أعلم»[1].

١٠- وعن أبي هريرة ﵁، عن رسول الله ﷺ قال: «**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ: خِيَارُهُم فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُم فِي الإسلامِ إِذَا فَقُهُوا، وتَجِدُونَ خَيْرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأنِ أَشَدَّهُم لَهُ كَرَاهِيَةً**»[2]. هذه روايةُ البخاريِّ، وفي روايةٍ لمسلمٍ: «**وَتَجِدُونَ مِن شِرَارِ النَّاسِ ذَا الوَجهَينِ؛ الَّذِي يَأتِي هَؤلاءِ بِوَجهٍ وَهَؤلاءِ بوَجهٍ**»[3].

وأَورَدَ البخاريُّ هذه الزيادةَ مستقلَّةً في كتاب «الأدب» من «صحيحه» عن أبي هريرة ﵁ قال: قال النبيُّ ﷺ: «**تَجِدُ مِن شِرَارِ النَّاسِ يومَ القِيامَةِ عِندَ الله ذَا الوجهَينِ؛ الَّذي يَأتي هَؤلاءِ بوَجهٍ وهَؤلاءِ بِوَجهٍ**»[4].

قال الحافظُ ﵀: «قولُهُ ﷺ «**تَجِدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ**»، أَي: أُصُولًا مُختَلِفَةً،

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ١٣٥).

(٢) رواه البخاري (٣٣٠٥).

(٣) رواه مسلم (٢٥٦٦).

(٤) رواه البخاري (٥٧١١).

والمَعَادِنُ: جَمعُ مَعدِن، وَهُوَ الشَّيءُ المُستَقِرُّ في الأَرضِ، فَتَارة يَكُونُ نفيسًا، وتارةً يكونُ خَسيسًا، وكذلِكَ النَّاسُ.

وقولهُ: «**خيارُهُم في الجاهليَّةِ خيارُهم في الإسلام**» وَجهُ التشبيهِ: أنَّ المعدنَ لَمَّا كان إذا استُخرِجَ ظهر ما اختفىٰ منه، ولا تتغيَّرُ صفتُه، فكذلك صفةُ الشَّرَفِ لا تتغيَّرُ في ذاتِها، بل مَن كان شريفًا في الجاهليةِ فهو بالنسبةِ إلىٰ أهلِ الجاهليةِ رأسٌ، فإن أسلم استمرَّ شرفُهُ وكان أشرفَ مِّمن أسلم من المشروفين في الجاهليةِ.

وأمَّا قولُهُ: «**إذَا فَقُهُوا**» ففيه إشارةٌ إلىٰ أنَّ الشرفَ الإسلاميَّ لا يتمُّ إلا بالتفقُّهِ في الدينِ، وعلىٰ هذا فتنقسمُ النَّاسُ أربعةَ أقسامٍ مع ما يقابلها:

الأولُ: شريفٌ في الجاهليةِ أسلمَ وتفقَّه، ويقابله مشروفٌ في الجاهليةِ لم يُسلم ولم يتفقَّه.

الثاني: شريفٌ في الجاهليةِ أسلمَ ولم يتفقَّه، ويقابله مشروفٌ في الجاهليةِ لم يُسلم وتفقَّه.

الثالثُ: شريفٌ في الجاهليةِ لم يُسلم ولم يتفقَّه، ويقابله مشروفٌ في الجاهليةِ لم يُسلم ولم يتفقَّه.

الرابعُ: شريفٌ في الجاهليةِ لم يُسلم وتفقَّه، ويقابله مشروفٌ في الجاهلية أسلمَ ولم يتفقَّه.

فأرفعُ الأقسامِ من شَرُفَ في الجاهليةِ ثمَّ أسلمَ وتفقَّه، ويليه مَن كان مشروفًا ثمَّ أسلمَ وتفقَّه، ويليه من كان شريفًا في الجاهليةِ ثمَّ أسلم ولم يتفقَّه، ويليه مَن كان مشروفًا في الجاهليةِ، ثمَّ أسلمَ ولم يتفقَّه.

وأمَّا مَن لم يُسلم فلا اعتبارَ به، سواءٌ كان شريفًا أو مشروفًا، سواءٌ تفقَّه أو لم يتفقَّه، والله أعلمُ.

والمرادُ بالخيارِ والشرفِ وغيرِ ذلك: مَن كان مُتَّصِفًا بمحاسنِ الأخلاقِ؛ كالكرمِ والعِفَّةِ والحلمِ وغيرها، متوقِّيًا لمساويها كالبخلِ والفجورِ والظلمِ وغيرِها.

قولُه: «**وَتَجِدُونَ خَيرَ النَّاسِ فِي هَذَا الشَّأنِ**»، أي: الولاية والإمرة: «**أَشَدَّهُم لَهُ كَرَاهيَةً**»، أي: إنَّ الدخولَ في عُهدةِ الإمرةِ مكروهٌ، من جهةِ تحمُّلِ المشقَّةِ فيه، وإنَّما تشتدُّ الكراهةُ له مِّمن يتَّصفُ بالعقلِ والدينِ، لما فيه من صعوبةِ العمل بالعدلِ وحمل الناسِ علىٰ رفعِ الظلمِ، ولما يترتَّب عليه من مطالبةِ الله تعالىٰ للقائمِ به من حقوقِه وحقوقِ عبادِه، ولا يخفىٰ خيريةُ من خافَ مقامَ ربِّه»[1].

وقال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه ﷺ: «**فَقُهُوا**» -بضم القافِ علىٰ المشهورِ، وحُكي كسرُها-، أي: صاروا فقهاءَ علماءَ، والمعادنُ: الأصولُ، وإذا كانت الأصولُ شريفةً كانت الفروعُ كذلك غالبًا، والفضيلةُ في الإسلامِ بالتقوىٰ، لكن إذا انضمَّ إليها شرفُ النَّسَبِ ازدادت فضلًا.

قولُه ﷺ: «**وتَجِدُونَ خَيرَ النَّاسِ فِي هذَا الأمرِ أَشَدَّهُم لَهُ كَرَاهِيَةً حَتَّىٰ يَقَعَ فيهِ**» قال القاضي: يحتمل أنَّ المرادَ به الإسلامُ، كما كان عمرُ بن الخطابِ، وخالدُ بن الوليدِ، وعمرو بن العاص، وعكرمةُ بنُ أبِي جهل، وسهيلُ بنُ عمرو، وغيرُه من مُسلِمَةِ الفتحِ وغيرهم مِّمن كان يكره الإسلامَ كراهيةً شديدةً، لَّما دخل فيه أخلصَ

(١) «فتح الباري» لابن حجر، نشرة الأستاذ محب الدين الخطيب (٦/ ٦١٢).

وأحبَّه وجاهد فيه حقَّ جهادِهِ، قال: ويحتملُ أنَّ المرادَ «بالأمرِ» هنا: «الولايات»؛ لأنَّه إذا أُعطيها من غير مسألةٍ أُعينَ عليها.

قولُه ﷺ في ذي الوجهين أنَّه من شِرارِ النَّاسِ فسببُه ظاهرٌ؛ لأنَّه نفاقٌ محضٌ وكذبٌ وخداعٌ وتحيُّلٌ علىٰ اطلاعِهِ علىٰ أسرارِ الطائفتين، وهو الذي يأتي كلَّ طائفةٍ بما يرضيها، ويُظهر لها أنَّه منها في خيرٍ أو شرٍّ، وهي مداهنةٌ محرَّمةٌ»[١].

١١- وعن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قالَ: قالَ النبي ﷺ: «**لا حَسَدَ إلا في اثنَتَينِ: رَجُلٌ آتَاهُ الله مَالًا فَسُلِّطَ علَىٰ هَلَكَتِهِ في الحَقِّ، وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الحِكمَةَ فَهُوَ يقضي بهَا ويُعَلِّمُهَا**» متفقٌ عليه[٢].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُه ﷺ: «**لا حَسَدَ**» الحسدُ: تمنِّي زوالِ النعمةِ عن المُنعَمِ عليه، وخَصَّه بعضُهم بأن يتمنَّىٰ ذلك لنفسِهِ، والحقُّ أنَّه أعمُّ[٣]، وسببُه: أنَّ الطِّبَاعَ مجبولةٌ علىٰ حبِّ الترفُّعِ علىٰ الجنسِ، فإذا رأىٰ لغيرِهِ ما ليس له أحبَّ أن يزولَ ذلك عنه ليرتفعَ عليه، أو مطلقًا ليساويه.

وصاحبُهُ مذمومٌ إذا عَمِلَ بمقتَضىٰ ذلك من تصميمٍ أو قولٍ أو فعلٍ.

وينبغي لمن خَطَرَ له ذلك أن يكرهَه كما يكره ما وُضِعَ في طبعِهِ من حُبِّ

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٧٩).

(٢) رواه البخاري (٧٣)، ومسلم (٨١٥).

(٣) **قال الشيخُ العثيمين**: «الحسدُ هو كراهة ما أنعم الله به علىٰ العبدِ، وليس هو تمنِّي زوالِ نعمةِ الله علىٰ الغيرِ، بل هو مجرَّد أن يكره الإنسانُ ما أنعم الله به علىٰ غيره، فهذا هو الحسدُ، سواءٌ تمنَّىٰ زواله، أو أن يبقىٰ ولكنه كارهٌ له» «كتاب العلم» (ص٧١).

المنهياتِ، واستثنوا من ذلك ما إذا كانت النعمةُ لكافرٍ أو فاسقٍ يستعين بها علىٰ معاصي الله تعالىٰ.

فهذا حكمُ الحسدِ بحسب حقيقتِهِ، وأمَّا الحسدُ المذكورُ في الحديثِ فهو الغِبطَةُ وأطلق الحسدَ عليها مجازًا، وهي أن يتمنَّىٰ أن يكون له مثلُ ما لغيرِهِ من غيرِ أن يزولَ عنه، والحرصُ علىٰ هذا يسمَّىٰ منافسةً، فإن كان في الطاعةِ فهو محمودٌ ومنه: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

وإن كان في المعصيةِ فهو مذمومٌ، ومنه: «**ولاَ تَنَافَسُوا**»[(١)]، وإن كان في الجائزاتِ فهو مباحٌ، فكأنَّه قال في الحديثِ: لا غِبطَةَ أعظمُ -أو أفضلُ- من الغِبطةِ في هذين الأمرين.

ووجهُ الحصرِ أنَّ الطاعاتِ إمَّا بدنيةٌ، أو ماليةٌ، أو كائنةٌ عنهما، وقد أشار إلىٰ البدنيةِ بإتيان الحكمةِ، والقضاء بها، وتعليمها، ولفظُ ابن عمرَ: «**رَجَلٌ آتَاهُ الله القُرآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آنَاءَ الليلِ وآناءَ النَّهَارِ**»[(٢)]. والمرادُ بالقيامِ به: العملُ به مطلقًا، أعمُّ من تلاوتِهِ داخلَ الصلاةِ أو خارجَها ومن تعليمِهِ، والحكمِ والفتوىٰ بمقتضاه، فلا تَخَالُفَ بين لفظِ الحديثين.

ويجوز حملُ الحسدِ في الحديثِ علىٰ حقيقته علىٰ أنَّ الاستثناءَ منقطعٌ، والتقديرُ نفيُ الحسدِ مطلقًا، لكن هاتان الخصلتان محمودتان، ولا حسدَ فيهما، فلا حسدَ أصلًا.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٣).

(٢) رواه البخاري (٧٩١)، ومسلم (٨١٥).

قولُهُ: «**إلا فِي اثنَتَينِ**» كذا في معظمِ الرواياتِ «بتاءِ التأنيثِ» ، أي: لا حسدَ محمودٌ في شيءٍ إلا في خصلتين، وعلىٰ هذا فقولُهُ: «رجلٌ» بالرفعِ، والتقديرُ: خصلةُ رجلٍ، حَذَفَ المضافَ، وأُقيم المضافُ إليه مقامَهُ.

قولُهُ: «**مَالًا**» نكَّرَهُ ليشملَ القليلَ والكثيرَ.

قولُهُ: «**فَسُلِّطَ**»، عَبَّرَ بالتسليطِ لدلالتِهِ علىٰ قَهرِ النَّفسِ المجبولةِ علىٰ الشُّحِّ.

قولُهُ: «**هَلَكَتِهِ**» -بفتحِ اللام والكافِ- أي: إهلاكه، وعبَّرَ بذلك ليدلَّ علىٰ أنَّه لا يُبقي منه شيئًا، وكَمَّلَهُ بقولِهِ: «**فِي الحَقِّ**» أي: في الطاعاتِ ليزيل عنه إيهامَ الإسرافِ المذمومِ.

قولُهُ: «**الحِكمَة**» اللامُ للعهدِ، لأنَّ المرادَ بها القرآنُ، وقيل: المرادُ بالحكمةِ: كلَّ ما منع من الجهلِ، وزَجَرَ عن القبيحِ»(١).

وقال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ ﷺ: «**لا حَسَدَ إلا فِي اثنَتَينِ**» قال العلماءُ: الحسدُ قسمان: حَقيقيٌّ، ومجازيٌّ؛ فالحقيقيُّ: تمنِّي زوالِ النعمةِ عن صاحبِها، وهذا حرامٌ بإجماعِ الأمةِ مع النصوصِ الصحيحة، وأمَّا المجازيُّ فهو الغِبطَةُ، وهو أن يتمنَّىٰ مثلَ النعمةِ التي علىٰ غيرِهِ من غير زوالها عن صاحبِها، فإن كانت من أمور الدنيا كانت مباحةً، وإن كانت طاعةً فهي مستحبَّةٌ.

والمرادُ بالحديثِ: لا غِبطَةَ محمودةٌ إلا في هاتين الخصلتين وما في معناهما.

---

(١) «فتح الباري» لابن حجر، ط. الخطيب (١/ ٢٠١).

قولُهُ ﷺ: «**آنَاءَ اللَّيلِ والنَّهَارِ**» أي: ساعاته، وواحده: الآن، وأنا، وأني، وأنو، أربعُ لغاتٍ.

قولُهُ ﷺ: «**فَسَلَّطَهُ عَلَىٰ هَلَكَتِهِ فِي الحَقِّ**» أي: إنفاقه في الطاعاتِ.

قولُهُ ﷺ: «**وَرَجُلٌ آتَاهُ الله الحِكمَةَ فَهُوَ يقضي بِهَا ويُعَلِّمُهَا**»، معناه: يعملُ بها ويعلِّمها احتسابًا، والحكمةُ: كلُّ ما مَنَعَ من الجهلِ وزَجَرَ عن القبيحِ»[1].

١٢- وعن أبي أُمَامَةَ ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن غَدَا إِلَىٰ المسجِدِ لا يُريدُ إلا أَن يَتَعَلَّمَ خَيرًا أَو يُعَلِّمَهُ، كَانَ لَهُ كَأجرِ حَاجٍّ، تَامًّا حَجَّتُهُ**».

رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١١١) رقم (٧٤٧٣)، وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٤/ ٣٧١): وإسنادُهُ جيدٌ. وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٢٣): ورجالُهُ موثقون كُلُّهم.

وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٨) قال: «أخرجه الحاكم» (١/ ٩١) بلفظ: «**... أجر معتمرٍ تامِّ العمرة**» وزاد: «**ومَن راح إلىٰ المسجدِ لا يُريد إلا ليتعلَّمَ خيرًا، أو يعلِّمه، فله أجرُ حاجٍّ تامِّ الحجَّةِ**» وصحَّحه علىٰ شرطِ البخاريِّ ووافقه الذهبيُّ».

١٣- وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَن جَاءَ مَسْجِدِي هذَا، لَم يَأتِهِ إلا لِخَيرٍ يَتَعَلَّمُهُ، أَو يُعَلِّمُهُ، فَهُوَ بِمَنزِلَةِ المُجَاهِدينَ فِي سَبِيلِ الله، وَمَن جَاءَ لِغَيرِ ذلكَ فَهُوَ بِمَنزِلَةِ الرَّجُلِ يَنظُرُ إِلَىٰ مَتَاعِ غَيرِهِ**».

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٩٧).

رواه ابن ماجه (١/ ٨٢) رقم (٢٢٧)، وصحَّحه الألباني فِي «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٤)، وقال فِي «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٩): «إسنادُ ابنِ ماجه صحيحٌ علىٰ شرطِ مسلمٍ، كما قال البوصيري في «الزوائد» (٢/ ٩١٦) وقد أخرجه الحاكم أيضًا وصحَّحه علىٰ شرطِ الشيخين، ووافقه الذهبيُّ، وإنَّما هو علىٰ شرطِ مسلمٍ فقط».

قال الشيخُ مُحَمَّد خليل هرَّاس: «قولُهُ ﷺ: «**فَهُوَ بِمَنزِلَةِ المُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ الله**»، أي: في درجةِ المحاربين لإعلاء كلمة الله، ولا شكَّ أنَّ طَلَبَ العلمِ النافعِ وتعليمَهُ لمن يطلبه، هو نوعٌ من الجهادِ فإنَّ الجهادَ لا يكون بالسيفِ وحده، بل بالبيانِ والموعظةِ وإقامةِ البرهانِ.

وقولُهُ ﷺ: «**فَهُوَ بِمَنزِلَةِ الرَّجُلِ يَنظُرُ إِلَىٰ مَتَاعِ غَيرِهِ**» يعني: لا حظَّ له من هذا الخيرِ إلا النظر، كما ينظرُ الفقيرُ المحرومُ إلىٰ ما عند الأغنياءِ من عَرَضٍ ومتاعٍ»(١).

١٤- وعن أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:

«**طَلَبُ العِلمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ**»(٢) رواه ابن ماجه وغيره.

قال الألبانيُّ وقد ذَكَرَ طُرُقَ الحديثِ: «اعلم أنَّ السيوطيَّ قد جمعَ هذه الطُّرُقَ حتىٰ أوصلها إلىٰ الخمسين، وحكم من أَجلِهَا علىٰ الحديثِ بالصحَّةِ، وحكىٰ

(١) «الترغيب والترهيب» للمنذري، تعليق هَرَّاس (١/ ١١٣).

(٢) الحديث صحيحٌ، وقد تقدم الكلام عنه، وانظر: «تخريج أحاديث مشكلة الفقر» للألباني (ص٤٨-٦٢).

العراقيُّ صحَّته عن بعضِ الأئمةِ، وحسَّنَه غيرُ ما واحدٍ، والله أعلم».

وأمَّا زيادةُ «ومسلمةٍ» التي اشتهرت علىٰ الألسنةِ فلا أصلَ لها أَلْبَتَّةَ، وأمَّا الزيادةُ التي وقعت في أوَّله في بعضِ الطرقِ «**اطلبوا العلمَ ولو بالصين**» فباطلةٌ كما بيَّنته في «الأحاديث الضعيفة»[1].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الإيمانَ فَرضٌ علىٰ كلِّ واحدٍ، وهو ماهيَّةٌ مركَّبةٌ من علمٍ وعملٍ، فلا يُتَصَوَّرُ وجودُ الإيمانِ إلا بالعلمِ والعملِ.

ثمَّ شرائعُ الإسلامِ واجبةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ، ولا يمُكن أداؤها إلا بعد معرفتها والعلمِ بها، والله تعالىٰ أخرجَ عبادَهُ من بطونِ أُمَّهَاتِهِم لا يعلمون شيئًا، فطلبُ العلمِ فريضةٌ علىٰ كلِّ مسلمٍ.

وهل تُمكِنُ عبادةُ الله التي هي حقُّهُ علىٰ العبادِ كلِّهم إلا بالعلمِ؟

وهل يُنَالُ العلمُ إلا بِطَلَبِهِ؟

ثمَّ إنَّ العلمَ المفروضَ تعلُّمُهُ ضربان: ضَربٌ منه فرضُ عَينٍ لا يسعُ مسلمًا جهلُهُ، وهو أنواعٌ:

النوعُ الأولُ: علمُ أصولِ الإيمانِ الخمسةِ: الإيمانِ بالله، وملائكتِهِ، وكتبِهِ، ورُسلِهِ، واليومِ الآخرِ، فإنَّ مَن لم يُؤمِن بهذه الخمسِ لم يدخل في بابِ الإيمانِ، ولا يستحقُّ اسمَ المؤمن، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ

---

(١) «سلسلة الأحاديث الضعيفة» رقم (٤١٦)، و«مشكاة المصابيح للتبريزي» تحقيق الألباني (١/ ٧٦).

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧]، وقال: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

ولَمَّا سألَ جبريلُ رسولَ الله ﷺ عن الإيمانِ، قال: «**أَن تُؤمِنَ بالله ومَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَومِ الآخرِ**» قالَ: صَدَقْتَ[(١)].

فالإيمانُ بهذه الأصولِ فرعُ معرفتِها والعلمِ بها.

النوعُ الثاني: علمُ شرائعِ الإسلامِ، واللازمُ منها علمُ ما يَخُصُّ العبدَ من فعلِهَا، كعلمِ الوضوءِ والصلاةِ والصيام والحجِّ، والزكاةِ وتوابعها وشروطها ومبطلاتها.

النوعُ الثالثُ: علمُ المحرماتِ الخمسِ التي اتفقت عليها الرُّسُلُ والشرائعُ والكتبُ الإلهيَّةُ؛ وهي المذكورةُ في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٣].

فهذه محرَّماتٌ علىٰ كلِّ أحدٍ في كلِّ حالٍ علىٰ لسانِ كلِّ رسولٍ، لا تُبَاحُ قطُّ، ولهذا أتىٰ فيها بـ «إِنَّمَا» المفيدةِ للحصرِ مطلقًا، وغيرُها مُحَرَّمٌ في وقتٍ مُبَاحٌ في غيرِهِ؛ كالميتَةِ والدَّمِ ولحم الخنزيرِ ونحوِهِ، فهذه ليستَ مُحَرَّمَةً علىٰ الإطلاقِ والدوامِ، فلم تدخل تحت التحريمِ المحصورِ المطلَقِ.

النوعُ الرابعُ: علمُ أحكامِ المعاشَرَةِ والمعامَلَةِ التي تحصلُ بينه وبين النَّاسِ

(١) رواه مسلم (١٠)، وهذه الروايةُ هي التي يريدها ابنُ القيم لقولِ جبريل فيها: صدقت، وليست في روايةِ البخاري عن أبي هريرة (٥٠)، ولا في شيءٍ من رواية مسلم عنه ﷺ (٩).

خصوصًا وعُمومًا، والواجبُ في هذا النوعِ يختلفُ باختلافِ أحوالِ النَّاسِ ومنازِلهم، فليس الواجبُ علىٰ الإمامِ مع رعيتِهِ كالواجبِ علىٰ الرَّجُلِ مع أهلِهِ وجيرتِهِ، وليس الواجبُ علىٰ مَن نَصَّبَ نفسَه لأنواعِ التجاراتِ من تَعَلُّمِ أحكامِ البياعاتِ كالواجبِ علىٰ مَن لا يبيعُ ولا يشتري إلا ما تدعو الحاجةُ إليه.

وتفصيلُ هذه الجملَةِ لا ينضبطُ، لاختلافِ النَّاسِ في أسبابِ العلمِ الواجبِ.

وذلك يرجعُ إلىٰ ثلاثةِ أصولٍ: اعتقادٍ، وفعلٍ، وتركٍ.

فالواجبُ في الاعتقادِ: مطابقتُهُ للحقِّ في نفسِهِ.

والواجبُ في العملِ: معرفَةُ مُوافقَةِ حركاتِ العبدِ الظاهرةِ والباطنةِ الاختيارية للشرعِ أمرًا وإباحَةً.

والواجبُ في التَّركِ: معرفَةُ موافقةِ الكَفِّ والسكونِ لمرضاةِ الله.

وأمَّا فَرضُ الكفايةِ فلا أعلمُ فيه ضابِطًا صحيحًا، فإنَّ كلَّ أحدٍ يُدخِلُ في ذلك ما يظنُّه فرضًا، فَيُدخِلُ بعضُ النَّاسِ في ذلك علمَ الطبِّ وعلمَ الحسابِ وعلمَ الهندسةِ والمساحَةِ، وبعضُهم يزيدُ علىٰ ذلك علمَ أصولِ الصِّنَاعَةِ كالفلاحَةِ والحِدَادَةِ والخِياطةِ ونحوها، وبعضُهم يَزيدُ علىٰ ذلك علمَ المنطقِ، وربَّما جعلَه فَرضَ عينٍ، وبناه علىٰ عَدَمِ صحة إيمانِ المقلِّدِ.

وكلُّ هذا هَوَسٌ وخَبطٌ، فلا فَرضَ إلا ما فَرَضَ الله ورسولُهُ.

فيا سبحان الله! هل فَرَضَ الله علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يكون طبيبًا حجَّامًا، حَاسبًا مهندسًا، أو حَائكًا أو فلاحًا أو نجَّارًا أو خيَّاطًا؟ فإنَّ فَرَضَ الكفايةِ كفرضِ العَينِ

في تعلُّقِهِ بعمومِ المكلَّفين، وإنَّما يخالفُهُ في سقوطِهِ بفعلِ البعضِ.

ثمَّ علىٰ قولِ هذا القائلِ يكونُ الله قد فَرَضَ علىٰ كلِّ أحدٍ جُملَةَ هذه الصَّنائع والعلومِ، فإنَّه ليس واحدٌ فرضًا علىٰ مُعَيَّنٍ والآخرُ علىٰ مُعَيَّنٍ آخرَ، بل عمومُ فرضيَّتها مُشتَرَكَةٌ بين العمومِ، فيجب علىٰ كلِّ أحدٍ أن يكونَ حاسِبًا حائكًا خَيَّاطًا نَجَّارًا فلاحًا طبيبًا مهندسًا.

فإن قال: المجموعُ فرضٌ علىٰ المجموعِ، لم يكن قولُكَ: «إنَّ كلَّ واحدٍ، منها فرضُ كفايةٍ» صحيحًا؛ لأنَّ فرضَ الكفايةِ يجبُ علىٰ العمومِ.

وبالجملةِ؛ فالمطلوبُ الواجبُ من العبدِ من العلومِ والأعمالِ، ما إذا توقَّفَ علىٰ شيءٍ منها كان ذلك الشيءُ واجبًا وجوبَ الوسائلِ(١).

ومعلومٌ أنَّ ذلك التَّوقُّفَ يختلفُ باختلافِ الأشخاصِ والأزمانِ والألسنةِ والأذهانِ، فليس لذلك حَدٌّ مُقَدَّرٌ»(٢).

١٥- وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَن نَفَّسَ عَنَ مُؤمِنٍ كُربَةً مِن كُرَبِ الدُّنيَا، نَفَّسَ الله عَنهُ كُربَةً من كُرَبِ يومِ القيامةِ، ومَن يَسَّرَ علَىٰ مُعسِرٍ، يَسَّرَ الله عَلَيهِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسلِمًا، سترَهُ الله في الدُّنيَا والآخِرَةِ، واللهُ فِي عَونِ العَبدِ مَا كَانَ العبدُ في عَونِ أخيهِ، وَمَن سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلمًا، سَهَّلَ الله لَهُ بِهِ طَرِيقًا إلىٰ الجَنَّةِ، وَمَا اجتَمَع قَومٌ فِي بَيتٍ مِن بُيُوتِ الله، يَتلُونَ كِتَابَ الله،**

(١) فيه القاعدةُ الكبيرةُ: ما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ.

(٢) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٤٨٠-٤٨٦) بتصرُّفٍ.

ويتَدَارَسُونَهُ بَينَهُم، إلا نَزَلَت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ، وغَشيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ، وذَكَرَهُمُ الله فِيمَن عِندَهُ، ومَن بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ»(١) مسلمٌ في كتاب «الذِّكر والدعاء والتوبة والاستغفار»، باب: فضل الاجتماعِ علىٰ تلاوةِ القرآنِ وعلىٰ الذِّكرِ رقم (٢٦٩٩).

وذكر المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» أنَّ الحديثَ أخرجه مسلمٌ وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه» والحاكمُ وقال: صحيحٌ علىٰ شرطهما، وعلَّق الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٢)، فقال: «في هذا التخريجِ أوهامٌ عجيبةٌ نبَّه عليها الشيخُ الناجي -رحمه الله تعالىٰ-، (ق١٦-١٨)، يطول الكلامُ بذكرها، لكنَّ المهمَّ هنا التذكيرُ بأنَّ سياقَ الحديثِ إنَّما هو لابن ماجه دون مسلمٍ وغيره مَّمن ذُكر معه، وسندُهُ صحيحٌ علىٰ شرطِ الشيخين».

وهذا الكلامُ من العلامة الألبانيِّ غريبٌ جدًّا، فالحديثُ رواه مسلمٌ كما مرَّ، بذات السياقِ الذي أنكره الشيخُ -أكرمه الله-، ولا شكَّ أنَّ ذلك سَبقُ قلمٍ من العلامةِ الألبانيِّ لأنَّه -أكرمه الله- ثابتُ القَدَمِ في العلمِ جدًّا، راسخُ الدعائمِ فيه، أسألُ الله أن ينفعَ به ويجزيه خيرًا.

غريبُ الحديثِ(٢):

نَفَّسَ: -بتشديد الفاءِ- أي: فَرَّجَ وأزالَ بمالِهِ أو بجاهِهِ أو إشارتِهِ أو إعانتِهِ أو وساطتِهِ أو دعائِهِ أو شفاعتِهِ.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» للألباني (١/ ٣٢).

كُرَب: -هو بضمِّ الكافِ وفتحِ الراءِ المهملةِ-: جمعُ «كُربة»، وهي في أصلِ اللغةِ: ما يأخذُ النفسَ من الغمِّ، والمعنىٰ: فَرَّجَ وأزالَ همًّا واحدًا من همومِ الدنيا، أيَّ هَمٍّ كان صغيرًا أو كبيرًا؛ من عِرضِهِ وغَرَضِهِ وعُدَدِه وعدوِّه، وهذا فيما يجوز شرعًا، وأمَّا ما كان محرَّمًا أو مكروهًا، فلا يجوز تفريجُهُ وتنفيسُهُ.

سَتَرَ مسلمًا: أي: بدنَهُ باللِّباسِ أو عيوبَهُ عن الناسِ، وهذا إذا لم يكن معروفًا بالفسادِ، بأن يكونَ من ذوي الهيئاتِ لقولهِ ﷺ: «**أَقِيلُوا ذَوِي الهيئَاتِ عَثَرَاتِهم إلا الحُدُودَ**» وهو حديثٌ صحيحٌ مخرَّجٌ في «السلسلة الصحيحة» برقم (٦٣٨)، ويلزم أن يقيَّدَ بما يتعلَّق بحقوق الله تعالىٰ؛ كالزنا وشربِ الخمرِ وشبههما دون حقوقِ النَّاسِ، كالقتلِ والسرقةِ ونحوهما، فإنَّ السترَ هنا حرامٌ، والإخبارُ به واجبٌ.

المُعسِرُ: مَن رَكِبه الدَّينُ وتَعَسَّرَ عليه قضاؤه بالإنذارِ أو بالإبراءِ، أو يُرادُ بالعُسرِ مطلقَ الفقرِ، فيسهل عليه أمره، بالهبةِ أو الصدقةِ، أو القرضِ.

في عونِ العبدِ: أي: إعانتِهِ.

ما كان العبدُ: أي: مُدَّةَ دوامِ كونهِ.

في عونِ أخيه: أي: إعانته بمالِهِ أو جاههِ، أو قلبهِ أو بدنِه.

يلتمسُ: يطلبُ.

وقولُهُ: «**في بيتٍ من بيوتِ الله**»، أي: مسجدٍ أو مدرسةٍ أو رباطٍ، فلذلك لم يَقُل: من المساجد.

يتدارسونه: يشملُ هذا: ما يُنَاطُ بالقرآنِ من تعليمٍ وتعلُّمٍ وتدارسِ بعضهم

علىٰ بعضٍ، والاستكشاف والتفسير، والتحقيق في مبناه ومعناه.

السَّكِينَةُ: ما يسكن إليه القَلبُ من الطمأنينةِ والوقارِ والثباتِ وصفاءِ القلبِ.

وقولُهُ: «**غشيتهم الرحمةُ**»، أي: غطَّتهم، وقولُهُ: «**وحفَّتهم الملائكةُ**»، أحَدَقَت بهم وأحاطت.

بَطَّأ: -هو بتشديدِ الطاءِ- أي: مَن أخرَّه عملُهُ السيِّئُ وتفريطُه في العملِ الصالحِ لـم ينفعه في الآخرةِ شرفُ النَّسَبِ وفضيلةُ الآباءِ، ولا يُسرع به إلىٰ الجَنَّةِ، بل يقدَّمُ العاملُ بالطاعةِ ولو كان عبدًا حبشيًّا، علىٰ غيرِ العاملِ ولو كان شريفًا قرشيًّا، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه: «**مَن نَفَّسَ عَن مُؤمِن كُربَةً...**» إلىٰ آخرِهِ، هو حديثٌ عظيمٌ جامعٌ لأنواعٍ من العلومِ والقواعدِ والآدابِ، ومعنىٰ نَفَّسَ الكُربَة: أزالَها، وفيه فضيلةُ قضاءِ حوائجِ المسلمين، ونفعهم بما تيسَّر من علمٍ أو معاونةٍ أو إشارةٍ بمصلحةٍ أو نصيحةٍ أو غيرِ ذلك، وفضلُ السِّتر علىٰ المسلمين، وفضلُ إنظَارِ المُعسرِ، وفضلُ المشي في طلب العلمِ، ويلزمُ من ذلك الاشتغالُ بالعلم الشرعيِّ بشرطِ أن يقصدَ به وجهَ الله تعالىٰ، وإن كان هذا شرطًا في كلِّ عبادةٍ، لكنَّ عادةَ العلماء يقيِّدون هذه المسألةَ به، لكونِهِ قد يَتَسَاهَلُ فيه بعضُ النَّاسِ، ويغفلُ عنه بعضُ المبتدئين وغيرُهم.

قولُهُ ﷺ: «**ومَا اجتَمَعَ قَومٌ فِي بَيتٍ مِن بُيُوتِ الله، يَتلُونَ كِتَابَ الله، ويتَدَارَسُونَهُ بَينَهُم؛ إلا نَزَلَت عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ، وَغَشيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ**» قيل: المرادُ بالسكينةِ هنا:

الرحمةُ، وهو الذي اختاره القاضي عياضٌ، وهو ضعيفٌ؛ لعطفِ الرحمةِ عليه، وقيل: الطمأنينةُ والوقارُ وهو أحسنُ، وفي هذا دليلٌ لفضلِ الاجتماعِ علىٰ تلاوةِ القرآنِ في المسجدِ ويلحق بالمسجدِ في تحصيلِ هذه الفضيلةِ الاجتماعُ في مدرسةٍ أو رباطٍ ونحوهما إن شاء الله تعالىٰ.

قولهُ ﷺ: «**وَمَن بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ، لَم يُسرِع بِهِ نَسَبُهُ**» معناه: مَن كان عملُهُ ناقصًا لم يُلحِقْهُ بمرتبةِ أصحابِ الأعمالِ، فينبغي ألَّا يتَّكِلَ علىٰ شرفِ النَّسَبِ وفضيلةِ الآباءِ ويقصِّرَ في العمل»[١].

١٦- وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ: «**الدُّنيَا مَلْعُونَةٌ، مَلعُونٌ مَا فِيهَا؛ إلا ذِكرَ الله ومَا وَالاهُ، وَعَالِمًا ومُتَعَلِّمًا**»، رواه الترمذيُّ، وابن ماجه، وقال الترمذيُّ: حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب»[٢].

قال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٤): «المرادُ بالدنيا: كلُّ ما يَشغَلُ عن الله تعالىٰ ويبعد عنه، و: «**لَعَنَهُ**»: بعَّده عن نظرهِ، والاستثناءُ في قولِهِ: «**إلا ذِكرَ الله**» منقطعٌ، ويُحتمل أن يُراد بها العالَمُ السُّفليُّ كلُّه، وكلُّ ما له نصيبٌ في القبولِ عنده تعالىٰ قد استثني بقوله: «**إلا ذِكرَ الله...**» إلخ، فالاستثناءُ متَّصِلٌ، و«الموالاةُ»:

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ٢١).

(٢) رواه الترمذي (٢٣٢٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٦٩)، ورواه ابن ماجه (٤١١٢)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٩٥)، وكذا حسَّنه في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٤)، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٤٠٧٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ورواه البيهقي.

المحبَّةُ، أي: إلا ذِكرَ الله وما أَحَبَّهُ الله تعالىٰ مما يجري في الدنيا، أو بمعنىٰ المتابعة، فالمعنىٰ: ما يجري علىٰ موافقةِ أمرِهِ تعالىٰ أو نهيه، ويحتمل أن يراد: وما يوافق ذِكرَ الله، أي: يجانسُهُ ويقاربُهُ، فطاعتُه تعالىٰ واتِّباعُ أمرِهِ واجتنابُ نهيه: كلُّها داخلةٌ فيما يوافق ذِكرَ الله، والله أعلم».

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَّما كانت الدنيا حقيرةً عند الله لا تُساوي لديه جَنَاحَ بعوضةٍ، كانت -وما فيها - في غاية البُعدِ منه، وهذا هو حقيقةُ اللَّعنةِ، وهو سبحانه إنَّما خَلَقها مَزرَعَةً للآخرةِ ومَعْبَرًا إليها يتزوَّدُ منها عبادُه إليه، فلم يكن يُقَرِّبُ منها إلا ما كان مُتَضَمِّنًا لإقامةِ ذِكرِهِ ومُفضيًا إلىٰ محابِّه، وهو العلمُ الذي به يُعرَفُ الله، ويُعبَدُ ويُذْكَرُ، ويُثنىٰ عليه، وبه يُمَجَّدُ، ولهذا خَلَقَها وخَلَقَ أهلَها، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢].

فتضمَّنت هاتان الآيتان أنَّه سبحانه إنَّما خَلَقَ السمواتِ والأرضَ، وما بينهما ليُعرَفَ بأسمائِهِ وصفاتِهِ، وليُعبَدَ.

فهذا المطلوبُ وما كان طريقًا إليه من العلمِ والتعليمِ لهو المستثنىٰ من اللَّعنةِ، واللَّعنةُ واقعةٌ علىٰ ما عدَاهُ؛ إذ هو بعيدٌ عن الله وعن محابِّه وعن دينِهِ، وهذا هو متعلَّقُ العقابِ في الآخرةِ، فإنَّه كما كان متعلَّقَ اللَّعنَةِ التي تتضمَّن الذَّمَّ والبُغضَ فهو متعلَّقُ العقابِ، والله سبحانه إنَّما يُحِبُّ من عبادِهِ ذكرَهُ وعبادتَه ومعرفتَه

ومحبَّتَه ولوازمَ ذلك وما أفضىٰ إليه، وما عَدَاهُ فهو مبغوضٌ له، مذمومٌ عنده»(١).

١٧- وعن عبد الله بن عمرو بن العَاصِ رضي الله عنهما قالَ: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنَّ الله لا يَقبِضُ العلمَ انتزَاعًا يَنتزِعُهُ مِنَ العِبَادِ، وَلَكِن يَقبِضُ العِلمَ بِقَبضِ العُلَماءِ، حَتَّىٰ إذَا لَـم يُبقِ عَالِـمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا، فَسُئِلُوا، فَأفتَوا بِغَير عِلمٍ، فَضَلُّوا وَأضَلُّوا**» متفقٌ عليه(٢).

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا الحديثُ يبيِّنُ أنَّ المرادَ بقبضِ العلمِ ليس هو مَحوَهُ من صدورِ حُفَّاظِهِ، ولكن معناه: أنَّه يموتُ حَمَلَتُهُ، ويتَّخذ النَّاسُ جُهَّالًا يحكمون بجهالاتهم فَيَضلُّون ويُضلُّون.

وقولُهُ ﷺ: «**اتَّخَذَ النَّاسُ رُءُوسًا جُهَّالًا**»، ضبطناه في البخاري «رُءُوسًا» -بضمِّ الهمزةِ وبالتنوينِ-، جمعُ رأسٍ، وضبطوه في «مسلمٍ» بوجهين: أحدهما: هذا، والثاني: بالمدِّ، جمعُ رئيسٍ، وكلاهما صحيحٌ، والأولُ أشهرُ، وفيه التحذيرُ من اتخاذِ الجهَّالِ رءوسًا»(٣).

وقال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ ﷺ: «**لا يَقبِضُ العلمَ انتزَاعًا**»، أي: محوًا من الصدورِ. قال ابن المنيِّرِ: مَحوُ العلمِ من الصدورِ جائزٌ في القدرةِ، إلا أنَّ هذا الحديثَ دلَّ علىٰ عدمِ وقوعِهِ.

وفي هذا الحديث: الحَثُّ علىٰ حفظِ العلمِ، والتحذيرُ من ترئيسِ الجَهَلَةِ، وفيه

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٦٩).
(٢) رواه البخاري (١٠٠)، ومسلم (٢٦٧٣).
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٢٢٣).

أنَّ الفتوىٰ هي الرياسةُ الحقيقيةُ، وذَمُّ مَن يُقدِمُ عليها بغيرِ علمٍ»[(١)].

١٨- وعن عُروَةَ بنِ الزُّبيرِ قَالَ: قَالَت لي عَائشَةُ: يَا ابْنَ أُختِي، بَلَغَنِي أنَّ عَبدَ الله ابنَ عَمروٍ مَارٌّ بِنَا إِلَىٰ الحَجِّ، فَالقَهُ، فَسَائِلهُ؛ فَإِنَّهُ قَد حَمَلَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ عِلمًا كَثيرًا، قَالَ: فَلَقِيتُهُ فَسَاءَلْتُهُ عَن أشيَاءَ يذكُرُهَا عَن رَسُولِ الله ﷺ، قَال عُروَةُ: فَكَانَ فِيمَا ذَكَرَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**إنَّ الله لا يَنتَزِعُ العلمَ مِنَ النَّاسِ انتزاعًا، وَلَكِن يَقبِضُ العُلَماءَ، فَيَرفَعُ العلمَ مَعَهُم، وَيُبقي فِي النَّاسِ رُءُوسًا جُهَّالًا، يُفتُونَهُم بِغَير عِلمٍ، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ**».

قَالَ عُروَةُ: فَلَمَّا حَدَّثتُ عَائشَةَ بِذَلِكَ أَعظَمَت ذَلِكَ وَأنكَرَتْهُ،قَالَت: أَحَدَّثَكَ أَنَّهُ سَمِعَ النبيَّ ﷺ يقُولُ هَذَا؟ قَالَ عُروَةُ: حَتَّىٰ إذَا كَان قَابِلٌ قَالَت لَهُ: إنَّ ابنَ عَمروٍ قَد قَدِمَ، فَالقَهُ ثُمَّ فاتِحهُ حَتَّىٰ تَسْأَلَهُ عَنِ الحَديثِ الَّذِي ذَكَرَهُ لَكَ فِي العِلمِ، قَالَ: فَلَقِيتُهُ فَسَاءَلْتُهُ فَذَكَرَهُ لِي، نَحوَ ما حَدَّثني بِهِ في مَرَّتِهِ الأُولَىٰ، قَالَ عُروَةُ: فَلَمَّا أَخْبَرْتُهَا بِذَلِكَ قَالَت: مَا أحسَبُهُ إلا قَد صَدَقَ، أَرَاهُ لَم يَزِد فيهِ شيئًا وَلَم يَنقُص» رواه مسلم[(٢)].

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: إنَّ عائشةَ قالت في عبد الله بن عمروٍ: «مَا أحسَبُهُ إلا قَد صَدَقَ أَرَاهُ لَـم يَزِد فِيهِ شَيئًا وَلَـم يَنْقُص» ليس معناه أنَّها اتَّهمته، لكنَّها خافت أن يكونَ اشتبه عليه، أو قرأه من كُتُبِ الحكمةِ فتوهَّمه عن النبيِّ ﷺ، فلمَّا كَرَّره مرَّةً أخرىٰ، وثَبَتَ عليه، غَلَبَ علىٰ ظَنِّها أنَّه سَمِعَهُ من النبيِّ ﷺ، وقولُها: «أرَاهُ» بفتحِ الهمزةِ.

---

(١) «فتح الباري لابن حجر » (١/ ٢٣٥).

(٢) رواه مسلم (٢٦٧٣).

وفي هذا الحديثِ: الحثُّ على حفظِ العلمِ، وأخذُهُ عن أهلِه، واعترافُ العالِمِ للعالِمِ بالفضيلةِ»(١).

١٩- وعَن أَنسٍ ﷺ قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «**إنَّ من أشرَاطِ السَّاعَةِ: أَن يُرفَعَ العِلمُ، وَيَثْبُتَ الجهَلُ، وَيُشْرَبَ الخَمرُ، وَيظْهَرَ الزِّنَا**» متفقٌ عليه(٢).

وعَنهُ ﷺ **قَالَ**: لأُحَدِّثَنَّكُم حَدِيثًا لا يُحَدِّثُكُم أَحَدٌ بَعدِي، سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مِن أَشرَاطِ السَّاعةِ: أَن يَقِلَّ العِلمُ، وَيَظْهَرَ الجَهلُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا، وتَكثُرَ النِّسَاءُ، ويَقِلَّ الرِّجَالُ، حَتَّىٰ يَكُونَ لخمسينَ امرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ**»، متفق عليه، واللفظُ للبخاري(٣).

بَوَّبَ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **للحديثين بقولِهِ**: «باب رفع العلم، وظهور الجهل».

قال ابنُ حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُه: باب رفع العلم، مقصودُ الباب: الحَثُّ علىٰ تعلُّمِ العلمِ، فإنَّه لا يرفعُ إلا بقبضَ العلماءِ، ومادام مَن يتعلَّم العلمَ موجودًا لا يحصلُ الرفعُ، وقد تَبَيَّنَ في حديثِ البابِ أنَّ رفعَهُ من علاماتِ الساعةِ.

وقولُهُ ﷺ: «**أَشرَاطِ السَّاعَةِ**». أي: علاماتها، ومنها ما يكون من قبيل المعتادِ، ومنها: ما يكون خَارِقًا للعادةِ.

وقولُهُ ﷺ: «**أن يُرفَعَ العِلمُ**» المرادُ برفعِهِ: موتُ حملتِهِ.

وقولُهُ ﷺ: «**يُشرَبَ الخَمرُ**»، المرادُ: كثرةُ ذلك واشتهارُهُ.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٢٢٥).

(٢) رواه البخاري (٨٠)، مسلم (٢٦٧١).

(٣) رواه البخاري (٨١)، ومسلم (٢٦٧١).

وقولُهُ ﷺ: «**وَيَظهَرَ الزِّنَا**» أي: يفشوَ كما في رواية مسلمٍ.

وقولُهُ رضي الله عنه: لأحَدِّثَنَّكُم، -بفتح اللام- وهو جوابُ قَسَمٍ محذوفٍ، أي: والله لأحدثنكم.

وقولُهُ رضي الله عنه: لا يُحَدِّثُكُم أحَدٌ بَعدِي. عرف أنسٌ أنَّه لم يبق أحدٌ مِّمن سمعه من رسولِ الله ﷺ غَيرُهُ؛ لأنَّه كان آخرَ مَن مات بالبصرةِ من الصحابةِ، فلعلَّ الخطابَ بذلك كان لأهلِ البصرةِ، أو كان عامًّا وكان تحديثُه بذلك في آخرِ عُمرِهِ، لأنَّه لم يبقَ بعده مِنَ الصحابةِ مَن ثَبَتَ سماعُهُ من النبيِّ ﷺ إلا النادرَ مِّمن لم يكن هذا المتنُ في مَرويِّه.

وقولُهُ ﷺ: «**أَن يَقِلَّ العِلمُ**» هو بكسر القافِ من القِلَّةِ، وفي روايةِ مسلمٍ: «**أَن يُرفَعَ العِلمُ**»، فيحتمل أن يكون المرادُ بقلَّتِهِ أولَ العلامة، وبرفعِهِ آخِرَهَا، أو أُطلقت القلَّةُ وأُريد بها العدمُ، كما يُطلق العدمُ ويُرَادُ القِلَّةُ، وهذا أَليَقُ لاتحادِ المخرجِ.

وقولُهُ ﷺ: «**وتَكثُرَ النِّسَاءُ**» قيل: سَبَبُهُ أنَّ الفتنَ تكثرُ فيكثرُ القتلُ في الرجالِ لأنَّهم أهلُ حَربٍ دون النساءِ، والظاهرُ أنَّها علامةٌ محضةٌ لا لسببٍ آخرَ، بل يُقَدِّرُ الله في آخرِ الزمانِ أن يقلَّ مَن يُولد من الذكورِ، ويكثرَ مَن يُولدُ من الإناثِ، وكونُ كثرةِ النساءِ من العلاماتِ، مناسبةٌ لظهور الجهلِ ورفعِ العلمِ.

وقولُهُ ﷺ: «**القَيِّمُ**» أي: مَن يقومُ بأمرهنَّ.

وكأنَّ هذه الأمورَ الخمسةَ خُصَّت بالذِّكرِ لكونِها مُشعِرَةً باختلالِ الأمورِ التي يحصل بحفظها صلاحُ المعاشِ والمعادِ، وهي: الدِّينُ؛ لأنَّ رفعَ العلمِ يُخِلُّ به،

والعقلُ؛ لأنَّ شُربَ الخمرِ يخلُّ به، والنَّسَبُ لأنَّ الزنا يخِلُّ به، والنَّفْسُ والمالُ؛ لأنَّ كَثرةَ الفتنِ تُخِلُّ بهما»(١).

٢٠- وعَن عَبدِ الله بن مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**نَضَّرَ الله امرأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ غَيرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ إِلَىٰ مَن هُوَ أَفقَهُ مِنهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ لَيسَ بِفَقِيهٍ**». رواه ابنُ حبانَ والترمذيُّ وقال: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، ورواه ابن ماجه في «سننه»(٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللهُ: «نَضَرَهُ، ونَضَّرَهُ، وأَنضَرَهُ: أي: نَعَّمَهُ، ويُروىٰ بالتخفيف والتشديد من النَّضَارَةِ، وهي في الأصلِ: حُسنُ الوَجهِ، والبَريقُ، وإنَّما أراد: حَسَّنَ خُلُقَهُ وقَدْرَهُ»(٣).

وقال المنذريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولهُ: نَضَّرَ: هو بتشديدِ الضاد المعجمة وتخفيفها، حكاه الخطَّابيُّ، ومعناه الدعاءُ له بالنضارة، وهي النعمةُ والبهجةُ والحُسنُ، فيكونُ تقديرُهُ: جمَّله الله وزيَّنه، وقيل غيرُ ذلك»(٤).

٢١- وَعَن زَيدِ بن ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**نَضَّرَ اللهُ امرَأً**

(١) «فتح الباري» (١/ ٢١٣).

(٢) رواه ابن حبان في «صحيحه» رقم (٦٥)، وصحَّحه الشيخ أحمد شاكر (١/ ٢٢٤)، والترمذي (٢٦٥٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٣٨)، وابن ماجه (٢٣٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٥).

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير(٥/ ٧١).

(٤) «الترغيب والترهيب» للمنذري، تحقيق الدكتور محمد خليل هراس (١/ ١١٦).

سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ غَيرَهُ، فَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ إِلَىٰ مَن هُوَ أَفقَهُ مِنهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ لَيسَ بِفَقِيهٍ» رواه الترمذيُّ، وابنُ ماجه[1]، هكذا مختصرًا، وأمَّا الروايةُ التي فيها الزيادة ففيها:

٢٢- عن زيد بن ثابت ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **نَضَّرَ اللهُ امرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّىٰ يُبَلِّغَهُ غَيرَهُ، فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقهٍ لَيسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ إِلَىٰ مَن هُوَ أَفقَهُ مِنهُ، ثَلاثُ خِصَالٍ لا يُغِلُّ عَلَيهِنَّ قَلبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إخلاصُ العَملِ لله، ومُنَاصَحَةُ وُلاةِ الأمرِ، وَلزُومُ الجَمَاعَةِ؛ فَإِنَّ دَعوَتَهُم تُحِيطُ مِن وَرَائِهِم**».

وَقَالَ: «**مَن كَانَ هَمُّهُ الآخِرَةَ، جَمَعَ الله شَملَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلبِهِ، وأَتَتْهُ الدُّنيَا وَهِي رَاغِمَةٌ، وَمَن كَانَت نِيَّتُهُ الدُّنيَا، فَرَّقَ الله عَلَيهِ ضَيعَتَهُ، وَجَعَلَ فَقرَهُ بَينَ عَينَيهِ، وَلَم يَأتِهِ من الدُّنيَا إلا مَا كُتِبَ لَهُ**».

قال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٠٤): أخرجه أحمد (٥/ ١٨٣) واللفظ له، والدارمي (١/ ٧٥)، وابن حبان (٧٢-٧٣ موارد) وابن عبد البرِّ في الجامع (١/ ٣٨-٣٩) عن شعبة: ثنا عمر بن سليمان من ولد عمر بن الخطاب ﷺ، عن عبد الرحمن ابن أبان بن عثمان عن أبيه: أنَّ زيدَ بن ثَابتٍ خرج من عند مروان نحوًا من نصف النهارِ، فقلنا: ما بَعَثَ إليه الساعةَ إلا لشيءٍ سأله عنه، فقمتُ إليه ، فسألته، فقال: أجَل، سَأَلَنا عن أشياءَ سمعتُها من رسول الله ﷺ، سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: فذكَرَهُ...

(١) رواه الترمذي (٢٦٥٦)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٣٧)، وابن ماجه (٢٣٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٥).

وهذا سندٌ صحيحٌ، رجالهُ كلُّهم ثقاتٌ.

وروىٰ ابنُ ماجه الشطرَ الأخيرَ من هذا الوجه، وقال البوصيري في «الزوائد»: هذا إسنادٌ صحيحٌ، رجالهُ ثقاتٌ، رواه أبو داود الطيالسي عن شعبةَ بنحوِهِ، ورواه الطبراني بإسنادٍ لا بأسَ به، والحديث رواه ابنُ حبان في صحيحه (٦٦) عن زيدِ بن ثابتٍ ﷺ.

قال ابنُ الأثيرِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُه: يُغِلُّ: هو من الإغلالِ، الخيانةِ في كلِّ شيءٍ.

ويُروىٰ: يَغِلُّ -بفتحِ الياءِ-، من الغِلِّ: وهو الحقدُ والشحناءُ، أي: لا يَدخُلُه حِقدٌ يُزيلُه عن الحقِّ، ورُوي: يَغِلُ -بالتخفيفِ-، من الوُغولِ: الدخولِ في الشَّرِّ.

والمعنىٰ: أنَّ هذه الخلالَ الثلاثَ تُستصلَحُ بها القلوبُ، فَمَن تمسَّك بها طَهُرَ قَلبُهُ من الخيانةِ والدَّغَلِ والشَّرِّ»(١).

وقال الألبانيُّ: «قولُهُ: «**لا يُغِلُّ**» يُروىٰ بفتحِ الياءِ وضمِّها، فَمَن فَتَحَ جعله من الغِلِّ، وهو الضِّغنُ والحقدُ، يقول: لا يدخلُهُ حقدٌ يزيله عن الحقِّ، ومَن ضَمَّ جعلَه من الخيانةِ، والإغلالُ: الخيانةُ في كلِّ شيءٍ، كذا في «الكواكب الدراري» لابن عروةَ الحنبليِّ (١/ ٢٣/ ٢)»(٢).

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ النبيَّ ﷺ دعا لمن سمعَ كلامَهُ ووَعَاهُ وبلَّغَهُ بالنَّضرَةِ -وهي البَهجَةُ ونضارةُ الوجهِ وتحسينُه- ولو لم يكن في فَضلِ العلمِ إلا

(١) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير (٣/ ٣٨١).

(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» للألباني (١/ ٤٠).

هذا وحدَهُ لكفىٰ به شرفًا؛ فإنَّ النبيَّ ﷺ دعا لمن سمع كلامَهُ ووعاه، وحَفِظَهُ وبلَّغَهُ، وهذه هي مراتبُ العلمِ.

أوَّلُها وثانيها: سماعُهُ وعَقْلُهُ؛ فإذا سَمِعَهُ وعاهُ بقلبِهِ؛ أي: عَقَلَهُ واستقرَّ في قلبِهِ كما يستقرُّ الشيءُ الذي يُوعىٰ في وعائِه ولا يخرج منه، وكذلك عَقْلُهُ هو بمنزلةِ عَقلِ البعير والدَّابَّةِ، ونحوها حتىٰ لا تَشرُدَ وتَذهَبَ، ولهذا كان الوعيُ والعقلُ قَدرًا زائدًا علىٰ مُجرَّدِ إدراكِ المعلومِ.

المرتبةُ الثالثةُ: تعاهُدُه وحفظُهُ حتىٰ لا ينساه فيذهَب.

المرتبةُ الرابعةُ: تبليغُهُ وبثُّهُ في الأمَّةِ ليَحصلَ به ثمرتُهُ ومقصودُهُ؛ وهو بَثُّهُ في الأمَّةِ، فهو بمنزلةِ الكنزِ المدفونِ في الأرضِ الذي لا يُنْفَقُ منه وهو مُعَرَّضٌ لذهابِهِ، فإنَّ العلمَ ما لـم يُنفَق منه ويعلَّم فإنَّه يُوشِكُ أن يذهبَ، فإذا أُنفقَ منه نما وزكا علىٰ الإنفاقِ.

فَمَن قام بهذه المراتبِ الأربعِ دَخَلَ تحت هذه الدعوةِ النبويةِ المتضمِّنَةِ لجمالِ الظاهرِ والباطنِ، فإنَّ النَّضرَةَ هي البهجةُ والحسنُ الذي يُكساهُ الوجهُ من آثارِ الإيمانِ وابتهاجِ الباطنِ به وفَرَحِ القلب وسرورِهِ والتذاذِهِ به، فتظهر هذه البهجةُ والسرورُ والفرحةُ نضارةً علىٰ الوجهِ، ولهذا يجمعُ له سبحانه بين السرورِ والنَّضرَةِ، كما في قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ [الإنسان:١١]. فالنَّضرَةُ في وجوههم، والسرورُ في قلوبهم، فالنعيمُ وطيبُ القلبِ يُظهِرُ نضارةً في الوجهِ كما قال تعالىٰ: ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ [المطففين:٢٤].

والمقصودُ أنَّ هذه النَّضرَةَ في وجهِ مَن سَمِعَ سُنَّةَ رسولِ الله ﷺ، ووعَاها

وحَفِظها وبلَّغها، هي أثَرُ تلك الحلاوةِ والبهجةِ والسرورِ الذي في قلبِهِ وباطنِهِ.

وقولُهُ ﷺ: «**رُبَّ حَامِلِ فِقهٍ إلَىٰ مَن هُوَ أفقَهُ مِنهُ**»، تنبيهٌ علىٰ فائدةِ التبليغ، وأنَّ المبلَّغَ قد يكون أفهمَ من المبلِّغِ، فيحصُلُ له في تلك المقالَةِ ما لم يحصلُ للمبلِّغِ.

أو يكونُ المعنىٰ: أنَّ المبلَّغ قد يكونُ أفقهَ من المبلِّغِ، فإذا سَمِعَ تلك المقالةَ حملها علىٰ أحسنِ وجوهِها واستنبطَ فقهَهَا وعَلِمَ المرادَ منها.

وقولُهُ ﷺ: «**ثَلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيهِنَّ قَلبُ مُسلِمٍ...**» إلىٰ آخره، أي: لا يحملُ الغِلَّ، ولا يبقىٰ فيه مع هذه الثلاثةِ؛ فإنَّها تنفي الغِلَّ والغِشَّ وفَسادَ القلب وسَخَائمَهُ[(١)] فالمخلِصُ لله إخلاصُه يمنعُ غِلَّ قلبِهِ، ويُخرِجُهُ ويُزيلُهُ جملَةً؛ لأنَّه قد انصرفَت دواعي قلبِهِ وإرادتِهِ إلىٰ مَرضَاةِ ربِّه، فلم يَبقَ فيه موضعٌ للغِلِّ والغشِّ، كما قالَ تعالىٰ: ﴿**كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ**﴾ [يوسف:٢٤]، فلمَّا أخلَصَ لربِّه صَرَفَ عنه دواعي السُّوءِ والفحشاءِ.

ولهذا لَّما علم إبليسُ أنَّه لا سبيلَ له علىٰ أهلِ الإخلاصِ استثناهم من شِرطتِهِ التي اشترطها للغوايةِ والإهلاكِ، فقال: ﴿**فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ**﴾ [ص:٨٣]، قال تعالىٰ: ﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ** ﴾ [الحجر: ٤٢].

فالإخلاصُ هو سبيلُ الخلاصِ، والإسلامُ مَركَبُ السَّلامَةِ، والإيمانُ خَاتَمُ الأمَانِ.

---

(١) السَّخَائمُ: جمعُ سَخِيمَةٍ، وهي الحقدُ والضغينةُ والموجدةُ في النَّفسِ، «لسان العرب» مادة (سخم) (ص١٩٦٤).

وقولُهُ ﷺ: «**وَمُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ المُسلمِينَ**»، هذا أيضًا منافٍ للغِلِّ والغِشِّ، فإنَّ النصيحةَ لا تجامعُ الغِلَّ، إذ هي ضِدُّه، فمَن نَصَحَ الأئمةَ والأمَّةَ فقد برئَ من الغِلِّ.

وقولُهُ ﷺ: «**وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِم**»، هذا أيضًا مما يُطَهِّرُ القلبَ من الغِلِّ والغِشِّ، فإنَّ صاحبَهُ يحبُّ لهم ما يحبُّ لنفسِهِ، ويكره لهم ما يكره لها، ويسوؤُه ما يسوؤُهم، ويسرُّه ما يسرُّهُم.

وهذا بخلافِ مَن انحازَ عنهم واشتغلَ بالطعنِ عليهم والعَيبِ والذَّمِّ؛ كفعلِ الرافضَةِ والخوارجِ والمعتزلةِ وغيرِهم، فإنَّ قلوبَهم ممتلئةٌ غِلًّا وغِشًّا؛ ولهذا تجدُ الرافضةَ أبعدَ النَّاسِ من الإخلاصِ وأغشَّهم للأمةِ والأئمةِ، فهؤلاء أشدُّ النَّاسِ غِلًّا وغِشًّا بشهادةِ الرسولِ والأمَّةِ عليهم، وشهادَتِهِم علىٰ أنفسِهم بذلك، فإنهم لا يكونون قطُّ إلا أعوانًا وظَهرًا علىٰ أهلِ الإسلامِ، فأيُّ عدوٍّ قام للمسلمين كانوا أعوانَ ذلك العدوِّ وبطانَتَه، وهذا أمرٌ قد شاهدته الأمَّةُ منهم، ومَن لم يشاهد فقد سمع منه ما يُصِمُّ الآذانَ ويُشجي القلوبَ.

وقولُهُ ﷺ: «**فَإِنَّ دَعوتَهُم تُحِيطُ مِن وَرَائِهِم**»، هذا من أحسنِ الكلامِ وأوجزِهِ وأفخمِهِ معنًىٰ، شَبَّه دعوةَ المسلمين بالسُّورِ والسياجِ المحيطِ بهم، المانعِ مِن دخولِ عدوِّهم عليهم، فتلك الدعوةُ التي هي دعوةُ الإسلامِ، وهم داخلوها، لَّما كانت سُورًا وسياجًا عليهم أخبرَ أنَّ مَن لَزِمَ جماعةَ المسلمين أحاطت به تلك الدعوةُ التي هي دعوةُ الإسلامِ كما أحاطت بهم، فالدعوة تجمع شَملَ الأمَّةِ وتَلُمُّ شَعَثَهَا، وتحيطُ بها، فَمَن دَخَلَ في زُمرَتِهَا أحاطت به وَشَملته»[1].

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٤).

٢٣- وَعَن جُبَيرِ بن مُطْعِمٍ ﵁ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ بالخيف -خَيفِ مِنًىٰ- يَقُولُ: «**نَضَّرَ اللهُ عَبدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا، وَبَلَّغَهَا مَن لَم يَسمَعْهَا، فَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ لا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَن هُوَ أفقَهُ مِنهُ، ثَلاثٌ لا يَغِلُّ عَلَيهِنَّ، قَلبُ مُؤمِنٍ؛ إخلاصُ العَمَلِ لله، والنَّصيحَةُ لأَئِمَّةِ المُسلِمينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِم، فَإِنَّ دَعوتَهُم تُحِيطُ مَن وَرَاءَهُم**». رواه الطبراني في «الكبير» رقم (١٥٤١) والسياقُ له، وأحمد (٤/ ٨٠-٨٢)، وابن ماجه (٢٣١) مختصرًا، وصحَّحه الألبانيُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٥)، وحَسَّنَ الروايةَ المطوَّلةَ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٣٩): «في إسنادِهِ ابنُ إسحاق عن الزهريِّ، وهو مدلِّسٌ، وله طريقٌ عن صالحِ بن كيسان عن الزهريِّ، ورجالُها موثقون».

٢٤- وعَن جَابِرٍ ﵁ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**سَلُوا الله عِلمًا نَافِعًا، وتَعَوَّذُوا بالله مِن عِلمٍ لا ينفَعُ**» رواه ابن ماجه (٣٨٤٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٢٧)، وقال في «السلسلة الصحيحة» (١٥١١): «رواه ابن أبي شيبة في «المصنف» (١٢/ ٦٠٥)، وابن ماجه (٣٨٤٣)، وعبدُ بن حميد في «المنتخب من المسند» (ق/ ١١٨/ ١)، والفاكهي في «حديثه» (٢/ ٣٤-٢) عن أسامة بن زيد بن محمد بن المنكدر عن جابرٍ مرفوعًا».

قلتُ: وهذا إسنادٌ حسنٌ، وكذا قال الهيثمي (١٠/ ١٨٢)، بعدما عزاه لأوسطِ الطبرانيِّ، وله عنده شاهدٌ من حديث عائشة.

وعزاه الحافظُ ابنُ رجبٍ الحَنْبَليُّ في «فضل علم السلف»(ص٨) للنسائيِّ بلفظ:

«أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: **اللهمَّ إني أسألك علمًا نافعًا، وأعوذُ بك من علمٍ لا ينفعُ**».

٢٥- وعن أبي سعيد الخدريِّ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ ﷺ: «**إذَا كَانُوا ثَلاثَةً فَليَؤُمُّهُم أحَدُهُم، وأَحَقُّهُم بالإِمَامَةِ أَقرَؤُهُم**» رواه مسلم(١).

وعن أبي مسعُودٍ الأنصَاريُّ قال: قَالَ رسُولُ الله ﷺ: «**يَؤُمُّ القَومَ أَقْرَؤُهُم لِكِتَابِ الله، فَإِنْ كَانُوا فِي القِرَاءَةِ سَوَاءً، فأعلَمُهُم بالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً؛ فَأَقدَمُهُم هِجرَةً، فَإِن كَانُوا فِي الهِجرَةِ سَوَاءً؛ فأَقْدَمُهُم سِلمًا، ولا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلطَانِهِ، ولَا يَقْعُدْ فِي بَيتِهِ عَلَىٰ تَكرِمَتِهِ إلا بِإِذنِهِ**» رواه مسلم(٢).

قال العلماءُ: التَّكرِمَةُ: الفراشُ ونحوُهُ مِمَّا يُبسَطُ لصاحبِ المنزلِ ويخصُّ به، وهي بفتح التاءِ وكسر الراءِ.

قَالَ النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ ﷺ: «**وأحَقُّهُم بِالقِرَاءَةِ أَقرَؤُهُم**»، وفِي حديث أبي مسعودٍ: «**يَؤُمُّ القَومَ أَقرَؤُهُم لِكتَابِ الله، فَإِن كَانُوا فِي القِرَاءَةِ سَوَاءً؛ فَأَعلَمُهُم بالسُّنَّةِ**»، فيهِ دليلٌ لمن يقولُ بتقديم الأقرأ علىٰ الأفقهِ، وهو مذهبُ أبي حنيفةَ وأحمدَ وبعضِ أصحابنا، وقال مالكٌ والشافعيُّ وأصحابُهما: الأفقهُ مقدَّمٌ علىٰ الأقرأ؛ لأنَّ الذي يُحتاج إليه من القراءةِ مضبوطٌ، والذي يُحتاجُ إليه من الفقهِ غيرُ مضبوطٍ، وقد يَعرِضُ في الصلاةِ أمرٌ لا يقدرُ علىٰ مراعاةِ الصوابِ فيه إلا كاملُ الفقهِ.

قالوا: ولِهذَا قدَّم النبيُّ ﷺ أبا بكرٍ رضي الله عنه في الصلاةِ علىٰ الباقين، مع أنه ﷺ نصَّ

---

(١) رواه مسلم (٦٧٢).

(٢) رواه مسلم (٦٧٣).

علىٰ أنَّ غيرَهُ أقرأُ منه، وأجابوا عن الحديثِ بأنَّ الأقرأ من الصحابةِ كان هو الأفقهَ، لكن في قولِهِ: «**فَإِنْ كَانُوا فِي القِراءَةِ سَوَاءً؛ فَأَعْلَمُهُم بِالسُّنَّةِ**» دليلٌ علَىٰ تقديم الأقرأ مطلقًا.

قولُهُ ﷺ: «**فَإِن كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً؛ فَأَقدَمُهُم هِجرَةً**» قال أصحابُنا: يدخلُ فيه طائفتان؛ أحدُهما: الذين يهاجرون اليومَ من دارِ الكفرِ إلىٰ دارِ الإسلامِ، فإنَّ الهجرةَ باقيةٌ إلىٰ يومِ القيامةِ عندنا وعند جمهورِ العلماءِ وقولُهُ ﷺ: «**لا هِجرَةَ بَعدَ الفَتْحِ**»(١)، أي: لا هجرةَ من مكةَ لأنَّها صارت دارَ إسلامٍ، أو لا هجرةَ فضلُها كفضلِ الهجرةِ قبل الفتحِ.

الطائفةُ الثانيةُ: أولادُ المهاجرين إِلَىٰ رسُولِ اللهِ ﷺ، فإذا استوىٰ اثنانِ في الفقهِ والقراءةِ، وأحدُهُمَا من أولادِ من تقدَّمت هجرتُه والآخرُ من أولادِ من تأخَّرت هجرتُه، قُدِّمَ الأولُ.

قولُهُ ﷺ: «**فَإِن كَانوا فِي الهِجْرَةِ سَوَاءً فَأَقدَمُهُم سِلمًا**»، وفي الروايةِ الأخرىٰ «**سنًّا**» معناه: إذا استويا في الفقهِ والقراءةِ والهجرةِ، ورجح أحدُهم بتقدُّمِ إسلامِهِ أو بِكَبرِ سِنِّه قُدِّم؛ لأنَّها فضيلةٌ يرجحُ بها.

قولُهُ ﷺ: «**وَلا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ فِي سُلطَانِهِ**» معناه: أنَّ صاحبَ البيتِ والمجلسِ وإمامَ المسجدِ أحقُّ من غيرِه، وإن كان ذلك الغيرُ أفقهَ وأقرأَ وأورعَ وأفضلَ منه، وصاحبُ المكانِ أحقُّ فإن شاء تقدَّم وإن شاء قَدَّمَ من يريدُهُ، وإن

(١) رواه مسلم (١٨٦٤).

كان ذلك الذي يقَدِّمهُ مفضولًا بالنسبةِ إلىٰ باقي الحاضرين؛ لأنَّه سلطانه فيتصرَّفُ فيه كيف شاء»[1].

وقال البغويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قلتُ: لم يختلف أهلُ العلمِ في أنَّ القراءةَ والفقهَ يقدَّمان علىٰ قِدَمِ الهجرةِ، وتقدُّمِ الإسلامِ، وكِبَرِ السِّنِّ في الإمامةِ.

واختلفوا في الفقهِ مع القراءةِ، فذهب جماعةٌ إلىٰ أنَّ القراءة مقدَّمةٌ علىٰ الفقهِ لظاهرِ الحديثِ، فالأقرأُ أولىٰ من الأعلمِ بالسنَّةِ، وإن استويا في القراءةِ، فالأعلمُ بالسنَّةِ -وهو الأفقهُ- أَولَىٰ، وبه قال سفيان الثوريُّ وأحمدُ، وإسحاقُ، وأصحابُ الرأي.

وذهب قومٌ إلىٰ أنَّ الأفقهَ أَولىٰ إذا كان يُحسِنُ من القراءةِ ما تَصِحُّ بها الصلاةُ، وهو قولُ عطاءِ بن أبي رباحٍ، وبه قال الأوزاعيُّ، ومالكٌ، وأبو ثورٍ، وإليه مال الشافعيُّ فقال: إن قُدِّمَ أَفقَهُهُم إذا كان يقرأُ ما يُكتفىٰ به للصلاةِ فَحَسَنٌ، وإن قُدِّمَ أقرَؤُهُم إذا عَلِمَ ما يلزَمُهُ فَحَسَنٌ، وإنَّما قَدَّمَ هؤلاءِ الأفقهَ، لأنَّ ما يجب من القراءةِ في الصلاةِ محصورٌ، وما يقعُ فيها من الحوادثِ غيرُ محصورٍ، وقد يَعرِضُ للمصلي في صلاتِهِ ما يُفسِدُ عليه صلاتَهُ، إذا لم يَعرِف حُكمَهُ»[2].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ النبيَّ ﷺ قَدَّمَ بالفضائلِ العلميةِ في أعلىٰ الولاياتِ الدينيةِ وأشرفِها، وقدَّمَ بالعلمِ بالأفضلِ علىٰ غيرِهِ.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٥/ ١٧٢).

(٢) «شرح السنة» للبغوي (٣/ ٣٩٥).

فروىٰ مسلمٌ فِي «صحيحه» من حديثِ أبي مسعودٍ البدريِّ ﷺ قال: قال رسُولُ الله ﷺ: «**يَؤُمُّ القَومَ أَقرَؤُهُم لِكِتَابِ الله، فَإِن كَانُوا في القِرَاءَةِ سَوَاءً فَأعلَمُهُم بِالسُّنَّةِ، فَإِن كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً فَأقدَمُهُم إسلامًا أَو سِنًّا..**» وذكر الحديثَ.

فقدَّمَ في الإمامةِ تفضيلَهُ العلمَ علىٰ تقدُّمِ الإسلامِ والهجرةِ، ولَّما كان العلمُ بالقرآنِ أفضلَ من العلم بِالسُّنَّةِ لشَرَفِ معلومِهِ علىٰ معلومِ السنَّةِ قدَّمَ العلمَ به، ثمَّ قدَّمَ العلمَ بالسنَّةِ علىٰ تقدمِ الهجرةِ، وفيه من زيادةِ العمل ما هو مُتميِّزٌ به، لكن إنَّما راعىٰ التقديمَ بالعلمِ ثُمَّ بالعملِ، وراعىٰ التقديمَ بالعلمِ بالأفضلِ علىٰ غيرهِ، وهذا يدلُّ علىٰ شَرَفِ العلمِ وفضلِهِ، وأنَّ أهلَهُ هم أهلُ التقدُّمِ إلىٰ المراتبِ الدينيةِ»[١].

٢٦- وعن عثمان بن عَفَّانَ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**خَيرُكُم مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ**».

قال أبو عبدِ الرحمنِ السُّلَمِيُّ -وكانَ قد أقرَأَ في إمرَةِ عثمانَ حتىٰ كان الحجَّاجُ: وذَاكَ الذِّي أقعَدَنِي مَقْعَدِي هَذَا.

أخرجه البخاريُّ[٢] وله من روايةٍ أخرىٰ عن عثمانَ ﷺ: «**إنَّ أفضلَكُم مَن تَعلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ**»[٣].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ثبتَ في صحيح البخاري من حديثِ عثمانَ بن عفَّانَ ﷺ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٧٩).

(٢) رواه البخاري (٤٧٣٩).

(٣) رواه البخاري (٤٧٤٠).

عن النبيِّ ﷺ أنَّه قال: «**خَيرُكُم مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ وعَلَّمَهُ**» وتعلُّمُ القرآنِ وتعليمُهُ يتناولُ تعلُّمَ حروفِهِ وتعليمَها، وتعلُّمَ معانيه وتعليمَهَا، وهو أشرفُ قِسمَي تعلُّمِهِ وتعليمِهِ، فإنَّ المعنىٰ هو المقصودُ، واللفظُ وسيلةٌ إليه، فتعلُّمُ المعنىٰ وتعليمُهُ تعلُّمُ الغايةِ وتَعليمها، وتعلُّمُ اللفظِ المجَرَّدِ وتعليمُهُ تعلُّمُ الوسائلِ وتعليمُهَا، وبينهما كما بين الغاياتِ والوسائلِ»(١).

وقال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا شكَّ أنَّ الجامعَ بين تعلُّمِ القرآنِ وتعليمه مكمِّلٌ لنفسهِ وغيرِهِ، جامعٌ بين النفعِ القاصرِ والنفعِ المتعدِّي، ولهذا كان أفضلَ، وهو من جملةِ مَن عَنَىٰ ﷻ بقوله: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]، والدعاءُ إلىٰ الله يقع بأمورٍ شتَّىٰ من جملتها تعليمُ القرآنِ وهو أشرفُ الجميعِ، وعكسهُ الكافرُ المانعُ لغيرِهِ من الإسلامِ كما قال تعالىٰ: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنۡهَا﴾ [الأنعام:١٥٧]، فإن قيل: يلزمُ علىٰ هذا أن يكون المقرئُ أفضلَ من الفقيهِ، قلنا: لا، لأنَّ المخاطَبين بذلك كانوا فقهاءَ النفوسِ لأنَّهم كانوا أهلَ اللسانِ، فكانوا يدرون معانيَ القرآنِ بالسَّليقة أكثرَ مما يدريها مَن بعدهم بالاكتسابِ، فكان الفقهُ لهم سجيَّةً، فمَن كان في مثلِ شأنِهم شاركهم في ذلك، لا مَن كان قارئًا أو مقرئًا مَحضًا لا يفهمُ شيئًا من معاني ما يقرؤه أو يُقرِئُهُ.

فإن قيل: فليزمُ أن يكونَ المقرئُ أفضلَ مِّمن هو أعظمُ غَناءً في الإسلامِ؛ بالمجاهدةِ والمرابطةِ والأمرِ بالمعروفِ والنهي عن المنكر مثلًا.

قلنا: حَرفُ المسألةِ يدورُ علىٰ النَّفعِ المتعدِّي، فَمَن كان حصولُهُ عنده أكثرَ

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٨٠).

كان أفضلَ، فلعلَّ «مَن» مضمرةٌ في الخبرِ، ولابُدَّ مع ذلك من مراعاةِ الإخلاصِ في كلِّ صنفٍ منهم.

ويحتملُ أن تكونَ الخيريةُ وإن أُطلقت لكنَّها مقيَّدةٌ بناسٍ مخصوصين خُوطبوا بذلك، كان اللائقَ بحالهم ذلك، أو المرادُ: خيرُ المتعلِّمين من يعلِّم غيرَهُ لا مَن يقتصرُ علىٰ نفسِه، أو المرادُ: مراعاةُ الحيثيَّةِ لأنَّ القرآنَ خيرُ الكلامِ فمتعلِّمُه خيرٌ من متعلِّمِ غيرهِ بالنسبةِ إلىٰ خيريةِ القرآنِ، وكيفما كان فهو مخصوصٌ بِمَن عَلَّمَ وتَعلَّمَ بحيث يكون قد عَلِمَ ما يجبُ عليه عيناً»[1].

قال البغويُّ: «وسُمِّي الكتابُ قرآنًا، لأنَّه جُمِعَ فيه الأمرُ والنهيُ، والوعدُ والوعيدُ، والقصصُ، وكلُّ شيءٍ جمعتهُ فقد قرأتَهُ، ومنه قولُه ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة:١٧] وقد تُحذفُ الهمزةُ، فيقال: قريتُ الماءَ في الحوضِ، أي: جمعتُه، وقرأ ابن كثيرٍ «القُران» بغيرِ همزٍ، وقرأ به الشافعيُّ، وقالَ: ليس هو من القراءةِ، إنَّما هو اسمٌ لهذا الكتابِ»[2].

٢٧- وَعَن صَفوَان بنِ عَسَّالٍ المُرَادِيِّ ﵁ قَالَ: أَتيتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهوَ فِي المَسجدِ مُتَّكِئٌ عَلَىٰ بُردٍ لَهُ أحمَرَ، فَقُلتُ لَهُ: يَا رَسُولَ الله، إنِّي جِئتُ أَطلُبُ العِلمَ، فَقَالَ: **«مَرحبًا بطَالِبِ العِلَمِ، إنَّ طَالبَ العِلمِ تَحُفُّهُ الملائكَةُ بِأجنحَتِهَا، ثُمَّ يَركَبُ بَعضُهُم بَعضًا، حَتَّىٰ يَبلُغُوا السَّمَاءَ الدُّنيَا مِن مَحَبَّتِهِم لِمَا يَطْلُبُ»**.

رواه أحمد (٤/ ٢٣٩-٢٤٠-٢٤١) والطبراني في «الكبير» (٧٣٤٧) واللفظُ له،

---

(١) «فتح الباري» (٨/ ٦٩٤).

(٢) «شرح السنة» (٤/ ٤٢٨).

وابن ماجه (٢٢٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٤)، والنسائي (١٥٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٣٥)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٧٩٣)، وابن حبان (٨٥)، والحاكم (١/ ١٠٠-١٠١)، وقال: وإسناده صحيحٌ، وابن عبد البر في «الجامع» (١/ ٣٢) وقال: «حديثُ صفوان بنِ عسَّالٍ هذا وَقَفَهُ قومٌ عن عاصمٍ، ورفعه عنه آخرونَ، وهو حديثٌ صحيحٌ حسنٌ ثابتٌ محفوظٌ مرفوعٌ، ومثلُهُ لا يُقال بالرأي. والبُردُ: ثوبٌ مخطَّطٌ، وهو أيضًا كساءٌ من الصوفِ الأسودِ يُلتحفُ به».

٢٨- وعَن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ قالَ: «مَرحَبًا بِوَصِيَّةِ رَسُولِ الله ﷺ، كَانَ رَسُولُ الله ﷺ يُوصِينَا بكُم» يعني: طَلَبَةَ الحَديثِ.

أخرجه الحاكم (١/ ٨٨)، وقال: «هذا حديثٌ صحيحٌ ثابتٌ»، ووافقه الذهبيُّ، وانظر تخريجه وبحثه في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٨٠).

وفي الحديثين وصيةُ رسولِ الله ﷺ بطلبةِ العلم خيرًا، وما ذلك إلا لفضلِ مطلوبِهِم وشرفِهِ، وعظيم قَصدِهم وسُمُوِّ غايتِهم.

٢٩- وعَن أَبِي مَالِكٍ الأشجَعِيِّ عَن أَبِيهِ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«مَن عَلَّمَ آيَةً مِن كِتَابِ الله ﷻ كَانَ لَهُ ثَوابُهَا مَا تُلِيَت»**.

قال الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (١٣٣٥): «أخرجه أبو سهلٍ القطَّانُ في «حديثه عن شيوخه» (٤/ ٢٤٣/ ٢): حدثنا محمد بن الجهم: ثنا يزيد بن هارون: أنبأ أبو مالك الأشجعي عن أبيه قال: قال رسولُ الله ﷺ... فذكره.

قلتُ: وهذا إسنادٌ جيدٌ عزيزٌ، رجالُه ثقاتٌ رجالُ مسلمٍ غير محمد بن الجهم، وهو ابن هارون الكاتب السمري، ترجمه الخطيب (٢/ ١٦١)، بروايةِ جماعةٍ من الثقاتِ عنه، وقال: وقال الدارقطني: ثقةٌ صدوقٌ.

وقال الحافظ في «اللسان»: ما علمتُ فيه جَرحًا، قلتُ: قد فاته توثيقُ الدارقطنيِّ إياه».

٣٠- وعَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ:

«**إذَا مَاتَ الإنسَانُ انقطَعَ عَمَلُهُ إلا مِن ثَلاثةٍ: إلا مِن صَدقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلمٍ يُنتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالحٍ يَدعُو لَهُ**» رواه مسلم[1].

٣١- وعَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ مِمَّا يَلحَقُ المُؤمِنَ مِن عَمَلِهِ وحسَنَاتِهِ بَعدَ مَوتِهِ، عِلمًا عَلَّمَهُ ونَشَرَهُ، وَوَلدًا صَالِحًا تَرَكَهُ، وَمُصْحَفًا وَرَّثَهُ، أَو مَسجِدًا بَنَاهُ، أَو بَيتًا لابنِ السَّبِيلِ بَنَاهُ، أَو نَهرًا أجرَاهُ، أَو صَدقَةً أخرَجَهَا مِن مَالِهِ فِي صَحَّتِهِ وحَيَاتِهِ، يَلحَقُهُ مِن بَعدِ مَوتِهِ**» رواه ابن ماجه (٢٤٢)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٦)، وكذلك حسَّنه المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٠٣)، وقال: «رواه ابنُ ماجه بإسنادٍ حسنٍ والبيهقيُّ، ورواه ابنُ خزيمة في صحيحه مثلَه إلا أنَّه قال: «**أو نَهرًا كَرَاهُ**»، وقال: يعني حَفَرَه، ولم يذكر المصحفَ».

٣٢- وعَن أَبي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله: «**خَيرُ مَا يُخَلِّفُ الرَّجُلُ مِن بَعدِهِ ثَلاثٌ: وَلَدٌ صَالحٌ يَدعُو لَهُ، وصَدَقَةٌ تَجرِي يَبلُغُهُ أَجرُهَا، وَعِلمٌ يُعمَلُ بِهِ مِن بَعدِهِ**».

(١) رواه مسلم (١٦٣١).

رواه ابن ماجه (٢٤١) وقال المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٠٤): رواه ابنُ ماجه بإسنادٍ صحيحٍ. وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٦).

٣٣- وعَن سَهلِ بنِ مُعَاذِ بن أنسٍ عن أبيه عن النبيِّ ﷺ قالَ: «**مَن علَّمَ عِلمًا فَلَهُ أجرُ مَن عَمِلَ بهِ، لا يَنقُصُ مِن أجرِ العَامِلِ شَيءٌ**». رواه ابن ماجه (٢٤٠)، وحسَّنَهُ الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٦)، وقال في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٧): ويشهدُ له في معناه حديثُ جريرٍ رضي الله عنه: «**مَن سَنَّ فِي الإسلامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أجرُهَا وأجرُ مَن عَمِلَ بِهَا مِن بَعدِهِ، مِن غَيرِ أَن يَنقُصَ مِن أُجُورِهِم شَيءٌ...**» رواه مسلم، وحديثُ أبي مسعودٍ البدريِّ رضي الله عنه: «**مَن دَلَّ عَلَىٰ خَيرٍ، فَلَهُ مِثلُ أَجرِ فَاعِلِهِ**، -أَو قَالَ: **عَامِلِهِ**-» رواه مسلم وأبو داود والترمذي والسياقُ له.

قال النوويُّ رحمه الله: «قولهُ ﷺ: «**إذَا مَاتَ الإنسَانُ انقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِن ثَلاثةٍ: إلا مِن صَدقَةٍ جَارِيَةٍ، أَو عِلمٍ يُنتَفَعُ بِهِ، أو وَلَدٍ صَالحٍ يَدعُو لَهُ**» قال العلماءُ: معنىٰ الحديثِ: أنَّ عملَ الميتِ ينقطعُ بموتِهِ، وينقطعُ تَجَدُّدُ الثوابِ له إلا في هذه الأشياءِ الثلاثةِ لكونِهِ كان سَبَبَهَا، فإنَّ الوَلَدَ من كَسبِهِ، وكذلك العلمُ الذي خلَّفه من تعليمٍ أو تصنيفٍ، وكذلك الصدقةُ الجاريةُ؛ وهي الوقفُ.

وفيه فضيلةُ الزواجِ لرجاءِ ولدٍ صالحٍ، وفيه دليلٌ لصحةِ أصلِ الوقفِ وعظيم ثوابِهِ، وبيانُ فضيلةِ العلمِ والحثُّ علىٰ الاستكثارِ منه والترغيب في توريثه بالتعليمِ والتصنيفِ والإيضاحِ، وأنَّه ينبغي أن يختار من العلومِ الأنفعَ فالأنفعَ، وفيه أنَّ الدعاءَ يصل ثوابُهُ إلىٰ الميتِ وكذلك الصدقة، وهما مُجمَعٌ عليهما، وكذلك

قضاء الدَّينِ»[١].

٣٤- وعَن سَهلِ بن سَعدٍ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ يَومَ خَيبَرَ: «**لأُعطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَىٰ يَدَيهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، ويُحِبُّهُ اللهُ ورَسُولُهُ**» قالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيلَتَهُم أَيُّهُم يُعطَاهَا، قَالَ: فَلَمَّا أصبحَ النَّاسُ غَدَوا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُم يَرجُونَ أَن يُعطَاهَا، فقالَ: «**أينَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ؟**» فقَالُوا: هُوَ يَا رَسُولَ اللهِ يَشتَكِي عَينَيهِ، قَالَ: «**فَأَرسَلُوا إليهِ**»، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي عَينَيهِ، ودعَا لَهُ فَبَرَأ،حتَّىٰ كَأن لَم يَكُن بِهِ وَجَعٌ، فَأعطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ عَلِيٌّ: يَا رَسُولَ اللهِ،أُقَاتِلُهُم حَتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ: «**انفُذ عَلَىٰ رِسلِكَ، حَتَّىٰ تَنزِلَ بِسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادعُهُم إِلَىٰ الإسلامِ، وأَخبرِهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيهِم مِن حَقِّ اللهِ فِيهِ، فواللهِ لأَن يَهدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن أَن يَكُونَ لكَ حُمْرُ النَّعَمِ**» متفقٌ عليهِ[٢]، واللفظُ لمسلمٍ.

قال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ: «فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيلَتَهُم أَيُّهُم يُعطَاهَا»، قولهُ: «**يَدُوكُونَ**» بمهملةٍ مضمومةٍ، أي: باتوا في اختلاطٍ واختلافٍ، والدَّوْكَةُ بالكافِ الاختلاطُ.

وقولُهُ: «**حَتَّىٰ يَكُونُوا مِثْلَنَا**»، أي: حتَّىٰ يُسلموا.

وقولُهُ: «**فَقَال: انفُذ**» بضَمِّ الفاءِ بعدها معجمةٌ.

وقولُهُ: «**عَلَىٰ رِسلِكَ**» -بكسرِ الراءِ-، أي: علىٰ هينَتِكَ.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١١/ ٨٥).

(٢) رواه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (٢٤٠٦).

وقولُهُ: «**فوالله لأن يَهدِيَ الله بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن حُمْرِ النَّعَمِ**»، يُؤخَذُ منه أنَّ تألُّفَ الكافرِ حتىٰ يُسلم أَولىٰ من المبادرةِ إلىٰ قتلِهِ.

وقولُهُ: «**حُمْرُ النَّعَمِ**» -بسكونِ الميمِ- من حَمُرَ، و-بفتحِ النونِ والعينِ المهملةِ-، وهو من ألوانِ الإبلِ المحمودةِ، قيل: المرادُ خيرٌ لكم من أن تكون لك فتتصدَّقَ بها، وقيل: تقتنيها وتملكها، وكانت مما تتفاخر العربُ بها»(١).

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «حديثُ سهلِ بن سعدٍ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال لعليٍّ رضي الله عنه: «**لأَن يَهدِيَ الله بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن حُمْرِ النَّعَمِ**»، يَدلُّ علىٰ فضلِ العلم والتعليمِ وشرفِ منزلةِ أهلِهِ، بحيث إذا اهتدَىٰ رجلٌ واحدٌ بالعالمِ كان ذلك خيرًا له من حُمرِ النَّعَمِ؛ وهي خيارُهَا وأشرفُهَا عند أهلِها، فما الظنُّ بِمَن يهتدي به كلَّ يومٍ طوائفُ من النَّاسِ؟» (٢).

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ صلى الله عليه وسلم: «**فوالله لأن يَهدِيَ الله بِكَ رَجُلًا واحِدًا خَيرٌ لَكَ مِن حُمْرِ النَّعَم**». هي الإبلُ الحُمْرُ، وهي أنفَسُ أموالِ العربِ، يضربون بها المثَلَ في نفاسةِ الشيءِ، وأنَّه ليس هناك أعظمُ منه، وتشبيهُ أمورِ الآخرةِ بأعَراضِ الدنيا إنَّما هو للتقريب من الأفهامِ، وإلا فَذَرَّةٌ من الآخرةِ خيرٌ من الأرضِ بأسرِها وأمثالها معها لو تُصُوِّرَت، وفي هذا الحديثِ بيانُ فضيلةِ العلمِ والدعاءِ إلىٰ الهدىٰ وسَنِّ السُّنَنِ الحسنةِ»(٣).

---

(١) «فتح الباري» (٧/ ٥٤٥).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٥٠).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ١٧٨).

٣٥- وعَن حَمزَةَ بنِ عَبدِ الله بنِ عُمَرَ أنَّ ابنَ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**بَينَا أَنَا نَائمٌ، أُتيتُ بقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَربتُ حَتَّىٰ إِنِّي لأَرَىٰ الرِّيَّ يَخرُجُ فِي أَظفَارِي، ثُمَّ أعطَيتُ فَضلِي عُمَرَ بنَ الخطَّابِ**» قالوا: فَمَا أَوَّلتَهُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «**العِلمَ**» رواه البخاريُّ ومسلمٌ(١).

قال ابن حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «قولهُ: «بَينَا» أصلُهُ «بَينَ» فأُشبعت الفتحةُ، وقولُهُ: «لأرَىٰ» -بفتحِ الهمزةِ- من الرؤيةِ أو من العلمِ، واللامُ للتوكيد؛ أو جوابُ قسمٍ محذوفٍ، وقال ابنُ المنيِّرِ: وجهُ الفضيلةِ للعلمِ في الحديثِ من جهةِ أنَّه عبَّر عن العلمِ بأنَّه فَضلَةُ النبيِّ ﷺ ونصيبٌ مِّما آتاه الله، وناهيك بذلك. وهذا قاله بناءً علىٰ أنَّ المرادَ بالفضلِ: الفضيلةُ، وغَفَلَ عن النكتةِ المتقدِّمةِ»(٢).

والنكتةُ التي يقصدُها الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ هي أنَّ البخاريَّ رَحِمَهُ اللهُ بَوَّبَ للحديثِ بقولِهِ: «باب: فضل العلم» ، قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «الفضلُ هنا بمعنىٰ الزيادةِ، أي: ما فَضَل عنه، والفضلُ الذي تقدَّمَ في أولِ كتابِ العلمِ، بمعنىٰ الفضيلةِ، فلا يُظَنُّ أنَّه كرَّره». فظنَّ ابنُ المنيِّرِ رَحِمَهُ اللهُ أنَّ الفضلَ هو الفضيلةُ كما قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ.

وقال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ اللهُ: «ووجهُ التعبيرِ بذلك -أي: تأويلُ اللَّبَنِ بالعلمِ -من جهةِ اشتراكِ اللَّبَنِ والعلمِ في كثرة المنَافعِ، وكونهما سببًا للصلاحِ، فاللَّبَنُ للغذاءِ البدنيِّ، والعلمُ للغذاءِ المعنويِّ»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٨٢)، ومسلم (٢٣٩١).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢١٦).

(٣) «فتح الباري» (٧/ ٥٦).

٣٦- وعَن أُبَيِّ بنِ كَعبٍ ﷺ قالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا أبَا المُنْذِرِ: أَتَدرِي أيَّ آيَةٍ مِن كِتَابِ الله معَكَ أعظَمُ؟**» قالَ: قُلتُ: اللهُ ورَسُولُهُ أعلَمُ. قالَ: «**يَا أبَا المُنْذِرِ، أَتدرِي أيَّ آيةٍ مِن كِتَابِ الله مَعَكَ أعظَمُ؟**» قالَ: قُلتُ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾، قالَ: فَضَرَبَ فِي صَدرِي وقَالَ: «**والله لِيَهنِكَ العِلمُ أبَا المُنذِرِ**» رواه مسلم(١).

و«**لِيَهنِكَ العلمُ**»: ليكن العلمُ هنيئًا لك.

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ ﷺ لأبَيِّ بنِ كعبٍ: «**لِيَهنِكَ العِلمُ أبَا المنذِرِ**»، فيه منقبةٌ عظيمةٌ لأُبيٍّ، ودليلٌ علىٰ كثرةِ علمهِ، وفيه تبجيلُ العالِمِ فضلاء أصحابِهِ وتكنيتُهم، وجوازُ مدح الإنسانِ في وجههِ إذا كان فيه مصلحةٌ، ولم يُخَف عليه إعجابٌ ونحوهُ، لكمالِ نفسِهِ ورسوخِهِ في التقوىٰ»(٢).

٣٧- وعَن أَبِي سَعيدٍ الخُدريِّ ﷺ، قَالَ: خَرَجَ مُعَاوِيَةُ عَلَىٰ حَلقَةٍ في المَسجِدِ، فَقَالَ: مَا أجلَسَكُم؟ قَالُوا: جَلَسنَا نَذكُرُ الله. قَالَ: آللهِ، مَا أجلَسَكُم إلا ذَاكَ؟ قَالُوا: واللهِ، ما أجلَسَنَا إلا ذَاكَ، قَالَ: أمَا إنِّي لَم أستَحلِفكُم تُهمَةً لَكُم، ومَا كَانَ أحَدٌ بِمَنزِلَتي مِن رسولِ الله ﷺ أقَلَّ عَنهُ حَدِيثًا مِنِّي، وَإنَّ رَسُولَ الله ﷺ خَرَجَ عَلَىٰ حَلقَةٍ مِن أَصحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَا أجلَسَكُم؟**» قَالُوا: جَلَسنَا نَذكُرُ اللهَ وَنَحمَدُهُ عَلَىٰ مَا هَدَانَا للإسلامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَينَا، قَالَ: «**آلله مَا أجلَسَكُم إلا ذَاكَ؟**» قَالُوا: وَاللهِ مَا أجلَسَنَا إلا ذَاكَ، قَالَ: «**أَمَا إنِّي لَم أستحلِفكُم تُهمَةً لَكُم، ولَكِنَّهُ أَتَانِي جِبريلِ فَأَخْبَرنِي؛ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي**

(١) رواه مسلم (٨١٠).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٩٣).

بِكُمُ الملائِكَةَ» رواه مسلمٌ[(١)].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ ﷺ: «**لَم أستحلِفكُم تُهمَةً لَكُم**»، هي -بفتحِ الهاءِ وإسكانِها- وهي فُعْلَةٌ وفُعَلَةٌ من الوهمِ، والتاءُ بدلُ الواوِ، واتَّهمتُه به: إذا ظننتُ به ذلك.

وقولُهُ ﷺ: «**أَنَّ الله** عَزَّوَجَلَّ **يُبَاهِي بِكُمُ الملائِكَةَ**»، معناه: يُظهر فضلَكم لهم، ويريهم حُسنَ عملِكم ويُثني عليكم عندهم، وأصلُ البهاءِ الحُسنُ والجمالُ، وفلانٌ يُباهي بمالِهِ أي: يفخرُ ويتجمَّل بهم علىٰ غيرِهم ويُظهر حسنَهم»[(٢)].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الله -تَبارك وتعالىٰ- يُبَاهي ملائكتَه بالقومِ الذين يتذاكرون العلمَ، ويذكرون الله ويحمَدونَه علىٰ ما مَنَّ عليهم به منه.

وهؤلاء -الذين وَرَدَ ذكرهم في الحديثِ- كانوا قد جلسوا يحمدون اللهَ بذكرِ أوصافِهِ وآلائِهِ، ويُثنون عليه بذلك ويذكرون حُسنَ الإسلامِ، ويعترفون لله بالفضلِ العظيمِ إذ هداهم له ومَنَّ عليهم برسولِهِ.

وهذا أشرفُ علمٍ علىٰ الإطلاقِ، ولا يُعنىٰ به إلا الراسخون في العلمِ؛ فإنَّه يتضمَّن معرفةَ الله وصفاتِهِ ، وأفعالِهِ ودينِهِ ورسولِهِ، ومحبَّةَ ذلك وتعظيمَهُ، والفرحَ به، وأحرىٰ بأصحابِ هذا العلمِ أن يباهي الله بهم الملائكةَ.

وقد بشَّر النبيُّ ﷺ الرجلَ الذي كان يحبُّ سورةَ الإخلاصِ، وقال: أُحِبُّها لأنَّها

---

(١) رواه مسلم (٢٧٠١).

(٢)«صحيح مسلم بشرح النووي» (١٧/ ٢٣).

صفةُ الرحمن ﷻ، فقال: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدخَلَكَ الجَنَّةَ**»[(١)]، وفي لفظٍ آخر: «**أَخبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»[(٢)]، فدلَّ علىٰ أنَّ مَن أحبَّ صفاتِ الله أحبَّه الله وأدخله الجنَّةَ»[(٣)].

٣٨- وعَن عَبدِ الله بن عَمروٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَو آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسرَائِيلَ ولا حَرجَ، وَمَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَليَتَبَوَّأْ مَقعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» رواه البخاري[(٤)].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «أَمَرَ النبيُّ ﷺ بالتبليغِ عَنهُ، لما في ذلكَ مِن حصولِ الهُدَىٰ بالتبليغِ، وله ﷺ أَجرُ مَن بَلَّغَ عنه وأَجرُ مَن قَبِلَ ذلك البلاغَ، وكلَّما كَثُرَ التبليغُ عنه تضاعف له الثوابُ، فله من الأجرِ بعددِ كلِّ مبلِّغٍ وكلِّ مُهتَدٍ بذلك البلاغِ سوىٰ ما له من أجرِ عملِهِ المختصِّ به، فكلُّ مَن هُدِي واهتدىٰ بتبليغِهِ فلَهُ الأجرُ، لأنَّه هو الدَّاعي إليهِ، ولَو لَم يَكُن في تبليغِ العلمِ عنهُ إلا حُصُولُ ما يُحِبُّه ﷺ لكفىٰ به فضلًا.

وعلامةُ المحبِّ الصادقِ أن يسعىٰ في حصولِ محبوبِ محبوبِهِ، ويبذُلَ جهدَهُ وطاقتَهُ فيها.

ومعلومٌ أنَّه لا شيءَ أحبُّ إلىٰ رسولِ الله ﷺ من إيصالِهِ الهدىٰ إلىٰ جميعِ

(١) رواه البخاري (٧٤١) تعليقًا، ووصله الترمذي (٢٩٠١) من طريق محمد بن إسماعيل البخاري.

(٢) رواه البخاري (٦٩٤٠)، ومسلم (٨١٣).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٩٠).

(٤) رواه البخاري (٣٢٧٤).

الأمَّةِ، فالمبلِّغُ عنه ساعٍ في حُصولِ محابِّهِ، فهو أقربُ النَّاسِ منه، وأحبُّهم إليه، وهو نائبُهُ وخليفتُه في أمَّتِه، وكفىٰ بهذا فضلًا وشرفًا للعلمِ»(١).

وقال البغويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: «**وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إسرَائيلَ ولا حَرجَ**»، ليس علىٰ معنىٰ إباحةِ الكذبِ علىٰ بني إسرائيلَ، بل معناه: الرُّخصَةُ في الحديثِ عنهم علىٰ معنىٰ البلاغِ من غيرِ أن يصحَّ ذلك بنقلِ الإسنادِ، لأنَّه أمرٌ تَعذَّرَ في أخبارِهم، لطولِ المدَّةِ، ووقوعِ الفترةِ.

وفيه إيجابُ التحرُّزِ عن الكذبِ علىٰ رسولِ الله ﷺ بألَّا يحدِّث عنه إلاَ بِمَا يصحُّ عندهُ بنقلِ الإسنادِ،والتثبُّتِ فيه»(٢).

وقال ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ ﷺ: «**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَو آيَةً**»، وقال المعافىٰ النهرواني في كتاب «الجليس» له: الآيةُ في اللغةِ تُطلقُ علىٰ ثلاثةِ معانٍ: العلامةِ الفاصلةِ، والأعجوبةِ الحاصلةِ، والبليةِ النازلةِ.

فمن الأول: قولُهُ تَعَالَىٰ: ﴿ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران:٤١].

ومن الثاني: قولُـهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً ﴾ [هود:١٠٣].

ومن الثالثِ: جعلَ الأميرُ فلانًا اليومَ آيةً.

ويجمعُ هذهِ المعانِي الثلاثةِ أنَّه قيل لها آيةٌ لدلالتِها، وفصلِها، وإبانتِها.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٢٧٨).

(٢) «شرح السنة» للبغوي (١/ ٢٤١).

وقال في الحديثِ: «**ولَو آيةً**» أي: واحدة، ليسارعَ كلُّ سامعٍ إلىٰ تبليغِ ما وقعَ له من الآي ولو قَلَّ، ليتَّصل بذلك نقلُ جميعِ ما جاءَ بهﷺ...اهـ

وقولُهُﷺ: «**وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إسرَائيلَ ولا حَرجَ**»، أي: لا ضيقَ عليكُم فِي الحديثِ عنْهُم لأنَّه كَانَ تقدَّمَ منهﷺ الزجرُ عن الأخذِ عنهُم والنظرِ في كُتبهم، ثُمَّ حصَلَ التوسُّعُ في ذلكَ، وكَأنَّ النَّهيَ وقعَ قَبلَ استقرارِ الأحكامِ الإسلاميةِ والقواعدِ الدينيةِ خشيةَ الفتنةِ، ثمَّ لَّما زالَ المحذورُ وقع الإذنُ في ذلك لِمَا في سماعِ الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبارِ»[١].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: «**فَليَتَبَوَّأْ**»، أي: فليتخذ لنفسهِ منزلًا، يقال: تبوَّأَ الرجلُ المكانَ إذا اتخذه سَكَنًا، وهو أمرٌ بمعنىٰ الخبرِ، أو بمعنىٰ التهديدِ، أو بمعنىٰ التهكُّمِ، أو دعاءٌ علىٰ فاعلِ ذلك، أي: بَوَّأَهُ الله ذلك»[٢].

٣٩- وعَن جَابِرٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّﷺ كَانَ يَجمَعُ بَينَ الرَّجُلَينِ مِن قَتْلَىٰ أُحُدٍ فِي ثَوبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ يَقُولُ: «**أَيُّهُم أَكثَرُ أَخذًا للقُرآنِ؟**» فَإذَا أُشيرَ إلَىٰ أحَدِهما قَدَّمَهُ فِي اللَّحدِ، وقَالَ: «**أَنَا شَهِيدٌ عَلَىٰ هَؤلاءِ**» وأَمَرَ بِدَفنِهِم بِدِمَائِهِم، وَلَم يُصَلِّ عَلَيهِم ولَم يُغَسِّلْهُم. رواه البخاريُّ[٣].

وقَدْ بَوَّبَ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **للحديثِ بقولِهِ**: «بابُ مَن يُقَدَّمُ في اللَّحدِ».

(١) «فتح الباري» (٦/ ٥٧٥).
(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٤٣).
(٣) رواه البخاري (١٢٨٣).

وقال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: باب مَن يقدَّمُ في اللَّحدِ» أي: إذا كانوا أكثرَ من واحدٍ، وقَد دلَّ حديثُ البابِ علىٰ تقديم مَن كانَ أكثرَ قرآنًا من صاحبِهِ، وهذا نظيرُ تقديمِهِ في الإمامةِ، وفيه فضيلةٌ ظاهرةٌ لقارئِ القرآنِ، ويلحق به أهلُ الفقهِ والزهدِ وسائرِ وجوهِ الفضلِ»[(١)].

قلتُ: فانظر -هداني الله وإياكَ سبيلَ الرشَادِ- كيف قدَّمَ القرآنُ- الذي هو أصلُ العلم ومعدِنُه- أهلَه أحياءً وأمواتًا؟ ثمَّ يرفعُهم عند ربِّهم درجاتٍ تنتهي عند ما يحملون، فعن عَبدِ الله بن عَمروِ بن العَاصِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرآنِ: اقرأ وارتَقِ ورَتِّل كَمَا كُنتَ تُرَتِّلُ فِي الدُّنيا، فَإنَّ مَنزِلَتَكَ عِندَ آخرِ آيةٍ تقرَؤهَا**»[(٢)].

٤٠- وعَن أُسَامَةَ بنِ زَيدٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَحمِلُ هَذَا العلمَ مِن كُلِّ خَلَفٍ عُدُولُهُ، يَنفُونَ عَنهُ تَحرِيفَ الغَالِينَ، وانتِحَالَ المُبطِلِينَ، وتَأوِيلَ الجَاهِلِينَ**»، رواه الطبريُّ من طريقِ أسامة، ورواه من الصحابةِ غيرُ واحدٍ، وأخرجه ابنُ عَدِيٍّ، والدارقَطنيُّ، وأبو نعيم، والبيهقيُّ، وتعدُّدُ طرقِهِ يقضي بحسنِهِ كما جَزَمَ به العلائيُّ، وقد استوفىٰ تخريجَهُ الإمامُ ابن القيمِ في «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٩٧)،

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢٥٢).

(٢) رواه أبو داود (١٤٦٤) وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ٤٠٣): حسنٌ صحيحٌ، ورواه الترمذي (٢٩١٤)، وقال: «حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»، وابن ماجه (٣٧٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣١٤)، واستوفىٰ تخريجه في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٢٤٠)، والحديث حسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «شرح السنة» (٤/ ٤٣٥).

وتقدَّم الكلامُ عنه في النصِّ الأولِ من نصوصِ الكتابِ العزيز، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقال الألبانيُّ: «الحديثُ رُوي موصولًا من طريقِ جماعةٍ من الصحابةِ، وصحَّح بعضَ طرقه الحافظُ العلائيُّ في «بغية الملتمس» (٣-٤)، وروىٰ الخطيبُ في «شرف أصحاب الحديث» (٣٥/ ٢) عن مهنَّا بن يحيىٰ قال: سألتُ أحمدَ -يعني ابنَ حنبلٍ-، عن حديثِ معاذ بنِ رفاعةَ عن إبراهيم هذا، فقلتُ لأحمد: كأنَّه كلامٌ موضوعٌ؟ فقال: لا، هو صحيحٌ، فقلتُ له: ممن سمعتَه أنت؟ قال: من غيرِ واحدٍ، قلتُ: مَن هم؟ قال: حدَّثني مسكينٌ إلا أنَّه قال: معاذٌ عن القاسمِ عن عبد الرحمن، قال أحمدُ: معاذُ بنُ رفاعةَ لا بأس به»[(١)].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبرﷺ أنَّ العلمَ الذي جاء به يحملُه عدولُ أمَّتِهِ من كلِّ خَلَفٍ حتىٰ لا يضيعَ ويذهبَ.

وهذا يتضمَّنُ تعديلَهُﷺ لحملَةِ العلمِ الذي بُعِثَ به، وهو المشارُ إليه في قولِهِ: «**هَذَا العِلمَ**» فكلُّ مَن حَمَلَ العلمَ المشارَ إليهِ لابُدَّ وأن يكونَ عدلًا، ولهذا اشتَهَرَ عند الأمَّةِ عدالَةُ نَقَلَتِهِ وحَمَلَتِهِ اشتهارًا لا يقبلُ شَكًّا ولا افتراءً.

ولا ريبَ أنَّ مَن عَدَّلَهُ رسُولُ الله ﷺ لا يُسمَعُ فيه جَرحٌ، فالأئمَّةُ الذين اشتَهروا عند الأمَّةِ بنقلِ العلم النبويِّ وميراثِهِ كلُّهم عُدُولٌ بتعديلِ رسولِ اللهﷺ، ولهذا لا يُقبَلُ قَدح بعضهم في بعضٍ، وهذا بخلافِ مَن اشتهَرَ عند الأمَّةِ جَرحُهُ والقَدحُ فيه كأئمةِ البدعِ ومَن جرىٰ مجراهم من المتَّهمين في الدِّينِ، فإنَّهم ليسوا

(١) «مشكاة المصابيح» للتبريزي تحقيق الألباني (١/ ٨٣).

عند الأمَّةِ من حَمَلَةِ العِلمِ.

فما حَمَلَ عِلمَ رسولِ الله ﷺ إلا عَدلٌ، ولكن قد يُغلَطُ في مُسَمَّىٰ العدالةِ، فَيُظَنُّ أنَّ المرادَ بالعَدلِ مَن لا ذنبَ له، وليس كذلك،بل هو عَدلٌ مُؤتَمَنٌ علَىٰ الدِّينِ، وإن كان فيه ما يتوبُ إلىٰ الله منه، فإنَّ هذا لا ينافي الإيمانَ والولايةَ»[١].

وقال القاسميُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في الحديثِ تخصيصُ حَمَلَةِ السُّنَّةِ بهذه المنقبةِ العليَّةِ، وتعظيم هذه الأمَّةِ المحمديَّةِ، وبيانُ جلالةِ قَدرِ المحدِّثين وعلوِّ مرتبتهم علىٰ العالمين؛ لأنَّهم يحمون مشارعَ الشريعةِ،ومتونَ الرواياتِ من تحريفِ الغالين، وتأويلِ الجاهلين، بنقلِ النصوصِ المحكمةِ لردِّ المتشابهِ إليه»[٢].

٤١- وعَن أَبِي وَاقِدٍ اللَّيثيِّ: أنَّ رَسُولَ الله ﷺ بينَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المسجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ، إِذْ أَقبَلَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثنَانِ إِلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ وذَهَبَ وَاحِدٌ، قال: فَوقَفَا عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأىٰ فُرجَةً فِي الحَلقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُم، وَأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ قَالَ: «**أَلاَ أُخبِركُم عَنِ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ؟ أَمَّا أَحَدُهُم فَأَوَىٰ إِلَىٰ الله فآوَاهُ الله، وأَمَّا الآخَرُ فاستَحْيَا فاستحيَا الله مِنهُ، وأَمَّا الآخَرُ فَأَعرَضَ فَأَعرَضَ الله عَنهُ**» رواه البخاريُّ ومسلم[٣].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لو لم يكن لطالبِ العلمِ إلا أنَّ الله يُؤويه إليه ولا يُعرِضُ

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٩٥).

(٢) «قواعد التحديث» للقاسمي (ص٤٨).

(٣) رواه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

عنه لكفىٰ به فَضلًا»(١).

والنَّفَرُ: عِدَّةُ رجالٍ من الثلاثةِ إلىٰ العشرةِ.

والفُرجَةُ: فراغٌ بين شيئين.

والحلقةُ: كلُّ مستديرٍ خالي الوسطِ.

* * *

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٣).

ثالثًا: مِن آثارِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ

١- **قال البخاريُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ **في أوَّلِ كتابِ «الفرائض» من «صحيحه»**: قال عُقْبَةُ ابنُ عامرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَعَلَّمُوا قَبلَ الظانِّين» قالَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني: الذين يتكلَّمون بالظَّنِّ. روىٰ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أثَرَ عُقبةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ تعليقًا.

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «الفتح»**: «هذا الأثرُ لم أظفر به موصولًا، وقولُهُ: «قَبلَ الظانِّينَ»، فيه إشعارٌ بأنَّ أهلَ ذلك العصرِ كانوا يقفون عند النصوصِ ولا يتجاوزونها، وإن نُقِلَ عن بعضهم الفتوىٰ بالرأي فهو قليلٌ بالنسبةِ، وفيه إنذارٌ بما حصل من كثرة القائلين بالرأي، وقيل: مرادُهُ: قبل اندراسِ العلمِ وحدوثِ مَن يتكلَّمُ بمقتَضىٰ ظَنِّهِ غيرَ مستندٍ إلىٰ علمٍ».

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «المجموعِ»** (١/ ٤٢): «معناه: تعلَّموا العلمَ من أهلِهِ المحقِّقين الوَرِعينَ قبل ذهابِهم ومجيءِ قومٍ يتكلَّمون في العلمِ بمثلِ نفوسِهم وظنونِهم التي ليس لها مستَنَدٌ شَرعيٌّ».

٢- **وعَن عُمَرَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **قَالَ**: «أيُّهَا النَّاسُ عَلَيكُم بِالعِلمِ؛ فَإِنَّ للهِ سُبحَانَهُ رِدَاءً يُحبُّهُ، فَمَن طَلَبَ بَابًا مِنَ العِلمِ رَدَّاهُ اللهُ بِرِدَائِهِ، فَإِن أذنَبَ ذَنبًا استَعْتَبَهُ لِئَلَّا يَسلُبَهُ رِدَاءَهُ ذَلِكَ حَتَّىٰ يَمُوتَ بِهِ».

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومعنىٰ استعتابِ الله عَبْدَهُ: أن يطلبَ منه أن يُعتبَهُ؛ أي: يُزيلَ عَتْبَهُ عليه بالتوبةِ والاستغفارِ والإنابةِ، فإذا أنابَ إليه رَفَعَ عنه عَتْبَهُ، فيكون قد

أعتَبَ ربَّهُ، أي: أزالَ عَتْبَهُ عليه، والرَّبُّ تعالىٰ قد استعتَبهُ؛ أي: طَلَبَ منه أن يُعتِبَهُ.

ومن هذَا قولُ ابنِ مسعودٍ -وقد وَقَعَت زلزلةٌ بالكوفةِ-: «إنَّ ربَّكم يستعتبُكُم فَأَعتِبُوهُ».

وهذَا هو الاستعتابُ الذي نفاهُ سبحانهُ في الآخرةِ في قولِهِ: ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الجاثية:٣٥]، أي: لا نطلبُ منهم إزالةَ عَتْبِنَا عليهم، فإنَّ إزالَتهِ إنَّما تكونُ بالتوبةِ وهي لا تنفعُ في الآخرةِ.

وهذا غيرُ استعتابِ العبدِ ربَّهُ كما في قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ [فصلت:٢٤]، فهذَا معناهُ أن يطلبوا إزالةَ عتبنَا عليهم والعفوَ، ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾أي: ما هم مَّمن يُزالُ العتبُ عليه، وهذَا الاستعتابُ ينفعُ في الدنيا دون الآخرةِ»[1].

٣- **وعَن عَلِيٍّ** ﷺ **قَالَ:** «كَفَىٰ بالعلمِ شَرفًا أَن يَدَّعِيَهُ مَن لا يُحسنِهُ، ويَفرَحَ بِهِ إِذَا نُسِبَ إِلَيهِ، وكَفَىٰ بالجهلِ ذَمًّا أَن يَتبَرَّأَ مِنه مَن هُوَ فِيهِ»[2].

٤- **وعَن عُمَرَ** ﷺ **قَالَ:** «مَوتُ أَلفِ عَابدٍ أهوَنُ مِن مَوتِ عَالِمٍ بَصيرٍ بِحلالِ الله وحرَامِهِ».

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «ووجهُ قولِ عمرَ: أنَّ هذا العالِمَ يَهدمُ علىٰ إبليسَ كُلَّ ما يَبنيهِ بعلمِهِ وإرشادِهِ، وأمَّا العابدُ فنفعُهُ مقصورٌ علىٰ نفسِهِ»[3].

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٩٧).

(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص١٠)، و«المجموع» للنووي (١/ ٤١).

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٩٨).

٥- **وعَن عَبدِ الله بنِ مَسعودٍ ﷺ قَالَ:** «عَلَيكُم بِالعِلمِ قَبلَ أَن يُرفَعَ، وَرَفعُهُ هَلاكُ العُلَمَاءِ، فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَيَوَدَّنَّ رِجَالٌ قُتِلُوا فِي سَبيلِ الله شُهَدَاءَ أَن يَبعَثَهُمُ الله عُلَمَاءَ لِمَا يَرونَ مِن كَرَامَتِهِم، وإِنَّ أَحَدًا لَم يُولَد عَالِمًا، وَإِنَّمَا العِلمُ بالتَّعَلُّمِ»(١).

٦- **وَلَمَّا حَضَرَت مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ ﷺ الوَفَاةُ قَالَ لِجَارِيَتِهِ:** «وَيحَكِ! هَل أَصْبَحَنا؟ قَالَت: لا، ثُمَّ تَرَكَهَا سَاعَةً، ثُمَّ قَالَ: انظُرِي، فقَالَتْ: نَعَم، فَقَالَ: أعوذُ بالله مِن صَباحٍ إِلَىٰ النَّارِ، ثُمَّ قالَ: مَرحَبًا بالموتِ، مَرحبًا بزائرٍ جَاءَ عَلَىٰ فَاقَةٍ، لا أفلَحَ مَن نَدِمَ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعلَمُ أَنِّي لَم أَكُن أُحبُّ البَقَاءَ فِي الدُّنْيَا لِجَري الأنْهَارِ، وَلا لِغَرسِ الأشجَارِ، وَلَكِن كُنتُ أُحبُّ البَقَاءَ لمُكَابَدَةِ اللَّيلِ الطَّويلِ، وَلِظَمَأ الهَوَاجِرِ في الحَرِّ الشَّديدِ، وَلِمُزَاحَمَةِ العُلَمَاءِ بالرُّكَبِ فِي حِلَقِ الذِّكْرِ»(٢).

٧- وعَن كُمَيلِ بنِ زِيَادٍ النَّخَعِيِّ قَالَ: «أَخَذَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ بِيَدِي، فَأَخرَجَنِي نَاحيَةَ الجَبَّانَةِ(٣)، فَلَمَّا أَصْحَرَ(٤)، تَنَفَّسَ الصُّعَدَاءَ؛ ثُمَّ قَالَ: يَا كُمَيلَ بنَ زِيَادٍ،

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٩٧).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ٥١)، وأحمد في «الزهد» (ص٢٢٦) بإسنادٍ فيه مجهولٌ.

(٣) الجَبَّانُ كَالجَبَّانَةِ: المقبَرةُ، وناحيةُ الجبَّانَةِ: جِهَتُهَا.

(٤) أصحَرَ: صار في الصحراء، كأنجد وأتهم، ومَن جعلها بالسينِ «أسحر» فكأنما نظر إلىٰ الزمانِ، حيث نظر إلىٰ المكان مَن جعلها بالصادِ «أصحر»، و«أسحر القومُ» صاروا في السَّحَرِ، كقولك: أصبحوا، وأسحَروا واستحروا، خرجوا في السَّحَرِ. «لسان العرب» (سحر) (ص١٩٥٣).

إنَّ هَذِهِ القُلُوبَ أَوعيَةٌ(١)، فَخَيرُهَا أَوعَاهَا(٢)، فَاحفَظ عَنِّي مَا أَقُولُ لَكَ: النَّاسُ ثَلاثَةٌ: فَعَالِمٌ رَبَّانِيٌّ(٣)، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَىٰ سَبِيلِ نَجَاةٍ(٤)، وَهَمَجٌ(٥)، رَعَاعٌ(٦)، أَتبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ(٧)، يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَم يَستَضِيئُوا بِنُورِ العِلمِ، وَلَم يَلجَئُوا إِلَىٰ رُكنٍ وَثِيقٍ.

يَا كُمَيلُ، العِلْمُ خَيرٌ مِنَ المَالِ؛ العِلْمُ يَحرُسُكَ، وأَنتَ تَحرُسُ المَالَ، وَالمَالُ تَنقُصُهُ النَّفَقَةُ، والعِلمُ يَزكُو عَلَىٰ الإنفَاقِ -وفي روايةٍ: عَلَىٰ العَمَلِ-، العِلمُ حَاكِمٌ، وَالمَالُ مَحكُومٌ عَلَيهِ.

يَا كُمَيلُ، مَحَبَّةُ العِلم دِينٌ يُدَانُ بِهَا، العِلمُ يُكسِبُ العَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وجَمَيلُ الأُحدُوثَةِ بَعدَ وَفَاتِهِ، وَصَنِيعَةُ المَالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ.

يَا كُمَيلُ، مَاتَ خُزَّانُ الأَموَالِ وَهُم أَحيَاءٌ، والعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهرُ، أَعيَانُهُم مَفقُودَةٌ، وَأَمثَالُهُم فِي القُلُوبِ مَوجُودَةٌ.

هَا...إِنَّ هَاهُنَا لَعِلمًا -وأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَىٰ صَدرِهِ- لَو أَصَبتُ لَهُ حَمَلَةً(٨)! بَل

---

(١) **أوعيةٌ**: جمعُ وعاءٍ.

(٢) **أوعاها**: أحفظها.

(٣) **العالِمُ الربانيُّ**: هو المتألِّهُ العارفُ بالله.

(٤) **المتعلم علىٰ سبيل النجاة**: مَن إذا أتمَّ علمه نجا.

(٥) **الهمجُ**: ذبابٌ صغيرٌ كالبعوضِ يقع علىٰ وجوهِ الغنم، والمقصودُ: الحمقىٰ من النَّاسِ.

(٦) **الرَّعَاعُ**: الطغامُ الأحداثُ الذين لا منزلةَ لهم عند النَّاسِ.

(٧) **الناعقُ**: مجازٌ عن الداعي إلىٰ باطلٍ أو حقٍّ.

(٨) **الحَمَلَةُ**: جمعُ حاملٍ، وأصبتُ: وجدتُ، أي لو وجدتُ له حاملين لأبرزتُه وبثثتُه.

أَصبتُهُ لَقِنًا[١] غيرَ مَأمُونٍ عَلَيهِ، يَسْتَعمِلُ آلةَ الدِّينِ للدُّنْيَا، يَستَظهِرُ حُجَجَ الله عَلَىٰ كِتَابِهِ، وبِنعَمِهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، أَو مُنقَادًا لأَهلِ الحَقِّ[٢] لا بَصيرَةَ لَهُ فِي إِحيَائِهِ، يَنقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِن شُبهَةٍ، لا ذَا ولا ذَاكَ[٣] أَو مَنهُومًا[٤]، للَّذَّاتِ، سَلِسَ القِيادِ[٥] للشَّهَوَاتِ، أَو مُغرًىٰ[٦] بِجَمعِ الأموَالِ والادِّخَارِ، لَيسَ مِن دُعَاةِ الدِّينِ، أقرَبُ شَبَهًا بِهِمُ الأنعَامُ السَّائمَةُ[٧]، كَذَلِكَ يَمُوتُ العِلمُ بِمَوتِ حَامِلِيهِ.

اللَّهُمَّ بَلَىٰ، لَن تَخلُوَ الأرضُ مِن قَائِمٍ لله بحُجَّتِهِ لِكَيلا تَبطُلَ حُجَجُ الله وبَيِّنَاتُهُ، أُولئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَدًا، الأَعظَمُونَ عِندَ الله قَدرًا، بِهِم يَدفَعُ الله عَن حُجَجِهِ حَتَّىٰ يُؤَدُّوهَا إلىٰ نُظَرَائِهِم، ويَزدَرعُوهَا فِي قُلُوبِ أشبَاهِهِم، هَجَمَ بِهِمُ العِلمُ عَلَىٰ حَقيقَةِ الأَمرِ؛ فَاستَلانُوا مَا استَوعَرَ مِنهُ المُترَفُونَ[٨] وَأَنِسُوا بِمَا استَوحَشَ الجَاهِلُونَ،

(١) **اللَّقِنُ**: السريعُ الفهمِ، أي: إنَّه وجد حاملًا للعلمِ سريعَ الفهمِ له، لكنه غيرُ مأمون علىٰ العلم بسبب أنه لا يصونه ولا يعملُ به، فهو يستعمل وسائلَ الدينِ لجلبِ الدنيا، ويستعينُ بنعمِ الله علىٰ إيذاءِ عبادهِ.

(٢) **المنقادُ لأهل الحقِّ**: هو المقلِّدُ في القولِ والعملِ، ولا بصيرةَ له في دقائق الحقِّ وخفاياه، فذاك يسرعُ الشكُّ إلىٰ قلبه لأقلِّ شبهةٍ.

(٣) **لا ذا ولا ذاك**: أي: لا يصلح لحملِ العلمِ واحدٌ منهما.

(٤) **المنهومُ**: المفرِطُ في شهوةِ الطعامِ.

(٥) **سَلِسُ القيادِ**: سَهلُ الانقيادِ.

(٦) **مغرًىٰ -بالجمعِ-**: مولعٌ بكسب المال واكتنازه.

(٧) **السائمةُ**: الراعيةُ.

(٨) **المترفون**: المتنعِّمون.

صَحِبُوا الدُّنيَا بِأبدَانٍ أَروَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بالمَلأ الأعلَىٰ، أُولئكَ خُلَفَاءُ الله فِي أرضهِ(١)، ودُعَاتُهُ إلَىٰ دِينِهِ، هَاه هَاه هَاه هَاه.. شَوقًا شَوقًا إلَىٰ رُؤيَتِهِم، وَأستَغفِرُ الله لِي ولَكَ، إذَا شِئتَ فَقُم» ذكره أبو نُعيم في الحلية (١/ ٧٩)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (١/ ٤٩)، وابن عبد البرِّ في «الجامع» (٢/ ١١٢)، وقال: وهو حديثٌ مشهورٌ عند أهل العلم يستغني عن الإسنادِ لشهرتِهِ عندهم(٢).

قال الخطيبُ البغداديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا حديثٌ حسنٌ، من أحسنِ الأحاديثِ معنًىٰ، وأشرفِها لفظًا، وتقسيمُ أميرِ المؤمنين عليِّ بن أبي طالبٍ الناسَ في أوَّلِهِ تقسيمٌ في غايةِ الصحَّةِ، ونهايةِ السَّدَادِ؛ لأنَّ الإنسانَ لا يخلو من أحدِ الأقسامِ الثلاثةِ التي ذكرها مع كمال العقل وإزاحة العلل؛ إما أن يكون عالمًا، أو متعلِّمًا، أو مغفِلًا للعلمِ وطلبِهِ، ليس بعالمٍ ولا بطالبٍ له.

فالعالِمُ الرَّبَّانيُّ هو الذي لا زيادةَ علىٰ فضلِه لفاضلٍ، ولا منزلةَ فوق منزلتِهِ لمجتهدٍ، وقد دخلَ في الوصفِ له بأنَّه ربانيٌّ وصفُه بالصفاتِ التي يقتضيها العلمُ لأهلِهِ، ويمنع وصفه بما يخالفها.

---

(١) **قال ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن أُريد بالإضافةِ إلىٰ الله أنَّه خليفةٌ عنه فالصوابُ: قولُ الطائفة المانعةِ منها، وإن أُريد بالإضافة أنَّ الله استخلفه عن غيره مَّمن كان قبله فهذا لا يمتنع فيه الإضافةُ؛ وحقيقتها: خليفةُ الله الذي جعله الله خَلَفًا عن غيرِهِ». مفتاح دار السعادة (١/ ٤٧٢).

(٢) بل الحديث ضعيفٌ، في سنده ثابت بن أبي صفية، هو أبو حمزة الثمالي، مجمعٌ علىٰ ضعفه، «تهذيب الكمال» (٤/ ٣٥٧)، وعبد الرحمن بن جندب، وهو مجهولٌ، «لسان الميزان» (٣/ ٤٧١).

ومعنىٰ **الرَّبَّانيِّ فِي اللغةِ**: الرفيعُ الدرجةِ فِي العلمِ، العالي المنزلةِ فيه، وعلىٰ ذلك حملوا قولَه تعالىٰ: ﴿لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ﴾ [المائدة:٦٣]، وقولَه تعالىٰ: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران:٧٩]، قال ابنُ عباسٍ: حكماءَ فقهاءَ، وقال أبو رزين: فقهاءَ علماءَ.

وقال أبو عُمر الزَّاهدُ محمد بن عبد الواحد: سألتُ ثعلبًا عن هذا الحرفِ، وهو الرَّبَّانيُّ، فقال: سألتُ ابنَ الأعرابيِّ فقال: إذا كان الرجلُ عالِمًا عاملًا مُعَلِّمًا قيلَ له: هذا ربَّانيٌّ، فإن حُرِمَ خَصلَةً منها لم يُقَل له: ربَّانيٌّ.

قال أبو بكر بن الأنباريِّ عن النحويين: إنَّ الرَّبَّانيِّينَ منسوبون إلىٰ الرَّبِّ تعالىٰ، وإنَّ الألفَ والنونَ زيدتا للمبالغةِ في النَّسَبِ، كما تقول: لِحيَاني وجبهاني إذا كان عظيمَ اللحيةِ والجبهةِ.

وأمَّا المتعلِّمُ علىٰ سبيلِ نجاةٍ فهو الطالبُ بتعلُّمِه والقاصدُ به نجاتَه من التفريطِ في تضييعِ الفروضِ الواجبةِ عليه، والرغبةَ بنفسِهِ عن إهمالها واطِّرَاحِهَا، والأنفةَ من مجانسةِ البهائمِ، وقد نفىٰ بعضُ المتقدمِّين عن النَّاسِ مَن لم يكن من أهلِ العلم.

وأمَّا القسمُ الثالثُ: فهم المهملون لأنفسِهم الرَّاضون بالمنزلةِ الدنيَّةِ والحالِ الخسيسةِ التي هي في الحضيضِ الأوهدِ، والهَبُوطِ الأسفلِ، التي لا منزلَةَ بعدها في الجهلِ، ولا دونها في السقوطِ، وما أحسنَ ما شبَّههم الإمامُ عليٌّ بالهَمَجِ الرَّعَاعِ! والهمجُ الرَّعَاعُ به يُشَبَّه دُنَاةُ النَّاسِ وأراذلُهم.

والرَّعَاعُ: المتبدِّدُ المتفرِّقُ. **والناعقُ**: الصَّائحُ، وهو في هذا الموضعِ الراعي،

يقال: نَعَقَ الراعي بالغَنَمِ ينعِقُ إذا صاح بها»[١].

وقد أفاض الإمامُ العلامةُ ابن القيمِ في شرحِ هذا الحديثِ في كتابهِ العُجَابِ «مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة» فأتىٰ بما يشرح الله به الصدورَ ويقرُّ به الأعينَ، وقد ساق وجوهَ تفضيلِ العلمِ علىٰ المالِ، فبلغت أربعين وجهًا أنقُلُها ابتغاءَ الفائدةِ ورجاءَ النفعِ في بابٍ خاصٍّ إن شاء الله العظيمُ.

٨- **قال ابن القيم** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ذَكَرَ أميرُ المؤمنين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أصنافَ حَمَلَةِ العلمِ الذين لا يصلحون لحملِهِ، وهم أربعةٌ:

أحدُهم: مَن ليس بمأمونٍ عليه، وهو الذي أُوتِيَ ذكاءً وحفظًا، ولكن مع ذلك لم يُؤتَ زكاءً، فهو يتَّخذُ العلمَ -الذي هو آلةُ الدِّينِ- آلةَ الدنيا، يستجلبُهَا به، ويتوسَّلُ بالعلمِ إليها، ويجعلُ البضاعةَ التي هي مُتَّجَرُ الآخرةِ مُتَّجَرَ الدنيا، وهذا غيرُ أمينٍ علىٰ ما حَمَلَه من العلمِ، ولا يجعله الله إمامًا فيه قَطُّ؛ فإنَّ الأمينَ هو الذي لا غَرَضَ له، ولا إرادةَ لنفسهِ إلا اتِّباعُ الحقِّ وموافقتُه، فلا يدعو إلىٰ قيامِ رياستِهِ ولا دنياه، وهذا الذي قد اتَّخَذَ بضاعةَ الآخرةِ ومُتَّجَرَهَا مُتَّجَرًا للدنيا قد خَانَ الله، وخَانَ عبادَهُ وخَان دينَهُ، فلهذا قال: غيرَ مأمونٍ عليه».

وقولُهُ: «يَستَظهِرُ بُحجَجِ الله علىٰ عبادِهِ، وبنعمِهِ علىٰ عبادِهِ»، هذه صفةُ هذا الخائنِ، إذا أنعَمَ الله عليه استظهرَ بتلك النعمةِ علىٰ النَّاسِ، وإذا تعلَّمَ علمًا استَظهَرَ به علىٰ كتاب الله.

---

(١) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (١/ ٥١).

ومعنىٰ استظهارِهِ بالعلمِ علىٰ كتاب الله: تحكيمُهُ عليه وتقديمُهُ وإقامتُهُ دونه.

وهذه حالُ كثيرٍ ممَّن يحصُلُ له علمٌ؛ فإنَّه يستغني به ويستَظهرُ به ويحكِّمُهُ، ويجعل كتابَ الله تَبَعًا له، يقال: استظهرَ فلانٌ علىٰ كذا بكذا، أي: ظَهَرَ عليه به وتقدَّمَ، فجعلَهُ وراءَ ظهرهِ.

وليست هذه حالَ العلماءِ؛ فإنَّ العالِمَ حَقًّا يستظهرُ بكتابِ الله علىٰ كلِّ ما سواه، فيقدِّمُهُ ويحكِّمُهُ، ويجعلُه إمامَه، ويجعلُه عِيارًا علىٰ غيرِهِ، مُهيمنًا عليه، كما جَعَلَهُ الله تعالىٰ كذلك.

فالمستظهِرُ به موفَّقٌ سعيدٌ، والمستظهِرُ عليه مخذولٌ شقيٌّ، فَمَن استظهرَ علىٰ الشيءِ فقد جَعَلَهُ خَلفَ ظهرِهِ مُقَدِّمًا عليه ما استظهرَ به، وهذا حالُ مَن اشتغلَ بغيرِ كتابِ الله عنه، واكتفىٰ بغيرِهِ منه، وقَدَّمَ غيرَهُ وأَخَّرَهُ.

الصِّنفُ الثاني من حَمَلَةِ العلمِ: المنقادُ له الذي لم يَثلُج له صَدرُهُ، ولم يطمئنَّ به قلبُهُ، بل هو ضعيفُ البصيرةِ فيه لكنَّه مُنقادٌ لأهلِهِ، وهذه حالُ أتباعِ الحقِّ من مُقَلِّديهم، وهؤلاء -وإن كانوا علىٰ سبيل نجاةٍ- فليسوا من دعاةِ الدينِ، وإنَّما هم من مُكَثِّري سوادِ الجيشِ، لا من أمرائِهِ وفرسانِهِ.

والمنقادُ: منفعلٌ من قاده يقودُهُ، وهو مُطاوعُ الثاني، وأصلُه: مُنقَيِدٌ، كمكتَسَبٌ، ثُمَّ أُعِلَّت الياءُ أَلِفًا لحركتِها بعدَ الفتحةِ، فصار: منقادٌ، تقول: قُدتُه فانقادَ، أي: لم يمتنع.

وقولُهُ: «يَنقَدِحُ الشَّكُّ في قلبِهِ بأوَّلِ عارِضٍ من شُبهَةٍ»؛ هذا لضعفِ علمِهِ،

وقِلَّةِ بصيرته، إذا وَرَدت علىٰ قلبهِ أدنىٰ شُبهةٍ قَدَحَت فيه الشَّكَّ والرَّيبَ، بخلافِ الراسخِ في العلمِ، لو وَرَدَت عليه من الشُّبَهِ بعددِ أمواجِ البحرِ ما أزالت يقينَه، ولا قَدحَت فيه شَكًّا؛ لأنَّه قد رَسَخَ في العلمِ فلا تستفِزُّهُ الشبهاتُ، بل إذا وَرَدَت عليه ردَّها حَرَسُ العلمِ وجيشُهُ مغلولةً ومغلوبةً.

والشُّبهَةُ: واردٌ يَرِدُ علىٰ القلبِ يحُولُ بينه وبين انكشافِ الحقِّ له، فمتىٰ باشَرَ القلبُ حقيقةَ العلمِ لم تُؤثِّر تلك الشبهةُ فيه، بل يَقوىٰ علمُهُ ويقينُهُ بردِّها ومعرفةِ بطلانها، ومتىٰ لم يباشر حقيقةَ العلمِ بالحق قلبُهُ قَدَحَت فيه الشَّكَّ بأوَّلِ وَهلَةٍ، فإن تداركَهَا وإلا تتَابَعَت علىٰ قلبِهِ أمثالُها، حتىٰ يصيرَ شاكًّا مرتابًا.

وإنَّما سُمِّيت الشبهَةُ شُبهَةً لاشتباه الحقِّ بالباطلِ فيها؛ فإنها تَلبَسُ ثوبَ الحقِّ علىٰ جسمِ الباطلِ، وأكثرُ الناس أصحابُ حُسنٍ ظاهرٍ، فينظرُ الناظرُ فيما أُلبِسَتهُ من اللباسِ فيعتَقِدُ صحَّتَها.

وأمَّا صاحبُ العلمِ واليقينِ، فإنه لا يغترُّ بذلك، بل يُجاوِزُ نَظرَهُ إلىٰ باطنِها وما تحت لباسِها، فينكشفُ له حقِيقتُها، ومثالُ هذا: الدرهمُ الزائفُ؛ فإنَّه يغترُّ به الجاهلُ بالنَّقدِ نَظَرًا إلىٰ ما عليه من لباسِ الفضَّةِ، والناقدُ البصيرُ يجاوزُ نَظَرَه إلىٰ ما وراء ذلك فيطَّلعُ علىٰ زيفِهِ، فاللفظُ الحَسَنُ الفصيحُ هو للشُّبهَةِ بمنزلةِ اللباسِ من الفضةِ علىٰ الدرهمِ الزائفِ، والمعنىٰ كالنُّحاسِ الذي تحته، وكم قد قَتَلَ هذا الاغترارُ مِن خَلقٍ لا يُحصيهم إلا اللهُ!

وإذا تأمَّلَ العاقلُ الفَطِنُ هذا القَدرَ وتدَّبَرهُ رأىٰ أكثرَ النَّاسِ يَقبَلُ المذهبَ والمقالةَ بلفظٍ، ويردُّها بعينها بلفظٍ آخرَ.

فإذا أردتَ الاطلاعَ علىٰ كُنهِ المعنىٰ: هل هو حقٌّ أو باطلٌ؟ فجرِّده من لباسِ العبارةِ، وجَرِّد قلبَكَ من النَّفْرَةِ والميلِ، ثمَّ أعطِ النَّظَرَ حقَّهُ، ناظرًا بعينِ الإنصافِ، ولا تكُن ممن ينظرُ في مقالةِ أصحابِهِ ومن يُحَسِّنُ ظنَّه به نظرًا تامًّا بكلِّ قلبِهِ، ثمَّ ينظر في مقالةِ خصومِهِ ومَن يُسيءُ ظنَّه به كَنَظَرِ الشَّزَرِ والملاحظةِ، فالناظرُ بعينِ العداوةِ يرىٰ المحاسنَ مساوئَ، والناظرُ بعين المحبَّةِ عكسُهُ، وما سَلِمَ من هذا إلا مَن أراد الله كرامتَه، وارتضاه لقبولِ الحقِّ.

الصِّنفُ الثَّالثُ: رجلٌ نَهمَتُهُ في نَيلِ لَذَّتِهِ، فهو مُنقَادٌ لداعي الشهوةِ أين كان، ولا ينالُ درجةَ وراثةِ النبوةِ مع ذلك، ولا ينال العلم إلا بهجرِ اللَّذَّاتِ وتطليقِ الراحةِ.

الصِّنفُ الرابعُ: مَن حرصُهُ وهِمَّتُهُ في جمعِ الأموالِ وتثميرِها وادِّخَارِها، فقد صارت لذَّتُه في ذلك، وفَنِيَ بها عمَّا سواه، فلا يرىٰ شيئًا أطيبَ له مما هو فيه، فأين هذا ودرجة العلمِ؟!

فهؤلاء الأصنافُ الأربعةُ ليسوا من دعَاةِ الدِّينِ ولا من أئمةِ العلمِ، ولا من طَلَبَتِه الصادقين في طلبِهِ، ومَن تعلَّق منهم بشيءٍ منه فهو من المتسلقين عليه، المتشبِّهين بحملَتِهِ وأهلِهِ، المدَّعينَ لوصالِهِ، المبتوتينَ من حبالِهِ، وفتنةُ هؤلاء فتنةٌ لكلِّ مفتونٍ، فإنَّ الناسَ يتشبَّهون بهم لما يظنُّون عندهم من العلم، ويقولون: لسنا خيرًا منهم ولا نرغب بأنفسنا عنهم، فهم حُجَّةٌ لكلِّ مفتونٍ»[(١)].

٩- وعَن قَتَادَةَ قَالَ: قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: «تَذَاكُرُ العِلمِ بَعْض لَيلَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٤٠-٤٤٨) باختصارٍ وحذفٍ.

مِن إحيَائِهَا».

قَالَ إسحَاقُ بنُ مَنصُورٍ: «قُلتُ لأَحمد بنِ حَنبَلٍ: قَولُهُ: «تَذَاكُرُ العِلمِ بَعض لَيلَةٍ أَحَبُّ إلَيَّ مِن إِحيَائِهَا»، أيَّ عِلمٍ أَرَادَ؟ قَالَ: هُوَ العِلمُ الَّذي يَنتَفِعُ بِهِ النَّاسُ فِي أَمرِ دِينِهِم، قُلتُ: فِي الوُضُوءِ والصَّلاةِ وَالصَّومِ والحَجِّ والطَّلَاقِ وَنَحو هَذَا؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ إسحاقُ بنُ مَنصُورٍ: وَقَالَ إسحَاقُ بنُ رَاهُويَه: هُوَ كَمَا قَالَ أحمَدُ»(١).

١٠- **وَعَن قَتَادَةَ عَن مُطَرِّفِ بن عَبدِ الله بن الشِّخِّيرِ** ﷺ **قَالَ:** «حَظٌّ من عِلمٍ أَحَبُّ إلَيَّ مِن حَظٍّ مِن عِبَادَةٍ، ولأَن أُعَافَىٰ فَأشكُرَ، أحَبُّ إلَيَّ مِن أَن أُبتَلَىٰ فَأصبِرَ، ونَظَرتُ في الخَيرِ الَّذي لا شَرَّ فيهِ، فَلَم أَرَ مِثلَ المعَافَاةِ والشُّكرِ»(٢).

١١- **وَعَن أَبِي مُسْلِمٍ الخَولانِيِّ** رَحِمَهُ اللهُ **قَالَ:** «مَثَلُ العُلَمَاءِ فِي الأرضِ مَثَلُ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، إذَا بَدَت لِلنَّاسِ اهتَدَوا بِهَا، وإذَا خَفِيَت عَلَيهِم تحَيَّرُوا»(٣).

١٢- **وَقَالَ الشَّافِعيُّ** رَحِمَهُ اللهُ: «طَلَبُ العِلمِ أَفضَلُ مِن صَلاةِ النَّافِلَةِ».

وَقَالَ: «مَن أَرَادَ الدُّنيَا فَعَلَيهِ بِالعِلمِ، ومَن أرَادَ الآخرةَ فعليهِ بالعلمِ».

وَقَالَ: «مَن لا يُحِبُّ العِلمَ فَلا خَيرَ فيهِ، فَلا يكن بَينَكَ وبَينَهُ مَعرِفَةٌ ولا صَدَاقَةٌ».

وَقَالَ: «إن لَم يَكُنِ الفُقَهَاءُ العَامِلُونَ أَولِيَاءَ الله فَلَيسَ لله وَلِيٌّ».

وَقَالَ: «مَا أَحَدٌ أَورَعَ لِخَالِقِهِ منَ الفُقَهَاءِ».

---

(١) «جامع بين العلم وفضله» (١/ ٢٤) وقتادةُ لم يسمع ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٤).

(٣) «المجموع» للنووي (١/ ٤١).

وَقالَ: «مَن تَعَلَّمَ القُرآنَ عَظُمَت قِيمَتُهُ، وَمَن نَظَرَ فِي الفِقهِ نَبُلَ قَدرُهُ، وَمَن نَظَرَ في اللُّغَةِ رقَّ طَبعُهُ، ومَن نَظَرَ في الحِسَابِ جَزُلَ رَأيُهُ، ومَن كَتبَ الحَديثَ قَويَت حُجَّتُهُ، ومَن لَم يَصُن نَفسهُ لَم يَنفَعهُ عِلمُهُ»(١).

١٣ - **وَقَالَ الشافعيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيسَ شَيءٌ بَعدَ الفَرَائِضِ أفضَلَ مِن طَلَبِ العِلمِ».

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا الذي ذَكَرَهُ أصحابُهُ عنه أنَّه مذهبُهُ، يعني في أفضلِ الأعمالِ بعد الفرائضِ، وكذلك قال سفيانُ الثوريُّ».

وحكاه الحنفيةُ عن أبي حنيفةَ.

وأمَّا الإمامُ أحمدُ فحكِيَ عنه ثلاثُ رواياتٍ:

إحداهُنَّ: أنَّ أفضلَ الأعمالِ بعد الفرائضِ طلبُ العلمِ، فإنَّه قيل له: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك: أجلسُ بالليلِ أنسخُ أو أصلِّي تطوعًا؟ قال: نَسخُك تعلمُ به أمورَ دينكَ، فهو أحبُّ إليَّ.

وذَكَرَ الخلالُ عنه في كتاب «العلم» نصوصًا كثيرةً في تفضيلِ العلمِ.

ومن كلامِهِ فيه: النَّاسُ إلىٰ العلمِ أحوجُ منهم إلىٰ الطعامِ والشرابِ.

والروايةُ الثانيةُ: أنَّ أفضلَ الأعمالِ بعد الفرائضِ صلاةُ التطوعِ، واحتجَّ لهذه الروايةِ بقوله ﷺ: «**وَاعلَمُوا أنَّ خَيرَ أعمَالِكُمُ الصلَاةُ**»(٢) وبقولِهِ ﷺ في حديثِ أبي ذرٍّ

(١) «المجموع» للنووي (١/ ٤٢).

(٢) رواه ابن ماجه (٢٧٧)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٥١)، وصحَّحه المنذري في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٩٩) وقال: «رواه ابن ماجه بإسناد صحيحٍ»، والحاكمُ =

وقد سأله عن الصلاةِ فقال: «**خَيرٌ مَوضُوعٌ**»(١) وبأنَّه أوصىٰ مَن سأله مُرَافَقَتَهُ في الجنَّةِ بكثرةِ السجودِ(٢) وهو الصلاةُ.

وكذلك قولُهُ ﷺ في الحديثِ الآخَرِ: «**عَليكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ، فَإنَّكَ لا تَسجُدُ لله سَجدَةً إلا رَفَعَكَ الله بِهَا دَرَجَةً، وحَطَّ عَنكَ بِهَا خَطيئَةً**»(٣)، وبالأحاديثِ الدالَّةِ علىٰ تفضيل الصلاةِ.

والروايةُ الثالثةُ: أنَّه الجهادُ، فإنَّه ﷺ قال: «**لا أَعدِلُ بِالجِهَادِ شَيئًا، وَمَن ذا يُطِيقُهُ**»(٤).

ولا ريبَ أنَّ أكثرَ الأحاديثِ في الصلاةِ والجهادِ.

=

وقال: «صحيحٌ علىٰ شرطهما»، ووافقه الذهبي، وقد أُعِلَّ بالانقطاعِ ولكنه ورد موصولًا من عدَّةِ طُرُقٍ، استوفاها الألباني في «إرواء الغليل» رقم (٤١٢)، وقال: «صحيح وقد ورد عن جماعةٍ من الصحابةِ منهم ثوبان وعبد الله بن عمرو وأبو أمامة وجابر بن ربيعة الجرشي».

(١) وأيضًا: «خَيرُ موضوعٍ» رواه أحمد (٥/ ١٧٨)، (٥/ ١٧٩)، ورواه الحاكم (٢/ ٢٨٢)، وقال: «صحيحُ الإسناد ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي، وانظر: «عمدة التفسير» (٢/ ١٥٧). والحديث حسَّنَه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ١٥٤)، وقال: أخرجه الطيالسي وأحمد والحاكم من طريقين عن أبي ذرٍّ، وأخرجه أحمد وغيره عن أبي أمامة، فالحديثُ حسنٌ إن شاء الله، وحسَّنه أيضًا في «صحيح الجامع الصغير» (٣٧٦٤).

(٢) رواه مسلم (٤٨٩) من حديث ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه.

(٣) رواه مسلم (٤٨٨) من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٤) بنحوٍ من هذا اللفظ أخرجه البخاري (٢٦٣٣) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ومسلم (١٨٧٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وأمَّا مالكٌ؛ فقال ابنُ القاسم: سمعتُ مالكًا يقولُ: إنَّ أقوامًا ابتغَوا العبادَة وأضاعوا العلمَ، فخرجوا علىٰ أمَّة محمدﷺ بأسيافهم، ولو ابتغوا العلم لحَجَزَهم عن ذلك.

وقال ابنُ وَهبٍ: كنتُ بين يدي مالكِ بن أنسٍ فوضعتُ ألواحي، وقمتُ إلىٰ الصلاةِ، فقال: ابن وهبٍ! ما الذي قُمتَ إليه بأفضلَ من الذي تركتَهُ.

قال شيخُنا -يريد: شيخَ الإسلامِ ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ-: وهذه الأمورُ الثلاثةُ التي فَضَّلَ كلُّ واحدٍ من الأئمةِ بعضها، وهي الصلاةُ والعلمُ والجهادُ، هي التي قال فيها عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه: لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحببتُ البقاءَ فيها، لولا أن أحملَ، أو أُجَهِّزَ جيشًا في سبيل الله، ولولا مكابدةُ هذا الليلِ، ولولا مجالسةُ أقوامٍ ينتقون أطايبَ الكلامِ كما يُنتقىٰ أطايبُ الثمرِ لما أحببتُ البقاءَ. فالأولُ: الجهادُ والثاني: قيامُ الليلِ، والثالثُ: مذاكرةُ العلمِ.

فاجتمعت في الصحابةِ بكمالهم، وتفَّرقت فيمَن بعدهم»[(١)].

١٤- وعَن سُفيَان بنِ عُيَينَةَ قَالَ: قَالَ عُمَرُ بنُ عَبدِ العَزيزِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن عَمِلَ فِي غَيرِ عِلمٍ، كَانَ مَا يُفسِدُ أَكثَرَ مِمَّا يُصلِحُ»[(٢)].

١٥- وَقَالَ عَبدُ الله بنُ وَهبٍ صاحبُ مَالِكٍ: «كَانَ أَمرِي في العِبَادَةِ قَبلَ طَلَبِ العِلمِ، فَوَلِعَ بِي الشَّيطَانُ فِي ذِكرِ عِيسَىٰ بن مَريَمَ، كَيفَ خَلَقَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ وَنَحوُ هَذَا،

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٩١).

(٢) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٧).

فَشَكَوتُ ذَلِكَ إِلَىٰ شَيخٍ، فَقَالَ لِي: ابنَ وَهبٍ! قُلتُ: نَعَم، قَالَ: اطلُبِ العِلمَ، فَكَانَ سَبَبَ طَلَبِي لِلعِلمِ»[١].

١٦- **وَسُئِلَ ابنُ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ**: «مَنِ النَّاسُ؟ قَالَ: العُلَمَاءُ. قِيلَ: فَمَنِ المُلُوكُ؟ قَالَ: الزُّهَادُ، قِيلَ: فَمَنِ السِّفلَةُ[٢]؟ قَالَ: الَّذي يَأكُلُ بِدِينِهِ»[٣].

١٧- **وعَن وَهبِ بنِ مُنَبِّهٍ قالَ**: «يَتَشَعَّبُ مِنَ العِلمِ الشَّرَفُ، وَإِن كَانَ صَاحِبُهُ دَنِيئًا، وَالعِزُّ وَإِن كَانَ مَهينًا، والقُربُ وَإِن كَانَ قَصيًّا، وَالغِنَىٰ وَإِن كَانَ فَقِيرًا، وَالنُّبْلُ وَإِن كَان حَقِيرًا، وَالمهَابَةُ وَإِن كَانَ وَضِيعًا، والسَّلامَةُ وَإِن كَانَ سَفِيهًا»[٤].

١٨- **وَقَالَ أبو إسحَاقَ إبرَاهِيمُ بنُ إسحاقَ الحَربِيُّ**: «كَانَ عَطَاءُ بنُ أَبِي رَبَاحٍ عَبدًا أسوَد لامرَأةٍ مِن أَهلِ مَكَّةَ، وَكَانَ أَنفُهُ كَأَنَّهُ بَاقِلاةٌ[٥] قَالَ: وَجاءَ سُلَيمَانُ بنُ عَبْدِ المَلِكِ أَمِيرُ المؤمنينَ إِلَىٰ عَطَاءٍ، هُوَ وَابنَاهُ فَجَلَسُوا إِلَيهِ وَهُوَ يُصَلِّي، فَلَمَّا صَلَّىٰ انفَتَلَ إِلَيهِم فَمَا زَالُوا يَسأَلُونَهُ عَن مَنَاسِكِ الحَجِّ، وَقَد حَوَّلَ قَفَاهُ إِلَيهِم، ثُمَّ قَالَ سُلَيمَانُ لابنَيهِ: قُومَا، فَقَامَا، وَقَالَ: يَا ابنَيَّ، لا تَنيَا فِي طَلَبِ العِلمِ، فَإِنِّي لا أَنسَىٰ ذُلَّنَا بَينَ يَدَي هَذَا العَبدِ الأَسوَدِ»[٦]، وعطاءٌ هو أبو محمدٍ، وكان مُفَلفَلَ الشَّعرِ، أسودَ، أفطَسَ، أَشَلَّ، أعورَ ثم عَمِيَ، وكان مولىٰ فِهرٍ، أو جُمَحٍ.

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ٢٦).

(٢) السِّفْلَةُ: السُّقَّاطُ من الناس، فلانٌ من سِفْلَةِ القوم إذا كان من أراذِلِهم.

(٣) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٤٠٠).

(٤) «المجموع» للنووي(١/ ٤٢).

(٥) البَاقِلاءُ: الفولُ، واحِدَتُهُ: بَاقِلاةٌ وبَاقِلاءَةٌ.

(٦) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (١/ ٣١).

١٩-وَقَالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيِّبِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَيسَت عِبَادَةُ الله بالصَّومِ والصَّلاةِ، وَلَكِن بالفِقهِ في الدِّينِ».

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا الكلامُ يُراد به أمران:

أحدهُما: أنَّها -أي: عبادةُ الله- ليست بالصومِ والصلاةِ الخاليين عن العلمِ، ولكن بالفقهِ الذي يُعلم به كيف الصومُ والصلاةُ.

الثاني: أنَّها ليست الصومَ والصلاةَ فقط، بل الفقهُ في دينهِ من أعظم العِباداتِ»[(١)].

٢٠- وَقَالَ سُفيَانُ بنُ عُيَينَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَرفَعُ النَّاسِ مَنزِلَةً عِندَ الله مِن كَانَ بَينَ الله وبَينَ عِبَادِهِ، وَهُمُ الرُّسُلُ والعُلَماءُ»[(٢)].

٢١- وَقَالَت امرأةٌ لإبراهيمَ النَّخَعِيِّ: يَا أَبَا عِمرَانَ: أَنتُم مَعشَرَ العُلَمَاءِ أَحَدُّ النَّاسِ، وَألوَمُ النَّاسِ. فَقَالَ لَهَا: أَمَّا مَا ذَكَرتِ مِن الحِدَّةِ، فَإنَّ العِلمَّ مَعَنَا وَالجَهلَ مَعَ مُخَالِفِينَا، وَهُم يَأبَونَ إلا دَفعَ عِلمِنَا بِجَهلِهِم، فَمَن ذَا يَطِيقُ الصَّبرَ عَلَىٰ هَذَا؟ وَأَمَّا اللَّومُ، فَأَنتُم تَعلَمُونَ تَعَذُّرَ الدِّرهَمِ الحلالِ، وَإنَّا لا نبتغي الدِّرْهَمَ إلا حَلالًا، فَإذَا صَارَ إِلَينَا لَم نُخرِجهُ إلا فِي وَجهِه الَّذي لابُدَّ مِنهُ»[(٣)].

٢٢- وَقَالَ سَهلُ بنُ عَبدِ الله التُّستَرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن أَرَادَ النَّظَر إلَىٰ مَجَالِسِ الأنبياءِ فَلينَظُرْ إلَىٰ مَجَالِسِ العُلَمَاءِ».

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٨٩).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٩٠).
(٣) «جامع بيان العلم» (١/ ٦٠).

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا لأنَّ العلماءَ خلفاءُ الرسُلِ في أممهم، ووارثُوهم في علمهم، فمجالسُهم مجالسُ خلافةِ النبوة»[(١)].

٢٣- **وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا عُبِدَ الله بِمِثلِ الفِقهِ».

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الكلامُ ونحوُهُ، يرادُ به أنَّه ما يُعبَدُ الله بمثلِ أن يُتَعَبَّدَ بالفقهِ في الدِّينِ، فيكون نفسُ التفقُّهِ عبادةً، وقد يُرادُ به: أنَّه مَا عُبِدَ الله بعبادةٍ أفضلَ من عبادةٍ يصحبُها الفقهُ في الدِّينِ؛ لعلمِ الفقيه في دينه بمراتبِ العباداتِ، ومفسداتها وواجباتِها، وسننها، وما يكمِّلُها، وما ينقصها، وكلا المعنيين صحيحٌ»[(٢)].

٢٤- **وَقَالَ أَبُو الأسودِ الدُّؤليُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَيسَ شَيءٌ أَعَزَّ مِنَ العلمِ؛ المُلُوكُ حُكَّامٌ عَلَىٰ النَّاسِ، وَالعُلَمَاءُ حُكَّامٌ عَلَىٰ المُلُوكِ»[(٣)].

٢٥- **وعَن أَبِي هُرَيرَةَ وَأبي ذَرٍّ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا **قالا**: «بَابٌ مِنَ العِلمِ نتَعَلَّمُهُ، أَحَبُّ إلينَا مِن أَلفِ رَكعَةٍ تَطَوُّعٍ، وَبَابٌ مِنَ العِلمِ نَعلَمُهُ عُمِلَ بهِ أَو لَم يُعمَل بِهِ، أَحَبُّ إِلَينَا مِن مائةِ رَكعَةٍ تطَوُّعٍ»[(٤)].

قال ابنُ جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ظهر بما ذكرناه، أنَّ الاشتغالَ بالعلمِ لله أفضلُ من نوافل العباداتِ البدنيةِ؛ من صلاةٍ وصيامٍ وتسبيحٍ ودعاءٍ ونحوِ ذلك، لأنَّ نفعَ

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٩١).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٩٠).
(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص١٠).
(٤) «جامع بيان العلم» (١/ ٢٥).

العلمِ يعمُّ صاحبَه والنَّاسَ، والنوافلُ البدنيةُ مقصورةٌ علىٰ صاحبِها، ولأنَّ العلمَ مُصَحِّحٌ لغيرِهِ من العباداتِ، فهي تفتقرُ إليه وتتوقَّفُ عليه، ولا يتوقَّفُ هو عليها، ولأنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ -عليهم الصلاةُ والسلامُ-، وليس ذلك للمتعبدين، ولأنَّ طاعةَ العالِمِ واجبةٌ علىٰ غيرِهِ فيه، ولأنَّ العلمَ يبقىٰ أثَرُهُ بعد موتِ صاحبِهِ، وغيرهُ من النوافِلِ تنقطعُ بموتِ صاحبِها، ولأنَّ في بقاءِ العلم إحياءَ الشريعةِ، وحفظَ معالمِ الملَّةِ»[١].

٢٦- **وَعَن أَبِي العَالِيَةِ -رحمه الله تعالىٰ- قَالَ:** «كُنتُ آتِي ابنَ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما وَهُوَ عَلَىٰ سَريرِهِ، وَحولَهُ قُرَيشٌ، ففَطِنَ لَهَا ابنُ عَبَّاسٍ، فَقَالَ: كَذَاكَ هَذَا العِلمُ، يزيدُ الشَّرِيفَ شَرفًا، ويُجلِسُ المَملُوكَ عَلَىٰ الأَسِرَّةِ»[٢].

٢٧- **وَقَـالَ أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ إسحاقَ الحربيُّ:** «كَانَ عُنُقُ محمَّدِ بن عبد الرحمن الأوقَصِ دَاخِلًا في بَدَنِهِ، وَكَان مَنكبَاهُ خَارِجَينِ كَأَنَّهُمَا زَوجَانِ[٣]، فَقَالَت لَهُ أُمُّهُ: يَا بُنَيَّ لا تكونُ في قومٍ إلا كُنتَ المضحُوكَ مِنهُ، المسخورَ بِهِ، فَعَلَيكَ بِطَلَبِ العِلم فَإِنَّهُ يَرفَعُكَ. قَالَ: فَطَلَبَ العِلمَ. قَالَ: فَوَلِي قَضَاءَ مَكَّةَ عِشرينَ سَنَةً، وَكَانَ الخَصمُ إِذَا جَلَسَ بَينَ يَدَيهِ يَرعدُ حَتَّىٰ يَقُومَ، قَالَ: وَمَرَّت بِهِ امرَأَةٌ يومًا، وَهُوَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ اعتق رَقَبَتِي مِنَ النَّارِ، فَقَالَت لَهُ: يَا ابْنَ أخي، فَأَيُّ رَقَبةٍ لَكَ»؟!

وقال محمدُ بنُ القاسمِ بن خَلادٍ: «كَانَ الأوقَصُ قَصيرًا دَميمًا قَبيحًا، قَالَ: فقَالَت

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٣).

(٢) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي(١/ ٣١).

(٣) زوجان: أي: فرخان من الحمامِ، وذلك من بروز منكبيه.

لِي أُمِّي -وكَانَت عَاقِلَةً-: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ خُلِقْتَ خِلقَةً لا تَصلُحُ لِمُعَاشَرَةِ الفتيَانِ، فَعليكَ بالدِّينِ فَإِنَّهُ يُتمُّ النَّقيصَةَ، ويَرفَعُ الخَسيسَةَ، فَنَفَعَنِي الله بِقَولِهَا، وتَعَلَّمتُ الفِقهَ، فَصِرتُ قَاضيًا»[1].

قَالَ فِي اللِّسَانِ: «الوَقَصُ -بالتحريكِ-: قِصَرُ العُنُقِ، كأَنَّما رُدَّ في جَوفِ الصدرِ، وهو أَوقَصُ، وامرأَةٌ وَقصَاءُ» «لسان العرب» مادة (وقص) (ص٤٨٩٢).

٢٨- **وعَن قَتَادَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ قال:** «بَابٌ مِنَ العِلمِ يَحفَظُهُ الرَّجُلُ بِصَلاحِ نَفسِهِ وصَلاحِ مَن بَعْدَهُ، أَفضَلُ مِن عِبَادَةِ حَولٍ»[2].

٢٩- **وَقَالَ سُفيَانُ الثَّورِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:** «مَا مِن عَمَلٍ أفضَلُ مِن طَلَبِ العِلمِ إذَا صَحَّت النِّيَّةُ»[3].

٣٠- **وَقَالَ التِّرمِذيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:** سَمِعتُ أَبَا عَمَّارٍ الحُسَينَ بنَ حُرَيثٍ الخُزَاعيَّ يَقُولُ: سَمِعتُ الفُضَيلَ بنَ عِيَاضٍ يَقُولُ: «عَالِمٌ عَامِلٌ مُعَلِّمٌ يُدعَىٰ كَبِيرًا فِي مَلَكُوتِ السَّمَواتِ»[4].

٣١- **وَرَوَىٰ الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بسَندِهِ عن عَبَّادِ بنِ مُوسىٰ الخَتَليِّ قَالَ:** «سَمِعتُ سُفيَانَ الثَّوريَّ رَحِمَهُ اللَّهُ إذَا رَأىٰ الشَّيخَ لَم يَكتُبِ الحَديثَ، قَالَ: لا جَزَاكَ الله عَن الإسلامِ خَيرًا».

(١) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (١/ ٣٢).
(٢) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (١/ ٢٣).
(٣) «جامع بيان العلم» (١/ ٢٥).
(٤) «سنن الترمذي» (٢٦٨٥).

وروىٰ عن الأعمش رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** «إذَا رَأيتَ الشَّيخَ لَم يَقرأ القُرآنَ، وَلَم يَكتُبِ الحَدِيثَ، فَاصفَع لَهُ، فَإِنَّهُ مِن شُيوخِ القَمَرِ.

قال أبو صالحٍ: قلتُ لأبي جعفرٍ: ما شيوخُ القمرِ؟

قال: شيوخٌ دَهريُّونَ، يجتمعونَ في ليالي القمرِ، يَتَذَاكَرُونَ أَيَّامَ النَّاسِ، ولا يُحسنُ أحَدُهم أَن يَتَوضَّأ للصَّلاةِ»(١).

٣٢- **وَقَالَ عَبدُ الله بنُ مُحَمَّدٍ البَغَوِيُّ** رَحِمَهُ اللَّهُ: «سَمِعتُ أبَا عَبدِ الله أحمدَ بنَ حَنبَلٍ رَحِمَهُ اللَّهُ يَقولُ: أَنَا أَطلُبُ العِلمَ حَتَّىٰ أَدخُلَ القَبرَ».

وقال الحسنُ بنُ منصورٍ الجَصَّاصُ: «قُلتُ لأحمد بن حَنبَلٍ: إِلَىٰ مَتَىٰ يَكتُبُ الرَّجُلُ الحَدِيثَ؟ قَالَ: حَتَّىٰ يَمُوتَ».

وَقِيلَ لعبدِ الله بن المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِلَىٰ كَم تَكتُبُ الحَديثَ؟ قَالَ: لَعَلَّ الكَلِمَةَ الَّتِي أَنتَفِعُ بِهَا لَم أسمَعْهَا بَعدُ»(٢).

٣٣- **وَقَالَ الشَّعبِي** رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا جَاءَكَ مِن أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَخُذْهُ، ودَع مَا يَقُولُ هَؤلاءِ الصَّعَافِقَةُ».

قيل: الصَّعَافِقَةُ: الذين يَدخلون السُّوقَ بِلا رأسِ مالٍ، وقيل: هم رُذَالَةُ النَّاسِ، أرادَ الذين لا عِلمَ لهم، فهُم بمنزلةِ التُّجَّارِ الذين ليسَ لَهُم رَأسُ مَالٍ»(٣).

(١) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص٦٧).

(٢) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب البغدادي (ص٦٨).

(٣) «شرح السنة» للبغوي (١/ ٣١٨).

٣٤- **وقال ابنُ القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «فضيلةُ الشيءِ وشرفُهُ يظهَرُ تارةً من عُمومِ منفعتِهِ، وتارةً من شدَّةِ الحاجةِ إليه وعَدَمِ الاستغناءِ عنه، وتارةً من ظُهورِ النَّقصِ والشَّرِّ بفقدِهِ، وتارةً من حصولِ اللَّذَّةِ والسرورِ والبهجةِ بوجودِهِ، لكونِهِ محبوبًا ملائمًا، فإدراكُه يُعقِبُ غايةَ اللَّذَّةِ وتارةً من كمالِ الثمرةِ المترتِّبةِ عليه وشَرَفِ عِلَّتِهِ الغَائيَّةِ، وإفضائِهِ إِلَىٰ أجَلِّ المطالبِ».

وهذه الوجوهُ ونحُوها تنشأُ وتظهرُ من مُتعلَّقِهِ، فإذا كان في نفسهِ كمالًا وشرفًا بقطع النظرِ عن مُتعلَّقاتِهِ، جَمَعَ جهاتِ الشرفِ والفضلِ في نفسهِ ومُتَعَلَّقَاتِهِ.

ومعلومٌ أنَّ هذه الجهاتِ بأسرِها حاصلةٌ للعلمِ، فإنَّه أعمُّ شيءٍ نفعًا، وأكثرُهُ وأدومُهُ، والحاجَةُ إليه فوقَ الحاجةِ إلىٰ الغذاءِ، بل فوق الحاجةِ إلىٰ التنفُّسِ، إذ غايةُ ما يُتَصَوَّرُ من فَقدِهما فَقدُ حياةِ الجسمِ، وأمَّا فَقدُ العلمِ ففيه فَقدُ حياةِ القلب والرُّوحِ، فلا غَنَاءَ للعبدِ عنه طَرفَةَ عَينٍ، ولهذا إذا فُقِدَ من الشخصِ كان شَرًّا من الحميرِ، بل كان شرًّا من الدَّوَابِّ عند الله، ولا شيءَ أنقَصُ منه حينئذٍ.

وأمَّا حصولُ اللَّذَّةِ والبهجةِ بوجودِه، فلأنَّه كمالٌ في نفسِه، وهو ملائمٌ غايةَ الملاءمةِ للنُّفوسِ، فإنَّ الجهلَ مرضٌ ونقصٌ، وهو في غايةِ الإيذاءِ والإيلامِ للنفسِ، ومَن لَم يَشعُر بهذه الملاءَمَةِ والمنافَرَةِ فهو لِفَقدِ حِسِّهِ وموتِ نَفسِهِ؛ «ومَا لِجُرحٍ بميِّتٍ إيلامُ»[1].

---

(١) عَجزُ بيتٍ لأبي الطيب المتنبي، صَدرُهُ:

مَنْ يَهُنْ يَسْهُلُ الْهَوَانُ عَلَيهِ

=

فحصولُهُ للنَّفسِ إدراكٌ منها لغايةِ محبوبها، واتصالٌ به، وذلك غايةُ لذَّتِها وفرحتِها، وهذا بحَسَبِ المعلومِ في نفسهِ، ومحبَّةِ النَّفسِ له، ولذَّتِها بقربهِ.

والعلومُ والمعلوماتُ متفاوتةٌ في ذلك أعظمَ التفاوتِ وأَبْيَنَهُ، فليسَ علمُ النفوسِ بفاطِرِهَا وباريها ومُبدعِها، ومحبَّتُهُ والتقرُّبُ إليه، كعلمها بالطبيعةِ وأحوالها وعوارضها وصحَّتِها وفسادِها وحركاتِها»[(١)].

٣٥- وَقَالَ أبو بكرٍ الهُذَليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: قالَ لي الزُّهرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«يَا هُذَلِيُّ! أَيُعجِبُكَ الحَديثُ؟ قَالَ: قُلتُ: نَعَم. قَالَ: أمَا إنَّهُ يُعجِبُ ذُكُورَ الرِّجَالِ، ويَكرَهُهُ مُؤَنَّثُوهُم»[(٢)].

وَقَالَ الزُّهرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَطلُبُ الحَديثَ مِن الرِّجَالِ إلا ذُكرَانُهَا، ولا يَزهَدُ فِيهِ إلا إنَاثُهَا»[(٣)].

٣٦- وَأَنْشَدَ أَبُو الفَضلِ العبَّاسُ بنُ محمدٍ الخراسانيُّ:

رَحَلتُ أطلُبُ أَصْلَ العِلمِ مُجْتَهِدًا وَزِينَةُ الْمَرءِ فِي الدُّنْيَا الأَحَادِيثُ

=

وهو من قصيدة يمدحُ بها عليَّ بن أحمد المرِّيَّ الخراساني مطلُعها:

لا افتخارٌ إلا لمن لا يُضامُ مُدْرِكٍ أو مُحَارِبٍ لا يَنَامُ

«شرح الديوان» للعكبري (٤/ ٩٢).

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٠٩).

(٢) «شرف أصحاب الحديث» (ص٧٠).

(٣) «شرف أصحاب الحديث» للخطيب (ص٧١).

لا يَطْلُبُ العِلْمَ إلا بَازِلٌ ذَكَرٌ ... وَلَيْسَ يُبْغِضُهُ إِلا الْمَخَانِيثُ
لا تُعْجَبَنَّ بِمَالٍ سَوْفَ تَتْرُكُهُ ... فَإِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا مَوَارِيثُ(١)

والبَازِلُ: الرَّجُلُ الكاملُ في تجربتِهِ.

٣٧- وقال ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أعظمُ الأسبابِ التي يُحرم بها العبدُ خيرَ الدنيا والآخرةِ، ولَذَّةَ النعيمِ في الدَّارين، ويدخل عليه عدوُّه منها: هو الغَفلَةُ المضادَّةُ للعلمِ، والكسلُ المضادُّ للإرادةِ والعزيمةِ، هذان أصلُ بلاءِ العبدِ وحرمانِهِ، منازلَ السعداءِ وهما من عَدم العِلمِ»(٢).

٣٨- ذَكَرَ ابنُ عبدِ البرِّ لبعضِ الأدباءِ قولَه:

رَأَيتُ العِلمَ صَاحِبُهُ شَرِيفٌ ... وَإِنْ وَلَدَتْهُ آبَاءٌ لِئَامُ
وَلَيسَ يَزَالُ يَرفَعُهُ إِلَىٰ أن ... يُعَظِّمَ قَدْرَهُ القَوْمُ الْكِرَامُ
وَيَتَّبِعُونَهُ فِي كُلِّ أَمرٍ ... كَرَاعِي الضَّأنِ تَتْبَعُهُ السَّوَامُ
وَيُحمَلُ قَولُهُ فِي كُلِّ أَمرٍ ... وَمَن يَكُ عَالِمًا فَهُوَ الإِمَامُ
فَلَولا العِلمُ مَا سَعِدَت نُفُوسٌ ... وَلا عُرِفَ الحَلالُ وَلا الحَرَامُ
فَبِالعِلمِ النَّجَاةُ مِنَ المَخَازِي ... وَبِالجَهْلِ المَذَلَّةُ وَالرغَامُ
هُوَ الهَادِي الدَّلِيلُ إِلَىٰ المَعَالِي ... وَمِصْبَاحٌ يُضِيءُ بِهِ الظَّلامُ
كَذَاكَ عَنِ الرَّسُولِ أَتَىٰ عَلَيهِ ... مِنَ اللهِ التَّحِيَّةُ وَالسَّلامُ(٣)

---

(١) «شرف أصحاب الحديث» (ص٧١)

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣٧٣).

(٣) «جامع بيان العلم» (١/ ٥٤).

٣٩- **وقال أبو جعفرٍ الطحاويُّ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنتُ عندَ أحمد بنِ أبي عِمران فَمَرَّ بنا رجلٌ من بني الدنيا، فنظرتُ إليه، وشُغلتُ به عمَّا كنتُ فيه من المذاكرةِ، فقال لي: كَأَنِّي بكَ قد فكَّرتَ فيما أُعطي هذا الرجلُ من الدنيا؟ قلتُ له: نعم، قال: هل أدُلُّكَ علىٰ خَلَّةٍ؟ هل لك أن يحوِّلَ الله إليك ما عندَهُ من المالِ، ويحوِّلَ إليه ما عندك من العلمِ، فتعيش أنتَ غنيًّا جاهلًا، ويعيشَ هو عالِمًا فقيرًا؟ فقلتُ: ما أختارُ أن يحوِّلَ الله ما عندي من العلمِ إلىٰ ما عندَهُ، فالعلمُ غِنًىٰ بلا مالٍ، وعِزٌّ بلا عشيرةٍ، وسلطانٌ بلا رجالٍ»[(١)].

٤٠- **وقال ابنُ القيِّمِ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لَّما كانَ في القلبِ قوَّتان؛ قوةُ العلمِ والتمييزِ، وقوَّةُ الإرادةِ والحبِّ، كان كمالُهُ وصلاحُهُ باستعمالِ هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحِهِ وسعادتِهِ.

فكمالُه باستعمالِ قوةِ العلمِ في الحقِّ ومعرفتِهِ، والتمييزِ بينه وبين الباطلِ، وباستعمالِ قوَّةِ الإرادةِ والمحبةِ في طلب الحَقِّ ومحبَّتِهِ، وإيثارِه علىٰ الباطلِ، فَمَن لم يعرف الحقَّ فهو ضالٌّ، ومَن عرفَه وآثرَ عليه غيرَهُ، فهو مغضوبٌ عليه، ومَن عرفَهُ واتَّبَعَهُ فهو مُنعَمٌ عليه»[(٢)].

٤١- أَنشَدَ أَحمَدُ بنُ غَزَالٍ:

الأَرضُ تَحيَا إِذَا مَا عَاشَ عَالِمُهَا ... مَتَىٰ يَمُتْ عَالِمٌ مِنهَا يَمُت طَرَفُ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٠٧).

(٢) «إغاثة اللهفان من مكايد الشيطان» لابن القيم (١/ ٢٤).

كَالأَرضِ تَحيَا إِذَا مَا الغَيثُ حَلَّ بِهَا   وَإِن أَبَىٰ عَاثَ فِي أَكنَافِهَا التَّلَفُ(١)

٤٢- **وقال ابنُ القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن نَالَ شيئًا مِن شَرَفِ الدنيا والآخرةِ فإنَّما نَالَهُ بالعِلْمِ، وتأمَّل مَا حَصَلَ لآدمَ مِن تمييزِهِ عَلَىٰ الملائكةِ واعترافِهم له بتعليمِ الله له الأسماءَ كلَّها، ثمَّ ما حَصَلَ له من تدارُكِ المصيبةِ والتعويضِ عن سُكنىٰ الجنَّةِ بما هو خيرٌ له منها بعلمِ الكلماتِ التي تلقَّاها من ربِّه.

وما حصل ليوسفَ من التمكينِ في الأرضِ والعزَّةِ والعظمةِ بعلمِهِ بتعبيرِ تلك الرؤيا، ثمَّ علمِهِ بوجوهِ استخراجِ أخيه من إخوتِهِ بما يُقرُّون ويَحكُمون هم به، حتىٰ آلَ الأمرُ إلىٰ ما آلَ إليه من العزِّ والعاقبةِ الحميدةِ وكمالِ الحالِ التي توصَّل إليها بالعلمِ، كما أشارَ إليه سبحانه في قولِهِ: ﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، جاء في تفسيرها: نرفعُ درجاتِ مَن نشاءُ بالعلمِ كما رفعنا درجةَ يوسفَ علىٰ إخوتِهِ بالعلمِ».

وقال في إبراهيم ﷺ: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام:٨٣]. فهذه رِفعَةٌ بعلمِ الُحجَّةِ، والأوَّلُ رِفعَةٌ بعلمِ السياسةِ.

وكذلك ما حَصَلَ للخَضِرِ بسببِ علمِهِ من تَلْمَذَةِ كليمِ الرحمنِ لهُ وتلطُّفِهِ معهُ في السؤالِ حتَّىٰ قال: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف:٦٦].

وكذلكَ ما حَصَلَ لسليمانَ من علمِ منطقِ الطَّيرِ حتَّىٰ وَصَلَ إِلَىٰ مُلكِ سبأ وقَهَرَ مَلِكَتَهم واحتوىٰ علىٰ سريرِ مُلكِها، ودخولها تحت طاعتِهِ، ولذلك قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٨٤٦).

ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [النمل:١٦].

وكذلك ما حَصَلَ لداودَ من علمِ نَسجِ الدُّروعِ من الوقايةِ من سلاحِ الأعداءِ، وعَدَّدَ سبحانه هذه النعمةَ بهذا العلمِ على عبادِه فقال: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء:٨٠].

وكذلك ما حَصَلَ للمسيحِ من علمِ الكتابِ والحكمةِ والتوراةِ والإنجيلِ ما رَفَعَهُ الله به إليه وفَضَّلَهُ وكَرَّمَهُ.

وكذلك ما حَصَلَ لسيِّد ولدِ آدم ﷺ من العلمِ الذي ذَكَرَهُ الله بِه نعمةً عليه، فقالَ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء:١١٣][1].

٤٣- ومما يُنسبُ لأميرِ المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه من الشِّعرِ قولُهُ:

الـنَّاسُ مِـن جِهَـةِ التَّمثِيل أكفَـاءُ … أَبُـوهُمُ آدَمُ والأُمُّ حَـوَّاءُ
نَفـسٌ كَـنَفسٍ وأَروَاحٌ مُـشَاكَلَةٌ … وَأَعْظُـمٌ خُلِقَـت فِـيهم وَأَعـضَاءُ
فَـإِن يَكُـن لَهُـمُ مِـن أَصلِهِم حَسَبٌ … يُفَاخِـرُونَ بِـهِ فَالطِّـينُ وَالمَـاءُ
مَـا الفَـضْلُ إلا لأَهـلِ العِلـمِ إنَّهُـمُ … عَلَـىٰ الهُـدَىٰ لِمَـنِ اسـتَهدَىٰ أَدِلاءُ
وَقَـدرُ كُـلِّ امـرِئٍ مَـا كَـانَ يُحسِنُهُ … والجَاهِلُـونَ لأَهـلِ العلـمِ أَعـدَاءُ
فَفُـز بِعِلـمٍ تَعِـشْ حَـيًّا بِـهِ أَبَـدًا … الـنَّاسُ مَوتَـىٰ وَأَهـلُ العِلـمِ أَحـيَاءُ

* * *

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٢١).

بابُ: بَيَانِ أنَّ العِلمَ أَفضَلُ مِنَ الْمَالِ

تقدَّم في نصيحةِ أميرِ المؤمنين عليٍّ ﷺ لِكُمَيلِ بن زيادٍ قولُهُ: «يَا كُمَيلُ، العِلمُ خَيرٌ مِنَ المَالِ، العِلمُ يَحرُسُكَ وَأنتَ تَحرُسُ المالَ، والمَالُ تَنقُصُهُ النَّفَقَةُ وَالعِلمُ يَزكُو عَلَىٰ الإنفَاقِ، العِلمُ حَاكِمٌ والمَالُ مَحكُومٌ عَلَيهِ».

وقدَّمتُ أنِّي سأنقُلُ بحولِ الله وقوتِهِ شرحَ الإمامِ ابن القيمِ لهذا القَدرِ من النصيحةِ، وهذا أوانُ الوفاء بالموعودِ، بعونِ الربِّ المعبودِ.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ ﷺ: «العِلمُ خَيرٌ مِنَ المَالِ، العِلمُ يَحرُسُكَ وَأنتَ تَحرسُ المَالَ»؛ يعني: أنَّ العلمَ يحفظُ صاحبَهُ ويحميه من مواردِ الهَلَكَةِ ومواقعِ العَطَبِ؛ فإنَّ الإنسانَ لا يُلقي نفسَه في هَلَكَةٍ إذا كان عقلُهُ معه، ولا يُعَرِّضُها لُمتلِفٍ إلا إذا كان جاهلًا بذلكَ، لا علمَ له بهِ، فهو كَمَن يأكُلُ طعامًا مسمومًا، فالعالِمُ بالسُّمِّ وضَرَرِهِ يحرسُهُ علمهُ، ويمتنعُ بهِ من أكلِهِ، والجاهلُ به يقتلُه جهلُهُ.

فهذا مَثَلُ حراسَةِ العلمِ للعالِمِ.

وكذا الطبيبُ الحاذقُ يمتنعُ بعلمهِ عن كثيرٍ ممَّا يجلبُ له الأمراضَ والأسقامَ، وكذا العالِمُ بمخاوفِ طريقِ سلوكِهِ ومعاطِبِها يأخذ حِذْرَهُ منها فيحرسُهُ علمُهُ من الهلاك، وهكذا العالِمُ بالله وبأمرِهِ، وبعدُوِّه ومكائدِهِ ومداخِلِهِ علىٰ العبدِ، يحرسُهُ علمُهُ من وساوسِ الشيطانِ وخَطَرَاتِهِ وإلقاءِ الشَّكِّ والرَّيبِ والكفرِ في قلبِهِ، فهو بعلمِهِ يمتنع من قبولِ ذلك،فعلمُهُ يحرسُهُ من الشيطانِ، فكلمَا جاءَه ليأخذَهُ صاحَ

به حَرَسُ العلمِ والإيمانِ، فيرجعُ خاسئًا خائبًا.

وأعظمُ ما يحرسُهُ من هذا العدوِّ المبينِ العلمُ والإيمانُ، فهذا السببُ الذي من العبدِ، واللهُ من وراءِ حفظِهِ وحراستِهِ وكلاءَتِهِ، فمتَىٰ وَكَلَهُ إلىٰ نفسِهِ طَرفَةَ عَينٍ تخطَّفَهُ عَدوُّهُ.

قال بعضُ العارفينَ: أجمعَ العارفونَ علَىٰ أنَّ التوفيقَ ألَّا يَكِلَكَ اللهُ إلىٰ نفسِك، وأجمعوا علىٰ أنَّ الخِذلانَ أنَّ يُخَلِّيَ بينكَ وبينَ نفسِكَ.

وقولهُ: «العِلمُ يَزكُو عَلَىٰ الإنفَاقِ، والمَالُ تَنقُصُهُ النَّفَقَةُ»؛ العالِمُ كلَّما بَذَلَ علمَهُ للنَّاسِ وأنفَقَ مِنه تفجَّرَت ينابيعُهُ فازداد كثرةً وقُوَّةً وظهورًا، فيكتسِبُ بتعليمه حفظَ مَا عَلِمَهُ، ويحصُلُ له بِهِ علمُ ما لَم يَكُن عندَهُ، وربَّما تكون المسألةُ في نفسهِ غيرَ مكشوفةٍ، ولا خَارجَةٍ من حَيِّزِ الإشكالِ، فإذا تكلَّمَ بها وعلَّمها اتَّضَحَت له وأضاءَت وانفتحَ له منها علومٌ أُخَرُ.

وأيضًا؛ فإنَّ الجزاءَ من جنسِ العملِ، فكما علَّمَ الخَلقَ من جهالتهم، جزاه الله بأن علمه من جهالتِهِ؛ كما في «صحيح مسلم» من حديث عياضِ بن حمارٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ في حديثٍ طويلٍ: «**إنَّ الله قَالَ لي: أَنفِق أُنفِق عَلَيْكَ**»(١) وهذا يتناولُ نَفَقَةَ العلمِ، إمَّا بلفظِهِ، وإما بتنبيهِهِ وإشارتِهِ وفحواهُ.

ولزكاءِ العلمِ ونحوِهِ طريقانِ:

أحدُهما: تعليمُهُ.

---

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

والثاني: العَمَلُ بهِ؛ فإنَّ العملَ بهِ أيضًا يُنَمِّيهِ ويُكَثِّرُهُ، ويفتحُ لصاحبِهِ أبوابَه وخباياه، وهذا لأنَّ تعليمَهُ والعملَ به هو التجارةُ فيه، فكما ينمو المالُ بالتجارةِ فيه، كذلك العلمُ.

وقولُهُ: «المَالُ تَنْقُصُهُ النَّفَقَةُ»، لا ينافي قولَ النبيِّ ﷺ: «**مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِن مَالٍ**»[١]؛ فإنَّ المالَ إذا تَصَدَّقتَ منه وأنفَقْتَ، ذهبَ ذلك القَدرُ وخَلَفَهُ غيرُهُ، وأمَّا العلمُ فكالقَبسِ من النَّارِ لو اقتبَسَ منه أهلُ الأرضِ لم يذهب منها شيءٌ، بل يَزيدُ العلمُ بالاقتباسِ منه، فهو كالعَينِ التي كلَّما أُخِذَ منها قويَ ينبوعُها وجاشَ مَعينُهَا.

وفضلُ العلمِ علىٰ المالِ يُعلَمُ من وجُوهٍ:

أحدُها: أنَّ العلمَ ميراثُ الأنبياءِ، والمالُ ميراثُ الملوكِ والأغنياءِ.

الثاني: أنَّ العلمَ يحرسُ صاحبَهُ، وصاحبُ المالِ يحرُسُ مَالَهُ.

الثالثُ: أنَّ المالَ تُذهِبُهُ النَّفقَاتُ، والعلمُ يزكو علىٰ النَّفَقَةِ.

الرابعُ: أنَّ صاحبَ المالِ إذا ماتَ فارَقَهُ مالُهُ، والعلمُ يدخُلُ معه قبرَهُ.

الخامسُ: أنَّ العلمَ حاكمٌ علىٰ المالِ، والمالُ لا يحكمُ علىٰ العلمِ.

السادسُ: أنَّ المالَ يحصُلُ للمؤمنِ والكافرِ والبَرِّ والفاجرِ، والعلمُ النافعُ لا يحصلُ إلا للمؤمنِ.

السابعُ: أنَّ العالِمَ يحتاجُ إليه الملوكُ فمَن دونَهُم، وصاحبُ المالِ إنَّما يحتاجُ

(١) رواه مسلم (٢٥٨٨).

إليه أهلُ العُدمِ والفاقَةِ.

الثَّامنُ: أنَّ النَّفسَ تَشرُفُ وتزكو بجمعِ العلمِ وتحصيلِهِ -وذلك من كمالها وشرفها- والمالُ لا يُزكِّيها ولا يكملها ولا يَزيدُها صِفَةَ كمالٍ، بل النَّفسُ تَنقُصُ وتَشِحُّ وتَبخَلُ بجمعِهِ، والحرصِ عليه، فَحِرصُها علىٰ العلمِ عينُ كمالِها، وحرصُها علىٰ المالِ عينُ نقصِها.

التاسعُ: أنَّ المالَ يدعوهَا إلَىٰ الطُّغيانِ والفخرِ والخُيَلاءِ، والعلمُ يدعوها إلىٰ التواضُعِ والقيامِ بالعبوديةِ، فالمالُ يدعوها إلىٰ صفاتِ الملوكِ، والعلمُ يدعوها إلىٰ صفات العبيدِ.

العاشرُ: أنَّ العلمَ جاذبٌ مُوَصِّلٌ لها إلىٰ سعادتِها التي خُلِقَت لها، والمالُ حِجَابٌ بينها وبينها.

الحادي عشر: أنَّ غِنَىٰ العلمِ أجلُّ من غِنَىٰ المالِ، فإنَّ غِنَىٰ المالِ غِنًىٰ بأمرٍ خارجيٍّ عن حقيقةِ الإنسانِ، لو ذَهَبَ في ليلةٍ أصبح فقيرًا مُعدَمًا، وغِنَىٰ العلمِ لا يُخشىٰ عليه الفقرُ، بل هو في زيادةٍ أبدًا، فهو الغِنىٰ العالي حقيقةً؛ كما قيل:

غَنِيتُ بِلا مَالٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِم وَإنَّ الغِنَىٰ العَالِي عَنِ الشَّيءِ لا بِهِ

الثاني عشر: أنَّ المالَ يَستعبِدُ مُحِبَّهُ وصاحِبَهُ فيجعلُهُ عبدًا له، كما قال النبيُّ ﷺ: «**تَعِسَ عَبدُ الدِّينَارِ وعَبدُ الدِّرهَمِ**...»[1] الحديثُ، والعلمُ يَستَعبِدُهُ لربِّه وخالِقِهِ، فهو لا يدعوه إلا إلىٰ عبوديةِ الله وحدَهُ.

---

(١) رواه البخاري (٢٧٣٠).

الثالثَ عَشَرَ: أنَّ حُبَّ العلمِ وطَلَبَهُ أصلُ كلِّ طاعةٍ، وحُبَّ الدنيا والمالِ وطَلَبَهُ أصلُ كلِّ سَيِّئَةٍ.

الرابعَ عَشَرَ: أنَّ قيمةَ الغنيِّ مالُهُ، وقيمةَ العالِمِ علمُهُ، فهذا مُتَقَوِّمٌ بمالِهِ، فإذا عُدِمَ مالُهُ عُدِمَت قيمتُهُ فَبَقِيَ بلا قيمةٍ، والعالِمُ لا تزولَ قيمتُهُ، بل هي في تضاعفٍ وزيادةٍ أبدًا.

الخامسَ عَشَرَ: أنَّ جَوْهَرَ المالِ من جنسِ جَوهَرِ البَدَنِ، وجَوهَرُ العلمِ من جنسِ جوهرِ الرُّوحِ، كما قال يونسُ بن حبيبٍ: علمُكَ من رُوحِكَ، ومالُكَ من بَدنكَ، والفرقُ بين الأمرين كالفَرق بين الرُّوحِ والبدَنِ.

السادسَ عشَرَ: أنَّ العالِمَ لو عُرِضَ عليه بحظِّهِ من العلم الدنيا بما فيها لم يَرضَهَا عِوَضًا من علمِهِ، والغَنِيُّ العاقلُ إذا رأىٰ شَرَفَ العِلمِ وفضلَهُ وابتهاجَهُ بالعلمِ وكمالَهُ بهِ يودُّ لَو أنَّ له علمَهُ بغناهُ أجمعَ.

السابعَ عشَرَ: أنَّه ما أطاعَ الله أحدٌ قطُّ إلا بالعلمِ، وعامَّةُ من يَعصيهِ إنَّما يَعصيه بالمالِ.

الثامنَ عَشَرَ: أنَّ العالِمَ يدعو النَّاسَ إلىٰ الله بعلمِهِ وحالِهِ، وجامعَ المالِ يدعوهم إلىٰ الدنيا بحالِهِ ومالهِ.

التاسعَ عَشَرَ: أنَّ غِنَىٰ المالِ قد يكونُ سَبَبَ هلاكِ صاحبِهِ كثيرًا؛ فإنَّه معشوقُ النفوسِ، فإذا رَأت مَن يستأثرُ بمعشوقها عليها سَعَت في هلاكِهِ كما هو الواقعُ، وأمَّا غِنىٰ العلمِ فَسَببُ حياةِ الرَّجُلِ وحياةِ غيرهِ بهِ، والنَّاسُ إذا رَأَوا مَن يستأثرُ

عليهم به ويطلبُهُ أحَبُّوهُ وخدموه وأكرموه.

العشرون: أنَّ اللَّذَّةَ الحاصلةَ من غِنىٰ المالِ إمَّا لذَّةٌ وهميَّةٌ وإمَّا لذَّةٌ بهيميَّةٌ.

فإنْ صاحبُهُ التذَّ بنفسِ جمعِهِ وتحصيلِهِ فتلك لَذَّةٌ وهميَّةٌ خياليَّةٌ.

وإنِ التذَّ بإنفاقِهِ في شهواتِهِ فهي لذَّةٌ بهيميَّةٌ.

وأمَّا لذَّةُ العلمِ فلذَّةٌ عقليَّةٌ رُوحانيَّةٌ، تُشبِهُ لَذَّةَ الملائكةِ وبَهجتَها.

وفرقٌ ما بين اللَّذَّتين.

الحادي والعشرون: أنَّ عقلاءَ الأُمم مُطبِقون علىٰ ذَمِّ الشَّرِهِ في جمعِ المالِ الحريصِ عليه، وتَنقُّصِهِ والإزراءِ به، ومُطبِقُونَ علىٰ تعظيمِ الشَّرِهِ في جمعِ العلمِ وتحصيلِهِ ومدحِهِ ومحبَّتِهِ ورؤيتِهِ بعينِ الكمالِ.

الثاني والعشرون: أنَّهم مُطْبِقُون علىٰ تعظيمِ الزاهدِ في المالِ، المعرضِ عن جمعِهِ، الذي لا يلتفتُ إليه ولا يجعلُ قلَبه عبدًا له، ومُطبِقون علىٰ ذَمِّ الزاهدِ في العلمِ الذي لا يلتفتُ إليه ولا يحرصُ عليه.

الثالثُ والعشرون: أنَّ المالَ يُمدَحُ صاحبُهُ بتخلِّيهِ منه وإخراجِهِ، والعلمُ إنَّما يُمدحُ بتحلِّيهِ به واتِّصَافِهِ بهِ.

الرابعُ والعشرون: أنَ غِنىٰ المالِ مقرونٌ بالخوفِ والحُزنِ، فهو حزينٌ قبل حصولِهِ، خائفٌ بعد حصولِهِ وكلَّما كان أكثرَ كان الخوفُ أقوىٰ، وغِنىٰ العلمِ مقرونٌ بالأمنِ والفرحِ والسرورِ.

الخامسُ والعشرون: أنَّ الغَنِيَّ بمالِهِ لابُدَّ أن يفارقَه غِناه، فيتعذَّبَ ويتألَّمَ بمفارقتِهِ، والغِنَىٰ بالعلمِ لا يزولُ، ولا يتعذَّبُ صاحبُهُ ولا يتألَّمُ، فلذَّةُ الغِنىٰ بالمالِ لَذَّةٌ زائلَةٌ منقطعَةٌ يعقُبُها الألمُ، ولذَّةُ الغنىٰ بالعلم لذَّةٌ باقيةٌ مستمرَّةٌ لا يلحقها ألمٌ.

السادس والعشرون: أنَّ استلذاذ النفسِ وكمالَها بالغنىٰ استكمالٌ بعاريةٍ مُؤدَّاةٍ، فتجمُّلُها بالمالِ تَجَمُّلٌ بثوبٍ مستعارٍ لابُدَّ أن يرجعَ إلىٰ مالكِهِ يومًا ما، وأمَّا تجمُّلُها بالعلمِ وكمالُها به فتجمُّلٌ بصفَةٍ ثابتةٍ لها راسخةٍ فيها لا تفارقُها.

السابعُ والعشرون: أنَّ الغِنَىٰ بالمالِ هو عَينُ فَقرِ النَّفسِ، والغِنىٰ بالعلمِ هو عَينُ غِنىٰ النَّفسِ، فهو غِناها الحقيقيُّ، فغِناها بعلمِها هو الغِنىٰ، وغِناها بمالِها هو الفقرُ.

الثامنُ والعشرون: أنَّ مَن أُكرِمَ لمالِهِ إذا زالَ مالُهُ زالَ تقديمُهُ وإكرامُهُ، ومَن قُدِّمَ وأُكرِمَ لعلمِهِ فإنَّه لا يزدادُ إلا تقديمًا وإكرامًا.

التاسعُ والعشرون: أنَّ تقديمَ الرَّجُلِ لماله هو عَينُ ذَمِّهِ، فإنَّه نداءٌ عليه بنقصِه، وأنَّه لولا مالُهُ لكان مستحقًّا للتَّأَخُّرِ والإهانةِ، وأمَّا تقديمُهُ وإكرامُهُ لعلمهِ فإنَّه عينُ كمالِهِ؛ إذ هو تقديمٌ له بنفسهِ وبصفتِهِ القائمةِ به، لا بأمرٍ خارجٍ عن ذاتِهِ.

الوجهُ الثلاثون:أنَّ طالبَ الكمالِ بغنىٰ المالِ كالجامعِ بين الضِّدَّين، فهو طالبٌ ما لا سبيلَ إليه.

وبيانُ ذلكَ:

أنَّ القُدرَة صِفَةُ كمال، وصفةُ الكمالِ محبوبةٌ بالذَّاتِ، والاستغناءُ عن الغير أيضًا صفةُ كمالٍ محبوبةٌ بالذَّاتِ، فإذا مالَ الرَّجُلُ بطبعهِ إلىٰ السَّخَاوَةِ والجُودِ

وفِعلِ المكرُمَاتِ، فهذَا كمالٌ مطلوبٌ للعقلاءِ، محبوبٌ للنُّفوسِ، وإذا التَفَتَ إلىٰ أنَّ ذلك يقتضي خروجَ المالِ من يده، وذلك يُوجِبُ نَقصَهُ واحتياجَه إلىٰ غيره وزوالِ قدرتِهِ نَفَرَت نفسُه عن السخاءِ والكرمِ والجودِ واصطناعِ المعروفِ، وظنَّ أنَّ كمالَه في إمساكِ المالِ، وهذه البليَّةُ أمرٌ ثابتٌ لعامَّةِ الخَلقِ، لا ينفكُّونَ عنها.

فلأجلِ مَيلِ الطَّبعِ إلىٰ حصولِ المدحِ والثناءِ والتعظيمِ بحُبِّ الجودِ والسخاءِ والمكارِمِ، ولأجلِ فَوتِ القدرةِ الحاصلةِ بسبب إخراجِهِ والحاجةِ المنافيةِ لكمالِ الغِنَىٰ يُحِبُّ إبقاءَ مالِهِ، ويكره السَّخَاءَ والكرمَ والجودَ فيبقىٰ قلبُهُ واقفًا بين هَذَين الدَّاعيينِ يتجاذبانه، ويعتَورَان عليه، فيبقىٰ القلبُ في مقامِ المعارضَةِ بينهما، فمِنَ النَّاسِ مَن يترجَّحُ عندهُ جانبُ البَذلِ والجودِ والكرمِ فَيؤثرُهُ علىٰ الجانبِ الآخرِ، ومنهم مَن يترجَّحُ عنده جانبُ الإمساك، وبقاء القدرة والغنىٰ، فيؤثرُهُ.

فهذان نظران للعقلاءِ.

ومنهم مَن يبلُغ به الجهلُ والحماقةُ إلىٰ حيث يريدُ الجمعَ بين الوجهين، فَيَعِدُ النَّاسَ بالجودِ والسخاءِ والمكارِمِ، طمعًا منه في فوزِهِ بالمدحِ والثناءِ علىٰ ذلك، وعند حضور الوقتِ لا يفي بما قال؛ فيستحقُّ الذَمَّ، ويبذُلُ بلسانه، ويُمسك بقلبهِ ويدِهِ فيقعُ في أنواعِ القبائحِ والفضائحِ.

وإذا تأمَّلتَ أحوالَ أهلِ الدنيا من الأغنياءِ رأيتَهم تحت أسرِ هذه البليَّةِ وهم غالبًا يبكونَ ويشكُونَ.

وأمَّا غَنِيُّ العلمِ فلا يعرِضُ له شيءٌ من ذلك، بل كلَّما بَذَلَه ازدادَ ببذله فرحًا وسرورًا وابتهاجًا، والعالِمُ وإن فاتتهُ لذَّةُ أهلِ الغِنَىٰ وتَمتُّعُهم بأموالهم فهُم أيضًا

قد فاتتهم لذَّةُ أهلِ العلمِ، وتمتُّعُهم بعلومهم، وابتهاجُهم بها.

فمعَ صاحبِ العلمِ من أسباب اللَّذَّةِ ما هو أعظمُ وأقوىٰ وأدوَمُ من لذَّةِ الغنىٰ، وتعبُهُ في تحصيلِهِ وجمعِهِ وضبطِهِ أقلُّ من تَعَبِ جامعِ المال، فجمعُهُ وألمه دون ألمِهِ، كما قال تعالىٰ للمؤمنين تسليةً لهم بما ينالُهم من الألمِ والتعبِ في طاعتِهِ ومرضاتِهِ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٠٤].

الحادي والثلاثون: أنَّ اللَّذَّةَ الحاصلةَ من المالِ والغنىٰ إنَّما هي حالَ تجدُّدِهِ فقط، وأمَّا حَالَ دوامِهِ، فإمَّا أن تذهب تلك اللَّذَّةُ، وإمَّا أن تنقُصَ، ويدلُّ عليه أنَّ الطَّبْعَ يبقىٰ طالبًا لغنًىٰ آخرَ حريصًا عليه فهو يحاولُ تحصيلَ الزيادةِ دائمًا، فهو في فقرٍ مستمرٍّ غير مُنتقَضٍ، ولو مَلَكَ خزائِنَ الأرضِ، ففقرُهُ وطلبُهُ وحِرصُهُ باقٍ عليه، فإنَّه أحدُ المنهومَينِ اللَّذَينِ لا يشبعان، فهو لا يفارقهُ ألمُ الحرصِ والطَّلَبِ.

وهذا بخلافِ غَنِيِّ العلمِ والإيمانِ، فإنَّ لذَّتَهُ في حالِ بقائِهِ مثلُها في حالِ تجدُّدِهِ، بل أَزيَدُ وصاحبُها -وإن كان لا يزالُ طالبًا للمزيدِ حريصًا عليه- فطلبُهُ وحرصُهُ مُستصحَبٌ لِلَذَّةِ الحاصلِ، ولذَّةِ المرجوِّ المطلوبِ، ولذَّةِ الطَّلَبِ وابتهاجِهِ وفرحِهِ بِهِ.

الثاني والثلاثون: أنَّ غِنَىٰ المالِ يستدعي الإنعامَ علىٰ النَّاسِ والإحسانَ إليهم، فصاحبُهُ إمَّا أن يسُدَّ علىٰ نفسِهِ هذا البابَ، وإمَّا أن يَفتَحَه عليه، فإن سَدَّهُ علىٰ نفسِهِ اشتَهَرَ عندَ النَّاسِ بالبُعدِ من الخيرِ والنفعِ، فأبغضوه وذمُّوهُ واحتقروهُ، وكلُّ مَن كانَ بغيضًا عندَ النَّاسِ حقيرًا لديهم كانَ وصولُ الآفاتِ والمضرَّاتِ إليه أسرَعَ من النَّارِ في

الحَطَبِ اليابسِ، ومن السَّيلِ في منحَدرِه، وإذا عَرَفَ من الخَلقِ أنَّهم يَمقُتونه ويُبغضونه ولا يقيمون له وزنًا تألَّمَ قلبُه غايةَ التألُّمِ وأُحضِرَ الهمومَ والغمومَ والأحزانَ.

وإن فتحَ بابَ الإحسانِ والعطاءِ فإنَّه لا يُمكنه إيصالُ الخيرِ والإحسان إلىٰ كلِّ أحدٍ، فلابُدَّ من إيصالِهِ إلىٰ البعضِ، وإمساكِهِ عن البعضِ، وهذا يفتحُ عليه بابَ العداوةِ والمذمَّةِ من المحرومِ والمرحومِ.

أمَّا المحرومُ؛ فيقول: كيف جادَ علىٰ غيري وبَخِلَ عليَّ؟

وأمَّا المرحومُ؛ فإنَّه يلتذُّ ويفرحُ بما حَصَلَ له من الخيرِ والنفعِ، فيبقىٰ طامعًا مُستشرِفًا لنظيرِهِ علىٰ الدوامِ، وهذا قد يتعذَّرُ غالبًا فَيُفضي ذلك إلىٰ العداوةِ الشديدةِ والمذمَّةِ، ولهذا قيل: اتَّقِ شرَّ من أحسنتَ إليه.

وهذه الآفاتُ لا تعرِضُ في غِنَىٰ العلمِ، فإنَّ صاحبَهُ يُمكنُهُ بذلُهُ للعالَمِ كلِّهِم، وإشراكُهُم فيه، والقدرُ المبذولُ منه باقٍ لآخذِهِ لا يزولُ بل يتَّجِرُ به، فهو كالغَنيِّ إذا أعطىٰ الفقيرَ رأسَ مالِهِ يتَّجِرُ به حتَّىٰ يصير غنيًّا مثلَه.

الثالثُ والثلاثون: أنَّ جَمعَ المالِ مقرونٌ بثلاثةِ أنواعٍ من الآفاتِ والمحَنِ: نوعٌ قبلَهُ ونوعٌ عند حصولِهِ، ونوعٌ بعدَ مفارقتِهِ.

فأمَّا النوعُ الأوَّلُ: فهو المشاقُّ والأنكادُ والآلامُ التي لا تحصُلُ إلا بها.

وأمَّا النوعُ الثاني: فمشقَّةُ حفظِهِ وحراستِهِ وتعلُّقِ القلبِ به، فلا يُصبحُ إلا مهمومًا، ولا يُمسي إلا مغمومًا، فهو بمنزلةِ عاشقٍ مُفرِطِ المحبَّةِ قد ظَفِرَ بمعشوقه، والعيونُ من كلِّ جانبٍ تَرمُقُهُ والألسُنُ والقلوبُ ترشُقُهُ، فأيُّ عيشٍ وأيُّ لذَّةٍ لِمن هذه حالُهُ؟

وقد عَلِمَ أنَّ أعداءَه وحُسَّادَهُ لا يَفْتُرُونَ عن سَعيهم في التفريقِ بينه وبين معشوقِهِ وإن لم يَظفَروا هم به، ولكنَّ مقصودَهم أن يُزيلوا اختصاصَه به دونهم؛ فإن فازوا به وإلا استَوَوا في الحرمانِ، فزال الاختصاصُ المؤلمُ للنفوسِ.

ولو قَدَروا علىٰ مثلِ ذلك مع العالِمِ لفعلوه، ولكنَّهم لما علموا أنَّه لا سبيلَ إلىٰ علمِهِ عمَدوا إلىٰ جحدهِ وإنكارِهِ ليُزيلوا عن القلوبِ محبَّتَهُ وتقديمَهُ والثناءَ عليه، فإن بَهَرَ علمُهُ وامتنَعَ عن مكابرةِ الجحودِ والإنكارِ رَمَوهُ بالعظائمِ، ونسبوه إلىٰ كل قبيحٍ، ليُزيلوا عن القلوبِ محبَّتَهُ ويُسكِنوا موضعَها النَّفرَةَ عنه وبُغضَهُ.

وهذا شُغلُ السَّحَرَةِ بعينِهِ، فهؤلاء سَحَرَةٌ بألسنتهم.

فإن عَجَزوا عن شيءٍ من القبائحِ الظاهرةِ بعينه، رَمَوهُ بالتَّلبيسِ والتَّدليسِ والدَّوْكَرَةِ(١) والرياءِ وحُبِّ التَّرَفُّعِ وطَلَبِ الجاهِ.

وهذا القَدرُ من مُعَاداةِ أهلِ الجهلِ والظلمِ للعلماءِ مثلُ الحرِّ والبردِ لابُدَّ منه، فلا ينبغي لَمن له مُسكَةُ(٢) عقلٍ أن يتأذَّىٰ به، إذ لا سبيلَ له إلىٰ دفعِهِ بحالٍ، فَليُوَطِّن نفسَهُ عليه كما يُوطِّنُها علىٰ بَردِ الشتاءِ وحَرِّ الصيف.

---

(١) قال في «اللسان»: «الدِّكْرُ: لُعْبَةٌ يلعبُ بها الزَّنجُ والحَبَشُ». «لسان العرب» (دكر) (ص١٤٠٣).

قلت: فالدَّوْكَرَةُ: فَوعَلَةٌ من الدِّكرِ، فهي حالُ مَن هو غامضٌ حالُهُ تلبيسًا علىٰ الخَلقِ وتدليسًا علىٰ النَّاسِ، والله أعلم.

وقال محقِّقُ مفتاح دار السعادة (١/ ٤٢٦): «الزَّوْكَرَةُ: هي مصدرُ زَكَرَ، يَزْكُرُ، وهو عملٌ يقومُ به المشعوذون لِزَجرِ الحيَّاتِ حتىٰ تستسلم، ثم كأنَّ اللفظَ صارَ عنوانًا للغشَّاشين والخدَّاعين. والوجهان متقاربان، والله أعلم.

(٢) فلانٌ ذو مُسكَةٍ ومُسكٍ،أي: رَأي وعَقلٍ يرجعُ إليه.

والنوعُ الثالثُ من آفاتِ الغِنَىٰ: ما يحصُلُ للعبدِ بعد مفارقتِهِ مَن تَعَلَّقَ قلبُهُ به، وكونُهُ قد جعل بينه وبين المطالبةِ بحقوقِهِ والمحاسبةِ علىٰ مقبوضِهِ ومصروفِهِ من أين اكتسبَهُ وفي ماذا أنفقهُ؟ وغِنَىٰ العلم والإيمانِ مع سلامتِهِ من هذه الآفاتِ فهو كفيلٌ بكلِّ لذَّةٍ وفرحةٍ وسرورٍ، ولكن لا يُنَالُ إلا علىٰ جِسرٍ من التَّعَبِ والصَّبرِ والمشقَّةِ.

الرابعُ والثلاثون: أنَّ لذَّةَ الغِنَىٰ بالمالِ مقرونةٌ بخُلطَةِ النَّاسِ، ولو لم يكن إلا خَدَمُهُ وأزواجُهُ وسراريه وأتباعُهُ، إذ لو انفرَدَ الغنيُّ بمالِهِ وحدَهُ من غيرِ أن يتعلَّقَ بخادمٍ أو زوجةٍ أو أحدٍ من النَّاسِ لم يكمُل انتفاعُهُ بمالِهِ، ولا التذاذُهُ به، وإذا كان كمالُ لذَّتِهِ بغناه موقوفًا علىٰ اتِّصالِهِ بالغيرِ فذلك الاتصالُ منشأُ الآفاتِ والآلامِ وأنواعِ النَّكَدِ، ولو لم يكن إلا اختلافُ أخلاقِ النَّاسِ وطبائعِهِم وإراداتِهم، فقبيحُ هذا حَسَنُ ذاك، ومصلحةُ ذاك مَفسَدَةُ هذا، ومنفعةُ هذا مضَرَّةُ الآخَرِ وبالعكس، فهو مُبتلًىٰ بهم، فلابُدَّ من وقوعِ النَّفْرَةِ والتباغُضِ والتعادي بينهم وبينه، فإنَّ إرضاءَهم كلِّهم مُحَالٌ، وهو جمعٌ بين الضدِّين، وإرضاءُ بعضِهم وإسخاطُ غيرِهِ سببُ الشرِّ والمعاداةِ، وكلَّما طالت المخالطَةُ ازدادَت أسبابُ الشرِّ والعداوةِ وقَوِيَتْ.

وبهذا السببِ كان الشرُّ الحاصلُ من الأقاربِ والعُشَرَاءِ أضعافَ الشرِّ الحاصلِ من الأجانبِ والبعداءِ، وهذه المخالطةُ إنَّما حَصَلَت من جانبِ الغِنىٰ بالمالِ، أمَّا إذا لم يكن فيه فضيلةٌ لهم، فإنهم يتجنَّبون مُخَالَطَتَه ومعاشرتَه، فيستريحُ من أذىٰ الخُلْطَةِ والْعِشْرَةِ.

وهذه الآفاتُ معدومةٌ في الغِنَىٰ بالعلمِ.

الخامسُ والثلاثون: أنَّ المالَ لا يُرَادُ لذاتِهِ وعينِهِ، فإنَّه لا يحصُلُ بذاتِهِ شيءٌ من المنافعِ أصلًا، فإنَّه لا يُشبِعُ ولا يَروي ولا يُدفئُ ولا يمنع، وإنَّما يراد لهذه الأشياءِ، فإنَّه لَّما كان طريقًا إليها أُريدَ إرادَةَ الوسائلِ.

ومعلومٌ أنَّ الغاياتِ أشرفُ من الوسائلِ، فهذه الغاياتُ إذن أشرفُ منه، وهي مع شرفها بالنسبة إليه ناقصةٌ دنيئةٌ.

وقد ذهبَ كثيرٌ من العقلاءِ إلىٰ أنَّها لا حقيقة لها، وإنَّما هي دفعُ الألمِ فقط، فإنَّ لُبسَ الثيابِ مثلًا إنَّما فائدتُهُ دفعُ التألُّمِ بالحرِّ والبردِ والرّيحِ، وليس فيها لذَّةٌ زائدةٌ علىٰ ذلك، وكذلك الأكلُ إنَّما فائدتُه دفع ألم الجوعِ، ولهذا لو لم يجد ألَمَ الجوعِ لم يستَطِبِ الأكلَ، وكذلك الشُّربُ مع العطشِ، والراحةُ مع التعبِ.

ومعلومٌ أنَّ في مُزَاوَلَةِ ذلك وتحصيلِهِ ألمًا وضررًا، ولكنَّ ضرَرَهُ وألَمَهُ أقلُّ من ضَرَرِ ما يدفَعُ به ألَمهُ، فيحتمل الإنسانُ أخفَّ الضَّرَرينِ دَفعًا لأعظمهما.

وحُكي عن بعض العقلاءِ أنَّه قِيلَ لهُ -وقد تناول قدحًا كريهًا جدًّا من الدواءِ-: كيف حالُك معه؟ قال:

أصبحتُ فِي دارِ بَلِيَّاتِ أَدْفَعُ آفاتٍ بآفاتِ

وفي الحقيقةِ؛ فلذَّاتُ الدنيا من المآكلِ والمشارِبِ والملبَسِ والمسكَنِ والمنكحِ من هذا الجنسِ، واللذَّةُ التي يُبَاشِرُهَا الحِسُّ ويتحرَّك لها الحيُّ -وهي الغايةُ المطلوبةُ لهُ من لذَّةِ المنكَحِ والمأكَلِ- شهوةُ البطنِ والفَرجِ، ليس لهما ثالثٌ ألبَتَّةَ إلا ما كانَ وسيلةً إليهما وطريقًا إلىٰ تحصيلهما.

وهذه **اللَّذَّةُ منغَّصَةٌ من وجوهٍ عديدةٍ:**

منها: أنَّ تصوُّرَ زوالِها وانقضائِها وفَنَائِها يُوجِبُ تنغُّصَهَا.

ومنها: أنَّها ممزوجةٌ بالآفاتِ، ومعجونةٌ بالآلامِ، مختلطةٌ بالمخاوفِ، وفي الغالبِ لا تفي آلامُها بطِيبِها، كما قيل:

قَايَستُ بين جَمَالِهَا وفعالِهَا ... فإذا الملاحَةُ بالقَبَاحَةِ لا تَفي

ومنها: أنَّ الأَرَاذِلَ من النَّاسِ وسقَطَهُم يشاركون فيها كبراءَهم وعقلاءَهم، بل يزيدون عليهم فيها أعظمَ زيادة وأفحَشها، فنسبتُهم فيها إلىٰ الأفاضلِ كنسبةِ الحيواناتِ البهيميةِ إليهم، فمشاركةُ الأراذلِ وأهلِ الخِسَّةِ والدَّناءَةِ فيها وزيادتُهُم علىٰ العقلاءِ فيها ممَّا يُوجِبُ النَّفرَةَ والإعراضَ عنها.

وكثيرٌ من النَّاسِ حَصَلَ لهُ الزهدُ في المحبوبِ والمعشوقِ منها بهذه الطريقِ.

وهذا كثيرٌ في أشعارِ الناسِ ونثرِهم كما قيل:

سَأَترُكُ حُبَّهَا مِن غَيرِ بُغضٍ ... وَلكِن كَثرَةُ الشُّرَكَاءِ فِيهِ
إذَا وَقَعَ الذُّبَابُ عَلَىٰ طَعَامٍ ... رَفَعتُ يَدِي وَنَفسِي تَشتَهِيهِ
وَتجْتَنِبُ الأسُودُ وُرُودَ مَاءٍ ... إذَا كَانَ الكِلابُ يَلَغْنَ فِيهِ

وقيل لزاهدٍ:ما الذي زهَّدك في الدنيا؟ فقال: خِسَّةُ شركائِها، وقلَّةُ وفائِها، وكثرةُ جفائِها.

وقيل لآخرَ في ذلك؛ فقال: ما مَدَدتُ يدي إلىٰ شيءٍ منها إلا وجدتُ غيري قد سبقني إليه، فأتركُهُ له.

ومنها: أنَّ الالتذاذَ بموقعها إنَّما هو بِقَدْرِ شدَّةِ الحاجةِ إليها، والتَّألُّمِ بمطالبةِ النَّفسِ لتناوُلها، وكلَّما كانت شهوةُ الظَّفَرِ بالشيءِ أقوىٰ كانت اللَّذَّةُ الحاصَلةُ بوجودِهِ أكملَ، فما لم تحصُلْ تلك الشهوةُ لم تحصُل تلك اللَّذَّةُ، فمقدارُ اللَّذَّةِ الحاصلةِ في الحالِ مساوٍ لمقدارِ الحاجةِ والألمِ والمضَرَّةِ في الماضي.

وحينئذٍ؛ تتقابلُ اللذَّةُ الحاصلةُ والألمُ المتقدِّمُ فيتساقطان، فتصيرُ اللَّذَّةُ كأنَّها لم تُوجد، ويصيرُ بمنزلةِ مَن شقَّ بطنَ رَجُلٍ ثم خاطَهُ وداواه بالمراهمِ، أو بمنزلةِ مَن ضَرَبَه عَشَرةَ أسواطٍ، وأعطاه عَشَرةَ دراهم، ولا تخرجُ لذاتُ الدنيا غالبًا عن ذلك.

ومثلُ هذا لا يُعَدُّ لَذَّةً ولا سعادةً ولا كمالًا، بل هو بمنزلةِ قضاءِ الحاجةِ من البولِ والغائطِ فإنَّ الإنسانَ يتضرَّرُ بثقلِهِ، فإذا قضىٰ حاجَتَه استراحَ منه، فأمَّا أن يُعَدَّ ذلك سعادةً وبهجةً ولذَّةً مطلوبةً فلا.

ومنها: أنَّ هاتين اللَّذَّتين اللتين هما آثَرُ اللَّذَّاتِ عند النَّاسِ، ولا سبيلَ إلىٰ نَيلهما إلا بما يقترنُ بهما قبلهما وبعدهما من مباشرةِ القاذوراتِ، والتألُّمِ الحاصلِ عقبيهما.

مثالُ ذلك: لَذَّةُ الأكلِ، فإنَّ العاقِلَ لو نظرَ إلىٰ طعامِهِ حالَ مخالطتِهِ ريقَه، وعجنَه به، لنفَرَت نفسُهُ منه، ولو سَقَطَت تلك اللقمةُ من فِيهِ لنَفَرَ طبعُهُ من إعادتها إليه، ثم إنَّ لذَّتَهُ به إنَّما تحصُلُ في مجرىٰ نحو الأربعِ الأصابعِ، فإذا فُصِلَ عن ذلك المجرىَ زالَ تلذُّذُهُ به، فإذا استقرَّ في معدتِهِ وخالَطَهُ الشرابُ وما في المعدةِ من

الأجزاءِ الفضليَّةِ، فإنَّه حينئذٍ يصيرُ في غايةِ الخِسَّةِ، فإن زاد علىٰ مقدارِ الحاجةِ أورثَ الأدواءَ المختلفةَ علىٰ تنوُّعِها، ولولا أنَّ بقاءَه موقوفٌ علىٰ تناولِهِ لكان تركُهُ، والحالةُ هذه أليَقَ به، كما قال بعضُهم:

لَولا قضاءٌ جَرَىٰ نَزَّهتُ أُنمُلَتِي ... عَن أَن تُلِمَّ بِمأكُولٍ ومَشرُوبِ

وأمَّا لَذَّةُ الوِقَاعِ فقدرُها أَبينُ من أن نَذكُرَ آفاتِهِ، ويدُلُّ عليه أنَّ أعضاءَ هذه اللَّذَّةِ هي عَورَةُ الإنسانِ التي يُستحيا من رؤيَتِها وذِكرِها، وسَترُهَا أمرٌ فَطَرَ اللهُ عليه عبادَهُ، ولا تتمُّ لذَّةُ المواقَعَةِ إلا بالاطِّلاعِ عليها وإبرازِها، والتلطُّخِ بالرُّطوبَاتِ المستقذَرَةِ المتولِّدَةِ منها، ثمَّ إنَّ تمامَهَا إنَّما يحصُلُ بانفصالِ النُّطْفَةِ وهي اللَّذَّةُ المقصودَةُ من الوِقَاعِ، وزمَنُها يُشبهُ الآنَ الذي لا ينقسمُ، فصعوبَةُ تلك المزاولةِ والمحاولةِ والمطاولةِ والمراوضةِ والتَّعَبِ لأجلِ لذَّةٍ لحظةٍ كمرِّ الطَّرْفِ فأيُّ مقايسةٍ بين هذه اللَّذَّةِ وبين التعب فِي طريقِ تحصيلها؟!

وهذا يدلُّ علىٰ أنَّ هذه اللذَّةَ ليست من جنسِ الخيراتِ والسعادات والكمالِ الذي خُلِقَ له العبدُ، ولا كمالَ له بدونه، بل ثَمَّ أمرٌ وراءَ ذلكَ كلِّه قد هُيِّئَ له العبدُ، وهو لا يفطنُ له لغفلتِهِ عنه وإعراضِهِ عن التفتيشِ عليه حتىٰ يَظْفَرَ بمعرفتِهِ، وعن التفتيشِ علىٰ طريقِهِ حتىٰ يصلَ إليه، بلَ يسُومُ نفسَه مع الأنعامِ السَّائمةِ:

قَد هَيَّئوكَ لأمرٍ لَو فَطِنتَ لَهُ ... فَاربَأ بِنَفسِكَ أَن تَرعَىٰ مَعَ الْهَمَلِ

وموقعُ هذه اللذَّةِ من النَّفسِ كموقعِ لذَّةِ البَرَازِ من رجُلٍ احتبسَ فِي موضعٍ لا يمكنه القيامُ إلىٰ الخلاءِ، وصار مضطرًا إليه؛ فإنَّه يجد مشقَّةً شديدةً وبلاءً عظيمًا، فإذا تمكَّن من الذهابِ إلىٰ الخلاءِ وقَدَرَ علىٰ دفعِ ذلك الخَبَثِ المؤذي،

وَجَدَ لَذَّةً عظيمةً عند دفعِهِ وإرسالِه، ولا لَذَّةَ هناك إلا راحتُهُ من حَملِ ما يُؤذيهِ حملُهُ.

فَعُلِمَ أنَّ هذه اللَّذاتِ إمَّا أن تكون دَفعَ آلامٍ، وإمَّا أن تكونَ لَذَّاتٍ ضعيفةً خسيسةً مقترنةً بآفاتٍ تُرىٰ مضرَّتُها عليه، وهذا كما يعقُبُ لذَّةَ الوقاعِ من ضَعفِ القلبِ، وخَفَقَانِ الفؤادِ، وضَعفِ القوىٰ البدنيةِ والقلبيةِ، ويَعقُبُ ضَعفَ الأرواحِ واستيلاءِ الأخلاطِ عليه لضَعفِ القوَّةِ عن دفعها وقهرها.

وممَّا يدلُّ علىٰ أنَّ هذه اللَّذَّاتِ ليست خيراتٍ وسعاداتٍ وكمالًا: أنَّ العقلاءَ من جميعِ الأممِ مُطبِقُونَ علىٰ ذَمِّ مَن كانت هي نَهمَتَهُ وشغلَهُ ومَصْرفَ همَّتِهِ وإرادَتِهِ، والإزراءِ به، وتحقيرِ شأنِهِ، وإلحاقِهِ بالبهائمِ، ولا يقيمون له وزنًا، ولو كانت خيراتٍ وكمالًا لكان مَن صَرَفَ إليها همَّتَهُ أكملَ النَّاسِ.

وممَّا يدلُّ علىٰ ذلك: أنَّ القلبَ الذي قد وَجَّهَ قَصدَهُ وإرادتَه إلىٰ هذه اللَّذَّاتِ لا يزالُ مُستغرقًا في الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وما ينالُهُ من اللَّذَّاتِ في جَنبِ هذه الآلامِ كقَطرَةٍ في بحرٍ، كما قيل:

سُـرُورُهُ وَزنُ حَبَّـةٍ وحُـزْنُـهُ قِـنطَـارُ

فإنَّ القلبَ يجري مجرىٰ مِرآةٍ منصوبةٍ علىٰ جدارٍ، وذلك الجدارُ ممرٌّ لأنواعِ المشتهَيَاتِ، والملذوذاتِ، والمكروهاتِ، فكلَّما مرَّ به شيءٌ من ذلك ظَهَرَ فيه أثرُهُ، فإن كان محبوبًا مشتهيًا مالَ طبعُهُ إليه، فإن لَم يَقدِر علىٰ تحصيلِهِ تألَّمَ وتعذَّبَ بِفقدِهِ، وإن قَدَرَ علىٰ تحصيلِهِ تألَّمَ في طريقِ الحصولِ بالتعبِ والمشقَّةِ ومنازَعَة الغير له، ويتألَّمُ حالَ حُصولِه خوفًا من فراقِهِ، وبعد فراقِهِ حُزنًا علىٰ ذهابِهِ، وإن كان مكروهًا

لهُ ولَم يَقدِر علىٰ دفعِهِ تألَّمَ بوجودِهِ، وإن قَدَرَ علىٰ دفعِهِ ففاتَتهُ مصلحةٌ راجحَةُ الحصولِ، فيتألَّم لفواتِها.

فَعُلِمَ أنَّ هذا القلبَ أبدًا مستغرِقٌ في بحارِ الهمومِ والغمومِ والأحزانِ، وأنَّ نفسَه تضحكُ عليه وتُرَضِّيه بوزنِ ذرَّةٍ من لذَّةٍ من لذَّتِهِ، فيغيبُ بها عن شهودِهِ القناطيرَ من ألمِهِ وعذابِهِ، فإذا حِيلَ بينه وبين تلك اللَّذَّةِ ولم يبق له إليها سبيلٌ، تجرَّدَ ذلك الألمُ وأحاطَ به واستولىٰ عليه من كلِّ جهاتِهِ، فَقُل ما شئتَ في حالِ عبدٍ قد غُيِّبَ عنه سَعدُهُ وحظوظُهُ وأفراحُهُ، وأُحضِرَ شقوتَهُ وهمومَهُ وغمومَهُ وأحزانَهُ.

وبين العبدِ وبين هذه الحالِ أن ينكشفَ الغطاءُ ويُرفَعَ السِّترُ، وينجليَ الغبارُ، ويُحَصَّلَ ما في الصدورِ، فإذا كانت هذه غايةَ اللذَّاتِ الحيوانيةِ -التي هي غايةُ جمعِ الأموالِ وطلبِها- فما الظَّنُّ بقَدرِ الوسيلةِ؟! وأمَّا غِنَىٰ العلمِ والإيمانِ فدائمُ اللَّذَّةِ مُتَّصلُ الفرحَةِ، مُقتَضٍ لأنواعِ المسرَّةِ والبهجةِ، لا يزولُ فيُحزِنُ، ولا يفارِقُ فيؤلِم، بل أصحابُهُ كما قالَ الله تعالىٰ فيهم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس:٦٢].

السادسُ والثلاثونَ: أنَّ غَنِيَّ المالِ يُبغِضُ الموتَ ولقاءَ الله، فإنَّه لحبِّهِ مَالَهُ يكرَهُ مُفَارَقَتَهُ ويحبُّ بقاءَه ليتمتَّعَ به، كما شهدَ به الواقعُ.

أمَّا العلمُ فإنَّهُ يحبِّبُ للعبدِ لقاءَ ربِّه ويُزَهِّدُهُ في هذه الحياةِ النَّكِدَةِ الفانيةِ.

السابعُ والثلاثون: أنَّ الأغنياءَ يموتُ ذِكرهم بموتهم، والعلماءُ يموتون ويبقىٰ ذِكرهم، كما قالَ أميرُ المؤمنين في هذا الحديث: «مَاتَ خُزَّانُ الأَموالِ، وهُم

أحيَاءٌ، والعُلَمَاءُ باقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهرُ»، فَخُزَّانُ الأموالِ أحياءٌ كالأمواتِ، والعلماءُ بعد موتهم أمواتٌ كالأحياءِ.

الثامنُ والثلاثون: أنَّ القلبَ مَلِكُ البدنِ، والعلمَ زينتُهُ وعُدَّتُهُ ومالُهُ، وبه قِوامُ ملكِهِ، والملِكُ لابُدَّ له من عَدَدٍ وعُدَّةٍ ومالٍ وزينةٍ، فالعلمُ هو مركبُهُ وعدَّتُهُ وجَمالُهُ.

وأمَّا المالُ فغايتُهُ أن يكونَ زينةً وجمالًا للبَدَنِ إذا أنفقَهُ في ذلك، فإذا خَزَنَهُ ولم يُنفِقْهُ لم يكن زينةً ولا جمالًا، بل نقصًا ووَبَالًا.

ومن المعلومِ أنَّ زينةَ المَلِكِ وما بهِ قِوامُ مُلكِهِ أجَلُّ وأفضَلُ من زينةِ رعيَّتِهِ وجمالِهم، فَقِوامُ القلبِ بالعلمِ، كما أنَّ قِوَامَ الجسمِ بالغِذَاءِ.

التاسع والثلاثون: أنَّ نسبةَ العلمِ إلىٰ الروحِ كنسبةِ الروحِ إلىٰ البدنِ، فالروحُ ميِّتَةٌ حياتُها بالعلمِ، كما أنَّ الجسدَ ميِّتٌ؛ حياتهُ بالروحِ، فالغنيُّ بالمالِ غايتُه أن يزيد في حياةِ البدنِ، وأمَّا العلمُ فهو حياةُ القلوبِ والأرواحِ كما تقدم تقريره.

الأربعون: أنَّ القَدرَ المقصودَ من المالِ هو ما يكفي العبدَ ويقيمُهُ ويدفعُ ضرورتَه حتىٰ يتمكَّنَ من قضاءِ جهازِهِ، ومن التَّزَوُّدِ لسفرِهِ إلىٰ ربِّهِ ﷻ، فإذا زادَ علىٰ ذلك شَغَلَهُ وقَطَعَهُ عن السَّفَرِ إلىٰ ربِّه وعن قضاءِ جَهازِهِ وتعبيَةِ زادِهِ، فكانَ ضرَرُهُ عليه أكثرَ من مصلحتِهِ، وكلَّما ازدادَ غِنَاهُ به ازدادَ تثبُّطًا وتخلُّفًا عن التَّجهُّزِ لما أمامَهُ.

وأمَّا العلمُ النافعُ فكلَّما ازدادَ منه ازدادَ في تعبيةِ الزَّاد وقضاءِ الجَهَازِ وإعدادِ عُدَّةِ المسيرِ، والله الموفِّقُ وبه الاستعانةُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

فَعُدَّةُ هذا السَّفرِ هو العلمُ والعملُ، وعُدَّةُ الإقامةِ جمعُ الأموالِ والادِّخَارُ، ومَن

أرادَ شيئًا هَيَّأ لهُ عُدَّتَهُ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ﴾ [التوبة:٤٦].

وقولُهُ ﷺ: «صَنِيعَةُ المالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ»؛ يعني: أنَّ كلَّ صنيعةٍ صُنِعَت للرجُلِ من أجلِ مالِهِ؛ من إكرامٍ ومحبَّةٍ وخدمةٍ وقضاءِ حوائجَ وتقديمٍ واحترامٍ وتولية وغير ذلك، فإنَّها إنَّما هي مراعاةٌ لمالِه، فإذا زالَ مالُهُ وفارقَه زالت تلك الصنائعُ كلُّها، حتَّىٰ إنَّه ربما لا يُسَلِّمُ عليه مَن كان يدأبُ في خدمتِهِ ويسعىٰ في مصالحِهِ.

وقد أكثرَ النَّاسُ من هذا المعنىٰ في أشعارِهم وكلامِهم، وفي مثلِ قولهم: «مَن وَدَّكَ لأَمرٍ مَلَّكَ عِندَ انقضَائِهِ».

ومن هذا ما قيل: إذا أكرمكَ النَّاسُ لمالٍ أو سلطانٍ فلا يُعجبنَّك ذلك؛ فإنَّ زوالَ الكرامةِ بزوالهما، ولكن ليعجبكَ إن أكرموك لعلمٍ أو دينٍ.

وهذا أمرٌ لا يُنكَرُ في النَّاسِ؛ حتَّىٰ إنَّهم ليُكرمون الرجلَ لثيابِهِ، فإذا نزعها لم يَرَ منهم تلك الكرامةَ وهُوَ هُو!! قال مالكٌ: بلغني أنَّ أبا هريرة دُعِيَ إلىٰ وليمةٍ فأتىٰ فَحُجِبَ، فرجع فلبس غيرَ تلك الثيابِ فأُدخل، فلما وُضِعَ الطعامُ أدخل كُمَّهُ في الطعامِ، فَعُوتِبَ في ذلكَ، فقالَ: إنَّ هذه الثيابَ هي التي أُدخِلَت فهي تأكلُ.

وهذا بخلافِ صنيعَةِ العلمِ؛ فإنَّها لا تزولُ أبدًا، بل كُلُّ مآلها في زيادةٍ ما لم يُسلَب ذلك العالِمُ علمَهُ.

وصنيعةُ العلمِ والدين أعظمُ من صنيعةِ المالِ، لأنَّها تكونُ بالقلبِ واللسانِ والجوارحِ، فهي صادرةٌ عن حُبٍّ وإكرامٍ لأجلِ ما أودعَه الله تعالىٰ إياه من علمِهِ، وفَضَّلَه به علىٰ غيرِهِ.

وأيضًا؛ فصنيعةُ العلمِ تابعةٌ لنفسِ العالمِ وذاتِهِ، وصنيعةُ المالِ تابعةٌ لمالِهِ المنفصلِ عنه.

وأيضًا؛ فصنيعةُ المالِ صنيعةُ معاوَضَةٍ، وصنيعةُ العلمِ والدِّينِ صنيعةُ حُبٍّ وتقرُّبٍ وديانةٍ.

وأيضًا؛ فصنيعةُ المالِ تكون مع البَرِّ والفاجرِ، والمؤمنِ والكافرِ، وأمَّا صنيعةُ العلمِ والدِّينِ فلا تكون إلا مع أهلِ ذلك.

وقد يُراد من هذا أيضًا معنًى آخَرُ، وهو أنَّ مَن اصطَنَعتَ عِندَهُ صَنيعَةً بمالكَ، إذا زالَ ذلكَ المالُ وفارقَهُ عُدِمَت صَنيعَتُكَ عندَهُ، وأمَّا مَن اصطنعتَ إليهِ صنيعةَ علمٍ وهدًى، فإنَّ تلكَ الصنيعةَ لا تفارقُه أبدًا، بل ترىٰ في كلِّ وقتٍ كأنَّك أسديتَها إليه حينئذٍ...» اهـ

قال أبو الأسودِ الدُّؤليُّ، ظالمُ بنُ عمروٍ، التابعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

العِلْمُ زَينٌ وتَشْرِيفٌ لِصَاحِبِهِ ... فَاطْلُبْ هُدِيتَ فُنُونَ العِلمِ والأَدَبَا

لاَ خَيرَ فِيمَن لَهُ أَصلٌ بِلا أَدَبٍ ... حَتَّىٰ يَكُونَ عَلَىٰ مَا زَانَهُ حَدِبَا[1]

كَم مِن كَرِيمٍ أَخِي عِيٍّ وَطَمْطَمَةٍ ... فَدْمٍ لَدَىٰ القَومِ مَعرُوفٍ إذَا انتَسَبَا[2]

---

(١) **حَدِبَ عليه**: انحنىٰ وعَطَف.

(٢) **العِيُّ**: العجزُ في المنطقِ، وعدمُ البيانِ.

الفَدمُ: ثقيلُ الفهمِ، الغبيُّ.

الطمطمةُ: العُجمَةُ.

فِـي بَـيتِ مَكـرُمَةٍ آبَـاؤُهُ نُجُـبٌ كَانُـوا الرُّءُوسَ فَأَمسَىٰ بَعدَهُم ذَنَبَا(١)

وَخَامِـلٍ مُقـرِفِ الآبـاءِ ذِي أَدَبٍ نَـالَ الْمَعَالِـي بـالآدَابِ والـرُّتَبَا(٢)

أَمسَىٰ عَزِيـزًا عَظِيمَ الـشَّأن مُـشتَهَرًا فِي خَـدِّهِ صَـعَرٌ قَـد ظَـلَّ مُحتَجِبَا(٣)

العِلـمُ كَنـزٌ وَذُخـرٌ لا نَفَـادَ لَـهُ نِعـمَ القَـرِينُ إِذَا مَـا صَاحِبٌ صُحِبَا(٤)

قَـد يَجمَـعُ الْمَـرْءُ مَـالًا ثُـمَّ يُحْـرَمُهُ عَمَّـا قَلِـيلٍ فَيَلْقَـىٰ الـذُّلَّ وَالْحَـربَا(٥)

وَجَامِـعُ العِلـمِ مَغـبُوطٌ بِـهِ أَبَـدًا وَلا يُحَـاذِرُ مِـنهُ الفَـوتَ وَالـسَّلَبَا

يَـا جَامِعَ العِلـمِ نِعـمَ الذُّخرُ تَجمَعُـهُ لا تَعـدِلَنَّ بِـهِ دُرًّا وَلا ذَهَـبًا

* * *

---

(١) **النُّجُبُ**: جمعُ نجيبٍ، وهو الفاضلُ علىٰ مثلِهِ، النفيسُ في نوعِهِ.

(٢) **المقرِفُ**: غيرُ الحَسَنِ، والنَّذلُ الخسيسُ.

(٣) **الصَّعَرُ**: ميلُ العنقِ أو الوجهِ إلىٰ أحد الجانبين، وصَعِرَ فلانٌ: أعرضَ بوجهِهِ كِبرًا.

(٤) ذَخَر الشيءَ: ذَخرًا، وذُخرًا: خبَّأه لوقتِ الحاجةِ.

(٥) **الحَرَبُ**: الويلُ والهلاك.

بابُ: بيانِ آدَابِ طَالِبِ العِلْمِ(١)

لَما كان العلمُ عبادةَ القلبِ، وسِرَّ حياتِهِ، وموطِنَ قُوَّتِهِ، كَان لِزَامًا علىٰ طالبِهِ أن يحصِّلَ آدابَهُ، وأن يسعىٰ جاهدًا مُشَمِّرًا في اكتسابِها، وإلا سار مُشَرِّقًا، وسار العلمُ مُغَرِّبًا، وكانا كما قيل:

سَارَت مُشَرِّقَةً وَسِرتُ مُغَرِّبًا   شَتَّانَ بينَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

علىٰ أنَّه ينبغي التَّفَطُّنُ إلىٰ أنَّ هذه الآدابَ ليست آدابًا كأيِّ آدابٍ، تُحَصَّلُ أو لا تُحَصَّلُ والأمرُ من قبلُ ومن بَعدُ سواء، بل منها ما هو واجبٌ علىٰ كلِّ أحدٍ في كلِّ حينٍ، سواءٌ كان للعلمِ طالبًا أم لم يكن.

وآدابُ طَلَبِ العلمِ لا تنفكُّ عن أصحابِ العلمِ أبدًا؛ لأنَّها مما دَّلت عليه النصوصُ وأرشدت إليه، ولأنَّ منها ما هو من الكلِّيات العامَّةِ والقواعدِ الشاملةِ في الدِّينِ، لا يَسَعُ أحدًا أن يخرجَ عليها، أو أن ينظرَ إليها بغيرِ عين الاعتبارِ.

وكلُّ أدبٍ من هذه الآدابِ متىٰ غاب عن طالبِ العلمِ أصيب بآفةٍ من آفاتِ العلمِ لا محالةَ؛ لأنَّ آدابَ طالبِ العلمِ وآفاتِهِ نقيضان لا يرتفعان معًا ولا يجتمعان معًا، بل لابُدَّ من وجودِ أحدهما، فإذا وُجِدَ أحدُهما ارتفعَ نقيضُهُ، وإذا ارتفعَ أحدُهما وُجِدَ نقيضُهُ، ولا يُتَصَوَّرُ وجودُهما معًا، ولا ارتفاعُهما معًا.

(١) بسطتُ بحولِ الله وقوَّتِهِ -لا حولَ ولا قوةَ إلا به- القولَ في «آداب طالبِ العلم» في رسالةٍ مستقلَّةٍ، فيها بسطٌ فوق الإيجاز الذي هنا، وهي منشورةٌ فليطالعها من شاء -إن شاء الله تعالىٰ-.

والاهتمامُ بآدابِ الطلب من أهمِّ المهماتِ، وقد أدَّىٰ الإخلالُ بها من قِبَلِ طلابِ العلمِ إلىٰ كثيرٍ من الخَلَلِ.

وما الخَلطُ الواقعُ اليومَ إلا أثرًا من آثارِ الطَّلَبِ بغيرِ أدبٍ، ولو أُحكمتْ آدابُ الطَّلَبِ لارتفعَ -إن شاءَ الله- كَثيرٌ من العَنَتِ وكثيرٌ من البلاءِ.

وهذه الآدابُ مع كَونِ جملتِها مطلوبَةً من كلِّ مسلمٍ إلا أنَّها في حقِّ طالبِ العلمِ آكَدُ، وعليه أَوجَبُ، والله المستعانُ وعليه التكلانُ.

وهذه جملةُ ما يلزمُ طالبَ العلمِ من آدابٍ:

١- إخلاصُ النِّيَّةِ لله في طَلَبِ العلمِ

لمَّا كان من مقرراتِ الشَّرعِ ومن مُسَلَّمَاتِ الدِّينِ أنَّ الله ﷻ لا يَقبَلُ من العملِ إلا ما كَانَ خَالصًا وأُريدَ بهِ وجهُهُ؛ فقَدْ نبَّه النبيُّ ﷺ علَىٰ عِظَم شَأنِ النِّيَّةِ، ووجوبِ تخليصِهَا ممَّا قد يشوبُهَا من شوائبَ تفسدُ القصدَ وتُحبطُ العملَ.

ففي الحديثِ المتَّفَق علىٰ صحَّتِهِ(١): عن عَلْقَمَةَ بن وَقَّاصٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ: سَمِعتُ عُمَرَ بن الخَطَّابِ ﷺ علىٰ المِنبَرِ يقولُ: سَمِعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّمَا لكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَىٰ؛ فَمَن كَانَت هجرَتُهُ إلَىٰ الله ورَسُولِهِ فَهجرَتُهُ إلَىٰ الله ورَسُولِهِ، وَمَن كَانَت هِجرَتُهُ لدُنيَا يُصيبُهَا أَو امرأةٍ يَنكِحُهَا، فَهجرَتُهُ إلَىٰ مَا هَاجَرَ إلَيهِ**» هذَا لفظُ البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ولفظُ مسلمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**إنَّمَا الأعمَالُ بالنِّيَّةِ، وإنَّمَا لِامْرِئٍ مَا نَوَىٰ، فَمَن كانَتْ هِجرَتُهُ إلَىٰ الله وَرَسُولِهِ فَهجرَتُهُ إلَىٰ الله ورَسُولِهِ، وَمَن كَانَت هِجرَتُه لِدُنيَا يصيبُهَا أَوِ امرأةٍ يتزَوَّجُهَا فَهجرَتُهُ إلَىٰ مَا هَاجَرَ إلَيهِ**».

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمعَ المسلمون علىٰ عِظَمِ موقعِ هذا الحديثِ وكَثرَةِ فوائدِهِ وصحَّتِهِ، قال الشافعيُّ وآخرون: هو ثُلُثُ الإسلامِ، وقال عبدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ وغيرُهُ: ينبغي لِمن صَنَّفَ كِتَابًا أن يبدأ فيه بهذا الحديثِ، تنبيهًا للطالِبِ علىٰ

(١) رواه البخاري (١)، ومسلمٌ (١٩٠٧).

تصحيحِ النيةِ، ونَقَلَ الخطَّابيُّ هذا عن الأئمةِ مطلقًا، وقد فَعَلَ ذلك البخاريُّ وغيرُهُ فابتدءوا به قبل كلِّ شيءٍ، وذكَرَهُ البخاريُّ في سبعةِ مواضعَ من كتابِهِ.

وقولُهُ ﷺ: «**فَمَن كانَتْ هِجرَتُهُ إلَىٰ الله وَرَسُولِهِ فَهِجرَتُهُ إلَىٰ الله ورَسُولِهِ**» معناه: مَن قصدَ بهجرتِهِ وجهَ الله وَقَعَ أجرُهُ علىٰ الله، ومَن قَصَدَ بها دنيا أو امرأةً فهي حَظُّهُ ولا نصيبَ له في الآخرةِ بسبب هذه الهجرةِ»[1].

«وقد تقرَّرَ في الشَّرعِ أنَّ الله -تبارك وتعالىٰ- لا يقبلُ من العباداتِ إلا ما كان خالصًا لوجهِهِ الكريمِ، والأدلَّةُ علىٰ ذلك من الكتاب والسنَّةِ كثيرةٌ جدًّا، منها:

١- قولُهُ -تبارك وتعالىٰ-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

أي: لا يقصدُ بها غير وجه الله تعالىٰ.

٢- وقولهُ تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

٣- قولُه ﷺ: «**إنَّمَا الأعْمَالُ بالنِّيَّاتِ، وإنَّمَا لكُلِّ امرِئٍ مَا نَوَىٰ؛ فَمَن كَانَت هجرَتُهُ إلَىٰ الله ورَسُولِهِ فَهِجرَتُهُ إلَىٰ الله ورَسُولِهِ، وَمَن كَانَت هِجرَتُهُ لدُنيَا يُصيبُهَا أَو امرأةٍ يَنكِحُهَا، فَهِجرَتُهُ إلَىٰ مَا هَاجَرَ إلَيهِ**» أخرجه البخاريُّ في أولِ «صحيحه»، ومسلمٌ وغيرهما عن عمر بن الخطاب ﷺ.

٤- قولُهُ ﷺ أيضًا: «**بَشِّر هَذِهِ الأمَّةَ بِالسَّنَاءِ والتَّمكِين في البِلادِ، والنَّصرِ والرِّفعَةِ فِي الدِّينِ، ومَن عَمِلَ مِنهُم بِعَمَلِ الآخرةِ للدُّنيا، فَلَيسَ لَهُ فِي الآخرةِ نصيبٌ**».

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٥٣).

أخرجه أحمد وابنه في زوائد «المسند» (٥/ ١٣٤)، وابن حبان في «صحيحه- موارد»، والحاكم (٤/ ٣١١)، وقال: صحيحُ الإسنادِ، ووافقه الذهبيُّ، وأقرَّه المنذريُّ (١/ ٣١)، قلتُ: وإسنادُ عبد الله صحيحٌ علىٰ شرطِ البخاريِّ.

٥- عن أبي أُمَامَةَ ﵁ قالَ: جاءَ رَجُلٌ إلَىٰ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: أَرأَيت الرَّجُلَ غزَا يَلتَمِسُ الأجرَ وَالذِّكْرَ، مَا لَهُ؟ فَقَالَ: «**لاشَيءَ لَهُ**»، فَأَعَادَها ثَلاثَ مَرَّاتٍ، يَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا شَيءَ لَهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**إنَّ الله لا يَقْبَلُ مِن العَمَلِ إلا مَا كَانَ خَالِصًا وابتُغِيَ بِهِ وَجهُهُ**» أخرجه النسائي (٢/ ٥٩)، وإسنادُهُ جيدٌ كما قال المنذريُّ (١/ ٢٤).

٦- قولُهُ ﷺ: «**قَالَ الله ﷻ: أَنَا أغنَىٰ الشُّرَكَاءَ عَنِ الشِّرْكِ فَمَن عَمِلَ لي عَمَلًا أَشرَكَ فِيهِ غَيرِي فَأَنَا مِنْه بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشرَكَ**» رواه ابن ماجه في «الزهد» من حديثِ أبي هريرةَ، وإسنادُهُ صحيحٌ علىٰ شرطِ مسلمٍ، وقد أخرجه في «صحيحه» (٨/ ٢٢٣) نحوه»[1].

قال ابنُ جماعةَ رَحِمَهُ اللهُ: «حُسنُ النيَّةِ في طَلَبِ العلمِ أن يقصدَ به وجهَ الله تعالىٰ، والعملَ به، وإحياءَ الشريعةِ وتنويرَ قلبِهِ، وتحليةَ باطنِهِ، والقُربَ من الله تعالىٰ يومَ القيامةِ، والتَّعَرُّضَ لما أعدَّ لأهلِهِ من رضوانِهِ وعظيمِ فضلِهِ.

قال سفيانُ الثوريُّ رَحِمَهُ اللهُ: مَا عَالَجتُ شيئًا أَشَدَّ عليَّ مِن نِيَّتِي.

ولا يقصدُ به الأغراضَ الدنيويَّةَ من تحصيلِ الرياسةِ والجاهِ والمالِ، ومباهاةِ الأقرانِ وتعظيمِ الناسِ له، وتصديرِهِ في المجالسِ ونحو ذلك، فيستبدلُ به الأدنىٰ

(١) «أحكام الجنائز وبدعها» الألباني (ص٥٢).

بالذي هو خيرٌ.

قال أبو يوسُفَ رَحِمَهُ اللَّهُ: يا قوم،أَريدُوا الله تعالىٰ بعلمكم، فإنِّي لم أجلس مجلسًا قطُّ أنوي فيه أن أتواضعَ إلا لم أقُم حتىٰ أعلُوَهُم، ولم أجلس مجلسًا قطُّ أنوي فيه أن أعلُوَهُم إلا لم أقُم حتىٰ أفتضحَ.

والعلمُ عبادةٌ من العباداتِ، وقُربَةٌ من القُرَبِ، فإن خَلُصَت فيه النيَّةُ، قُبِلَ وزَكَا ونَمَت بركتُهُ، وإن قُصِدَ به غيرُ وجه الله تعالىٰ حَبِطَ وضاعَ وخَسِرَت صفقتُهُ، وربَّما تفوتُه تلك المقاصدُ ولا ينالُها، فيخيبُ قصدُهُ ويضيعُ سعيُهُ»[1].

ويجمعُ ما سَبَقَ حديثُ رسولِ اللهِ ﷺ الذي رواه مسلمٌ بسندِهِ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: **«إنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقضَىٰ يومَ القِيَامَةِ عَلَيهِ رَجُلٌ استُشهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلتُ فِيكَ حَتَّىٰ استُشهِدتُ. قَالَ: كَذَبتَ، ولَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَن يُقَالَ جَرِيءٌ. فَقَد قِيلَ. ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجهِهِ حَتَّىٰ أُلقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وعَلَّمَهُ وَقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمتُ العِلْمَ وعَلَّمْتُهُ وقَرأتُ فِيكَ القرآنَ. قَالَ: كَذَبتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمتَ العِلمَ لِيُقَالَ عَالِمٌ، وقَرَأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ: ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ علَىٰ وَجهِهِ حَتَّىٰ أُلقِيَ في النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ الله عَلَيهِ وَأعطَاهُ مِن أَصنَافِ المَالِ كُلِّه، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلتَ فيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكتُ مِن سَبيلٍ تُحِبُّ أَن يُنفَقَ فيهَا إلا أَنفَقتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبتَ، ولَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ**

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جماعة (ص٦٨).

جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجهِهِ، ثُمَّ أُلقِيَ فِي النَّارِ»(١).

فهذا الحديثُ العظيمُ قاضٍ بأنَّ علىٰ طالبِ العلم أن يُصَحِّحَ نيَّتَهُ في طَلبِهِ، فلا يكونُ إلا لله سعيُهُ وبذلُهُ، وعناؤُهُ وطلبُهُ، يبتغي عند الله الرِّضوَانَ، ويرجو لديه الثَّوابَ، لا ليرتفِعَ بهِ في أعينِ النَّاسِ، ويعلوَ به فوق أعناقِهم، ويركبَ به أكتافَهم.

عن عبد الله بن عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَن طَلَبَ العِلمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَو لِيُبَاهِيَ بِهِ العلَمَاءَ، أَو لِيَصرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إليهِ، فَهُوَ فِي النَّارِ**» رواه ابن ماجه في سننه (٢٥٣)، وحسنَّه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨)، وصحَّحه في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧).

* * *

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

٢ - الاشتِغَالُ بِتَطهِيرِ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ من شَوَائبِ المُخَالَفَاتِ

علىٰ طالب العلمِ أن يُطَهِّرَ ظاهرَهُ بمجانبةِ البدعةِ، وبالتحلِّي بسُنَنِ رسولِ الله ﷺ في أحوالِه كلِّها، والمحافظةِ علىٰ الوضوءِ، ونظافةِ الجسمِ والمظهرِ من غير تكلُّفٍ وعلىٰ قَدرِ المستطاعِ.

وطهارةُ الظَّاهِرِ باتِّبَاعِ السنَّةِ، وحُسنِ السَّمتِ، ونظافةِ الثوبِ والبدنِ، مطلوبٌ من كلِّ مسلمٍ، وهو أكثرُ تأكُّدًا في حقِّ طالبِ العلمِ، لأنَّ العلمَ يدلُّه علىٰ مواطن الخيرِ ومَسَارِبِ الوقارِ.

عَن عبد الله بن مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كَانَ في قَلبِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ من كِبرٍ**» قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَن يَكُونَ ثَوبُهُ حَسَنًا ونَعلُهُ حَسَنَةً؟ قَالَ: «**إِنَّ الله جَميلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبرُ: بَطَرُ الحَقِّ وَغَمطُ النَّاسِ**» رواه مسلمٌ (٩١).

قَالَ النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «بَطَرُ الحَقِّ: دَفعُهُ وإِنكَارُهُ تَرَفُّعًا وتَكَبُّرًا، وغَمطُ النَّاسِ معناه: احتِقَارُهُم».

وقد كان النبيُّ ﷺ يُحبُّ الطِّيبَ ويحرصُ عليه؛ فعن موسىٰ بن أنس بن مالكٍ عن أبيه قال: «كَانَ لِرَسُولِ الله ﷺ سُكَّةٌ يَتَطَيَّبُ مِنْهَا».

قَالَ الألبانِيُّ: «أخرجه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ علىٰ شرطِ مسلمٍ، والسُّكَّةُ -بضمِّ السينِ وتشديدِ الكافِ-، طِيبٌ أسودُ يُخلَطُ ويُعرَكُ ويُترَكُ وتظهرُ رائحتُه كلَّما

مضَىٰ عليه الزمنُ، ويُحتملَ أن تكونَ وعاءً يُوضَعُ فيه الطِّيبُ، وهو الظاهرُ»[١].

وكَانَ النبيُّ ﷺ يكره الريحَ الخبيثةَ ويُنَفِّرُ منها: فعن جَابرٍ ﵁ قَالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**مَن أكَلَ مِن هذهِ البَقْلَةِ، الثُّومِ** -وقالَ مَرَّةً:- **مَن أكَلَ البَصَلَ والثُّومَ والكُرَّاثَ، فَلا يَقْرَبَنَّ مَسجِدَنَا، فَإِنَّ الملائِكَةَ تَتأذَّىٰ مِمَّا يَتَأَذَّىٰ مِنهُ بَنُو آدَمَ**»رواه مسلمٌ (٥٦٤).

وقد نَهَىٰ النبيُّ ﷺ أن يَترُكَ المسلمُ قَصَّ شاربِهِ أو تقليمَ أظفَارِهِ، أو حَلقَ عانتِهِ، أو نَتْفَ إبطِهِ، أكثرَ من أربعين ليلةً، فعَن أنسِ بن مالكٍ ﵁ قالَ: «وُقِّتَ لنا في قَصِّ الشَّارِبِ، وتقليمِ الأظفارِ، ونَتفِ الإبطِ، وحَلقِ العَانَةِ، ألا نتركَ أكثرَ من أربعينَ ليلةً» رواه مسلم (٢٥٨).

قالَ النوويُّ ؒ: «معناه: لا يترك تركًا يتجاوز أربعين، لا أنهم وُقِّتَ لهم التركُ أربعين»[٢].

وحضَّ النبيُّ ﷺ علىٰ استعمالِ السِّوَاكِ، ورَغَّبَ فيه الأمَّةَ فقال: «**لولا أن أشُقَّ عَلَىٰ أُمَّتِي، لأمَرتُهُم بِالسِّوَاكِ عِندَ كُلِّ صَلاةٍ**» رواه مسلمٌ (٢٥٢).

فعَلىٰ طالبِ العلمِ أن يتعهَّدَ طهارَةَ ظاهرِهِ؛ وطهارتُه باتباعِ سُنَّةِ النبيِّ ﷺ، والتَّمسُّكِ بها، والعَضِّ عليها، وأولىٰ النَّاسِ بذلك هم أهلُ العلمِ، فهم ورَثَةُ النبيِّ ﷺ، وأحَقُّ النَّاسِ بالاقتداءِ به، والقَصِّ علىٰ أثَرِه ﷺ.

وأمَّا طَهارةُ الباطنِ؛ فعلىٰ طالبِ العلمِ، «تقديمُ طهارةِ النَّفسِ عن رذائلِ

(١) «مختصر الشمائل المحمدية» للألباني (ص١١٧).

(٢)«صحيح مسلم بشرح النووي» (٣/ ١٤٩).

الأخلاقِ، ومذمومِ الصِّفَاتِ، إذ العلمُ عبادةُ القلبِ، وصلاةُ السِّرِّ، وقُربةُ الباطنِ إلىٰ الله تعالىٰ».

وكما لا تصحُّ الصلاةُ التي هي وظيفةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلا بتطهيرِ الظاهرِ عن الأحداثِ والأخباثِ، فكذلك لا تصحُّ عبادةُ الباطنِ وعمارةُ القلبِ بالعلمِ إلا بعد طهارتِهِ عن خبائثِ الأخلاقِ وأنجاسِ الأوصافِ.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾ [التوبة:٢٨]، تنبيهًا للعقولِ علىٰ أنَّ الطهارةَ والنجاسةَ غيرُ مقصورةٍ علىٰ الظَواهِرِ المُدرَكَةِ بالحسِّ، فالمشركُ قد يكونُ نظيفَ الثَّوبِ، مغسولَ البَدَنِ، ولكنَّه نَجِسُ الجوهرِ، أي: باطنُهُ مُلَطَّخٌ بالخبائثِ.

والنجاسةُ عبارةٌ عمَّا يُجتنبُ ويُطلبُ البُعدُ منه، وخبائثُ صفاتِ الباطنِ أهمُّ بالاجتنابِ، فإنَّها مع خبثِهَا حالًا، مُهلِكَاتٌ في المآلِ»[(١)].

عن ابن عمرَ رضي الله عنهما قَالَ: «وَعَدَ رَسُولَ الله ﷺ جِبريلُ أَن يَأتِيَهُ فَرَاثَ عَلَيهِ، حَتَّىٰ اشتَدَّ عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ، فَخَرَجَ فَلَقِيَهُ جِبريلُ، فشَكَا إِلَيهِ، فقَالَ: إِنَّا لا نَدخُلُ بَيتًا فِيهِ كَلبٌ ولا صُورَةٌ» رواه البخاري[(٢)]، ومعنىٰ رَاثَ: أَبطَأَ، واشتدَّ: ثَقُلَ عليه تأَخُّرُ نزولِهِ وأحزنه ذلك.

وقال ابنُ جماعة رَحِمَهُ اللهُ: «علىٰ طالبِ أن يُطَهِّرَ قَلبَهُ من كلِّ غِشٍّ ودَنَسٍ وغِلٍّ وحَسَدٍ، وسوءِ عقيدةٍ وخُلُقٍ، ليصلُحَ بذلك لقبولِ العلمِ وحفظه، والاطلاعِ علىٰ

(١) «تهذيب الإحياء» عبد السلام هارون (١/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري (٥٦١٥).

دقائقِ معانيه وحقائقِ غوامضِهِ، فإنَّ العلمَ كما قال بعضهُم: صلاةُ السِّرِّ وعبادةُ القلبِ، وقُربَةُ الباطنِ.

وكما لا تصحُّ الصلاةُ التي هي عبادةُ الجوارحِ الظاهرةِ إلا بطهارةِ الظاهرِ من الحَدَثِ والخَبَثِ، فكذلك لا يصحُّ العلمُ الذي هو عبادةُ القلبِ إلا بطهارتِه عن خَبَثِ الصفاتِ وحَدَثِ مساوئ الأخلاقِ ورديئها.

وإذا طُيِّبَ القلبُ للعلم ظهرَت بَرَكَتُهُ ونَما كالأرضِ إذا طُيِّبَت للزرعِ، نَما زرعُها وزكا، وفي الحديث: «**ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضغَةً، إذَا صَلَحَت صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وإذَا فَسَدَت فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ: ألا وَهِيَ القَلْبُ**»(١).

وقال سَهلٌ: حرامٌ علىٰ قلبٍ أن يدخلَه النُّورُ وفيه شيءٌ ممَّا يكرهُ الله عَجَّلَ »(٢).

القلبُ المظلمُ المشحونُ بالذنوبِ لا يستطيعُ استقبالَ العلمِ، ولا يبقىٰ فيه مكانٌ للعلمِ الذي هو نورٌ يقذفُهُ الله في قلبِ مَن أراد من عبادِهِ الصالحين.

قال الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

شَكَوتُ إلَىٰ وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي ... فَأرشَدَنِي إلَىٰ تَركِ الْمَعَاصِي
وَأخبَرَنِي بأنَّ العِلمَ نُورٌ ... وَنُورُ الله لا يُهدَىٰ لِعَاصِي(٣)

وقال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عن أبي الأديانِ قال: كنتُ مع أستاذي أبي بكرٍ

(١) رواه البخاري (٣٠٣٦)، ومسلم (٢٦٤٣) من رواية النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.
(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٦٧).
(٣) «ديوان الشافعي» ط. مؤسسة الزغبي ودار الجيل (ص٥٤).

الدقَّاقِ، فَمَرَّ حَدَثٌ، فنظرتُ إليه، فرآني أستاذي وأنا أنظرُ إليه، فقال: يا بُنَيَّ، لَتَجِدَنَّ غِبَّهُ ولو بعد حينٍ.

فبقيتُ عشرين سنةً وأنا أُراعي فَما أجدُ ذلك الغِبَّ، فنمتُ ليلةً وأنا أفكِّر فيه، فأصبحتُ وقد أُنسيتُ القرآنَ كلَّه»[١] وغِبُّ الأمرِ ومَغَبَّتُهُ: عاقبتُهُ وآخرهُ.

«**فإن قلتَ**: إني أرىٰ جماعةً من العلماء الفقهاءِ المحقِّقين برزوا في الفروعِ والأصولِ وعُدُّوا من جملةِ الفحولِ، وأخلاقُهم ذميمةٌ لم يتطهَّروا منها.

فيقالُ: إذا عرفتَ مراتبَ العلومِ، وعرفتَ علمَ الآخرةِ، استبانَ لك أنَّ ما اشتغلوا به قليلُ الغَنَاءِ من حيث كونه علمًا، وإنَّما غَنَاؤُهُ من حيث كونه لله تعالىٰ إذا قُصِدَ به التقرُّبُ إلىٰ الله تعالىٰ»[٢].

قلتُ: وحَرفُ المسألةِ يدورُ علىٰ طهارةِ القلبِ، وخضوعِ الجوارحِ لأحكامِ الشرعِ، فعلىٰ طالبِ العلمِ أن يتعهَّدَ ظاهرَهُ بالسنَّةِ، وباطنَهُ بالرعايةِ، حتىٰ يفتحَ الله عليه من العلمِ أنوارَهُ، ومن الحكمةِ كنوزَها، وذلك فضلُ الله يؤتيه من يشاءُ، والله ذو الفضل العظيمِ.

❊ ❊ ❊

---

(١) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص٣١٠).

(٢) «إحياء علوم الدين» (١/ ٤٩)، و«الإحياء» مشحونٌ بالأحاديث الضعيفة الواهية، وفيه جملةٌ من الأحاديث الموضوعة، ودعوةٌ إلىٰ التصوف وغيرِه، ممَّا ينافي منهجَ السلفِ في العقيدةِ والعملِ، وأبو حامدٍ -نفسُهُ- لا يخفىٰ حالُهُ علىٰ طلَّابِ العلمِ.

٣- تَفريغُ القَلبِ للعِلمِ، وقَطعُ العلائِقِ، وَهَجرُ العَوَائِدِ

العوائدُ: السكونُ إلىٰ الدَّعَةِ والراحةِ، وما أَلِفَهُ النَّاسُ واعتادوه من الرسومِ والأوضاعِ التي جعلوها بمنزلةِ الشَّرعِ المتَّبَعِ، بل هي عندهم أعظمُ من الشَّرعِ.

والعوائِقُ: هي أنواعُ المخالفاتِ ظاهرها وباطنها، فإنها تعوقُ القلبَ عن سيرهِ إلىٰ الله، وتقطعُ عليه طريقه، وهي ثلاثةُ أمورٍ: شِركٌ، وبدعةٌ، ومعصيةٌ، فيزولُ عائقُ الشركِ بتجريد التوحيدِ، وعائقُ البدعةِ بتحقيقِ السنَّةِ، وعائقُ المعصيةِ بتصحيحِ التوبة.

وأمَّا العلائقُ: فهي كلُّ ما تعلَّق به القَلَبُ دون الله ورسولِهِ من مَلاذِّ الدنيا وشهواتِها ورياساتِها، وصحبة الناسِ والتعلُّقِ بهم[1].

قال ابنُ القيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «العلمُ صناعةُ القلبِ وشغْلُهُ، فما لم يتفرَّغ لصناعتِهِ وشُغلِهِ لم ينلها، وله وجهةٌ واحدةٌ، فإذا وُجِّهَت وِجهَتُهُ إلىٰ اللَّذَّاتِ والشهواتِ انصرفت عن العلمِ، وما لم تغلب لَذَّةُ إدراكِهِ للعلمِ وشهوتُهُ علىٰ لَذَّةِ جسمِهِ وشهوةِ نفسِهِ لم يَنَل درجةَ العلمِ أبدًا، فإذا صارت شهوتُهُ في العلمِ ولذَّتُهُ في إدراكِهِ رُجِيَ له أن يكون من جُملَةِ أهلِهِ.

ولَذَّةُ العلمِ لَذَّةٌ عقليةٌ روحانيةٌ من جنسِ لذَّةِ الملائكةِ، ولذَّةُ شهواتِ الأكلِ

(١) انظر: «الفوائد» لابن القيم (ص٢٠٤).

والشرابِ والنكاحِ لذَّةٌ حيوانيةٌ يُشارك الإنسانَ فيها الحيوانُ ، ولذَّةُ الشرِّ والظلمِ والفسادِ والعلوِّ في الأرض شيطانيةٌ يشارك صاحبَهَا فيها إبليسُ وجنودُهُ.

وسائرُ اللَّذَّاتِ تبطلُ بمفارقةِ الروحِ البَدَنَ إلا لذَّةُ العلمِ والإيمانِ، فإنَّها تكمُلُ بعد المفارقةِ؛ لأنَّ البَدَنَ وشواغلَهُ كان يَنقُصُها ويُقلِّلُها ويحجبُهَا، فإذا انطَوَت الرُّوحُ عن البدنِ التذَّت لذةً كاملةً بما حصَّلتُه من العلمِ النافعِ والعملِ الصالحِ.

فَمَن طلبَ اللَّذَّةَ العظمىٰ وآثرَ النعيمَ المقيمَ فهو في العلمِ والإيمانِ اللَّذينِ بهما كمالُ سعادةِ الإنسانِ.

وأيضًا؛ فإنَّ تلك اللَّذَّاتِ سريعةُ الزَّوالِ، وإذا انقَضَت أعقَبت هَمًّا وغَمًّا، وألَمًا يحتاجُ صاحبُها أن يداويَهُ بمثلها دفعًا لألمِهِ، وربَّما كان معاودتُهُ لها مُؤلِمًا له كريهًا إليه، لكن يحملُهُ عليه مداواةُ ذلك الغَمِّ والهمِّ.

فأين هذا من لذَّةِ العلمِ ولذَّةِ الإيمان بالله ومحبَّتِهِ والإقبالِ عليه والتنعُّمِ بذكرهِ؟ فهذه هي اللَّذَّةُ الحقيقيةُ»[(١)].

وينبغي لطالبِ العلمِ قطعُ العلائقِ الشاغلةِ، فإنَّ الفكرة متىٰ توزَّعت قَصُرت عن إدراكِ الحقائق.

وقد كَانَ السَّلَفُ يُؤثرون العلمَ علىٰ كلِّ شيءٍ، فروي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه لم يتزوَّج إلا بعد الأربعين.

وأُهديت إلىٰ أبي بكر الأنباريِّ جاريةٌ، فلمَّا دخلت عليه تفكَّرَ في استخراجِ

---

(١) «مفتاح دار السعادة» لابن القيم (١/ ٤٤٧).

مسألةٍ فَعَزَبت[١] عنه، فقال: أخرجوها إلىٰ النَّخَّاسِ[٢] فقالت: هل لي من ذنبٍ؟! قال: لا، إلا أنَّ قلبي اشتغل بك، وما قَدرُ مِثلِكِ أن يمنعني علمي»[٣].

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يطلبُ أحدٌ هذا العلمَ بالملكِ وعزِّ النَّفسِ فيفلح، ولكن مَن طَلَبَهُ بِذُلِّ النَّفسِ وضيقِ العيشِ وخدمةِ العلماءِ أفلحَ.

وروىٰ ابنُ وهبٍ عن مالك بن أنسٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قال: لا يبلغُ أحدٌ من هذا العلمِ ما يريد حتَّىٰ يضرَّ به الفقرُ ويُؤثِرَهُ علىٰ كلِّ شيءٍ»[٤].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «كُنتُ أَلزَمُ النَّبيَّ ﷺ لِشِبَعِ بَطْنِي حِينَ لا آكُلُ الخَمِيرَ وَلَا أَلبَسُ الحَبِيرَ، ولَا يخدُمُنِي فُلانٌ ولا فُلانةٌ، وأُلصِقُ بَطِني بِالحَصْبَاءِ، وَأستَقرِئُ الرَّجُلَ الآيةَ -وهيَ مَعِي- كَي يَنْقَلِبَ بِي فَيُطْعِمَني» رواه البخاريُّ[٥].

وبوَّبَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في «كتاب العلم» من «صحيحه» بابًا سمَّاه: باب «حفظ العلم» وأخرج فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قولَهُ: «إنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَكثَرَ أَبُو هُرَيرَةَ، ولَولا آيتَانِ فِي كِتَابِ الله مَا حَدَّثْتُ حَدِيثًا، ثُمَّ يَتلُو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا

---

(١) عَزَبت: أي بَعُدَت.

(٢) هو بائعُ الدَّوَابِّ والرقيقِ.

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣١).

(٤) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ٩٣).

(٥) رواه البخاري (٥١١٦)، والحبيرُ: هو الثوبُ المحبَّرُ: وهو المُزَيَّنُ الملوَّنُ، مأخوذٌ من التحبيرِ وهو التحسينُ، وقيل: الحبيرُ ثوبُ وشي مُخَطَّطٌ، وقيل: هو الجديدُ.

ﵟٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُﵞ [البقرة:١٥٩-١٦٠]، إنَّ إخوانَنَا مِنَ المُهَاجِرينَ كَانَ يَشغَلُهُم الصَّفقُ بالأسوَاقِ، وإنَّ إخوَانَنَا مِنَ الأنصَارِ كَانَ يشغَلُهُم العَمَلُ في أموَالِهم، وإنَّ أبَا هُرَيرَةَ كَانَ يَلزَمُ رَسُولَ الله ﷺ بِشبَعِ بَطنِهِ، وَيَحضُرُ مَا لا يَحضُرُونَ، ويَحفَظُ مَا لا يَحفَظُونَ»(١).

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُ البخاريِّ: بابُ حفظِ العلمِ»، لم يذكر في البابِ شَيئًا عن غيرِ أبي هريرة، وذلك لأنَّه كَانَ أحفظَ الصحابةِ للحديثِ، قال الشافعيُّ: أبو هريرة أحفظُ مَن روىٰ الحديثَ في عصرِهِ، وقد كانَ ابنُ عمرَ يترحَّمُ عليه في جنازتِهِ ويقول: كان يحفظُ علىٰ المسلمين حديثَ النبيِّ ﷺ.

قولُهُ: «أَكْثَرَ أَبُو هُرَيرَةَ» أي: من الحديثِ عن رسول الله ﷺ.

وقولُهُ: «الصَّفْقُ» -بإسكان الفَاءِ-: هو ضَربُ اليد علىٰ اليدِ، وجَرَت به عَادتُهم عند عقدِ البيعِ»(٢).

وأبو هريرةَ رضي الله عنه أحفظُ أصحابِ النبيِّ ﷺ لحديثِهِ، مع كونهِ قصيرَ مُدَّةِ صحبةٍ له، فالمشهورُ أنَّه أسلَمَ سنةَ سبعٍ من الهجرةِ بين الحديبية وخيبر، وكان عمره حينئذٍ نحوًا من ثلاثين سنة، ولازم رسولَ الله ﷺ ملازمةً تامَّةً، حتىٰ تُوفِّيَ ﷺ.

ومع قِصَرِ مدَّةِ الصحبةِ هذه فهو رضي الله عنه أحفظُ الأصحاب للحديثِ وأكثرُهم روايةً له، وذلك لإخلاصِهِ للعلمِ، وحَذفِ علائقِ الدنيا، وتفريغِ القلبِ من الشواغلِ

(١) رواه البخاري (١١٨).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٥٨).

والمطامعِ والهمومِ.

قال ابنُ جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ طالبِ العلمِ أن يبادرَ شبابَه وأوقاتَ عمرِهِ إلىٰ التحصيلِ، ولا يغترَّ بخدعِ التسويفِ والتأميل، فإنَّ كلَّ ساعةٍ تمضي من عمرِهِ لا بَدَلَ لها، ولا عِوَضَ منها.

ويقطعُ ما يقدرُ عليه من العلائقِ الشاغلةِ، والعوائقِ المانعة عن تمامِ الطلبِ، وبذلِ الاجتهادِ، وقوَّةِ الجِدِّ في التحصيل، فإنَّها كقواطِعِ الطريقِ.

ولذلك استحبَّ السلفُ التغرُّبَ عن الأهلِ والبعدَ عن الوطنِ؛ لأنَّ الفكرةَ إذا توزَّعت قصرت عن دَركِ الحقائقِ وغموضِ الدقائقِ، وما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفِهِ.

ونقل الخطيبُ في «الجامعِ» عن بعضِهم قال: لا ينال هذا العلمَ إلا مَن عَطَّلَ دكَّانَهُ، وخَرَّبَ بستانَهُ، وهَجَرَ إخوانَهُ، ومات أقربُ أهلِهِ فلم يشهد جنازَتَهُ.

وهذا كلُّه وإن كان فيه مبالغةٌ، فالمقصودُ به أنَّه لابُدَّ من جمعِ القلبِ واجتماعِ الفكرِ»(١).

وليس المقصودُ من قطعِ العلائقِ أن يضيِّعَ المرءُ من يعولُ، أو يكفَّ عن السعي في طلبِ الرزقِ يتكفَّفُ النَّاسَ أعطوه أو منعوه، فقد قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا تشاوِر مَن ليس في بَيتِهِ دَقيقٌ، فإنَّه مُولَهُ(٢) العقل.

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٠).

(٢) **الوَلَهُ**: الحُزنُ. **وقيل**: هو ذَهَابُ العَقْلِ والتَّحَيُّرُ مِن شِدَّةِ الوَجدِ أَو الحُزنِ أو الخَوفِ، والوَلَهُ: ذَهَابُ العقلِ لفُقدَانِ الحبيبِ.

وإنما القصدُ أن يقطعَ من العلائقِ الشاغلةِ ما هو في غنًىٰ عنه، مع الاقتصادِ في السعي، ومع تفريغ القلبِ وبذلِ الجهدِ في طلبِ العلمِ، فالأمرُ كما قال أبو يوسف القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: العلمُ شيءٌ لا يعطيك بعضَهُ حتىٰ تعطيه كُلَّكَ، وأنت إذ تعطيه كُلَّكَ من إعطائهِ البعضَ علىٰ غَرَرٍ[1].

* * *

(١) علىٰ غَرَرٍ: عَلَىٰ خَطَرٍ: وغَرَّرَ بنفسِهِ ومالِهِ تَغريرًا وتَغِرَّةً: عَرَّضَها للهَلَكَةِ من غير أن يعرف، والاسمُ: الغَرَرُ، والغَرَرُ: الخَطَرُ، وبَيعُ الغَرَرِ؛ هو مِثْلُ بيعِ السَّمَكِ في الماءِ والطيرِ في الهواءِ. «لسان العرب» (غرر) (ص٣٢٣٣).

٤ - أكلُ القَدرِ اليَسيرِ مِن الحَلالِ، والأخذُ بالوَرَعِ، وإدمَانُ الذِّكرِ

قال ابن جماعةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعظمِ الأسبابِ المعينةِ علىٰ الاشتغالِ والفهمِ وعدمِ الملالِ، أكلُ القَدرِ اليسيرِ من الحلالِ».

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَا شَبِعتُ منذ ستَّ عَشرةَ سنةً».

وسببُ ذلك أنَّ كثرةَ الأكلِ جالبةٌ لكثرةِ الشُّربِ، وكثرتُهُ جالبةٌ للنومِ والبلادة وقصورِ الذهنِ وفتورِ الحواسِّ وكَسَلِ الجسمِ، هذا مع ما فيه من الكراهيةِ الشرعيةِ، والتعرُّضِ لخَطَرِ الأسقامِ البدنيَّةِ، كما قيل:

فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ ... يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ

ولم يُرَ أحدٌ من الأولياءِ والأئمةِ الأعلامِ يَصِفُ أو يُوصَفُ بكثرةِ الأكلِ، ولا حُمِدَ به، وإنَّما يُحمَدُ كَثرَةُ الأكلِ من الدَّوَابِّ التي لا تَعقِلُ، بل هي مُرصَدَةٌ للعملِ، والذهنُ الصحيحُ أشرفُ من تبديدِهِ وتعطيلِهِ بالقَدرِ الحقيرِ من طعامٍ يَؤولُ أمرُهُ إلىٰ ما قد عُلِمَ.

ولو لم يكن من آفاتِ كثرةِ الطعامِ والشرابِ إلا الحاجة إلىٰ كثرةِ دخولِ الخلاءِ، لكان ينبغي للعاقلِ اللبيبِ أن يصونَ نفسَهُ عنه.

ومَن رَامَ الفلاحَ في العلمِ وتحصيلَ البُغْيَةِ منه مع كثرةِ الأكلِ والشُّربِ والنَّومِ،

فقد رَامَ مستحيلًا في العادةِ»[١].

وقال ابنُ قُدامَة رَحِمَهُ اللهُ: «شهوةُ البطنِ من أعظمِ المهلكاتِ، وبها أُخرج آدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ من الجنَّةِ، ومن شهوةِ البطنِ تحدثُ شهوةُ الفَرجِ والرغبةُ في المالِ، ويتبعُ ذلك آفاتٌ كثيرةٌ كلُّها من بَطَرِ[٢] الشِّبَعِ».

قال عُقْبَةُ الراسِبيُّ: «دخلتُ على الحسنِ وهو يتغدَّى، فقال: هَلُمَّ، فقلتُ: أكلتُ حتى لا أستطيعَ، فقال: سبحانَ الله: أوَيَأكُلُ المسلمُ حتَّى لا يستطيعَ أن يَأكلَ؟!».

عن نافعٍ رَحِمَهُ اللهُ **قَالَ**: رَأى ابنُ عُمَرَ مِسكينًا، فَجَعَلَ يَضَعُ بَينَ يَدَيهِ، وَيَضَعُ بَينَ يَدَيهِ، قَالَ: فَجَعلَ يَأكُلُ أكلًا كَثيرًا، قَالَ: فَقَالَ: لا يَدخُلَنَّ هَذا عَلَيَّ فإنِّي سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إنَّ الكَافِرَ يَأكُلُ في سَبعَةِ أمعَاءٍ**» رواه البخاريُّ ومسلمٌ[٣].

المِعَى: المصرانُ، وجمعُهُ: أمعاء، مثل: عنب وأعناب.

وعن عبد الله بن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ المُؤمِنَ يَأكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ، وإنَّ الكَافِرَ يَأكُلُ فِي سَبْعَةِ أمعَاءٍ**» متفقٌ عليه[٤].

ومعنى الحديثِ: تمثيلٌ لرضاءِ المؤمنِ باليسيرِ من الدنيا، وحرصِ الكافرِ على التكثُّرِ منها.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٤).

(٢) البَطَرُ: شدَّةُ المَرحِ، وبَطِرَ فلانٌ: غلا في المرحِ والزَّهوِ، وبَطِرَ النعمةَ: استخفَّها فكفرها.

(٣) رواه البخاري (٥٠٧٨)، ومسلم (٢٠٦٠).

(٤) رواه البخاري (٥٠٧٩)، ومسلم (٢٠٦١).

وقال الزمخشريُّ: «والأوجَهُ أن يكونَ هذا تخصيصًا للمؤمنِ علىٰ قِلَّةِ الأكلِ وتحامي ما يجرُّهُ الشِّبَعُ من قسوةِ القلبِ والرَّينِ وطاعةِ الشهوةِ البهيمية وغير ذلكَ من أنواع الفسادِ».

وقال القسطلانيُّ: «وممَّا يؤيِّدُ أنَّ كثرةَ الأكلِ صفةُ الكافرِ قولُهُ تعالىٰ: ﴿**وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ**﴾ [محمد:١٢]، وتخصيصُ السبعةِ قيل: للمبالغةِ والتكثيرِ، كما في قوله تعالىٰ: ﴿**وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ**﴾ [لقمان:٢٧]، فيكون المرادُ: أنَّ المؤمنَ يقلُّ حرصُهُ وشَرَهُهُ علىٰ الطعامِ ويباركُ له في مأكلِهِ ومشربِهِ فيشبع بالقليلِ، والكافرُ يكون كثيرَ الحرصِ شديدَ الشَّرَهِ، لا يطمحُ بصرُهُ إلا إلىٰ المطاعمِ والمشارِبِ كالأنعامِ»[1].

وعَن المِقْدَامِ بن مَعدي كَرِبَ ﷺ قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**مَا مَلأَ آدَميٌّ وِعَاءً شَرًّا مِن بَطنٍ، بِحَسبِ ابنِ آدَمَ أَكَلاتٍ يُقِمنَ صُلْبَهُ، فَإن كَانَ لا مَحَالَةَ: فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ،وثُلُثٌ لِشَرَابِهِ، وثُلُثٌ لِنَفَسِهِ**» رواه الترمذي (٢٣٨٠)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٨١).

وفي رواية عن المقدام ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما مَلأَ آدميٌّ وعاءً شرًّا من بطنٍ، حسبُ الآدميِّ لُقَيماتٌ يُقمنَ صُلْبَهُ، فَإنْ غَلَبَتِ الآدميَّ نفسُه فَثُلُثٌ للطعامِ، وثُلُثٌ للشرابِ، وثُلُثٌ للنَّفَسِ**». رواه ابن ماجه (٣٣٤٩)،وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٢٣٧)، وانظر «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٢٦٥).

---

(١) انظر: «اللؤلؤ والمرجان» تعليق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي (٣/ ٢٩).

«ومقامُ العدلِ في الأكلِ: رفعُ اليدين مع بقاءِ شيءٍ من الشَّهوةِ، فالأكلُ في مقامِ العدلِ يُصِحُّ البدنَ وينفي المرضَ، وذلك ألَّا يتناولَ الطعامَ حتىٰ يشتهيه، ثُمَّ يرفعُ يَدَهُ وهو يشتهيه، والدوامُ علىٰ التقلُّلِ من الطعامِ يضعفُ القُوىٰ، وقد قلَّل أقوامٌ مطاعمَهُم حتىٰ قصَّروا عن الفرائضِ، وظنُّوا بجهلهم أنَّ ذلك فضيلةٌ، وليس كذلك، ومَن مَدحَ الجوعَ فإنَّما أشارَ إلىٰ الحالةِ المتوسِّطةِ التي ذكرناها»[1].

وينبغي علىٰ طالبِ العلمِ أن يأخذَ نفسَهُ بالوَرَعِ في جميعِ شأنِهِ، وقد جمعَ النبيُّ ﷺ الوَرَعَ كلَّه في كلمةٍ واحدةٍ، فقالَ: «**مِن حُسنِ إسلامِ المَرءِ تَركُهُ مَا لا يَعنِيهِ**»[2]، فهذا يعمُّ التركَ لما لا يعني: من الكلامِ والنظرِ، والاستماعِ والبطش، والمشي، والفكرِ، وسائرِ الحركاتِ الظاهرةِ والباطنةِ، فهذه الكلمةُ كافيةٌ شافيةٌ في الوَرَعِ.

وقال إبراهيمُ بنُ أدهم: «الورعُ تَركُ كلِّ شبهةٍ، وتركُ ما لا يعنيك هو تركُ الفضلاتِ»[3].

وعلىٰ طالبِ العلمِ أن ينأىٰ عن الشبهاتِ، عملًا بقولِ الرسولِ ﷺ: «**فَمَنِ اتَّقَىٰ الشُّبُهَاتِ فَقَدِ استَبرَأ لدينِهِ وعِرضِهِ، وَمَن وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ في الحَرَامِ؛ كالرَّاعِي يَرعَىٰ حَولَ الحِمَىٰ يُوشِكُ أَن يَرتَعَ فيه،ألا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًىٰ، ألا وإنَّ**

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢١١).

(٢) قال في «شرح السنة»: إسنادُهُ صحيحٌ لكنَّه مرسلٌ، رواه مالكٌ في «الموطَّأ» (٢/ ٤٧٠)، في حُسن الخُلُق «شرح السنة» (١٤/ ٣٢١)، وكذا صحَّحه الألبانيُّ في «مشكاة المصابيح» (٣/ ١٣٦١).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم تحقيق الشيخ محمد حامد الفقي (٢/ ٢١).

حِمَىٰ الله مَحَارِمُهُ»[١] متفقٌ عليه من روايةِ النعمانِ بن بشيرٍ ﵁.

«فعلىٰ طالبِ العلمِ أن يتحرَّىٰ الحلال في طعامِهِ وشرابِهِ ولباسِهِ ومسكنِهِ وجميعِ ما يحتاجُ إليه هو وعيالُهُ ليستنيرَ قلبُهُ، ويصلحَ لقبولِ العلمِ، ونورِهِ، والنفعِ به، ولا يقنعُ لنفسهِ بظاهرِ الحلِّ شرعًا مهما أمكنَهُ التورُّعُ، ولم تُلجِئهُ حاجةٌ، أو يجعل حظَّه الجوازَ، بل يطلبُ الرتبةَ العاليةَ»[٢].

وأهمُّ ما يلزمُ طالبَ العلمِ من أمرٍ، إدمَانُ ذِكرِ الله ﷿ في كُلِّ حالٍ وحينٍ، فإنَّ الذكرَ هو بابُ الفتحِ الأعظمِ، وسبيلُ الوصولِ الأقومِ، ومَن صَدَفَ عنه فقد حُرِمَ الخيرَ كلَّه وسار علىٰ غيرِ سبيلٍ، ومَن وُفِّقَ إليه فقد هُدِيَ إلىٰ الرُّشدِ وقاده خيرُ دليلٍ.

قال ابنُ القيِّم ﵀: «الإقبالُ علىٰ الله تعالىٰ والإنابةُ إليه، والرضاءُ به وعنه، وامتلاءُ القلبِ من محبَّتِه، واللهجُ بذكرِهِ، والفرحُ والسرورُ بمعرفتِهِ، ثوابٌ عاجلٌ، وجنَّةٌ وعيشٌ لا نسبةَ لعيشِ الملوكِ إليه أَلْبَتَّةَ.

وسمعتُ شيخَ الإسلامِ ابنَ تيميَّةَ -قدَّسَ الله روحَهُ- يقولُ: إنَّ في الدنيا جَنَّةً مَن لم يدخلها لا يدخلُ جنَّةَ الآخرةِ، وقالَ لي مَرَّةً: ما يصنعُ أعدائي بي؟ أنا جنَّتِي وبستاني في صدري، أَنَّىٰ رُحتُ فهي معي لا تفارقني، إنَّ حبسي خَلوةٌ، وقتلي شهادةٌ، وإخراجي من بلدي سياحةٌ.

وعَلِمَ الله ما رأيتُ أحدًا أطيبَ عيشًا منه قَطُّ، مع ما كان فيه من ضيقِ العيشِ

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٥).

وخلافِ الرفاهيةِ والنعيمِ بل ضدِّها، ومع ما كان فيه من الحبسِ والتهديدِ والإرهاقِ، وهو مع ذلك مِن أطيبِ النَّاسِ عيشًا وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرِّهم نفسًا، تلوحُ نَضْرَةُ النعيمِ علىٰ وجهِهِ»(١).

«وحضرتُ شيخَ الإسلامِ ابن تيميَّةَ مَرَّةً صلَّىٰ الفَجرَ ثمَّ جَلَسَ يذكرُ الله إلىٰ قريبٍ من منتصفِ النَّهارِ، ثمَّ التفتَ إليَّ وقالَ: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ الغداءَ سقطت قوَّتي، أو كلامًا قريبًا من هذا، وقالَ لي مَرَّةً: لا أتركُ الذِّكرَ إلا بِنِيَّةِ إجمامِ نفسي(٢) وإراحتِها لأستعدَّ بتلكَ الراحةِ لذِكرٍ آخر، أو كلامًا قريبًا هذا معناه»(٣).

وكان شيخُ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ **يقول:** «ربَّما طالعتُ علىٰ الآيةِ الواحدةِ مئةَ تفسيرٍ، ثمَّ أسألُ الله الفهمَ، وأقول: يا مُعَلِّمَ إبراهيمَ علِّمني، وكنتُ أذهبُ إلىٰ المساجدِ المهجورةِ ونحوِها، وأُمَرِّغُ وجهي في الترابِ، وأسألُ الله تعالىٰ وأقول: يا مُعَلِّمَ إبراهيم علِّمني»(٤).

عن أبي موسىٰ الأشعريِّ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذكُرُ رَبَّهُ والَّذِي لا يذكُرُ رَبَّه مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّت**»(٥) متفقٌ عليه.

ولفظُ مسلمٍ: «**مَثَلُ البَيتِ الَّذِي يُذكَرُ الله فيهِ، والبيتُ الَّذِي لا يُذكَرُ اللهُ فيهِ،**

(١) «الوابل الصيب من الكلم الطيب» لابن القيم (ص٤٤).

(٢) إجمام نفسي: إراحتها، والجَمَام: الراحةُ.

(٣) «الوابل الصيب» (ص٣٩).

(٤) مقدمة تفسير سورة الإخلاص (ص٦).

(٥) رواه البخاري (٦٠٤٤)، ومسلم (٧٧٩).

مَثَلُ الحَيِّ والمَيِّتِ»[(١)].

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المرادُ بالذِّكرِ هنا: الإتيانُ بالألفاظِ التي وَرَدَ الترغيبُ في قولها والإكثارِ منها، مثل الباقياتِ الصالحاتِ وهي: «سبحان الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا اللهُ، واللهُ أكبر»، وما يلتحقُ بها من الحوقلةِ، والبسملةِ والحسبلةِ، والاستغفارِ، ونحو ذلك، والدعاءِ بخيري الدنيا والآخرةِ.

ويُطلقُ ذِكرُ الله أيضًا ويُرادُ به المواظبةُ علىٰ العملِ بما أوجبه الله أو نَدَبَ إليه؛ كتلاوةِ القرآنِ وقراءة الحديثِ، ومدارسةِ العلمِ، والتنفُّلِ بالصلاةِ.

ثمَّ الذكرُ يقع تارةً باللسانِ ويُؤجر عليه الناطقُ ولا يُشترط استحضارُ معناه، ولكن يُشترطُ ألَّا يقصدَ به غيرَ معناه، وإن انضافَ إلىٰ النُّطْقِ الذكرُ بالقلبِ فهو أكملُ، فإن انضافَ إلىٰ ذلك استحضارُ معنىٰ الذكرِ وما اشتمل عليه من تعظيم الله ونفي النقائصِ عنه ازدادَ كمالًا، فإن وَقَعَ ذلك في عمل صالحٍ ممَّا فُرِضَ من صلاةٍ أو جهادٍ أو غيرِهما ازدادَ كمالًا، فإن صحَّح التوجُّهَ وأخلصَ لله تعالىٰ في ذلك فهو أبلغُ الكمالِ»[(٢)].

وأحقُّ مَنِ استمسك بِعُروَةِ الذِّكرِ الوثقىٰ أهلُ العلمِ وطَلَبَتُهُ، وإنهم ليسيرون به سيرًا حثيثًا موفَّقًا، وبغيرِهِ تتعثَّرُ الأقدامُ، وتصدأُ القلوبُ، وتتشابَهُ السُّبُلُ، كما قيل:

إذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ... وَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحيَانًا فَنَنتَكِسُ

* * *

(١) رواه مسلم (٧٧٩).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٢١٢).

٥- تَقْلِيلُ الطَّعَامِ والْمَنَامِ والكَلامِ، مَا أمكَنَ

تقدَّم أنَّ طالبَ العلمِ ينبغِي أن يكون مطعمُهُ حلالًا يسيرًا، «وطريقُ الرياضةِ في كَسرِ شهوةِ البطن أنَّ مَن تعوَّدَ استدامةَ الشِّبَع، فينبغي أن يُقَلِّلَ من مطعمِهِ يسيرًا مع الزمانِ إلىٰ أن يقفَ علىٰ حَدِّ التوسُّطِ، وخيرُ الأمور أوساطُها، فالأَولَىٰ تناولُ ما لا يمنعُ من العباداتِ، ويكونُ سببًا لبقاءِ القوةِ، فلا يُحِسُّ المتناولُ بجوعٍ ولا شِبَعٍ فحينئذٍ يصحُّ البدنُ، وتجتمعُ الهمَّةُ، ويصفو الفكرُ، ومتىٰ زادَ في الأكلِ أورثَهُ كثرةَ النومِ، وبلادةَ الذهنِ»[1].

وأمَّا كونُ الطعامِ حلالًا فهو أمرٌ مطلوبٌ من كلِّ مسلمٍ، وهو في حقِّ طالبِ العلمِ آكَدُ؛ إذ طالبُ العلمِ مَظِنَّةُ العلمِ بما يحلُّ وما يحرمُ، وهو مشغولٌ بما هو فيه من الطَّلَبِ والتحصيلِ عن التفكيرِ في المطعم والمشربِ، وهذا شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية: «مَا سُمِعُ أنَّه طَلَبَ طعامًا قطُّ، لا عَشَاءً ولا غَدَاءً، ولو بقي مهما بقي لشدَّةِ اشتغالِهِ بما هو فيه من العلمِ والعملِ، بل كان ربَّما يُؤتَىٰ بالطعامِ وربَّما يُترك عنده فيبقىٰ زمانًا حتىٰ يلتفت إليه، وإذا أكَلَ يأكُلُ شيئًا يسيرًا، وما ذكر من ملاذِّ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوضُ في شيءٍ من حديثها، ولا يسألُ عن شيء من معيشتها، بل جُلُّ هَمِّه وحديثِهِ في طَلَبِ الآخرةِ وما يقرِّبُ إلىٰ الله تعالىٰ»[2].

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢١٢).

(٢) «غاية الأماني في الردِّ علىٰ النبهاني» لمحمود شكري الآلوسي (٢/ ١٧٣).

وعن النعمانِ بن بشير رضي الله عنهما قَالَ: ذَكَرَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه مَا أَصَابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنيَا، فقَالَ: «لَقَد رَأيتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَظَلُّ اليَومَ يَلتَوي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يملأُ بِهِ بطنَهُ»(١) رواه مسلمٌ، الدَّقَلُ -بفتحِ الدالِ المهملةِ والقافِ-: رديءُ التَّمرِ.

وعن عائشةَ زَوجِ النَّبِيِّ ﷺ قالَت: «لَقَد مَاتَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، ومَا شَبعَ مِن خُبزٍ وزَيتٍ في يَومٍ واحِدٍ مَرَّتَين»(٢) رواه مسلم.

وعنها رضي الله عنها أنَّها قالت: «مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِن خُبزِ شَعيرٍ يَوْمَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، حَتَّىٰ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ»(٣) رواه مسلم.

وأمَّا المنامُ: «فعلىٰ طالبِ العلمِ أن يقلِّلَ منه ما لم يلحقه ضَرَرٌ في بدنهِ وذهنِهِ، ولا يزيدُ في نومِهِ في اليومِ والليلةِ علىٰ ثماني ساعاتٍ، وهو ثُلُثُ الزمانِ، فإن احتمل حالُهُ أقلَّ منها فَعَلَ»(٤).

قال الزَّرنُوجيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «دَخَلَ الحَسَنُ بنُ زيادٍ رَحِمَهُ اللَّهُ في التَّفَقُّهِ وهو ابنُ ثمانينَ سنةً، ولم يَبِت علىٰ فراشِهِ أربعينَ سنةً.

وكان محمدُ بنُ الحَسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ، لا ينامُ الليلَ، وكان يضَعُ عندهُ دَفَاتِرَهُ، وكان إذا مَلَّ من نوعٍ ينظرُ في نوعٍ آخر، وكان يَضَعُ عندهُ كأسَ الماءِ، ويزيلُ نَومَهُ بالماءِ،

(١) رواه مسلم (٢٩٧٨).

(٢) رواه مسلم (٢٩٧٤).

(٣) رواه مسلم (٢٩٧٠).

(٤) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٧٧).

وكان يقولُ: إنَّ النومَ من الحرارةِ، فلابُدَّ من دَفعِهِ بالماءِ الباردِ»[١].

وعن عبدِ الله بن مسعودٍ ﷺ قال: «ذُكرَ عِندَ النَّبيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائمًا حَتَّىٰ أَصبَحَ، مَا قَامَ إِلَىٰ الصَّلاةِ، فقَالَ: «**بَالَ الشَّيطَانُ فِي أُذُنَيهِ**» أو قال: «**فِي أُذُنِهِ**»[٢]. متفق عليه.

وقد مَدَحَ الله ﷻ المتقينَ، وَوَصَفَهُم بالإحسانِ، وبأنَّهم كانوا لا ينامون من الليلِ إلا قليلًا، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ [الذاريات:١٥-١٩] يهجعون: ينامون.

وكَثْرَةُ النَّومِ ليست من شأنِ طَلَبَةِ العلمِ، ولا هم منها بسببٍ قريبٍ أو بعيدٍ، بل شأنُهم الجِدُّ والحرصُ، ولن يشبعَ مؤمنٌ من خيرٍ حتىٰ يكونَ منتهاهُ الجنَّة.

وأمَّا تقليلُ الكلامِ: فقد قالَ ﷺ: «**مَن كَانَ يؤمنُ بالله واليَومِ الآخرِ، فَليَقُلْ خَيرًا أَو لِيَصمُتْ**»[٣] متفقٌ عليه، وفي لفظٍ لمسلمٍ: «**فَليَقُلْ خَيرًا أَو لِيَسكُتْ**».

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قوله ﷺ: «**فَليَقُلْ خَيرًا أَو لِيَصمُتْ**»، معناه: أنَّه إذا أراد أن يتكَلَّم، فإن كان ما يتكلَّمُ به خيرًا محقَّقًا يُثَاب عليه، واجبًا أو مندوبًا، فليتكلَّمَ، وإن لم يظهر له أنَّه خيرٌ يُثَابُ عليه فليُمسِك عن الكلامِ، سواءٌ ظهر لهُ أنَّه حرامٌ أو مكروهٌ أو مباحٌ مستوي الطرفين، فعلىٰ هذا يكون الكلامُ المباحُ مأمورًا بتركِهِ،

(١) «تعليم المتعلم طريق التعلم» لبرهان الإسلام الزرنوجي (ص٢٣).
(٢) رواه البخاري (٣٠٩٦)، ومسلم (٧٧٤).
(٣) رواه البخاري (٥٦٧٢)، ومسلم (٧٥).

مندوبًا إلىٰ الإمساكِ عنه؛ مخافةً من انجرارِهِ إلىٰ المحرَّمِ أو المكروه، وهذا يقعُ في العادةِ كثيرًا أو غالبًا، وقد أخذ الإمامُ الشافعيُّ ﷺ معنىٰ الحديثِ فقال: إذا أراد أن يتكلَّم فليفكِّر، فإن ظهر له أنَّه لا ضرَرَ عليه تكلَّمَ، وإن ظَهَرَ لهُ فيه ضَرَرٌ أو شَكَّ فيه أمسكَ»[(١)].

وقال ابنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن يزيدَ بن أبي حبيبٍ قال: إنَّ من فتنةِ العالِمِ أن يكونَ الكلامُ أحبَّ إليه من الاستماعِ، وفي الاستماعِ سلامةٌ وزيادةٌ في العلمِ، والمستمعُ شريكُ المتكلِّمِ، وفي الكلامِ توهُّنٌ وتزيُّنٌ وزيادةٌ ونقصانٌ، وقال: إنَّ المتكلِّمَ لَينتَظِرُ الفتنةَ، وإنَّ المنصتَ لَيَنتَظرُ الرحمةَ.

وقالَ أبو الذيَّالِ: تَعلَّم الصمتَ كما تتعلَّمُ الكلامَ، فإن يكن الكلامُ يهديك فإنَّ الصمتَ يقيك، ولك في الصمتِ خصلتان، خصلةٌ تأخذُ بها من علمِ مَن هو أعلمُ منك، وخصلةٌ تدفعُ بها جهلَ مَن هو أجهلُ منك.

وقال ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الكلامُ بالخيرِ غنيمةٌ،وهو أفضلُ من السكوتِ؛ لأنَّ أرفعَ ما في السكوتِ السلامةُ، والكلامُ بالخير غنيمةٌ، وقد قالوا: مَن تَكَلَّمَ بخيرٍ غَنِمَ، ومَن سَكَتَ سَلِمَ، والكلامُ في العلمِ من أفضلِ الأعمالِ، وهو يجري عندهم مجرىٰ الذِّكرِ والتلاوةِ إذا أُريد به نفيُ الجهلِ، ووجهُ الله عَزَّوَجَلَّ والوقوفُ علىٰ حقيقةِ المعاني»[(٢)].

عن أبي حَيَّان التَّيميِّ قال: «كان يُقال: ينبغي للرَّجُلِ أن يكونَ أحفظَ للسانِهِ

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/ ١٨).
(٢) «جامع بيان العلم وفضله» لابن عبد البر (١/ ١٣٧).

منه لموضع قدمه»[١].

وما ذلك إلا لخطرِ اللسانِ وكثرةِ الكلامِ علىٰ قلبِ المؤمنِ، إذ آفاتُ اللسانِ كثيرةٌ ومُهلِكَةٌ، وإن كانت واحدةٌ منها لكافيةً لاستفراغِ العمرِ في التوقِّي منها والحذرِ، ولكنَّ الله يبتلي خَلْقَهُ حتىٰ يعلمَ المصلحَ من المفسدِ، والأمرُ لله مِن قَبلُ ومِن بَعدُ.

فعلىٰ طالبِ العلمِ أن يخزنَ لسانَه، ويحفظَ زمانَهُ، وأن يشغلَ نفسَهُ بالحقِّ فلا تضيعُ أوقاتُهُ هباءً ويذهبُ عُمُرُهُ سُدًىٰ، والموفَّق مَن وفَّقَهُ الله ﷻ.

* * *

(١) «الصمت وآداب اللسان» لابن أبي الدنيا، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف (ص٢٠٦).

٦- تَركُ العِشْرَةِ ما أمكَنَ، واختِيَارُ الصَّاحبِ والرَّفِيقِ

العِشْرَةُ والمخالَطَةُ لا تكونُ لميِّتِ القلبِ فهو قاطعُ الطريقِ، وإنَّما تكونُ لِمَن يزيدُ حالُهُ في حالِك وعملُهُ في عَمَلِكَ.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَيِّتُ القلبِ يُوحِشُك، فاستأنِس بِغَيبَتِهِ ما أمكَنكَ، فإنَّك لا يُوحِشُك إلا حُضُورُهُ عِندَك، فإذا ابتليتَ به فَأَعطِهِ ظَاهِرَكَ، وتَرَحَّل عَنْهُ بِقَلبِكَ، وفَارِقهُ بِسِرِّك، ولا تُشغَل بِهِ عمَّا هو أَولىٰ بِك».

واعلم أنَّ الحسرةَ كلَّ الحسرةِ الاشتغالُ بِمَن لا يجُرُّ عليك الاشتغالُ به إلا فوتَ نصيبِك وحَظِّك من الله عَزَّوَجَلَّ، وانقطاعَك عنه، وضياعَ وقتِك عليك، وضَعفَ عزيمتكَ، وتفرُّقَ هَمِّك.

فإذا ابتُليت بهذا -ولابُدَّ لك منه- فعامِل الله تعالىٰ فيه، واحتسب عليه ما أمكَنكَ، وتقرَّب إلىٰ الله تعالىٰ بمرضاتِك فيه، واجعل اجتماعَك به مَتجرًا لك لا تجعله خسارةً، وكُن معه كَرَجُلٍ سائرٍ في طريقه عَرَضَ له رَجُلٌ وَقَفَهُ عن سَيرِهِ، فاجتهد أن تأخُذَهُ معك وتسيرَ به فتحملَهُ ولا يحملَكَ، فإن أبىٰ ولم يكن في سيرهِ مَطْمَعٌ فلا تقف معه ودَعهُ ولا تلتفت إليه فإنَّه قاطِعُ الطريقِ ولو كان مَن كان، فانجُ بقلبك، وضنَّ بيومِك وليلتكَ ولا تغرُب عليك الشمسُ قبل وصولِ المنزلةِ فَتؤخَذ»[(١)].

(١) «الوابل الصيب» لابن القيم (ص٤٥).

«فعلىٰ طالبِ العلمِ أن يتركَ العِشرَةَ فإنَّ تركَهَا من أهَمِّ ما ينبغي لطالبِ العلمِ، ولاسيما لغيرِ الجنسِ، وخصوصًا لمن كَثُرَ لَعِبُهُ وقَلَّت فِكرتُهُ، فإنَّ الطِّبَاعَ سَرَّاقَةٌ.

وآفةُ العِشْرَةِ ضياعُ العمرِ بغير فائدةٍ، وذَهَابُ المالِ والعِرضِ إن كانت لغيرِ أهلِهِ.

وينبغي لطالبِ العلمِ ألا يخالطَ إلا مَن يفيده أو يستفيد منه، وإن تعرَّضَ لَصُحبَتِهِ مَن يضيعُ عُمُره معه، ولا يفيده، ولا يستفيد منه، ولا يعينُه علىٰ ما هو بصددِهِ، فَليَتَلَطَّف في قَطعِ عِشرَتِهِ من أولِ الأمرِ قبل تمكُّنِها، فإنَّ الأمورَ إذا تمكَّنت عَسُرت إزالتُها، ومن الجاري علىٰ ألسِنَةِ الفقهاءِ: الدَّفْعُ أسهلُ من الرَّفعِ.

فإن احتاجَ إلىٰ مَن يصحبه، فليكن صاحبًا صالحًا دَيِّنًا تَقيًّا وَرِعًا ذَكِيًّا كثيرَ الخيرِ قليلَ الشَّرِّ، حَسَنَ المداراةِ قليلَ المُمَارَاةِ، إن نَسِيَ ذَكَّره، وإن ذَكَر أعانَهُ، وإن احتاجَ واساه، وإن ضَجِرَ صَبَّرَهُ»[(١)].

وقد كان الأئمةُ ﷺ يخالطون النَّاسَ ويعلِّمونَهم، وهم في ذات الوقتِ أحرصَ النَّاسِ علىٰ أزمانهم أن تضيعَ هَدَرًا أو تذهبَ سُدًىٰ.

كان الإمامُ أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أصبرَ النَّاسِ علىٰ الوحدةِ مع كونِهِ إمامَ الدنيا فِي وقته رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال عبدُ الله بنُ أحمد: «خرجَ أبي إلىٰ طَرَسُوسَ ماشيًا، وحَجَّ حَجَّتين أو ثلاثًا ماشيًا، وكان أصبرَ النَّاسِ علىٰ الوحدةِ، وبِشرٌ -هو ابنُ الحارثِ الحافي الزاهدُ

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٣).

المشهورُ- فيما كان فيه لم يكن يصبر علىٰ الوحدةِ، كان يخرجُ إلىٰ ذا وإلىٰ ذا»[١].

قال ابنُ قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّه لا يصلُحُ للصحبةِ كلُّ أحدٍ، ولابُدَّ أن يتميَّزَ المصحوبُ بصفاتٍ وخصالٍ يُرغَبُ بسببِها في صحبتِهِ.

وينبغي أن يكونَ فيمَن تُؤثَرُ صحبتُه خمسُ خِصَالٍ: أن يكونَ عاقلًا، حَسَنَ الخُلُقِ، غيرَ فاسقٍ، ولا مبتدعٍ، ولا حريصٍ علىٰ الدنيا.

أمَّا العقلُ: فهو رأسُ المالِ، ولا خيرَ في صحبةِ الأحمقِ؛ لأنَّه يريدُ أن ينفعكَ فيضرَّك، ونعني بالعاقلِ الذي يفهمُ الأمورَ علىٰ ما هي عليه، إمَّا بنفسهِ، وإما أن يكونَ بحيثُ إذا أُفهِمَ فَهِمَ.

وأمَّا حُسنُ الخُلُقِ: فلابُدَّ منه، إذ رُبَّ عاقلٍ يغلبُهُ غضبٌ أو شهوةٌ فيطيعُ هواه، فلا خيرَ في صحبتِهِ.

وأمَّا الفاسقُ: فإنَّه لا يخافُ الله، ومَن لا يخافُ الله تعالىٰ لا تُؤمَنُ غَائِلَتُهُ[٢]، ولا يُوثَقُ به.

وأمَّا المُبتدِعُ: فَيُخَافُ من صحبتِهِ بِسرايةِ بدعتِهِ.

قال عمرُ بنُ الخطابِ رضي الله عنه: عليك بإخوانِ الصدقِ تَعِشِ في أكنافهم، فإنَّهم زينةٌ في الرَّخَاءِ وعُدَّةٌ في البلاءِ، وضع أمرَ أخيك علىٰ أحسنِهِ حتىٰ يجيئك ما يَقليك[٣] منه،

(١) «ترجمة الإمام أحمد» للذهبي (ص١٨).

(٢) **الغائلةُ**: الفسادُ والشرُّ والداهيةُ، والجمعُ: غوائل.

(٣) **من القلىٰ**: وهو البُغضُ.

واعتزل عدوَّكَ، واحذر صديقَك إلا الأمينَ، ولا أمينَ إلا من يخشىٰ الله، ولا تصحب الفاجرَ فتتعلَّمَ من فجورِهِ، ولا تُطلعه علىٰ سِرِّك، واستشر في أمرِك الذين يخشون الله تعالىٰ.

وقال يحيىٰ بنُ معاذٍ: بئسَ الصديقُ تحتاجُ أن تقولَ له: اذكرني في دعائك، وأن تَعيشَ معه بالمدَارَاةِ أو تحتاج أن تعتذرَ إليه.

وقال أبو جَعفرٍ لأصحابِهِ: أيُدخل أحدُكم يَدَهُ في كُمِّ أخيه فيأخذُ منه ما يريدُ؟ قالوا: لا، قال: فلستم بإخوانٍ كما تزعمون»(١).

ولابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الشأنِ مشاركةٌ وجُهدٌ جهيدٌ،فقد شَخَّصَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الداءَ ووصفَ الدواءَ، وأخَذَ به فكان أكثرَ العلماءِ تصانيفَ.

يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيانِ الابتلاءِ بأهلِ الفراغِ وكيف يتعاملُ معهم من ابتُلي بهم: «أعوذُ بالله من صحبةِ البطَّالينَ، لقد رأيتُ خلقًا كثيرًا يَجْرون معي فيما قد اعتاده النَّاسُ من كثرةِ الزيارةِ، ويسمُّون ذلك التَرَدُّدَ خِدْمةً، ويطلبون الجلوسَ، ويُجْرونَ فيه أحاديثَ النَّاسِ وما لا يعني، وما يَتَخَلَّلُهُ من غِيبةٍ.

وهذا شيءٌ يفعلُه في زمانِنا كثيرٌ من النَّاسِ، وربَّما طلبه المزورُ وتَشَوَّقَ إليه واستوحشَ من الوَحْدَةِ، وخصوصًا في أيام التهاني والأعيادِ، فتراهم يمشي بعضُهم إلىٰ بعضٍ، ولا يقتصرون علىٰ الهناءِ والسلامِ، بل يمزجون ذلك بما ذكرتُه من تضييعِ الزمانِ.

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص١٢٦).

فلمَّا رأيتُ أنَّ الزمانَ أشرفُ شيءٍ، والواجبُ انتهازُهُ بفعلِ الخيراتِ، كرهتُ ذلكَ، وبقيتُ معهم بين أمرين: إن أنكرتُ عليهم وقعت وَحشَةٌ لموضعِ قَطعِ المألوفِ، وإن تقبَّلتُه منهم ضاعَ الزمانُ.

فصرتُ أُدافعُ اللقاءَ جَهْدي، فإذا غُلبتُ قَصَرْتُ في الكلامِ؛ لأتعجَّلَ الفراقَ.

ثمَّ أعددتُ أعمالًا لا تمنعُ من المحادثة لأوقاتِ لقائهم؛ لئلَّا يمضيَ الزمانُ فارغًا، فجعلتُ من المستَعَدِّ للقائهم قَطْعَ الكاغَدِ(١)، وبَريَ الأقلامِ، وحَزْمَ الدفاترِ؛ فإن هذه الأشياءَ لابُدَّ منها، ولا تحتاجُ إلىٰ فكرٍ وحضورِ قلبٍ، فأرصدتُها لأوقاتِ زيارتهم لئلَّا يضيعَ شيءٌ من وقتي.

نسألُ الله ﷻ أن يعرِّفَنَا شرفَ أوقاتِ العمرِ، وأن يوفِّقَنَا لاغتنامِهِ.

ولقد شاهدتُ خلقًا كثيرًا لا يعرفُونَ معنىٰ الحياةِ؛ فمنهم مَن أغناه الله عن التكسُّبِ بكثرةِ مالِهِ، فهو يَقعُدُ في السوقِ أكثرَ النهارِ ينظرُ إلىٰ النَّاسِ، وكم تمرُّ به من آفةٍ ومنكرٍ.

ومنهم مَن يخلو بلَعِبِ الشِّطرنجِ، ومنهم مَن يقطعُ الزمانَ بكثرةِ التحدُّثِ عن السلاطينِ والغَلاءِ والرُّخْصِ إلىٰ غير ذلك، فعلمتُ أنَّ الله تعالىٰ لم يُطلِع علىٰ شَرَفِ العلمِ ومعرفةِ أقدارِ العافيةِ إلا مَن وفَّقَهُ وألهمه اغتنامَ ذلك ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٥]»(٢).

---

(١) **الكاغَدُ**: القرطاسُ، وهو ورقُ الكتابةِ، مُعَرَّبٌ.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي، تعليق د. سيد الجميلي (ص٢٧٣).

وساقَ ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعضَ أخبار الصالحين في حفظِ الوقتِ ورعايةِ اللحظاتِ فقال: «دخلوا علىٰ رجلٍ من السَّلَفِ فقالوا: لعلَّنا شغلناك، فقال: أَصْدقُكُم، كنتُ أقرأ فتركتُ القراءة لأجلِكم.

وجاء رجلٌ من المتعبِّدين إلىٰ سريٍّ السَّقطيِّ فرأىٰ عنده جماعةً فقال: صرتَ مناخَ البطَّالين؟! ثمَّ مضىٰ ولم يجلس.

ومتىٰ لانَ المزورُ طمعَ فيه الزائرُ فأطالَ الجلوسَ فلم يَسلمَ من أذىً.

وقد كان جماعةٌ قعودًا عند معروفٍ فأطالوا، فقالَ: إنَّ مَلَكَ الشمسِ لا يَفتُرُ في سَوقها، أفما تريدون القيامَ؟!

وممَّن كان يحفظُ اللحظاتِ عامرُ بنُ عبدِ القيسِ، قال له رجلٌ: قِف، أكلِّمْكَ. قال:أمسِكِ الشمسَ.

وكان داودُ الطائيُّ يَستَفُّ الفَتِيتَ، ويقولُ: بين سَفِّ الفتيتِ وأكلِ الخُبزِ قراءةُ خمسين آية.

وأوصىٰ بعضُ السَّلَفِ أصحابَهُ فقال: إذا خرجتُم من عندي فتفرَّقوا لعلَّ أحدَكم يقرأُ القرآنَ في طريقِه، ومتىٰ اجتمعتُم تحدَّثتُم»(١).

فعلىٰ طالبِ العلمِ أن يحرصَ علىٰ اجتنابِ مَن لا تلزمُهُ خُلطَتُهُ شرعًا، حتَّىٰ يحفظَ زمَانَهُ، ويرعىٰ قَلْبَهُ، وعليه أن يختارَ الصاحبَ الذي يُعينهُ علىٰ أمرِ دينِهِ وآخرَتِهِ.

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٥٦١).

٧- اختيارُ العلمِ والشيخِ

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَ شَرفَ العلمِ تابعٌ لشرفِ معلومِهِ، لوثوقِ النفسِ بأدلَّةِ وجودِهِ وبراهينِهِ، ولشدَّة الحاجةِ إلىٰ معرفتِهِ وعِظَمِ النَّفعِ بها، ولا ريبَ أنَ أجلَّ معلومٍ وأعظَمَهُ وأكبرَهُ فهو الله الذي لا إله إلا هو ربُّ العالمين، وقيُّومُ السمواتِ والأرضين، الملكُ الحقُّ المبينُ، الموصوفُ بالكمالِ كلِّه، المنزَّهُ عن كلِّ عيبٍ ونقصٍ، وعن كلِّ تمثيلٍ وتشبيهٍ في كمالِهِ.

ولا ريبَ أنَّ العلمَ به وبأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ أجَلُّ العلومِ وأفضلُها، ونسبَتُهُ إلىٰ سائرِ العلومِ كنسبةِ معلومِهِ إلىٰ سائرِ المعلوماتِ، وكما أنَّ العلمَ به أجلُّ العلومِ وأشرفُها فهو أصلُها كلِّها، كما أنَّ كلَّ موجودٍ فهو مُستَنِدٌ في وجودِهِ إلىٰ الملكِ الحقِّ المبينِ، ومفتقِرٌ إليه في تحقيقِ ذاتِهِ، وكلُّ علمٍ فهو تابعٌ للعلمِ به مفتقرٌ في تحقيقِ ذاتِهِ إليه، فالعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ، كما أنَّه سبحانه ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُهُ ومُوجِدُهُ.

ولا رَيبَ أنَّ كمالَ العلمِ بالسَّبَبِ التَّامِّ، وكونَه تامًّا يستلزمُ العلمَ بمُسبِّبه، كما أنَّ العلمَ بالعلَّةِ التَّامَّةِ ومعرفَةَ كونِها علَّةً يستلزمُ العلمَ بمعلولِهِ، وكلُّ موجودٍ سوىٰ الله فهو مُستَنِدٌ في وجودِهِ إليه استنادَ المصنوعِ إلىٰ صانعهِ، والمفعولِ إلىٰ فاعلهِ.

فالعلمُ بذاتِهِ سبحانَهُ وصفاتِهِ وأفعالِهِ يستلزمُ العلمَ بما سواه، فهو في ذاتِهِ ربُّ كُلِّ شيءٍ ومليكُهُ، والعلمُ به أصلُ كلِّ علمٍ ومنشؤُهُ؛ فمَن عَرَفَ الله عَرَفَ مَا سواهُ، ومَن جَهِلَ رَبَّهُ فهو لما سواه أجهلُ، قالَ تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ

أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر:١٩]، فتأمَّل هذه الآيةَ تجد تحتها معنًىٰ شريفًا عظيمًا، وهو أنَّ مَن نسيَ ربَّه أنساه ذاتَهُ ونفسَهُ، فلم يعرف حقيقَتَهُ ولا مصالحَهُ، بل نسي ما بِهِ صلاحُهُ وفلاحُهُ في معاشِهِ ومعادِهِ، فصار مُعَطَّلًا مهمَلًا بمنزلةِ الأنعامِ السائمةِ، بل ربَّما كانت الأنعامُ أخبرَ بمصالحِهَا منه لبقائها علىٰ هُدَاها التامِّ الذي أعطاها إيَّاه خالقُهَا، وأمَّا هذا فخرج عن فطرِتِهِ التي خُلِقَ عليها، فنسيَ ربَّه، فأنساهُ نَفسَهُ وصفاتِها، وما تكمُلُ به وتزكو به وتسعَدُ به في معاشِها ومعادها قالَ الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، فغَفَلَ عن ذِكرِ ربِّهِ فانفرطَ عليه أمرُهُ وقلبُهُ، فلا التفاتَ له إلىٰ مصالحِهِ وكمالِهِ وما تَزكو به نفسُهُ وقلبُهُ، بل هو مُشَتَّتُ القلبِ مُضَيَّعُهُ، مُنفَرِطُ الأمرِ حيرانُ، لا يهتدي سبيلًا.

والمقصودُ: أنَّ العلمَ بالله أصلُ كلِّ علمٍ، وهو أصلُ علمِ العبدِ بسعادتِهِ وكمالِهِ ومصالح دنياه وآخرتِهِ، والجهلُ به مُستَلزِمٌ للجهلِ بنفسهِ ومصالحِهَا وكمالِهَا وما تزكو به وتُفلح به، فالعلمُ به سعادةُ العبدِ، والجهلُ به أصلُ شقاوتِهِ.

ولا شيءَ أطيبُ للعبدِ ولا ألذُّ ولا أهنأُ ولا أنعمُ لقلبهِ وعَيشِهِ من محبَّةِ فاطرِهِ وباريهِ ودوامِ ذكرهِ، والسَّعي في مَرضَاتِهِ، وهذا هو الكمالُ الذي لا كمالَ للعبدِ بدونهِ، وله خُلِقَ الخَلْقُ، ولأجلِهِ نَزَلَ الوحيُ، وأُرسِلَت الرُّسُلُ، وقامت السمواتُ والأرضُ، ووُجدت الجنَّةُ والنَّارُ، ولأجلِهِ شُرِعَت الشَّرائِعُ، ووُضِعَ البيتُ الحرامُ، ووَجَبَ حَجُّهُ علىٰ النَّاسِ إقامةً لِذكرِهِ الذي هو من توابعِ محبَّتِهِ والرِّضا به وعنهُ، ولأجلِ هذا أُمِرَ بالجهادِ، وضُربَت أعناقُ مَن أباهُ وآثرَ غيرَهُ عليهِ، وجُعِلَ له في الآخرةِ دارُ الهَوانِ خالدًا مُخَلَّدًا.

وعلىٰ هذا الأمرِ العظيم أُسِّسَت الملَّةُ، ونُصبَت القِبْلَةُ، وهو قطبُ رحىٰ الخَلقِ والأمرِ، الذي مدارُهُما عليه، ولا سبيلَ إلىٰ الدخولِ إلىٰ ذلك إلا من باب العلمِ؛ فإنَّ محبَّةَ الشيءِ فرعٌ عن الشعورِ به، وأعرَفُ الخَلقِ بالله أشدُّهُم حُبًّا له، فكلُّ مَن عَرفَ الله أحبَّهُ، ومَن عَرَفَ الدنيا وأهلَها زَهِدَ فيهم، فالعلمُ يفتحُ هذا البابَ العظيمَ الذي هو سِرُّ الخَلقِ والأمرِ»(١).

فينبغي لطالبِ العلم أن يختارَ البدءَ بالذي هو في أَمَسِّ الحاجةِ إليه في عاجلِ أمرِهِ وآجلِهِ، أعني: العلمَ بالله ﷻ؛ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ، فإذا انضبطَ له هذا المقدارُ من علمٍ بالله ﷻ، كان عليه الأخذُ بعلمي الكتابِ والسنَّةِ علىٰ نَهجِ صَدرِ الأمَّةِ الأولِ ﷺ، حتىٰ يصحَّ له التلقِّي عن رسولِ الله ﷺ.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لمَّا كانَ التَّلقي عنه ﷺ علىٰ نوعين: نوعٍ بوساطةٍ ونوعٍ بغير وساطةٍ، وكان التلقِّي بلا وساطةٍ حظَّ أصحابِهِ الذين حازوا قَصَبَاتِ السَّبقِ(٢)، واستولَوا علىٰ الأمَدِ(٣)، فلا طَمَعَ لأحدٍ من الأمَّةِ بَعْدَهم في اللِّحَاقِ، ولكنَّ المُبرِّزَ من اتَّبَعَ صراطَهم المستقيمَ، واقتفىٰ منهاجَهم القويمَ، والمتخلِّفَ مَن عَدَلَ عن طريقهم ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشِّمَالِ، فذلك المنقطعُ التَّائِهُ في بَيداءِ المهالِكِ والضَّلالِ فأيُّ خَصلةِ خيرٍ لم يسبقوا إليها؟! وأيُّ خُطَّةِ رُشدٍ لم يستولوا عليها؟!

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣١١).

(٢) أحرزَ قَصَبَ السَّبْقِ: أصلُهُ أنَّهم كانوا ينصبون في حلبةِ السِّبَاقِ قصبةً فَمَن سَبَقَ اقتلعها وأخذها. ليُعلَمَ أنَّه السابقُ. «المعجم الوسيط» (٢/ ٧٣٧).

(٣) الأمَدُ: الغايةُ.

تالله لقد وَرَدوا رأسَ الماء من عينِ الحياةِ عَذْبًا صافيًا زُلالًا، وأيَّدوا قواعدَ الإسلامِ فلم يَدَعُوا لأحدٍ بعدهم مَقَالًا، فتحوا القلوبَ بعَدلِهم بالقرآنِ والإيمانِ، والقُرىٰ بالجهادِ بالسَّيفِ والسِّنَانِ، وألقوا إلىٰ التابعين ما تلقَّوه من مشكاةِ النُّبوَّةِ خالصًا صافيًا، وكان سنُدهم فيه عن نبيِّهم ﷺ عن جبريلَ عن ربِّ العالمينَ سَنَدًا صحيحًا عاليًا، وقالوا: هذا عَهدُ نبيِّنا إلينا وقد عهدنا إليكم، وهذه وصيةُ ربِّنا وفرضُهُ علينا وهي وصيَّتُهُ وفرضُهُ عليكم.

فَجَرىٰ التابعون لهم بإحسانٍ علىٰ منهاجِهم القويم، واقتفوا علىٰ آثارِهم صراطَهم المستقيم، ثم سَلَكَ تابعو التابعينَ هذا المسلَكَ الرشيدَ، وهُدُوا إلىٰ الطَّيِّبِ من القولِ وهُدُوا إلىٰ صراطِ الحميدِ، وكانوا بالنسبةِ إلىٰ مَن قبلهم كما قالَ أصدقُ القائلين: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ [الواقعة:١٣-١٤].

ثمَّ جاءت الأئمَّةُ من القرنِ الرابعِ المفضَّلِ في إحدىٰ الروايتين، كما ثبتَ في الصحيح[١] من حديثِ أبي سعيدٍ وابن مسعودٍ وأبي هريرةَ وعائشةَ وعمرانَ بن حُصين، فسلكوا علىٰ آثارِهم اقتصاصًا، واقتبسوا هذا الأمرَ عن مشكاتِهم اقتباسًا، وكان دينُ الله سبحانه أجَلَّ في صدورهم، وأعظمَ في نفوسِهم من أن يُقَدِّموا عليه رأيًا معقولًا أو تقليدًا أو قياسًا، فطار لهُمُ الثناءُ الحسَنُ في العالمين، وجعل الله سبحانه لهم لسانَ صدقٍ في الآخرينَ، ثمَّ سار علىٰ آثارهم الرَّعيلُ الأولُ من أتباعهم، ودَرَجَ علىٰ منهاجِهم الموفَّقونَ من أشياعِهم، زاهدين في التعقُّبِ للرجالِ، واقفين

(١) يشير إلىٰ ما رواه البخاري (٢٥٠٨، ٣٤٥٠، ٣٤٥١، ٦٠٦٤، ٦٠٦٥، ٦٢٨٢)، ومسلم (٢٥٣٢، ٢٥٣٥).

مع الحُجَّةِ والاستدلالِ، يسيرون مع الحقِّ أين سارت ركائبُهُ، ويستقلُّون مع الصوابِ حيث استقلَّت مضاربُهُ، إذا بَدَا لهم الدليلُ بِأُخْذَتِهِ[١] طاروا إليه زَرَافَاتٍ وَوُحدَانًا[٢]، وإذا دعاهم الرسولُ إلىٰ أمرٍ انتدبوا إليه ولا يسألونَهُ عمَّا قال بُرهانًا[٣]، ونصوصُه أجَلُّ في صدورِهم وأعظمُ في نفوسِهم من أن يُقَدِّموا عليها قولَ أحدٍ من النَّاسِ، أو يعارضوها برأيٍ أو قياسٍ»[٤].

وعلىٰ الجملةِ: فينبغي لطالبِ العلمِ أن يُصَرِّفَ هَمَّهُ، ويُوَجِّهَ هِمَّتَهُ إلىٰ علومِ القرآنِ والسنَّةِ، فالعلمُ بهما هو العلمُ الحقُّ، والجهلُ بغيرهما جهلٌ لا يضرُّ.

ورحم الله الشافعيَّ الإمامَ إذ يقولُ:

كُـلُّ العُلُـومِ سِـوَىٰ القُـرآنِ مـشْغَلَةٌ ... إلا الحَـديثَ وإلا الفِقْـهَ فِـي الـدِّينِ

العِلْـمُ مَـا كَـانَ فِـيهِ قَـالَ حَدَّثَـنَا ... وَمَـا سِـوَىٰ ذَاكَ وَسـوَاسُ الـشَّيَاطِينِ

---

(١) **الأُخْذَةُ**: رُقْيَةٌ كالسِّحرِ، وهي بضمِّ الهمزةِ، والمعنىٰ: أنَّ الدليلَ له عندهم فعلٌ، كفعلِ السِّحرِ، فلا يؤثرون عليه شيئًا.

(٢) **زَرَافاتٌ**: جماعاتٌ. وُحْدَانًا: جمعُ واحدٍ، والمعنىٰ: ذهبوا إلىٰ الدليلِ جميعًا، وهو مأخوذٌ من قولِ الحماسِيِّ:

قَـوْمٌ إذَا الـشَّرُّ أَبـدَىٰ نَاجِذَيـهِ لَهُـم ... طَـارُوا إِلَـيهِ زَرَافَـاتٍ وَوُحْـدَانَا

(٣) مأخوذٌ من قولِ الحماسيِّ صاحبِ البيت المتقدِّمِ:

لا يَـسأَلُونَ أَخَـاهُم حِـينَ يَـنْدُبُهُم ... فِـي النَّائِـبَاتِ عَلَـىٰ مَـا قَـالَ بُـرهَانَا

انظر: «شرح المرزوقي علىٰ ديوان الحماسة» (١/ ٢٧).

(٤) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (١/ ٥).

ولقد أحسَنَ القائلُ:

أيُّهَـــا المغْـــتَدِي لِـــيَطْلُبَ عِلمًـــا ... كُـــلُّ عِلْـــمٍ عَـــبدٌ لِعلـــمِ الرَّسُـــولِ

تَطلُـــبُ الفَـــرعَ كَـــي تُـــصَحِّحَ أصـــلًا ... كَـيفَ أَغفَلتَ عِلمَ أَصْلِ الأصُولِ؟!

فأصلُ العلمِ ومَعْدِنُهُ كتابُ اللهِ ﷻ، وما جَاءَ في الوحي الثَّاني وهي سنَّةُ النبيِّ ﷺ، فالبِدَارَ البِدَارَ إليهما، والحِرصَ الحرصَ عليهما، فهما وَاحَةُ الأمنِ ومَلاذُ الراحةِ، وهما الظِّلُّ الظَّلِيلُ، والفوزُ الجميلُ.

قال ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ:

العِلْـــمُ قَـــالَ الله قَـــالَ رَسُـــولُهُ ... قَـــالَ الـــصَّحَابَةُ هُـــم أُولُـــو العِـــرفَانِ

مَـــا العِلْـــمُ نَـــصْبَكَ للخِـــلافِ سَـــفَاهَةً ... بَـــينَ الرَّسُـــولِ وَبَـــينَ رَأيِ فُـــلانِ

فمَن رامَ العلمَ بعيدًا عن الكتابِ والسُّنَّةِ فقد رامَ المستحيلَ، ومَن أخَذَ بغيرِهما استغناءً عنهما فقد ضَلَّ سَواءَ السبيلِ، فهما البُرءُ من الجهلِ ودواؤُهُ، وهما العافيةُ من العِيِّ وشفَاؤُهُ.

وأمَّا اختيارُ الشيخِ: «فينبغي أن يختارَ الأعلمَ والأورَعَ والأسَنَّ كما اختارَ أبو حنيفةَ -رحمه الله تعالىٰ- حَمَّادَ بنَ سليمانَ رَحِمَهُ اللَّهُ، بعد التَّأمُّلِ والتفكُّرِ، وقال: وجدتُه شيخًا وقورًا حليمًا صَبُورًا، وقالَ: ثَبَتُّ عِندَ حَمَّادِ بن سُلَيمَانَ فَنَبَتُّ»[1].

وقد أخرجَ مسلمٌ رَحِمَهُ اللَّهُ في مُقَدِّمةِ صحيحِهِ بسندِهِ عن محمدِ بن سِيرينَ،

(١) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص١٢).

قَالَ: «إنَّ هذَا العِلمَ دِينٌ فانظُروا عَمَّن تَأخُذُونَ دِينكُم»[(١)].

وقال ابنُ جماعةَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للطالبِ أن يُقَدِّمَ النَّظَرَ، ويستخيرَ الله فيمَن يأخذُ العلمَ عنه، ويكتسبُ حُسنَ الأخلاقِ والآدابِ منه، وليكن إن أمكن ممَّن كَمُلَت أهليَّتُهُ، وتحقَّقَت شَفَقَتُهُ، وظهرت مُرُوءَتُهُ، وعُرفت عِفَّتُهُ، واشتهرت صيانتُهُ، وكان أحسنَ تعليمًا وأجودَ تفهيمًا، ولا يرغبُ الطالبُ في زيادةِ العلمِ مع نقصٍ في ورعٍ أو دينٍ أو عدمِ خُلُقٍ جميلٍ».

فعن بعضِ السَّلَفِ: إنَّ هذا العلمَ دينٌ فانظروا عمَّن تأخذون دينكُم.

وَلَيَحذَرْ من التقيُّدِ بالمشهورين، وتركِ الأخذِ عن الخاملين، فقد عَدَّ الغَزَاليُّ وغيرُهُ ذلك من الكبرِ على العلمِ، وجعلَهُ عَينَ الحماقَةِ؛ لأنَّ الحكمةَ ضالَّةُ المؤمنِ يلتقطُهَا حيث وجدها، ويغتنمُهَا حيث ظَفَرَ بها، ويتَقَلَّدُ المنَّةَ لمن سَاقَهَا إليه، فإنه يهرب من مخالفةِ الجهلِ كما يهربُ من الأسدِ، والهاربُ من الأسدِ لا يأنَفُ من دلالَةِ مَن يَدُلُّهُ على الخلاصِ كائنًا مَن كان.

فإذا كان الخاملُ ممَّن تُرجَىٰ بَرَكَةُ علمِهِ كان النَّفعُ بها أعمَّ والتحصيلُ من جهتِهِ أتَمَّ، وإذا سَبَرْتَ أحوالَ السَّلَفِ والخَلَفِ لم تجد النَّفْعَ يحصل غالبًا، والفلاحَ يُدرك طالبًا إلا إذا كان للشيخِ من التقوىٰ نصيبٌ وافرٌ، وعلىٰ شَفَقَتِهِ، ونُصحِهِ للطَّلَبَةِ دليلٌ ظاهرٌ.

وكذلك إذا اعتبرتَ المصَنَّفَاتِ وجدتَ الانتفاع بتصنيفِ الأتقىٰ الأزهدِ أوفرَ،

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي»، مقدمة الصحيح (١/ ٨٤).

والفلاحَ بالاشتغالِ به أكثرَ.

وليجتهد أن يكونَ الشيخُ مِمَّن له علىٰ العلومِ الشرعيةِ تمامُ الاطِّلاعِ، وله مع مَن يُوثَقُ به من مشايخِ عَصرِهِ كَثرَةُ بَحثٍ وطولُ اجتماعٍ، لا مِمَّن أخذ مِن بطونِ الأوراقِ، ولم يُعرَف بصُحبةِ المشايخِ الحُذَّاقِ.

قال الشافعيُّ ﵁: مَن تَفَقَّه من بُطونِ الكُتب ضَيَّعَ الأحكامَ. وكان بعضُهم يقولُ: من أعظمِ البَلِيَّةِ تَشَيُّخُ الصحيفةِ؛ أي: الذين تعلَّمُوا من الصُّحُفِ»[(١)].

فقد تَبَيَّنَ ممَّا سَلَفَ أنَّ اختيارَ العلمِ، وتقديمَ الأهمِّ، ممَّا لا مَدخَلَ للعلمِ من سواه، فعلىٰ طالبِهِ تحريرُ ذلك، وكذلك اختيارُ الشيخِ، فإنَّما هو قُدوَةُ السَّالِكِ، وحادي الطالبِ، ونَجمُهُ المنيرُ المتَّبَعُ، فليكن من أهلِ الأهواءِ علىٰ حَذَرٍ، والله الهادي لا إلهَ غيرُهُ، ولا ربَّ سواه.

* * *

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٥).

٨- التِزَامُ الأدَبِ التَّامِّ مَعَ شَيْخِهِ وَقُدوَتِهِ

لا يُنَالُ العلمُ إلا بإلقاءِ السَّمعِ مع التَّواضُعِ، فعن الشَّعْبيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: «صَلَّىٰ زيدُ بنُ ثابتٍ عَلَىٰ جنازةٍ ثمَّ قُرِّبَت لَهُ بَغْلَةٌ ليركَبَها، فجاءَ ابنُ عَبَّاسٍ فأخذ بركابِهِ، فقالَ لهُ زيدٌ: خَلِّ عنهُ يا ابْنَ عمِّ رسولِ اللهِ ﷺ، فقال ابنُ عباسٍ: هكَذَا يُفْعَلُ بالعُلَمَاءِ».

ذَكَرَ الطبرانيُّ في «الكبير» (٤٧٤٦) روايةَ الشعبيِّ هكذا: «إنَّ زيدَ بنَ ثابتٍ كَبَّرَ علىٰ أُمِّهِ أربعًا، ثُمَّ أُتِي بدابَّةٍ، فأخذَ له ابنُ عباسٍ الرِّكَابَ، فقالَ له زيدٌ: دَعْهُ أو: ذَرهُ، فقال ابنُ عباسٍ: هكذا نَفْعَلُ بالعلماءِ الكبراءِ».

قال الهيثميُّ: «رجالُهُ رجالُ الصحيحِ غير رزين الرمَّانيِّ، وهو ثقةٌ»(١) وذكر الحافظُ في «الإصابةِ» (٢/ ٢٣٣) نحوه، ورواه الحاكم (٣/ ٤٢٣)، وصحَّحه ووافقه الذهبي.

وقد كان السلفُ رضي الله عنهم يُعظِّمونَ مَن يتعلَّمون منهم تعظيمًا شديدًا، وآثارُهم في ذلك شاهدةٌ علىٰ آدابِهم في مجالسِ التعليمِ، وعلىٰ توقيرِهم لمعلِّميهم، وقد أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ في «الجامع» كثيرًا من تلك الآثارِ.

فَسَاقَ بسندِهِ عن مغيرةَ قالَ: «كُنَّا نَهَابُ إبراهيمَ النَّخعيَّ كما يُهَابُ الأميرُ».

وعن أيوب قال: «كان الرَّجُلُ يَجلِسُ إلىٰ الحَسَنِ ثَلاثَ سنينَ، فلا يسأَلُهُ عن

---

(١) «مجمع الزوائد» للهيثمي (٩/ ٣٤٥)، وانظر «تخريج العراقي لأحاديث الإحياء» (١/ ٥٠).

شيءٍ هَيبةً له».

وعن إسحاقَ الشهيديِّ قال: «كنتُ أرىٰ يحيىٰ القطَّانَ يصلي العصرَ، ثمَّ يستند إلىٰ أصلِ مَنَارَةِ المسجدِ، فيقفُ بين يديه: عليُّ بن المديني، والشَّاذَكُوني، وعمرو ابن عليٍّ، وأحمد بنُ حنبلٍ، ويحيىٰ بنُ مَعِين، وغيرُهُم، يسألونه عن الحديثِ وهم قيامٌ علىٰ أرجُلِهِم، إلىٰ أن تحين صلاةُ المغربِ، لا يقولُ لواحدٍ منهم: اجلس، ولا يجلسون هيبةً له وإعظامًا».

وعن عبد الرحمن بن حَرمَلَةَ الأسلميِّ، قالَ: «ما كان إنسانٌ يجترئُ علىٰ سعيدِ ابن المسَيِّبِ يسألُهُ عن شيءٍ، حتىٰ يستأذِنَهُ كما يُستأذنُ الأميرُ»(١).

«فعلىٰ طالبِ العلمِ أن ينقادَ لشيخِهِ في أمورِهِ، ولا يخرجَ عن رأيِهِ وتدبيرِهِ، بل يكون معه كالمريضِ مع الطبيبِ الماهرِ، فيشاوره فيما يقصدُهُ ويتحرَّىٰ رضاه فيما يتعمَّدهُ، ويبالغ في حُرمَتِهِ، ويتقرَّب إلىٰ الله تعالىٰ بخدمتهِ، ويعلم أنَّ ذُلَّهُ لشيخهِ عِزٌّ، وخضوعَهُ له فَخرٌ، وتواضعَهُ له رِفعةٌ.

ويُقال إنَّ الشافعيَّ ﵁ عُوتِبَ علىٰ تواضُعِهِ للعلماءِ، فقال:

أُهِينُ لَهُم نَفسِي فَهُم يُكرِمُونَهَا ... ولَن تُكْرَمَ النَّفْسُ الَّتِي لا تُهِينُهَا

وقال أحمدُ بنُ حنبلٍ ﵁ لخَلَفٍ الأحمر ﵀: «لا أقعُدُ إلا بينَ يَديكَ، أُمِرْنَا أن نتَواضَعَ لِمَنْ نتَعلَّمُ مِنهُ».

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب البغدادي، تحقيق د. محمود الطحان (١/ ١٨٤).

وعلىٰ طالبِ العلمِ أن ينظر شيخَه بعينِ الإجلالِ، فإنَّ ذلك أقربُ إلىٰ نفعِهِ بِهِ، وكان بعضُ السَّلَفِ إذا ذَهَبَ إلىٰ شيخِهِ تصدَّقَ بشيءٍ، وقالَ: «اللهمَّ استُرْ عَيبَ شيخي عني، ولا تُذهبِ بَرَكَة عِلمِهِ منِّي»(١).

وقالَ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كنتُ أصفحُ الورقةَ بين يَدَي مالكٍ صفحًا رقيقًا هيبةً له؛ لئلاَّ يسمعَ وقعَهَا.

وقال حمدانُ الأصفهانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنتُ عند شريكٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأتاه بعضُ أولادِ الخليفةِ المهديِّ، فاستندَ إلىٰ الحائطِ وسأله عن حديثٍ، فلم يلتفت إليه، وأقبلَ علينا، ثمَّ عادَ، فعادَ لمثلِ ذلك، فقال: أَتَستَخِفُّ بأولادِ الخلفاءِ؟!

فقال شريكٌ: لا، ولكنَّ العلمَ أجلُّ عند الله من أن أضَعَهُ؛ فَجَثَا علىٰ رُكْبَتَيْهِ، فقال شريكٌ: هكذا يُطلبُ العلمِ»(٢).

وقال الرَّبيعُ بن سليمانَ صاحبُ الشافعيِّ -رحمهما الله-: «والله ما اجترأْتُ أن أشربَ الماءَ والشافعيُّ ينظرُ إليَّ هَيبَةً له»(٣).

وينبغي ألا يخاطبَ شيخَهُ بتاءِ الخطابِ وكافِهِ، ولا يناديه من بُعدٍ.

قال الخطيبُ: «يقول: أيُّها العالمُ، وأيُّها الحافظَ، ونحو ذلك، وما تقولون في كذا؟ وما رأيُكُم في كذا؟ وشبه ذلك، ولا يُسَمِّيه في غَيبَتِهِ أيضًا باسمِهِ، إلا مقرونًا

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٧).

(٢) «المجموع» للنووي (١/ ٣٦).

(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٨).

بما يُشعِرُ بتعظيمِهِ كقوله: قال الشيخُ، أو الأستاذُ، أو: قال شيخُنَا كذا.

وعليه أن يعرفَ للشيخِ حَقَّه، ولا ينسىٰ فَضْلَهُ، وأن يُعَظِّمَ حُرمَتَهُ، ويَرُدَّ غِيبَتَهُ، ويغضبَ لها، فإن عجزَ عن ذلك قامَ وفارق ذلك المجلسَ، وينبغي أن يدعُوَ للشيخِ مُدَّةَ حياتِهِ، ويرعىٰ ذُرِّيَّتَهُ وأقاربَهُ وأوُدَّاءَهُ بعد وفاتِهِ، ويتعمَّدَ زيارةَ قبره والاستغفارَ له، والصَّدقَةَ عنه، ويسلُكَ في السَّمتِ والهَدي مسلكَهُ، ويراعي في العلمِ والدين عادَتَهُ، ويقتدي بحركاتِهِ وسَكَنَاتِهِ في عاداتِهِ وعباداتِهِ، ويتأدَّبَ بآدابِهِ، ولا يَدَعَ الاقتداءَ به»(١).

«وعلىٰ طالبِ العلمِ أن يصبرَ علىٰ جفاءِ شيخهِ، وأن يترفَّقَ بهِ؛ فقد قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل لسفيانَ بن عُيينةَ: إنَّ قومًا يأتونَك من أقطارِ الأرضِ، تغضبُ عليهم، يُوشَكُ أن يذهبوا ويتركوك، فقال للقائِل: هم إذن حمقىٰ مِثلُكَ إن تركوا ما ينفعُهم لسوء خُلُقي»(٢).

«**وعن ابن جُريَجٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قالَ**: لم أستخرج الذي استخرجتُ من عطاءٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا برفقي به.

وعن ابن طاووسَ عن أبيه قالَ: مِن السُّنَّةِ أن يُوَقَّرَ العالِمُ»(٣).

«وإذا وَقَفَهُ الشيخُ علىٰ دقيقةٍ من أدبٍ، أو نقيصةٍ صدرت منه، وكان يعرفُهَا

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٩).
(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٩١).
(٣) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٢٩).

من قبلُ، فلا يُظهِرُ أنَّه كان عارفًا بها وغَفَلَ عنها، بل يشكرُ الشيخَ علىٰ إفادتِهِ ذلك واعتنائهِ بأمرِهِ، فإن كان له في ذلك عُذرٌ وكان إعلامُ الشيخِ به أصلَحَ فلا بأسَ به، وإلا تركه، إلا أن يترتَّبَ علىٰ تركِ بيانِ العُذرِ مفسَدَةٌ فيتعيَّنَ إعلامُهُ به»(١).

وَليحذَر طالبُ العلمِ أشدَّ الحَذَرِ أن يُماريَ أستاذَهُ؛ فإنَّ المراءَ شَرٌّ كلُّهُ،وهو مع شيخِهِ وقُدوتِهِ أقبحُ وأبعدُ من الخيرِ، وأَوغَلُ في الشَّرِّ، وهو سببٌ للحرمانِ من كثيرٍ من الخيرِ.

فعن ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** «لا تُمارِ مَن هو أعلَمُ منك، فإذا فعلتَ خَزَنَ عنك علمَهُ، ولم تَضُرَّهُ شيئًا».

وعنه قال: «لا تُمارِ مَن هو أعلَمُ منك، فإنَّك إن ماريتَهُ خَزَنَ عنك عِلمَهُ، ولا يُبالي ما صنعتَ».

وعن الزُّهريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **قال:** «كان سَلَمَةُ يماري ابنَ عباسٍ، فَحُرِمَ بذلك خيرًا كثيرًا»(٢).

* * *

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٩٣).

(٢) «جامع بيان العلم» (١/ ١٢٩).

آدَابُ الاستئذانِ عَلَى الشَّيخِ

إذا ألفَىٰ الطالبُ الشيخَ نائمًا فلا ينبغي له أن يستأذنَ عليه، بل يجلسُ وينتظرُ استيقاظَه، أو ينصرفُ إذا شاءَ.

«أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندهِ عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: وجدتُ عامَّةَ علمِ رسولِ الله ﷺ عند هذا الحيِّ من الأنصارِ، إن كنتُ لأقِيل(١) ببابِ أحدِهم، ولو شئتُ أن يُؤذَنَ لي عليه لأُذِنَ لي عليه، ولكن أبتغي بذلك طيبَ نفسِهِ.

وعن سفيانَ بن عُيَينَةَ عن أبي الحسين قالَ: كان ابنُ عباسٍ يأتي الرجلَ من أصحابِ النبيِّ ﷺ يريد أن يسألَهُ عن الحديثِ فيُقال له: هو نائمٌ، فيضطجعُ علىٰ البابِ، فيُقال له: ألا نُوقظُهُ؟ فيقول: لا.

وعن مَعمَرٍ: قال: سمعتُ الزهريَّ يقول: إن كنتُ لآتي بابَ عُروةَ، فأجلس، ثم أنصرف فلا أدخل، ولو شئتُ أن أدخُلَ لدخلتُ إعظامًا له»(٢).

«وعلىٰ طالبِ العلمِ ألا يدخلَ علىٰ الشيخِ في غيرِ المجلسِ العامِّ إلا باستئذانٍ، سواءٌ كان الشيخُ وحدَهُ أم كان معه غيرُه، فإن استأذنَ بحيثُ يعلمُ الشيخُ ولم يأذن له انصرفَ، ولا يُكَرِّرُ الاستئذانَ، وإن شَكَّ في علمِ الشيخِ به، فلا يزيدُ في الاستئذانِ

(١) قَالَ يَقِيلُ: نَامَ نَومَةَ نِصفِ النَّهَارِ، وَهِيَ القَائِلَةُ والقَيلُولَةُ.

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٥٨).

فوقَ ثلاثِ مرَّاتٍ، أو ثلاثِ طرقَاتٍ؛ بالبابِ أو الحَلْقَةِ(١) وليكُن طَرقُ البابِ خَفيًّا بأدبٍ، بأظفارِ الأصابعِ ثم بالأصابعِ ثم بالحَلْقَةِ قليلًا قليلًا، فإن كان الموضعُ بعيدًا عن البابِ والحَلْقَةِ، فلا بأسَ برفعِ ذلك بقَدرِ ما يُسمعُ لا غير، وإذا أذِنَ وكانوا جماعةً، يُقَدَّمُ أفضلُهم وأسَنُّهم بالدخولِ والسلامِ عليه، ثم يُسَلِّمُ عليه الأفضلُ فالأفضلُ.

عن أنسِ بن مالكٍ ﷺ قالَ: «إنَّ أبوابَ النَّبيِّ ﷺ كَانتْ تُقْرَعُ بالأظَافِيرِ»(٢).

ويُكره للطالبِ إذا استأذن فقيل: مَن ذا؟ أن يقولَ: أنا، من غيرِ أن يسمِّيَ نفسَه.

أخرج البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابِ الاستئذانِ من «صحيحه»: «باب إذا قالَ: مَن ذا؟ فقالَ: أنا». عن جابرٍ ﷺ قالَ: «أتيتُ النَّبِيَّ ﷺ في دَينٍ كَانَ عَلَىٰ أبي، فَدقَقتُ البَابَ؟ فقَالَ: «**مَن ذا؟**» فقُلتُ: أنَا، فقَالَ: «**أنَا أنَا**» كأنَّه كَرِهَهَا»(٣).

وإذا كان البابُ مفتوحًا فلا يستقبلُ البابَ من تلقاءِ وجهِهِ، ولكن من رُكنِهِ الأيمن أو الأيسرِ، ثمَّ يُسَلِّمُ.

---

(١) قلتُ: وفي معنىٰ الحلقةِ اليوم ما استحدثَ الناسُ من أجراسٍ كهربائية ونحوها.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٠٨٠)، وصحَّحه الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٨٢٤) وفي الصحيحة (٢٠٩٢).

وقال الجيلانيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تُقْرَعُ»، هذا محمولٌ منهم علىٰ المبالغةِ في الأدبِ، وإنَّما كانوا يفعلون ذلك توقيرًا وإجلالًا، وهو حَسَنٌ لمن قَرُبَ مَحَلُّهُ من البابِ،أمَّا مَن بَعُدَ عن البابِ بحيث لا يبلُغُهُ صوتُ القرعِ بالظُّفُرِ، فيستحبُّ أن يقرعَ بما فوق ذلك بحسبهِ. [«فضل الله الصمد» للجيلاني (٢/ ٥١٦)].

(٣) رواه البخاري (٥٨٨٧).

أخرجَ البخاريُّ في كتاب الاستئذان من «صحيحه»، باب: «الاستئذانُ من أجلِ البصرِ» عن سَهلِ بن سَعدٍ ﵁ قال: اطَّلَعَ رَجُلٌ مِن جُحرٍ في حُجَرِ النَّبِيِّ ﷺ، ومعَ النبيِّ ﷺ مِدرًى يَحُكُّ بِهِ رَأسَهُ، فقَالَ: «**لَو أعلَمُ أَنَّكَ تَنظُرُ لَطَعَنتُ بِهِ فِي عَينكَ، إنَّمَا جُعِلَ الاستئذَانُ مِن أَجلِ البَصَرِ**»[1].

الجُحرُ: كلُّ ثُقبٍ مستديرٍ في أرضٍ أو حائطٍ، **الحُجَرُ**: جمعُ حجرةٍ، **المِدْرَىٰ**: المُشْطُ.

«وينبغي أن يدخلَ علىٰ الشيخِ كاملَ الهيئةِ مُتطَهِّرَ البدنِ والثيابِ نظيفَهما، بعدما يحتاج إليه من أخذِ ظُفُرٍ وشعرٍ، وقَطعِ رائحةٍ كريهةٍ، لاسيَّما إن كانَ يقصدُ مجلسَ العلمِ، فإنَّه مجلسُ ذِكرٍ واجتماعٍ في عبادةٍ.

ومتىٰ دخلَ علىٰ الشيخِ في غيرِ المجلسِ العامِّ وعنده مَن يتحدَّثُ معه فسكتوا عن الحديثِ، أو دخلَ والشيخُ وحدَهُ يُصلي أو يذكُرُ أو يكتبُ أو يطالِعُ فترك ذلك،أو سكتَ، أو لم يبدأه بالكلامِ أو بَسطِ الحديثِ، فَليُسَلِّم ويخرج مُسرعًا، إلا أن يَحُثَّهُ الشيخُ علىٰ المُكثِ، وإذا مَكَثَ فلا يُطِل إلا أن يأمرَهُ بذلك.

وينبغي أن يدخلَ علىٰ الشيخِ أو يجلسَ عندهُ، وقلبُهُ فارغٌ من الشواغِلِ له، وذهنُهُ صافٍ، لا في حالِ نُعاسٍ أو غضبٍ أو جوعٍ شديدٍ أو عطشٍ، أو نحوِ ذلك، لينشرحَ صدرُهُ لما يقالُ ويعي ما يسمعهُ.

وإذا حضرَ مكانَ الشيخِ فلم يجده جالسًا انتظره كي لا يُفَوِّتَ علىٰ نفسهِ

(١) رواه البخاري (٥٨٩٦)، ومسلم (٢١٥٦).

دَرسَهُ فإنَّ كلَّ دَرسٍ يفوتُ لا يُعَوَّضُ، ولا يطرقُ عليه ليخرجَ إليه، وإن كان نائمًا صَبَر حتَّىٰ يستيقظَ، أو ينصرفَ ثم يعود، والصبرُ خيرٌ له.

وقد رُويَ أنَّ ابن عباسٍ كان يجلسُ علىٰ باب زيدِ بن ثابتٍ في طلبِ العلمِ، حتىٰ يستيقظَ، فيقال له: ألا نُوقظه لك؟ فيقول: لا، وربَّما طال مقامُهُ وقَرَعَتْهُ الشمسُ، وكذلك كان السَّلَفُ يفعلونَ.

ولا يطلبُ من الشيخِ إقراءَهُ في وقتٍ يَشُقُّ عليه فيه، أو لم تَجرِ عادتُه بالإقراءِ فيه، ولا يخترعُ عليه وقتًا خاصًّا به دون غيرِهِ وإن كان رئيسًا كبيرًا، لما فيه من التَّرَفُّعِ والحمقِ علىٰ الشيخِ والطلبةِ والعلمِ، وربَّما استحيا الشيخُ منه، فترك لأجلِهِ ما هو أهمُّ عنده في ذلك الوقتِ فلا يفلحُ الطالبُ، فإن بَدَأَهُ الشيخُ بوقتٍ معيَّنٍ أو خاصٍّ، بعذرٍ عائقٍ له عن الحضورِ مع الجماعةِ أو لمصلحةٍ رآها الشيخ فلا بأسَ بذلك»[(١)].

فإذا انتهىٰ الطالبُ إلىٰ حَلْقَةِ الشيخِ جَلَسَ حيث ينتهي به المجلسُ.

«وينبغي علىٰ طالبِ العلمِ أن يجلسَ بين يَدَي شيخِهِ بتواضعٍ وخُشُوعٍ وسكونٍ، ويُصغي إلىٰ الشيخ ناظرًا إليه، ويُقْبِلُ بكُلِّيَّتِهِ عليه، متعقِّلًا لقولِهِ، ولا يلتفتُ من غيرِ ضرورةٍ، ولا ينظرُ إلىٰ يمينهِ أو شمالِهِ، أو فوقَهُ، أو قُدَّامَهُ، بغيرِ حاجةٍ، ولاسيَّما عند بحثِهِ أو عندَ كلامِهِ معه.

وينبغي ألَّا ينظُرَ إلَّا إليه، ولا يضطربُ لضجَّةٍ يسمعها أو يلتفت إليها، ولاسيَّما عند بحثٍ له، ولا ينفضُ كُمَّيهِ، ولا يحسر عن ذراعيه، ولا يَعبث بيديه أو رجليه أو

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٩٥).

غيرهما من أعضائِهِ، ولا يضع يده علىٰ لحيته أو فمِهِ أو يعبث بها في أنفِهِ أو يستخرج منها شيئًا، ولا يفتحُ فاه، ولا يَقْرَعُ سِنَّهُ، ولا يضربُ الأرضَ براحتِهِ أو يَخُطُّ عليها بأصابِعِهِ، ولا يشبِّك بيديه أو يَعبَث بأزرارِهِ.

ولا يسندُ بِحَضرَةِ الشيخِ إلىٰ حائطٍ أو مخدَّةٍ، أو يجعل يده عليها، ولا يعطي الشيخَ جَنْبَهُ أو ظَهْرَهُ، ولا يعتمد علىٰ يدِهِ إلىٰ ورائِهِ أو جنبِهِ، ولا يُكثِرُ كلامَهُ من غيرِ حاجةٍ، ولا يحكي ما يُضحك منه أو ما فيه بَذَاءَةٌ أو يتضمَّنُ سُوءَ مخاطبةٍ أو سُوءَ أدبٍ، ولا يضحكُ لغيرِ عَجَبٍ، ولا يَعجبُ دون الشيخِ، فإن غَلَبَهُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمًا بغيرِ صوتٍ أَلْبَتَّةَ.

ولا يُكثرُ التَّنَحْنُحَ من غيرِ حاجةٍ، ولا يَبصُقُ ولا يتَنَخَّعُ ما أمكنه، ولا يَلفظُ النخامةَ من فيهِ، بل يأخذها من فيهِ بمنديلٍ أو خِرقَةٍ أو طَرَفِ ثَوبٍ، ويتعاهدُ تغطيةَ أقدامِهِ وإرخاءَ ثيابِهِ وسكونَ يديه عند بحثِهِ أو مذاكرتِهِ، وإذا عَطَسَ خَفَضَ صوتَه جهدَهُ، وسَتَرَ بمنديلٍ أو نحوِه، وإذا تثاءبَ سَترَ فاَهُ بَعدَ رَدِّهِ بجهدِهِ.

وعن عليٍّ ﷛ **قال:** من حَقِّ العالمِ عليك أن تسلِّمَ علىٰ القومِ عامَّةً وتَخصَّه بالتحيةِ، وأن تجلس أمامه، ولا تشيرنَّ عندهُ بيديكَ، ولا تغمز بعينكَ غيرهُ، ولا تقولَنَّ قال فلانٌ خِلافَ قولِه، ولا تَغتابنَّ عندهُ أحدًا، ولا تطلبنَّ عثرتَهُ، وإن زَلَّ قَبِلْتَ معذرتَهُ، وعليك أن توقِّره لله تعالىٰ، وإن كانت له حاجةٌ سبقتَ القومَ إلىٰ خدمتِهِ، ولا تسار في مجلسِهِ، ولا تأخذ بثوبِهِ، ولا تُلحَّ عليه إذا كَسِلَ، ولا تشبع من طولِ صحبتِهِ، فإنَّما هو كالنخلةِ تنتظرُ متىٰ يسقطُ عليك منها شيءٌ. ولقد جمع ﷛ في هذه الوصية ما فيه كفايةٌ.

وعلىٰ طالبِ العلم أن يُحسنَ خطابَهُ مع الشيخِ بِقَدرِ الإمكانِ، ولا يقول له: لم؟ ولا: مَن نَقَلَ هذَا؟ ولا: أين موضعُه؟ وشبه ذلك.

وإذا ذَكَرَ الشيخُ شيئًا فلا يَقُل: هكذا قلتُ، أو خَطَرَ لي، أو سمعتُ، أو هكذا قال فلانٌ: إلا أن يعلمَ إيثارَ الشيخِ ذلك، وليَتَحَفَّظْ من مخاطبةِ الشيخِ بما يعتادُهُ بعضُ النَّاسِ في كلامِهِ، ولا يليقُ خطابُهُ بِهِ مثل: أَيْشِ؟ وفهمتَ؟ وسمعتَ؟ وتدري؟ ونحو ذلك، وكذلك لا يحكي له ما خُوطِبَ به غيرُهُ مما لا يليق خطابُ الشيخِ به وإن كانَ حاكيًا، مثل: قال فلانٌ لفلانٍ: أنتَ قليلُ البرِّ، وما عندك خيرٌ، وشبهُ ذلك، بل يقولُ إذا أرادَ الحكايةَ ما جَرَت العادةُ بالكنايةِ بِهِ مثل: قال فلانٌ لفلانٍ:الأبعَدُ قليلُ البرِّ، وما عند البعيدِ خيرٌ، وإذا سَمِعَ الشيخَ يذكرُ حكمًا في مسألةٍ، أو فائدةً مستغربةً أو يحكي حكايةً أو يُنشِدُ شعرًا وهو يحفظُ ذلك، أصغىٰ إليه إصغاءَ مستفيدٍ له في الحالِ، متعطِّشٍ إليه، فَرِحٍ به كأنَّه لم يسمعه قطُّ.

وعليه ألا يسبقَ الشيخَ إلىٰ شرحِ مسألةٍ أو جوابِ سؤالٍ منه أو من غيرِهِ، ولا يساوقه، ولا يُظهر معرفتَه به، أو إدراكَه له قبل الشيخِ، وينبغي ألا يقطعَ علىٰ الشيخِ كلامَهُ ثمَّ يتكلَّم، ولا يتحدَّث مع غيرِهِ، والشيخُ يتحدَّثُ معه أو مع جماعةِ المجلسِ.

وإذا ناولَ الشيخَ كتابًا ناوله إيَّاه مُهَيَّأً لفتحهِ والقراءةِ فيه، من غير احتياجٍ إلىٰ إدارتِهِ، فإن كان النظرُ في موضعٍ معيَّنٍ فليكن مفتوحًا كذلك، ويعيِّن له المكانَ، ولا يَحذفُ إليه الشيءَ حَذفًا[1]؛ من كتابٍ أو ورقةٍ أو غيرِ ذلك.

(١) أي: لا يلقي إليه الشيءَ إلقاءً.

وإذا مشىٰ مع الشيخِ فليكن أمامه بالليلِ، وخلفَه بالنهارِ، إلا أن يقتضي الحالُ خلافَ ذلك لزحمةٍ أو غيرها، ويتقدَّم عليه في المواطنِ المجهولَةِ الحالِ أو الخَطِرَةِ، ويحترزُ من ترشيشِ ثيابِ الشيخِ، وإذا كان في زحمةٍ صَانَهُ عنها بيديه، إمَّا من قُدَّامِهِ أو من ورائِهِ.

وإذا مشىٰ أمامه التفتَ إليه بعد كلِّ قليلٍ، فإن كان وحده والشيخُ يكلِّمه حالةَ المشي، وهما في الظِّلِّ فليكن في يمينه، وقيل عن يسارِهِ متقدِّمًا عليه قليلًا ملتفتًا إليه، ويعرِّفِ الشيخَ بِمَن قَرُبَ منه أو قَصَدَهُ من الأعيانِ إن لم يعلم الشيخُ به.

ولا يمشي لجانب الشيخِ إلا لحاجةٍ أو إشارةٍ منه، ويحترز من مزاحمتِهِ بكتفِهِ أو بِركَابِهِ، إن كانا راكبينِ، وملاصقةِ ثيابِهِ، ويُؤثره بجهةِ الظِّلِّ في الصيفِ وبجهةِ الشمسِ في الشتاءِ، وبالجهةِ التي لا تَقْرَعُ الشمسُ فيها وَجْهَهُ إذا التفتَ إليه.

ولا يمشي بين الشيخِ وبين مَن يحدِّثه، ويتأخَّر عنهما إذا تحدَّثا أو يتقدَّم، ولا يقرُبُ منهما ولا يستمع ولا يلتفت، فإن أدخله في الحديثِ فليأتِ من جانبٍ آخرَ ولا يشقُّ بينهما.

وإذا صَادَفَ الشيخَ في طريقِهِ بَدَأَهُ بالسلامِ، ويقصده بالسلام منه ويتقدَّم عليه ثمَّ يسلِّم، ولا يشيرُ عليه ابتداءً بالأخذِ في طريقٍ حتَّىٰ يستشيرَهُ، ويتأدَّبُ فيما يستشيرُهُ فيه الشيخُ بالردِّ إلىٰ رأيه.

ولا يقول لما رآه الشيخُ وكان خطًا: هذا خطأ، ولا: هذا ليس برأيٍ، بل يحسن خطابَهُ في الردِّ إلىٰ الصوابِ، كقولِهِ: يظهرُ أنَّ المصلحةَ في كذا، ولا يقول: الرأي عندي كذا، وشبه ذلك». اهـ

٩- مُرَاعَاةُ الآدابِ مَعَ الكُتُبِ

الكتُب هي آلَةُ العلمِ، «وينبغي لطالبِ العلمِ أن يعتني بتحصيلِ الكتبِ المحتاجِ إليها ما أمكَنَه شراءً وإلا فإجارةً أو عاريةً؛ لأنَّها آلةُ التحصيلِ، ولا يجعل تحصيلَهَا وكثرتَهَا حَظَّه من العلمِ، وجمعَها حظَّه من الفهمِ، كما يفعلهُ كثيرٌ من المنتحلين للفقهِ والحديثِ، وقد أحسنَ القائلُ:

إِذَا لَمْ تَكُنْ حَافِظًا وَاعِيًا فَجَمْعُكَ لِلكُتْبِ لا يَنفَعُ

ويستحبُّ إعارةُ الكتب لِمَن لا ضَرَرَ عليهِ فيها ممَّن لا ضَرَرَ منه بها، وكَرِهَ قومٌ عاريتَهَا، والأولُ أَولَىٰ لما فيه من الإعانةِ علىٰ العلمِ، مع ما في مطلبِ العَارِيَةِ من الفضلِ والأجرِ.

وينبغي للمستعيرِ أن يشكرَ للمعيرِ ويُجَزِّيه خيرًا، ولا يطيلُ مقامه عنده من غيرِ حاجةٍ بل يردُّهُ إذا قضىٰ حاجَته، ولا يحبسه إذا طَلَبَهُ المالكُ أو استغنىٰ عنه، ولا يجوز أن يصلحَهُ بغيرِ إذن صاحبِهِ، ولا يُحَشِّيهِ[1]، ولا يكتب شيئًا في بياضِ فواتحِهِ أو خواتمِهِ، إلا إذا عَلِمَ رضا صاحبِهِ، ولا يُعيره غيرَهُ، ولا يُودِعُهُ لغيرِ ضرورةٍ، وإذا نَسخَ منه بإذنِ صاحبهِ فلا يكتب منهُ والقرطاسُ في بطنِهِ أو علىٰ كتابَتِهِ، ولا يضعُ المحبرةَ عليهِ، ولا يمرُّ بالقلمِ الممدودِ فوق كتابتِهِ.

(١) يُحشِّيه: يكتب في حواشيه.

وإذا نَسَخَ مِن الكِتَابِ أو طالعهُ فلا يضعهُ علىٰ الأرضِ مفروشًا منشورًا، بل يجعلهُ بين كتابين أو شيئين أو كرسيِّ الكتبِ المعروفِ، كي لا يُسرع تقطيعُ حَبلِهِ، وإذا وضعها في مكانٍ مصفوفةً فلتكن علىٰ كرسيٍّ أو تَختِ خشبٍ أو نحوه، الأَوْلَىٰ أن يكونَ بينهُ وبينَ الأرضِ خلوٌّ، ولا يضعها علىٰ الأرضِ كي لا تتندَّىٰ أو تبلىٰ.

وإذا وضعها علىٰ خَشَبٍ ونحوهِ جعل فوقها أو تحتها ما يمنعُ تآكلَ جلودِها به، وكذلك يجعلُ بينها وبين ما يصادفها أو يسندها من حائطٍ أو غيرهِ.

ويُراعي الأدبَ في وَضعِ الكتبِ باعتبارِ علومها وشرفِها ومصنِّفيها وجلالتِهم؛ فيضع الأشرفَ أعلىٰ الكلِّ ثمَّ يراعي التدريجَ، فإن كان فيها المصحفُ الكريمُ جعله أعلىٰ الكلِّ، والأولَىٰ أن يكون في خريطةٍ ذاتِ عُروةٍ في مسمارٍ في حائطٍ طاهرٍ نظيفٍ في صدرِ المجلسِ، ثمَّ كُتب الحديثِ الصِّرفِ؛ كصحيحِ البخاريِّ وصحيحِ مسلمٍ، ثمَّ تفسير القرآن، ثمَّ تفسير الحديثِ،ثمَّ أصولِ الدينِ، ثم أصولِ الفقهِ، ثمَّ الفقه، ثمَّ النحو والصرف، ثمَّ أشعار العربِ ثمَّ العَرُوضِ.

فإذا استوىٰ كتابان في فَنٍّ أَعلَىٰ أكثرهما قرآنًا أو حديثًا، فإن استويا فبجلالةِ المصنِّفِ، فإن استويا فأقدمهما كتابةً وأكثرهما وقوعًا في أيدي العلماءِ والصالحين، فإن استويا فأصحُّهما.

وإذا استعارَ كتابًا فينبغي له أن يتفقَّده عند إرادتِهِ أخذَه وردَّه، وإذا اشترىٰ كتابًا تعهَّدَ أوَّلَه وآخرَهُ ووسطَه وترتيبَ أبوابِهِ وكراريسهِ، ويصفح أوراقَه، واعتبر صحَّتَه بما يغلبُ علىٰ الظَّنِّ صحَّتُه إذا ضاقَ الزمانُ عن تفتيشِهِ.

وإذا نَسَخَ شيئًا بَدَأَهُ بكتابةِ: بسم الله الرحمن الرحيم، فإن كانَ الكتابُ مبدوءًا فيه بخُطبةٍ تتضمَّنُ حمدَ الله تعالىٰ والصلاةَ علىٰ رسولهِ كَتَبَها بعد البسملَةِ، وإلا كَتَبَ هو ذلك بعدها،ثمَّ كَتَبَ ما في الكتابِ، وكذلك يفعلُ في خَتم الكتابِ.

وكلَّما كَتَبَ اسمَ الله تعالىٰ أتبَعَهُ بالتعظيمِ مثل: تعالىٰ، أو سبحانه، أو عز وجل، أو تقدَّسَ أو نحو ذلك.

وكلَّما كتبَ اسمَ النبيِّ ﷺ كتب بعده الصلاةَ والسلامَ عليه، ويصلِّي هو عليه بلسانِهِ أيضًا.

وجَرَت عادةُ السَّلَفِ والخَلَفِ بكتابةِ ﷺ، ولا تُختصر الصلاةُ في الكتابِ ولو وقعت في السطرِ مِرارًا كما يفعلُ بعضُ المحرِّرين المتخلِّفين؛ فيكتبُ (صلع)، أو (صلم) أو(صلعم) وكلُّ ذلك غيرُ لَيِّقٍ بحقِّه ﷺ.

وإذا مَرَّ بِذِكْرِ الصحابيِّ، ولاسيما الأكابر منهم كتبَ:رضي الله عنه، ولا يكتبُ: الصلاةَ والسلامَ لأحدٍ غير الأنبياءِ والملائكةِ إلا تبعًا له.

وكلَّما مَرَّ بِذكرِ أحدٍ من السَّلَفِ فعلَ ذلك أو كَتَبَ:رحمه الله، ولاسيما الأئمةُ الأعلامُ وهُدَاةُ الإسلام -رحمهم الله تعالىٰ-»[(١)].

قال ابن الصَّلاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُكره له في مثلِ: عبد الله بن فلان بن فلان، أن يكتب (عبد) في آخرِ سطرٍ، والباقي في أولِ السطرِ الآخرِ، وكذلك يُكره في عبد الرحمن ابن فلان، وفي سائرِ الأسماءِ المشتملةِ علىٰ التعبيد لله تعالىٰ، أن يكتبَ (عبد) في

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٧٠).

آخرِ سطرٍ، واسم الله مع سائر النسبِ في أولِ السطرِ الآخرِ.

وهكذا يُكره أن يكتبَ: (قال رسول) في آخرِ سطرٍ، ويكتب في أولِ السطرِ الذي يليه: (الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم) وما أشبه ذلك».

قال العراقي: «هكذا ذكر ابنُ الصَّلاحِ أنَّه مكروهٌ، وفي كلامِ الخطيبِ منعُهُ، فإنَّه روىٰ في «الجامع»، عن أبي عبد الله بن بَطَّةَ أنَّه قالَ: هذا كلُّه غلطٌ قبيحٌ فيجب علىٰ الكاتبِ أن يتوقَّاه ويتأمَّلهُ ويتحفَّظَ منه».

قال الخطيب: «وهذا الذي ذكره أبو عبد الله صحيحٌ فيجب اجتنابُهُ، فعلىٰ هذا تُحمل الكراهةُ في كلامِ ابن الصلاحِ علىٰ التحريمِ، وجعله صاحبُ «الاقتراحِ» -هو ابنُ دقيقِ العيدِ- أيضًا من الأدبِ لا من بابِ الوجوبِ».

قال العراقيُّ: «ولا يختصُّ المنعُ أو الكراهةُ بأسماءِ الله تعالىٰ، بل الحكمُ كذلك في أسماءِ النبيِّ ﷺ والصحابةِ أيضًا، مِثالُهُ: لو قيل: سابُّ النبيِّ ﷺ كافرٌ، أو قاتلُ ابن صفيَّة في النَّارِ، يريدُ الزبيرَ بن العوَّامِ، ونحو ذلك فلا يجوزُ أن يكتبَ: سابّ أو قاتل في سطر، وما بعد ذلك في سطر آخر»(١).

«ولا بأسَ بكتابةِ الحواشي والفوائدِ والتنبيهات المهمَّةِ علىٰ حواشي كتابٍ يملكُهُ؛ ولا يكتبُ إلا الفوائدَ المهمَّةَ المتعلِّقة بذلك الكتابِ، مثل تنبيهٍ علىٰ إشكالٍ أو احترازٍ أو رمزٍ أو خطأ ونحو ذلك.

ولا يسوِّد الكتابَ بنقلِ المسائلِ والفروعِ الغريبةِ، ولا يكثر الحواشي كثرةً

(١) انظر: «ضوابط الكتابة عند المحدِّثين» لمحمد بن سعيد بن رسلان (ص٢٥).

تُظلِمُ الكتابَ، أو تضيع مواضعها علىٰ طالبها.

ولا ينبغي الكتابةُ بين الأسطرِ، وقد فعله بعضُهم بين الأسطرِ المفرَّقة بالحمرَةِ وغيرها، وتركُ ذلك أَوْلَىٰ مطلقًا»[1].

وقد جمعتُ بحولِ الله وقوتِهِ ضوابطَ الكتابةِ وآدابَهَا عند المحدِّثين وغيرهم من علمائنا -رحمهم الله- في رسالة: «**ضوابط الكتابة عند المحدِّثين**»، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

*　*　*

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٨٦).

١٠- آدَابُ طَالِبِ العلمِ عِندَ دَرسِهِ

«علىٰ طالبِ العلمِ أن يبكِّرَ بالخروجِ فِي طلبِ العلم، وقد كانَ السَّلَفُ -رحمهم الله- يفعلون ذلك ويواظبون عليه، فعن عبد الله بن أحمد بن حنبلٍ قال: سمعتُ أبي يقول: كنتُ ربَّما أردتُ البكورَ إلىٰ الحديثِ، فتأخذ أمِّي ثيابي وتقول: حتىٰ يُؤذِّنَ النَّاسُ، وحتىٰ يصبحوا، وكنتُ ربَّما بكَّرتُ إلىٰ مجلس أبي بكر بن عيَّاشٍ وغيرِهِ»[(١)].

«وعليه أن يدخلَ في الدرسِ بكاملِ الهِمَّةِ، فارغَ القلبِ من الشواغِل، فيسلِّمَ علىٰ الحاضرين كلِّهم بصوتٍ يُسمعهم، ويخصَّ الشيخَ بزيادةِ إكرامٍ.

ثمَّ يجلسُ حيث انتهىٰ به المجلسُ ولا يتخطَّىٰ رقابَ أصحابِهِ، إلا أن يصرِّحَ له الشيخُ أو الحاضرون بالتقدُّمِ أو التخطِّي، فقد روىٰ البخاريُّ بسندهِ عن أبي وَاقِدٍ اللَّيثِيِّ ﷺ: أنَّ رسولَ اللهﷺ بَيْنَمَا هُوَ جَالِسٌ فِي المسجدِ والنَّاسُ مَعَهُ إذ أَقْبَل ثَلاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَل اثنَانِ إِلَىٰ رَسُولِ اللهﷺ وذَهَبَ وَاحِدٌ، قالَ: فَوَقَفَا عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا فرَأَىٰ فُرجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وأَمَّا الآخَرُ فَجَلَسَ خَلْفَهُم، وأَمَّا الثَّالِثُ فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ قالَ: «**ألا أخبِرُكُم عَنِ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ؟ أمَّا أحدُهُم فَأَوَىٰ إِلَىٰ الله فَآوَاهُ الله، وأَمَّا الآخَرُ فاستَحيَا فاستحيَا الله مِنهُ،**

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٥١).

وأمَّا الآخَرُ فأعرَضَ فأعرَضَ اللهُ عنهُ»[1].

ولا يقيمُ أحدًا من مجلسهِ، فإن آثَرَهُ غيرُهُ بمجلسِهِ لم يأخذه إلا أن يكونَ في ذلك مصلحةٌ للحاضرين بأن يكونَ في ذلك فائدةٌ لهم.

ولا يجلسُ وسطَ الحلقةِ إلا لضرورةٍ، ولا بين صاحبين إلا برضاهما، ويحرص علىٰ القُربِ من الشيخِ بدونِ أذىٰ أحدٍ، ليفهمَ كلامه فهمًا كاملًا.

ويتأدَّبُ مع رُفقَتِهِ وحاضِري المجلسِ، فإنَّ تأدُّبَه معهم تأدُّبٌ مع أستاذِهِ واحترامٌ لمجلسِهِ، فلمجلسِ الدرسِ حريمٌ مقدَّسٌ لا يجوزُ انتهاكُهُ.

ويجلس بأدبٍ وتواضعٍ جلوسَ المتعلِّمين لا جلوسَ المعلِّمين، ولا يرفعُ صوتَه كثيرًا من غيرِ حاجةٍ، بل يُقبلُ علىٰ أستاذِهِ مستمعًا إليه، فلا يسبقه إلىٰ شرحِ مسألةٍ أو جوابِ سؤالٍ.

ويبدأ درسَه بـ: بسم الله الرحمنِ الرحيمِ، والحمد لله، والصلاةِ والسلامِ علىٰ رسولِهِ وآله وأصحابهِ الكرامَ؛ ثمَّ الدعاءِ للعلماءِ، ومشايخِهِ، ووالديه، وسائرِ المسلمين.

وينبغي له أن يلاحظَ أحوالَ شيخِه، فلا يقرأُ عند اشتغالِ قلبهِ بشيءٍ، أو عند مَلَلِهِ وغَمِّهِ ونعاسِهِ، ولا يلحُّ في السؤالِ بل يتلطَّف فيه، ولا يسأله عن شيءٍ في غيرِ موضعِهِ، لكنَّه لا يستحيي من الأسئلةِ النافعةِ في أوقاتِها.

وإذا قال له الشيخُ: فهمتَ؟ فلا يَقُل: نعم، إلا وهو فاهمٌ، ولا يستحيي من

(١) رواه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

قولِهِ: لا أدري، أو لا أفهمُ.

قال مجاهدٌ: لا يتَعَلَّمُ العلمَ مُسْتَحْيٍ ولا مُستكبرٌ.

وقالت عائشةُ رضي الله عنها: نِعمَ النِّسَاءُ نِسَاءُ الأنصَارِ لَم يَمنَعْهُنَّ الحَيَاءُ أن يَتفَقَّهنَ في الدِّينِ[١].

وقال الخليلُ بن أحمد رحمه الله: منزلةُ الجهلِ بين الحياء والأَنَفَةِ»[٢].

❊ ❊ ❊

هذه هي جملةُ الآدابِ التي ينبغي لطالبِ العلمِ أن يتأدَّبَ بها، ويحرصَ علىٰ التحلِّي بأصولها وفروعها؛ لأنَّ العلمَ في الإسلام ليس كالعلمِ في أي دينٍ أو فكرٍ أو مذهبٍ علىٰ ظهرِ الأرضِ.

العلمُ في الإسلامِ يثمرُ العملَ، ويربِّي الخُلُقَ، ويُهَذِّبُ الروحَ، ويزكِّي القلبَ، ويطهِّر الضميرَ، فإذا لم يُثمر العلمُ ذلك فما هو بعلمٍ صحيحِ النسبةِ، ولا موصولِ الأسبابِ بالشرعِ الحنيفِ والدينِ القيِّمِ المتينِ، يقول تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

ومنِ أجلِهَا قالوا: إنَّما العِلْمُ مَا أَثْمَرَ الخَشْيَةَ.

❊ ❊ ❊

---

(١) رواه البخاري مُعَلَّقًا في صحيحه في كتاب العلم باب الحياء في العلم (١/ ٦٠).

(٢) «آداب المتعلم والعالم» (ص٥٩).

باب: مَرَاتبُ الطَّلَبِ وطَرائقُ التَّحْصِيلِ(١)

أولاً: مَرَاتِبُ الطَّلَب

إنَّ الله ﷻ هو «الرَّبُّ»، أي: الذي يتولَّىٰ التربيةَ والرعايةَ والحفظَ.

ومن تمام التربيةِ في النَّاسِ أنَّ الله جعلها متدرجَةً فيهم منذ نعومةِ الأظفارِ حتىٰ الورود علىٰ القبرِ.

وقد تدرَّجَ دينُ الله ﷻ في تربيةِ هذه الأمَّةِ كما تدرَّجَ في تربيةِ الفردِ، حتىٰ إذا رجعت القلوبُ إلىٰ الدينِ أُعلمتْ بما يحلُّ ويحرُمُ ممَّا أَلِفَتْهُ النفوسُ قبلُ؛ لأنَّ مفارقةَ المألوفِ من غيرِ يقينٍ راسخٍ أمرٌ شديدُ المشقَّةِ علىٰ النفوسِ، ثقيلُ الوقعِ علىٰ القلوبِ.

عن يُوسُفَ بنِ مَاهَك قالَ: «إنِّي عِندَ عَائِشَةَ أُمِّ المؤْمِنِينَ رضي الله عنها إذ جاءَهَا عِرَاقِيٌّ فَقَالَ: أَيُّ الكَفَنِ خيرٌ؟ قَالَت: وَيحكَ ومَا يَضُرُّكَ؟ قَالَ: يَا أُمَّ المُؤمِنينَ أَريني مُصحَفَكِ، قَالَت: لِمَ؟ قَالَ: لَعَلِّي أُؤَلِّفُ القُرآنَ عَلَيهِ، فَإنَّهُ يُقرَأُ غيرَ مُؤَلَّفٍ، قَالَت: ومَا يَضُرُّكَ أَيَّهُ قَرَأتَ قَبلُ، إنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزلَ مِنهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا

(١) بسطتُ بحولِ الله وقوَّتِهِ -لا حولَ ولا قوةَ إلا به- القولَ في مراتب الطلب وطرق التحصيل فِي رسالةٍ مستقلَّةٍ، فيها بسطٌ فوق هذا الإيجاز الذي هنا، وهي منشورةٌ فليطالعها مَن شاءَ -إن شاء الله تعالىٰ-.

ذِكرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّىٰ إذَا ثَابَ النَّاسُ إلَىٰ الإسلامِ نَزَلَ الحَلالُ والحَرَامُ، وَلَو نَزَلَ أَوَّلَ شَيءٍ: لا تَشْرَبُوا الخَمْرَ لقَالُوا: لا نَدَعُ الخَمْرَ أبَدًا، وَلَو نَزَلَ: لا تَزنُوا، لقَالُوا: لا نَدَعُ الزِّنَا أبَدًا، لَقَد نَزَل بِمَكَّةَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﷺ وَإِنِّي لَجَارِيَةٌ أَلْعبُ: ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوۡعِدُهُمۡ وَٱلسَّاعَةُ أَدۡهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر:٤٦] وما نَزَلَت سُورَةُ البَقَرةِ والنِّسَاءِ إلا وأنَا عِندَهُ، قَالَ: فأخرَجَتْ لَهُ المُصحَفَ، فَأملَت عليهِ آيَ السُّورِ»(١).

وقولهُ: «عِندَ عائشَةَ» أي: في مجلسِها وهي من وراء حجابٍ.

«عِرَاقِيٌّ»: رجلٌ من أهل العراق.

«أيُّ الكَفنِ خَيرٌ»: أقربُ إلىٰ السُّنَّةِ، ويحتمل أن يكون السؤالُ عن كَم لفافة يكون، أو عن لونِهِ، أو جنسِهِ.

«وَيْحَكَ» : كلمةُ تَرَحُّمٍ.

«وَمَا يَضُرُّكَ» أي: كم الكفن؟ أو نوعه؟ بعد موتِك وسقوطِ التكليف عنكَ.

«أُؤَلِّفُ القُرآنَ عَلَيهِ» : أنسخُهُ وأكتُبُه علىٰ نهجِ مصحفِكِ.

«غَيرَ مُؤَلَّفُ»: غيرَ مجموعٍ ولا مرتَّبٍ.

«سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ»: المرادُ إمَّا سورة: اقرأ، وفيها إشارةٌ إلىٰ الجنَّةِ والنَّارِ في قوله تعالىٰ: ﴿سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق:١٨]. والزبانيةُ: الملائكة المكلَّفون بالنَّارِ، وإمَّا سورة: المدثرِ، فيها تصريحُ بهما بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾ [المدثر:٢٧].

(١) رواه البخاري (٤٧٠٧).

وسقرُ: اسمُ جهنم، وقوله تعالىٰ: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ﴾، والمفصَّلُ من القرآنِ يبدأ من سورةِ (ق)، وقيل غير ذلك، وسمِّي المفصل لِقصَرِ سوره وقُربِ انفصالِ بعضِهنَّ من بعضٍ.

«ثَابَ النَّاسُ»: رجعوا واجتمعوا عليه وكثروا.

«نَزَلَ الحَلالُ والحَرَامُ» أي: آياتُ التشريعِ التي فيها بيانُ الحلالِ والحرامِ.

«فَأملَت عَلَيهِ آيَ السُّوَرِ»: قرأتْ عليه ليكتبَ السُّورَ والآياتِ حسب نزولها(١).

«والحكمةُ الإلهيةُ في ترتيبِ التنزيلِ أنَّ أولَ ما نزلَ من القرآنِ الدعاءُ إلىٰ التوحيدِ، والتبشيرُ للمؤمن والمطيعِ بالجنَّةِ، وللكافرِ والعاصي بالنَّارِ، فلمَّا اطمأنَّت النفوسُ علىٰ ذلك أُنزِلَت الأحكامُ»(٢).

وقد كان من مقترحاتِ الكفارِ أن ينزلَ القرآنُ كلُّه جملةً واحدةً، فردَّ الله ﷻ عليهم مبيِّنًا الحكمةَ في التنجيمِ -التفريقِ- فقالَ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٢-٣٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا﴾ [الإسراء: ١٠٦].

ومن الحِكمِ العظيمةِ في سببِ نزولِ القرآنِ مُنَجَّمًا: «التَّدَرُّجُ في تربيةِ هذه

(١) تعليق الدكتور مصطفىٰ ديب البغا علىٰ صحيح البخاري (٤/ ١٩١٠).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٦٥٧).

الأمَّةِ الناشئة علمًا وعملًا، وينضوي تحت هذا الإجمالُ أمورٌ:

أوَّلُها: تيسيرُ حفظِ القرآنِ علىٰ الأمَّةِ العربيةِ، وهي أمَّةٌ أمِّيَّةٌ -كانت- وأدواتُ الكتابةِ لم تكن ميسورةً لدىٰ الكاتبين منهم علىٰ ندرتهم، وكانت مُشْتَغِلَةً بمصالحها المعاشيةِ، وبالدفاعِ عن دينها الجديدِ بالحديدِ والدمِ، فلو نزل القرآنُ جملةً واحدةً لعجزوا عن حفظِهِ، فاقتضت الحكمةُ العليا أن ينزله الله إليهم مُفَرَّقًا ليسهُلَ عليهم حفظُهُ، ويتهيَّأ لهم استظهارُه.

ثانيها: تسهيلُ فهمِهِ عليهم كذلك، مثلما سبق في توجيهِ التيسيرِ في حفظِهِ.

ثالثُها: التمهيدُ لكمال تخلِّيهم عن عقائِدهم الباطلةِ، وعباداتهم الفاسدةِ، وعاداتهم المرذولةِ، وذلك بأن يُراضوا علىٰ هذا التخلِّي شيئًا فشيئًا، بسبب نزولِ القرآن عليهم كذلك شيئًا فشيئًا»[1].

عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّما العلمُ بالتَّعَلُّم، والحِلمُ بالتَّحَلُّمِ، ومَن يتحَرَّ الخيرَ يُعْطَهُ، ومَن يَتَوَقَّ الشَّرَ يُوقَهُ**» أخرجه الخطيب في «تاريخه»، وغيره بإسنادٍ آخر، وذكره الألبانيُّ في «الصحيحة» (٣٤٢).

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ ﷺ: «**إنَّما العلمُ بالتَّعَلُّم**» هو حديثٌ مرفوعٌ أيضًا، أورده ابنُ أبي عاصمٍ، والطبرانيُّ من حديثِ معاويةَ أيضًا بلفظ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تَعَلَّمُوا، إنَّما العِلمُ بالتَّعلُّم، والفِقْهُ بالتَّفَقُّهِ، وَمَن يُرِدِ الله بِهِ خَيرًا يُفَقِّههُ في الدِّينِ**» إسنادُهُ حسنٌ، إلا أنَّ فيه مُبهَمًا اعتضد بمجيئهِ من وجهٍ آخرَ، وروىٰ البَزَّارُ نحوَهُ

(١) «مناهل العرفان» للزرقاني (١/ ٥٥).

من حديثِ ابن مسعودٍ موقوفًا، ورواه أبو نعيم الأصبهانيُّ مرفوعًا، وفي البابِ عن أبي الدرداءِ وغيرِه، فلا يُغترُّ بقولِ مَن جعلَهُ من كلامِ البخاريِّ.

والمعنىٰ: لَيس العلمُ المعَتَبرُ إلا المأخوذُ من الأنبياءِ وورثتِهم علىٰ سبيل التَّعلُّمِ»(١).

وإذا كان العلمُ بالتَّعَلُّمِ كما أخبرَ الصادقُ المصدوقُ ﷺ فإنَّه يكون شيئًا بعد شيءٍ، وفي وقتٍ بعد وقتٍ.

وقد كان العلماءُ -رحمهم الله- يفهمون هذا الأمرَ علىٰ وجههِ، ويقدرونَه حقَّ قَدرِهِ، ويأمرون به ويوجِّهون إليه مَن يأخذ العلمَ عنهم.

أخرجَ الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن حصينٍ قال: «جاءت امرأةٌ إلىٰ حلقةِ أبي حنيفةَ وكان يُطيلُ الكلامَ، فسألتُه عن مسألةٍ له ولأصحابِهِ فلم يُحسنوا فيها شيئًا من الجوابِ فانصرفت إلىٰ حمَّادِ بن سليمان، فسألتهُ فأجابها، فرجعت إليه فقالت: غَرَرتُموني، سمعتُ كَلامَكُم فلم تحسنوا شيئًا، فقام أبو حنيفةَ فأتىٰ حَمَّادًا فقال له: ما جاء بك؟ قال: أطلبُ الفقهَ، قال: تعلَّم كلَّ يومٍ ثلاثَ مسائلَ ولا تزد عليها شيئًا حتىٰ يتَّفقَ لك شيءٌ من العلمِ، فتعلَّمَ ولَزِمَ الحلقةَ حتىٰ فقه، فكان النَّاسُ يشيرون إليه بالأصابعِ».

قال الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فينبغي له -أي: للمبتدئ بالتَّفَقُّهِ- أن يَتَثَّبَتَ في الأخذِ ولا يُكْثِرَ، يأخذُ قليلًا قليلًا حسبما يحتملُه حفظُهُ، ويَقرُبُ من فهمِهِ؛ فإنَّ الله تعالىٰ

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٤).

يقول: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا﴾ [الفرقان:٣٢]»[١].

وقالَ الزَّرْنُوجيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الشيخُ الإمامُ الأستاذُ شرفُ الدينِ العَقِيليُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: الصوابُ عندي في هذا -يعني في السَّبقِ والتلقِّي- ما فَعَلَهُ مشايخُنَا -رحمهم الله- فإنَّهم كانوا يختارون للمبتدئ صغَارَ المبسوطاتِ، لأنَّه أقربُ إلىٰ الفهم والضَّبطِ، وأبعدُ عن الملالَةِ، وأكثرُ وقوعًا بين النَّاسِ.

وينبغي ألا يكتب المتعلِّمُ شيئًا لا يفهمُهُ، فإنَّه يُورِثُ كلالَةَ الطَّبعِ، ويذهِبُ الفِطنَةَ، ويُضيِّعُ أوقاتَهُ.

وينبغي أن يجتهدَ في الفهمِ من الأستاذِ بالتَّأَمُّلِ والتفكُّرِ، وكَثرَةِ التكرارِ، فإنَّه إذا قَلَّ السَّبقُ[٢]، وكَثُرَ التَّكْرَارُ والتأمُّلُ، يُدْرَكُ ويُفْهَمُ.

قيل: حِفظُ حرفينِ خيرٌ من سَمَاعِ وِقْرَينِ، وفَهمُ حَرفَينِ خيرٌ من حفظِ وقْرَينِ»[٣].

قال أبو إسحاق الشيرازيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُنتُ أُعيدُ كلَّ دَرسٍ أَلفَ مَرَّةٍ، فإذَا كانَ في المسألةِ بيتٌ يُستشهَدُ بِهِ، حَفِظتُ القصيدةَ كلَّها لأجلِهِ»[٤].

وقال الغَزَاليُّ -عفا الله عنه-: «علىٰ طالبِ العلمِ أَلَّا يخوضَ في فنٍّ من فنونِ

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٠٠).

(٢) السَّبقُ: هو القَدرُ الذي يلتزمُهُ المتعلِّمُ من علومه، وهو هنا المقروءُ في الدَّرسِ.

(٣) «تعليم المتعلم» (ص٣٣).

(٤) «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ٤٥٨).

العلمِ دفعةً، بل يُراعي الترتيبَ ويبتدئُ بالأهمِّ، فإنَّ العمرَ إذا كان لا يتَّسعُ لجميعِ العلومِ غالبًا، فالحزمُ أن يأخذَ من كلِّ شيءٍ أحسنَه.

وعليه ألَّا يخوضَ في فنٍّ حتىٰ يستوفيَ الفنَّ الذي قَبْلَهُ، فإنَّ العلومَ مرَّتَبةٌ ترتيبًا ضروريًّا، وبعضُها طريقٌ إلىٰ بعضٍ، والموفَّقُ مَن رَاعَىٰ ذلك الترتيبَ والتدريجَ»[١].

وقد صاغَ ابنُ خلدون في «المقدمة» فصلًا في قواعدِ التَّلَقِّي، وأصولِ التعلُّمِ، قال فيه: «اعلم أنَّ تلقينَ العلومِ للمتعلِّمين إنَّما يكون مفيدًا؛ إذا كان علىٰ التدريجِ شيئًا فشيئًا وقليلًا قليلًا، يلقي عليه أولًا مسائلَ من كلِّ بابٍ من الفَنِّ هي أصولُ ذلك البابِ، ويقرِّبُ له في شرحها علىٰ سبيلِ الإجمالِ، ويُراعي في ذلك قوَّةَ عقلِهِ واستعدادَهُ لقبولِ ما يَرِدُ عليه، حتىٰ ينتهي إلىٰ آخرِ الفَنِّ، وعند ذلك يحصلُ له ملَكَةٌ في ذلكَ العلمِ، إلا أنَّها جزئيةٌ وضعيفةٌ، وغايتُها أنها هَيَّأَتْهُ لفهمِ الفنِّ ثانيةً، فيرفعُهُ في التلقينِ عن تلك الرتبةِ إلىٰ أعلىٰ منها، ويستوفي الشرحَ والبيانَ ويخرجُ عن الإجمالِ ويذكرُ له ما هنالك من الخلافِ ووجهِهِ إلىٰ أن ينتهي إلىٰ آخرِ الفنِّ فتجودَ مَلَكَتُهُ.

ثمَّ يرجعُ به وقد شَدَا[٢] فلا يتركُ عويصًا ولا مُبْهَمًا ولا مُعَلَّقًا إلا وضَّحه وفتحَ له مُقْفَلَهُ؛ فيخلُصَ من الفنِّ وقد استولىٰ علىٰ مَلَكَتِهِ.

هذا وَجهُ التعليمِ المفيدِ، وهو كما رأيتَ إنَّما يحصل في ثلاثِ تكراراتٍ، وقد

(١) «إحياء علوم الدين» للغزالي (١/ ٥٣)، و«الإحياء» مشحونٌ بالأحاديثِ الضعيفةِ الواهية، وفيه جملةٌ من الأحاديث الموضوعة، ودعوةٌ إلىٰ التصوف وغيرِهِ، ممَّا ينافي منهجَ السلفِ في العقيدةِ والعملِ، وأبو حامدٍ -نفسُهُ- لا يخفىٰ حالُهُ علىٰ طلَّابِ العلمِ.

(٢) **شَدَا**: أخذ طَرَفًا من العلمِ والأدبِ.

يحصلُ للبعضِ في أقلَّ من ذلك بحسبِ ما يُخْلَقُ له ويتيسَّرُ عليه.

وقد شاهدنا كثيرًا من المعلِّمين لهذا العهدِ الذي أدركنا يجهلون طرقَ التعليمِ وإفادتِه، ويحضرون للمتعلِّمِ في أوَّلِ تعليمِهِ المسائلَ المقفلَةَ من العلمِ ويطالبونه بإحضارِ ذهنِهِ في حلِّها، ويحسبون ذلك مِرَانًا علىٰ التعليمِ وصوابًا فيه، ويكلِّفونه وَعيَ ذلك وتحصيلَه، ويخلطون عليه بما يلقون له من غاياتِ الفنونِ في مبادئِها، وقبلَ أن يستعدَّ لفهمِهَا.

فإنَّ قَبولَ العلمِ والاستعداداتِ لفهمِهِ تنشأ تدريجًا، ويكون المتعلِّمُ أولَ الأمرِ عاجزًا عن الفهمِ بالجملةِ إلا في الأقلِّ وعلىٰ سبيلِ التقريبِ والإجمالِ وبالأمثلةِ الحسِّيَّةِ.

ثمَّ لا يزال الاستعدادُ فيه يتدرَّجُ قليلاً قليلًا بمخالفةِ مسائلِ ذلك الفنِّ وتكرارِها عليه والانتقالِ فيها من التقريبِ إلىٰ الاستيعابِ الذي فوقه، حتَّىٰ تتمَّ الملَكَةُ في الاستعدادِ ثمَّ في التحصيلِ، ويحيط هو بمسائلِ الفنِّ.

وإذا أُلقيت عليه الغاياتُ في البداياتِ، وهو حينئذٍ عاجزٌ عن الفهمِ والوعي، وبعيدٌ عن الاستعدادِ له كلَّ ذهنُه عنها، وحَسِبَ ذلك من صعوبةِ العلمِ في نفسِهِ فتكاسلَ عنهُ، وانحرفَ عن قبولِهِ، وتمادىٰ في هجرانِهِ، وإنَّما أتىٰ ذلك من سوءِ التعليمِ.

ولا ينبغي للمعلِّمِ أن يزيدَ متعلِّمَه علىٰ فَهمِ كتابِهِ الذي أَكَبَّ علىٰ التعليمِ منه بحسبِ طاقتِهِ، وعلىٰ نسبةِ قبولِهِ للتعليم مبتدئًا كان أو منتهيًا، ولا يخلطُ مسائلَ الكتابِ بغيرِها حتَّىٰ يَعِيَهُ من أَوَّلِهِ إلىٰ آخرِهِ ويحصِّلَ أغراضَه ويستولي منه علىٰ

ملَكَةٍ بها يَنفُذُ في غيرِهِ.

لأنَّ المتعلِّم إذا حَصَّلَ مَلَكَةً ما في علمٍ من العلومِ استعدَّ بها لقبولِ ما بقي وحصلَ له نشاطٌ في طلبِ المزيدِ والنهوضِ إلىٰ ما فوق، حتىٰ يستولي علىٰ غاياتِ العلمِ، وإذا خُلط عليه الأمرُ عَجَزَ عن الفهمِ، وأدركَهُ الكَلالُ، وانطمسَ فكرُهُ، ويَئِسَ من التحصيلِ، وهَجَرَ العلمَ والتعليمَ، والله يهدي مَن يشاءُ.

وكذلك ينبغي للمعلِّم ألَّا يطوِّلَ علىٰ المتعلِّم في الفنِّ الواحدِ بتفريقِ المجالسِ، وتقطيعِ ما بينها؛ لأنَّه ذريعةٌ إلىٰ النسيانِ وانقطاعِ مسائلِ الفنِّ بعضها من بعضٍ فيعسُرُ حصولُ الملَكَةِ بتفريقها.

وإذا كانت أوائلُ العلمِ وأواخرُهُ حاضرةً عند الفكرةِ، مجانبةً للنسيانِ، كانت الملَكَةُ أيسرَ حصولاً وأحكمَ ارتباطًا وأقربَ صبغةً؛ لأنَّ المَلَكَاتِ إنَّما تحصلُ بتتابعِ الفعلِ وتكرارِه، وإذا تُنوسِيَ الفعلُ تُنوسيت الملَكَةُ الناشئةُ عنه، والله علَّمكم ما لم تكونوا تعلمون.

ومن المذاهب الجميلةِ والطُّرُقِ الواجبةِ في التعليمِ: ألَّا يُخْلَطَ علىٰ المتعلِّمِ علمان معًا، فإنَّه حينئذٍ قلَّ أن يظفرَ بواحدٍ منهما، لما فيه من تقسيمِ البالِ وانصرافِهِ عن كلِّ واحدٍ منهما إلىٰ تفهُّمِ الآخرِ، فيستغلقان معًا ويستصعبان، ويعود منهما بالخيبةِ، وإذا تفرَّغَ الفكرُ لتعليمِ ما هو بسبيلِهِ مقتصرًا عليه، فرَّبما كان ذلك أجدرَ بتحصيلِهِ، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الموفِّقُ للصوابِ»[1].

(١)«مقدمة ابن خلدون» (ص٥٠٢).

بهذا البيانِ الذي دَنْدَنَ فيه ابنُ خلدون حولَ «المَلَكَةِ» وتحصِيلِها، وَضَعَ التربيةَ في إطارِها النهائيِّ، ولا تكاد تخرجُ أصولُ التعليمِ عن مراميه وأغوارِهِ، لقد قَعَّدَ القواعدَ التي وَجَدَ مادَّتَها في كتابِ الله ﷻ، وفي سُنَّةِ نبيِّه ﷺ، وهاهم علماء التفسيرِ يذكرون وجوهَ التفسيرِ في قولِ الله: ﴿**وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ**﴾ [آل عمران:٧٩] أنَّ الربَّانيِّين: هم الذين يربُّون النَّاسَ بصغارِ العلمِ قبل كبارِهِ.

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرَّبَّانيُّونَ واحدُهم ربَّانيٌّ: منسوبٌ إلىٰ الرَّبِّ، والرَّبَّانيُّ هو الذي يُرَبِّي النَّاسَ بصغار العلم قبل كبارِهِ، وكأنَّه يقتدي بالرَّبِّ سبحانه في تيسير الأمورِ؛ روي معناه عن ابن عباس»[١].

وأخرجَ البخاريُّ في «صحيحه» تعليقًا عن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «كُونُوا رَبَّانيين: حُكَمَاءَ فُقَهَاءَ» ويُقَالُ: الرَّبَّانيُّ الَّذي يُرَبِّي النَّاسَ بِصِغَارِ العلمِ قبلَ كِبَارِهِ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: وقَالَ ابنُ عباسٍ. هذا التعليقُ وَصَلَهُ ابنُ أبي عاصمٍ أيضًا بإسنادٍ حَسَنٍ، والخطيبُ بإسنادٍ آخرَ حَسنٍ.

والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، **وبكباره**: ما دقَّ منها.

وقيل: يعلِّمهم جزئياتِهِ قبلَ كُلِّيَّاتِهِ، أو فروعَه قبلَ أصولِهِ[٢]، أو مقَدِّماتِهِ قبل

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٣٦٤).

(٢) ليس المرادُ بالفروعِ والأصولِ ما يُفهم من مصطلحات المتأخِّرين من أصحابِ الأصولِ والفروعِ، وإنما يشرحُ «الأصولَ والفروعَ» قولُهُ بعدها: «أو مقدِّماته ومقاصده»؛ فليكن هذا علىٰ ذُكرٍ منك أبدًا.

مقاصدِهِ، وقال ابنُ الأعرابيِّ: لا يُقالُ للعالِمِ: ربَّانيٌّ، حتَّىٰ يكون عالِمًا معلِّمًا عاملاً»[(١)].

لقد وضعَ الكتابُ والسنَّةُ أصولَ التربيةِ وأُسُسَ التعليمِ، وراعىٰ الأئمةُ تلك الأصولَ وبَنَوا علىٰ تلك الأُسسِ أَتَمَّ رعايةٍ وأكملَ بناءٍ.

قال أبو عمر بنُ عبدِ البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «طَلَبُ العلمِ درجاتٌ ومناقلُ ورتبٌ لا ينبغي تَعَدِّيها، فَمَن تَعدَّاها جملةً فقد تعدَّىٰ سبيلَ السَّلَفِ -رحمهم الله-، ومَن تعدَّىٰ سبيلَهم ضَلَّ، ومَن تعدَّاهُ مجتهدًا زَلَّ.

فأوَّلُ العلمِ حفظُ كتابِ الله -جَلَّ وعزَّ- وتَفَهُّمُهُ، وكلُّ ما يُعينُ علىٰ فهمِهِ فواجبٌ طَلَبُهُ معه، ولا أقولُ: إنَّ حفظَه كلَّه فرضٌ، ولكن أقولُ: إنَّ ذلك واجبٌ لازمٌ علىٰ مَن أحبَّ أن يكون عالِمًا ليس من بابِ الفرضِ.

فعنِ الضَّحَّاكِ فِي قولِهِ تعالىٰ: ﴿كُونُوا۟ رَبَّـٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [آل عمران:٧٩]، قال: حقٌّ علىٰ كلِّ مَن تعلَّمَ القرآنَ أن يكون فقيهًا، فَمَن حفظه قبل بلوغِهِ ثمَّ تفرَّغ إلىٰ ما يستعينُ به علىٰ فهمِهِ من لسانِ العربِ، كان له ذلك عونًا كبيرًا علىٰ مرادِهِ منه، ومن سُنَنِ رسولِ الله ﷺ، ثُمَّ ينظرُ في ناسخِ القرآنِ ومنسوخِه وأحكامِهِ، ويقفُ علىٰ اختلافِ العلماءِ واتفاقِهم في ذلك، وهو أمرٌ قَريبٌ علىٰ مَن قرَّبهُ الله عليه، ثمَّ ينظرُ في السُّنَنِ المأثُورَةِ الثابتةِ عن رسولِ الله ﷺ، بها يصلُ الطالبُ إلىٰ مرادِ الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابِهِ، وهي تفتحُ له أحكامَ القرآنِ فتحًا.

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٥).

ومَن طَلَبَ السُّنَنَ فليكُن معوَّلُهُ علىٰ حديثِ الأئمةِ الثقاتِ الحُفَّاظِ الذين جعلهم الله خزائنَ لعلمِ دينِهِ، وأمناءَ علىٰ سُنَنِ رسولِ الله ﷺ»(١).

فالبدايةُ القرآنُ ثمَّ السُّنَّةُ، وما في الكتبِ المصنَّفَةِ كصحيحي البخاريِّ ومسلمٍ -رحمهما الله- صحَّةَ إسنادٍ، وبيانَ سُنَّةٍ، وجودةَ تصنيفٍ، ودِقَّةَ ترتيبٍ.

يقولُ شيخُ الإسلام ابن تيميةَ -رحمه الله تعالىٰ-: «وما في الكتبِ المصنَّفَةِ المبوَّبةِ كتابٌ أنفعُ من «صحيح محمد بن إسماعيل البخاري»، لكن هو وحده لا يقوم بأصولِ العلمِ، ولا يقوم بتمامِ المقصودِ للمتبحِّرِ في أبوابِ العلمِ، إذ لابُدَّ من معرفةِ أحاديثَ أُخرَ، وكلامِ أهلِ الفقهِ وأهلِ العلمِ في الأمور التي يختصُّ بعلمها بعضُ العلماءِ.

وقد أَوْعَبَت الأئمةُ في كلِّ فنٍّ من فنونِ العلمِ إيعابًا، فمَن نَوَّرَ الله قلبَه هداه بما يبلُغُه من ذلك، ومَن أعماهُ لم تزده كثرةُ الكتبِ إلا حَيرَةً وضلالاً»(٢).

ويسوقُ الشيخُ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ مزيدًا من التفصيلِ فيقولُ: «ينبغي للطالبِ أن يُقدِّمَ الاعتناءَ بالصحيحين، ثمَّ بالسُّنَنِ؛ كَسُنَنِ أبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وصحيحي ابن خزيمة وابن حبَّان، والسننِ الكبرىٰ للبيهقي، وهو أكبر كتابٍ في أحاديثِ الأحكامِ، ولم يصنَّف في بابِهِ مثلُهُ، ثمَّ بالمسانيدِ، وأهمُّها مسندُ أحمد بن حنبل، ثمَّ بالكتب الجامعةِ المؤلَّفَةِ في الأحكامِ، وأهمُّها مُوَطَّأُ مالكٍ،

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٦٦).

(٢)«مجموع الفتاوىٰ» لابن تيمية (١٠/ ٦٦٥).

ثمَّ كتب ابن جريج، وابن أبي عروبةَ، وسعيد بن منصور، وعبد الرزَّاق، وابن أبي شيبة ثم كتب العِلَلِ، ثمَّ يشتغل بكتبِ رجالِ الحديثِ وتراجمهم وأحوالهم، ثمَّ يقرأ كثيرًا من كتبِ التاريخِ وغيرها»(١).

وقال أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم يا أخي أنَّ السُّنَّةَ والقرآنَ هما أصلُ الرأي والعِيَارُ عليه، وليس الرأيُ بالعِيَارِ علىٰ السُّنَّةِ، بل السُّنَّةُ عِيَارٌ عليه، ومَن جَهِلَ الأصلَ لم يصل الفرعَ أبدًا.

فعليكَ يا أخي بحفظِ الأصولِ، والعنايةِ بها، واعلم أنَّ مَن عُنِيَ بحفظِ السُّنَنِ والأحكامِ المنصوصةِ في القرآنِ، ونظر في أقاويلِ الفقهاءِ، فجعله عَونًا له علىٰ اجتهادِهِ ومفتاحًا لطرائقِ النظرِ، وتفسيرًا لجُمَلِ السُّنَنِ المحتملةِ للمعاني، ولم يقلِّد أحدًا منهم تقليدَ السُّنَنِ التي يجبُ الانقيادُ إليها علىٰ كلِّ حالٍ دون نظرٍ، ولم يُرِح نفسَه ممَّا أخذَ العلماءُ به أنفسَهم من حِفظِ السُّنَنِ وتدبُّرِهَا، واقتدىٰ بهم في البحثِ والتَّفَهُّمِ والنظرِ، وشَكَرَ لهم سعيَهم فيما أفَادوه ونَبَّهُوا عليه، وحَمِدَهُم علىٰ صوابِهم الذي هو أكثرُ أقوالهم، ولم يبرِّئهم من الزَّلَلِ كما لم يبرِّئوا أنفسَهم منه، فهذا هو الطالبُ المتمسِّكُ بما عليه السَّلَفُ الصالحُ، وهو المصيبُ لحظِّهِ والمعاينُ لرشدِهِ، والمتَّبِعُ لسنَّةِ نبيِّه ﷺ وهدي أصحابِهِ رضي الله عنهم.

ومَن أعفىٰ نفسَه من النَّظَرِ، وأضرَبَ عمَّا ذكرنا، وعارضَ السُّنَنَ برأيه، ورامَ أن يردَّها إلىٰ مبلغِ نظرِهِ، فهو ضالٌّ مُضِلٌّ، ومَن جَهِلَ ذلك كلَّه أيضًا، وتَقَحَّمَ في

(١) «الباعث الحثيث» أحمد محمد شاكر (ص١٣٤).

الفتوىٰ بلا علمٍ، فهو أشدُّ عمًىٰ وأضلُّ سبيلاً»[١].

ووضَّح أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يريدُ بالأصولِ التي أمَرَ بحفظِهَا والعنايةِ بها، فقال: «وأمَّا أصولُ العلمِ: فالكتابُ والسُّنَّةُ.

وتنقسمُ السُّنَّةُ قسمين[٢]:

أحدهما: إجماعٌ تنقلُه الكافَّةُ عن الكافَّةِ، فهذا من الحُجَجِ القاطعةِ للأعذارِ إذا لم يُوجد هناك خلافٌ، ومَن رَدَّ إجماعَهم فقد ردَّ نصًّا من نصوصِ الله يجب استتابتُه عليه، وإراقَةُ دمِهِ إن لم يَتُب لخروجِهِ عمَّا أجمع عليه المسلمون، وسلوكِهِ غيرَ سبيلِ جميعهم.

والضَّربُ الثاني من السنَّةِ: خَبَرُ الآحادِ الثِّقَاتِ الأثباتِ المتصلُ الإسنادِ، فهذا يُوجبُ العملَ عند جماعةِ علماءِ الأمةِ، الذين هم الحُجَّةُ والقُدوةُ، ومنهم مَن يقول: إنَّه يُوجِبُ العلمَ والعملَ جميعًا»[٣].

قلتُ: كَونُ حديثِ الآحادِ يُوجبُ العلمَ والعملَ جميعًا هو الصوابُ -إن شاء الله

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (٢/ ١٧٢).

(٢) هذا التقسيم للسنَّةِ علىٰ اعتبارِ وصولها إلينا، فإنها بهذا الاعتبارِ تنقسمُ علىٰ قسمين: متواترٍ وآحادٍ، والمتواتر هو: ما رواه عددٌ كثيرٌ تُحيلُ العادة تواطؤَهم علىٰ الكذبِ، وشروطه: أن يرويه عددٌ كثيرٌ -المختار أنَّه عشرةٌ-، وأن توجد الكثرةُ في جميع طبقات السند، وأن تحيل العادةُ تواطؤهم علىٰ الكذب، وأن يكون مستند خبرهم الحس، والآحاد هو ما لم يجمع شروط المتواتر.

(٣) «جامع بيان العلم» (٢/ ٣٣).

تعالىٰ-، ومَنَ أَرادَ مَزِيدَ بَحثٍ فلينظرَ رسالةَ الشيخ الألبانيِّ في «حديثِ الآحادِ».

وممَّا ينبغي أن يُعنىٰ به عنايةً تامَّةً، علمُ العربيةِ؛ إذ هو المدخلُ لفهمِ مرادِ الله ﷻ من كتابِهِ، وفهمِ مرادِ النبيِّ ﷺ في بيانِهِ.

قال الشيخُ أحمد شاكر رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعندي أنَّه ينبغي لطالبِ العلمِ المُشتَغِلِ بالحديثِ أن يكثرَ من درسِ الأدبِ واللغةِ حتىٰ يُحسِنَ فقهَ الحديثِ، وهو كلامُ أفصحِ العرب وأقومِهم لسانًا ﷺ»(١).

ومن قبلُ حضَّ علىٰ ذلك العلماءُ، ووصىٰ به الأتقياءُ.

قال أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وممَّا يستعانُ به علىٰ فَهمِ الحديثِ ما ذكرناه من العونِ علىٰ كتابِ الله، وهو العلم بلسان العربِ، ومواقعِ كلامها، وسَعَةِ لُغَتِهَا، واستعارَتِهَا، ومَجَازِهَا، وعمومِ لفظِ مخاطبتِها، وخصوصِه، وسائرِ مذاهبِها، لمن قَدرَ، فهو شيءٌ لا يستغنىٰ عنه.

وكان عمرُ بن الخطابِ رضي الله عنه يكتبُ إلىٰ الآفاقِ أن يتعلَّموا السنَّةَ والفرائضَ واللَّحْنَ -يعني: النَّحوَ-، كما يُتعَلَّمُ القرآنُ.

وساق أبو عمر بسندِهِ عن أبي عثمان قال: كان في كتابِ عمر رضي الله عنه: تعلَّموا العربيةَ.

وعن عمر بن زيدٍ قال: كتبَ عمرُ إلىٰ أبي موسىٰ: أمَّا بعدُ: فتفقَّهوا في السنَّةِ، وتفقَّهوا في العربيةِ.

---

(١) «الباعث الحثيث» لأحمد محمد شاكر (ص٩١).

وعن ابنِ عمرَ ﵄: أنَّه كان يضربُ ولدَهُ علىٰ اللَّحنِ.

وقال الشافعيُّ ﵀: مَن حَفِظَ القرآنَ عَظُمَت قيمتُهُ، ومَنْ طَلَبَ الفقهَ نَبُلَ قَدْرُهُ، وَمَن كَتبَ الحديثَ قَويتَ حُجَّتُهُ، وَمَن نَظَرَ في النحوِ رَقَّ طَبعُهُ، وَمَن لم يَصُنْ نفسَهُ لم يَصنْهُ علمُهُ.

وقال الشعبيُّ: النَّحوُ في العلمِ كالملحِ في الطعامِ.

وقال شُعْبَةُ: مَثَلُ الذي يتعلَّمُ الحديثَ ولا يتعلَّمُ النحوَ، مَثَلُ بُرنُسٍ[1] لا رأسَ له»[2].

فعلىٰ طالبِ العلمِ أن يقدِّمَ العنايةَ بالقرآنِ حفظًا وفَهمًا، وما يُعينُ علىٰ ذلك الفهمِ من معرفةٍ بلسانِ العربِ، ثمَّ أخذٍ بحظٍّ عظيمٍ من السُّنَنِ، وضَربٍ بسهمٍ وافرٍ فيها، وعليه أن يَبدأَ بالصحيحين وشروحهما، ثمَّ بالسُّنَنِ، فالمسانيدِ كما بيَّنَ الشيخُ أحمد شاكر ﵀.

وليحرص مع ذلك كلِّه علىٰ أن يكونَ له نصيبٌ في قولِ عليٍّ ﵁: «اجمعوا هذه القلوبَ، وابتغوا لها طرائِفَ الحكمةِ؛ فإنَّها تَمَلُّ كَمَا تَمَلُّ الأبدانُ، والموفَّقُ مَن وفَّقَهُ الله تعالىٰ».

قال ابنُ جماعة ﵀: «علىٰ طالبِ العلمِ أن يحذرَ في ابتداءِ أمره من الاشتغالِ في الاختلافِ بين العلماءِ، أو بين النَّاسِ مطلقًا في العقليَّاتِ والسمعيَّاتِ؛ فإنَّه يُحَيِّرُ

(١) كلُّ ثوبٍ رأسُهُ منه، ملتزقٌ به.

(٢) «جامع بيان العلم» (٢/ ١٦٨).

الذهنَ ويدهشُ العقلَ، بل يُتقنُ أولاً كتابًا واحدًا في فنٍّ واحدٍ، أو كُتُبًا في فنونٍ، إذا كان يحتملُ ذلك، علىٰ طريقةٍ واحدةٍ يرتضيها له شيخُهُ، فإن كانت طريقةُ شيخِهِ نقلَ المذاهبِ والاختلافِ، ولم يكن له رأيٌ واحدٌ، قال الغَزَاليُّ: فليحذر منه، فإنَّ ضَرَرَهُ أكثرُ من النفعِ به.

وكذلك يحذرُ في ابتداءِ طَلَبِهِ من المطالعات في تفاريقِ المصنَّفاتِ، فإنَّه يضيِّعُ زَمَانهُ، ويفرِّقُ ذهنَهُ بل يعطي الكتابَ الذي يقرؤهُ أو الفنَّ الذي يأخذُهُ كُلِّيَّتَهُ.

وكذلك يحذرُ من التنقُّلِ من كتابٍ إلىٰ كتابٍ من غيرِ موجبٍ، فإنَّه علامةُ الضَّجَرِ وعدم الإفلاحِ.

أمَّا إذا تحقَّقت أهليتُهُ، وتأكَّدت معرفتُهُ، فالأَولىٰ ألا يدَعَ فَنًّا من العلومِ الشرعيةِ إلا نَظَرَ فيه، فإن ساعدَهُ القَدَرُ وطولُ العُمرِ علىٰ التَّبَحُّرِ فيه فذاك، وإلا فقد استفادَ منه ما يخرج به من عداوةِ الجهلِ بذلك العلمِ، ويعتني من كلِّ علمٍ بالأهمِّ فالمهمِّ، ولا يغفلنَّ عن العمل الذي هو المقصودُ بالعلمِ»(١).

ولستُ أرىٰ قولاً أجمعَ للذي ذكرناه من أقوالِ الأئمَّةِ الأعلامِ في مراتبِ الطَّلَبِ من قولِ ابن شهابٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ليونُسَ بن يزيدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا يونسُ، لا تُكَابر العلمَ، فإنَّ العلمَ أودية، فأيُّها أخذتَ فيه قُطع بك قبل أن تبلُغَهُ، ولكن خُذْهُ مع الأيامِ والليالي، ولا تأخذ العلمَ جملةً، فإنَّ مَن رامَ أخذَهُ جملةً ذهبَ عنه جملةً، ولكن الشيءُ بعد الشيءِ مع الأيامِ والليالي»(٢).

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١١٦).
(٢) «جامع بيان العلم» (١/ ١٠٤).

اللهُمَّ نعم، ما أَصدقَ قولَ ابن شهابٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن رامَ العلمَ جملةً، ذهبَ عنهُ جملةً، ولكن الشيء بعد الشيءِ، مع الأيام والليالي» نعم، مع الأيامِ والليالي، إن شاء الله تعالىٰ.

والحمد لله ربُّ العالمينَ.

* * *

ثانيًا: طَرَائقُ التَّحصيلِ

١- سبيلُ العلم -الذي لا سبيلَ إليه غيرُهُ- هو الإقلاعُ عن الذنوبِ والمعاصي، والإقبالُ على الله بالكُلِّيَّةِ:

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «للمعاصي من الآثارِ القبيحةِ المذمومةِ، المضرَّةِ بالقلبِ والبَدَنِ في الدنيا والآخرةِ ما لا يعلمُهُ إلا الله.

فمنها: حرمانُ العلمِ، فإنَّ العلمَ نورٌ يقذفُهُ الله في القلبِ، والمعصيةُ تُطفئُ ذلك النور.

ولَمَّا جلسَ الإمامُ الشافعيُّ بين يدي الإمامِ مالكٍ، وقَرَأ عليه، أعجبَهُ ما رأىٰ من وفورِ فطنتِهِ، وتوقُّد ذكائِهِ، وكمالِ فهمِهِ، فقال: إنِّي أرىٰ الله قد ألقىٰ علىٰ قلبِكَ نورًا، فلا تطفئه بظُلمَةِ المعصيةِ.

وقال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

«شَكَوتُ إلَىٰ وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي … فَأرشَدَنِي إلَىٰ تَركِ الْمَعَاصِي

وَأخبَرَنِي بِأَنَّ العلمَ نُورٌ … ونُورُ الله لا يُهدَىٰ لِعَاصِي»[1]

وقالَ ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «عن أبي عبد الله بن الجَلاءِ قالَ: كنتُ أنظرُ إلىٰ غلامٍ

(١) «الجواب الكافي» لابن القيم (ص٥٤).

نصرانيٍّ حَسَنِ الوجهِ، فمرَّ بي أبو عبد الله البَلْخِيُّ فقال:أَيشِ وقوفُكَ؟! فقلتُ: يا عمُّ أما ترىٰ هذه الصورةَ؟ كيف تُعَذَّبُ بالنَّارِ؟! فضربَ بيدِهِ بين كتفَيَّ، وقال: لَتَجِدَنَّ غِبَّهَا ولو بعد حين. وقال: فوجدتُ غِبَّها بعد أربعينَ سنةً أن أُنسيتُ القرآنَ.

وبإسنادٍ عن أبي الأديانِ قال: كنتُ مع أستاذي الدَّقَاقِ، فَمَرَّ حَدَثٌ، فنظرتُ إليه، فرآني أستاذي وأنا أنظرُ إليه، فقال: يا بنيَّ لتجدنَّ غِبَّهُ ولو بعد حينٍ، فبقيتُ عشرين سنةً وأنا أُراعي، فما أجدُ ذلك الغِبَّ، فنمتُ ذاتَ ليلةٍ وأنا مُفَكِّرٌ فيه، فأصبحتُ وقد أنسيتُ القرآنَ كلَّه»(١).

وللذنوب آثارٌ طويلةُ المدىٰ، فينبغي للعاقلِ أن يكونَ علىٰ خوفٍ من ذنوبِهِ، وإن تابَ منها وبكىٰ عليها.

«وأكثرُ النَّاسِ قد سكنوا إلىٰ قبولِ التوبةِ، وكأنَّهم قد قطعوا بذلك، وهذا أمرٌ غائبٌ، ثم لو غُفِرَت بقي الخجلُ من فعلِها.

ويؤيِّدُ الخوفَ بعد التوبةِ أنَّه في الصحاحِ: أنَّ النَّاسَ يأتون إلىٰ آدمَ عليه السلام فيقولون: اشفع لنا، فيقول: ذنبي، وإلىٰ نوحٍ عليه السلام فيقول: ذنبي، وإلىٰ إبراهيمَ وموسىٰ وعيسىٰ -صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم-.

فهؤلاء -صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم- إذا اعتُبِرَت ذنوبُهُم لم يكن أكثرُها ذنوبًا حقيقةً.

ثمَّ إن كانت، فقد تابوا منها واعتذروا، وتيب عليهم، وهم بعدُ علىٰ خوفٍ منها.

(١) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص٢٧٧).

ثمَّ إنَّ الخجلَ بعد قبولِ التوبةِ لا يرتفعُ، وما أحسنَ ما قال الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وا سوأتاهُ منكَ وإن عفوتَ.

فَأُفٍّ واللهِ لمختارِ الذنوبِ ومُؤثِرِ لذَّةِ لحظةٍ تبقىٰ حسرةً لا تزول عن قلبِ المؤمنِ، وإن غُفِرَ له، فالحذرَ الحذرَ من كلِّ ما يُوجبُ خجلاً.

وهذا أمرٌ قلَّ أن ينظرَ فيه تائبٌ أو زاهدٌ، لأنَّه يرىٰ أنَّ العفوَ قد غَمَرَ الذنبَ بالتوبةِ الصادقةِ وما ذكرتُهُ يُوجبُ دوامَ الحذرِ والخجلِ»[(١)].

وقد كان الأئمةُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ من الوَرَعِ بمحلٍّ رفيعٍ، وهذا إمام الدنيا في وقتِهِ، أحمدُ بن حنبلٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أتىٰ عليه ثلاثةُ أيامٍ ما طَعِمَ فيها مَرَّةً، وكان قد تَخَطَّىٰ السبعينَ، فاستقرض شيئًا من الدقيقِ، وخبزوا له بالعَجَلَةِ، فلمَّا وُضِعَ بين يديه، قالَ: كيف خبزتُم بهذه السرعةِ؟ قالوا: التَّنُّورُ في بيتِ صالحٍ مسجورٌ، فخبزنا هناك بالعجَلَةِ، فلم تشفع سِنُّهُ ولا شَفَعَ جوعُهُ لأهلِه فيما صنعوا.

وذَعَرَهُ أن تدخلَ نارُ صالحٍ في طعامِهِ، وقالَ: ارفعوا، ولم يأكل، ثم أمرَ بسَدِّ بابِهِ إلىٰ دارِ صالحٍ، حتىٰ نسماتُ الهواءِ لا يرضىٰ أن تجيئَه عن طريقِ مالِ السلطانِ، وإن كان يموتُ، لقد أقبلَ غلامٌ لعمِّه إسحاقَ يُرَوِّحُ عليه وهو مريضٌ قبل أن يموتَ بليلتين، فنهاه؛ لأنَّ عمَّه اشترىٰ هذا الغلامَ من مالِ السلطانِ»[(٢)].

لقد كان من قوانين علمائنا -رحمهم الله- حديثُ نبيِّنا محمدٍ ﷺ: «**وَخَيرُ**

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٤٥٢).

(٢) «أحمد بن حنبل إمام أهل السنة» لعبد الحليم الجندي (ص١٥٥).

دِينكُمُ الوَرَعُ» رواه الطبرانيُّ في «الأوسط»، والبزارُ بإسنادٍ حسنٍ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» رقم(٦٦).

لقد كان هذا الهَديُ النبويُّ الشريفُ قانونًا من قوانينِ العلماءِ، وسبيلاً من سُبُلِ سلوكهم إلىٰ الله، فداوموا الطاعةَ وطلَّقُوا المعصيَّةَ ثلاثًا لا رجعةَ فيها ولا مُحَلِّلَ لها، وهذا كلُّه حتمٌ لازمٌ لطالبِ العلمِ، وكيف لا والذنوبُ تفسدُ العقلَ وتذهَبُ بنورِهِ؟ وتمحقُ العلمَ وتُذهِبُ بركتَه؟

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعاصي تفسدُ العقلَ، فإنَّ للعقلِ نورًا، والمعصية تُطفئُ نورَ العقلِ ولابُدَّ، وإذا طُفِئَ نورُهُ ضَعُفَ وَنَقَصَ.

وقال بعضُ السَّلفِ: ما عَصَىٰ اللهَ أحدٌ حتَّىٰ يغيبَ عقلُهُ، وهذا ظاهرٌ، فإنَّه لو حَضَرَهُ عقلُهُ لحجزَهُ عن المعصيةِ وهو في قبضةِ الربِّ تعالىٰ، وتحت قَهرِهِ، وهو مُطَّلِعٌ عليه وفي دارِهِ وعلىٰ بساطِهِ، وملائكتُهُ شهودٌ عليه ناظرون إليه، وواعظُ القرآنِ ينهاهُ، وواعظُ الإيمانِ ينهاه، وواعظُ الموتِ ينهاه، وواعظ النَّارِ ينهاه، والذي يفوتُهُ بالمعصيةِ من خيرِ الدنيا والآخرةِ أضعافُ أضعافِ ما يحصلُ له من السرورِ واللَّذَّةِ بها، فهل يقدمُ علىٰ الاستهانةِ بذلك كلِّه والاستخفافِ به ذو عقلٍ سليمٍ؟!»(١).

وَالعِلمُ يَدخُلُ قَلبَ كُلِّ مُوَفَّقٍ ... مِن غَيرِ أبَوابٍ ولا استِئذَانِ
وَيَرُدُّهُ الْمَحرُومُ مِن خِذلانِهِ ... لا تُشْقِنَا اللَّهُمَّ بالْحِرمَانِ

* * *

(١) «الجواب الكافي» (ص٦١).

٢- لابُدَّ لِطَالِبِ العلمِ أن يَغتَنِمَ التَّحصِيلَ فِي الصِّغَرِ

أخرجَ الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ بسندِهِ عن موسىٰ بن عليٍّ عن أبيه أنَّ لقمانَ قال لابنه: «يا بنيَّ، ابتغِ العلمَ صغيرًا، فإنَّ ابتغاءَ العلمِ يشقُّ علىٰ الكبيرِ، يا بنيَّ، إنَّ الموعظةَ تشُقُّ علىٰ السَّفِيهِ كما يَشُقُّ الوَعْرُ الصَّعُودُ[1] علىٰ الشيخِ الكبيرِ».

وعن هشام بن عروة قال: قال أبي: إنَّا كُنَّا أصاغرَ قومٍ ثمَّ نحن اليومَ كبارٌ، وإنَّكم اليومَ أصاغِرُ وستكونونَ كبارًا، فتعلَّموا العلمَ تسودوا به قومَكم ويحتاجوا إليكم.

وعن أبي بكرٍ الحافظِ رَحِمَهُ اللَّهُ: قال: التَّفَقُّهُ في زمنِ الشَّبِيبَةِ وإقبالِ العمرِ، والتمكُّنُ منه بقلَّةِ الأشغالِ وكمالِ الذِّهنِ وراحةِ القريحةِ، يَرْسَخُ بذلك في القلبِ، ويثبتُ، ويتمكَّنُ ويستحكمُ، فيحصلُ الانتفاعُ به والبركةُ، إذا صَحِبَهُ من الله حُسْنُ التوفيقِ.

وإذا أُهمِلَ إِلَىٰ حالةِ الكِبَرِ المُغَيِّرةِ للأخلاقِ، الناقصةِ الآلاتِ، كان كما قال الشاعرُ:

إِذَا أَنــتَ أَعــيَاكَ الــتَّفَقُّهُ نَاشِــئًا ... فَمَطْلَــبُهُ شَــيْخًا عَلَــيْكَ شَــدِيدُ[2]

ومنذ مَنَّ الله تعالىٰ علىٰ هذه الأمَّةِ بالإسلامِ، والقرآنُ شغلها الشاغل؛ تعلُّمًا وتعليمًا، وحملاً وأداءً، وعملاً وتطبيقًا، وسلوكًا ومنهاجًا، وصار تعليمُهُ الولدانَ

(١) **الوَعرُ**: المكانُ الحَزنُ ذو الوُعُورَةِ، ضِدُّ السَّهلِ. الصَّعُودُ: العقبةُ الكئودُ، وجمعُها الأصعِدَةُ.

(٢) «الفقيه والمتفقه» للخطيب البغدادي (٢/ ٩٠).

شعارًا من شعائرِ الدِّينِ، وسبيلاً من سُبُلِ التقرُّبِ إلىٰ الله ربِّ العالمين.

قال ابنُ خلدون: «اعلم أنَّ تعليمَ الولدانِ للقرآنِ شِعَارٌ من شعائِرِ الدينِ، أخذ به أهلُ الملَّةِ، ودَرَجُوا عليه في جميعِ أمصارهم، لما يسبق فيه إلىٰ القلوبِ من رسوخِ الإيمانِ وعقائدِهِ من آياتِ القرآنِ وبعضِ مُتُون الأَحَادِيث.

وصارَ القرآنُ أصلَ التعليمِ الذي ينبني عليه ما يحصلُ بَعدُ من المَلَكَاتِ؛ وسبَبُ ذلك أنَّ تعليمَ الصِّغَرِ أشدُّ رسوخًا وهو أصلٌ لما بعده؛ لأنَّ السابقَ الأولَ للقلوبِ كالأساسِ للملَكَاتِ، وعلىٰ حسبِ الأساسِ وأساليبِهِ يكون حالُ ما يُبْنَىٰ عليه»(١).

وأهليَّةُ التحمُّلِ -وهي أخذُهُ عمَّن حَدَّثَ به عنه- فمدارُهَا عند العلماءِ من المحدِّثين وغيرهم، علىٰ التمييزِ، الذي يَعقِلُ به السامعُ ما يسمعهُ ويضبطُهُ.

قال ابنُ الصلاحِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ النَّاسَ قَبِلُوا روايةَ أحدَاثِ الصحابةِ كـ «الحسنِ بن عليٍّ، وابن عباسٍ، وابن الزبيرِ، والنعمانِ بن بشيرٍ»، وأشباهِهِم من غيرِ فرقٍ بين ما تحمَّلُوه قبلَ البلوغِ وما بعده، ولم يزالوا قديمًا وحديثًا يُحضرون الصبيانَ مجالسَ التحديثِ والسماعِ، ويعتدُّون بروايتهم لذلك»(٢).

«والذي عليه الجمهورُ ممَّن ارتضىٰ سماعَ الصغيرِ أنَّه لا حَدَّ للسنِّ الذي يصحُّ أن يتحمَّلَ فيه، وإنَّما المدارُ علىٰ أن يميِّزَ ويدرك ويعي، سواءٌ أَحَصَلَ له هذا القَدرُ وهو ابن خمسٍ أم بعدَهُ أم قبلَهُ، لا أنَّ الغالبَ علىٰ مَن كان دون الخمسِ أن

(١) «مقدمة ابن خلدون» (ص٥٠٥).

(٢) «مقدمة ابن الصلاح» تحقيق د. عائشة عبد الرحمن (ص٣٢١).

يكون بعيدًا عن الاستعدادِ لهذه الخلالِ.

أمَّا كتابةُ الحديثِ وضبطُهُ فإنَّ العبرةَ فيهما باستعدادِ الصبي لذلك، وتأهُّلِهِ له، وقدرتِهِ عليه»[١].

وممَّا يستدلُّ به لتمييز الصغيرِ، ما أجابَ به موسىٰ بنُ هارونَ الحمَّالُ عندما سُئلَ: متىٰ يسمعُ الصبيُّ؟ فقال: «إذا فَرَّقَ بين الدابةِ والبقرةِ، وفي روايةٍ أخرىٰ: إذَا فَرَّقَ بين البقرةِ والحمارِ»[٢].

وقال السخاويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ ممَّا يستدلُّ به لتمييزِ الصغيرِ أن يَعُدَّ من واحدٍ إلىٰ عشرين، أو يُحسن الوضوءَ، أو الاستنجاءَ، وما أشبَهَهُمَا»[٣].

واعلم أنِّي أُذَكِّرُكَ بفضلِ الطَّلَبِ إذ السِّنُّ غَريضٌ والأملُ عريضٌ في حين أنَّ أوان ذلك -في الغالب الأعمِّ- قد مرَّ وانتهىٰ؛ لأنِّي أريدُ أن نتنبَّه إلىٰ أهمية هذا الأمرِ في نفسِهِ.

وَلَئِنْ كانت مقاديرنا قد جَرَت بضدِّه، فلنجتهد- إن شاء الله- أن يكونَ ذلك في أبنائنا، نسألُ الله أن تجريَ مقاديرُهم به، إنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

«فمَن رُزِقَ ولدًا، فليجتهد معه، والتوفيقُ من وراء ذلك؛ فينبغي أن يعوِّدَه النظافةَ والطهارةَ من الصِّغَرِ، ويُثَقِّفَهُ بالآدابِ، فإذا بلغَ خمسَ سنين أخذه بحفظِ

(١) «توضيح الأفكار» للصنعاني، تحقيق وتعليق الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد (٢/ ٢٩١).

(٢) «الكفاية في علم الرواية» للخطيب البغدادي (ص٦٥).

(٣) «فتح المغيث بشرح ألفية الحديث» للسخاوي (٢/ ١٤٧).

العلمِ، فإنَّ الحفظَ في الصِّغَرِ كالنقشِ في حَجَرٍ، ومتىٰ بَلَغَ الصبيُّ ولم تكن له هِمَّةٌ تَحُثُّهُ علىٰ اكتسابِ العلمِ بَعدُ، فلا فلاحَ له»(١).

قال ابنُ خلدون عن تعلُّمِ القرآنِ في الصِّغَرِ: «وتقديمُ دراسةِ القرآنِ في الصِّغَرِ إيثارٌ للتبرُّكِ والثوابِ، وخشيةٌ ممَّا يعرِضُ للولدِ في جنونِ الصِّبَا من الآفاتِ والقواطعِ عن العلمِ، فيفوتهُ القرآنُ؛ لأنَّه مادامَ في الحِجرِ(٢)، فهو منقادٌ للحكمِ، فإذا تجاوزَ البلوغَ وانحلَّ من ربقةِ القهرِ فربَّما عصفت به رياحُ الشَّبيبةِ فألقتْهُ بساحلِ البطالةِ، فيغتنمون في زمانِ الحجرِ وربقةِ الحكمِ تحصيلَ القرآنِ لئلَّا يذهبَ خُلْوًا منه»(٣).

فلابُدَّ لطالبِ العلمِ أن يغتنمَ التحصيلَ في الصِّغَرِ، وقد رُوي عن الحسنِ البصري أنَّه قال: «طلبُ العلمِ في الصِّغَرِ كالنَّقْشِ علىٰ الحَجَرِ».

وقال الحسنُ بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «تعلَّموا العلمَ، فإنكم إن تكونوا صغارَ قومٍ تكونوا كبارَهم غدًا، فَمَن لم يحفظ فليكتب».

فوقتُ الصِّغَرِ وقتُ النشاطِ والفراغِ، وعدم الانشغالِ بالدنيا ومشاغِلها، ولذلك يقولُ عمرُ رضي الله عنه: «تَفَقَّهُوا قَبلَ أن تَسُودُوا».

قال البخاريُّ رحمه الله: «وبعد أن تسودوا، وقد تعلَّمَ أصحابُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في كِبَرِ سِنِّهم»(٤).

---

(١) «الحث علىٰ حفظ العلم» لأبي هلال العسكري (ص٢٩).

(٢) يعني: ما دام صغيرًا تحت وصايةِ أهلِهِ.

(٣) «مقدمة ابن خلدون» (ص٥٠٥).

(٤) «فتح الباري» (١/ ١٩٩).

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَثَرُ عمرَ أخرجه ابنُ أبي شيبةَ وغيرُهُ من طريقِ محمدِ ابن سيرين عن الأحنفِ بن قيسٍ قال: قال عمر: ... فذكره. وإسنادهُ صحيحٌ، وإنَّما عقَّبَهُ البخاريُّ بقولِهِ: «وبَعدَ أن تَسُودُوا»، ليبيِّنَ أن لا مفهومَ له خشيةَ أن يفهمَ أحدٌ من ذلك أنَّ السيادةَ مانعةٌ من التفقُّهِ وإنَّما أرادَ عمرُ أنَّها قد تكون سببًا للمنعِ؛ لأنَّ الرئيسَ قد يمنعُهُ الكِبرُ والاحتشامُ أن يجلسَ مجلسَ المتعلِّمين، ولهذا قال مالكٌ عن عَيبِ القضاءِ: إنَّ القاضي إذا عُزِلَ لا يرجعُ إلىٰ مجلسِهِ الذي كان يتعلَّم فيه، وقال الشافعيُّ: إذَا تَصَدَّرَ الحَدَثُ فَاتَهُ عِلمٌ كَثيرٌ».

وقد فَسَّرَهُ أبو عبيدٍ في كتابِهِ «غريبُ الحديثِ» فقال: معناه: تفقَّهوا وأنتم صغارٌ، قبل أن تصيروا سادةً فتمنعَكم الأَنَفَةُ عن الأخذِ ممَّن هو دونكم فتبقوا جُهَّالاً»(١).

والعلمُ يرفعُ الصغيرَ حتىٰ يصيرَ كبيرًا، والجهلُ يضعُ الكبيرَ حتَّىٰ يصيرَ صغيرًا.

قال أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال بعضُ أهل العلمِ: الكبيرُ هو العالِمُ في أيِّ سِنٍّ كان، وقالوا: الجاهلُ صغيرٌ، وإن كان شيخًا، والعالِمُ كبيرٌ وإن كان حَدَثًا، واستشهدوا بقولِ الأوَّلِ:

تَعَلَّـم فَلَـيسَ المَـرءُ يُـولَدُ عَالِمًـا ... وَلَـيسَ أَخُـو عِلـم كَمَـن هُـوَ جَاهِـلُ

وَإنَّ كَبيــرَ القَــومِ لا عِلــمَ عِــندَهُ ... صَــغِيرٌ إذَا الـتَفَّتْ عَلَـيهِ الْمَحَافِـلُ

واستشهدوا بأنَّ عبدَ الله بنَ عباسٍ كان يُستفتىٰ وهو صغيرٌ، وأنَّ معاذَ بنَ جبلٍ وعتَّابَ بنَ أَسِيدٍ كانَا يُفتيان النَّاسَ وهمَا صغيرا السِّنِّ، وولاهما رسولُ الله ﷺ

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٠٠).

الولاياتِ مع صِغَرِ سنِّهما، ومثلُ هذا في العلماءِ كثيرٌ.

وعن الزهريِّ قال: كان مجلسُ عمر مُغْتَصًّا من القُرَّاءِ شُبَّانًا وكُهُولاً، فربَّما استشارهم ويقولُ: لا يمنعُ أحدَهم حداثَةُ سنِّه أن يشيرَ برأيه، فإنَّ العلمَ ليس علىٰ حداثةِ السِّنِّ وقِدَمِهِ، ولكنَّ الله يضعُهُ حيث يشاءُ»[1].

وَصَدَقَ الشَّاعرُ إِذْ يَقُول:

لَيتَ الحَوَادِثَ باعَتْنِي الَّذِي أخذَت ... مِنِّي بِحِلمِي الَّذِي أعطَت وَتَجرِيبِي

فَمَا الْحَدَاثَةُ مِن حِلمٍ بِمَانِعةٍ ... قَد يُوجَدُ الْحِلمُ فِي الشُّبَّانِ والشِّيبِ

* * *

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ١٥٩).

٣- عَلَى أنَّه يَنْبَغِي للمُتَعَلِّمِ أن يَطلُبَ العِلمَ مَهمَا امتَدَّ بهِ العُمرُ

علىٰ المتعلِّمِ أن يطلبَ العلم مهما بَلَغَ من العمرِ، ومهما كان له من العلمِ والرئاسةِ والجاهِ، وقانون العلماءِ في الطلب هو: مع المحْبَرَةِ إلىٰ المقبرةِ، والعلمُ من المهدِ إلىٰ اللَّحدِ.

وقد مرَّ قولُ الإمام البخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد تعلَّمَ أصحابُ النبيِّ ﷺ في كِبَرِ سنِّهم»[1].

وقد قيل لابن المباركِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إلىٰ متىٰ تطلبُ العلمَ؟ قال: حتىٰ الممات إن شاء الله».

وقيل له مرَّةً أخرىٰ مثلُ ذلك، فقال: «لعلَّ الكلمةَ التي تنفعني لم أكتبها بعدُ».

وقال المنصورُ بنُ المهديِّ للمأمونِ: «أَيَحْسُنُ بالشيخِ أن يتعلَّمَ؟ فقال: إذا كان الجهلُ يعيبه، فالتعلُّمُ يحسُنُ به».

وقال الزرنوجيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: دخلَ الحسَنُ بن زيادٍ[2] رَحِمَهُ اللَّهُ، في الفقهِ، وهو ابنُ ثمانين سنةً، ولم يَبِت علىٰ الفِراشِ أربعين سنةً.

---

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٩).

(٢) الحسن بن زياد اللؤلؤيُّ، الكوفيُّ، صاحبُ الإمام أبي حنيفة، كان محبًّا للسنةِ وأتباعها، وكان يختلفُ إلىٰ زُفر وأبي يوسف في الفقهِ، توفي سنة ٢٠٤هـ.

ولم يمنع علوُّ الرتبةِ ولا ارتفاعُ المقامِ موسىٰ ﷺ، ولا منعه سنُّهُ، أن يخرجَ للقاءِ العبدِ الصالحِ لمَّا أخبره الله تعالىٰ أنَّ عنده علمًا ليس يعلمُهُ.

وفي «الصحيح»: باب ما ذُكِرَ في ذَهَابِ موسىٰ ﷺ في البحرِ إلىٰ الخَضِرِ، وقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف:٦٦].

عن ابن عبَّاسٍ أنَّه تَمَارَىٰ(١) هُوَ والحُرُّ بن قَيسِ بن حِصنٍ الفَزَارِيُّ فِي صَاحِبِ مُوسَىٰ، قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: هُوَ خَضِرٌ، فَمَرَّ بِهِمَا أُبَيُّ بنُ كَعبٍ فَدَعَاهُ ابنُ عَبَّاسٍ فَقَالَ: إنِّي تَمَارَيتُ وَصَاحِبي هذَا فِي صَاحِبِ مُوسَىٰ الَّذي سَأَلَ مُوسَىٰ السَّبِيلَ إِلَىٰ لُقِيِّهِ(٢)، هَل سَمِعتَ النَّبِيَّ ﷺ يذكُرُ شَأنَهُ؟ قَالَ: نَعَم، سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**بَينَمَا مُوسَىٰ فِي مَلإٍ(٣) من بَنِي إسرَائيلَ، جَاءَهُ رَجُلٌ فَقَالَ: هَل تَعلَمُ أحَدًا أعلمَ مِنكَ؟ قَالَ مُوسَىٰ: لا، فَأوحَىٰ الله إِلَىٰ مُوسَىٰ: بَلَىٰ، عَبدُنَا خَضِرٌ(٤)، فَسَأَلَ مُوسَىٰ السَّبِيلَ إليهِ، فَجَعلَ الله لَهُ الحُوتَ آيَةً(٥)، وَقِيلَ لَهُ: إِذَا فقدتَ الحُوتَ فَارجِع، فَإِنَّكَ سَتَلقَاهُ، وَكَانَ يَتَّبِعُ أثَرَ الحوتِ(٦) فِي البَحرِ، فَقَالَ لِمُوسَىٰ فَتَاهُ(٧)**:

(١) تمارىٰ: تجادل.

(٢) «**سأل موسىٰ السبيلَ إلىٰ لقيِّه**»: طلب من الله تعالىٰ أن يدلَّه علىٰ الطريق إلىٰ لقائِهِ.

(٣) «**ملأ**»: جماعة.

(٤) «**بلىٰ، عبدنا خَضِرٌ**»: أي: بلىٰ يوجد من هو أعلمُ منك وهو عبدنا خضرٌ.

(٥) «**الحوت آية**»: علامة علىٰ مكان وجوده، والحوت: السمكة الكبيرة.

(٦) «**يتبعُ أَثَرَ الحوت**»: ينتظر فقده.

(٧) «**فتاه**»:صاحبُهُ الذي يخدمه ويتبعه.

أَرَأيتَ إذ أَوينَا[١] إلَىٰ الصَّخرَةِ؟ فَإنِّي نَسيتُ الحُوتَ، وَمَا أَنسَانِيهُ إلا الشَّيطانُ أَن أذكُرَهُ، قَالَ: ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبغي، فارتَدَّا علَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا[٢] فَوَجَدَا خَضِرًا، فَكَانَ مِن شَأنِهِمَا[٣] الَّذي قَصَّ الله[٤] ﷻ في كِتَابِهِ»[٥].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: قولُهُ: باب ما ذُكِرَ في ذَهَابِ مُوسَىٰ في البحرِ إلىٰ الخَضِرِ. هذا البابُ معقودٌ للترغيب في احتمال المشقَّةِ في طلبِ العلمِ، لأنَّ ما يُغتَبطُ به تُحتَمَلُ المشقَّةُ فيه، ولأنَّ موسىٰ عليه السلام لم يمنعه بلوغُهُ من السِّيَادَةِ المحلَّ الأعلىٰ من طَلَبِ العلمِ وركوبِ البرِّ والبحرِ لأجلِهِ.

وفي الحديث: لزومُ التواضعِ في كلِّ حالٍ، ولهذا حرصَ موسىٰ علىٰ الالتقاءِ بالخَضِرِ -عليهما السلام-ُ، وطَلَبِ التَّعَلُّمِ منه، تعليمًا لقومِهِ أن يتأدَّبوا بأَدَبِهِ، وتنبيهًا لمَن زكَّىٰ نفسَهُ أن يَسلُكَ مَسلَكَ التَّوَاضُعِ.

ويجمعُ المرادَ ممَّا ذُكِرَ هنا قولُ البخاريِّ رَحِمَهُ اللهُ: وقَد تَعَلَّمَ أصحَابُ النَّبِيِّ ﷺ في كِبَرِ سِنِّهِم.

---

(١) «**أوينا**»: نزلنا والتجأنا.

(٢) «**نبغي**»: نطلب، «**فارتدا علىٰ آثارهما قصصًا**» رجعا من الطريقِ الذي سلكاه يقصَّان الأثَرَ، أي: يتَّبعانه.

(٣) «**شأنهما**»: خبرُهما وما جرىٰ بينهما.

(٤) «**الذي قصَّ**»: أي ما ذكره في سورة الكهفِ: انظر: تعليق د. مصطفىٰ البغا علىٰ صحيح البخاري (١/ ٤٠).

(٥) رواه البخاري في مواضعَ عدَّةٍ من «صحيحه»، أولها (٧٤).

وهذا القولُ الجامعُ من أبي عبد الله البخاريِّ رَحِمَهُ اللَّهُ دالٌّ علىٰ تمامِ فقهِهِ وتمامِ معرفتِهِ، فما ينبغي لأحدٍ أن يتركَ العلمَ والفقهَ لِكِبَرِ السِّنِّ؛ إذ ما مَنَعَ ذلك أصحابَ النبيِّ ﷺ أن يكونوا في العلمِ بالمحلِّ الذي يعرفهُ كلُّ مسلمٍ.

وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ وغيرُهم من أكابرِ علماء الصحابةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ما أسلموا إلا وهم كبارٌ، ولكنَّهم أقبلوا علىٰ رسول الله ﷺ ينهَلُونَ من بحارِ علمِهِ، حتىٰ أَوفَوا علىٰ الغايةِ وبلغوا المنتهىٰ -رضوانُ الله عليهم أجمعين-.

أخرج أبو خيثمةَ رَحِمَهُ اللَّهُ بسندهِ عن مسروقٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: «جَالَستُ أصحَابَ رسُولِ الله ﷺ فكَانُوا كَالإخَاذِ يَروِي الرَّاكِبَ، والإِخَاذِ يَروِي الرَّاكِبَين، والإِخَاذِ يَروِي العَشَرَةَ، والإِخَاذِ لَو نَزَلَ بِهِ أهلُ الأرضِ لأَصدَرَهُم، وإنَّ عَبدَ الله مِن تِلكَ الإِخَاذِ».

قال الألبانيُّ: الإخَاذُ بوزنِ كِتَابٍ: مُجْتَمَعُ الماءِ، والسَنَدُ صحيحٌ، وعبدُ الله هو ابن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأخرج أبو خيثمة رَحِمَهُ اللَّهُ بسندِهِ عن عبد الله بن مسعودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «لَو أنَّ عِلمَ عُمَر بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وُضِعَ في كِفَّةِ الميزانِ، وَوُضِعَ عِلمُ أَهلِ الأرضِ في كِفَّةٍ لَرَجَحَ علمُ عُمَر بن الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

قال الألبانيُّ: إسنادُهُ صحيحٌ، وكذا الذي بعده، وهو:

قال عبدُ الله: «إني لأحسَبُ عُمَرَ قَد ذَهَبَ بِتسعَةِ أعشَارِ العِلمِ»[١].

---

(١) «كتاب العلم» لأبي خيثمة زهير بن حرب النسائي، تحقيق وتخريج الألباني (ص١١٧).

٤- وعَلَى طَالِبِ العِلمِ أن يَتَحلَّى بالحِلمِ والصَّبْرِ

عن عطاءِ بنِ يَسَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ قالَ: «ما أَوَىٰ شيءٌ إلىٰ شيءٍ أزين من حلمٍ إلىٰ علمٍ».

وقالَ إبراهيمُ بن أدهم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما مِن شيءٍ أشدُّ علىٰ الشيطانِ من عالمٍ حليمٍ، إذا تكلَّمَ تكلَّمَ بعلمٍ، وإذا سَكَتَ سكتَ بحلمٍ، يقول الشيطانُ: انظروا إليه، كلامُه أشدُّ عليَّ من سكوتِه».

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَن لم يَصبِر علىٰ ذُلِّ التعلُّمِ بقِيَ عمرَهُ في عَمَايةِ الجهلِ، ومَن صَبَرَ عليه آلَ أمرُهُ إلىٰ عِزِّ الآخرةِ والدنيا، ومنه الأثَرُ المشهورُ عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: ذَلَلتُ طالِبًا فَعَزَزتُ مطلوبًا»[1].

وأخرج أبو عمر بنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسندِهِ عن ابن عباسٍ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا **قال**: مَكَثْتُ سَنَةً وَأنَا أشُكُّ فِي ثِنْتَينِ، وَأنَا أُرِيدُ أن أسألَ عُمَرَ بن الخَطَّابِ عَنِ المُتظَاهِرَتَينِ[2] علىٰ رسول الله ﷺ وما أجد له موضعًا أسأله فيه حتىٰ خرج حاجًّا وصحبته حَتَّىٰ كُنَّا بِمَرِّ الظَّهْرَانِ، ذهَبَ لِحَاجَتِهِ، وَقَالَ: أَدرِكنِي بِإدَاوَةٍ مِن مَاءٍ، فَلَما قَضَىٰ حَاجَتَهُ وَرَجَعَ،

(١) «المجموع» للنووي (١/ ٣٧).

(٢) يريد قولهُ تعالىٰ: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤].

أَتيتُهُ بالإِدَاوَةِ أَصُبُّهَا عَلَيهِ فَرَأيتُ مَوضِعًا[(١)]، فَقُلتُ: يَا أَمِيرَ المؤمِنِينَ، مَنِ المَرأَتَانِ المُتَظَاهِرَتَانِ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَمَا قَضَيتُ كَلامِي حَتَّىٰ قَالَ: عَائشَةُ وحَفصَةُ.

قال أبو عمر: لم يمنع ابنَ عباسٍ من سؤالِ عمرَ رضي الله عنه عن ذلك إلا هيبتُهُ، وذلك مذكورٌ في حديثِ ابن شهابٍ، وهو: عن ابن عباسٍ قال: مَكَثتُ سَنَتَين أُريدُ أَن أَسأَلَ عُمَرَ بن الخَطَّابِ عَن حَديثٍ مَا مَنَعَني مِنهُ إلا هَيبَتُهُ، حَتَّىٰ تَخَلَّفَ فِي حَجٍّ أَو عُمرَةٍ فِي الأَرَاكِ الَّذِي بِبَطْنِ مَرِّ الظَّهرَانِ لِحَاجَتِهِ، فلَمَّا جَاءَ خَلَوتُ بِهِ، قُلتُ: يَا أَمِيرَ المؤمنينَ، أُريدُ أن أسأَلَكَ عَن حَدِيثٍ مُنذُ سَنَتَينِ مَا مَنَعَنِي إلا هَيبَةٌ لَكَ، قَالَ: فَلا تَفْعَل[(٢)]، إِذَا أَردتَ أَن تَسأَلَ فَسَل، فَإِن كَانَ مِنهُ عِندي عِلمٌ أَخْبَرْتُكَ وَإِلا قُلتُ: لا أعلَمُ، فَسَألتَ مَن يَعلَمُ.

قُلتُ: مَنِ المَرأَتَانِ اللَّتَانِ ذَكَرَهُمَا أَنَّهُما تَظَاهَرَتَا عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟

قَالَ: عَائِشَةُ وَحَفْصَةُ، ثُمَّ قالَ: كَانِ لي أَخٌ مِنَ الأنصارِ، وكُنَّا نتَعَاقَبُ النُّزُولَ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، أَنزلُ يومًا وَينزلُ يومًا، فَمَا أَتَىٰ مِن حَدِيثٍ أَو خبَرٍ أَتَانِي بِهِ، وَأَنَا مِثلُ ذَلِكَ، ونَزَلَ ذَاتَ يَومٍ وتَخَلَّفتُ، فَجَاءَنِي» وذكر الحديثَ بطولِهِ وتمامِهِ.

قالَ أبو عمر: الذي آخَىٰ رسولُ الله ﷺ بينه وبين عمرَ بن الخطابِ من الأنصارِ: عِتبَانُ بنُ مَالِكٍ»[(٣)].

---

(١) أي: موضعًا للسؤالِ.

(٢) أي: فلا تمتنع عن السؤالِ.

(٣) «جامع بيان العلم» (١/ ١١١).

فانظر إلىٰ ابن عباسٍ رضي الله عنهما، كيف صَبرُهُ! وكيف أدبُهُ! وكيف تحيُّنُه للفُرَصِ حتَّىٰ يتعلَّم!!

فَمَن كان مُتَأسِّيًا في الصبرِ علىٰ الطلبِ، فهذا عَلَمٌ من أعلامِهِ شامخٌ، وقمَّةٌ من قممِهِ سامقةٌ.

لقد أدرك توفيقُ الله حَبْرَ الأمَّةِ، وتُرجُمانَ القرآنِ، وأدركتهُ بركةُ دعاءِ النبيِّ ﷺ حين دَعَا لَهُ أن يعلِّمه الله الكتابَ، كما أخرجَ الشيخانِ -رحمهما الله تعالىٰ-، عن عِكرِمَةَ عن ابن عَبَّاسٍ قَالَ: ضَمَّنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ وقالَ: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْه الكِتَابَ**»[(١)].

قال الحافظُ: «المرادُ بالكتابِ: القرآنُ؛ لأنَّ العُرفَ الشرعيَّ عليه، والمرادُ بالتعليمِ ما هو أعمُّ من حفظهِ والتفهُّمِ فيه»[(٢)].

وفي روايةٍ للبخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عن عكرِمَةَ عن ابن عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: ضَمَّنِي النَّبِيُّ ﷺ إِلَىٰ صَدرِهِ وقَالَ: «**اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الحِكمَةَ**»[(٣)].

قال البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والحِكمةُ: الإِصَابَةُ فِي غَيرِ النُّبُوَّةِ».

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واختُلِفَ في المُرَادِ بالحكمةِ هنا: فقيل: الإصابةُ في القولِ، وقيل: الفهمُ عن اللهِ، وقيل: ما يشهدُ العقلُ بصحَّتِهِ، وقيل: نورٌ يفرِّقُ به بين الإلهامِ والوسواسِ، وقيلَ: سرعةُ الجوابِ بالصوابِ، وقيل غير ذلك.

(١) رواه البخاري (٧٥)، ومسلم (٢٤٧٧).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٠٤).

(٣) رواه البخاري (٣٥٤٦).

وكان ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما أعلَمَ الصحابةِ بتفسيرِ القرآنِ».

يحكي حَبْرُ الأمَّةِ ابنُ عباسٍ كيف وصل إلىٰ هذه المنزلَةِ العَلِيَّةِ من العلمِ، فيقول: «لَّما قُبِضَ رَسُولُ الله ﷺ، قُلتُ لِرَجُلٍ مِنَ الأنصَارِ: هَلُمَّ فَلنسأَل أَصحَابَ رَسُولِ الله ﷺ؛ فإنَّهُمُ اليَومَ كَثيرٌ، فَقَالَ: يَا عَجَبًا لَكَ يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، أَترَىٰ النَّاسَ يَفْتَقِرُونَ إليكَ وَفي النَّاسِ من أصحَابِ رسُولِ الله ﷺ مَن فِيهم؟!

قالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فَترَكْتُ ذَلِكَ، وأقبَلتُ أَنَا أَسَأَلُ أصحَابَ رَسُولِ الله ﷺ، فَإِنَّهُ كَانَ لَيبلُغُني الحَديثُ عَنِ الرَّجُلِ، فآتي بَابَهُ وَهُوَ قَائِلٌ(١)، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائي عَلَىٰ بَابِهِ. تَسفِي الرِّيحُ عَلَيَّ مِنَ التُّرَابِ، فَيَخرجُ فَيَرانِي، فَيَقُولُ: يَا ابْنَ عَمِّ رَسُولِ الله ﷺ، مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلا أَرسَلتَ إليَّ فَآتيَكَ؟

فَأَقُولُ: لا، أنَا أحَقُّ أن آتيَكَ، قالَ: فَأَسأَلُهُ عَنِ الحَديثِ، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فَعَاشَ الرَّجُلُ الأنصَاريُّ حَتَىٰ رَآني وَقَد اجتَمَعَ حَولِي النَّاسُ يسأَلُونَنِي، فَقَالَ: هذَا الفَتَىٰ كَان أَعقَلَ مِنِّي»(٢).

قلتُ: وقديمًا قِيلَ: مَن طَلَبَ شيئًا وَجَدَّ وجَدَ، ومَن قَرَعَ البابَ وَلَجَّ وَلَجَ، وقيل: بِقَدرِ مَا تَتَعَنَّىٰ تَنَالُ ما تَتَمَنَّىٰ.

قيل للشَّعبيِّ رَحِمَهُ اللهُ: «من أين لكَ هذا العلمُ كلُّهُ؟ قال: ينبغي الاعتمادُ، والسَّيرُ في البلادِ، وصبرٌ كصبرِ الجِمَالِ، وبكورٌ كَبُكُورِ الغُرَابِ».

(١) قال يقيل: نام نومة نصف النهار، وهي القائلة والقيلولة.

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» للخطيب (١/ ١٥٨).

وأبو هريرةَ ﵁ من أصحابِ النبيِّ ﷺ الذين يُضْرَبُ بهم المثلُ في الصبرِ علىٰ التحصيلِ والجِدِّ في الطلب حتىٰ بلوغِ الغايةِ، وهو أكثرُ الأصحاب روايةً للحديثِ مع قِصَرِ المدَّةِ في الصحبةِ، ولكن بالملازمةِ والصبرِ، والجِدِّ والإقبالِ والحَزمِ، قال ﵁: «كنتُ أَلْزَمُ النَّبِيَّ ﷺ لِشبَعِ بَطنِي،حِينَ لا آكُلُ الخَمِيرَ، ولاَ أَلبَسُ الحَبِيرَ ولا يخدُمُنِي فُلانٌ وَلا فُلانَةٌ، وَأُلصِقَ بَطْنِي بِالحَصْبَاءِ، وَأستَقْرِئُ الرَّجُلَ الآيَةَ، وهَيَ مَعِي كَي يَنْقَلِبَ بِي فَيُطعمَنِي».

قال الحافظُ ﵀: «(الحَبِيرُ) قال عياضٌ: هو الثوبُ المحبَّرُ، وهو المُزَيَّنُ الملَوَّنُ، مأخوذٌ من التحبيرِ وهو التحسينُ، وقيل: الحبيرُ: ثوبُ وَشيٍ مُخَطَّطٌ، وقيل: هو الجديدُ».

قلتُ: فالصَّبرُ علىٰ مَشَقَّةِ التحصيلِ أهمُّ ما يَلزَمُ طالبَ العلمِ في طلبِهِ، وقد رأيتَ كيف بلغَ أبو هريرةَ ﵁ في الروايةِ في مُدَّةٍ يسيرةٍ مبلغًا بعيدًا، ولكنَّه ضحَّىٰ في سبيلِ ذلكَ براحةِ الجسمِ، وشهوةِ المطعَمِ، ولذيذِ الغُمضِ، وتحَمَّلَ الجوعَ، وصبرَ علىٰ الضَّنَىٰ، وانقطعَ لرسولِ الله ﷺ يسمعُ ويحفظُ، ويعي ويدرك، إذ لا يشغلُهُ من أمرِ الدنيا شيءٌ، حتىٰ بَلَغَ في الروايةِ المبالغَ ﵁.

* * *

٥- وعَلَى طَالِبِ العِلمِ أن تَكُونَ هِمَّتُهُ عَالِيةً

فلا يرضَىٰ باليسيرِ من العلمِ مع إمكانِ الكثيرِ، وعليه ألَّا يُؤَخِّرَ واجباتِ يومِهِ لغدِهِ، ولا يغفلَ عن استحضارهِ لدروسِهِ، ولا يضيِّعَ وَقْتَهُ.

قال الربيعُ تلميذُ الشافعيِّ: «لم أرَ الشافعيَّ آكلاً بنهارٍ ولا نائمًا بليلٍ؛ لاهتمامِهِ بالتصنيفِ».

ولقد كان العلماء من سَلَفِ هذه الأمَّةِ ﭫ ذوي هِمَمٍ عاليةٍ، وآثارُهم في ذلك ناطقةٌ بأحوالهم، مخبرةٌ بدفائِنِ قلوبهم، وهذه -فانتبه لها- بعضُ أخبارِهم:

«الإمامُ الحافظُ الجوَّالُ مُحَدِّثُ العصرِ أبو عبدِ الله محمد بن إسحاق بن مَندَه، وُلِدَ سنةَ عشرٍ وثلثمئةٍ، ومات سنَة خمسٍ وتسعينَ وثلثمئةٍ، رحمه الله تعالىٰ، وعِدَّةُ شيوخِهِ الذين سَمِعَ منهم وأخذ عنهم: ألفٌ وسَبعُمئةِ شيخٍ، ولما رجع من الرحلةِ الطويلةِ كانت كتبُهُ عِدَّةَ أحمالٍ، حتىٰ قيل: إنَّها كانت أربعين حِملاً، وما بلغنا أنَّ أحدًا من هذه الأمَّةِ سَمِعَ ما سَمِع ولا جَمَعَ ما جَمَعَ، وكان خِتَامَ الرحَّالين وفَردَ المكثرين، مع الحفظِ والمعرفةِ والصدقِ وكثرةِ التصانيفِ.

وأَوَّلُ ارتحالِهِ كان قبلَ ثلاثين وثلثمئةٍ إلىٰ نيسابور، قال الحاكمُ: التقينا ببُخَارىٰ سنة إحدىٰ وستين وثلثمئةٍ وقد زادَ زيادةً ظاهرةً، ثمَّ جاءنا إلىٰ نيسابورَ سنةَ خمسٍ وسبعين ذاهبًا إلىٰ وطنِهِ»[1].

---

(١) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٣/ ١٠٣١)، ولمعرفة حال أبي غدة وشيخه زاهد الكوثري =

«فرحلَ وعمرُهُ عشرون سنةً، ورجعَ وعمُرُه خمسٌ وستونَ سنةً، وكانت رحلتُهُ خمسًا وأربعينَ سنةً، ثم عاد إلىٰ وطنِهِ فتزوَّجَ، وهو ابنُ خمسٍ وستين سنةً ورُزِقَ الأولادَ، وحدَّثَ بالكثيرِ»[(١)].

فهل سمعت بمثل هذا من قبل؟ هل سمعت بمثل هذا قَطُّ؟!

وقال الإمامُ الحافظ ابن أبي حاتم الرازي في كتابه: «تقدمة الجرح والتعديل» فِي ترجمةِ والدِهِ الإمام أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي المولود سنة خمسٍ وتسعينَ ومئتين والمتوفىٰ سنة سبعٍ وسبعين ومئة، عند ذِكرِ رحلتِهِ في طلبِ العلم: «سمعتُ أبي يقول: أوَّلَ سنةٍ خرجتُ في طلبِ الحديثِ أقمتُ سبعَ سنين، أحصيتُ ما مَشَيتُ علىٰ قدمَيَّ زيادةً علىٰ ألفِ فرسخٍ[(٢)]، لم أَزَل أُحصي حتىٰ لما زاد علىٰ ألفِ فرسخٍ تركتُه.

أمَّا ما كنتُ سرتُ أنا من الكوفةِ إلىٰ بغداد فما لا أُحصي كم مرة، ومن مكةَ إلىٰ المدينةِ مراتٍ كثيرةٍ، وخرجتُ من البحرين من قُربِ مدينة صلا[(٣)] إلىٰ مصرَ

=

وجنايتهما علىٰ أهل السنة، انظر رسالة «تبرئة أهل السنة» للشيخ بكر أبي زيد وتقديم العلامة ابن باز -رحمهما الله تعالىٰ-.

(١) «صفحات من صبر العلماء» لأبي غدة (ص٦٥).

(٢) الفرسخ بمشي القدم: نحو ساعة ونصف، وهو ثلاثة أميالٍ نحو خمسةِ كيلو مترات، انظر: «صفحات من صبر العلماء» (ص٦٠).

(٣) كتبها في «صفحات من صبر العلماء» (ص٦٠): هكذا: وخرجتُ من البحر من قُربِ مدينة سَلا وذلك في المغرب الأقصىٰ إلىٰ مصر ماشيًا.

ماشيًا، ومن مصر إلىٰ الرملة ماشيًا، ومن الرملةِ إلىٰ بيت المقدسِ، ومن الرملةِ إلىٰ عسقلانِ، ومن الرملة إلىٰ طَبَرِيَّة، ومن طَبَرِيَّة إلىٰ دمشق، ومن دمشق إلىٰ حمص، ومن حمص إلىٰ أنطاكيَةَ، ومن أنطاكِيَةَ إلىٰ طَرَسُوسِ.

ثم رجعتُ من طَرَسُوسٍ إلىٰ حمص، وكان بقيَ عليَّ شيءٌ من حديثِ أبي اليمانِ فسمعتُه، ثم خرجتُ من حمص إلىٰ بَيسَان،ومن بَيسَان إلىٰ الرَّقَّةِ، ومن الرَّقَّةِ ركبتُ الفُراتَ إلىٰ بغداد، وخرجتُ قبلَ خروجي إلىٰ الشامِ من واسطٍ إلىٰ النيلِ، ومن النيلِ إلىٰ الكوفةِ، كلُّ ذلك ماشيًا، كلُّ ذلك ماشيًا، هذا في سفري الأوَّلِ وأنا ابنُ عشرين سنةً، أجولُ سبعَ سنين، خرجتُ من الري سنة ثلاث عشرة ومئتين في شهر رمضان، ورجعتُ سنة إحدىٰ وعشرين ومئتين.

وخرجتُ المرة الثانيةَ سنةَ اثنتين وأربعين، ورجعتُ سنة خمسٍ وأربعين، أقمت ثلاث سنين وكانت سِنِّي في هذه الرحلة سبعًا وأربعين سنةً»[1].

وهذا الحافظُ البارعُ الجوَّالُ الزاهدُ القُدوةُ، أبو عبد الله محمدُ بن المسيَّبِ بن إسحاقِ الأَرغِيَاني، المولود سنةَ ثلاثٍ وعشرين ومئتين، والمتوفىٰ سنة خمسَ عشرةَ وثلثمئة -رحمه الله تعالىٰ-.

حكىٰ أبو عليٍّ الحافظُ النيسابوريُّ قال: «كان محمد بن المسيَّبِ الأَرغِياني يمشي بمصر، وفي كُمِّهِ مئةُ ألفِ حديثٍ، فقيل لأبي عليٍّ : فكيف كان يمكنُ هذا؟

(١) «تقدمة الجرح والتعديل» لابن أبي حاتم (ص٣٥٩)، وانظر: «صفحات من صبر العلماء» (ص٦٠).

قالَ: كانت أجزاؤه صِغَارًا بخطٍّ دقيقٍ، في كلِّ جزءٍ ألفُ حديثٍ معدودة، وكان يحملُ معه مئةَ جزءٍ، فصار هذا كالمشهورِ من شأنِهِ.

وكان إذا قرأ الحديثَ وقالَ: قال رسولُ الله ﷺ بكىٰ حتىٰ نَرحَمَه، وعَمِيَ من كثرةِ البكاءِ، رضوانُ الله تعالىٰ عليه»(١).

وقال الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد كان خَلقٌ من طَلَبَةِ العلمِ بالبصرةِ في زمنِ عليِّ ابن المديني يأخذونَ مواضعَهم في مجلسِهِ في ليلةِ الإملاءِ، ويبيتون هناك حرصًا علىٰ السَّمَاعِ وتخوُّفًا من الفَوَاتِ».

عن جعفر بن دُرُسْتُويَه قال: كُنَّا نأخُذُ المجلسَ في مجلسِ عليِّ بن المديني وقتَ العصرِ، اليومَ لمجلسِ غَدٍ، فنقعد طولَ الليلِ، مخَافَةَ ألَّا نَلْحَقَ من الغَدِ مَوضِعًا نَسمَعُ فيه، فرأيتُ شيخًا في المجلسِ يَبُولُ في طَيلَسَانِهِ، ويُدرِجُ الطَّيلَسَانَ، مَخَافَةَ أن يُؤخَذَ مكانُه إن قامَ للبولِ»(٢).

وفي ترجمة أبي نصر السِّجزيِّ: «هو الإمامُ الحافظُ عَلَمُ السُّنَّةِ عُبيد الله بن سعيد بن حاتم، أبو نصر السِّجزي المتوفىٰ بمكةَ سنة أربعٍ وأربعين وأربعمئة -رحمه الله تعالىٰ- من أحفظِ أهلِ زمانِهِ للحديثِ، طَوَّفَ الآفاقَ في طَلَبِ الحديثِ.

قال الحافظ أبو إسحاق الحَبَّالُ: كنتُ يومًا عند أبي نصر السِّجزي، فَدُقَّ البابُ،

(١) «تذكرة الحافظ» للذهبي (٣/ ٧٨٩)، وانظر: «صفحات من صبر العلماء» (ص٦١).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ١٣٨)، والطَّيلَسَانُ: كِسَاءٌ أخضَرُ، أو أسودُ، أو أبيضُ، لُحمَتُهُ وسَدَاهُ من صوفٍ، يَلبَسُهُ كِبارُ العلماءِ والقضاة والمشايخ. انظر: «صفحات من صبر العلماء» (ص١٨٨).

فَقُمتُ ففتحتُه، فدخلت امرأةٌ وأخرجت كيسًا فيه ألفُ دينارٍ، فوضَعته بين يدي الشيخِ وقالت: أَنفِقها كما ترىٰ، قال: والمقصود؟ قالت: تَتزوَّجُني، ولا حاجةَ لي في الزواجِ ولكن لأخدمك، فأمَرَها بأخذ الكيسِ وأن تنصرفَ.

فلما انصرفَت قال: خرجتُ من سِجستَان بنيَّةِ طلبِ العلمِ، ومتىٰ تزوَّجتُ سَقَطَ عني هذا الاسمُ، وما أُوثِرُ علىٰ ثوابِ طلب العلمِ شيئًا»[1].

«ذُكر في ترجمةِ المجد الفيروزآبادي، صاحبِ القاموسِ، أنَّه قَرأ صحيحَ مسلمٍ في ثلاثةِ أيامٍ بدمشقَ وأنشد:

قَرَأْتُ بِحَمدِ اللهِ جَامِعَ مُسلمٍ ... بِجَوفِ دِمَشقِ الشَّامِ جَوفِ الإسلامِ

عَلَىٰ نَاصِرِ الدِّين الإمَامِ ابنِ جَهْبَلٍ ... بِحَضرَةِ حُفَّاظٍ مَشَاهِيرَ أَعلامِ

وَتَمَّ بِتَوفِيقِ الإلَهِ وَفَضلِهِ ... قِرَاءةَ ضَبطٍ فِي ثَلاثَةِ أَيَّامِ

ولا تحسبَنَّ هذَا هَيِّنًا، فهذا مَتنُ صحيحِ مسلمٍ بين أيدينا في نشرةِ الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي بخطٍّ دقيقٍ يقع في أربعةِ مجلَّداتٍ عِدَّةُ صفحاتها ثلاثٌ وعشرون ومئتان وألفَا وَرَقَةٍ، فيكون الفيروزآبادي قد قَرَأ في كلِّ يومٍ خمسًا وسبعين وسبعمئة صفحة، مع مراعاةِ أنَّ نسختَه ليست كَنسخِنَا التي بين أيدينا من حيثُ الضبطُ والترقيمُ والكتابةُ والورقُ، وليست مطبوعةً، إذ لا طباعةَ هناك ولا مطبعةَ، بل هي مخطوطةٌ بخطِّ اليدِ، مكتوبةٌ بالمدادِ، ومع اختلافِ الوسائلِ المساعدةِ من الإضاءَةِ التي يتمتَّع بها اليومَ النَّاسُ، ووسائلِ الراحةِ التي فيها يَرفُلُون.

(١) «تذكرة الحفاظ» للذهبي (٣/ ١١١٩)، وانظر: «صفحات من صبر العلماء» (ص٦٧).

«وفي تاريخِ الذهبيِّ في ترجمةِ إسماعيل بن أحمد الحِيريِّ النَّيسَابُورِيِّ الضريرِ ما نصُّه: وقد سمع عليه الخطيبُ البغداديُّ بمكَّةً صحيحَ البخاريِّ بسماعِهِ من الكشميهني في ثلاثةِ مجالسَ: اثنان منها في ليلتين كان يبتدئُ بالقراءةِ وقتَ المغرب ويختمُ عند صلاةِ الفَجرِ، والثالثُ من ضَحْوةِ النَّهَارِ إلىٰ طلوعِ الفجرِ، قال الذهبيُّ: وهذا شيءٌ لا أعلمُ أحدًا في زماننا يستطيعُهُ».

وقال الحافظُ السَّخَاويُّ: «وقَع لشيخِنا الحافظِ ابن حَجَرٍ أجَلُّ ممَّا وَقَعَ لشيخهِ المَجدِ اللُّغوي، فإنه قَرَأ صحيحَ البخاريِّ في أربعين ساعة رمليَّة، وقَرَأ صحيحَ مسلمٍ في أربعةِ مجالسَ سوىٰ مجلسِ الخَتمِ في يومين وشيءٍ، وقَرَأ سُنَنَ ابن ماجه في أربعةِ مجالسَ، وقرأ كتابَ النسائي الكبيرِ في عشرة مجالسَ كلُّ مجلسٍ منها نحوُ أربع ساعاتٍ، وقرأ صحيحَ البخاريِّ في عشرةِ مجالسَ كلُّ مجلسٍ منها أربعُ ساعاتٍ.

ثمَّ قالَ السخاويُّ: وأسرعُ شيء وقع له -أي: لابن حجر- أنَّه قرأَ في رحلتِهِ الشامية «مُعجَمَ الطَّبَرانيِّ الصغير» في مجلسٍ واحدٍ بين صلاتي الظهرِ والعصرِ. قال: وهذا الكتابُ في مجلَّدٍ يشتمل علىٰ نحوِ ألفِ حديثٍ وخمسمئةِ حديثٍ»[١].

وليست هذه المواهبُ الجليلةُ والهِمَمُ الوثَّابَةُ، وقفًا علىٰ السابقين، بل ما زال الخير في الأمة قائمًا.

وهذا علَّامَةُ الشامِ في عصره، محمد جمال الدين القاسمي المتوفىٰ سنة اثنتين وثلاثين وثلثمئة وألف يقول عن نفسِهِ: «والعبدُ الضعيفُ -جامعُ هذا الكتابِ[٢]-

(١) «قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث» للقاسمي (ص٢٦٢).

(٢) يريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتابه: «قواعد التحديث».

قد مَنَّ الله عليه بفضلِهِ، فأسمَعَ صحيحَ مسلمٍ روايةً ودرايةً في مجالسَ من أربعين يومًا، آخرها في الثامن والعشرين من شهر صفرِ الخير سنة ست عشرة وثلثمئة وألفٍ من الهجرةِ، وأسمَعَ أيضًا سُننَ ابن ماجه كذلك في مجالسَ من إحدىٰ وعشرين يومًا آخرها في الثاني والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ست عشرَةَ وثلثمئة وألفٍ من الهجرةِ، وأسمَعَ أيضًا الموطَّأ كذلك في مجالسَ من تسعةَ عشر يومًا آخرها في الخامس عشر من شهرِ ربيعٍ الآخر سنةَ ست عشرةَ وثلثمئةٍ وألفٍ من الهجرةِ.

وطالعتُ بنفسي لنفسي «تقريب التهذيب» للحافظ ابن حجر، مع تصحيح سَهوِ القلمِ فيه، وضبطِهِ وتَحشِيَتِهِ من نسخةٍ مُصَحَّحَةٍ جدًّا، في مجالسَ من عشرةِ أيامٍ آخرها في الثامن عشر من شهر ذي الحجة سنةَ خمسَ عشرةَ وثلثمئة وألفٍ من الهجرة.

أقولُ: وهذه الكتبُ قرأتُها بإثرِ بعضِها، فأجهدتُ نفسي وبصري حتىٰ رَمِدتُ، بأثر ذلك شفاني الله بفضلِهِ، وأشفقت من العَودِ إلىٰ مثلِ ذلك، وتَبَيَّنَ أنَّ الخيرةَ في الاعتدالِ، نعم، لا يُنكَرُ أنَّ بعضَ النفوسِ لا تتأَثَّرُ بمثلِ ذلك، لقوَّةِ حواسِّها، وللإنسانِ علىٰ نفسِهِ بصيرةٌ وهو أدرىٰ بها»(١).

أخرج أبو خيثمةَ بسندِهِ عن جرير بن حيَّان: أنَّ رجلاً رحل إلىٰ مصر في هذا الحديثِ فلم يَحلَّ رَحلَهُ حتىٰ رجعَ إلىٰ بيتِهِ: «**مَن سَترَ علَىٰ أخيهِ فِي الدُّنيَا، سَترَ الله علَيهِ فِي الآخرةِ**»(٢).

قال الألبانيُّ: إنَّ الرجلَ الذي رحلَ في هذا الحديثِ هو: عُقْبَةُ بنُ عامرٍ ركبَ

(١) «قواعد التحديث» للقاسمي (ص٢٦٣).

(٢) «كتاب العلم» لأبي خيثمة، تحقيق الشيخ ناصر الدين الألباني (ص١٢).

إلىٰ مَسلَمَةَ بن مخلَدٍ وهو أميرٌ علىٰ مصر، كما في «المسند» (٤/ ١٠٤).

وقال الطحَّانُ في تعليقه علىٰ «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٢٦): هذا الرجلُ هو أبو أيوب الأنصاريُّ ﵁، وقد روىٰ هذا الحديثَ، الحاكمُ في «معرفة علوم الحديث» معرفة عالي الإسناد (ص٩-١٠) بسياق مفصَّلٍ.

فهذا من صبرِ الصحابةِ ﵃ علىٰ طَلَبِ العلمِ، ومن بُعدِ هممِهم، وصفاءِ بصائرِهم، وقد خَلَفَهم من سار علىٰ نهجهم، وارتضىٰ طريقتَهم، فكانوا من الفائزين.

أخرج الخطيب ﵀ بسندِهِ عن مالكٍ قال: «قال سعيدُ بن المسِّيبِ: إن كنتُ لأغيبُ الأيامَ والليالي في طلبِ الحديثِ الواحدِ.

وعن يحيىٰ بن سعيدٍ عن سعيدِ بن المسِّيبِ قالَ: إن كنتُ لأرحلُ الأيامَ والليالِيَ في طلبِ الحديثِ الواحدِ.

وعن أيوبَ قال: قال أبو قلابَةَ: لقد أقمتُ بالمدينةِ ثلاثًا ما لي حاجةٌ إلا رجلٌ عنده حديثٌ، يَقدُمُ، فأسمعه منه»[1].

وقال الشافعيُّ ﵀: «كنتُ يتيمًا في حِجرِ أمِّي، ولم يكن معها ما تُعطي المُعَلِّمَ؛ وكان المعلِّمُ قد رضيَ منِّي أن أخلُفَهُ إذا قام، فلمَّا ختمتُ القرآنَ، دخلتُ المسجدَ، فكنتُ أجالسُ العلماءَ، وأحفظُ الحديثَ والمسألةَ، وكان منزلُنا بمكةَ، في شِعبِ[2] الخَيفِ، وكنتُ أنظرُ إلىٰ العَظمِ يلُوحُ، فأكتب فيه الحديثَ أو المسألةَ،

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٢٧).

(٢) الشِّعبُ: طريقٌ بن جبلين.

وكانت لنا جَرَّةٌ قديمةٌ، فإذا امتلأ العظمُ طرحتُهُ في الجَرَّةِ»[١].

وأخرج أبو حاتمٍ الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن الحُميديِّ قال: «سَمِعتُ مُسلِمَ بن خالدٍ الزَّنجِيِّ يقولُ للشافعيِّ: أَفتِ يا أبا عبد الله، فقد والله آنَ لك أن تُفتِي؛ وهو ابنُ خمسَ عشرَةَ سَنَةً.

وفي روايةٍ له عن مسلمِ بن خالدٍ أيضًا؛ أنَّه قال لمحمد بن إدريسَ الشافعيِّ؛ وهو ابن ثماني عَشرَةَ سنَةً: أَفتِ يا أبا عبد الله، فقد آنَ لكَ أن تُفتِيَ»[٢].

وكان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تكادُ نفسُهُ تشبعُ من العلمِ ولا ترتوي من المطالعةِ، ولا تملُّ من الاشتغالِ ولا تكلُّ عن البحثِ، وقلَّ أن يدخلَ في علمٍ من العلومِ من بابٍ من أبوابِهِ إلا ويُفتحُ له من ذلك البابِ أبوابٌ، ويستدرك مستدرَكَاتٍ في ذلك العلمِ على حُذَّاقِ أهلِهِ مقصودةً بالكتابِ والسنَّةِ.

وكان يقولُ في مبادئِ أمرِهِ يقول: إنَّه ليقفُ خاطري في المسألةِ أو الشيءِ أو الحالةِ التي تُشكلُ عليَّ فأستغفرُ الله تعالى ألفَ مرَّةٍ أو أكثرَ أو أقلَّ حتى ينشرحَ الصدرُ وينجليَ إشكالُ ما أشكل.

وقالَ: وأكونُ إذ ذاك في السوقِ أو المسجدِ أو الدَّربِ أو المدرسةِ لا يمنعني ذلك من الذِّكرِ والاستغفارِ إلى أن أنالَ مطلوبي.

وقال البزَّارُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن شيخِ الإسلامِ: وكان العلمُ كأنَّه قد اختلطَ بلحمِهِ ودمِهِ

(١) «آداب الشافعي ومناقبه» للرازي (ص٢٤).

(٢) «آداب الشافعي ومناقبه» للرازي (ص٣٩).

وسائرِهِ، فإنَّه -أي: العلم - لم يكن له مُستعَارًا، بل كان له شِعَارًا ودِثَارًا[(١)]»[(٢)].

ولابُدَّ لكي يكون ذلك كلُّه -بحول الله وقوتِهِ- من الانتفاعِ بالوقتِ إلىٰ غايةِ المدىٰ، والاتصافِ بالاستفادةِ في كلِّ حال وحينٍ.

وهذه وصيةُ النبيِّ ﷺ في هَذَا الشَّأنِ الجليلِ: عن عَمرِو بن مَيمُونٍ الأَودِيِّ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ لِرَجُلٍ وهُوَ يَعِظُهُ: «**اغتَنِم خَمسًا قَبلَ خَمْسٍ: شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ، وصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكَ، وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ، وفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغُلِك، وحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوتِكَ**».

أخرجه البغويُّ رَحِمَهُ اللهُ في «شرح السنة» (١٤/ ٢٢٤)، وقال: هذا حديثٌ مرسلٌ، وقال محقِّقَاه: «وكذلك أخرجه أبو نعيم في الحلية (٤/ ١٤٨)، والخطيب في «اقتضاء العلم العمل» (ص١٠١)، لكن أخرجه الحاكم (٤/ ٣٠٦)، موصولًا من طريقٍ أخرىٰ عن ابن عباسٍ رفعه، وإسنادُهُ صحيحٌ، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبيُّ».

وقال الألبانيُّ: «حديثٌ صحيحٌ، وهذا إسنادٌ مرسلٌ حسنٌ، لكن رواه ابن أبي الدنيا في «قصَرِ الأملِ» (٢/ ١/ ٢)، والحاكم (٤/ ٣٠٦) موصولاً من طريقٍ أخرىٰ عن ابن عباسٍ مرفوعًا، وصحَّحه هو والذهبيُّ علىٰ شرطِ الشيخين، وهو كما قالا»[(٣)].

* * *

---

(١) **الشِّعَارُ**: ما يلي البدنَ من الثيابِ، والدِّثَارُ: هو ما يُتَدَثَّرُ به.

(٢) «غاية الأماني» (٢/ ١٦٢).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي، تحقيق الألباني (ص١٠٠).

٦- وينبغي لطالبِ العلمِ أن يهتمَّ بضبطِ ما يحفظُ ضَبطًا صحيحًا مُتقَنًا

علىٰ طالبِ العلمِ «أن يُصَحِّحَ ما يقرؤهُ قبلَ حفظِهِ تصحيحًا مُتْقَنًا إمَّا علىٰ الشيخ أو علىٰ غيرِهِ ممَّن يعينه، ثمَّ يحفظُه بعد ذلك حِفظًا مُحكَمًا، ثمَّ يُكرِّرُ عليه بعد حفظِهِ تكرارًا جيدًا، ثمَّ يتعاهدُهُ في أوقاتٍ يقرِّرها لتكرارِ مواضيه، ولا يحفظُ شيئًا قبل تصحيحهِ؛ لأنَّه يقع في التحريفِ والتَّصحيفِ، والعلمُ لا يُؤخَذُ من الكتبِ فإنَّه من أضَرِّ المفاسِدِ»[1].

ومن أجلِ دَرءِ هذه المفاسدِ اهتمَّ المحدِّثون خاصَّةً والعلماءُ عامَّةً بوضع ضوابِطَ يُحكم بها شأنُ الكتابةِ حتىٰ لا تشتبِهَ الحروفُ وتختلطَ الكلماتُ[2].

ومن تلك الضوابطِ: الاهتمامُ بالضبطِ شَكلاً ونَقطًا.

والنَّقْطُ: وهو الإعجامُ، أنَّ تُبيِّن التاءَ من الياءِ، والحاءَ والخاءَ.

والشَّكلُ: تقييدُ الإعرابِ[3].

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٢١).

(٢) جمعتُ بحولِ الله وقوته الضوابطَ التي التزمها المحدِّثون خاصَّةً في ضبط الكتابة في رسالةٍ خاصَّة تُبيِّنُ قواعدَ ضبطِ الكتابةِ والقوانينَ التي التزمها العلماءُ في هذا الأمر، والاهتمام بالضبط شكلاً ونقطًا، وضبط المهمل في تلك الرسالة (ص١٧وص١٩) ولله الحمدُ والمنَّة.

(٣) انظر: «المحدث الفاصل» للرامهرمزي (ص٦٠٩).

قال الرامهرمزيُّ: «أما النقطُ فلابدَّ منه، لأنَّك لا تضبط الأسامي المشكِلَةَ إلا به، وقالوا: إنَّما يُشْكَلُ ما يُشكِلُ، ولا حاجةَ إلىٰ الشكلِ مع عدمِ الإشكالِ، وقال آخرونَ: الأَولَىٰ أن يُشكَلَ الجميعُ»[1].

وشَكلُ الجميعِ هو اختيارُ القاضي عياض، قال في «الإلماعِ»: «قال آخرون: يجبُ شَكلُ ما أشكَلَ وما لا يُشكل، وهذا هو الصواب لاسيما للمبتدئ وغير المتبحر في العلم؛ فإنه لا يميز ما أشكل مما لا يشكل، ولا صوابَ وجهِ الإعرابِ للكلمةِ من خَطَئِه.

وقد يقعُ النزاعُ بين الرواةِ فيها، فإذا جاء عند الخلافِ وسُئِلَ كيف ضَبطهُ في هذا الحرفِ، وقد أهملَه بقي متحيِّرًا»[2].

وأمَّا رَسْمُ المشائخِ وأهلِ الضبطِ للحروفِ المشكِلَةِ والكلماتِ المشتبهةِ إذا ضُبطت وصُحِّحت في الكتابِ فهو: «أن يُرسَم ذلك الحرفُ المشكلُ مفردًا في حاشيةِ الكتابِ قُبَالَةَ الحرفِ، بإهمالِهِ أو نقطِهِ أو ضبطِهِ، ليستبينَ أمرهُ، ويرتفعَ الإشكالُ عنه مما لعلَّه يوهمه ما يقابله من الأسطرِ فوقه أو تحته من نقطٍ أو غيره أو شكله، لاسيَّما مع دِقَّةِ الكتابِ وضيقِ الأسطرِ، فيرتفع بإفرادِهِ الإشكالُ»[3].

واختار ابنُ الصلاحِ أن يُكَرِّرَ ضبطَ الألفاظِ المشكِلَةِ في الحاشيةِ فقال: «يستحبُّ

(١) «المحدث الفاصل بين الراوي والواعي» للرامهرمزي، تحقيق الدكتور محمد عجاج الخطيب (ص٦٠٨).

(٢) «الإلماع» للقاضي عياض، تحقيق الأستاذ السيد صقر (ص١٥٠).

(٣) «الإلماع» للقاضي عياض (ص١٥٧).

في الألفاظِ المشكلةِ، أن يُكَرِّرَ ضبطَها بأن يضبطها في متنِ الكتابِ، ثم يكتبها قُبالةَ ذلك في الحاشيةِ مفردةً مضبوطةً، فإن ذلك أبلغُ في إبانتها، وأبعدُ من التباسِها، وما ضبطَه في أثناءِ الأسطرِ ربَّما داخله نَقطُ غيرِهِ وشكلُه، مما فوقهَ وتحته، لاسيما عند دِقَّةِ الخطِّ وضيقِ الأسطرِ»[١].

وأمَّا أسماءُ النَّاسِ فيقولُ عنها أبو إسحاق النَّجِيرمي: «أولىٰ الأشياءِ بالضبطِ أسماءُ النَّاسِ؛ لأنَّه لا يدخُله القياسُ ولا قبله شيءٌ يدلُّ عليه، ولا بعده شيءٌ يدلُّ عليه»[٢].

وأمَّا ضَبْطُ المُهْمَلِ من الحروفِ فيقول عنه ابن الصلاحِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كما تُضبط الحروفُ المعجمةُ بالنقطِ، كذلك ينبغي أن تُضبطَ المهملاتُ غيرُ المعجمةِ، بعلامةِ الإهمالِ لتدلَّ علىٰ عدمِ إعجامها.

وسبيلُ النَّاسِ في ضبطِها مختلفٌ:

فمنهم مَن يقلب النقطَ، فيجعل النقطَ التي فوقَ المعجماتِ، تحت ما يشاكلُها من المهملاتِ، فينقطُ تحت الراءِ والصادِ والطاءِ والعينِ، ونحوها من المهملاتِ، وذَكرَ بعضُ هؤلاء أنَّ النُّقَطَ التي تحت السينِ المهملةِ تكون مبسوطةً صَفًّا، والتي فوق الشينِ المعجمةِ تكون كالأثافيِّ.

ومن النَّاسِ مَن يجعلُ علامةَ الإهمالِ فوق الحروفِ المهملةِ كقلامةِ الظفر

(١) «مقدمة ابن الصلاح» (ص٣٦٩).

(٢) «الإلماع» للقاضي عياض (ص١٥٤).

مُضْجَعَةً علىٰ قفاها.

ومنهم من يجعلُ تحت الحاءِ المهملَة حاءً مفردةً صغيرةً، وكذا تحت الدالِ والطاءِ والصادِ والسينِ والعينِ، وسائرِ الحروفِ المهملةِ الملتبسةِ مثل ذلك»[1].

وأمَّا ضرورةُ الضبطِ شَكلاً ونَقطًا يُؤمن معهما الالتباسُ، فيقول عنها ابنُ الصلاحِ: «وكثيرًا ما يتهاونُ الواثقُ بذهنِهِ وتيقُّظِهِ، وذلك وخيمُ العاقِبَةِ؛ فإنَّ الإنسانَ مُعَرَّضٌ للنسيانِ، وأولُ ناسٍ أولُ النَّاسِ، وإعجامُ المكتوب يمنعُ من استعجامِهِ، وشَكلُهُ يمنعُ من إشكالِهِ»[2].

فعلىٰ طالبِ العلمِ أن يهتمَّ بضبطِ ما يحفظُ ضبطًا صحيحًا متقنًا، وذلك بتصحيحِهِ قبل حفظِهِ علىٰ شيخه أو غيرِهِ ممَّن يثقُ بعلمِهِ، ويُعينُه علىٰ أمرِهِ.

وهذا الأصلُ أمسُّ الأصولِ رَحِمًا بتعلُّمِ العربية وإتقانِها، وله اتصالٌ وثيقٌ بما سمَّاه علماءُ الحديثِ «بالتصحيفِ والتحريفِ» وقد أفردَ بعضُ الأدباءِ مصنفاتٍ قيِّمةً في التصحيفِ والتحريفِ.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي لطالبِ الحديثِ أن يكونَ عارِفًا بالعربيةِ، قال الأصمعيُّ: أخشىٰ عليه إذا لم يعرف العربيةَ أن يدخلَ في قولِهِ: «**مَن كَذَبَ عليَّ مُتَعَمِّدًا فَليتبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّارِ**»[3]، فإنَّ النَّبِيَّ ﷺ لم يكن يَلْحَنُ ، فمهما رويتَ عنه

(١) «مقدمة ابن الصلاح» (ص٣٧٠).

(٢) «مقدمة ابن الصلاح» (ص٣٦٩).

(٣) رواه البخاري (١٠٧)، ومسلم (٣) في مقدمة الصحيح، وقال المنذريُّ: هذا الحديثُ قد =

ولَحَنْتَ فيه كذبتَ عليه.

وأمَّا التصحيفُ: فدواؤهُ أن يتلقَّاه من أفواهِ المشائخِ الضابطين»[١].

والتصحيفُ هو الخطأ في الصحيفةِ، ومنه «الصَّحَفِيُّ» وهو مَن يُخطئُ في قراءةِ الصحيفةِ فيغيِّرُ بعضَ ألفاظِها بسببِ خَطَئِهِ في قراءتِها»[٢].

أخرج الخطيبُ بسندِهِ عن الحسنِ بن عليلٍ قال: «حدثنا أبو خيثمةَ زُهير بنُ حربٍ من كتابِهِ، سمعتُه يمليه علىٰ ابنه أبي بكرٍ، فتقدَّمتُ قال: يا عسكريُّ، طفَّلتَ علىٰ ابني، اقعد اكتب، قال: نا عبدُ الله بنُ بكرٍ السهمي، نا أبي، نا سالم بن قتيبة، قال: كنتُ عند ابن هبيرةَ الأكبر، فجرىٰ الحديثُ حتىٰ جرىٰ ذِكرُ العربيةِ فقال: والله ما استوىٰ رجلان دينُهما واحدٌ، وحَسَبُهما واحدٌ، ومروءَتُهما واحدةٌ، أحدُهما يلحن، والآخرُ لا يلحنُ، إنَّ أفضلَهُما في الدنيا والآخرةِ الذي لا يلحن. قلتُ: أصلح الله الأميرَ، هذا أفضلُ في الدنيا لفضلِ فصاحتِهِ وعربيَّتِهِ، أرأيتَ الآخرةَ، ما بالُهُ فُضِّلَ فيها؟ قال: إنَّه يقرأُ كتابَ الله علىٰ ما أنزلَ الله، وإنَّ الذي يلحن يحمله لحنُه علىٰ أن يُدخلَ في كتاب الله ما ليس فيه، ويُخرِج منه ما هو فيه، قال: قلتُ: صدَقَ الأميرُ وبَرَّ.

=

روي عن غير واحدٍ، من الصحابة في «الصحاح»، و«السنن»، و«المسانيد» وغيرها، حتىٰ بلغ مبلغ المتواتر، و«**يتبوأ مقعده من النار**» أي: لينزل منزله من النار.

(١) «الباعث الحثيث» نشرة الشيخ أحمد شاكر (ص١٢٢).

(٢) «تيسير مصطلح الحديث» د. محمود الطحان (ص١١٤)، ولا يخفىٰ ما لدىٰ الطحان، من حزبيةٍ، وحركيةٍ، وتحرُّفٍ عن أهلِ السُّنَّةِ..

وعن عياشِ بن المغيرةِ بن عبد الرحمن عن أبيه قال: جاءَ الدَّرَاوَرديُّ -يعني عبد العزيز بن محمد- إلىٰ أبي يعرضُ عليه الحديثَ، فجعلَ يقرأ ويلحن لحنًا منكرًا، فقال له أبي: ويحك يا درَاوردي، أنت كنتَ بإقامةِ لسانِك قبل هذا الشأنِ أحرَىٰ.

وعن حاجِب بن سليمان قال: سمعتُ وكيعًا يقول: أتيتُ الأعمشَ أسمعُ منه الحديثَ، وكنتُ ربَّما لَحَنْتُ، فقال لي: يا أبا سفيان تركتَ ما هو أولىٰ بك من الحديثِ فقلتُ: يا أبا محمدٍ، وأيُّ شيءٍ هو أولىٰ بي من الحديث؟ فقال: النحو، فأملىٰ عليَّ الأعمشُ النحوَ، ثمَّ أملىٰ عليَّ الحديثَ.

وعن أبي زيدٍ النَّحْوِيِّ قال: كان الذي حَدَاني علىٰ طَلَبِ الأدبِ والنحوِ أَنِّي دخلتُ علىٰ جعفر بن سليمان. فقال: أُدنُهُ، فقلتُ: أنا دَنِيٌّ، فقال: لا تقل يا بني: أنا دَنِيٌّ، ولكن قل: أنا دَانٍ»(١).

فالقراءةُ علىٰ الشيخِ عِصْمَةٌ من التصحيفِ والتحريفِ، ولاسيَّما إذا كان اللِّسَانُ العربيُّ الفصيحُ أَنْدَرَ من النُّدْرَةِ، والعجمةُ فاشيةً طاغيةً، والجهلُ شائعًا فاحشًا، وهي سبيلُ الذين ساروا من قَبلُ علىٰ السبيلِ السَّويِّ من سلفِ الأمَّةِ الصالحِ يقرءون علىٰ شيوخهم فَيُحكِمُون عليهم الأصولَ، لذا لم يُحرموا الوصولَ.

* * *

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٥).

٧- ومن أهمِّ ما ينْبغي لطالِبِ العلمِ أن يُراعِيَه: الحِرصُ والمُواظَبَةُ والخُلُقُ الكَريمُ

عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّه قالَ: قِيلَ: يا رَسُولَ الله، مَن أسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَومَ القِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لقَد ظَنَنتُ -يا أبا هُرَيرَةَ- ألَّا يَسألَنِي عَن هذا الحَدِيثِ أحَدٌ أوَّلَ مِنكَ، لِمَا رَأيتُ من حِرصِكَ علَىٰ الحَدِيثِ، أسعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَةِ: مَن قَالَ لا إلَهَ إلا الله، خَالِصًا من قَلْبِهِ، -أَو: نَفسِهِ-**»[١] رواه البخاريُّ.

بَوَّبَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ للحديثِ بقولِهِ: «باب: الحِرص علىٰ الحديثِ».

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «في الحديثِ فَضلُ أبي هريرة، وفضلُ الحِرصِ علىٰ تحصيلِ العلمِ»[٢].

قال أبو يوسفَ صاحبُ أبي حنيفةَ -رحمهما الله-: «العلمُ شيءٌ لا يعطيك بعضَه حتىٰ تعطيَه كُلَّك، وأنت إذ تُعطيه كلَّك، من إعطائِهِ البعض علىٰ غَرَرٍ».

ويا لها من قولةٍ!! بل هي قانونٌ حازمٌ حاسمٌ كالسيفِ لا يتخلَّفُ عن نَفَاذٍ وشمولٍ، إلا أن يشاءَ شيئًا اللَّهُ الذي بيدِهِ مقاليدُ القُوىٰ والقُدَرِ، وما بَلَغَ مَن بَلَغَ في هذا الأمرِ شأنًا، ولا ارتفعَ مَن ارتفعَ فيه قَدرًا إلا وهذا القانونُ يشملُهُ، ثمَّ تشملُهُما

(١) رواه البخاري (٩٩).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٣٣).

رحمةُ الله، ويحوطُهما توفيقُهُ، وترعاهُمَا عنايتُهُ.

والحرصُ علىٰ الطلبِ سِمَةُ الصدقِ فيه، وعلامةٌ فارقةٌ بين طالبِ العلمِ الصحيحِ والدخيلِ علىٰ العلمِ المُلصَقِ به.

ودليلُ ذلك: قولُ الرسولِ ﷺ: «**مَنهُومَان لا يَشبَعَانِ: طَالِبُ عِلمٍ، وطَالِبُ دُنيَا**»[١] رواه ابنُ عديٍّ عن أنسٍ، والبزَّارُ عن ابن عباسٍ، وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (٦٥٠٠).

أخرجَ أبو خيثمةَ بسندِهِ عن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنهما **قال**: «وَجَدتُ عَامَّةَ عِلمِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عندَ هذا الحَيِّ من الأنصَارِ، إن كُنتُ لأقيلُ عندَ بَابِ أَحَدِهم، وَلَو شِئتُ أن يُؤذَنَ لِي عَلَيهِ لأذِنَ، وَلَكِن أَبْتَغِي بِذَلِكَ طيبَ نَفسِهِ»[٢].

وأخرج ابنُ عبد البرِّ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما **قال**: «إن كُنتُ لآتي الرَّجُلَ فِي الحَدِيثِ، يَبلُغُني أَنَّهُ سَمِعَهُ مِن رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَجِدُهُ قَائلاً[٣]، فَأَتَوَسَّدُ رِدَائِي عَلَىٰ

(١) **قال الألبانيُّ**: «حديثُ أنسٍ أخرجه أيضًا الحاكم في «المستدرك» (١/ ٩٢) من طريق قتادة عن أنسٍ مرفوعًا، وقال: صحيح علىٰ شرط الشيخين ولم أجد له علَّةً، ووافقه الذهبي.
قلتُ: وعلَّتُهُ أنَّ قتادةَ مدلِّسٌ وقد عنعنه، ولكنَّ الحديثَ عندي صحيحٌ، فإنَّ له طريقًا أخرىٰ عن حميد عن أنس عند ابن عديٍّ، وابن عساكر، وله شاهدٌ من حديث ابن عباسٍ عند أبي خيثمة في «العلم» (ص٣٣)، وسنده لا بأس به في الشواهد». «مشكاة المصابيح»(١/ ٨٧).

(٢) «العلم» لأبي خيثمة (ص٣١)، وقال الألباني: «هذا إسنادٌ جيدٌ، وأدبٌ رفيعٌ من ابن عباسٍ رضي الله عنهما».

(٣) قائلًا: من القيلولة وهي نومة نصف النهار.

بَابِهِ، تَسفِي الرِّيحُ عَلَىٰ وَجْهِي التُّرَابَ حَتَّىٰ يَخرُجَ فَإِذَا خَرَجَ قالَ: يَا ابنَ عَمِّ رَسُولِ الله مَا جَاءَ بِكَ؟ هَلَّا أَرسَلتَ إليَّ فَآتِيَكَ؟ فَأَقُولُ: لا، أَنَا أَحَقُّ أن آتِيَكَ، بَلَغَنِي حديثٌ عَنْكَ أَنَّكَ تُحَدِّثُهُ عن رَسُولِ الله ﷺ، فأحببتُ أن أسمَعَهُ مِنكَ»(١).

وقال عروةُ بن الزبير: «لقد كان يبلغني عن الرجل من المهاجرين الحديثُ، فآتيه فأجده قد قال(٢)، فأجلس علىٰ بابه، فأسألُهُ عنه، يعني: إذا خرجَ»(٣).

وقال الحُمَيْدِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: «خرجتُ مع الشافعيِّ إلىٰ مصر، وكان هو ساكنًا في العُلُوِّ، ونحنُ في الأوساطِ، فربَّما خرجتُ في بعضِ الليلِ، فأرىٰ المصباحَ؛ فأصيحُ بالغلامِ فيسمعُ صوتي، فيقول: ارقَ ، فأرقىٰ، فإذا قرطاسٌ ودَوَاةٌ، فأقول: مَه، يا أبا عبد الله! فيقولُ: تفكَّرتُ في معنىٰ حديثٍ، أو في مسألةٍ، فخفتُ أن يذهبَ عليَّ فأمرتُ بالمصباحِ وكتبتُه»(٤).

وأخرج الخطيب بسنده عن عبد الله بن أحمد -رحمهما الله- قالَ: «سمعتُ أبي يقول: كنتُ ربَّما أردتُ البُكُورَ إلىٰ الحديثِ، فتأخذ أمي ثيابي فتقول: حتىٰ يُؤَذِّنَ النَّاسُ، وحتَّىٰ يُصبحوا، وكنتُ ربَّما بكَّرتُ إلىٰ مجلسِ أبي بكرِ بن أبي عَيَّاشٍ وغيرِهِ.

وعن أحمد بن يحيىٰ بن الجارود قال: قال عليُّ بن المديني: إن شريكًا قال:

---

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ٨٥).

(٢) من القيلولة.

(٣) «تاريخ الإسلام» للذهبي، نشرة دار الغد العربي (٣/ ١٦٥).

(٤) «آداب الشافعي ومناقبه» للرازي (ص٤٤).

صليتُ مع أبي إسحاق ألفَ غداةٍ»[١].

وذَكَرَ الذهبيُّ في «تاريخ الإسلام» عن إبراهيمَ الحربيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ قولَهُ: «أفنيتُ من عمري ثلاثين سنةً برغيفين، إن جاءتني بهما أمِّي أو أختي، وإلا بقيتُ جائعًا إلىٰ الليلةِ الثانيةِ.

وأفنيتُ ثلاثين سنةً برغيفٍ في اليوم والليلةِ، إن جاءتني امرأتي أو ابنتي به، وإلا بقيتُ جائعًا، والآن آكلُ نصفَ رغيفٍ أو أربعَ عشرةَ تمرة، وقام إفطاري في رمضان هذا بدرهمٍ ودانقين ونصفٍ.

قال أبو عمر الزاهدُ: سمعتُ ثعلبًا يقول غير مرَّةٍ: ما فقدتُ إبراهيمَ الحربيَّ من مجلسِ لغةٍ أو نحوٍ من خمسين سنةً»[٢].

وقال ابن جريرٍ الطبريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُنَّا نكتبُ عند محمدِ بنِ حُمَيد الرازي، فَيَخرُجُ إلينا في الليل مرَّاتٍ، ويسألُ عمَّا كتبناه، ويقرؤه علينا، وكُنَّا نمضي إلىٰ أحمدَ بن حَمَّادٍ الدُّولابي، وكان في قرية من قُرىٰ الرِّي، بينها وبين الرِّيِّ قطعةٌ، ثمَّ نَعدُو كالمجانين حتىٰ نَصيرَ إلىٰ ابن حُميدٍ فنلحقَ مجلسَهُ.

ثمَّ رجعَ إلىٰ مصر في سنة ستٍّ وخمسين ومئتين، قال أبو جعفر: لما دخلتُ مصر لم يبقَ أحدٌ من أهل العلم إلا لَقِيَني وامتَحَنني في العلمِ الذي يتحقَّقُ به.

فجاءني يومًا رجلٌ، فسألني عن شيءٍ من العَرُوضِ، ولم أكن نشطتُ له قبلَ

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (ص١/ ١٥٠).

(٢) «تاريخ الإسلام» للذهبي (٨/ ٢٠١).

ذلك، فقلتُ له: عليَّ قولُ ألَّا أتكلَّمَ اليومَ في شيءٍ من العَرُوضِ، فإذا كان في غدٍ فَصِرْ إليَّ، وطلبتُ من صديقٍ لي «العَرُوضَ» للخليلِ بن أحمدَ، فجاءَ به، فنظرتُ فيه ليلتي فأمسيتُ غيرَ عَرُوضيٍّ، وأصبحتُ عَرُوضيًّا.

وفي خلالِ تَطوافِهِ في البلدانِ، وارتحالِهِ لتلقِّي العلومِ من كبارِ العلماءِ، لقي الألاقيَّ والشدائدَ، ومسَّهُ الجُوعُ والعُدْمُ والإملاقُ غيرَ مرَّةٍ حَتَّىٰ فَتَقَ كُمَّي قميصِهِ وباعَهما ليقتاتَ بثمنهما، حين أبطأَتْ عليه نفقةُ والدِهِ، وأملَقَ وجاعَ حينما كان بمصرَ في حدودِ سنةِ ستٍّ وخمسين ومئتين»[1].

والخُلُقُ الكريمُ أثَرٌ من آثارِ العلمِ النافعِ وثمرةٌ من ثمراتِهِ؛ لأنَّ العلمَ النافعَ يُمسك زمامَ القلبِ فيوجِّهه فلا يتحرَّكُ إلا علىٰ سنَّةٍ أو بدليلٍ.

قال سفيانُ الثوريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن استطعت ألَّا تَحُكَّ رأسَكَ إلا بأثَرٍ فافعَل».

وقال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كان الرجلُ يطلبُ العلمَ، فلا يَلْبَثُ أن يُرىٰ ذلك في تَخَشُّعِهِ وهَديِهِ ولسانِهِ وبَصرِهِ ويدِهِ».

وقال عاصمُ بنُ عصامٍ البيهقيُّ: «بتُّ ليلةً عند أحمد بن حنبلٍ، فجاءَ بالماء فوضعه، فلمَّا أصبحَ نَظَرَ إلىٰ الماءِ فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله! رجلٌ يطلبُ العلمَ لا يكون له وِردٌ من الليل؟!».

وقال أبو عمرو محمد بن أبي جعفر بن حمدان: «وكان والدي أبو جعفر يصلِّىٰ صلاةَ المغربِ مع أبي عثمان -يعني: سعيد بن إسماعيل - وربَّما أقام في

(١) انظر: «العلماء العزاب» لأبي غدة (ص٦٠)، وقد مرَّت الإشارة إلىٰ حالِهِ.

بعضِ الليالي حتىٰ يُصَلِّي معه صلاةَ العشاءِ الآخرة، فإذا أبطأ علينا خرجتُ إلىٰ مسجدِ أبي عثمان، فخرجتُ ليلةً إلىٰ مسجدِ أبي عثمان، فخرج علينا لصلاةِ العشاءِ الآخرةِ -وعليه إزارٌ ورداءٌ- فصلَّىٰ بنا، ثم دخلَ دارَهُ، ورجعتُ مع أبي إلىٰ البيتِ، فقلتُ لأبي: يا أبه، أبو عثمان قد أحرَمَ؟ فقال: لا، ولكنَّه هُوَ ذا يسمعُ مني المسندَ الصحيحَ الذي خَرَّجتُه علىٰ كتابِ مسلمٍ، فإذا سمع بسُنَّةٍ لم يكن استعملها فيما مضىٰ، أحبَّ أن يستعملَها في يومِهِ وليلتِهِ، وإنَّه سمع في جملةِ ما قُرِئَ عليَّ أنَّ النبيَّ ﷺ صلَّىٰ في إزارٍ ورداءٍ، فأحبَّ أن يستعملَ تلك السنَّةَ قبل أن يُصبحَ».

ومن ثمراتِ الحرصِ علىٰ العلمِ: المذاكرةُ ومداومةُ النَّظَرِ، «فإنَّ بالمذاكرةِ يثبتُ المحفوظُ ويتحرَّرُ، ويتأكَّدُ ويتقرَّرُ، ويزدادُ بحسبِ كثرةِ المذاكرِ.

ومذاكرةُ حاذقٍ في الفنِّ ساعةً، أنفعُ من المطالعةِ والحفظِ ساعاتٍ، بل أيامًا، وليكن في مذاكرتِهِ متحرِّيًا الإنصافَ، قاصدًا الاستفادةَ والإفادةَ، غيرَ مترفِّعٍ علىٰ صاحبِهِ بقلبِهِ ولا بكلامِهِ ولا بغيرِ ذلك من حالِهِ، مخاطِبًا له بالعبارةِ الجميلةِ الليِّنةِ، فبهذا ينمو علمُهُ وتزكو محفوظَاتُهُ»[1].

وكان لأصحابِ الحديثِ وأئمةِ الروايةِ اليدُ الطُّولىٰ في ضربِ الأمثالِ للأجيالِ علىٰ الجِدِّ والمواظبةِ والحرصِ علىٰ التحمُّلِ لحديثِ رسول الله ﷺ.

أخرج الدارميُّ آثارًا كثيرةً في «سننه»، في «باب مذاكرة العلم» منها:

«عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: تذاكروا الحديثَ، فإنَّ الحديثَ يهيجُ الحديثَ.

---

(١) «قواعد التحديث» للقاسمي (ص٧٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما **قالَ**: ردُّوا الحديثَ، واستذكروه، فإنَّه إن لم تذكروه ذهَبَ، ولا يقولَنَّ رجلٌ لحديثٍ قد حدَّثَه: قد حدَّثتُهُ مَرَّةً، فإنَّه مَن كان سمعه يزدادُ به علمًا، ويَسمْعَ مَن لم يَسمَعَ.

وعن عبدِ الرحمن بن أبي ليلىٰ رحمه الله: تذاكروا، فإنَّ إحياءَ الحديثِ مذاكرتُهُ.

وعن الأعمش قال: كان إسماعيلُ بنُ رجاءٍ يجمعُ صبيانَ الكُتَّابِ يُحَدِّثُهم يتحفَّظُ بذلك.

وعن محمدِ بن فضيلٍ، عن أبيه، قال: كان الحارثُ بنُ يزيد العُكَلي وابنُ شُبرمَة والقعقاعُ بنُ يزيد ومغيرةُ إذا صَلُّوا العشاءَ الآخرةَ جلسوا في الفقهِ، فلم يُفَرِّق بينهم إلا أذانُ الصبحِ»[1].

وأخرج الخطيبُ بسندِهِ عن ابن شهابٍ: «أنَّه كان يسمعُ العلمَ عن عُروةَ وغيرِهِ، فيأتي إلىٰ جارية له -وهي نائمةٌ- فيوقظها، فيقولُ: اسمعي، حدثني فلانٌ كذا وفلانٌ كذا، فتقول: ما لي وما لهذا الحديث؟! فيقول: قد علمتُ أنكِ لا تنتفعين به، ولكن سمعتُه الآن فأردتُ أن أستذكره».

وعن إبراهيم النخعيِّ قالَ: «مَن سَرَّهُ أن يحفظَ الحديثَ فليحدِّث به، ولو أن يحدِّثَ به مَن لا يشتهيه، فإنَّه إذا فَعَلَ ذلك كان كالكتابِ في صدرهِ»[2].

فالحرصُ علىٰ العلمِ يُلْزِمُ صاحبَهُ «أن يلزمَ حلقةَ شيخِهِ في التدريسِ والإقراءِ،

---

(١) سنن الدارمي (١/ ١٥٥).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٦٨).

بل وجميعِ مجالسِهِ إذا أمكن، فإنَّه لا يزيده إلا خيرًا وتحصيلاً، وأدبًا وتفضيلاً، كما قال عليٌّ ﷺ: «ولا تشبع من طُولِ صحبتِهِ -أي: العالم- فإنَّما هو كالنخلةِ تنتظرُ متىٰ يسقطُ عليك منها شيءٌ»، ويجتهدُ علىٰ مواظبتِهِ في خدمتِهِ والمسارعَةِ إليها، فإنَّ ذلك يُكسبهُ شرفًا وتبجيلًا.

ولا يقتصرُ في الحلقةِ علىٰ سماعِ درسِهِ فقط إذا أمكنه، فإنَّ ذلك علامةُ قصورِ الهمَّةِ وعدمِ الفلاحِ وبُطءِ التنبُّهِ، بل يعتني بسائرِ الدروسِ المشروحةِ ضبطًا وتعليقًا، ونقلاً إذا احتملَ ذهنُهُ ذلك، ويشاركُ أصحابَهَا حتَّىٰ كأنَّ كلَّ درسٍ منها له، ولعمرُ الله إنَّ الأمرَ كذلك للحريصِ، فإن عَجَزَ عن ضَبطِ جميعها اعتنىٰ بالأهمِّ فالأهمِّ منها.

وينبغي أن يتذاكرَ مواظبو مجلسِ الشيخِ ما وَقَعَ فيه من الفوائدِ والضوابطِ والقواعدِ وغيرِ ذلك، وأن يُعيدوا كلامَ الشيخِ فيما بينهم، فإنَّ في المذاكرةِ نفعًا عظيمًا، وينبغي المذاكرةُ في ذلك عند القيامِ من مجلسِهِ قبل تَفَرُّقِ أذهانِهم وتشتُّتِ خواطِرِهم، وشذوذِ بعضِ ما سمعوه عن أفهامِهِم، ثُمَّ يتذاكرونه في بعض الأوقات.

قالَ الخطيبُ: وأفضلُ المذاكرةِ مذاكرةُ الليلِ، وكان جماعةٌ من السَّلَفِ يبدءون في المذاكرةِ من العشاءِ، فربَّما لم يقوموا حتىٰ يسمعوا أذانَ الصبحِ.

فإن لم يجد الطالبُ مَن يذاكره ذَاكَرَ نفسَه بنفسِهِ، وكرَّرَ معنىٰ ما سمعه ولفظَه علىٰ قلبِهِ، ليعلَقَ ذلك بخاطرِهِ، فإنَّ تكرارَ المعنىٰ علىٰ القلبِ كتكرارِ اللفظِ علىٰ اللسانِ سواءً بسواءٍ، وقلَّ أن يُفلحَ مَن اقتصر علىٰ الفكرِ والتعقُّلِ بحضرةِ الشيخِ خاصَّةً، ثمَّ يتركُهُ ويقومُ ولا يعاودُه»(١).

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٤٢).

٨- وعَلى طَالِبِ العلمِ أنْ يُداوِمَ عَلى العِلمِ حَيَاتَه، مَهمَا بَلَغَ مِنَ العلمِ وحَصَّلَ مِن العُلُومِ، وعليه أن يتحمَّلَ في ذلك المشقَّةَ فما فوقها

قال الله تعالىٰ: ﴿نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٧٦].

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَفَوۡقَ كُلِّ ذِي عِلۡمٍ عَلِيمٞ﴾.

وقال الحسنُ البصريُّ: ليس عالِمٌ إلا فوقه عالِمٌ حتىٰ ينتهي إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ.

وعن سعيدِ بن جبيرٍ قال: كُنَّا عند ابن عباس فحدَّثَ بحديثٍ عجيبٍ، فتعجَّبَ رجلٌ فقال: الحمدُ لله، فوقَ كلِّ ذي علمٍ عليمٌ، فقالَ ابنُ عباسٍ: بِئسَ ما قلتَ، الله العليمُ فوقَ كلِّ عالمٍ، يكون هذا أعلمَ من هذا وهذا أعلمَ من هذا، واللهُ فوق كلِّ عالمٍ، وهكذا قال عِكرمةُ»(١).

وعن أُبَيِّ بن كَعبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**قَامَ مُوسَىٰ** عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ **خَطيبًا فِي بَنِي إسرَائيلَ، فَسُئلَ: أَيُّ النَّاسِ أعلَمُ؟ فقَالَ: أَنَا أعلَمُ، فَعتَبَ الله عَليهِ إذْ لَم يَرُدَّ العِلمَ إلَيهِ، فَأوحَىٰ الله إليهِ، إنَّ عَبدًا مِن عِبَادي (بمجمعِ البحرين) هُوَ أعلَمُ مِنكَ، قَالَ: يَا رَبِّ كَيفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احْمِلْ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَإذَا فَقَدْتَهُ فَهُوَ ثَمَّ**... -فذكرَ الحديث في اجتماعه بالخَضرِ إلىٰ أن قال: -**فانطَلَقَا يَمشِيَانِ عَلَىٰ سَاحِلِ البَحرِ، لَيسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ، فَمَرَّت بِهِمَا سَفِينَةٌ، فَكَلَّمُوهُم أَن يَحمِلُوهُمَا، فَعُرِفَ الخَضِرُ، فَحَمَلُوهُمَا**

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٤٨٦).

مِن غَيرِ نَولٍ(١).

فجَاءَ عُصفُورٌ فَوقَعَ عَلَىٰ حَرفِ السَّفِينَةِ، فَنَقَرَ نَقْرَةً أو نَقْرَتَينِ فِي البَحرِ، فقَالَ الخَضِرُ: يَا مُوسَىٰ، مَا نَقَصَ عِلمِي وعِلمُكَ من عِلمِ اللهِ إلَّا كنَقرَةِ هذَا العُصفُورِ فِي هذاَ البحرِ...» فذكر الحديثَ بطولِهِ. رواه البخاريُّ ومسلمٌ(٢).

قولُهُ ﷺ: «مَا نَقَصَ عِلمِي وعِلمُكَ من عِلمِ الله إلا كنَقرَةِ هذَا العُصفُورِ فِي هذاَ البحرِ».

قال الألبانيُّ: «فِي روايةِ البخاريِّ: «ومَا عِلْمِي وعِلْمُكَ فِي جَنْبِ علمِ اللهِ إلَّا كَما أخذَ هذَا الطَّائرُ بِمنْقَارِهِ مِنَ البَحْرِ». وهذه الروايةُ تبينُ المرادَ من تلك الروايةِ: إذ إنَّ عِلمَ الله لا يدخلُهُ نقصٌ مطلقًا»(٣).

وأخرجَ ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِه عن مالكِ بن أنسٍ قال: «لا ينبغي لأحدٍ يكون عنده العلمُ أن يتركَ التَّعَلُّمَ.

وعن ابن أبي غسَّان قالَ: لا تزالُ عالِمًا ما كنتَ متعلِّمًا فإذا استغنيتَ كنتَ جاهلاً.

وعن ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: وجدتُ عامَّةَ عِلمِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ عند هذا الحيِّ من الأنصارِ، إن كنتُ لأقيلُ ببابِ أحدهم، ولو شئتُ أُذِنَ لي، ولكن

---

(١) النَّوْلُ: الأجرُ والجَعْلُ.

(٢) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) «صحيح الترغيب والترهيب» للألباني (١/ ٥٧).

أبتغي طيبَ نفسهِ.

وقيل لابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إلىٰ متىٰ تطلبُ العلمَ؟ قال: حتىٰ الممات -إن شاء الله-، وقيل له مَرَّةً أخرىٰ مثل ذلك، فقال: لعلَّ الكلمةَ التي تنفعني لم أكتبها بعدُ.

وقال ابن مناذرٍ: سألتُ أبا عمرو بن العلاء: حتىٰ متىٰ يَحسُنُ بالمرءِ أن يتعلَّمَ؟ فقال: مادام تَحسُنُ به الحياةُ.

وسُئلَ سفيانُ بنُ عُيينةَ: مَن أحوجُ النَّاسِ إلىٰ طَلَبِ العلمِ؟ قال: أعلمُهم لأنَّ الخطَأ منه قبيحٌ»[1].

وقد مرَّ حديثُ رسولِ الله ﷺ: «**مَنهُومَان لا يَشبَعَانِ: طَالِبُ عِلمٍ، وطَالِبُ دُنيَا**»، وبلغَ انفعالُ الوجدانِ ذِروَتَهُ عند الإمامِ الكبيرِ محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقالَ: «إنَّ صِنَاعَتَنَا هذه من المهدِ إلىٰ اللَّحْدِ، فَمَن أرادَ أن يتركَ عملَنَا هذا ساعةً فليتركه الساعةَ»[2].

وقد كانت نيَّةُ الاستزادةِ من العلمِ وطلبِ المزيدِ منه داعيةً العلماءَ إلىٰ الرحلةِ والتَّطْوَافِ في الآفاقِ مع ما فيها من النَّصَبِ والمشَقَّةِ والتعبِ والكَلالِ، والاغترابِ وهَجرِ الأوطانِ والأهلِ والذُّريةِ والخِلانِ.

قالَ الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المقصودُ في الرحلةِ في الحديثِ أمران: أحدهما تحصيلُ عُلُوِّ الإسنادِ وقِدَمِ السَّمَاعِ، والثاني: لقاءُ الحُفَّاظِ، والمذاكرةُ لهم، والاستفادةُ منهم».

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ٩٦).

(٢) «تعليم المتعلم» (ص٤٤).

فإذا كان الأمران موجودَين في بلدِ الطالبِ، ومعدومَين في غيره، فلا فائدةَ في الرحلةِ، والاقتصارُ على ما في البلدِ أَولىٰ.

وأمَّا إذا كان الأمران اللذان ذكرناهما موجودَين في بلدِ الطالبِ وفي غيرهِ، إلا أنَّ ما في كلِّ واحدٍ من البَلَدَينِ يختصُّ به؛ مثل أن يكون الطالبُ عراقيًّا، وفي بلِدِه عالي أسانيد العراقيين، وحفَّاظُ رواياتها والعلماءُ باختلافها وليس ذلك في غيرهِ، وبالشامِ من علُوِّ أسانيد الشاميين، ومن أهلِ المعرفةِ بأحاديثهم ما ليس عند غيرهم؛ فالمستحبُّ للطالبِ الرحلةُ لجمعِ الفائدتين من علوِّ الإسنادين وعلمِ الطائفتين، لكن بعد تحصيله حديثَ بلدِهِ وتَمَهُّرِهِ في المعرفةِ به»[1].

وأخرج الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بسندِهِ عن عبد العزيز بن أبي حازمٍ قال:** «قال أبي: كان النَّاسُ فيما مضىٰ من الزمانِ الأولِ إذا لقي الرجلُ مَن هو أعلم منه، قال: اليوم يوم غُنمي، فيتعلم منه، وإذا لقيَ مَن هو مثله قال: اليوم يوم مذاكرتي، فيذاكره، وإذا لقيَ مَن هو دونه عَلَّمَهُ، ولم يَزْهُ عليه.

قال: حتىٰ صارَ هذَا الزمان، فصارَ الرجلُ يَعيبُ مَن فوقَه ابتغاءَ أن ينقطعَ منه حتىٰ لا يرىٰ النَّاسُ أنَّ له إليه حاجة، وإذا لقي مَن هو مثله لم يُذَاكِرهُ، فهلك النَّاسُ عند ذلك.

وعن عليِّ بن الحسنِ بن شقيقٍ قال: كنتُ مع عبد الله بن المباركِ في المسجدِ في ليلةٍ شتويةٍ باردةٍ فَقُمنا لنخرجَ، فلمَّا كان عند بابِ المسجدِ ذَاكَرَني بحديثٍ، أو ذاكرتُه

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٢٣).

بحديثٍ، فما زال يُذاكرني وأُذاكرهُ حتىٰ جاءَ المؤذِّنُ فأذَّنَ لصلاةِ الصبحِ»[١].

وقال ابنُ جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وليحذر طالبُ العلمِ من نَظَرِ نفسِهِ بعينِ الكمالِ، والاستغناءِ عن المشائخِ، فإنَّ ذلك عينُ الجهلِ وقلَّةِ المعرفةِ، وما يفوتُه أكثر ممَّا حصَّلَه».

قال سعيدُ بنُ جبيرٍ: «لا يزالُ الرجلُ عالِمًا ما تعلَّمَ، فإذا ترك التعلُّمَ وظنَّ أنَه قد استغنىٰ فهو أجهلُ ما يكون»[٢].

وقال أيضًا: «علىٰ العالِمِ ألَّا يستنكفَ أن يستفيدَ ما لا يعلمه ممَّن هو دونه منصبًا أو نسبًا أو سِنًّا، بل يكون حريصًا علىٰ الفائدةِ حيث كانت، والحكمةُ ضالَّةُ المؤمن يلتقطها حيث وجدها.

أنشدَ بعضُ العربِ:

وَلَيسَ الْعَمَىٰ طُولَ السُّؤَالِ وَإِنمَا ... تَمَامُ العَمَىٰ طُولُ السُّكُوتِ عَلَىٰ الْجَهلِ

وكان جماعةٌ من السَّلَفِ يستفيدون من طَلَبَتِهم ما ليس عندهم.

قال الحميديُّ وهو تلميذ الشافعيِّ: صَحِبتُ الشافعيَّ من مكةَ إلىٰ مصرَ فكنتُ أستفيدُ منه المسائلَ، وكان يستفيدُ منِّي الحديثَ.

قال أحمدُ بن حنبلٍ: قال لنا الشافعيُّ: أنتم أعلمُ بالحديثِ منِّي، فإذا صحَّ

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٧٦)

(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٣٤).

عندكم الحديثُ فقولوا لنا حتىٰ آخُذَ به»[(١)].

وقد كان فيمَن روىٰ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهم قومٌ في عِدادِ طَلَبَتِهِ في السِّنِّ والإسنادِ، سَمِعَ منهم للفائدةِ كعبدِ الله بن حمَّادِ الآملي، وعبد الله بن أبي العاص الخوارزمي، وحسين بن محمد القباني وغيرهم، وقد روىٰ عنهم أشياءَ يسيرةً.

وعَمِلَ في الرواية عنهم بما رواه عثمان بن أبي شيبة عن وكيعٍ قال: «لا يكون الرجلُ عالِمًا حتىٰ يُحدِّثَ عمَّن هو فوقه، وعمَّن هو مثلُهُ، وعمَّن هو دونه».

وعن البخاريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّه قال: «لا يكون المحدِّثُ كاملاً حتىٰ يكتبَ عَمَّن هو فوقه، وعمَّن هو مثلُهُ، وعمَّن هو دونَهُ».

وقد تكلَّم علماءُ الحديثِ في كتبهم عن لونٍ طريفٍ من ألوانِ الإسنادِ، هو: روايةُ الأكابرِ عن الأصاغرِ.

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قد يروي الكبيرُ القَدرِ أو السِّنِّ أو هُمَا، عمَّن دونه في كلٍّ منهما أو فيهما، ومِن أَجَلِّ ما يُذكَرُ في هذا البابِ: ما ذكره رسولُ الله ﷺ في خطبتِهِ عن تميمٍ الداريِّ ممَّا أخبره به عن رؤيةِ الدَّجَّالِ في تلك الجزيرةِ التي في البحرِ»[(٢)].

وروايةُ النبيِّ ﷺ عن تميمٍ الدَّاريِّ حديثَ الجسَّاسَةِ، ثابتٌ في صحيحِ مسلمٍ.

قال النوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الجَسَّاسَةُ: هي بفتحِ الجيمِ وتشديدِ السينِ المهملةِ الأولىٰ،

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٢٨).

(٢) «الباعثُ الحثيث» (ص١٩٥).

قيل: سُمِّيت بذلك لتجسُّسِهَا الأخبارَ للدَّجَّالِ، وجاءَ عن عبد الله بن عمرو بن العاصِ أنَّها دابَّةُ الأرضِ المذكورةُ في القرآن»[١].

والحديثُ في صحيحِ مسلمٍ من روايةِ فاطمةَ بنتِ قيسٍ، وكانت تقضي عِدَّتَهَا في بيتِ ابن عَمِّها عبد الله بن عمرو ابن أمِّ مكتومٍ بأمرِ النبيِّ ﷺ، قالت: فَلَمَّا انقَضَت عِدَّتي سَمِعتُ نِدَاءَ المنَادِي -مُنَادِي رَسُولِ الله ﷺ- يُنَادِي: الصَّلاةَ جَامِعَةً، فَخرَجتُ إلَىٰ المسجدِ فصَلَّيتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فكُنتُ فِي صَفِّ النِّسَاءِ الَّتِي تَلي ظُهُورَ القَومِ، فَلَمَّا قَضَىٰ رَسُولُ الله ﷺ صَلاتَهُ جَلَسَ عَلَىٰ المِنبَرِ، وَهُوَ يَضحَكُ، فقَالَ: «**لِيَلزَمْ كُلُّ إنسَانٍ مُصَلاهُ**»، ثُمَّ قَالَ: «**أَتَدرُونَ لِمَ جَمَعتُكُم؟**» قَالوا: اللهُ وَرَسُولُه أعلَمُ. قَالَ: «**إنِّي واللهِ مَا جَمَعتُكُم لِرَغْبَةٍ ولا لِرَهْبَةٍ، ولكَن جَمَعتُكُم لأنَّ تَمِيمًا الدَّاريَّ كَانَ رَجُلاً نَصْرَانيًّا فَجاءَ فَبَايَعَ وأسلَمَ، وحَدَّثَنِي حَدِيثًا وَافَقَ الَّذي كُنتُ أحدِّثُكُم عَنِ مَسيحِ الدَّجَّالِ، حَدَّثَنِي أَنَّهُ رَكِبَ سَفِينَةً بَحْرِيَّةً...**»[٢] الحديث.

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «هذا معدودٌ في مناقبِ تميمٍ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ روىٰ عنه هذه القصَّة، وفيه روايةُ الفاضلِ عن المفضولِ، ورواية المتبوعِ عن تابعِه، وفيه قبولُ خبرِ الواحدِ»[٣].

وقد روىٰ الصحابةُ عن التابعين، قال ابنُ الصلاحِ: «وقد روىٰ العَبَادِلَةُ عن كعبِ الأحبَارِ».

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٧٨).

(٢) رواه مسلم (٢٩٤٢).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٨/ ٨١).

قال الشيخُ أحمد شاكر: «يعني: عبد الله بن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص».

وقال السيوطيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكذلك روايةُ التابعيِّ عن تابعيه؛ كالزهري والأنصاري عن مالكٍ، وكعمروِ بن شعيبِ بن محمد بن عبد الله بن عمروِ بن العاصِ، وليس تابعيًّا -روىٰ عنه منهم- أي: من التابعين، أكثرُ من عشرين نفسًا»[(١)].

وفي هذا المعنىٰ أيضًا ما أخرجه الشيخان[(٢)] عن أنسِ بن مالكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قالَ النَّبِيُّ ﷺ لأُبَيِّ بن كَعبٍ: «**إن الله أمَرَني أن أقرَأ عليكَ**: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ قالَ أُبيٌّ: وسَمَّانِي؟ قالَ: «**نَعَمْ**»، فَبَكَىٰ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «يُؤخَذُ من هذا الحديثِ مشروعيَّةُ التواضعِ في أخذِ العلمِ من أهلهِ وإن كانوا دونهِ، وقال أبو عُبيدٍ: ليس المرادُ بالعَرْضِ علىٰ أُبَيٍّ أن يستذكرَ منه النبيُّ ﷺ شيئًا بذلك العَرْضِ، بل المرادُ بالعَرْضِ علىٰ أُبَيٍّ أن يتعلَّم أُبَيٌّ منه القراءةَ ويتثبَّتَ فيها»[(٣)].

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأمَّا الحكمةُ من أمرِهِ بالقراءةِ علىٰ أُبَيٍّ، فقال المازريُّ والقاضي: هي أن يتعلَّمَ أُبَيٌّ ألفاظَهُ، وصيغةَ أدائِه، ومواضِعَ الوقوفِ، وصُنعَ النَّغَمِ في نغماتٍ علىٰ أسلوبٍ ألفَهُ الشرعُ وقدَّره، بخلافِ ما سواه من النَّغَمِ

(١) «تدريب الراوي» للسيوطي (٢/ ٢٤٥).

(٢) رواه البخاري (٣٥٩٨)، ومسلم (٧٩٩).

(٣) «فتح الباري» (٧/ ١٥٩).

المستعملِ في غيرِه، ولكلٍّ ضَربٌ من النَّغَمِ مخصوصٌ في النفوسِ، فكانت القراءةُ عليه ليتعلَّمَ منه.

وقيل: قَرَأ عليه لِيَسُنَّ عَرضَ القرآنِ علىٰ حُفَّاظِهِ البارعينَ فيه، المجيدينَ لأدائِهِ، ولِيَسُنَّ التواضعَ في أخذِ الإنسانِ القرآنَ وغيرَهُ من العلومِ الشرعيةِ من أهلِها، وإن كانوا دونه في النَّسَب والدين والفضيلةِ والمرتبةِ والشُّهرَةِ، وغير ذلكَ، وليُنَبِّه النَّاسَ علىٰ فضيلةِ أُبَيٍّ في ذلك، ويحثُّهم علىٰ الأخذِ منه، وكان ذلك، فكان بعدَ النبيِّ ﷺ رأسًا وإمامًا مقصودًا في ذلك مشهورًا به»[1].

فعلىٰ الطالبِ للعلمِ الشرعيِّ أن يظلَّ في الطلبِ حتىٰ يتوفَّاه الله تعالىٰ.

كما قال محمدُ بنُ الحسَنِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «صناعتُنَا هذه من المهدِ إلىٰ اللَحدِ».

وكما قال أحمدُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مع المحبرةِ إلىٰ المقبرةِ».

❊ ❊ ❊

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ٢١).

٩- وعَلَى طَالِبِ العلمِ أن يُعنى عِنَايَةً تَـامَّـةً بـالحِفْظِ والاستِظْهَارِ

رغَّبَ النبيُّ ﷺ في الحفظِ في خطبةِ الوداعِ فقال: «**فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**»[(١)].

ودعا النبيُّ ﷺ بالنَّضَارَةِ -وهي النعمةُ والبهجةُ- لمن سَمِعَ مقالتَهُ وحديثَه فحفظه فبلَّغه كما سَمِعَهُ، فَعَن جُبَيرِ بنِ مُطْعِمٍ قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بالخَيفِ -خَيفِ مِنًىٰ- يقولُ: «**نَضَّرَ الله عَبْدًا سَمِعَ مَقَالَتِي فَحَفِظَهَا وَوَعَاهَا، وبَلَّغَهَا مَن لَم يَسْمَعْهَا فَرُبَّ حَامِلِ فِقهٍ لا فِقْهَ لَهُ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَىٰ مَن هُوَ أفقَهُ مِنهُ، ثَلاثٌ لا يُغِلُّ عَلَيهِنَّ قَلبُ مُؤمِنٍ: إِخْلاصُ العَمَلِ لله، والنَّصِيحَةُ لأئِمَّةِ المُسلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِم؛ فَإِنَّ دَعْوَتَهُم تُحِيطُ مَن وَرَاءَهُم**».

رواه أحمد وابن ماجه والطبرانيُّ في «الكبير» مختصرًا ومطوَّلاً، وله عند أحمد طريقٌ عن صالحِ بن كيسان عن الزهريِّ، وإسنادُ هذه حَسَنٌ، كذا قال المنذريُّ، وكذلك حسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» وقد مرَّ الكلامُ عنه مفصَّلاً في نصوصِ السنَّةِ، ولله الحمدُ والمنَّةِ.

قال ابنُ الأثيرِ -رحمه الله تعالىٰ-: «قولُهُ: «**نَضَّرَ الله امْرَأً سَمِعَ مَقَالَتِي فوَعَاهَا**»، نَضَرَهُ ونَضَّرَهُ وأَنضَرَهُ: أي: نَعَّمَه»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

(٢) «النهاية» لابن الأثير (٥/ ٧١).

وقال الزمخشريُّ -عفا الله عنه-: «نَضَره، ونَضَّره، وأَنضَره: نَعَّمه، فنَضَرَ يَنْضُرُ، ونَضُر يَنضُرُ»[١].

وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «النَّضرةُ هي البهجةُ والحُسنُ الذي يُكساه الوجهُ من آثارِ الإيمانِ وابتهاجِ الباطنِ به، وفَرَحِ القلبِ وسرورِهِ والتذاذِهِ به، فتظهرُ هذه البهجةُ وهذا السرورُ والفرحةُ نضارةً علىٰ الوجهِ، والمقصودُ أنَّ هذه النَّضرَةَ في وجهِ مَن سَمِعَ سُنَّةَ رسولِ اللهِ ﷺ ووعاها وحفظها وبلَّغَها، فهي أثَرُ تلك الحلاوةِ والبهجةِ والسرورِ الذي في قلبِهِ وباطنِهِ»[٢].

وممَّا يدلُّ علىٰ منزلةِ الحفظِ ما حَدَثَ للشيخِ أبي حامدٍ -عفا الله عنه-، فقد سَافَرَ إلىٰ جُرجان صغيرًا، إلىٰ الإمامِ أبي نصرٍ الإسماعيليِّ، وعَلَّقَ عنه «التعليقة»[٣]، ثمَّ رجع إلىٰ طُوس.

قال: «قُطِعت علينا الطريقُ، وأخذ العيَّارون[٤] جميعَ ما معي، ومضوا، فتبعتُهم، فالتفتَ إليَّ مقدَّمُهم، وقال: ارجع، وَيحَك، وإلا هلكتَ.

فقلتُ له: أسألك بالذي ترجو السلامةَ منه، أن تردَّ عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيءٍ تنتفعونَ به، فقال لي: وما هي تعليقَتُكَ؟

---

(١) «الفائق» للزمخشري (٣/ ٤٣٩).

(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٧٦).

(٣) هي ما كتبه من تعليقات أستاذه في الفقه، والفوائد التي أخذها منه وجمعها عنه.

(٤) قطاع الطريق.

فقلتُ: كُتُبٌ في تلك المِخلاةِ، هاجرتُ لسماعِهَا، وكتابَتِهَا، ومعرفةِ علمِهَا.

فضحك، وقال: كيف تدَّعِي أنَّك عرفت علمَهَا، وقد أخذناها منك فتجرَّدتَ من معرفتِهَا، وبقيتَ بلا علمٍ؟ ثمَّ أمرَ بعضَ أصحابِهِ، فسلَّمَ إليَّ المخلاةَ.

قال الغَزَاليُّ: فقلتُ: هذا مستنطَقٌ أنطقَه الله ليُرشِدَني به في أمري، فلما وافيتُ طُوسَ، أقبلتُ علىٰ الاشتغالِ ثلاثَ سنين، حتىٰ حفظتُ جميعَ ما علَّقتُه، وصرتُ بحيث لو قُطِعَ عليَّ الطَّريقُ لم أتجرَّد من علمي»(١).

أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسندِهِ عن عبد الرزاقِ قال:** «كُلُّ عِلمٍ لا يدخلُ مع صاحبِهِ الحَمَّامَ فلا تعدُّهُ عِلمًا».

قالَ الطحَّانُ -عفا الله عنه- فِي تعليقه: «المرادُ بقولِ عبدِ الرزَّاقِ هذا: أنَّ العلمَ الذي لا يهتمُّ به صاحبُهُ، ويكونُ معه، ويردِّده علىٰ ذهنِهِ، حتىٰ وقت الاغتسالِ في الحَمَّامِ، فليس بعلمٍ نافعٍ؛ لأنَّ كَتْبَهُ في الكُتبِ، وخَزْنَه من غيرِ قراءتِهِ وحفظِهِ والعنايةِ به ليس فيه فائدة»(٢).

قلتُ: وقولُ الطحان -عفا الله عنه-: «ويردِّدُه علىٰ ذهنِهِ حتىٰ وقت الاغتسالِ في الحَمَّامِ»، قولٌ غريبٌ، ومقصِدُ عبد الرزَّاقِ رَحِمَهُ اللَّهُ ألطفُ مَسلكًا، وأشَفُّ بيانًا من هذا، وإنَّما أراد رَحِمَهُ اللَّهُ أن يقولَ: إنَّ العلمَ هو ما وعته الذاكرةُ فاستغنت به عن

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» لتاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو (٦/ ١٩٥).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٥٠).

الكتبِ والأسفارِ، وأصبحت رموزُهُ منقوشةً علىٰ لَوحِ الذَّاكِرَةِ، ومحفورةً علىٰ صفحةِ القلبِ.

كما قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا المعنىٰ:

عِلْمِي مَعِي حَيثُمَا كُنتُ يَتْبَعُنِي ... صَدرِي وِعَاءٌ لَهُ لا بَطنُ صُندُوقِ

إذَا كُنتُ في البَيتِ كَانَ العِلمُ فِيهِ مَعِي ... أَو كُنتُ فِي السُّوقِ كَانَ العِلمُ فِي السُّوقِ

وأخرجَ الخطيبُ عن هبةِ الله بن عبد الواحدِ أنَّ هذين البيتين لبشَّارٍ، وعلىٰ كلِّ حالٍ فمعناهما أقربُ ما يكون اتصالاً بقولِ عبد الرزَّاقِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وأخرج رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن عبد الله بن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «إنَّما يحفظ الرجلُ علىٰ قَدرِ نيَّتِهِ».

وقال الخطيبُ: «ينبغي أن يكونَ قَصدُ الطالبِ بالحفظِ ابتغاءَ وجه الله تعالىٰ، والنصيحةَ للمسلمين في الإيضاح والتبيين، وليجتنب ارتكابَ المحرَّماتِ، ومواقعةَ الأمورِ المحظوراتِ.

فعن يحيىٰ بن يحيىٰ قال: سأل رجلٌ مالكَ بن أنسٍ: يا أبا عبد الله، هل يصلُحُ لهذا الحفظِ شيءٌ؟ قال: إن كان يصلُحُ له شيءٌ فتركُ المعاصي.

وعن القاسم بن عبد الرحمن قال: قال عبد الله: إنِّي لأحسِبُ الرَّجلُ ينسىٰ العلمَ بالخطيئةِ يعملُها»[1].

---

(١) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٥٧).

وقال الزَّرنُوجيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأقوىٰ أسبابِ الحفظِ: الجِدُّ، والمواظبةُ، وتقليلُ الغذاءِ، وصلاةُ الليلِ، وقراءةُ القرآنِ من أسبابِ الحفظِ.

وأمَّا ما يورثُ النسيانَ: فالمعاصي، وكثرةُ الذنوبِ، والهمومُ، والأحزانُ، وكثرةُ الأشغالِ والعلائقِ»(١).

فانقطاعُ الطالبِ إلىٰ الله وافتقارُهُ إليه وإنابتُهُ، وتوكُّلُه عليه أسبابٌ وموصِّلاتٌ إلىٰ الحفظِ والفهمِ.

ومذاكرةُ العلمِ أقوىٰ الأسبابِ إعانةً علىٰ حفظِهِ، ومَن قَصَّرَ في الدرسِ بعد التحصيلِ والجمعِ فقد أضاعَ ما عنده.

قال الخليلُ بن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كُن علىٰ مُدَارَسَةِ ما في صدرِك أحرصَ منك علىٰ مُدَارَسَةِ ما في كُتُبِكَ».

وقال الرياشيُّ: «سمعتُ الأصمعيَّ وقيل له: كيف حفظتَ ونسي أصحابُك؟ قال: درستُ وتركوا».

وعن عَونِ بن عبد الله بن عتبة قال: «أتينا أمَّ الَّدردَاءِ، فتحدثنا عندها، فقلنا: أمللناكِ يا أمَّ الدرداء، فقالت: ما أمللتموني، لقد طلبتُ العبادةَ في كلِّ شيءٍ فما وجدتُ شيئًا أشفىٰ لنفسي من مُذَاكَرَةِ العلمِ، أو قالت: من مذاكرةِ الفقهِ».

وقال ابنُ أبي ليلىٰ: «إنَّ إحياءَ الحديثِ مذاكرتُه، فقال عبد الله بن شدَّادٍ،

(١) «تعليم المتعلم» (ص٥٤).

يرحمك الله، كم من حديثٍ أحييتَه في صدري، قد كان مات»(١).

وكثرةُ التكرارِ ومداومةُ النَّظَرِ أبلغُ شيءٍ في الحفظِ وأنفعُهُ، وبذلك وصَّىٰ الشيوخُ وعليه حَضُّوا، وبه أخذوا وعليه دأبوا، يقول أحمدُ بنُ الفرات: لم نَزَل نسمعُ شُيوخَنَا يذكرون أشياءَ في الحفظِ، فأجمعوا أنَّه ليس شيءٌ أبلغ فيه إلا كثرة النَّظَرِ وحفظُ الليلِ غالبٌ علىٰ حفظِ النَّهارِ.

وأخبارُهم في مداومةِ النظرِ وكثرةِ التكرارِ كثيرةٌ ضافيةٌ منها:

١- **عن عبد الرزَّاقِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال:** «كان سفيانُ الثوري عندنا ليلةً، قال: وسمعتُ قَرَأ القرآنَ من الليلِ وهو نائمٌ، ثمَّ قام يُصلي، فقضىٰ جُزأه من الصلاةِ، ثمَّ قَعَدَ، فجعل يقول: الأعمشُ، والأعمشُ، والأعمشُ، ومنصور، ومنصور، ومنصور، ومغيرة، ومغيرة، ومغيرة، قال: فقلتُ له: يا أبا عبد الله، ما هذا؟ قال: هذا جُزئي من الصلاةِ، وهذا جزئي من الحديثِ.

وعن جعفر المراغي قال: دخلتُ مقبرةً بِتُسْتَرَ، فسمعتُ صائحًا يصيحُ: والأعمشُ، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، والأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، ساعةً طويلةً، فكنتُ أطلبُ الصوتَ، إلىٰ أن رأيتُ ابنَ زهيرٍ، وهو يَدرُسُ مع نفسِهِ من حفظِهِ حديثَ الأعمشِ»(٢).

٢- **وقال أبو العرب:** «حدثني أبي: أحمدُ بنُ تميمٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنَّهم ربَّما وجدوا

---

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (١/ ١٠١).

(٢) «الجامع» للخطيب (٢/ ٢٦٥).

فِي آخرِ بعضِ كُتُبِ عباسِ بن الفارسي: دَرَستُهُ أَلفَ مَرَّةٍ».

٣- **فِي ترجمةِ أبي محمد عبد الله بن إسحاق المعروف بابنِ التَّبَّانِ، إمامِ الفقهاءِ الراسخين:** «أخذَ عن ابن اللَّبَّادِ وغيرِهِ، دَرَسَ (المُدَوَّنَةَ) نحوَ الألفِ مرَّة».

٤- **وفِي ترجمة الإمام الفقيهِ المالكيِّ المحدِّثِ أبي بكرٍ الأَبْهَرِي قولُهُ:** «قرأتُ مختصَر ابنِ عبدِ الحكمِ خمسمئةِ مرة، والأَسَدِيَّةَ خمسًا وسبعين مرة، والموطَّأ خمسًا وأربعين مرة، ومختصَرَ البرقي سبعين مرة، والمبسوطَ ثلاثين مرة».

٥- **وفِي ترجمة الحافظِ المحدِّثِ أبي بكر غالب بن عبد الرحمن بن عطية، قال ابن بَشْكُوَال:** «كان حافظًا للحديثِ وطُرُقِهِ وعِلَلِهِ، عارفًا بأسماءِ رجالِهِ ونَقَلَتِهِ، منسوبًا إلىٰ فهمِهِ، ذاكرًا لمتونِهِ ومعانيه، أديبًا شاعرًا لُغَويًّا، دَيِّنًا فاضلاً، قرأتُ بخطِّ بعضِ أصحابنا أَنَّه سَمِعَ أبا بكرِ بنَ عطية يذكرُ أَنَّه كَرَّرَ البخاريَّ سَبعمئةِ مرة».

٦- **وفي ترجمةِ ابن السنوسيِّ قال:** «قرأتُ صحيحَ البخاري نحو مئة وعشرين مرة».

٧- **وقال الحافظُ السخاويُّ:** «حكىٰ الحافظُ الذهبيُّ، عن الحافظِ شرف الدين أبي الحسن اليُونِيني أَنَّه سَمِعَهُ يقول: إنَّه قابل نسختَهُ من صحيحِ البخاري، وأسمَعَهُ فِي سنةٍ: إحدىٰ عَشْرَةَ مرة».

٨- **وفي ترجمة سليمان بن إبراهيم العَلَوي:** «أنَّه أتىٰ علىٰ البخاري نحوًا من مئتين وثمانين مرة، قراءةً وإسماعًا، وإقراءً»[1].

(١) راجع تفصيل هذه الأخبارِ الثمانيةِ وتوثيقها بمصادرها في «صفحات من صبر العلماء» (ص١٩٧).

وفِي «طبقاتِ الشافعيةِ الكبرىٰ» فِي ترجمةِ أبي إسحاقِ الشيرازيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولقد كان اشتغالُهُ أوَّلَ طلبِهِ أمرًا عُجابًا، وعملاً دائمًا، يقول مَن شاهده: عجبًا لهذا القلبِ والكبدِ كيف ما ذابَا؟!

وقال أبو إسحاق: كنتُ أُعِيدُ كلَّ قياسٍ ألفَ مرَّةٍ، فإذا فرغتُ منه أخذتُ قياسًا آخر -وهكذا- وكنتُ أعيد كلَّ درسٍ ألفَ مرَّةٍ، فإذا كان في المسألةِ بيتٌ يُستَشهد به، حفظتُ القصيدةَ»(١).

وفيها أيضًا في ترجمةِ الإمام إِلكِيَا الهَرَّاسي: «هو أجلُّ تلامذةِ إمام الحرمين بعد الغَزَالي، قال: كانت في مدرسةِ سَرْهَنْك بنيسابور قناةٌ لها سبعون درجةً، وكنتُ إذا حفظتُ الدرسَ أنزلُ القناةَ وأُعيدُ الدرسَ في كلِّ درجةٍ مرَّةً في الصعودِ والنزولِ، قال: وكذا كنتُ أفعلُ في كلِّ درسٍ حفِظتُه.

وفي بعض الكتب -كالمنتظمِ وغيره من مصادرِ ترجمتهِ- أنَّه كان يكرِّرُ الدرسَ علىٰ كلِّ مَرقَاةٍ من مَرَاقِي دَرَجِ المدرسةِ النظامية بنيسابور سبعَ مراتٍ، وأنَّ المراقيَ كانت سبعين مرقاة»(٢).

وقال الإمامُ النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قَرَأ الحافظُ السمرقندي علىٰ الإمام أبي الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسي «صحيح مسلم» نَيِّفًا وثلاثين مرة، وقرأه عليه أبو سعيد البحيري نَيِّفًا وعشرين مَرَّة»(٣).

---

(١) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» للسبكي (٤/ ٢١٨).

(٢) «طبقات الشافعية الكبرىٰ» للسبكي (٧/ ٢٣٢).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١/ ٩).

قال الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قيل لبعضهم: بِمَ أدركتَ العلمَ؟ قال: بالمصباحِ والجلوسِ إلىٰ الصباحِ، وقيل لآخر: فقال: بالسفرِ والسَّهرِ والبُكُورِ في السَّحَرِ.

واعلم أنَّ للحفظِ ساعاتٍ ينبغي لَمن أراد التَّحَفُّظَ أن يراعيَها، وللحفظِ أماكِنَ ينبغي للمتحفِّظِ أن يلزمَهَا، فأجودُ الأوقاتِ الأسحارُ، ثمَّ بعدها وقتُ انتصافِ النَّهارِ، وبعدها الغَدَواتُ دون العَشِيَّاتِ، وحفظُ الليل أصلحُ من حفظِ النَّهارِ»(١).

وللعلماءِ عنايةٌ بالغةٌ بالحفظِ والأسبابِ المعينةِ عليه، والحالاتِ الدافعةِ إليه، وما يؤثِّرُ فيه قوةً وضعفًا من الأزمنةِ والأمكنةِ والمطاعمِ وحالاتِ النفسِ وما يعرِضُ لها.

يقول الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأجودُ أوقاتِ الحفظِ الأسحارُ، ثمَّ بعدها وقتُ انتصاف النَّهارِ، وبعدها الغَدَواتُ دون العَشِيَّاتِ، وحفظُ الليلِ أصلحُ من حفظِ النَّهارِ.

وأجودُ أماكنِ الحفظِ الغرَفُ دون السفْلِ، وكلُّ موضعٍ بعيدٍ ممَّا يُلهي، وخلا القلبُ فيه ممَّا يفزعه فيشغله، أو يغلب عليه فيمنعه، وليس بالمحمودِ أن يتحفَّظَ الرجلُ بحضرةِ النباتِ والخضرةِ ولا علىٰ شطوطِ الأنهارِ ولا علىٰ قوارعِ الطُّرُقِ؛ فليس يعدِمُ في هذه المواضِعِ -غالبًا- ما يمنعُ من خُلُوِّ القلبِ وصفاءِ الذهنِ.

وأوقاتُ الجوعِ أحمدُ للتحفُّظِ من أوقاتِ الشِّبَعِ، وينبغي للمتحفِّظِ أن يتفقَّدَ من نفسِهِ حالَ الجوعِ، فإنَّ بعضَ النَّاسِ إذا أصابَهُ شِدَّةُ الجوعِ والتهابُهُ لم يحفظ، فليطفئ ذلك عن نفسِهِ بالشيءِ الخفيفِ اليسيرِ.

---

(١) «الفقيه والمتفقه» للخطيب (٢/ ١٠٣).

وقال الأصمعيُّ: وَعَظَ أعرابيٌّ أخًا له فقال: يا أخي، إنَّك طالبٌ ومطلوبٌ، فبادرِ الموتَ، واحذر الفوتَ، وخُذ من الدنيا ما يكفيك، ودع منها ما يُطغيك، وإيَّاكَ والبِطْنَةَ فإنَّها تُعمي عن الفِطنَةِ»[١].

وبالتكرارِ بعد الحفظِ يترَسَّخُ المحفوظُ ترسُّخًا مؤكَّدًا.

قال ابنُ الجوزيِّ: «حكىٰ الحَسَنُ أنَّ فقيهًا أعادَ الدرسَ في بيتِهِ مرارًا كثيرةً، فقالت له عجوزٌ في بيتِهِ: قَد والله حفظتُه أنا، فقال: أعيديه، فأعادتُه، فلمَّا كان بعد أيامٍ، قال: يا عجوزُ أعيدي ذلك الدَّرسَ، فقالت: ما أحفظُهُ، قال: أنا أُكَرِّرُ لئلَّا يصيبني ما أصابك»[٢].

وينبغي للطالبِ أن يبدأ في دروسِهِ وحفظِهِ ومذاكرتِهِ بالأهمِّ فالأهمِّ، فأولُ ما يبتدئُ به القرآن العظيم، وكان علماؤُنا لا يعلِّمون الحديثَ والفقهَ إلا لِمَن حفظَ القرآنَ، فإذا حفظه فليحذر من الاشتغالِ عنه بالحديثِ والفقهِ وغيرِهِمَا اشتغالًا يؤدِّي إلىٰ نسيانِ شيءٍ منه[٣].

وقد أرشد النبيُّ ﷺ إلىٰ تعاهُدِ المحفوظِ، ونبَّه علىٰ ذهابِ المحفوظِ بإهمالِهِ ذهابًا ماحقًا؛ كما تذهبُ الإبلُ التي لا يتعاهدها صاحبُها شَذَرَ مَذَرَ، فقال ﷺ فيما

(١) «الفقيه والمتفقه» للخطيب (٢/ ١٠٤).

(٢) «الحث علىٰ حفظ العلم وذكر كبار الحفاظ» لابن الجوزي، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم (ص٣٥).

(٣) «آداب المتعلم والعالم» د. علي محيي الدين القرة داغي (ص٥٤).

أخرجه الشيخان من حديث أبي موسىٰ رضي الله عنه: «**تَعَاهَدُوا هذَا القُرآنَ فَوَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإِبِلِ فِي عُقُلِهَا**»[1].

وأخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**إِنَّما مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإِبِلِ المُعَقَّلَةِ، إِن عَاهَدَ عَلَيهَا أَمسَكَهَا، وإِن أَطلَقَهَا ذَهَبَت**»[2].

تَعَاهَدُوا القرآنَ: جدِّدوا عَهْدَهُ بملازمةِ تلاوتِهِ لئلا تنسوه، وواظبوا عليه بالتلاوةِ والحفظِ.

عُقُلها: جمعُ عقالٍ وهو الحبلُ، العقال مثل كتابٍ وكُتُبٍ، يقال: عَقَلْتُ البعيرَ أعقله عَقْلاً وهو أن تثنيَ وظيفَهُ مع ذراعِهِ فتشُدَّهُمَا جميعًا في وسطِ الذراعِ، وذلك الحبلُ هو العِقَالُ.

الإبلُ المعقَّلَةُ: المشدودةُ بِعِقَالٍ، أي: حبل.

إن عاهَدَ عليها أمسكها: أي: احتفظ بها ولازمها، أمسكها: أي: استمرَّ إمساكُهُ لها.

وإن أطلقها ذهبت: أي: انفلتت، وخصَّ الإبلَ بالذِّكرِ لأنَّها أشدُّ الحيوانِ الأهلي نفورًا، والطريقُ في هذا كلِّه مبنيٌّ علىٰ الإخلاصِ وتصحيحِ النيَّةِ، وقد مرَّ قولُ ابن عباسٍ رضي الله عنهما: «يحفَظُ الرَّجُلُ عَلَىٰ قَدرِ نيَّتِهِ» فالإخلاصُ للعلم والاحتراقُ به ووجدانُ اللَّذَّةِ فِي الإقبالِ عليه، كلُّ ذلك داعيةٌ لرسوخِهِ فِي النفسِ، وثبوته فِي القلب.

(١) رواه البخاري (٤٧٤٦)، ومسلم (٧٩١).

(٢) رواه البخاري (٤٧٤٣)، ومسلم (٧٨٩).

وقد قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي منسوبةٌ للزمخشري أيضًا:

سَــهَري لتَنْقِـيحِ العُلُـومِ أَلَـذُّ لـي ... مِـن وَصْـلِ غَانِـيَةٍ وَطِـيبِ عِـنَاقِ
وَتَمَايُلـي طَـرَبًا لِحَـلِّ عَوِيـصَةٍ ... أشـهَىٰ وَأحلَـىٰ مِـن مُدَامَـةِ سَـاقِ
وَصَـرِيرُ أَقلامِـي عَلَـىٰ أورَاقِهَـا ... أَحلَـىٰ مِـنَ الـدَّوكَاءِ وَالعُـشَّاقِ(١)
وَأَلَـذُّ مِـن نَقْـرِ الفَـتَاةِ لِـدُفِّهَا ... نَقْـرِي لأُلقِـي الـرَّملَ عَـن أَورَاقِـي
يَـا مَـن يُحَـاوِلُ بالأَمَانِـي رُتْبَتِـي ... كَـم بَـينَ مُـستَفِلٍ وآخَـرَ رَاقِـي
أَأَبِـيتُ سَـهرَانَ الدُّجَـىٰ وَتَبِيـتُهُ ... نَـومًا وَتَبغِـي بَعـدَ ذَاكَ لَحَاقِـي؟!

❊ ❊ ❊

(١) الدَّوْكَاءُ: الحَجَرُ الذي يُسحقُ به الطِّيبُ، والمرادُ بالدوكاءِ والعشاقِ هنا: مقاماتٌ من المقاماتِ الغنائية العراقية «آداب المتعلم والعالم» (ص٥٥).

١٠- مُرَاعَاةُ آدَابِ الاستفَادَةِ والتَّحصِيلِ

علىٰ طالبِ العلمِ أن يُمَيِّزَ في نفسهِ تمييزًا واضحًا فَرْقَ ما بينه وبين شيخهِ، وأن يُوقنَ بأنَّه من حيثُ هو طالبٌ هو في مقامِ الطَّالِبِ لا يعلو عليه، وأنَّ شيخَه من حيث هو شيخُه في مقامِ الأستاذ لا ينزلُ عنه.

وذلك لأنَّ اختلاطَ الحدودِ في هذا الأمرِ لا يأتي منه خيرٌ، وإسقاطُ الكَلَفَةِ بين الشيخِ ومَن يتعلَّمون منه مَدعَاةٌ لعدمِ استفادتِهم منه شيئًا.

وقد أمر الله المؤمنين بالتزام هذا الأدبِ مع مربِّيهم وقائدِهم ﷺ فقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ [النور:٦٣].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الضَّحَّاكُ عن ابن عباسٍ: كانوا يقولون: يا محمَّدُ، يا أبا القاسمِ، فنهاهم الله عَزَّ وَجَلَّ عن ذلك إعظامًا لنبيِّه ﷺ، فقال: قولوا: يا نبيَّ الله، يا رسول الله».

وهكذا قال مجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ، وقال قتادةُ: أمرَ الله أن يُهَاب نبيُّه ﷺ، وأن يُبَجَّلَ وأن يُعَظَّمَ وأن يُسَوَّدَ.

وقال مقاتلٌ في قولهِ تعالىٰ: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗا﴾ يقول: لا تُسَمُّوه إذا دعوتموه يا محمَّدُ، ولا تقولوا: يابنَ عبدِ الله، ولكن شَرِّفُوه فقولوا: يا نبيَّ الله، يا رسولَ الله.

وقال مالكٌ عن زيد بن أسلم في قولِه تعالىٰ: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ قال: أمرهم اللهُ أن يُشَرِّفُوه، هذا قولٌ وهو الظاهرُ من السِّيَاقِ»[١].

وفَرْقٌ بين أن يتواضعَ الشيخُ لتلميذِهِ، وأن يتخطَّىٰ التلميذُ حدودَ وقارٍ تلزمُهُ ولا تنفكُّ عنه، وقد كان الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحبُّ الربيعَ بن سليمان، حتَّىٰ إنَّ الربيعَ قال: دخلتُ علىٰ الشافعي -وهو مريضٌ- فقلتُ له: قَوَّىٰ الله ضَعْفَكَ.

قال: لَو قَوَّىٰ ضَعفِي: قَتَلَني.

فقلتُ: والله؛ ما أردتُ إلا الخيرَ.

قال: أعلَمُ أنَّكَ لَو شَتَمتَني، لَم تُرِد إلا الخَيرَ.

ويحكي أبو يعلىٰ عن الشافعيِّ: أنَّه علَّمه فقال: قل: قَوَّىٰ الله قُوَّتَكَ، وضَعَّفَ ضَعفَكَ»[٢].

ومع هذا الإقبالِ من الشافعي علىٰ الربيعِ، ومع هذه المحبةِ له، فإنَّ الربيعَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: «والله ما اجترأتُ أن أشربَ الماءَ والشافعيُّ ينظرُ إليَّ هيبةً له»[٣].

ومن آدابِ الاستفادةِ والتحصيلِ: أن يهتمَّ الطالبُ بتسجيلِ الفوائدِ التي تَعِنُّ له، وذلك بأن يصاحبَهُ دائمًا قلمٌ ودفترٌ؛ ليكتب كلَّ فائدةٍ يسمعُها، أو يستنبطُها هو من خلالِ درسِهِ واستذكارِهِ، فقد قيل: العلمُ صيدٌ، والكتابةُ قيدٌ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٣٠٦).

(٢) «آداب الشافعي ومناقبه » للرازي (ص٢٧٤).

(٣) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص٨٨).

بل في ذلك أمرُ رسولِ اللهِ ﷺ الذي رواه عنه أنسُ بن مالكٍ، وعبد الله بنُ عمروٍ، وعبدُ الله بنُ عباسٍ رضي الله عنهم: «**قَيِّدُوا العِلمَ بالكِتَابِ**»، وهو حديثٌ صحيحٌ، تجد طُرُقَهُ والكلامَ عنه مستوفًى في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٠٢٦)، وصحَّحه فِي «صحيح الجامع» (٤٣١٠).

وقد بوَّبَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللهُ **في صحيحه**: باب كتابة العلم، وقال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «طريقة البخاريِّ في الأحكامِ التي يقعُ فيها الاختلافُ ألَّا يجزمَ فيها بشيءٍ، بل يوردُها علىٰ الاحتمالِ، وهذه الترجمةُ من ذلك؛ لأنَّ السَّلَفَ اختلفوا في ذلك عملاً وتركًا، وإن كان الأمرُ استقرَّ والإجماعُ انعقدَ علىٰ جوازِ كتابةِ العلمِ، بل علىٰ استحبابِه، بل لا يَبعُدُ وجوبُهُ علىٰ مَن خَشِيَ النسيانَ ممَّن يتعيَّن عليه تبليغُ العلمِ»[1].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قال العلماءُ: كَرِهَ جماعةٌ من الصحابةِ والتابعين كتابةَ الحديثِ، واستحبُّوا أن يُؤخَذَ عنهم حفظًا كما أخذوا حفظًا، لكن لمَّا قصرت الهممُ وخشي الأئمةُ ضياعَ العلمِ دوَّنُوه، وأولُ مَن دَوَّن الحديثَ ابنُ شهابٍ الزهريُّ علىٰ رأسِ المئة بأمرِ عمرَ بن عبدِ العزيز، ثمَّ كَثُرَ التدوينُ ثمَّ التصنيفُ، وحصل بذلك خيرٌ كثيرٌ، فللَّه الحمدُ»[2].

وقال الشاعرُ وقد أحسنَ:

لا يُدرِكُ العِلمَ إلا كُلُّ مُشتَغِلٍ ... بالعِلمِ هِمَّتُهُ القِرطَاسُ والقَلَمُ

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٤٦).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٥١).

فينبغي لطالبِ العلم أن يجتهدَ في كتابةِ الفوائدِ التي يسمعُها أو تعرِضُ له، فإنَّ في ذلك تثبيتًا لمحفوظِهِ، وحفظًا لعلمِهِ، ثمَّ إنَّه:

إذَا لَـم يَكُـن عَـونٌ مِـنَ الله للفتـىٰ فَـأَوَّلُ مَـا يَجْنِـي عَلَـيه اجـتِهَادُهُ

ومن آدابِ الاستفادةِ والتحصيل: أن يتَّخذَ طالبُ العلمِ صاحبًا جادًّا يُعينه علىٰ شأنِهِ إذا أقبلَ عليه، ويذكِّره به إن أدبرَ عنه، وفي المقابلِ عليه أن يجتنبَ الصديقَ السَّيِّئَ أو الكسلانَ.

أخرجَ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن عمرَ** رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ **قال**: «كُنتُ أنَا وجَارٌ لي مِنَ الأنصَارِ مِن بَني أُمَيَّةَ بن زَيدٍ -وهي مِن عَوَالِي المَدينَةِ- وَكُنَّا نتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ، يَنزِلُ يومًا وَأنزِلُ يومًا، فَإذَا نَزَلتُ جئتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ اليَومِ مِنَ الوَحي وغَيرِهِ، وإذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثلَ ذَلكَ»(١).

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ: «وجَارٌ لِي»، هذا الجارُ هو عِتبانُ بنُ مالكٍ، أفاده القسطلاني، ولكن لم يذكر دليلَهُ.

قولُه: «فِي بَنِي أُمَيَّةَ»؛ أي: ناحيةِ بني أميةَ، سُمِّيت البقعةُ باسمِ مَن نَزَلَهَا»(٢).

واختيارُ الصديقِ الصدوقِ توفيقٌ من الله تعالىٰ ومنَّةٌ، وقليلٌ ما هم، وإنا لله وإنا إليه راجعونَ.

وَاحْـذَرْ مُـصَاحَبَةَ اللَّئِـيمِ فَإنَّـهُ يُعدِي كَمَا يُعدِي الصَّحيحَ الأجرَبُ

---

(١) رواه البخاري (٨٩).

(٢) «فتح الباري» (١/ ٢٢٣).

وَإِذَا الـصَّدِيقُ لَقِيـتَهُ مُـتَمَلِّقًا فَهُـوَ العَـدُوُّ وَحَقُّـهُ يُتَجَـنَّبُ
لا خَيـرَ فِـي وُدِّ امـرِئٍ مُـتمَلِّقٍ حُلـوِ اللِّـسَانِ وقَلـبُهُ يَـتَلَهَّبُ
يَلقَـاكَ يَحْلِـفُ أَنَّـهُ بِـكَ وَاثِـقٌ وَإِذَا تَـوَارَىٰ عَـنْكَ فَهـوُ العَقْـرَبُ
يُعطِيكَ مِـن طَـرَفِ اللِّـسَانِ حَـلاوَةً ويَـرُوغُ مِـنكَ كَمَـا يَـرُوغُ الـثَّعْلَبُ

وقد أسلفتُ القولَ بحول الله وقوتِهِ عن «ترك العشرة ما أمكن واتخاذ الصاحب والرفيق» في باب «آداب طالب العلم» فلا حاجَةَ إلىٰ العودةِ بالإطالةِ بذكره هنا، والله المستعانُ.

ومن آدابِ الاستفادةِ والتحصيلِ: التفرُّغُ الكاملُ للعلمِ، وتركُ الهمومِ، إذ الهمومُ من الأمراضِ الفتَّاكةِ القاتلةِ لذكاءِ الإنسانِ وفطنته، وقد قال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: لا تُشَاوِرْ مَن ليس في بيتِهِ دقيقٌ؛ فإنَّه مُولَهُ العقلِ.

ومن آدابِ الاستفادةِ والتحصيل: النشاطُ في مراجعةِ الدروسِ، والإقبالُ عليها، وقد كان أبو يوسف رَحِمَهُ اللَّهُ يُنَاظِرُ الفقهاءَ وهو جائعٌ خمسةَ أيامٍ، وكان الإمامُ إِلْكِيَا الهَرَّاسيُّ يراجع درسَه تسعين مرةً.

❊ ❊ ❊

هذه سبيلُ علمائنا فِي طلبِ العلمِ، وهذه طرائقهم فِي تلقِّيه ودرسِه، وهَاكَ مثالاً لطريقتهم فِي تعلُّمِ علمِ الحديثِ، وكيف كانوا يسيرون فِي التعليمِ علىٰ طرائقَ مسنونةٍ، ويتَّبعون سُبُلاً قويمةً، ويسلكون دُرُوبًا مستقيمةً.

قال القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّ لدرسِ الحديثِ ثلاثةَ طُرُقٍ عند العلماءِ:

أولها: السَّردُ: وهو أن يتلوَ الشيخُ المُسمِعُ أو القارئُ كتابًا من كُتبِ الفَنِّ، من دون تعرُّضٍ لمباحِثِه اللغويةِ والفقهيةِ، وأسماءِ الرجالِ ونحوها.

وثانيها: طريقُ الحلِّ والبحثِ: وهو أن يتوقَّفَ بعدَ تلاوةِ الحديثِ الواحدِ مثلاً علىٰ لفظِهِ الغريبِ، وتراكيبِهِ العويصةِ، واسمٍ قليلِ الوقوعِ من أسماءِ الإسنادِ، وسؤالٍ ظاهرِ الورودِ، والمسألةِ المنصوص عليها، ويحلُّه بكلامٍ متوسطٍ، ثمَّ يستمرُّ في قراءةِ ما بعدها.

وثالثها: طريقُ الإمعانِ: وهو أن يذكرَ علىٰ كلِّ كلمةٍ ما لَهَا وما عليها، كما يذكرُ مثلاً علىٰ كلِّ كلمَةٍ غريبةٍ، وتراكيبَ عويصةٍ، شواهدَها من كلامِ الشعراءِ، وأخواتِ تلك الكلمةِ، وتراكيبها في الاشتقاقِ، ومواضع استعمالاتها، وفي أسماءِ الرجال حالاتِ قبائلهم وسِيَرَهم، ويخرِّجُ المسائلَ الفقهيةَ علىٰ المسائلِ المنصوصِ عليها، ويقصُّ القصصَ العجيبةَ، والحكاياتِ الغريبةَ، بأدنىٰ مناسبةٍ وما أشبهها.

فهذه الطُّرُقُ هي المنقولةُ عن علماءِ الحرمين قديمًا وحديثًا»[(١)].

وعلىٰ الجملةِ: فإنَّه ما استُعين علىٰ العلمِ بمثلِ تقوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، والورعِ وأكلِ الحلالِ، واجتنابِ المعاصي، وهجرِ الذنوبِ، وطرحِ الحولِ والقوةِ، وكثرةِ الإنابةِ، وإدامةِ الذِّكْرِ.

قال الزرنوجيُّ: «وصَّىٰ فقيهٌ من زهَّادِ الفقهاءِ طالبَ علمٍ فقال له: عليكَ أن

---

(١) «قواعد التحديث» للقاسمي (ص٢٣٥).

تتحرَّزَ عن الغيبةِ وعن مجالسةِ المكثارِ، وقال: إنَّ من يكثرُ الكلامَ يسرقُ عمرَكَ ويضيِّعُ أوقاتَك.

ومن الورعِ أن تجتنبَ أهلَ الفسادِ والمعاصي والتعطيلِ، وتجاور الصلحاءَ، فإنَّ المجاورَةَ مؤثِّرةٌ لا محالةَ، وأن تجلسَ مستقبِلاً القِبْلَةَ، وتكونَ مستنًّا بسنَّةِ النبيِّ ﷺ، وتغتنم دعاءَ أهلِ الخيرِ، وتحترزَ عن دعاءِ المظلومين»[1].

* * *

(١) «تعليم المتعلم» للزرنوجي (ص٥٢).

باب: آفَاتِ العِلمِ(١)

لَمَّا كَانَ العلمُ عبادةَ القلبِ، وسرَّ حياتِهِ، وموطنَ قوتِهِ، كانت للشيطانِ فيه مَدَاخِلُ لا يُحصيها إلا اللهُ تعالىٰ؛ منها ما يُفسِدُ القصدَ والإرادةَ، ومنها ما يُفسدُ سبيلَ الطَّلبِ، ومنها ما يُفسِدُ العلمَ ذاتَه علىٰ صاحبهِ، والناجي مَن عَصَمَهُ الله تعالىٰ.

ومن حكمة الله أن جعلَ دونَ الشيءِ النَّفِيسِ عقباتٍ تتحطَّمُ دونها الأهواءُ، فلا يَخلُصُ إليه إلا مَن جَاهَدَ وصَبَرَ.

والعلمُ أَنْفَسُ ما يحرصُ عليه مَن للجنَّةِ في قلبهِ قَدرٌ، وللآخرةِ من عملِهِ نصيبٌ.

قال أبو حامد -عفا الله عنه- في «إحيائه» (١/ ١٣): «أعظمُ الأشياء رتبةً في حقِّ الآدميِّ: السعادةُ الأبديةُ، وأفضلُ الأشياءِ ما هو وسيلةٌ إليها، ولن يُتَوَصَّلَ إليها إلا بالعلمِ والعملِ، ولا يُتَوَصَّلُ إلىٰ العملِ إلا بالعلمِ بكيفيَّةِ العملِ، فأصلُ

---

(١) أفردتُ بحول الله وقوتهِ -لا حولَ ولا قوةَ إلا به- هذا البابَ بكتابٍ برأسِهِ بعنوان: «آفات العلم»، فيه بسطٌ لهذا الموضوعِ فوق الإيجازِ الذي هنا، فلينظر فيه مَن شاء -إن شاء الله تعالىٰ-، ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقد أخرج الدارميُّ في سُنَنه عن حكيم بن جابرٍ قال: قال عبد الله بن مسعود ﷺ: «إنَّ لكلِّ شيءٍ آفةً، وآفةُ العلمِ النسيانُ».

فللعلمِ آفاتٌ تصيبُهُ، لا آفاتٌ تنتجُ عنه.

السعادةِ في الدنيا والآخرةِ هو العلمُ فهو -إذن- أفضلُ الأعمالِ».

والجنةُ محفوفةٌ بالمكارِهِ والمشاقِّ، وما وَصَّلَ إليها من قولٍ أو عملٍ محفوفٌ أيضًا بما تكرهُهُ النفسُ الأمارةُ بالسوءِ، حافلٌ بما لها يَسُوءُ.

والعملُ الصالحُ مَشَقَّتُهُ ليست فيه من حيثُ هو، وإنَّما في تخليصهِ وتنقيتِهِ ممَّا يفسدُهُ علىٰ عامِلِهِ ومبتغيه، وهذا أشقُّ ما يلقاه العاملُ في عملِهِ.

ولَمَّا كانت مداخلُ الشيطانِ في العملِ تتفاوتُ علىٰ مقدارِ فضلهِ وقَدرِ ثمرتِهِ، كانت مداخلُ الشيطانِ في العلمِ أكثرَ من أن تُحصىٰ وأبَعدَ من أن تُستقصىٰ، إذ العلمُ هو أفضلُ الأعمالِ قاطبةً.

فسبيلُ العلمِ محفوفةٌ بالمكارِهِ والمشاقِّ، ومداخلُ الشيطان فيه لا يُحصيها إلا اللهُ تعالىٰ؛ لذلك ينبغي لطالبِ العلمِ أن يلتفتَ إلىٰ دَرسِ الآفاتِ التي تعرِضُ للعلمِ فتفسدُهُ، أو تفسدُ سبيلَ الطلبِ علىٰ طالبِهِ، أو تفسِدُ القصدَ والإرادةَ والنيَّةَ فيه، حتَّىٰ لا يُلِمَّ بشيءٍ منها، ولا يُلِمَّ شيءٌ منها به.

والحقُّ أنَّ كثيرًا من هذه الآفاتِ قد نَفَّرَ الشرعُ منه، ورغَّبَ الدينُ عنه، علىٰ إطلاقٍ.

وإنَّما ازدَادَ تنفيرُ الشرعِ منه، وعَظُمَ ترغيبُ الدينِ منه لتعلُّقِهِ بالعلمِ، والعلمُ هو ما هو في دين الله ربِّ العالمين، هو عصمةٌ من هذه الأدواءِ، فكيف إذا أصبحَ عينَ الداءِ؟وهو حاجزٌ عن الوقوعِ في مثلِ هذه الأهواءِ، فكيف إذا اتُّخِذَ مطيَّةً للبلاءِ؟!

والحقُّ أيضًا أنَّ هذه الآفاتِ ما هي إلا نتيجةٌ مباشرةٌ لِفَقْدِ آدابِ الطَّلَبِ، وكلَّما أَوغَلَ الطالبُ فِي سبيل سلوكِهِ ومناحي طلبِهِ، وهو فاقدٌ لأدبٍ من آدابِ العلمِ تأصَّلت فيه آفةٌ من آفاتِهِ، وتشعبَّت في شِعَابِ ضميره وثنايا نفسِهِ نقيصةٌ من نقائِصِهِ.

فعلىٰ المعلِّمين في بدايةِ التعليمِ، وعلىٰ المتعلِّمين في بدايةِ الطلب، أن يلتفتوا إلىٰ «آدابِ طلبِ العلم» وأن يحرصوا علىٰ تحصيلِها والتخلُّقِ بها، فهي عصمةٌ من آفاتِ العلم إن شاء الله تعالىٰ.

وإليك أسوقُ بيانَ بعضِ تلك الآفاتِ، وبعضَ ما وَرَدَ في التحذيرِ منها، وأسألُ الله العظيمَ أن يُطَهِّرني وإياك منها ظاهرًا وباطنًا، إنَّه علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ.

❊ ❊ ❊

١- تَعَلُّم العِلمِ لِغَيرِ وَجهِ الله تَعالَى

ذَمَّ الله تعالىٰ مَن أرادَ بعملِهِ غيرَ وجهِهِ الكريمِ، وبيَّنَ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابِهِ العزيزِ أنَّه لا ثوابَ له عنده، وأنَّه يَكِلُهُ للذي أشركَ، والله ﷻ طيِّبٌ لا يقبلُ من العمل إلا ما كان طيِّبًا وأُريدَ به وجهُهُ الكريمُ.

قال تعالىٰ: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ١٨ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

قال القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: مَنْ كَانَ طلبُهُ الدنيا العاجلةَ، ولها يعمل ويسعىٰ، وإياها يبتغي، لا يُوقن بمعادٍ ولا يرجو ثوابًا ولا عقابًا من ربِّه علىٰ عملِهِ، عجَّلنا له فيها ما نشاءُ لمن نريدُ؛ أي: ما نشاؤُهُ من بسطِ الدنيا عليه أو تقتيرها لمن أرادَ الله أن يفعلَ به ذلك، أو من إهلاكِهِ بما يشاء تعالىٰ من عقوباتِهِ المعجَّلَةِ، ثمَّ يَصلَىٰ جهنَّم في الآخرةِ مذمومًا علىٰ قِلَّةِ شكرِهِ لمولاه، وسوء صنيعِهِ فيما سَلَفَ له، مدحورًا مطرودًا من الرحمةِ، مُبعَدًا مَقْصِيًّا في النَّارِ.

ومن أراد الآخرةَ وإيَّاها طَلَبَ، ولها عَمِلَ عملَها الذي هو طاعةُ الله وما يرضيه عنه، فأولئك كان عملُهم مشكورًا بحُسنِ الجزاءِ»[(١)].

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٦/ ٤٥٢).

وتأمَّل قولَه تعالىٰ: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾، ما نشاءُ نحن لا ما يشاءُ هو، لمن نريدُ لا لمن يريدُ.

وقال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [الشورىٰ:٢٠].

قال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾، أي: أجرَهَا وثوابَهَا، فآمنَ بها وصَدَّقَ، وسعىٰ لها سعيها، ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾، بأن نضاعفَ عملَهُ وجزاءَهُ، أضعافًا كثيرةً، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ [الإسراء:١٩]، ومع ذلك، فنصيبُهُ من الدنيا، لابُدَّ أن يأتيَهُ.

﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾ بأن كانت الدنيا هي مقصودَهُ، وغايةَ مطلوبِهِ، فلم يُقَدِّمْ لآخرتِهِ، ولا رجا ثوابَهَا، ولم يخش عقابَهَا ﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ نصيبَهُ الذي قُسِمَ له ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ قد حُرِمَ الجنَّةَ ونعيمَهَا، واستحقَّ النَّارَ، وجحيمَهَا»[(١)].

عن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**قَالَ الله -تبَارَكَ وتعَالَىٰ-: أنا أغنىٰ الشُّرَكاءِ عن الشِّرْكِ مَن عَمِلَ عَمَلاً أشرَكَ فيهِ مَعِي غَيري تَركتُهُ وشِركَهُ**» رواه مسلم (٢٩٨٢)، وفي رواية ابن ماجه: «**فَأَنَا مِنهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ للَّذِي أَشرَكَ**» رواه ابن ماجه (٤٢٠٢)، وقال البوصيري: إسنادُهُ صحيحٌ، رجالُهُ ثقاتٌ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٤٠٩).

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٧٠٢).

وعن أبي سَعدِ بن أبي فَضَالَةَ الأنصاريِّ ﷺ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، قَالَ: قالَ رَسُولُ اللهﷺ: «**إذَا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ، يومَ القِيَامَةِ، لِيَومٍ لا رَيبَ فِيهِ، نَادَىٰ مُنَادٍ: مَن كَانَ أَشرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِله، فَليَطْلُب ثَوَابَهُ مِن عِندِ غَيرِ الله، فإنَّ الله أَغنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّركِ**» رواه ابن ماجه (٤٢٠٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في صحيح سنن ابن ماجه (٢/ ٤١٠).

وعَن زَيدِ بنِ ثَابِتٍ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهﷺ يَقُولُ : «**مَن كَانَتِ الدُّنيَا هَمَّهُ، فَرَّقَ الله عَلَيهِ أمرَهُ، وجَعَلَ فقرَهُ بَينَ عَينَيهِ، وَلَم يَأتِهِ مِنَ الدُّنيَا إلا مَا كُتِبَ لَهُ، وَمن كَانَتِ الآخرَةُ نيَّتَهُ، جَمَعَ اللهُ لَهُ أمرَهُ، وجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلبِهِ، وأَتَتهُ الدُّنيَا وهِيَ راغِمَةٌ**» أخرجه ابن ماجه (٤١٠٥)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢/ ٣٩٣)، وقال في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٠): هذا إسنادٌ صحيحٌ، رجالُهُ ثقاتٌ، كما قال البوصيري في «الزوائد».

وقد ذمَّ الله تعالىٰ الرِّيَاءَ في كتابِهِ فقال: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون:٤-٧].

وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف:١١٠].

وحذَّرَ النبيُّ ﷺ من الرياءِ تحذيرًا شديدًا، وممَّا وَرَدَ في ذلك قولُهُ ﷺ فيما أخرجه الشيخانِ عن جُندُبٍ ﷺ يرفَعُهُ قَالَ: «**مَن سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ، ومَن يُرائي يُرائي الله به**»(١).

(١) رواه البخاري (٦١٣٤)، ومسلم (٢٩٨٧).

وفِي «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ١١٣): «اعلم أنَّ الرياءَ مشتقٌّ من الرؤيةِ، والسُّمعَةُ مشتقَّةٌ من السَّمَاعِ.

وإنَّما الرياءُ أصلُهُ طلبُ المنزلةِ فِي قلوبِ الناسِ بإيرائهم خصالَ الخيرِ، إلا أنَّ الجاهَ والمنزلَةَ تُطلب في القلبِ بأعمالٍ سوىٰ العباداتِ، وتُطلبُ بالعباداتِ.

واسمُ الرياءِ مخصوصٌ بحكمِ العادةِ بطلبِ المنزلةِ في القلوبِ بالعباداتِ وإظهارِها.

فالمرائي هو العابِدُ، والمراءَىٰ هو النَّاسُ المطلوب رؤيتهم بطلب المنزلةِ في قلوبهم، والمراءَىٰ به هو الخصالُ التي قصدَ المرائي إظهارَها، والرياءُ هو قصدُهُ إظهار ذلك».

وقال الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي لِمَنِ اتَّسَعَ وقتُه وأصلحَ الله له جسمَهُ، وحَبَّبَ إليه الخروجَ عن طبقةِ الجاهلين، وألقىٰ في قلبِهِ العزيمةَ علىٰ التفقُّهِ في الدينِ أن يغتنمَ المبادرةَ إلىٰ ذلك خوفًا من حدوثِ أمرٍ يقطعه عنه، وتجدُّدِ حالٍ تمنعه منه.

وليستَعمِلِ الجِدَّ في أمرِهِ، وإخلاصَ النيةِ في قصدِهِ، والرغبةَ إلىٰ اللهِ في أن يرزقَهُ علمًا يوفِّقه فيه، ويعيذَه من علمٍ لا ينتفعُ به.

وليَحذَر أن يكونَ قصدُهُ فيما يطلبُ: المجادَلَةَ به، والمماراةَ فيه، وصرفَ الهممِ إليه، وأخذَ الأعواضِ عليه»(١).

وقد وردت أحاديثُ رسولِ الله ﷺ تَحُضُّ علىٰ الإخلاصِ لله تعالىٰ في طَلَبِ

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٨٧).

العلمِ، وترشدُ إلىٰ إرادةِ وجهِ الله تعالىٰ بتعلُّمِهِ، وتحذِّرُ من ابتغاءِ غيرِ وجه الله تعالىٰ بطلبِهِ.

ففي حديثِ أبي هريرةَ ﷺ الطويلِ الذي يرفعُهُ إلىٰ النبيِّ ﷺ: «...**ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وعَلَّمَهُ، وقَرَأ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ، فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمتُ العِلمَ وعَلَّمتُهُ، وَقَرَأتُ فِيكَ القُرآنَ، قَالَ: كَذَبتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرأتَ القُرآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجهِهِ حَتَّىٰ أُلقِيَ فِي النَّارِ...**» الحديث[1].

ذَكَرَ الرسولُ ﷺ في هذا الحديثِ: الغازي والعالِمَ والجوادَ الذين يُراؤون بأعمالهم، ولا يبتغون بها وجْهَ الله تعالىٰ.

وقال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ في شرحِ الحديث: «قولُهُ ﷺ في الغازي والعالِمِ والجوادِ وعقابِهم علىٰ فعلِهم ذلك لغيرِ وجهِ الله، وإدخالِهم النَّارَ، دليلٌ علىٰ تغليظِ تحريمِ الرياءِ وشدَّةِ عقوبتِهِ، وعلىٰ الحثِّ علىٰ وجوبِ الإخلاصِ في الأعمالِ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥]، وفيه أنَّ العموماتِ في فضلِ الجهادِ إنَّما هي لمن أرادَ الله تعالىٰ بذلك مخلصًا، وكذلك الثناء علىٰ العلماءِ، وعلىٰ المنفقين في وجوهِ الخيرِ، كلُّه محمولٌ علىٰ مَن فَعَلَ ذلك لله تعالىٰ مُخلِصًا»[2].

(١) رواه مسلم (١٩٠٥).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٣/ ٥٠).

فَتَعَلُّمُ العلمِ لغيرِ وجه الله تعالىٰ، ابتغاءً لشهرةٍ فارغةٍ، وطَلَبًا لشهوةٍ عاجلةٍ، وسعيًا وراءَ تقديرٍ يصيرُ إلىٰ عَدَمٍ، وعدَوًا خَلفَ فَرَحٍ يَئولُ إلىٰ نَدَمٍ، كلُّ ذلك ممَّا يُدخِلُ في دائرةِ الوعيدِ، وينظِمُ في سِلكِ التحريمِ الشديدِ.

وعن كَعبِ بن مَالِك ﵁ قالَ: سَمِعتُ رَسُولَ الله ﷺ يقولُ: «**مَن طَلَبَ العِلمَ ليُجَارِيَ بِهِ العُلَمَاءَ،أَو ليُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَو يَصرفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إليه، أدخلَهُ الله النَّارَ**» رواه الترمذي(٢٦٥٤)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٣٧)، وابنُ أبي الدنيا في «كتاب الصمت» (١٤١)، والحديثُ صحَّحه الألبانيُّ أيضًا في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٦).

قال القاضي أبو بكر بن العربيِّ ﵀: «قد يكون العلمُ هلاكًا علىٰ صاحبِهِ إذا طَلَبَهُ لغيرِ وجهِ الله، والمعنىٰ في الحديثِ أنَّ النيَّةَ هي ركن العملِ أو شرطُهُ الذي لا يُعتَدُّ به إلا بها، فإذا عُدِمَت لم يكن شيئًا، فإذا أُفسِدَت فسَدَ الهوىٰ، ويكون فسادُهُ علىٰ قَدرِ مُفسدِهِ، فإن أرادَ مجاراةَ العلماءِ دخل في بابِ الحسدِ للظهورِ والمباهاةِ علىٰ الأقرانِ فقَلَبَ ما للآخرةِ للدنيا، وإن أرادَ مماراةَ السفهاءِ فهو مثلُهُم، وإن أرادَ صَرفَ وجوهِ الناسِ ليكتسبَ الحُطَامَ فقد باعَ دينَهُ بعَرَضٍ من الدنيا، فهو عاصٍ فاسقٌ تحت رجاءِ الخاتمة في الموتِ علىٰ الشهادةِ، فيكون في المشيئةِ، أو في تزعزعِ العقيدةِ يضعفها عند الموتِ وقوَّةِ الفتنةِ، أو ذهابِها فيكون من أصحابِ النَّارِ»[1].

(١) «عارضة الأحوذي» لابن العربي المالكي (١٠/ ١٢١).

وعن أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَن تَعَلَّمَ عِلمًا مما يُبتغَىٰ بهِ وجهَ الله، لا يَتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصيبَ به عَرَضًا من الدُّنيَا، لم يَجد عَرْفَ الجنَّةِ يومَ القِيَامَةِ**» يعني: ريحَهَا.

رواه أبو داود (٣٦٦٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤١٢)، وابن ماجه (٢٥٢)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٧)، والحاكم (١/ ٨٥)، وقال: حديثٌ صحيحٌ، سنده ثقاتٌ، رواته علىٰ شرط الشيخين. ووافقه الذهبي.

قال محمد فؤاد عبد الباقي رَحِمَهُ اللهُ: «عَرَضًا»، أي: متاعًا، و «ممَّا يُبتَغَىٰ به وَجهُ الله»، بيانٌ للعلمِ، الذي يُطلَبُ به رضا الله، وهو العلمُ الدينيُّ، فلو طَلَبَ الدنيا بعلمِ الفلسفةِ ونحوه فهو غير داخلٍ في أهلِ هذا الوعيدِ»[1].

قلتُ: وينبغي أن يُقَيَّدَ هذا الكلامُ بما إذا كان العلمُ في ذاتِهِ مشروعًا غير ممنوعٍ، وأمَّا إذا كان العلمُ الذي تُبتَغَىٰ به الدنيا محظورًا، فالوعيدُ محيطٌ بِمَن طَلَبَ الدنيا به، وإن كانَ ممَّا لا يُبتغىٰ به وَجهُ الله.

وعن جابرٍ ﷺ، قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا تَعَلَّمُوا العِلمَ لِتُبَاهُوا بِهِ العُلَمَاءَ، ولا تُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، ولا تَخَيَّرُوا بِهِ المَجَالِسَ، فَمَن فَعَلَ ذَلِكَ فالنَّارُ النَّارُ**» أخرجه ابن ماجه (٢٥٤)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨)، وابن حبان (٧٦)، والحاكم (١/ ٨٦)، وذكره المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٢٩)،

(١) سنن ابن ماجه، تحقيق وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي (١/ ٩٣).

وقال: رواه ابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، والبيهقي، كلُّهم من رواية يحيىٰ بن أيوب الغافقي عن ابن جريج عن أبي الزبير عنه، ويحيىٰ هذا ثقةٌ احتجَّ به الشيخان وغيرهما، ولا يُلتفت إلىٰ مَن شَذَّ فيه».

قال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧): «ومن هذا الوجهِ أخرجه الحاكمُ أيضًا (١/ ٨٦)، وابن عبد البر (١/ ١٨٧)، وصحَّحه الحاكم ووافقه الذهبيُّ، وصحَّحه أيضًا الحافظ العراقي (١/ ٥٢)، وهو كما قالوا إن سَلِمَ من الانقطاعِ، فإنَّ ابنَ جريجٍ وشيخَه أبا الزبير مدلِّسان معروفان بذلك، وقد عنعناه غيرَ أنَّ الحديث صحيحٌ علىٰ كلِّ حالٍ، فإنَّ له شواهدَ في البابِ يتقوَّىٰ بها، وتتقوَّىٰ به».

وقولُه ﷺ: «**لا تَعَلَّموا**» أي: لا تتعلَّموا، بحذف إحدىٰ التاءَين، و«لا تَخَيَّروا» أي: لا تختاروا به خيارَ المجالسِ وصدورَها، «فالنَّارُ» أي: فلَهُ النَّار، أو فيستحق النَّارَ، و«النَّار» مرفوعٌ علىٰ الأولِ، منصوبٌ علىٰ الثاني[1].

وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما، قالَ: قالَ رسُولَ الله ﷺ: «**مَن طَلَبَ العِلمَ لِيُمَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، أَو لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، أَوْ لِيَصْرِفَ وُجُوهَ النَّاسِ إِلَيهِ فَهُوَ فِي النَّارِ**» رواه ابن ماجه (٢٥٣)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٨).

قال الأستاذُ محمد فؤاد عبد الباقي رَحِمَهُ اللَّهُ في «سنن ابن ماجه» (١/ ٩٣): «في الزوائد: إسنادُهُ ضعيفٌ لضعفِ حمادٍ وأبي كَرِبٍ».

والحديثُ صحَّحه الألبانيُّ فِي «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧).

(١) سنن ابن ماجه (١/ ٩٣).

وعن أبي هُرَيرَة ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَن تَعَلَّمَ العِلمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، وَيُجَارِيَ بِهِ السُّفَهَاءَ، وَيَصرِفَ بِهِ وُجوهَ النَّاسِ إليه؛ أدخَلَهُ الله جَهَنَّمَ**» رواه ابن ماجه (٢٦٠)، وحسَّنه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨)، وصحَّحه في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٧).

وروىٰ عبدُ الرزَّاقِ في «مصَّنفِهِ» (١١/ ٣٦٠) موقوفًا، عن سليمِ بن قيسٍ الحنظليِّ[١] قالَ: خَطَبَ عُمَرُ فقالَ: «إنَّ أخوَفَ مَا أتَخَوَّفُ عَلَيكُم بَعدِي: أَن يُؤخَذَ الرَّجُلُ مِنكُمُ البَرِيءُ فَيُؤشَرَ كَمَا يُؤشَرُ الجَزُورُ، وَيُشَاطُ لَحمُهُ كَمَا يُشَاطُ لَحمُهَا، وَيُقَالُ:عَاصٍ، وَلَيس بِعَاصٍ، قالَ: فَقَالَ عَلِيٌّ وَهُوَ تَحتَ المنبرِ: وَمَتَىٰ ذلكَ يا أميرَ المؤمنينَ؟! أَوَ بِمَا تَشتَدُّ البَلِيَّةُ، وتَظْهَرُ الحَمِيَّةُ، وتُسْبَىٰ الذُّرِّيَّةُ، وتَدُقُّهُمُ الفِتَنُ كَمَا تَدُقُّ الرَّحا ثِفْلَهَا، وَكَمَا تَدُقُّ النَّارُ الحَطَبَ؟ قَالَ: وَمَتَىٰ ذِلكَ يَا عَلِيُّ؟ قَالَ: إذَا تُفُقِّهَ لِغَيرِ الدِّينِ، وَتُعُلِّمَ لِغَيرِ العَمَلِ، والتُمِسَت الدُّنيَا بِعَمَلِ الآخرةِ» رواه الحاكم أيضًا من طريقِ «المصنَّف» وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٤٨).

غريبُ الحديثِ:

يُؤشَرُ: يُنشَرُ، يُقَالُ: أَشَرْتُ الخَشَبَةَ أَشْرًا، وَوَشَرْتُهَا وَشْرًا، إذَا شققتُهَا؛ مثلُ: نَشَرتُهَا نَشْرًا.

الجَزُورُ: النَّاقَةُ المجزُورَةُ، والجمعُ جَزَائِرُ وجُزُرٌ، وجُزُرَاتٌ جمعُ الجمعِ؛

(١) **قال الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي**: هو عندي سليم بن قيسٍ العامري، ذكره أبو حاتم مرَّةً منسوبًا إلىٰ أبيه، وأخرىٰ غير منسوبٍ، وذكره البخاريُّ أيضًا غير منسوبٍ إلىٰ أبيه ونَسَبَهُ عامريًّا، وقد حَرَّف ناشرو المستدرك فأثبتوا: أبان بن سليم. «مصنف عبد الرزاق» (١١/ ٣٦٠).

كطُرُقٍ وطُرُقاتٍ. والجزورُ يقعُ علىٰ الذَّكَرِ والأنثىٰ، وهو يُؤَنَّثُ لأنَّ اللفظةَ مُؤَنَّثةٌ، فقول: هذه الجزورُ، وإن أردتَ ذَكَرًا.

يُشَاطُ: شَيَّطَ فلانٌ اللَّحمَ إذا دَخَّنَهُ ولم يُنضِجهُ، والتشييطُ: لَحمٌ يُصلَحُ للقومِ ويُشوَىٰ لهم.

الثِّفَالُ: بالكسرِ، الجلدُ الذي يُبسَطُ تحت رَحَىٰ اليَدِ ليقيَ الطحينَ من الترابِ.

والمعنىٰ: أنَّها تدُقُّهُم دَقَّ الرَّحَىٰ إذا كانت مُثَفَّلَةً، ولا تُثَفَّلُ إلا عند الطَّحنِ.

قال الشيخُ محمد خليل هرَّاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ: إذا تُفُقِّهَ لغَيرِ الدِّينِ» أي: إذا تعلَّمَ النَّاسُ الفقهَ لا من أجلِ العلمِ به وتعليمِهِ، ولكن لأجلِ الحصولِ علىٰ مناصبِ الفُتيَا والقضاء والتَّزَلُّفِ إلىٰ الأمراءِ»(١).

وعن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قالَ: «كَيفَ بِكُم إذَا لَبِسَتكُم فِتنَةٌ، يَربُو فِيهَا الصَّغِيرُ، ويَهرَمُ فِيهَا الكبيرُ، وتُتَّخَذُ سُنَّةً، فَإن غُيِّرَت يومًا قِيلَ: هذا مُنكرٌ! قيلَ: وَمَتَىٰ ذِلكَ؟ قالَ: إذَا قَلَّت أُمنَاؤُكُم، وكَثُرَتْ أُمَرَاؤُكم، وقَلَّت فُقَهَاؤُكُم، وكَثُرَتْ قُرَّاؤُكم، وَتُفُقِّهَ لِغَيرِ الدِّينِ والتُمِسَتِ الدُّنيَا بِعَمَلِ الآخرَةِ» رواه الدارميُّ (١/ ٧٥-٧٦) وصحَّحَ الألبانِيُّ إسنادَ الدارميِّ في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٤٨)، ورواه عبد الرزاق في مصنَّفه (١١/ ٣٥٩)، موقوفًا علىٰ عبد الله بإسنادٍ منقطعٍ.

تفسيرُ الغريبِ(٢):

---

(١) «الترغيب والترهيب» للمنذري (١/ ١٣١).

(٢) انظر: «الترغيب والترهيب» تعليق الشيخ محمد خليل هراس (١/ ١٣١).

لَبِسَتْكُم فِتنَةٌ: يعني: غشيتكم وأحاطت بكم كما يحيطُ الثوبُ بلابِسِه.

يَربُو: يزيدُ وينمو.

يَهرَمُ: يُقال: هَرِمَ يَهرَمُ من بابِ تَعِبَ، إذا شاخَ وتقدَّمت به السِّنُّ.

تُتَّخَذُ سُنَّةً: أي: طريقةً مُتَّبَعَةً ومنهجًا مسلوكًا.

هذَا مُنكَرٌ: أي: مَعِيبٌ قبيحٌ.

فُقَهَاؤُكُم: جمعُ فقيهٍ وهو المشتغلُ بفهمِ النصوصِ.

قُرَّاؤُكُم: الذين يُحسنون القراءةَ تجويدًا وأداءً.

«**التُمِسَتِ الدُّنْيَا بعَمَلِ الآخرَةِ**» يعني: جُعِلَ الدينُ وسيلةً إلىٰ تحصيلِ الدنيا، وقد قيل لبعضِ السَّلَفِ: مَن السِّفْلَةُ؟ قال: الذين يأكلون الدنيا بالدِّين».

وينبغي أن يُعلَمَ أنَّ طَلَبَ الدنيا بالآخرةِ عقوبةٌ في الدنيا عاجلةٌ، ومَحقٌ لبَرَكَةِ العمرِ وذهابٌ لخيرِه، وفي الآخرةِ عذابٌ شديدٌ وعقابٌ أليمٌ.

قال الحسنُ: «عقوبُة العالِمِ: موتُ القلبِ، قيل له: وما موتُ القلبِ؟ قال: طَلَبُ الدنيا بعملِ الآخرةِ».

وقال جعفرُ بن محمدٍ: «إذا رأيتُم العالِمَ محبًّا لدنياه، فاتهموه علىٰ دينكم؛ فإن كلَّ مُحِبٍّ لشيءٍ يحوطُ ما أحبُّ».

وقال سفيانُ الثوريُّ: «إنَّما يُتعَلَّمُ العلمُ ليُتَّقَىٰ به الله، وإنَّما فُضِّلَ العلمُ علىٰ

غيرهِ لأنَّه يُتَّقَىٰ به الله، وقال أيضًا: زَيِّنُوا العلمَ ولا تَزَيَّنُوا به»[١].

فالعلمُ مفتاح العملِ ورائدُهُ، وهو الأصلُ الذي يُبنىٰ عليه، فينبغي أن تَخلُصَ فيه النيَّةُ لله تعالىٰ، حتىٰ يزكوَ فيثمرَ عملاً علىٰ رجاءِ القبولِ، وعلىٰ رجاءِ الثوابِ.

* * *

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ١٩١).

٢- كِتْمَانُ العِلمِ

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أخبر تعالىٰ أنَّ الذي يكتُمُ ما أنزلَ من البيِّنَاتِ والهُدَىٰ ملعونٌ.

واختلفوا في المرادِ بذلك، فقيل: أحبارُ اليهودِ ورُهْبَانُ النَّصارىٰ الذين كتموا أمرَ محمَّدٍ ﷺ، وقد كَتَمَ اليهودُ أمرَ الرَّجمِ.

وقيل: المرادُ كلُّ مَن كَتَمَ الحقَّ، فهي عامَّةٌ في كلِّ من كَتَمَ علمًا من دين الله يُحتاجُ إلىٰ بثِّهِ»[(١)].

وقال في «**عمدة التفسير**» (**١/ ٢٧٩**): «هذا وعيدٌ شديدٌ لمن كَتَمَ ما جاءت به الرُّسُلُ من الدَّلالاتِ البيِّنة علىٰ المقاصدِ الصحيحةِ والهدىٰ النافعِ للقلوبِ، من بعدِ ما بيَّنه الله تعالىٰ لعبادِهِ في كُتُبِهِ التي أنزلها علىٰ رُسُلِهِ.

قال أبو العاليةِ: نزلت في أهلِ الكتابِ، كتموا صفةَ محمَّدٍ ﷺ، ثمَّ أخبر أنَّهم يلعنُهُم كلُّ شيءٍ علىٰ صنيعهم ذلك، فكما أنَّ العالِمَ يستغفر له كلُّ شيءٍ حتىٰ الحوتُ في الماءِ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٢/ ١٨٩).

والطيرُ في الهواءِ، فهؤلاءِ بخلافِ العلماءِ، فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون.

وجاء في هذه الآيةِ أنَّ كاتمَ العلمِ يلعنُهُ الله والملائكةُ والنَّاسُ أجمعون، واللاعنون أيضًا هم كلُّ فصيحٍ وأعجميٍّ، إمَّا بلسانِ المقالِ أو الحالِ، أَوْ لو كان له عقلٌ، أو يوم القيامةِ، والله أعلم.

ثمَّ استثنىٰ الله تعالىٰ من هؤلاء مَن تاب إليه فقالَ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ أي: رجعوا عمَّا كانوا فيه، وأصلحوا أعمالهم وبيَّنوا للنَّاسِ ما كانوا كتموه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وفي هذا دَلالةٌ علىٰ أنَّ الداعيةَ إلىٰ كفرٍ أو بدعةٍ إذا تابَ إلىٰ الله تابَ الله عليه، وقد وَرَدَ أنَّ الأممَ السابقةَ لم تكن التوبةُ تُقْبَلُ من مِثلِ هؤلاء منهم، ولكنَّ هذا من شريعةِ نَبيِّ التوبةِ ونبيِّ الرحمةِ، صلواتُ الله وسلامُهُ عليه».

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآيةُ، وإن كانت نازلةً في أهلِ الكتابِ، وما كتموا من شأنِ الرسولِ ﷺ وصفاتِهِ، فإنَّ حكمَها عامٌّ لكلِّ مَنِ اتَّصفَ بكتمانِ ما أنزلَ الله ﴿مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾، الدَّالاتِ علىٰ الحقِّ المظهراتِ له، ﴿وَٱلۡهُدَىٰ﴾ وهو العلمُ الذي تحصلُ به الهدايةُ إلىٰ الصراطِ المستقيمِ، ويَتَبَيَّنُ به طريقُ أهلِ النعيمِ من طريقِ أهلِ الجحيمِ، فإنَّ الله أخذَ الميثاقَ علىٰ أهلِ العلمِ بأن يبيِّنوا للنَّاسِ ما مَنَّ الله به عليهم من علمِ الكتابِ ولا يكتموه.

فمَن نبَذَ ذلك وجمع بين المفسدتين: كَتمِ ما أنزلَ الله، والغِشِّ لعبادِ الله، فأولئك ﴿يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي: يبعدُهم ويطردُهم عن قُربِهِ ورحمتِهِ، ﴿وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ﴾ وهم جميع الخليقةِ، فتقعُ عليهم اللعنَةُ من جميعِ الخليقةِ لسعيهم في غِشِّ الخلقِ

وفسادِ أديانهم وإبعادِهم من رحمةِ الله، فَجُوزُوا من جنسِ عملهم، كما أنَّ مُعَلِّمَ النَّاسِ الخيرَ يصلِّي الله عليه وملائكتُه حتىٰ الحوتُ في الماءِ لسعيه في مصالحِ الخلقِ، وإصلاح أديانهم، وقربهم من رحمة الله، فجُوزيَ من جنسِ عملِهِ، فالكاتمُ لما أنزل الله مضادٌّ لأمر الله مشاقٌّ لله، يُبَيِّنُ الله الآياتِ للنَّاسِ ويوضِّحها، وهذا يسعىٰ في طمسِها وإخفائها، فهذا عليه هذا الوعيدُ الشديدُ.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ﴾، أي: رجعوا عمَّا هم عليه من الذنوبِ، ندمًا وإقلاعًا، وعزمًا علىٰ عدمِ المعاودَةِ، ﴿وَأَصْلَحُواْ﴾ ما فَسَدَ من أعمالهم، فلا يكفي تركُ القبيحِ حتَّىٰ يحصلَ فعلُ الحَسَنِ، ولا يكفي ذلك في الكاتمِ أيضًا حتىٰ يُبَيِّنَ ما كَتَمَهُ ويُبدي ضدَّ ما أخفَىٰ، فهذا يتوبُ الله عليه لأنَّ توبةَ الله غير محجوبٍ عنها، فمَن أتىٰ بسببِ التوبةِ تابَ الله عليه؛ لأنَّه ﴿ٱلتَّوَّابُ﴾، أي: الرَّجَّاعُ علىٰ عبادِهِ بالعفوِ والصفحِ بعد الذنبِ إذا تابوا، وبالإحسانِ والنِّعَمِ بعد المنعِ إذا رجعوا، ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الذي اتَّصفَ بالرحمةِ العظيمةِ التي وَسِعَتْ كلَّ شيءٍ»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۙ أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٧٤-١٧٥].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٥٩).

ٱلْكِتَٰبِ﴾ الآيةَ، هذه الآيةُ وإن كانت في الأحبارِ، فإنها تتناولُ من المسلمين مَن كَتَمَ الحقَّ مختارًا لذلك بسبب دنيا يصيبها»(١).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «هذا وعيدٌ شديدٌ لمن كَتَمَ ما أنزلَ الله علىٰ رسلِهِ، من العلمِ الذي أخذ الله الميثاقَ علىٰ أهلِهِ أن يبيِّنُوه للناسِ ولا يكتموه، فَمَن تعوَّضَ عنه بالحُطَامِ الدنيويِّ، ونَبَذَ أمرَ الله، فأولئكَ: ﴿مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ﴾؛ لأنَّ هذا الثمنَ الذي اكتسبوه إنَّما حَصَلَ لهم بأقبحِ المكاسِبِ وأعظمِ المحرماتِ، فكان جزاؤُكم من جنسِ عملهم.

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، بل قد سَخِطَ عليهم، وأعرَضَ عنهم، فهذا أعظمُ عليهم من عذابِ النَّارِ، ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾ أي: لا يطهِّرهم من الأخلاقِ الرذيلةِ، وليس لهم أعمالٌ تصلحُ للمدحِ والرِّضا والجزاءِ عليها، وإنَّما لم يزكِّهم لأنَّهم فعلوا أسبابَ عدمِ التزكيةِ التي أعظمُ أسبابِها العملُ بكتابِ الله والاهتداءُ به والدعوةُ إليه، فهؤلاء نبذوا كتابَ الله وأعرضوا عنه واختاروا الضلالةَ علىٰ الهدىٰ والعذابَ علىٰ المغفرةِ، فهؤلاءِ لا يصلُحُ لهم إلا النَّار، فكيف يصبرون عليها؟ وأنَّىٰ لهم الجَلَدُ عليها؟»(٢).

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران:١٨٧].

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ٢٣٩).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٦٥).

قال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا توبيخٌ من الله وتهديدٌ لأهلِ الكتابِ الذين أخذَ الله عليهم العهدَ علىٰ ألسنةِ الأنبياءِ أن يؤمنوا بمحمَّدٍ ﷺ، وأن ينوِّهوا بذكرهِ في النَّاسِ فيكونوا علىٰ أُهْبَةٍ من أمرِهِ، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وتعوَّضوا عمَّا وُعدوا عليه من الخيرِ في الدنيا والآخرةِ بالدُّونِ الطفيفِ، والحظِّ الدنيويِّ السخيفِ، فبئست الصفقةُ صفقتهم، وبئست البيعةُ بيعتهم.

وفي هذا تحذيرٌ للعلماءِ أن يسلكوا مَسْلكَهم فيصيبَهم ما أصابهم، ويُسلَكَ بهم مَسْلَكهم، فعلىٰ العلماءِ أن يبذلوا ما بأيديهم من العلم النافعِ، الدَّالِّ علىٰ العملِ الصالحِ، ولا يكتموا منه شيئًا»(١).

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا متصلٌ بذكرِ اليهودِ؛ فإنهم أُمِروا بالإيمانِ بمحمدٍ ﷺ وبيانِ أمرِهِ، فكتموا نعتَه، فالآيةُ توبيخٌ لهم، ثمَّ مع ذلك هو خبرٌ عامٌّ لهم ولغيرِهم.

قال الحسنُ وقتادةُ: هي في كلِّ مَن أُوتِيَ علمَ شيءٍ من الكتابِ، فَمَن عَلِمَ شيئًا فليُعَلِّمه، وإيَّاكم وكتمانَ العلمِ فإنَّه هَلَكَةٌ.

وقال محمد بن كعبٍ: لا يحلُّ لعالِمٍ أن يسكتَ علىٰ علمِهِ، ولا للجاهلِ أن يسكتَ علىٰ جهلِهِ»(٢).

وقال تعالىٰ مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٦٧].

(١) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٤٣٦).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٤/ ٣١٣).

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابنُ عباسٍ: المعنىٰ: بلِّغ جميعَ ما أُنزل إليك من ربِّك، فإن كتمتَ شيئًا منه فما بلَّغت رسالَته؛ وهذا تأديبٌ للنبيِّ ﷺ، وتأديبٌ لحملَةِ العلمِ من أمَّتِهِ، ألا يكتموا شيئًا من أمرِ شريعتِهِ، وقد عَلِمَ الله تعالىٰ من أمر نبيِّه أنَّه لا يكتمُ شيئًا من وحيه»[1].

أخرج مسلمٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسنده عن مسروقٍ عن عائشةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: «مَن زَعَمَ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَتمَ شيئًا مِن كِتَابِ الله فَقَد أعظَمَ عَلَىٰ الله الفِريَةَ، والله يقولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾»[2].

وأخرجَ البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن مَسرُوقٍ عَن عائشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قَالَت: «مَن حَدَّثَك أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَتمَ شَيئًا مِن الوَحي فَلا تُصَدِّقهُ، إنَّ الله تَعَالَىٰ يَقُولُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ﴾»[3].

وكان تطبيقُ الصحابةِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ لهذه الأوامرِ الربانيَّةِ مَثَارَ الإعجابِ والتقديرِ، فقد أخرج البخاريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندهِ عن أبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قالَ: «إنَّ النَّاسَ يَقُولُونَ: أَكثَرَ أبُو هُرَيرَةَ، ولَولا آيتَانِ فِي كِتَابِ الله مَا حَدَّثْتُ حديثًا، ثُمَّ يَتْلُو: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنَا

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٦/ ٢٣٠).

(٢) رواه مسلم (١٧٧).

(٣) رواه البخاري (٤٣٣٦).

ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:١٥٩-١٦٠]»[1].

وأخرج البخاريُّ تعليقًا مجزومًا به عن أبي ذرٍّ ﵁ قال: «لَو وَضَعتُم الصَّمْصَامَةَ عَلَىٰ هذِهِ -وأشارَ إلَىٰ قَفَاه- ثُمَّ ظَنَنتُ أَنِّي أُنفِذُ كَلِمَةً سَمِعتُها مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَبلَ أن تُجيزوا عَلَيَّ لأنفَذتُهَا»[2].

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قوله: «وقال أبو ذرٍّ... »إلخ هذا التعليقُ رويناه موصولًا فِي «مسند الدارمي»، وغيره، من طريقِ الأوزاعي، حدثني أبو كثيرٍ -يعني: مالكَ بنَ مرثدٍ- عن أبيه قال: أتيتُ أبا ذرٍّ وهو جالسٌ عند الجمرةِ الوسطىٰ، وقد اجتمع عليه النَّاسُ يستفتونه، فأتاه رجلٌ فوقف عليه ثمَّ قال: أَلَم تُنْهَ عن الفُتيا؟ فرفع رأسه فقال: أرقيبٌ أنت عليَّ؟ لو وضعتم... فذكر مثلَه.

ورويناه في «الحلية» من هذا الوجه، وبيَّن أنَّ الذي خاطبه رجلٌ من قريشٍ، وأنَّ الذي نهاه عن الفتيا عثمانُ ﵁.

وفيه دليلٌ علىٰ أنَّ أبا ذرٍّ كان لا يرىٰ بطاعةِ الإمام إذا نهاه عن الفُتيا؛ لأنَّه كان يرىٰ أنَّ ذلك واجبٌ عليه لأمرِ النبيِّ ﷺ بالتبليغِ عنه، ولعلَّه أيضًا سَمِعَ الوعيدَ في حقِّ مَن كَتَمَ علمًا يعلمه.

و«الصَّمصَامَةُ» -بمهملتين الأولىٰ مفتوحةٌ-: هو السيفُ الصارمُ الذي لا ينثني، وقيل: الذي له حَدٌّ واحدٌ.

---

(١) رواه البخاري (١١٨).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»، في كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل، صحيح البخاري (١/ ٣٨).

قولُهُ: «هَذِهِ» إشارةٌ إلىٰ القفا، وهو يذكَّرُ ويؤنَّثُ، و«أُنفِذُ» أي: أُمضي، و«تُجِيزُوا» -بضمِّ المثنَّاةِ وكسرِ الجيمِ وبعد الياءِ زايٌ- أي: تُكمِلُوا قتلي، ونكَّر «كَلِمَةً» ليشملَ القليلَ والكثيرَ، والمرادُ به: يبلِّغُ ما تحمَّلَهُ في كلِّ حالٍ ولا ينتهي عن ذلك ولو أشرفَ علىٰ القتلِ.

وفيه الحثُّ علىٰ تعليمِ العلمِ واحتمالِ المشقَّةِ فيه، والصبرِ علىٰ الأذىٰ طلبًا للثوابِ»[1].

وقد وردت الأحاديثُ تزجرُ عن كتمانِ العلمِ فمن ذلك:

عن أبي هريرةَ ﵁ قَالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «**مَن سُئلَ عَن عِلمٍ فَكتَمَهُ أُلجِمَ يَومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ من نَارٍ**» رواه أبو داود (٣٦٥٨)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤١١)، والترمذي (٢٦٤٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٣٦)، وابن ماجه (٢٦٦)، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٩).

وعن عبد الله بن عمرو ﵄ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: «**مَن كَتَمَ عِلمًا أَلْجَمَهُ اللهُ يَومَ القيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نَارٍ**» رواه ابن حبان (٩٦)، والحاكم(١/ ١٠٢)، وقال: «هذا إسنادٌ صحيحٌ من حديثِ المصريين علىٰ شرطِ الشيخين، وليس له علَّةٌ» ووافقه الذهبيُّ.

وقال الشيخ أحمد شاكر في تعليقه علىٰ «صحيح ابن حبان» (١/ ٢٥٧): «ونأخذُ

(١) «فتح الباري» (١/ ١٩٤).

عليهما -أي: الحاكم والذهبي- أنَّ عبد الله بن عَيَّاشٍ لم يخرج له البخاريُّ شيئًا، وإنَّما أخرج له مسلمٌ، فالحديثُ علىٰ شرطِهِ وحده، والحديثُ ذكره المنذريُّ في «الترغيب»، ونسبه لابن حبان والحاكم فقط، وذكره الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١/ ١٦٣)، وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، ورجالُهُ موثقون».

قال الخطَّابيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الممسِكُ عن الكلامِ مُمثَّلٌ بِمَن أَلجَمَ نفسَه، كما يقالُ التقيُّ مُلْجَمٌ(١)، وكقولِ النَّاسِ: كَلَّم فلانٌ فلانًا فاحتجَّ عليه بحجَّةٍ ألجمَته، أي: أسكتته».

والمعنىٰ: أنَّ الملجِمَ لسَانَه عن قولِ الحقِّ والإخبارِ عن العلمِ والإظهارِ له: يُعاقب في الآخرةِ بلجامٍ من نارٍ.

وخرج هذا علىٰ معنىٰ مشاكلةِ العقوبةِ للذنبِ ؛ كقولِهِ تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وهذا في العلمِ الذي يلزمه تعليمُهُ إيَّاه، ويتعيَّنُ عليه فرضُهُ؛ كمَن رأىٰ كافرًا يريد الإسلامَ، ويقولُ: علِّموني ما الإسلامُ، وما الدينُ؟ وكَمَن رأىٰ رجلاً حديثَ العهدِ بالإسلامِ لا يُحسِنُ الصلاةَ، وقد حَضَرَ وقتُها، يقول: علِّموني كيف أصلِّي، وكَمَن جاء مُستفتيًا في حلالٍ أو حرامٍ يقولُ: أفتوني، وأرشدوني، فإنَّه يلزم في مثل هذه الأمورِ ألَّا يُمنعوا الجوابَ عمَّا سألوا عنه من العلمِ، فَمَن فَعَلَ ذلك كان آثمًا مستحقًّا للوعيدِ والعقوبةِ(٢)، وليس كذلك الأمرُ في نوافلِ العلمِ التي لا ضرورةَ بالنَّاسِ إلىٰ معرفتِها.

(١) أي: تُلجمه تقواه، فهي له لجامٌ ممسكٌ عن الباطلِ واللَّغو.

(٢) **قال الشيخ حامد الفقي** رَحِمَهُ اللَّهُ **في تعليقه**: «وكذلك إذا عمَّ الناسَ الجهلُ، وغَلَبَت عليهم =

وسُئلَ الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن قولِه ﷺ: «طَلَبُ العلمِ فَريضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسلِمٍ»(١) **فقال:** «كلُّ عملٍ كان عليك فَرضًا فَطَلَبُ عِلْمِهِ عليك فَرضٌ، وما لم يكن العملُ به عليك فرضًا، فليس طلبُ علمِهِ عليك واجبًا»(٢).

وأخرج ابن عبد البرِّ بسنده عن سليمِ بن عامرٍ قال: «كان أبو أُمامة يحدِّثُنا فيُكثر، ثمَّ يقول: عَقَلتُم؟ فنقول: نعم، فيقول: بلِّغوا عنَّا فقد بلَّغناكم.

وعن ابن القاسمِ قالَ: كُنَّا إذا ودَّعنا مالكًا يقولُ لنا: اتَّقوا الله وانشروا هذا العِلمَ، وعلِّموه، ولا تكتموه»(٣).

ولكنَّ تبليغَ العلمِ إنَّما يكون لمن هو له أهلٌ، وأمَّا من ليس له بأهلٍ فيجوزُ كتمانُ العلمِ عنه.

=

الخرافاتُ والبدعُ والعقائدُ الفاسدة، والعاداتُ الخبيثةِ، كشأن الناس اليوم، فقد غلبت عليهم تقاليد الفرنجة وعقائد الكفرة وعاداتهم ومبادئهم الهادمة، للدين والخُلُقِ والكرامةِ؛ فإنَّ من أوجب الواجبِ علىٰ أهلِ العلمِ الموروثِ عن النبي ﷺ أن يبذلوا أقصىٰ جهدهم في نشره وتعليمه أهليهم وإخوانهم وعشيرتهم وأممهم، لعلَّ الله ينقذ النَّاسَ مما هم فيه من ضلال وغضب، والله المستعان وحده».

(١) **حديثٌ صحيحٌ**؛ أخرجه ابن ماجه عن أنسٍ رضي الله عنه (٢٢٤) وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٤).

(٢) «مختصر سنن أبي داود»، و«معالم السنن»، و«تهذيب ابن القيم»، تحقيق الشيخين أحمد شاكر، وحامد الفقي (٥/ ٢٥١).

(٣) «جامع بيان العلم» (١/ ١٢٣).

قال الشيخُ أحمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «تبليغُ العلمِ واجبٌ ولا يجوزُ كتمانُهُ، ولكنَّهم خصَّصوا ذلك بأهلِهِ، وأجازوا كتمانَهُ عمَّن لا يكون مستعِدًّا لأخذِهِ، وعمَّن يصرُّ علىٰ الخطأ بعد إخبارِهِ بالصوابِ.

سُئِلَ بعضُ العلماءِ عن شيءٍ من العلمِ فلم يُجِب، فقال السائلُ: «أمَا سَمِعتَ الحديثَ: «**مَن عَلِمَ عِلمًا فَكَتَمَهُ أُلجِمَ يَومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِن نَارٍ؟!**» فقالَ: اترك اللِّجَامَ واذهب، فإن جاء مَن يفقهُ، وكتمتُه، فَليُلجِمني به».

وقال بعضُهم: «تَصَفَّح طُلَّابَ علمِك، كما تتصفَّحَ طُلَّابَ حُرُمِكَ»[1].

* * *

(١) «الباعث الحثيث» (ص١٣٣).

٣- القَولُ عَلَى اللهِ بِلا عِلمٍ

القولُ علىٰ الله بلا علمٍ عينُ الكذبِ علىٰ الله تعالىٰ، ولم يُبِحِ الله ﷻ لأحدٍ أن يتقوَّلَ عليه، ولا أن يرفعَ إليه ما لم يَقُلْه، حتىٰ قال عن خليلِهِ وصفيِّهِ محمد ﷺ، وقد عَصَمَهُ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا﴾، أي: محمدٌ ﷺ لو كان كما يزعمون مفتريًا علينا فزاد في الرسالةِ أو نقصَ منها، أو قال شيئًا من عنده فنسبَهُ إلينا وليس كذلك، لعَاجَلْنَاه بالعقوبةِ، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾، قيل معناه: لانتقمنا منه باليمينِ لأنَّها أشدُّ في البطشِ، وقيل: لأخذنا منه بيمينه، ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾، قال ابنُ عباسٍ: هو نياطُ القلبِ، وهو العِرقُ الذي القَلبُ معلَّقٌ فيه.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾، أي: فما يقدرُ أحدٌ منكم علىٰ أن يحجزَ بيننا وبينه إذا أردنا به شيئًا من ذلك.

والمعنىٰ في هذا: بل هو صادقٌ بارٌّ راشدٌ؛ لأنَّ الله تعالىٰ مُقَرِّرٌ له يبلِّغُهُ عنه، ومُؤَيِّدٌ له بالمعجزاتِ الباهراتِ والدلالاتِ القاطعاتِ»(١).

وقال القاسميُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾، أي: ليس

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٤١٥).

أحدٌ منكم يحجزنا عنه، ويحولُ بيننا وبين عقوبتِهِ، لو تقوَّلَ علينا»[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾، ابتداءٌ وخبرٌ، أي: لا أحدَ أظلمُ، ﴿مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ﴾، أي: اختلقَ علىٰ الله كذبًا، ﴿أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾، فزعم أنَّه نبيٌّ، ﴿وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾.

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن هذا النَّمَطِ مَن أعرَضَ عن الفقهِ والسُّنَنِ وما كان عليه السَّلَفُ من السُّنَنِ، فيقول: وقَعَ في خاطري كذا، أو أخبرني قلبي بكذا، فيحكمون بما يقعُ في قلوبهم ويغلب عليهم من خواطِرِهم، ويزعمون أنَّ ذلك لصفائها من الأكدارِ وخُلُوِّهَا عن الأغيارِ، فتتجلَّىٰ لهم العلومُ الإلهيةُ والحقائقُ الربانيَّةُ، فيقفون علىٰ أسرارِ الكليَّاتِ ويعلمون أحكامَ الجزئياتِ فيستغنون بها عن أحكامِ الشرائعِ الكلياتِ، ويقولون: هذه الأحكامُ الشرعيةُ العامةُ، إنَّما يُحكَمُ بها علىٰ الأغبياءِ والعامَّةِ، وأمَّا الأولياءُ، وأهلُ الخصوصِ، فلا يحتاجون تلك النصوصَ»[(٢)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقول تعالىٰ لا أحدَ أعظمُ جُرمًا ممَّن كذَبَ علىٰ الله

(١) «محاسن التأويل» للقاسمي (٩/ ٣١٥).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٧/ ٤١).

بأن نَسَبَ إلىٰ الله قولاً أو حكمًا هو تعالىٰ بريءٌ منه، وإنَّما كان هذا أظلمَ الخَلقِ، لأنَّ فيه من الكذبِ وتغيير الأديانِ -أصولها وفروعها- ونسبة ذلك إلىٰ اللهِ تعالىٰ ما هو من أكبرِ المفاسدِ»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:١١٦-١١٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نهىٰ تعالىٰ عن سلوكِ سبيلِ المشركين الذين حلَّلوا وحرَّموا بمجرَّدِ ما وصفوه واصطلحوا عليه من الأسماءِ بآرائهم، ويدخل في هذا كلُّ من ابتدعَ بدعةً ليس له فيها مستندٌ شرعيٌّ، أو حَلَّلَ شيئًا ممَّا حرَّمَ الله، أو حَرَّمَ شيئًا ممَّا أباحَ الله بمجرَّدِ رأيه وتشهِّيه.

ثمَّ توعَّد علىٰ ذلك فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾، أي: في الدنيا وفي الآخرةِ، أمَّا في الدنيا فمتاعٌ قليلٌ، وأمَّا في الآخرةِ فلهم عذابٌ أليمٌ»(٢).

ويدخلُ في الكذب علىٰ الله تعالىٰ، والقولِ علىٰ الله بلا علمٍ، الكذبُ علىٰ رسولِهِ ﷺ؛ لأنَّ النبيَّ ﷺ لا ينطقُ عن الهوىٰ، وإنَّما هو مُبَلِّغٌ عن ربِّه سبحانه، فمَن كَذَبَ علىٰ النبيِّ ﷺ فقد كَذَبَ علىٰ الله تعالىٰ.

وقد حذَّر الرسولُ ﷺ من الكذبِ عليه وبيَّن أنَّ الكذبَ عليه ﷺ ليس كالكذبِ

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٢٢٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٥٩٠).

علىٰ غيرِهِ؛ لأنَّ الكذبَ عليهِ ﷺ يجعلُ دينًا ما ليس بدينٍ، وينفي عن الدينِ ما هو منه، ويحلُّ الحرامَ، ويحرِّم الحلالَ، وكفىٰ بذلك إثمًا مبينًا وإفكًا عظيمًا.

قالﷺ فيما يرويه عنه المغيرةُ بنُ شعبةَ ﷺ: «**إنَّ كَذِبًا علَيَّ لَيسَ ككَذِبٍ عَلَىٰ أحَدٍ، مَن كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ**» متفقٌ عليه[1].

«**ليس ككذبٍ علىٰ أحدٍ**»: لأنَّه كذبٌ في التشريعِ، وأثرُهُ عامٌّ علىٰ الأمَّةِ، فإثمُهُ أكبرُ وعقابُهُ أشدُّ «**فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ**»: فليتخذ لنفسِهِ مسكنًا[2].

وعن عليٍّ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**لا تَكذِبُوا عَلَيَّ فَإنَّهُ مَن يَكْذِبْ عَلَيَّ، فَلْيَلِجِ النَّارَ**»[3] متفقٌ عليه.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ: «**لا تَكذِبُوا عليَّ**»، هو عامٌّ في كلِّ كاذبٍ، مُطْلَقٌ في كلِّ نوعٍ من الكذبِ، ومعناه: لا تنسبوا الكذبَ إليَّ.

ولا مفهومَ لقولِهِ: «**عليَّ**» لأنَّه لا يُتَصَوَّرُ أن يُكذَبَ له، لنهيه عن مُطْلَقِ الكذبِ.

وقد اغترَّ قومٌ من الجهلةِ فوضعوا أحاديثَ في الترغيب والترهيبِ وقالوا: نحن لم نكذب عليه، بل فعلنا ذلك لتأييدِ شريعتِهِ، وما دروا أنَّ تقويلَه ﷺ ما لم يَقُل يقتضي الكذبَ علىٰ الله تعالىٰ؛ لأنَّه إثباتُ حكمٍ من الأحكامِ الشرعيةِ سواءٌ كان فِي الإيجابِ أو فِي النَّدبِ، وكذا مقابلهما وهو الحرامُ و المكروه.

(١) رواه البخاري (١٢٢٩)، ومسلم (٤).

(٢) انظر: تعليق د. مصطفىٰ البغا علىٰ صحيح البخاري (١/ ٤٣٤).

(٣) رواه البخاري (١٠٦)، ومسلم (١).

ولا يُعتَدُّ بِمَن خالفَ ذلك من الكرَّاميَّةِ حيث جوَّزوا وضعَ الكذبِ في الترغيبِ والترهيبِ في تثبيتِ ما وردَ في القرآنِ والسنَّةِ، واحتجَّ بأنَّه كذبٌ له لا عليه، وهو جهلٌ باللُّغةِ العربيةِ»[١].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قولِهِ تعالىٰ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾ [الأعراف:٣٣].

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا القولُ علىٰ اللهِ بلا علمٍ، فهو أشدُّ هذه المحرماتِ تحريمًا، وأعظمُها إثمًا، ولهذا ذُكِرَ في المرتبةِ الرابعةِ من المحرماتِ التي اتفقت عليها الشرائعُ والأديانُ، ولا تُباح بحالٍ، بل لا تكون إلا محرَّمَةً، وليست كالميتةِ والدمِ ولحمِ الخنزيرِ الذي يُبَاحُ في حالٍ دون حالٍ.

فإن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يُبَاحُ بحالٍ، ومُحَرَّمٌ تحريمًا عارضًا في وقت دون وقتٍ، قال الله تعالىٰ في المحرَّمِ لذاتِهِ: ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ** ﴾، ثم انتقلَ منه إلىٰ ما هو أعظمُ منهُ فقالَ: ﴿**وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ**﴾، ثمَّ انتقلَ منه إلىٰ ما هو أعظمُ منه، فقال: ﴿**وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا**﴾، ثمَّ انتقلَ منه إلىٰ ما هو أعظمُ منه، فقال: ﴿**وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾، فهذا أعظمُ المحرماتِ عند الله وأشدُّها إثمًا، فإنه يتضمَّنُ الكذبَ علىٰ اللهِ، ونسبتَه إلىٰ ما لا يليقُ به، وتغييرَ دينِهِ وتبديلَه، ونفيَ ما أثبتَه وإثباتَ ما نفاه، وتحقيقَ ما أبطلَهُ وإبطالَ ما

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٤١).

حقَّقه، وعداوةَ مَن والاه وموالاةَ مَن عاداه، وحبَّ ما أبغضَه وبُغضَ ما أحَبَّهُ، ووصفَه بما لا يليق به في ذاتِهِ وصفاتِهِ وأقوالِهِ وأفعالِهِ.

فليس في أجناسِ المحرَّماتِ أعظمُ عند الله منه، ولا أشدُّ إثمًا، وهو أصلُ الشركِ والكفرِ، وعليه أُسِّسَت البدعُ والضلالاتُ، فكلُّ بدعَةٍ مُضِلَّةٍ فِي الدِّينِ أساسُهَا القولُ على الله بلا علمٍ.

ولهذا اشتدَّ نكيرُ السَّلَفِ والأئمةِ لها، وصاحوا بأهلِها من أقطارِ الأرضِ، وحذَّروا فتنَتَهم أشدَّ التحذيرِ، وبالغوا في ذلك ما لم يُبَالِغُوا مثلَه في إنكارِ الفواحشِ، والظُّلمِ والعدوانِ، إذ مَضَرَّةُ البدعِ وهدمُها للدينِ ومنافاتُها له أشدُّ.

وقد أنكر الله تعالىٰ علىٰ مَن نَسَبَ إلىٰ دينِهِ تحليلَ شيءٍ أو تحريمَه من عنده بلا برهانٍ من الله، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل:١١٦].

فكيف بِمَن نَسَبَ إلىٰ أوصافِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما لم يصف به نفسَه؟ أو نَفَىٰ عنه منها ما وَصَفَ به نَفسَه؟

قال بعضُ السَّلَفِ: لِيَحذَر أحدُكم أن يقول: أحلَّ الله كذا، وحَرَّمَ الله كذا، فيقول الله: كذبتَ، لم أُحلَّ هذا، ولم أُحَرِّم هذا.

يعني التحليلَ والتحريمَ بالرأي المجرَّدِ، بلا برهانٍ من الله ورسولِهِ.

وأصلُ الشِّركِ والكفرِ هو القولُ علىٰ الله بلا علمٍ؛ فإنَّ المشركَ يزعمُ أنَّ من اتَّخذَهُ معبودًا من دون الله، يقرِّبُهُ إلىٰ الله، ويشفعُ له عنده، ويقضي حاجتَه

بواسطتِهِ، كما تكون الوسائطُ عند الملوكِ فكلُّ مشركٍ قائلٌ علىٰ الله بلا علمٍ، دون العكسِ، إذ القولُ علىٰ الله بلا علم قد يتضمَّنُ التعطيلَ والابتداعَ في دينِ الله، فهو أعمُّ من الشركِ، والشركُ فردٌ من أفرادِهِ.

ولهذا كان الكذبُ علىٰ رسولِ الله ﷺ مُوجِبًا لدخولِ النَّار، واتِّخاذِ منزلِهِ منها مُبَوَّأً، وهو المنزلُ اللازمُ الذي لا يفارقُهُ صاحبُهُ؛ لأنَّه مُتَضَمِّنٌ للقولِ علىٰ الله بلا علمٍ، كصريحِ الكذبِ عليه؛ لأنَّ ما انضافَ إلىٰ الرسولِ فهو مضافٌ إلىٰ المرسِلِ والقولُ علىٰ الله بلا علم صريحُ افتراءِ الكذبِ عليه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؟!

فذنوبُ أهلِ البدعِ كلُّها داخلةٌ تحت هذا الجنسِ، فلا تتحقَّقُ التوبةُ منه إلا بالتوبةِ من البدعِ، وأَنَّىٰ بالتوبةِ منها لمن لم يعلم أنَّها بدعةٌ، أو يظنُّها سنَّةً، فهو يدعو إليها، ويحضُّ عليها؟ فلا تنكشفُ لهذا ذنوبُهُ التي تجب عليه التوبةُ منها إلا بتضلُّعِه من السنَّةِ، وكَثْرَةِ اطِّلاعِهِ عليها، ودوامِ البحثِ عنها والتفتيشِ عليها، ولا ترىٰ صاحبَ بدعةٍ كذلك أبدًا»(١).

«وقد حرَّم الله سُبْحَانَهُ القولَ عليه بغيرِ علمٍ في الفُتيَا والقضاءِ، وجعله من أعظم المحرَّماتِ، بل جعله في المرتبةِ العليا منها، فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

فرتَّبَ المحرَّماتِ أربعَ مراتبَ، وبدأ بأسهلِها وهو الفواحشُ، ثمَّ ثنَّىٰ بما هو

---

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم، تحقيق محمد حامد الفقي (١/ ٣٧٢).

أشدُّ تحريمًا منه، وهو الإثمُ والظلمُ، ثمَّ ثلَّثَ بما هو أعظمُ تحريمًا منهما وهو الشركُ به سبحانه، ثمَّ رَبَّعَ بما هو أشدُّ تحريمًا من ذلك كلِّه وهو القولُ علىٰ الله بلا علمٍ، وهذا يعمُّ القولَ عليه سبحانه بلا علمٍ في أسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وفي دينِهِ وشرعِهِ.

وقد نهىٰ النبيُّ ﷺ في الحديث الصحيحِ أميرَهُ بُرَيدَةَ أن يُنزِلَ عَدُوَّه إذا حَاصَرَهُم علىٰ حُكمِ الله، وقال: «**فإنَّكَ لا تَدري أَتُصيبُ حُكمَ الله فِيهم أَمْ لا، ولَكِن أَنزِلهُم عَلَىٰ حُكمِكَ وَحُكمِ أَصحَابِكَ**»(١).

فتأمَّل كيف فَرَّقَ بين حكمِ الله وحكمِ الأميرِ المجتهدِ، ونهىٰ أن يسمَّىٰ حكمُ المجتهدينَ حكمَ الله.

ومن هذا لمَّا كتبَ الكاتبُ بين يَدَي عمرَ رضي الله عنه حُكمًا حَكَمَ به فقال: هذا ما أرىٰ اللهُ أميرَ المؤمنين عمر. فقال: لا تَقُل هكذا، ولكن قُل: هذا ما رأىٰ أميرُ المؤمنين عمرُ بن الخطابِ.

وقال ابنُ وهبٍ: سمعتُ مالكًا يقول: لم يَكُن من أمرِ النَّاسِ ولا مَن مضىٰ مِنْ سَلَفِنَا، ولا أدركتُ أحدًا اقتُدِيَ به يقولُ في شيءٍ: هذا حلالٌ، وهذا حرامٌ، وما كانوا يجترئون علىٰ ذلك، وإنَّما كانوا يقولون: نَكرَهُ كذا، ونرىٰ هذا حَسَنًا، فينبغي هذا، ولا نرىٰ هذا.

ورواه عنه عتيقُ بنُ يعقوب، وزاد: ولا يقولون حلالٌ وحرامٌ، أما سمعتَ قول الله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ

(١) رواه مسلم (١٧٣١).

أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ الحلالُ ما أحلَّه الله، والحرامُ ما حرَّمه اللهُ ورسولُهُ»[1].

* * *

(١) «إعلام الموقعين عن رب العالمين» لابن القيم (١/ ٣٨).

٤- الدَّعْوَى فِي العلمِ والقُرآنِ

ذَكَرَ تعالىٰ مِنَّتَهُ علىٰ عبادِهِ في إخراجه إيَّاهم من بطونِ أمَّهاتهم لا يعلمون شيئًا، ثمَّ بعد هذا يرزقُهم السَّمْعَ الذي يُدركون به، والأبصارَ التي بها يحسُّون المرئياتِ، والأفئدةَ وهي العقولُ، وهذه القُوىٰ والحواسُّ تحصلُ للإنسانِ علىٰ التدرِيجِ قليلاً قليلاً، كلَّما كَبُرَ زِيدَ في سمعِهِ وبصرِهِ وعقلِهِ حتىٰ يَبلُغَ أَشُدَّهُ.

وإنَّما جَعَلَ الله تعالىٰ هذه في الإنسانِ ليتمكَّنَ بها من عبادةِ ربِّه تعالىٰ، فيستعينَ بكلِّ جارحةٍ وعضوٍ وقوَّةٍ علىٰ طاعةِ مولاه[1].

قال تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨].

فالله تعالىٰ أخرجَ النَّاسَ من بطونِ أمهاتهم لا يعلمون شيئًا، ثمَّ هو علَّمهم بما جَعَلَ لهم من أدواتِ العلمِ، وبما رزقهم من منحةِ الفهمِ، وبما مَنَّ عليهم بعد ذلك من تذليلٍ للعوائقِ القائمةِ في سبيلِ الطَّلَبِ، ومن صَرفٍ للموانعِ الشاغلةِ عن التحصيلِ.

فينبغي للمسلمِ أن يزدادَ قُربًا من ربِّه كلَّما ازدادَ علمًا، وهذا من أدبِ العالمِ، وحقيقٌ به أن يكونَ كذلك؛ إذ العلمُ داعيةٌ إلىٰ الخضوعِ لله، وترك الدعوىٰ، وعَدَمِ ذَوقِ طَعمِ النَّفسِ.

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٥).

قال أبو عمر بن عبد البرِّ: «من أدبِ العالِمِ تَركُ الدعوىٰ لما لا يُحسِنُه، وتَركُ الفخرِ بما يُحسنه، إلا أن يُضطر إلىٰ ذلك، كما اضطر يوسفُ عليه السلام حين قال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥]، وذلك أنَّه لم يكن بحضرتِهِ مَن يعرفُ حقَّه فيثني عليه بما هو فيه ويعطيه بقسطِهِ، ورأىٰ أنَّ ذلك المقعدَ لا يقعدُهُ غيرُهُ من أهلِ وقتِهِ إلا قَصَّرَ عمَّا يجبُ لله من القيامِ به من حقوقِه، فلم يَسَعهُ إلا السعيُ في ظهورِ الحقِّ بما أمكنه، فإذا كان ذلك فجائزٌ للعالِمِ حينئذٍ الثناءُ علىٰ نفسِهِ والتنبيهُ علىٰ موضعِهِ، فيكون حينئذٍ يُحَدِّثُ بنعمةِ ربِّه عنده علىٰ وجهِ الشكرِ لها.

وأَفضَحُ ما يكونُ للمرءِ دعواه بما لا يقومُ به، وقد عَابَ العلماءُ ذلك قديمًا وحديثًا، وقالوا فيه نَظْمًا ونثرًا»(١).

وفي تأويلِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف:٥٥]، قال القرطبي رحمه الله: «دلَّت الآيةُ علىٰ جوازِ أن يَخطُبَ الإنسانُ عملاً يكون له أهلاً.

فإن قيل: فقد روىٰ مسلمٌ عن عبد الرحمن بن سَمُرَةَ قالَ: قالَ لي رَسُولُ الله ﷺ: «**يا عَبدَ الرَّحمَنِ، لا تَسألِ الإمَارَةَ فإنَّكَ إن أُعطِيتَهَا عَن مَسألَةٍ وُكِلْتَ إليهَا، وإن أُعطِيتَهَا عَن غَيرِ مَسألَةٍ أُعِنتَ عَلَيهَا**»(٢).

فالجوابُ:

أولًا: أنَّ يوسفَ عليه السلام إنَّما طَلَبَ الولايةَ لأنَّه عَلِمَ أنَّه لا أَحَدَ يقومُ مقامَهُ فِي

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ١٤٥).

(٢) رواه البخاري (٦٢٤٨)، ومسلم (١٦٥٢)، ووُكِلتَ إليها: أُسلِمتَ إليها، ولم يكن معك إعانةٌ.

العدلِ والإصلاحِ وتوصيلِ الفقراءِ إلىٰ حقوقهم، فرأىٰ أنَّ ذلك فرضٌ متعيَّنٌ عليه، فإنَّه لم يكن هناك غيرُهُ، وكذا الحكمُ اليوم، لو عَلِمَ إنسانٌ من نفسِهِ أنَّه يقوم بالحقِّ في القضاء أو الحِسبَةِ ولم يكن هناك مَن يَصلُحُ ويقومُ مقامه تَعيَّنَ ذلك عليه، ووَجَبَ أن يتولاها ويسألَ ذلك، ويخبرَ بصفاتِهِ التي يستحقُّها بها من العلمِ والكفايةِ وغير ذلك، كما قال يوسفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فأمَّا لو كان هناك مَن يقومُ بها ويصلُح لها وعَلِمَ بذلك فالأَوْلَىٰ ألا يطلبَ، لقوله ﷺ لعبد الرحمن: «**لا تَسألِ الإمَارَةَ**»، فإنَّ في سؤالِهَا والحرصِ عليها مع العلمِ بكثرةِ آفاتِها وصعوبةِ التخلُّصِ منها دليلٌ علىٰ أنَّه يطلبها لنفسهِ ولأغراضِهِ، ومَن كان هكذا يُوشكُ أن تَغلبَ عليه نفسُهُ فيهلِكَ، وهذا معنىٰ قولِهِ ﷺ: «**وُكِلَ إليهَا**»، ومَن أبَاهَا لعلمِهِ بآفاتِها، ولخوفِهِ من التقصير في حقوقِهَا فَرَّ منها، ثمَّ إن ابتُلِيَ بها فيُرجىٰ له التخلُّص منها، وهو معنىٰ قولِهِ ﷺ: «**أُعِينَ عَلَيهَا**».

الثاني: أنَّه لم يَقُل: إنِّي حسيبٌ كريمٌ، وإن كان كما قال النبيُّ ﷺ: «**الكَرِيمُ، ابنُ الكَريمِ، ابنِ الكَريمِ، ابنِ الكَرِيمِ، يُوسُفُ بنُ يَعقُوبَ بن إسحَاقَ بنِ إبراهِيمَ - عَلَيهِمُ السَّلامُ -**»(١)، ولا قال: إنِّي جميلٌ مليحٌ، وإنَّما قال: ﴿إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، فسألَها بالحفظِ والعلمِ، لا بالنَّسَبِ والجمالِ.

الثالثُ: إنَّما قال ذلك عند مَن لا يعرفه فأرادَ تعريفَ نفسِهِ، وصار ذلك مستثنًىٰ من قوله تعالىٰ: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم:٣٢].

(١) رواه البخاري (٣٢١٠).

الرابعُ: أنَّه رأىٰ ذلك فرضًا متعيَّنًا، لأنَّه لم يكن هنالك غيرُهُ، وهو الأظهرُ، واللهُ أعلمُ.

ودلَّت الآيةُ أيضًا علىٰ أنَّه يجوزُ للإنسانِ أن يصفَ نفسَهَ بما فيه من علمٍ وفضلٍ.

قال الماورديُّ: وليس هذا علىٰ الإطلاقِ في عمومِ الصِّفَاتِ، ولكنَّه مخصوصٌ فيما اقترنَ بِوُصْلَةٍ، أو تعلَّقَ بطاهرٍ من مكسبٍ، وممنوعٌ فيما سواه، لما فيه من تزكيةٍ ومُرَاءَاةٍ»[1].

فيوسفُ نبيٌّ من أنبياءِ الله المكرَّمين -صلواتُ الله وسلامُهُ عليهم أجمعين-، يريدُ أن يُمضي حُكمَ الله، ويقيمَ الحقَّ ويبسُط العدلَ، ولم يكن هناك مَن يقومُ مقامه في ذلك، فَطَلَب التوليةَ لذلك لا لحظِّ نفسِهِ.

وقد أدَّبَ الله تعالىٰ نبيَّهُ وكليمَهُ منه إليه: موسىٰ ﵇ بالأدبِ العالي الشريفِ وعَتَبَ عليه أنَّه لم يردَّ العلمَ إليه، فكان من شأنِهِ وشأنِ الخَضِرِ ما قَصَّهُ الله تعالىٰ في كتابِهِ، وأبَانَهُ النبيُّ ﷺ ببيانِهِ.

بَوَّبَ البخاريُّ ﵀ في صحيحِهِ، باب: «ما يُستَحَبُّ للعالِمِ إذا سُئِلَ أيُّ النَّاسِ أعلَمُ فَيَكِلُ العِلمَ إلىٰ الله».

وأخرج بسنده وكذا مسلمٌ ﵀ عن أُبيِّ بن كَعبٍ ﵁ قالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**قَامَ مُوسَىٰ النَّبِيُّ خَطيبًا في بَنِي إسرَائيلَ، فَسُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أَعلَمُ؟فقَالَ: أَنَا أعلَمُ، فَعَتَبَ الله عَلَيهِ؛ إذ لَم يَرُدَّ العِلمَ إلِيهِ، فَأوحَىٰ الله إليهِ أنَّ عَبدًا مِن عِبَادِي بمجمَعِ**

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (٩/ ٢٢١).

البَحْرَينِ هُوَ أعلَمُ مِنكَ، قالَ: يَا رَبِّ وكَيفَ بِهِ؟ فَقِيلَ لَهُ: احمِلْ حُوتًا في مِكتَلٍ، فَإِذَا فَقَدتَهُ فَهُوَ ثَمَّ...»[١].

«**فَعَتَبَ اللهُ عَلَيهِ**»: لم يَرضَ منه بذلك، وأصلُ العُتْبِ: المؤاخذةُ.

«**بِمَجمَعِ البَحرَينِ**»: ملتقىٰ البحرين.

«**مِكتَل**»: وعاءٌ يَسَعُ خمسةَ عشر صاعًا[٢].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ ﷺ: **فَعَتَبَ اللهُ عَلَيهِ؛ إذ لَم يَرُدَّ العِلمَ إليهِ**»: أي: كان حقُّه أن يقولَ: الله أعلمُ، فإنَّ مخلوقاتِ الله تعالىٰ لا يعلمها إلا هو، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]»[٣].

وقال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: «قولُهُ: بابُ ما يُستحبُّ للعالِمِ إذا سُئِلَ: أيُّ النَّاسِ أعلمُ؟ أي: من غيرِهِ، والفاءُ في قولِهِ: «**فَيَكِلُ**» تفسيريةٌ بناءً علىٰ أنَّ فعل المضارعِ بتقديرِ المصدرِ، أي: ما يُستَحَبُّ عند السؤالِ هو الوُكُولُ، وفي روايةٍ: «**أَن يَكِلَ**»، وهو أوضحُ.

قولُهُ: «**أَنَا أعلَمُ**»، في جوابِ: أيُّ النَّاسِ أعلم؟ قيل: إنَّه مخالفٌ لقولِهِ في الرواية الأخرىٰ في باب: «الخروج في طلب العلم»، قال: «**هَل تَعلَمُ أحَدًا أعلَمَ مِنكَ؟**»، وعندي لا مخالفةَ بينهما؛ لأنَّ قولَه هنا: «**أنا أعلَمُ**»، أي: فيما أعلمُ،

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٢) انظر: «صحيح البخاري» بتعليق د. مصطفىٰ البغا (١/ ٥٧).

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٥/ ١٣٧).

فيطابق قولَهُ: «**لا**» في جوابِ مَن قال له: هل تعلمُ أحدًا أعلمَ منك؟ في إسنادِ ذلك إلىٰ علمِهِ لا إلىٰ ما في نفسِ الأمرِ.

وعند مسلمٍ من وجهٍ آخرَ عن أبي إسحاق بلفظِ: «**مَا أعلَمُ فِي الأرضِ رَجُلاً خَيرًا أَو أعلَمَ مِنِّي**».

قال ابنُ المنيِّرِ: ظنَّ ابنُ بَطَّالٍ أن تَركَ موسىٰ الجوابَ عن هذه المسألة كان أولىٰ، قال: وعندي أنَّه ليس كذلك، بل رَدُّ العلمِ إلىٰ الله تعالىٰ مُتَعَيِّنٌ أجابَ أَوْ لم يُجِبْ، فلو قال موسَىٰ عليه السلام: «**أنَا، والله أعلمُ**» لم تحصل المعاتبةُ، وإنَّما عُوتِبَ علىٰ اقتصارِهِ علىٰ ذلك، أي: لأنَّ الجَزمَ يُوهِمُ أنَّه كذلك في نفسِ الأمرِ، وإنَّما مرادُهُ الإخبارُ بما في علمِهِ كما قدَّمناه، والعُتبُ من الله تعالىٰ محمولٌ علىٰ ما يليقُ به لا علىٰ معناه العُرفيِّ في الآدميين كنظائرِهِ.

وتعقَّبَ ابنُ المنيِّرِ علىٰ ابنِ بطَّالٍ إيرادَهُ في هذا الموضع كثيرًا من أقوالِ السَّلَفِ في التحذيرِ من الدعوىٰ في العلمِ، والحثِّ علىٰ قولِ العالِمِ: لا أدري، بأنَّ سياقَ مثلِ ذلك في هذا الموضعِ غيرُ لائقٍ، وهو كما قال رحمه الله، قال: وليس قولُ موسىٰ عليه السلام: «**أنا أعلمُ**»، كقولِ آحادِ النَّاسِ مثلَ ذلك، ولا نتيجةُ قولِهِ كنتيجةِ قولهم، فإنَّ نتيجةَ قولِهم العُجبُ والكِبرُ، ونتيجةُ قولِهِ: المزيدُ من العلمِ والحثُّ علىٰ التواضعِ والحرصُ علىٰ طلب العلمِ»(١).

قلتُ: وما سُقتُ حديثَ موسىٰ والخَضِرِ في آفةِ «الدعوىٰ في العلمِ والقرآنِ»،

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٦٤).

من آفات العلمِ لأنَّ موسىٰ ﷺ وقعت منه الدعوىٰ: حَاشَىٰ وكَلَّا، بل هو أرفعُ مقامًا، وأرسخُ علمًا، وأعلىٰ كعبًا، وأبرُّ نفسًا، وأتقىٰ قلبًا من هذا، بل هو معصومٌ من هذا كلِّه، وإنَّما سقتُهُ لأنَّ الله سبحانه عَتَبَ عليه أنَّه لم يَرُدَّ العلمَ إليه، ولم يقع منه ادِّعَاءٌ، فكيف بِمَن لم يَرُدَّ العلمَ إليه سبحانه ووقعَ منه الادِّعاءُ؟

وقد كان علماؤنا السابقون -رحمهم الله- أَبَرَّ النَّاسِ قلوبًا، وأوسَعَهم حِلمًا، وأغزرَهُم علمًا، وما كانَ أحدُهم يستحيي أن يقولَ لما لا يعلمُهُ: لا أعلمُهُ، ولا لما لا يدريه: لا أدريه، وكيف والملائكةُ لم تستحِ أن تقولَ لما لم تعلم: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣٢].

أخرج ابن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن عبد الرحمن بن مهديٍّ قال: «كنَّا عند مالكِ بن أنس فجاءَه رَجُلٌ فقال: يا أبا عبد الله، جِئتُكَ من مسيرةِ ستَّةِ أشهرٍ، حَمَّلني أهلُ بلدي مسألةً أسألُكَ عنها، قال: سَل، فسأله الرَّجُلُ عن المسألةِ، فقال: لا أُحسِنُهَا، قال: فَبُهِتَ الرَّجُلُ كَأنَّه قد جاء إلىٰ مَن يعلَمُ كلَّ شيءٍ، فقال: أيَّ شيءٍ أقولُ لأهلِ بلدي إذا رجعتُ إليهم؟! قال: تقولُ لهم: قال مالكٌ: لا أُحسِنُ.

وقال ابن وهبٍ: سمعتُ مالكًا وذَكَرَ قولَ القاسمِ بنِ محمدٍ: لأَن يعيشَ الرجلُ جاهلاً خيرٌ من أن يقولَ علىٰ الله ما لا يعلمُ، ثُمَّ قالَ: هذا أبو بكرٍ الصدِّيقُ، وقد خَصَّه الله بما خَصَّهُ به من الفضلِ، يقول: لا أدري.

وقال ابن وهب: حدَّثني مالكٌ، قال: وكان رسولُ الله ﷺ إمامَ المسلمين، وسَيِّدَ العالمين، يُسأَلُ عن الشيء فلا يجيبُ حتىٰ يأتيَهُ الوحيُ.

وعن عبدِ الرزَّاقِ قال: قال مالكٌ: كان ابنُ عباسٍ يقول: إذا أخطأ العالِمُ: «لا أدري»، أُصِيبَت مقاتلُهُ»(١).

قلتُ: وهذا منقطعُ من هذا الوجهِ، فإنَّ مالكًا لم يُدرِك ابنَ عباسٍ، ولكنَّه وصَلَهُ من وجهٍ آخرَ، عن يحيىٰ بن سعيدٍ، قال: قال ابنُ عباسٍ: إذا تركَ العالِمُ: «لا أعلمُ»، فقد أُصيبت مقاتلُهُ، ويحيىٰ بنُ سعيدٍ هو الأنصاريُّ، روىٰ عنه مالكٌ، ولكنَّ الرازيَّ لم يذكر له روايةً عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما. [«الجرح والتعديل» (٩/ ١٤٩)].

فهذا شأنُ العلماءِ من سَلَفِ الأمَّةِ، في تَركِ الدعوىٰ لما لا يُحسنونه، وفي هَضمِ النَّفسِ، وبَذلِ النُّصحِ.

حَتَّىٰ إنَّ الشافعيَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقولُ: «مَا نَاظَرتُ أحَدًا، فأحببتُ أَن يُخطِئَ، ومَا فِي قَلبِي مِن عِلمٍ، إلا وَدِدتُ أَنَّهُ عِندَ كُلِّ أحَدٍ ولا يُنسَبُ إلَيَّ».

وعن الربيع قال: سمعتُ الشافعيَّ، ودخلتُ عليه وهو مريضٌ، فَذَكَرَ ما وَضَعَ مِن كُتُبِهِ، فقال: «لَوَدِدتُ أَنَّ الخلقَ تَعَلَّمَهُ، ولم يُنسَب إليَّ منه شيءٌ أبدًا».

وعن حَرمَلَةَ بن يحيىٰ، قال: سمعتُ الشافعيَّ يقولُ: «وَدِدتُ أنَّ كلَّ علمٍ أعلمُهُ تَعَلَّمَهُ النَّاسُ أُوجرُ عليه، ولا يَحمَدُوني»(٢).

وقد توعَّدَ النبيُّ ﷺ أهلَ الدعوىٰ في العلمِ والقرآنِ بالنَّارِ، وبئسَ القرارُ.

فَعَن عُمَرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يَظْهَرُ الإسلامُ حَتَّىٰ تختَلِفَ**

(١) «جامع بيان العلم» (٢/ ٥٣).

(٢) «آداب الشافعي ومناقبه» (ص٩١).

التُّجَّارُ فِي البِحَارِ، وحَتَّىٰ تَخُوضَ الخَيلُ فِي سَبيلِ الله، ثُمَّ يَظهَرُ قَومٌ يَقرَءُونَ القُرآنَ، يَقُولُونَ: مَن أَقرَأُ مِنَّا؟ مَن أَعلَمُ مِنَّا؟ مَن أفقَهُ مِنَّا؟» ثُمَّ قَالَ لأصحَابِهِ: «**هَل فِي أُولَئِكَ مِن خَيرٍ؟**» قالُوا: الله وَرَسُولُهُ أعلَمُ، قالَ: «**أُولَئِكَ مِنكُم مِن هَذِهِ الأُمَّةِ، وَأُولَئِكَ هُم وَقُودُ النَّارِ**» قال المنذريُّ: رواه الطبرانيُّ في «الأوسط»، والبزَّارُ بإسنادٍ لا بأسَ به، ورواه أبو يعلىٰ والطبرانيُّ أيضًا من حديث العباسِ بن عبد المطلب، وحسَّنَ الألبانيُّ رواية عمر ﷺ، وكذا روايةَ العباسِ ﷺ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٨).

«**تَختَلِفُ التُّجَّارُ فِي البَحرِ**»: يكثُرُ ذَهَابُهم ومجيئهم فيه للتجارةِ.

«**تَخُوضُ الخَيلُ فِي سَبيل الله**»: يعني: تعبُرُ لُجَّةَ الماءِ غازيةً في سبيلِ الله.

«... **مَن أَفقَهُ مِنَّا؟**»: يُعجبون بتفوُّقهم في ذلك حتىٰ يفسدَهم العُجبُ ويُحبط عملَهم.

«**وَقُودُ النَّارِ**»: الوَقودُ -بفتحِ الواو-: ما تُوقد به النَّارُ من حَطَبٍ أو حجارةٍ، وأمَّا الوُقُودُ -بالضمِّ- فمصدرٌ[1].

وهذا الحديثُ من دلائلِ النُّبوَّةِ؛ فقد وَقَعَ ما أخبرَ عنه ﷺ ممَّا يتعلَّقُ بعالَمِ الشَّهَادَةِ، كما أخبرَ عنه، فلم يتخلَّف منه شيءٌ، وأمَّا ما يتعلَّقُ بعالَمِ الغيبِ ممَّا أخبر بوقوعِهِ في الآخرةِ فآتٍ لا محالةَ، نسأل الله السلامةَ والعافيةَ.

وعَن عبد الله بن عبَّاسٍ ﷺ عن رَسُولِ الله ﷺ: أَنَّهُ قامَ لَيلَةً بِمَكَّةَ مِنَ اللَّيلِ فقالَ: «**اللَّهُمَّ هَل بَلَّغتُ؟**» ثلاث مرَّاتٍ، فقَامَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ، وَكَانَ أَوَّاهًا، فقالَ:

(١) انظر: «الترغيب والترهيب» بتعليق الدكتور محمد خليل هراس (١/ ١٥٣).

اللَّهُمَّ نَعَم، وحَرَّصتَ، وَجَهدتَ، ونَصَحتَ، فَقَالَ: «**لَيَظْهَرَنَّ الإيمَانُ حَتَّىٰ يُرَدَّ الكُفرُ إلَىٰ مَوَاطِنِه، وَلَتُخَاضَنَّ البِحَارُ بالإسلامِ، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ يَتَعَلَّمُونَ فيهِ القُرآنَ، يَتَعَلَّمُونَهُ وَيَقرَءُونَهُ، ثُمَّ يَقُولونَ: قَد قَرَأنَا وَعَلِمْنَا، فَمَن ذَا الَّذي هُوَ خيرٌ مِنَّا؟ فَهَل فِي أولَئِكَ مِن خَيرٍ؟**» قالوا: يَا رَسُولَ الله؛ مَن أولَئِكَ؟ قالَ: «**أُولَئِكَ مِنكُم، وَأُولئكَ هُم وَقُودُ النَّارِ**» قال المنذريُّ: رواه الطبرانيُّ في «الكبير»، وإسنادُهُ حسَنٌ -إن شاء الله تعالىٰ-، وحسَّنه الألبانيُّ أيضًا في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٨).

«**أَوَّاهًا**»: المتأوِّهُ: المتضرِّعُ، وقيل: هو الكثيرُ البكاءِ، وقيل: الكثيرُ الدعاءِ، كما في «النهاية» والقولُ الأخيرُ هو أحدُ الأقوالِ التي قيلت في تفسيرِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]، وهو الذي اختارهُ ابنُ جريرٍ[(١)].

و«**اللَّهُمَّ نَعَم**»: يعني أنَّ عمرَ شَهِدَ له بذلك وصدَّقَه، وهي منقبةٌ عظيمةٌ لعمرَ رضي الله عنه.

«**لَيَظْهَرَنَّ الإيمانُ**»: من الظُّهورِ بمعنىٰ العُلُوِّ والغَلَبَةِ، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤] أي: غالبين.

«**حَتَّىٰ يُرَدَّ الكُفْرُ إلَىٰ مَوَاطِنِه**»: يعني: ينخذلُ أمامَ الإيمان ويتقهقرُ حَتَّىٰ يرجعَ من حيث جاءَ.

«**وَلَتُخَاضَنَّ البِحَارُ بالإسلامِ**»: أي ليركبنَّ جنودُ المسلمين البحارَ غازين فاتحين.

«**يَتَعَلَّمُونَهُ وَيَقرَءُونَهُ**»: يعني: تروج سوقُ العلمِ والقراءةِ بسببِ وفرةِ الطمأنينةِ

(١) انظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٨).

وكثرةِ المالِ.

«**فَهَل فِي أُولئكَ مِن خَيرٍ**»: يعني: أنَّه لا خير فيهم أصلاً، فإنَّ العُجبَ قد أتىٰ علىٰ ذلك كلِّه وأفسدَهُ كما يُفِسدُ الخلُّ العسلَ[1].

* * *

(١) انظر: «الترغيب والترهيب» (١/ ١٥٤).

٥- إذلالُ أهلِ العلمِ للعِلْمِ

لقد قَعَّدَ السَّلَفُ -رضوانُ الله عليهم- قاعدةً من القواعدِ الجامعةِ فقالوا: «العِلمُ يُؤتَىٰ إلَيهِ، وَلا يَأتِي إلَىٰ أحَدٍ».

قال الإمامُ مالكٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ للرشيدِ: «أدركتُ أهلَ العلمِ يُؤتَون، ولا يأتُون، ومنكم خَرجَ العلمُ، وأنتم أَولَىٰ النَّاسِ بإعظامِهِ، ومن إعظامِكم له ألَّا تَدْعُوا حَمَلَتَهُ إلىٰ أبوابِكم».

وما كانت طائفةٌ من طوائفِ الأمَّةِ أعزَّ من العلماءِ يومًا من الدَّهرِ؛ الملوكُ حكامٌ علىٰ النَّاسِ والعلماءُ حكَّامٌ علىٰ الملوكِ، وكيف لا، وعندهم ميراثُ النُّبوةِ، وسبَبُهُمْ إلىٰ النبيِّ ﷺ وثيقٌ متين؟!

أخرج ابن عبدِ البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن سفيانَ الثوريِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «كان خيارُ النَّاسِ وأشرافُهم والمنظورُ إليهم في الدِّينِ، الذين يقومون إلىٰ هؤلاء -يعني ولاةَ أمورِهم- فيأمرونهم وينهونهم، وكان آخرون يلزمون بيوتَهم فليس عندهم ذلك، فكانوا لا يُنتفعُ بهم ولا يُذكرون، ثمَّ بقينا حتَّىٰ صار الذين يأتُونهم فيأمرونهم شِرَارَ النَّاسِ، والذين لَزِمُوا بيوتَهم ولم يأتوهم خيارَ النَّاسِ»[١].

ومعلومٌ أنَّ كلَّ فضيلةٍ إنَّما هي وسطٌ بين رذيلتين، وإعزازُ العلمِ وسطٌ بين

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ١٨٤).

إذلالِهِ والتجبُّرِ به.

وقد تشتبهُ المهانةُ بالتواضعِ، والمذلَّةُ بالخشوعِ، كما قد يشتبه التكبُّرُ بالصيانةِ، والتَّجَبُّرُ بالإباءِ، فاحتاجَ الأمرُ إلىٰ بيانٍ وتوضيحٍ.

الفَرقُ بينَ التَّوَاضُعِ والمَهَانَةِ:

قالَ ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الفرقُ بينَ التواضُعِ والمهانةِ، أنَّ التواضعَ يتولَّدُ من بين العلمِ بالله سبحانه، ومعرفةِ أسمائهِ وصفاتِهِ ونعوتِ جلالِه وتعظيمهِ ومحبَّتِه وإجلالِهِ، ومن معرفتِه بنفسهِ وتفاصيلها وعيوبِ عملها وآفاتِها، فيتولَّدُ من بين ذلك كلِّه خُلُقٌ هو التواضعُ.

وهو: انكسارُ القلبِ لله، وخفضُ جَنَاحِ الذُّلِّ والرحمةِ لعبادِهِ، فلا يرىٰ له علىٰ أحدٍ فضلاً، ولا يرىٰ له عند أحد حقًّا، بل يرىٰ الفضلَ للنَّاسِ عليه، والحقوق لهم قِبَلَهُ، وهذا خُلُقٌ إنَّما يعطيه الله عَزَّوَجَلَّ مَن يحبُّه ويكرمُهُ ويُقَرِّبُهُ.

وأمَّا المهانةُ فهي: الدناءَةُ والخِسَّةُ وبَذلُ النفسِ وابتذالُها في نَيلِ حظوظِها وشهواتِها كتواضعِ السُّفَّلِ في نَيلِ شهواتِهم، وتواضعِ المفعولِ به للفاعلِ، وتواضعِ طالبِ كلِّ حظٍّ لَمن يرجو نَيلَ حظِّه منه، فهذا كلُّه ضَعَةٌ لا تواضعٌ، والله سبحانه يحبُّ التواضعَ ويُبغض الضَّعَةَ والمهانةَ.

وفِي الصحيح عنه ﷺ: «**وَأُوحِيَ إِلَيَّ أَن تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ، ولا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَىٰ أَحَدٍ**»[1].

(١) رواه مسلم (٢٨٦٥).

والتواضعُ المحمودُ علىٰ نوعين:

النوع الأول: تواضعُ العبدِ عند أمر الله امتثالاً وعند نهيه اجتنابًا، فإنَّ النَّفسَ لِطَلَبِ الراحةِ تَتَلَكَّأُ في أمرِهِ، فيبدو منها إباءٌ وشِرَادٌ هربًا من العبوديةِ، وتثبتُ عند نهيه طَلَبًا للظَّفَرِ بما منعَ منه، فإذا تواضعَ العبدُ نفسُه لأمرِ الله ونهيِهِ فقد تواضعَ للعبوديةِ.

والنوع الثاني: تواضعُهُ لعظمةِ الرَّبِّ وجلالِهِ، وخضوعِهِ لعزَّتِهِ وكبريائِهِ، فكلَّما شمخت نفسُه ذَكَرَ عَظَمَةَ الرَّبِّ وتفرُّدَهُ بذلك، وغَضَبَهُ الشديدَ علىٰ مَن نازعه ذلك، فتواضعت إليه نفسُه وانكسرَ لعظمةِ الله قلبُهُ، واطمأنَّ لهيبتِهِ، وأخبَتَ لسلطانِهِ، فهذا غايةُ التواضعِ، وهو يستلزمُ الأولَ من غيرِ عكسٍ، والمتواضعُ حقيقةً مَن رُزِقَ الأمرين»[1].

ومن صيانةِ أهلِ العلمِ له: ما رواه الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بسندِهِ عن حمدانَ بن الأصبهانيِّ قال**: «كنتُ عند شريكٍ، فأتاه بعضُ وَلَدِ المهديِّ، فاستندَ إلىٰ الحائطِ وسأله عن حديثٍ، فلم يلتفت إليه، فأعادَ عليه فلم يلتفت إليه، فقال: كأنَّك تستخفُّ بأولادِ الخلافةِ، قال: لا، ولكنَّ العلمَ أزينُ عند أهلِهِ من أن يضيِّعوه، قال: فجثا علىٰ ركبتيه ثمَّ سأله، فقال شريكٌ: هكذا يُطلَبُ العلمُ»[2].

وأخرج الخطيبُ أيضًا عن إبراهيم بن إسحاق الحربيِّ قال: كان عطاءُ بنُ أبي

(١) «الروح» لابن القيم (ص٣١٣).

(٢) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (١/ ١٩٨).

رباحٍ عبدًا أسودَ لامرأةٍ من مكَّةَ، وكان أنفُهُ كأنَّه باقِلاةٌ[١].

قال: وجاء سليمانُ بن عبد الملك أميرُ المؤمنين إلىٰ عطاءٍ هو وابناه، فجلسوا إليه وهو يصلِّي، فلمَّا صلَّىٰ انفتلَ إليهم، فما زالوا يسألونه عن مناسك الحجِّ، وقد حوَّلَ قفاه إليهم، ثمَّ قال سليمانُ لابنَيهِ: قومَا، فقَامَا، وقال: يا ابنيَّ، لا تَنِيَا في طلبِ العلمِ، فإنِّي لا أنسىٰ ذُلَّنَا بين يَدَي هذا العبدِ الأسودِ»[٢].

ومن أجودِ ما جادت به قرائحُ أهلِ العلمِ والأدبِ في بيان صيانةِ أهل العلمِ للعلمِ، ورعايتهم جَانبَهُ، وركونهم إلىٰ صَرحِ عِزِّهِ: قصيدةُ القاضي أبي الحَسَنِ عليِّ بن عبد العزيز الجرجانيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهي قصيدةٌ عصماءُ في وَصفِ «العالِمِ الأَبِيِّ»، والاعتزازِ بالعلمِ، وسُمُوِّ الهمَّةِ[٣].

ذكر التاجُ السبكيُّ منها عشرةَ أبياتٍ في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» (٣/ ٤٦٠) هذه الأبياتُ هي:

يَقُولُـونَ لِـي فِـيكَ انقـبَاضٌ وَإنَّمَـا ... رَأَوا رَجُلاً عَن مَوقِفِ الذُّلِّ أحجَمَا

أرَىٰ النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ عِندَهُم ... وَمَـن أكـرَمَتْهُ عِـزَّةُ الـنَّفسِ أُكـرِمَا

وَمَـا كُـلُّ بَـرقٍ لاحَ لِـي يَـسْتَفِزُّنِي ... ولا كُـلُّ مَـن لاقَـيتُ أرْضَـاهُ مُـنْعِمَا

---

(١) الباقلاءُ: الفُولُ، واحِدَتُهُ: بَاقِلاةٌ، وبَاقِلاءَةٌ.

(٢) «الفقيه والمتفقه» (١/ ٣١).

(٣) انظر: «صفحات من صبر العلماء» لأبي غدة (ص٣٥٢).

وأمَّا حالُ أبي غُدَّةَ، فاطَّلع عليه في رسالة «براءة أهل السنة»، للشيخ بكر بن أبي زيد، تقديم العلامة ابن باز -رحمهما الله تعالىٰ-.

وَإِنِّي إِذَا مَا فَاتَنِي الأَمرُ لَم أَبِتْ أُقَلِّبُ كَفِّي إِثْرَهُ مُتَنَدِّمَا
وَلَم أَقضِ حَقَّ العِلمِ إِن كَانَ كُلَّمَا بَدَا طَمَعٌ صَيَّرتُهُ لِي سُلَّمَا
إِذَا قِيلَ هَذَا مَنْهَلٌ قُلْتُ قَد أَرَىٰ ولَكِنَّ نَفْسَ الْحُرِّ تحْتَمِلُ الظَّمَا
ولَم أَبتَذِل فِي خِدمَةِ العِلمِ مُهجَتِي لأَخْدُمَ مَن لاقَيتُ لَكِن لأُخدَمَا
أَأَشْقَىٰ بِهِ غَرسًا وَأَجنِيهِ ذِلَّةً إِذنْ فَاتِّبَاعُ الجَهْلِ قَدْ كَانَ أَحزَمَا
وَلَو أَنَّ أَهلَ العِلمِ صَانُوهُ صَانَهُم وَلَو عَظَّمُوهُ فِي النُّفُوسِ لَعُظِّمَا
وَلَكِن أَهَانُوهُ فَهَانَ وَدَنَّسُوا مُحَيَّاه بالأَطمَاعِ حَتَّىٰ تَجَهَّمَا

ولم يملك السبكيُّ -بعد أن ساق القصيدةَ- نفسَه، فاندفع مثنيًا عليها بكلامٍ إلىٰ الشعرِ ما هو أقربُ منه إلىٰ النثرِ، والحقُّ أنَّ القصيدةَ كما قال، وفوق ما قال.

قال التاج السبكي في «الطبقات» (٣/ ٤٦١): «لله هذا الشعرُ! ما أبلغَهُ وأَصْنعَهُ! وما أعلىٰ علىٰ هامِ الجَوزَاءِ موضِعَه! وما أنفعَهُ لو سَمِعَهُ مَن سَمِعَه! وهكذا فليكن، وإلا فلا، أدَبُ كلِّ فقيه، ولمثلِ هذا الناظم يحسُنُ النَّظمُ الذي لا نظيرَ له ولا شبيه، وعند هذا ينطِقُ المنصِفُ بعظيم الثناءِ علىٰ ذهنِهِ الخالصِ لا بالتمويه».

وفِي «صفحات من صبر العلماء» (ص٣٥٢) استقصاءٌ لأبياتِها، وتتبُّعٌ لها فِي كُتب الأدبِ، وكُتب الأخلاقِ والتعليم، وقد بلغت عِدَّتُها في المصدر المذكور أربعةً وعشرين بيتًا، أسوقُها هنا -إن شاء الله- رغبةً فيها، ودلالةً عليها:

يَقُولُونَ لِي فِيكَ انقبَاضٌ وَإِنمَا رَأَوا رَجُلاً عَن مَوقِفِ الذُّلِّ أحجَمَا
أَرَىٰ النَّاسَ مَن دَانَاهُمُ هَانَ عِندَهُم وَمَن أكرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفسِ أُكرِمَا

وَلَـم أَقْضِ حَقَّ العِلـمِ إِن كَـانَ كُلَّمَـا بَـدَا مطمـعٌ صَـيَّرتُهُ لِـي سُـلَّمَا
وَمَـا زِلـتُ مُـنحَازًا بِعِرضِـي جَانِـبًا عَـنِ الـذُّلِّ أَعـتَدُّ الـصِّيَانَةَ مَغْـنَمَا
إِذَا قِـيلَ هَـذَا مَـنهَلٌ قُلْـتُ: قَـد أَرَىٰ ولكِـنَّ نَفْـسَ الْحُـرِّ تحْـتَمِلُ الظَّمَـا
أُنَـزِّهُهَا عَـن بَعـضِ مَـا لا يَـشِينُهَا مَخَافَـةَ أَقـوَالِ العِـدَا: فِـيمَ أو لِمَـا؟
فَأُصْـبِحُ عَـن عَـيبِ اللَّئـيمِ مُـسَلَّمًا وَقَـد رُحـتُ فِي نَفسِ الكَرِيمِ مُعَظَّمَا
وَإِنِّـي إِذَا فَاتَنِـي الأَمـرُ لَـم أَبِـت أُقَلِّــبُ كَفِّــي إِثْــرَهُ مُتَــنَدِّمَا
وَلَكِــنَّهُ إِن جَــاءَ عَفــوًا قَبِلــتُهُ وإن مَــالَ لَــم أُتْــبِعْهُ: هَــلَّا وَلَيْـتَمَا
وَأَقبِضُ خَطوِي عَن حُظُوظٍ كَثيرةٍ إِذَا لَـم أَنَلْهَـا وَافِـرَ العِـرضِ مُكـرَمَا
وَأُكْـرِمُ نَفـسِي أَن أُضَـاحِكَ عَابِـسًا وَأن أَتَلَقَّــىٰ بالْمَــديحِ مُــذَمَّمَا
وَكَـم طَالـبٍ رِقِّـي بِنُعمَاهُ لَـم يَصِل إِلَـيهِ وَإِن كَـانَ الـرَّئِيسَ المُعَظَّمَـا
وَكَـم نِعمَـةٍ كَانَـت عَلَـىٰ الحُـرِّ نِقمَـةً وَكَـم مَغـنَمٍ يَعـتَدُّهُ الْحُـرُّ مَغْـرَمَا
ولَـم أَبـتَذِلْ فِي خِدمَـةِ العِلـمِ مُهجَتِي لأَخْـدُمَ مَـن لاقَـيتُ لَكِـن لأُخْـدَمَا
أَأَشْـقَىٰ بِـهِ غَرسًـا وَأجنِـيه ذِلَّـةً إِذنْ فَاتِّـبَاعُ الجَهْـلِ قَـدْ كَـانَ أحـزَمَا
وَإِنِّـي لَـرَاضٍ عَـن فَتًـىٰ مُـتَعَفِّفٍ يَـرُوحُ وَيَغْـدو لَـيْسَ يَمِلـكُ دِرهَمًـا
يَبِيتُ يُرَاعِي النَّجْمَ مِن سُوءِ حَالِهِ وَيُـصبِحُ طَلقًـا ضَـاحِكًا مُتَبَـسِّمَا
وَلا يَـسأَلُ الْمُثْـرِينَ مَـا بِـأَكُفِّهِم وَلَـو مَـاتَ جُـوعًا عِفَّـةً وَتكَـرُّمَا
فـإِن قلـتَ: زَنْـدُ العلْـمِ كـابٍ فإنمـا كَبَا حينَ لَـمْ نَحْرُسْ حماه وأظلمَا

وَلَو أَنَّ أَهلَ العِلمِ صَانُوهُ صانَهم ... ولو عظمُوهُ فِي النفوسِ لعُظِّمَا
وَلَكِنْ أهانوه فَهَانُوا وَدَنَّسُوا ... مُحَيَّاهُ بالأطماعِ حتَّىٰ تَجهَّمَا[1]
وَمَا كُلُّ بَرْقٍ لاحَ لِي يَستَفِزُّنِي ... ولاَ كُلُّ مَن لاقَيتُ أرضَاهُ مُنعِمَا
وَلَكِن إذَا مَا اضطَرَّنِي الضُّرُّ لَم أَبِت ... أُقَلِّبُ فِكري مُنجِدًا ثُمَّ مُتهِمَا[2]
إلَىٰ أن أرَىٰ مَا لا أَغَصُّ بِذكرِهِ ... إذَا قُلتُ: قَد أَسدَىٰ إِلَيَّ وَأنعَمَا

أخرج الدارميُّ فِي «سننه» (١/ ١٦٣) بإسنادهِ عن الضحَّاكِ بن موسىٰ، قال: «مَرَّ سليمانُ بن عبد الملكِ بالمدينةِ، وهو يريدُ مكةَ فأقام بها أيامًا، فقال: هل بالمدينةِ أحدٌ أدرك أحدًا من أصحابِ النبيِّ ﷺ؟ فقالوا له: أبو حازمٍ[3]، فأرسلَ إليه فلمَّا دخل عليه قال له: يا أبا حازمٍ، ما هذا الجفاءُ؟ قال أبو حازمٍ: يا أميرَ المؤمنين، وأيُّ جفاءٍ رأيتَ منِّي؟ قال: أتاني وجوهُ أهلِ المدينةِ ولم تأتني؟.

فقال: يا أميرَ المؤمنين أُعيذك بالله أن تقولَ ما لم يكن، ما عرفتني قبلَ هذا اليومِ ولا أنا رأيتُك.

قال: فالتفتَ سليمانُ إلىٰ محمدِ بن شِهابٍ الزُّهري، فقال: أَصَابَ الشيخُ وأخطأتُ.

---

(١) مُحَيَّاهُ: وجهُهُ، وتجهَّم: صار جَهْمًا، وهو الكريهُ المنظر.

(٢) الضرُّ هنا: شِدَّةُ الإملاقِ والفاقة، ومنجدًا: مُتَّجِهًا جهةَ نجدٍ، ومُتهِمًا: متجهًا جهة تِهَامَةَ.

(٣) سلمةُ بن دينارٍ، الإمامُ القدوةُ، والواعظُ، شيخُ المدينةِ النبويةِ، أبو حازمٍ المديني، المخزومي مولاهم الأعرج، كان ثقةً كثيرَ الحديثِ، مات سنة أربعين ومئة، وقيل غير ذلك. [«سير أعلام النبلاء» (٦/ ٩٦)].

قال سليمان: يا أبا حازمٍ ما لنا نكرَهُ الموتَ؟

قال: لأنَّكم أخربتم الآخرة وعمَّرتُمُ الدنيا، فكرهتم أن تنتقلوا من العمران إلىٰ الخرابِ.

قال: أصبتَ يا أبا حازمٍ، فكيف القدومُ غدًا علىٰ الله؟

قال: أمَّا المحسنُ فكالغائبِ يقدُمُ علىٰ أهلهِ، وأمَّا المسيءُ، فكالآبقِ[1] يقدُمُ علىٰ مولاه.

فبكىٰ سليمانُ وقال: ليت شعري، مَا لَنَا عند الله؟

قال: اعْرِضْ عملَكَ علىٰ كتابِ الله.

قال: وأيُّ مكانٍ أجدُهُ؟

قال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣-١٤].

قال سليمان: فأين رحمةُ الله يا أبا حازمٍ؟

قال أبو حازمٍ: ﴿رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦].

قال له سليمانُ: يا أبا حازمٍ، فأيُّ عبادِ الله أكرمُ؟

قال: أُولُو المروءةِ والنُّهَىٰ.

قال له سليمانُ: فأيُّ الأعمالِ أفضلُ؟

قال أبو حازمٍ: أداءُ الفرائضِ مع اجتنابِ المحارِمِ.

---

(١) الآبقُ: الهاربُ.

قال سليمانُ: فأيُّ الدعاءِ أسمعُ؟

قال أبو حازمٍ: دعاءُ المحسَنِ إليه للمحسِنِ.

قال: فأيُّ الصدقةِ أفضلُ؟

قال: للسائلِ البائسِ، وجهدُ المقِلِّ، ليس فيها مَنٌّ ولا أذًىٰ.

قال: فأيُّ القولِ أعدلُ؟

قال: قولُ الحقِّ عند مَن تخافُهُ أو ترجوه.

قال: فأيُّ المؤمنين أَكْيَسُ؟

قال: رجلٌ عَمِلَ بطاعةِ الله ودَلَّ النَّاسَ عليها.

قال: فأيُّ المؤمنين أحمقُ؟

قال: رجلٌ انحطَّ في هوىٰ أخيه، وهو ظالمٌ فباع آخرتَه بدنيا غيرهِ.

قال سليمانُ: أصبتَ، فما تقولُ فيما نحن فيه؟

قال: يا أميرَ المؤمنين، أَوَ تُعْفِيني؟

قال له سليمانُ: لا، ولكنْ نصيحةٌ تُلقيها إليَّ.

قال: يا أميرَ المؤمنين إنَّ آباءَك قهروا النَّاسَ بالسيفِ، وأخذوا هذا المُلكَ عَنوَةً علىٰ غيرِ مشورةٍ من المسلمين ولا رضًا منهم، حتىٰ قتلوا منهم مقتلةً عظيمةً، فقد ارتحلوا عنها فلو شعرتَ ما قالوه وما قيل لهم.

فقال له رجلٌ من جلسائِهِ: بئسَ ما قلتَ يا أبا حازمٍ.

قال أبو حازمٍ: كَذَبْتَ، إنَّ الله أخذ ميثاقَ العلماءِ لَيُبَيِّنُنَّهُ للنَّاسِ، ولا يكتمونه.

قال له سليمانُ: فكيف لنا أن نُصْلِحَ؟

قال: تَدَعُونَ الصَّلَفَ، وَتَمَسَّكُونَ بالمروءةِ، وتَقْسِمُونَ بالسَّويَّةِ.

قال له سليمانُ: كيف لنا بالمأخَذِ به؟

قال أبو حازمٍ: تأخُذُهُ من حِلَّهِ، وتضعُهُ في أهلِهِ.

قال له سليمانُ: هل لك يا أبا حازمٍ أن تصحبنا، فتصيبَ منا ونصيبَ منك؟

قال: أعوذ بالله.

قال: ولِمَ ذاك؟!

قال: أخشىٰ أن أركنَ إليكم شيئًا قليلاً، فيذيقني الله ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ.

قال له سليمانُ: ارفع إلينا حوائِجَكَ؟

قال: تُنْجيني من النَّارِ وتُدْخِلُني الجنةَ.

قال سليمانُ: ليس ذاك إليَّ.

قال أبو حازمٍ: فما لي إليك حاجةٌ غيرُهَا.

قال: فادعُ لي.

قال أبو حازم: اللهمَّ إن كان سليمانُ وَليَّك فيسِّرْهُ لخيرِ الدنيا والآخرةِ، وإن

كان عدوَّكَ فَخُذْ بناصيتِهِ إلىٰ ما تُحِبُّ وترضىٰ.

قال له سليمانُ: قَطُّ؟

قال أبو حازم: قد أَوجَزتُ وأكثَرتُ إن كنتَ من أهلِهِ، وإن لم تكن من أهلِهِ فما ينفعني أن أرميَ عن قوسٍ ليس لها وترٌ.

قال له سليمانُ: أوصني.

قال: سأوصيك وأُوجِزُ: عَظِّم ربَّك ونَزِّهُه أن يراك حيث نهاك، أو يفقدَكَ حيث أمرَكَ.

فلمَّا خرج من عنده بَعَثَ إليه بمئةِ دينارٍ وكَتَب إليه: أن أنفقها ولك عندي مثلُها كثيرٌ.

قال: فردَّها عليه وكتبَ إليه: يا أميرَ المؤمنين، أُعيذُكَ باللهِ أن يكونَ سؤالُك إيايَّ هَزلاً، أو رَدِّي عليك بَذلاً، وما أرضاها لك، فكيف أرضاها لنفسي؟!

وكتبَ إليه إنَّ موسىٰ بنَ عمرانَ لما وَرَدَ ماءَ مَدينَ وَجدَ عليه رِعَاءً يسقون، ووَجَدَ من دونهم جاريتين تذودان، فسألهما فقالتا: ﴿لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٣-٢٤]، وذلك أنَّه كان جائعًا خائفًا لا يأمن، فسأل ربَّه ولم يسأل النَّاسَ، فلم يفطنِ الرِّعَاءُ، وفَطِنَتْ الجاريتان، فلما رجعتا إلىٰ أبيهما أخبرتاه بالقصَّةِ وبقولِه، فقال أبوهما -وهو شعيبٌ-: هذا رجلٌ جائعٌ، فقال لإحداهما: اذْهَبي فادعِيه، فلمَّا أتته عظَّمته وغطَّت وجهَها، وقالت: ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾،

فشقَّ علىٰ موسىٰ حين ذكرت ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ ولم يجد بُدًّا من أن يتبعَهَا، إنَّه كان بين الجبالِ جائعًا متوحشًا، فلمَّا تبعها هَبَّت الريحُ فجعلت تصفقُ ثيابَها علىٰ ظهرها فتصف له عجيزتَهَا، -وكانت ذاتَ عَجُزٍ-، وجَعَلَ موسىٰ يُعرِضُ مرَّةً ويَغُضُّ مرَّةً، فلمَّا عِيلَ صبرُهُ ناداها: يَا أَمَةَ الله كوني خلفي، وأريني السَّمتَ بقولِك: ذا، فلمَّا دخل علىٰ شعيبٍ إذا هو بالعَشَاءِ مُهَيَّأً، فقال له شعيبٌ: اجلس يا شابُّ فتعَشَّ.

فقال له موسىٰ: معاذَ الله، قال شعيبٌ: لِمَ؟ أما أنت جائعٌ؟

قال: بلىٰ، ولكنِّي أخاف أن يكون هذا عِوَضًا لما سقيتُ لهما، وأنا من أهل بيتٍ لا نبيعُ شيئًا من ديننا بملءِ الأرضِ ذهبًا، فقال له شعيبٌ: لا يا شابُّ، ولكنَّها عادتي وعادةُ آبائي، نقري الضيفَ، ونطعمُ الطعامَ، فجلس موسىٰ فأكلَ.

فإن كانت هذه المئةُ دينارٍ عِوَضًا لما حدَّثتُ فالميتةُ والدمُ ولحمُ الخنزيرِ في حالِ الاضطرار أحلُّ من هذه، وإن كان لحقٍّ في بيت المال فلي فيها نُظَرَاءُ، فإن ساويتَ بيننا وإلا فليس لي فيها حاجةٌ».

يقولُ الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ ناصحًا ومُرشِدًا، وأَرفِق به من ناصحٍ مُرشدٍ، فعليك بها، فإنَّها نفيسةٌ غاليةٌ:

ارحَلْ بِنَفْسِكَ عَنْ أَرضٍ تُضَامُ بِهَا ... وَلا تَكُن مِن فِرَاقِ الأَهلِ فِي حَرَقِ
وَالكُحْلُ نَوعٌ مِنَ الأحْجَارِ تَنظُرُهُ ... فِي أَرضِهِ وَهْوَ مَرمِيٌّ عَلَىٰ الطُّرُقِ
لَمَّا تَغَرَّبَ حَازَ الفَضلَ أَجْمَعَهُ ... فَصَارَ يُحمَلُ بَينَ الْجَفنِ والْحَدَقِ

*   *   *

٦- الكِبْرُ والعُجْبُ

إِعزَازُ العلمِ وصيانتُهُ لا يعني الكِبرَ بسَببِهِ، ولا العُجْبَ به.

الكِبرُ والعُجْبُ خُلُقَان مذمومان، يترفَّعُ عنهما آحادُ المؤمنين فكيف بأهلِ العلمِ منهم، وقد ذَمَّ الله تعالىٰ الكِبرَ في مواضعَ كثيرةٍ من كتابهِ الكريمِ.

فقال تعالىٰ: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: ١٧٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأعراف:٤٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل:٢٣].

وقال تعالىٰ مخاطبًا إبليسَ -لَعَنَهُ الله-: ﴿ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [الأعراف:١٣].

وقال تعالىٰ: ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ [الأحقاف:٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر:٣٥].

والآياتُ في ذَمِّ الكِبرِ والعُجْبِ كثيرةٌ كثيرةٌ، ولكني أجتزئُ بالقليلِ ليكون كالتنبيهِ علىٰ ما وراءه، ومَن أرادَ جَمْعًا فدونَهُ كتابَ اللَّهِ تعالىٰ.

وأحاديثُ النبيِّ ﷺ في هذا المعنىٰ كثيرةٌ أيضًا وضافيةٌ، أسوقُ إليك منها:

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كَانَ فِي قَلبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ**»، فقالَ رَجُلٌ: إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَن يَكُونَ ثَوبُهُ حَسَنًا، ونَعلُهُ حَسَنَةً، قالَ: «**إنَّ الله جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ، الكِبْرُ: بَطَرُ الحَقِّ وغَمطُ النَّاسِ**»[1] رواه مسلم.

وعن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**لا يَنْظُرُ اللهُ يَومَ القِيَامَةِ إِلَىٰ مَن جَرَّ إِزَارَهُ بَطَرًا**» متفق عليه[2].

وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ رضي الله عنه، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**احتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ، فَقَالَتِ النَّارُ: فِيَّ الجَبَّارُونَ والمُتكَبِّرُونَ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ: فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ ومَسَاكِينُهُمْ، فَقَضَىٰ الله بَينَهُمَا: إنَّكِ الجَنَّةُ رَحمَتي، أَرحَمُ بِكِ مَن أَشَاءُ، وإنَّكِ النَّارُ عَذَابِي، أُعَذِّبُ**

(١) رواه مسلم (٩١)، وبَطَرُ الحَقِّ: دفعُهُ وإنكارُهُ ترفُّعًا وتجبُّرًا، وغَمطُ النَّاسِ: احتقارُهم.

(٢) رواه البخاري (٥٤٥١)، ومسلم (٢٠٨٧).

بِكِ مَن أَشَاءُ، وَلِكِلَيكُمَا عَلَيَّ مِلؤُهَا» رواه مسلم[١].

وعن أبي هريرة ﵁ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: **«قالَ الله تَعَالَىٰ: العِزُّ إزَارِي، والكِبرِيَاءُ رِدَائِي؛ فَمَن يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُهُ»** رواه مسلم[٢].

الكِبرُ ظَاهِرٌ وبَاطِنٌ:

«اعلم أنَّ الكبرَ ينقسمُ إلىٰ ظاهرٍ وباطنٍ، فالباطنُ هو خُلُقٌ في النَّفسِ، والظاهرُ هو أعمالٌ تصدرُ عن الجوارحِ، واسمُ الكِبرِ بالخُلُقِ الباطنِ أحقُّ، أمَّا الأعمالُ فإنَّها ثمراتٌ لذلك الخُلُقِ.

وخُلُقُ الكبرِ موجبٌ للأعمالِ، ولذلك إذا ظهر علىٰ الجوارحِ يقالُ: تَكَبَّرَ، وإذا لم يظهر يقال: في نفسهِ كِبرٌ.

ولا يُتصوَّرُ أن يكونَ متكبِّرًا إلا أن يكون مع غيرهِ وهو يرىٰ نفسَه فوق ذلك الغيرِ في صفاتِ الكمالِ، فعند ذلك يكون متكبِّرًا، ولا يكفي أن يستعظمَ نفسَه ليكون متكبِّرًا، فإنَّه قَد يستعظمُ نفسَهُ، ولكنَّه يرَىٰ غيرَهُ أعظمَ من نفسِهِ أو مثلَ نفسِهِ فلا يتكبَّرُ عليه.

ثمَّ هذه العِزَّةُ تقتضي أعمالًا في الظاهرِ والباطنِ هي ثمراتٌ، ويسمَّىٰ ذلك تكبُّرًا.

فهو إن حاجَّ أو ناظَرَ أَنِفَ أن يُرَدَّ عليه، وإن وُعِظَ استنكفَ من القبولِ، وإن وَعَظَ عَنُفَ في النُّصحِ، وإن رُدَّ عليه شيءٌ من قولِهِ غَضِبَ، وإن عَلَّمَ لم يرفق

(١) رواه مسلم (٢٨٤٦).

(٢) رواه مسلم (٢٦٢٠).

بالمتعلِّمين واستذَلَّهم وانتهرهم وامتنَّ عليهم واستخدمهم، وينظرُ إلىٰ العامَّةِ كأنَّه ينظرُ إلىٰ الحميرِ، استجهالًا لهم واستحقارًا.

والأعمالُ الصادرةُ عن خُلُقِ الكبرِ كثيرةٌ، وهي أكثرُ من أن تُحصىٰ فلا حاجةَ إلىٰ تعدادِها فإنَّها مشهورةٌ.

فهذا هو الكبرُ وآفتُهُ عظيمةٌ، وغائلتُهُ هائلةٌ، وفيه يهلِكُ الخواصُّ من الخَلقِ، وكيف لا تَعظُمُ آفتُهُ وقد قال ﷺ: «**لا يَدخُلُ الجَنَّةَ مَن كَانَ فِي قَلبِهِ مِثقَالُ ذَرَّةٍ مِن كِبرٍ**»[1].

الفَرْقُ بين الكِبرِ والمهابةِ:

قد يلتبسُ الكِبرُ بغيرِهِ ممَّا ليس كِبرًا بل هو مشروعٌ، وهناك فرقٌ دقيقٌ بين المهابةِ التي هي أثرٌ من آثارِ الطاعةِ والقُربِ، والكبرِ الذي هو من أخَصِّ صفات إبليس.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الفرقُ بين المهابةِ والكبرِ: أنَّ المهابةَ أثرٌ من آثارِ امتلاءِ القلبِ بعظمةِ الله ومحبَّتِهِ وإجلالِهِ، فإذا امتلأ القلبُ بذلك حَلَّ فيه النورُ، ونزلت عليه السَّكِينَةُ، وأُلبِسَ رِدَاءَ الهيبةِ، فاكتسىٰ وجهُهُ الحلاوةَ والمهابةَ، فأخذ بمجامعِ القلوبِ محبَّةً ومهابةً، فحنَّت إليه الأفئدةُ وقرَّت به العيونُ، وأنست به القلوبُ، فكلامُهُ نورٌ، ومدخلُهُ نورٌ، ومخرجُهُ نورٌ، وعملُهُ نورٌ، وإن سكتَ علاه الوقارُ، وإن تكلَّمَ أخَذَ بالقلوبِ والأسماعِ.

(١) «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ١٢٨)، والحديث رواه مسلم (٩١).

وأمَّا الكِبرُ، فَأَثَرٌ من آثارِ العُجبِ والبغي في قلبٍ قد امتلأ بالجهلِ والظُّلمِ، ترحَّلت منه العبوديةُ، ونزل عليه المقتُ، فَنَظَرُهُ إلىٰ النَّاسِ شَزْرٌ[(١)] ومَشيُهُ بينهم تَبَخْتُرٌ[(٢)]، ومعاملتُهُ لهم معاملةُ الاستئثارِ لا الإيثارِ[(٣)] ولا الإنصاف، ذاهبٌ بنفسِهِ تيهًا لا يبدأ مَن لَقِيَهُ بالسَّلامِ، وإن رَدَّ عليه رأىٰ أنَّه قد بَالَغَ في الإنعامِ عليه، لا ينطلقُ لهم وجهُهُ، ولا يَسَعُهُم خُلُقُهُ، ولا يرىٰ لأحدٍ عليه حقًّا ويرىٰ حقوقَه علىٰ النَّاسِ، ولا يرىٰ فضلَهم عليه ويرىٰ فضلَه عليهم، ولا يزدادُ من الله إلا بُعدًا، ومن النَّاسِ إلا صَغَارًا وبُغضًا»[(٤)].

درجاتُ العُبَّادِ والعلماءِ في الكبرِ:

ثمَّ إنَّ العُبَّادَ والعلماءَ ليسوا في الكبرِ سواءً، بل هم فيه علىٰ درجاتٍ.

قال ابنُ قدامةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «اعلم أنَّ العلماءَ والعُبَّادَ في آفةِ الكبرِ علىٰ ثلاثِ درجاتٍ:

الأولىٰ: أن يكونَ الكِبرُ مستقرًّا في قلبِ الإنسانِ منهم، فهو يرىٰ نفسَه خيرًا من غيرِهِ، إلا أنَّه يجتهدُ ويتواضعُ، فهذا في قلبِهِ شجرةُ الكبرِ مغروسةٌ، إلا أنَّه قد قَطَعَ أغصانَهَا.

الثانيةُ: أن يظهرَ لك بأفعالِهِ من الترفُّعِ في المجالِسِ، والتقدُّمِ علىٰ الأقرانِ،

(١) نظرٌ شَزْرٌ: فيه إعراضٌ، كنظر المعادي المبغض، وقيل: هو نظرٌ علىٰ غير استواءٍ بمؤخَّرِ العينِ.

(٢) يتبختر: يختال، البختري. المتبختر في مشيه، وهي مشيةُ المتكبرِ المعجبِ بنفسهِ.

(٣) الاستئثارُ: الانفراد بالشيء، وضدُّه الإيثار.

(٤) «الروح» لابن القيم (ص٣١٦).

والإنكارِ علىٰ مَن يُقَصِّرُ في حقِّه، فترىٰ العالِمَ يُصَعِّرُ خَدَّهُ للنَّاسِ، كأنَّه مُعرِضٌ عنهم، والعابدَ يعيشُ كأنَّه مُستَقْذِرٌ لهم، وهذان قد جَهِلا ما أدَّبَ الله به نبيَّه ﷺ حين قَالَ: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٢١٥].

الثالثةُ: أن يُظْهِرَ الكبرَ بلسانِهِ، كالدعاوىٰ والمفاخَرَةِ، وتزكيةِ النَّفْسِ، وحكاياتِ الأحوالِ في مَعرِضِ المفاخرةِ لغيرِه.

واعلم أنَّ التكبُّرَ يظهرُ في شمائلِ الإنسانِ؛ كصَعَرِ[(١)] وجهِهِ، ونَظَرِهِ شَزْرًا، وإطراقِ رأسِهِ، وجلوسِهِ مُتَرَبِّعًا ومُتَّكِئًا، وفي أقوالِهِ، حتَّىٰ في صوتِهِ ونغمتِهِ، وصيغةِ إيرادِهِ الكلامَ، ويظهرُ ذلك أيضًا في مَشيِهِ وتبَختُرِهِ وقيامِهِ وقعودِهِ وحركاتِهِ وسكناتِهِ وسائرِ تقلُّبَاتِه»[(٢)].

الكِبْرُ بالعِلمِ:

ما بِهِ يتكبَّرُ المتكبِّرُ علىٰ غيرِهِ كثيرٌ، منه: العلمُ، ومنه: العملُ والعبادةُ، ومنه: الصورةُ الظاهرةُ من جمالٍ وحُسنِ هَيئَةٍ.

«والكبرُ بالعلمِ، هو أعظمُ الآفاتِ وأغلبُ الأدوَاءِ[(٣)] وأبعدُها عن قَبُولِ العلاجِ إلا بشدَّةٍ شديدةٍ وجَهدٍ جهيدٍ، وذلك لأنَّ قَدرَ العلمِ عظيمٌ عند الله، عظيمٌ عند النَّاسِ، وهو أعظمُ من قَدرِ المالِ والجمالِ وغيرهما، بل لا قَدْرَ لهما أصلاً إلا إذا

(١) الصَعَرُ: ميلٌ في الوجهِ، وقيل: الصَّعَرُ: الميلُ في الخَدِّ خاصةً، وقد صَعَّرَ خَدَّهُ وصَاعَرَهُ: أمالَهُ من الكبرِ. [«لسان العرب» (صعر) (ص٢٤٤٧)].

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٩٢).

(٣) الأدواءُ: جمعُ داءٍ.

كان معهما علمٌ وعملٌ، ولذلك قال كعبُ الأحبارِ: إنَّ للعلمِ طغيانًا كطغيانِ المال، وقال عمرُ ﷺ: العالِمُ إذا زَلَّ زَلَّ بزلَّتِهِ عَالَمٌ.

ولن يَقْدِرَ العالِمُ علىٰ دَفعِ الكِبرِ إلا بمعرفَةِ أمرين:

أحدهما: أن يعلم أن حُجَّةَ الله علىٰ أهلِ العلمِ آكَدُ، وأنَّه يُحتمل من الجاهلِ ما لا يُحتملُ عُشْرُهُ من العالِمِ، فإن مَن عَصَىٰ الله تعالىٰ عن معرفةٍ وعلمٍ فجنايتُهُ أفحشُ؛ إذ لم يقضِ حقَّ نعمةِ الله عليه في العلمِ.

الأمرُ الثاني: أنَّ العالِمَ يعرف أنَّ الكبرَ لا يليق إلا بالله ﷻ وحده، وأنَّه إذا تكبَّرَ صار ممقوتًا عند الله بَغيضًا، وقد أحبَّ الله منه أن يتواضعَ وقال له: إنَّ لك عندي قَدرًا ما لم تَرَ لنفسِك قدرًا، فإن رأيتَ لنفسِك قَدرًا فلا قَدرَ لك عندي، فلابُدَّ وأن يُكَلِّفَ نفسَهُ ما يحبُّه مولاه منه»[(١)].

الفرقُ بين الكبرِ والعُجبِ:

«الكبرُ خُلُقٌ باطنٌ تصدرُ عنه أعمالٌ هي ثمرتُهُ، فيظهر علىٰ الجوارحِ، وذلك الخُلُقُ هو رؤيةُ النَّفسِ علىٰ المتكبَّرِ عليه، يعني يرىٰ نفسَه فوق الغيرِ في صفات الكمالِ فعند ذلك يكون متكبِّرًا.

وبهذا ينفصلُ عن العُجبِ، فإنَّ العُجبَ لا يستدعي غير المُعجَب، حتىٰ لو قُدِّرَ أن يُخْلَقَ الإنسانُ وحدَه تُصُوِّرَ أن يكونَ مُعجَبًا، ولا يتصوَّرُ أن يكونَ متكبِّرًا، إلا أن يكون مع غيرِهِ وهو يرىٰ نفسَه فوقه، فإنَّ الإنسانَ متىٰ رأىٰ نفسَه بعينِ

(١) «تهذيب الإحياء» (٢/ ١٣٦).

الاستعظامِ حَقَرَ مَن دونه وازدراه، وصفةُ هذا المتكبِّرِ أن ينظرَ إلىٰ العامَّةِ كأنَّه ينظرُ إلىٰ الحميرِ استجهالًا واستحقارًا»(١).

«والعُجبُ يدعو إلىٰ الكبرِ؛ لأنَّه أحدُ أسبَابِهِ، فيتولَّدُ من العُجبِ الكبرُ، ومن الكبرِ الآفاتُ الكثيرةُ التي لا تخفىٰ، وهذا مع الخَلقِ.

وأمَّا مع الله تعالىٰ، فالعُجبُ يدعو إلىٰ نسيانِ الذنوبِ وإهمالِهَا، فبعضُ ذنوبِهِ لا يذكرها ولا يتفقَّدها، لظنِّه أنَّه مُستَغنٍ عن تفقُّدِها فينساها، وما يتذكَّرُهُ منها فيستصغره، ولا يستعظمه، فلا يجتهد في تداركِهِ أو تلافيه، بل يظنُّ أنَّه يُغفَرُ له.

وأمَّا العباداتُ والأعمالُ فإنَّه يستعظمها ويتبجَّحُ بها، ويَمُنُّ علىٰ الله تعالىٰ بفعلِها، وينسىٰ نعمةَ الله عليه بالتوفيقِ والتمكينِ منها، ثمَّ إذا أعجب بها عَمِيَ عن آفاتِها، ومَن لم يتفقَّد آفاتِ الأعمالِ كان أكثرُ سعيه ضائعًا، فإنَّ الأعمالَ الظاهرةَ إذا لم تكن خالصةً نقيَّةً من الشوائب قلَّما تنفعُ، وإنَّما يتفقَّدُ مَن يغلبُ عليه الإشفاقُ والخوفُ دون العُجبِ.

والمُعجَبُ يغترُّ بنفسِهِ وبرأيه، ويأمنُ مكر الله وعذابَهُ، ويظنُّ أنَّه عند الله بمكانٍ، وأنَّ له عند الله مِنَّةً وحقًّا بأعمالِهِ التي هي نعمةٌ من نعمِهِ، وعَطيَّةٌ من عطاياه، ويخرجُهُ العُجبُ إلىٰ أن يثني علىٰ نفسِهِ ويَحمَدُهَا ويزكِّيها.

وإن أُعجِبَ برأيهِ وعملِهِ مَنَعَ ذلك من الاستفادةِ، ومن الاستشارةِ والسؤالِ، فيستبدُّ بنفسِهِ ورأيه، ويستنكِفُ من سؤالِ مَن هو أعلمُ منه، وربَّما يُعجب بالرأي

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٢٩١).

الخطأ الذي خَطَرَ له فيفرح بكونِهِ من خواطرِهِ، ولا يفرحُ بخواطرِ غيرِه فيصرُّ عليه، ولا يسمعُ نُصحَ ناصحٍ، ولا وَعظَ واعظٍ، بل ينظرُ إلىٰ غيرِهِ بعينِ الاستجهالِ، ويصرُّ علىٰ خَطَئِهِ، فإن كان رأيُه في أمرٍ دنيويٍّ فيخفق فيه، وإن كان في أمرٍ دينيٍّ لاسيما فيما يتعلَّقُ بأصولِ العقائدِ فيهلِك به.

ومن أعظمِ آفاتِهِ أن يَفتُرَ في السعي، لظنِّه أنَّه قد فاز، وأنَّه قد استغنىٰ، وهو الهلاكُ الصريحُ الذي لا شُبهَةَ فيه»[١].

الفَرقُ بينَ الصِّيَانَةِ وَالكِبرِ:

هناك فرقٌ دَقيقٌ بين صيانةِ النَّفسِ عمَّا يشينُها، والتكبُّرِ والعُجبِ.

وقد جَلاه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولِهِ: «الفرقُ بين الصيانةِ والتكبُّر: أنَّ الصائنَ لنفسِهِ بمنزلةِ رجلٍ قد لَبِسَ ثوبًا جديدًا نقيَّ البياضِ ذا ثَمَنٍ، فهو يدخلُ به علىٰ الملوكِ فمَن دونهم، فهو يصونُهُ عن الوسَخِ والغبارِ والطُّبُوعِ[٢] وأنواع الآثارِ إبقاءً علىٰ بياضِهِ ونقائِهِ، فتراه صَاحِبَ تَعَزُّزٍ وهروبٍ من المواضعِ التي يخشىٰ منها عليه التلوُّثَ فلا يسمحُ بأثرٍ ولا طَبَعٍ ولا تلوُّثٍ يعلو ثوبَهُ.

وإن أصابه شيءٌ من ذلك علىٰ غِرَّةٍ -أي: فجأة- بادَرَ إلىٰ قلعِهِ وإزالتِهِ ومَحوِ أثرِهِ، وهكذا الصائنُ لقلبِهِ ودينِهِ تراه يتجنَّبُ طُبُوعَ الذنوبِ وآثارَها، فإنَّ لَهَا فِي

(١) «تهذيب الإحياء» (٢/ ١٣٨).

(٢) الطبوعُ: جمعُ طَبَعٍ. والطبْعُ بالسكونِ: الختمُ، وبالتحريك: الدنسُ، وأصلُهُ من الوسخِ والدَّنَسِ يغشيان السيفَ.

القلبِ طُبُوعًا وآثارًا أعظمُ من الطُّبُوعِ الفاحشةِ في الثوبِ النقيِّ البياضِ، ولكنَّ علىٰ العيونِ غشاوةً أن تُدرِكَ تلك الطبوعَ.

فتراه يهربُ من مظانِّ التلوُّثِ، ويحترسُ من الخَلقِ، ويتباعدُ من مخالطتهم مخافةَ أن يحصلَ لقلبهِ ما يحصلُ للثوبِ الذي يُخالط الدَّبَّاغين والذَّبَّاحين والطَّبَّاخين وغيرَهم.

بخلافِ صاحبِ العلوِّ، فإنَّه وإن شابه هذا في تحرُّزِهِ وتجنُّبِهِ فهو يقصدُ أن يعلوَ رقابَهم ويجعلَهم تحت قدميه، فهذا لونٌ وذاك لونٌ»[(١)].

وقد كان إمامُ العلماءِ وقدوةُ السالكين وأُسْوَةُ المؤمنين نَبِيُّنَا محمَّدٌ ﷺ، أشدَّ النَّاسِ تواضعًا علىٰ عُلُوِّ منصبِهِ ورِفْعَةِ قَدرِهِ.

عن الأسودِ بن يزيدَ قالَ: «سُئِلت عائشَةُ ﵂: مَا كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَصنعُ في بَيتِهِ؟ قَالَت: كَان يَكُونُ فِي مِهنَةِ أهلِهِ -يعني: خِدْمَةِ أهلِهِ- فإِذَا حَضَرَت الصَّلاةُ، خَرَجَ إلَىٰ الصَّلاة». رواه البخاري[(٢)].

وعن أبي رِفَاعَةَ تَمِيمِ بن أسيدٍ ﵁ قَالَ: «انتَهَيتُ إلَىٰ رَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ يَخطُبُ، فَقُلتُ: يَا رَسُولَ الله، رَجُلٌ غَريبٌ جَاءَ يسألُ عَن دِينِهِ لا يَدرِي مَا دِينُهُ؟ فَأقبَلَ عَلَيَّ رَسُولُ الله ﷺ، وتَرَكَ خُطبَتَهُ حَتَّىٰ انتَهَىٰ إلَيَّ، فَأُتِيَ بِكُرسِيٍّ، فقَعَدَ عَلَيهِ، وجَعَلَ يُعَلِّمُنِي مِمَّا عَلَّمَهُ الله، ثُمَّ أَتَىٰ خُطْبَتَهُ، فَأَتَمَّ آخِرَهَا» رواه مسلم[(٣)].

(١) «الروح» لابن القيم (ص٣١٧).
(٢) رواه البخاري (٦٤٤).
(٣) رواه مسلم (٨٧٦).

وعَن أَنسٍ ﷺ: «أَنَّهُ مَرَّ عَلَىٰ صِبيَانٍ فَسَلَّمَ عَلَيهم وقَالَ: كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ». مُتَّفَقٌ عليه(١).

وقد كان قانونُ السَّلَفِ الذي يحكمهم، ويهتدون بنورِه، الالتزَامَ بقولِ النبيِّ ﷺ الذي رواه عِيَاضُ بنُ حِمَارٍ ﷺ قالَ: «**إِنَّ الله أَوحَىٰ إِلَيَّ أن تَوَاضَعُوا حَتَّىٰ لا يَفْخَرَ أَحَدٌ علَىٰ أَحَدٍ، ولا يَبغِيَ أحدٌ عَلىٰ أَحَدٍ**» رواه مسلم(٢).

فالعلمُ الصحيحُ والاهتداءُ بالهدىٰ المستقيم حربٌ لتلك الرذائلِ من الكبرِ والعُجب والصَّلَفِ والغرورِ؛ لأنَّه «إذا تمَّ علمُ الإنسانِ؛ لم يَرَ لنفسهِ عملاً، وإنَّما يرىٰ إنعَامَ الموفِّقِ لذلك العملِ، الذي يمنعُ العاقلَ أن يرىٰ لنفسِهِ عملاً أو يُعجَبَ به، وذلك بأشياءَ:

منها: أنَّه وَفَّقَ لذلك العملِ: ﴿حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:٧].

ومنها: أنَّه إذا قِيسَ بالنِّعَم لَمْ يَفِ بمعشارِ عُشرِهَا.

ومنها: أنَّه إذا لُوحِظَتْ عَظَمَةُ المخدومِ، احتُقِرَ كلُّ عملٍ وتعبُّدٍ.

هذا إذا سَلِمَ من شائبةٍ، وخَلَصَ من غَفلَةٍ، فأمَّا والغفلاتُ تحيطُ به؛ فينبغي أن يغلبَ الحذَرُ من ردِّه، ويخافَ العتابَ علىٰ تقصيرِهِ فيه، فيشتغل عن النظرِ إليه.

وتأمَّل علىٰ الفُطنَاءِ أحوالَهُم في ذلك، فالملائكةُ الذين يسبِّحون الليلَ والنَّهَارَ لا يفتُرون قالوا: ما عبدناك حَقَّ عبادتِكَ.

(١) رواه البخاري (٥٨٩٣)، ومسلم (٢١٦٨).

(٢) رواه مسلم (٢٨٤٦).

والخليلُ عليه السلام **يقولُ**: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِى﴾ [الشعراء:٨٢]، وما أدلَّ بتصبُّرِهِ علىٰ النَّارِ وتسليمِهِ الولدَ إلىٰ الذبحِ.

ورسولُ الله ﷺ يقولُ: «**مَا مِنكُم مَن يُنجِيهِ عَمَلُهُ**»، قَالُوا: ولا أنتَ؟ قالَ: «**ولا أنَا، إلا أَن يَتغَمَّدَنِي الله بِرَحمَتِهِ**»(١).

وأبو بكر رضي الله عنه **يقولُ**: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسولَ الله؟

وعمرُ رضي الله عنه **يقولُ**: لو أنَّ لي طلاعَ الأرضِ؛ لافتديتُ بها من هولِ ما أمامي قبل أن أعلمَ ما الخبرُ.

وابنُ مسعودٍ رضي الله عنه يقولُ: ليتني إذا متُّ لا أُبعَثُ.

وعائشةُ رضي الله عنها تقولُ: ليتني كنتُ نَسيًا مَنسيًّا.

وهذا شأنُ العقلاءِ -فَرَضيَ الله عن الجميعِ-.

ولولا عِزَّةُ الفَهمِ ما تَكبَّرَ مُتكَبِّرٌ علىٰ جنسِهِ، ولَكَانَ كُلُّ خَامِلٍ خائفًا محتقرًا، حَذِرًا من التقصيرِ في شُكْرِ ما أُنعِمَ عليه بهِ.

وفَهمُ هذا المشروحِ يُنكِّسُ رأسَ الكبرِ، ويُوجِبُ مساكَنَةَ الذُّلِّ، فتأمَّله فإنَّه أصلٌ عظيمٌ»(٢).

ويكفي العالِمَ شرفًا ما في العلمِ من شَرَفٍ، ويكفيه عِزًّا ما فيه من عزٍّ.

---

(١) رواه البخاري (٦٠٩٨)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) «صيد الخاطر» (ص٤٧٢).

قال أبو مروان الطُّبنيُّ:

إنِّـي إذَا احْتَوَشَـتْنِي [١] أَلـفُ مَحبَـرَةٍ ... يَكتُـبْنَ: حَدَّثَنِـي طَـورًا، وَأخْبَرَنِـي

نَـادَتْ بِحَـضْرَتِيَ الأقـلامُ مُعْلِـنَةً ... هَـذِي الْمَفَاخِـرُ لا قَعْـبَانِ مِـن لَـبَنِ

وعلىٰ الجملةِ؛ فما تحلَّىٰ العالِمُ بحليةٍ أجملَ، ولا ارتدىٰ حُلَّةً أفخرَ من التواضعِ، وما تردَّىٰ برداءٍ أحقرَ، ولا تَزَيَّا بزيٍّ أسوأ من الكبرِ والُعجبِ.

لذلك وصَّىٰ عمرُ رضي الله عنه أهلَ العلمِ بالتواضعِ للمعلِّمِ والمتعلِّمِ سواء، وهي نصيحةٌ غاليةٌ، فَاجْعَلْهَا منك علىٰ ذُكْرٍ أبدًا.

قال عمرُ رضي الله عنه: «تعَلَّمُوا العلمَ وعَلِّمُوهُ النَّاسَ، وتعلَّمُوا له الوقارَ والسَّكِينَةَ، وتَوَاضَعُوا لمن تعلَّمتم منه، ولمن علَّمتموه، ولا تكونوا جبابرةَ العلماءِ، فلا يقوم جهلُكم بعلمِكُم» [٢].

* * *

(١) احتوش القومُ الشيءَ: أحاطوا به وجعلوه وسطَهم.

(٢) «جامع بيان العلم» (١/ ١٣٥).

٧- فَقْدُ الخَشيَةِ فيه

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

أي: إنما يخشاه حَقَّ خشيتِهِ العلماءُ العارفون به؛ لأنَّه كلَّما كانت المعرفةُ للعظيمِ القديرِ العليمِ الموصوفِ بصفاتِ الكمالِ، المنعوتِ بالأسماءِ الحُسْنَىٰ، كلَّما كانت المعرفةُ به أتمَّ، والعلمُ به أكمل كانت الخشيةُ له أعظمَ وأكثرَ.

قال عليُّ بن أبي طلحةَ عن ابن عباسٍ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ قال: «الذين يعلمون أنَّ الله علىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ».

وقال سعيدُ بن جبيرٍ: «الخشيةُ هي التي تحول بينك وبين معصيةِ الله ﷻ».

وقال الحَسَنُ البصريُّ: «العالِمُ مَن خَشيَ الرحمنَ بالغيبِ، ورَغِبَ فيما رَغَّبَ الله فيه، وزَهِدَ فيما سَخِطَ الله فيه، ثم تلا الحسنُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾».

وعن ابن مسعودٍ رضي الله عنه **أنَّه قال**: «ليس العِلمُ عن كَثرَةِ الحديثِ، ولكن العلمَ عن كَثْرَةِ الخشيةِ».

وقال أحمدُ بن صالحٍ المصريُّ، عن ابنِ وهبٍ، عن مالكٍ، قال: «إنَّ العلمَ ليس بكثرةِ الروايةِ، وإنَّما العلم نُورٌ يجعلُهُ الله في القلبِ».

قال أحمدُ بن صالحٍ المصري: معناه: أنَّ الخشيةَ لا تُدرَكُ بكثرةِ الروايةِ،

وإنَّما العلمُ الذي فَرَضَ الله ﷻ أن يُتَّبَعَ، إنَّما هو الكتابُ والسُّنةُ وما جاءَ عن الصحابةِ ﭫ، ومَن بَعدَهم من أئمةِ المسلمين، فهذا لا يُدرَكُ إلا بالروايةِ، ويكونُ تأويلُ قوله: نورٌ، يُريدُ به: فَهمَ العلمِ، ومعرفةَ معانيه.

وقال سفيانُ الثوريُّ عن أبي حيَّان التَّيمِيِّ عن رجلٍ قال: «كان يُقال: العلماءُ ثلاثةٌ: عالِمٌ بالله عالِمٌ بأمرِ الله، وعالِمٌ بالله ليس بعالمٍ بأمرِ الله، وعالِمٌ بأمرِ الله ليس بعالمٍ باللهِ؛ فالعالِمُ بالله وبأمرِ الله الذي يخشىٰ الله تعالىٰ ويعلمُ الحدودَ والفرائضَ، والعالِمُ بالله ليس بعالِمٍ بأمرِ الله الذي يخشىٰ الله ولا يعلمُ الحدودَ والفرائضَ، والعالِمُ بأمرِ الله ليس بعالِمٍ بالله الذي يعلمُ الحدودَ والفرائضَ ولا يخشىٰ الله ﷻ»(١).

وقال القرطبيُّ טּ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ -يعني: بعَقِبِ قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾- تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ، لدلالتِهِ علىٰ عقوبةِ العصاةِ وقهرِهم، وإثابةِ أهلِ الطاعةِ والعفوِ عنهم، والمعاقِبُ المثيبُ حَقُّهُ أن يُخشَىٰ»(٢).

وقد توعَّدَ الله ﷻ الذين لا تلينُ قلوبُهم للذِّكرِ، ولا يُحدِثُ عندهم الخشيةَ، ومدحَ الذين تدركُهم الخشيةُ عند سَماعِ كلامِهِ سبحانه، فقال تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٢-٢٣].

---

(١) انظر: «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٥٥٤).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ٣٣٢).

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «قولهُ تعالىٰ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: فلا تلين عند ذِكرِهِ، ولا تَخشعُ، ولا تَعي، ولا تَفهمُ، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

ثمَّ مدحَ الله عَزَّ وَجَلَّ كتابَهُ القرآنَ العظيمَ المنزَّلَ علىٰ رسولِهِ الكريم؛ قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ﴾، قال مجاهدٌ: يعني: القرآنُ كلُّه متشابهٌ مثاني، وقال قتادةُ: الآيةُ تشبهُ الآية، والحرفُ يُشبِهُ الحرفَ، وقال الضَّحَّاكُ: ﴿مَّثَانِىَ﴾: ترديدُ القولِ ليفهموا عن ربِّهم -تبارك وتعالىٰ-، وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بن أسلمَ: ﴿مَّثَانِىَ﴾ مُرَدَّد، ردَّد موسىٰ في القرآنِ، وصالحًا، وهودًا، والأنبياءَ -عليهم الصلاةُ والسلامُ- في أمكنةٍ كثيرةٍ.

وقال سعيدُ بن جبيرٍ، عن ابن عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿مَّثَانِىَ﴾ أي: القرآنُ يُشبه بعضُه بعضًا، ويردُّ بعضهُ علىٰ بعضٍ.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، أي: هذه صفةُ الأبرارِ، عند سماعِ كلام الجبَّارِ، المهيمنِ العزيزِ الغفَّارِ، لما يفهمون منه من الوعد والوعيدِ، والتخويفِ والتهديدِ، تقشعرُّ منه جلودُهم من الخشيةِ والخوفِ.

﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لما يرجون ويؤمِّلُون من رحمتِهِ ولطفِهِ.

قال عبد الرَّزَّاقِ: حدَّثنا معمَرٌ، قال: تلا قتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾، قال: هذا نَعتُ أولياءِ الله،

نَعَتَهُمُ الله ﷻ بأن تَقشَعِرَّ جلودُهم وتبكيَ أعينُهم وتطمئنَّ قلوبُهم إلىٰ ذِكرِ الله، ولم يَنْعَتْهُم بذهابِ عقولهم والغَشَيَانِ عليهم إنَّما هذا في أهل البدعِ، وهذا من الشيطانِ.

وقولُهُ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ﴾، أي: هذه صفةُ مَن هداه الله، ومَن كان علىٰ خِلافِ ذلك فهو ممَّن أضَلَّهُ الله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾»[(١)].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولهُ تعالَىٰ: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ معنىٰ: ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾، أنَّ قلوبَهم تزدادُ قسوةً من سماعِ ذكرِه، وقيل: إنَّ (مِنْ) بمعنىٰ (عَنْ)، والمعنىٰ: قَسَت قلوبُهُم عن قبولِ ذكرِ الله، وهذا اختيارُ الطبريِّ.

وقال مالكُ بن دينارٍ: ما ضُرِبَ عَبدٌ بعقوبةٍ أعظمَ من قسوةِ القلبِ، وما غَضِبَ الله علىٰ أحدٍ إلا نَزَعَ الرحمةَ من قلبِهِ»[(٢)].

فالخشيةُ والخشوعُ من لوازِم العلمِ الحقِّ لا ينفكَّان عنه بحالٍ أبدًا؛ لأنَّهما من لوازِم الفهمِ الحقِّ، وأمَّا الوقوفُ علىٰ رسومِ الألفاظِ وصورةِ العلمِ فشيءٌ آخرُ.

«وليس العلمُ صورَ الألفاظِ، إنمَّا المقصودُ فَهمُ المرادِ منه، وذلك يُورِثُ الخشيةَ والخوفَ، ويُري المنَّةَ للمنعِمِ بالعلمِ، وقُوَّةَ الحُجَّةِ له علىٰ المتعلِّمِ»[(٣)].

والخشوعُ منزلةٌ من منازلِ السائرين إلىٰ الله تعالىٰ، لها معالِمُ وعليها شواهدُ.

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٥٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٥/ ٢٣٧).

(٣) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٥٤٧).

وقد شرحَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «مدارج السالكين» (١/ ٥٢٠) معَالِمَهَا، وبيَّن شواهدَها، غايةَ البيانِ وأجلاه، فقال** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخشوعُ في أصلِ اللُّغةِ: الانخفاضُ، والذُّلُّ، والسكونُ، قال تعالىٰ: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه:١٠٨]، أي: سَكَنَت، وذَلَّت، وخَضَعَت، ومنه وَصفُ الأرضِ بالخشوعِ، وهو: يُبْسُهَا، وانخفاضُها، وعدمُ ارتفاعِها، بالريِّ والنباتِ، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [فصلت:٣٩].

والخشوعُ: قيامُ القلبِ بين يَدَي الرَّبِّ بالخضوعِ والذُّلِّ والجمعيَّةِ عليه.

وقيل: الخشوعُ: الانقيادُ للحقِّ. وهذا من موجباتِ الخشوعِ، فمن علاماتِهِ: أنَّ العبدَ إذا خُولِفَ ورُدَّ عليه بالحقِّ، استقبلَ ذلك بالقبولِ والانقيادِ.

وقيل: الخشوعُ: خمود نيران الشهوة، وسكون دخان الصدور، وإشراق نور التَّعظيمِ في القلب.

وقال الجنيد: الخشوع: تذلُّلُ القلوبِ لعلَّامِ الغيوبِ.

وأجمعَ العارفون علىٰ أنَّ الخشوعَ محلُّهُ القلبُ، وثمرتُهُ الجوارحُ، وهي تُظهره.

وقال بعضُ العارفين: حُسنُ أَدَبِ الظَّاهِرِ عُنوانُ أَدَبِ الباطنِ.

والحقُّ: أنَّ الخشوعَ معنًىٰ يلتئمُ من التعظيمِ، والمحبَّةِ، والذُّلِّ، والانكسارِ». اهـ

فإذا أثمرَ العلمُ في القلبِ خَشيَةً وخُشُوعًا، فهذا هو العلمُ النافعُ الذي سَأَلَ النبيُّ ﷺ ربَّهُ سبحانه، وإذا لم يُثمر العلمُ في القلبِ خشيةً وإخباتًا، فهذا هو العلمُ

الذي تعوَّذَ النبيُّ ﷺ منه، وأمَرَ الأمة أن تتعوَّذَ بالله تعالىٰ منه.

عنَ أَبِي الدَّرداءِ ﷺ قَالَ: «كُنَّا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فَشَخَص بِبَصَرِه إِلَىٰ السَّمَاءِ، ثمَّ قالَ: «**هذَا أَوَانُ يُختَلَسُ العِلمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّىٰ لا يَقْدِرُوا مِنهُ عَلَىٰ شَيءٍ**».

فَقَالَ زِيَادُ بنُ لَبِيدٍ الأَنْصَارِيُّ: كَيفَ يُختَلَسُ مِنَّا، وقَد قَرَأنَا القُرْآنَ؟ فَوَالله لَنَقْرَأَنَّهُ، وَلنُقْرِئَنَّهُ نِساءَنَا وَأَبْنَاءَنَا.

فقَالَ: «**ثَكِلَتكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ، إن كُنتُ لأَعُدُّكَ مِن فُقَهَاءِ أَهلِ المَدينَةِ؛ هذِهِ التَّورَاةُ والإنجِيلُ عِندَ اليَهُودِ والنَّصَارَىٰ فَمَاذَا تُغني عَنهُم؟!**».

قَالَ جُبَيرُ بنُ نُفَيرٍ: فَلَقِيتُ عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ، قُلتُ: ألا تَسمَعُ إِلَىٰ مَا يَقُولُ أخوكَ أبو الدَّرداءِ؟ فَأَخبَرتُهُ بالَّذِي قَالَ أَبُو الدَّرداءِ، قَالَ: صَدَقَ أَبُو الدَّرداءِ، إن شئتَ لأُحَدِّثَنَّكَ بِأَوَّلِ عِلمٍ يُرفَعُ مِن النَّاسِ: الخُشُوعُ، يُوشِكُ أَن تَدخُلَ مَسجِدَ جَمَاعَةٍ فلا تَرَىٰ فيهِ رَجُلاً خَاشِعًا» رواه الترمذيُّ (٢٦٥٣)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ غريبٌ، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٣٧)، وأخرجه النسائيُّ في «السنن الكبرىٰ» (٣/ ٤٥٦) رقم (٣٩٠٩)، عن جبير بن نفيرٍ عن عوف بن مالكٍ لا عن أبي الدرداءِ ﷺ، وتصحَّفَ علىٰ ناشري «السننِ الكبرىٰ»: جُبير ابن نفيرٍ بـ «جبيرِ بن نصيرٍ»!!

«**فالعلمُ النافعُ**: هو ما باشَرَ القلوبَ فأوجبَ لها السكينةَ والخشيةَ والإخباتَ لله، والتواضعَ والانكسارَ، وإذا لم يباشر القلبَ ذلك العلمُ، وإنما كان علىٰ اللسانِ، فهو حُجَّةُ الله علىٰ ابن آدمَ يقومُ علىٰ صاحبِهِ وغيرِه، كما قال ابنُ مسعودٍ ﷺ: «إنَّ

أَقْوَامًا يَقرَءُونَ القُرآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُم، ولَكِن إذَا وَقَعَ فِي القَلبِ فَرَسَخَ فِيهِ؛ نَفَعَ صَاحِبَهُ».

فأخبر النبيُّ ﷺ أنَّ العلمَ الذي عند أهلِ الكتابين من قبلنا موجودٌ بأيديهم ولا ينتفعون بشيءٍ منه، لمَّا فقدوا المقصودَ منه، وهو وصولُهُ إلىٰ قلوبهم حتىٰ يجدوا حلاوةَ الإيمانِ به، ومنفعتَه بحصولِ الخشيةِ والإنابةِ لقلوبِهم، وإنَّما هو علىٰ ألسنتهم، تُقامُ به الحُجَّةُ عليهم.

ولهذا المعنىٰ وَصَفَ الله سبحانه في كتابِهِ العلماءَ بالخشية، كما قالَ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩]. ووصفَ العلماءَ من أهلِ الكتابِ قبلنا بالخشوعِ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء:١٠٧-١٠٩].

وقولُهُ تعالىٰ في وَصفِ هؤلاء الذين أُوتوا العلمَ: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر:٢٢-٢٣] ولينُ القلوبِ: هو زوالُ قساوتها لحدوثِ الخشوعِ فيها والرِّقَةِ.

وقد عَاتَبَ الله مَن لا يخشعُ قلبُهُ لسماعِ كتابِ الله وتدبُّرِه، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الآية [الحديد:١٦].

قال ابنُ مسعودٍ ﷺ: «مَا كَانَ بَينَ إسلامنَا وبَينَ أن عُوتبنا بِهذِهِ الآيةِ إلا أربَعُ سِنينَ». أخرجه مسلم(١).

وقد سَمِعَ كثيرٌ من الصالحين هذه الآيةَ تُتْلَىٰ فأثَّرت فيهم آثارًا متعدِّدَةً؛ فمنهم مَن مات عند ذلك لانصداعِ قلبِهِ بها، ومنهم مَن تابَ عند ذلك وخرج عمَّا فيه.

وقال تعالىٰ: ﴿لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر:٢١].

قال أبو عمران الجونيُّ: «والله لقد صَرَّفَ إلينا ربُّنَا في هذا القرآنِ ما لو صَرَّفَهُ إلىٰ الجبالِ لمحاها ودحاها».

وكان مالكُ بن دينارٍ -رحمه الله تعالىٰ- يقرأُ هذه الآيةَ ثم يقول: «أُقسم لكم لا يؤمنُ عبدٌ بهذا القرآنِ إلا صُدِعَ قلبُهُ».

وقد كان النبيُّ ﷺ يستعيذُ بالله من قلبٍ لا يخشعُ؛ كما في «صحيحِ مسلمٍ»(٢) عن زيدِ بن أرقم: أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقولُ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِن عِلمٍ لا ينفَعُ، ومَنِ قَلبٍ لا يَخشَعُ، وَمِن نَفسٍ لا تَشبَعُ، ومِن دَعوَةٍ لا يُستَجَابُ لَهَا**»(٣).

قال أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «جامع بيان العلم» (١/ ١٨٨)**: «قال يزيدُ بن قودر: يُوشِكُ أن ترىٰ رجالًا يطلبون العلمَ فيتغايرون عليه كما يتغاير الفسَّاقُ علىٰ المرأةِ،

(١) في صحيحه (٣٠٢٧).

(٢) رواه مسلم(٢٧٢٢).

(٣) «الخشوع في الصلاة» لابن رجب الحنبلي (ص١٤).

هو حظُّهم منه».

وأخرج بسندِهِ عن أبي قلابة قال: إذا أحدَثَ الله لك علمًا فَأحدِث له عبادةً، ولا يكن همَّكَ أن تُحَدِّثَ به.

وبسندِهِ عن سفيانَ الثوريِّ قال: «إنَّما يُتَعَلَّمُ العلمُ ليُتَّقَىٰ به الله، وإنَّما فُضِّلَ العلمُ علىٰ غيرهِ لأنَّه يُتَّقَىٰ به الله».

وقال أبو الأسودِ الدُّؤليُّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيرَهُ ... هَلَّا لِنَفسِكَ كَانَ ذَا التَّعلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وذِي الضَّنَىٰ ... كَيمَا يَصِحَّ بِهِ وَأَنتَ سَقِيمُ

وَأَرَاكَ تُلقِحُ بالرَّشَادِ عُقُولَنَا ... أَبَدًا وأَنتَ مِنَ الرَّشَادِ عَدِيمُ

ابدَأ بنَفسِكَ فَانهَهَا عَن غَيِّهَا ... فَإِذَا انتَهَت عَنهُ فَأَنتَ حَكِيمُ

فَهُنَاكَ يُسمَعُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَىٰ ... بالعِلمِ مِنكَ ويَنْفَعُ التَّعلِيمُ

لا تَنهَ عَن خُلُقٍ وتَأتِيَ مِثلَهُ ... عَارٌ عَلَيكَ إذَا فَعَلتَ عَظِيمُ

* * *

٨- الْمِرَاءُ والجِدَالُ والْمُخَاصَمَةُ

المِرَاءُ: طَعنٌ في كلامِ الغيرِ بإظهارِ خَلَلٍ فيه، من غيرِ أن يرتَبِطَ به غَرَضٌ سوىٰ تحقيرِ الغيرِ، وإظهارِ مزيةِ الكياسةِ.

والجِدَالُ: عبارةٌ عن أمرٍ يتعلَّقُ بإظهارِ المذاهبِ وتقريرِها.

والمجَادَلَةُ: عبارةٌ عن قَصدِ إفحامِ الغيرِ وتعجيزِهِ، وتنقيصِهِ بالقَدحِ في كلامِهِ، ونسبَتِهِ إلىٰ القُصُورِ والجهلِ فيه.

والخصومةُ: لَجَاجٌ في الكلامِ ليُستَوفَىٰ به مالٌ أو حقٌّ مقصودٌ، وذلك تارةً يكون ابتداءً وتارةً يكون اعتراضًا، والمِراءُ لا يكونُ إلا باعتراضٍ علىٰ كلامٍ سَبَقَ، فالخصومةُ وراءَ الجِدَالِ والمِرَاءِ(١).

وفي الشرعِ ترهيبٌ شديدٌ من تلك الأخلاقِ المذمومةِ، والخصالِ المرذولةِ، ففي «صحيح البخاري»(٢) عن عُبَادَةَ بن الصَّامِتِ ﵁ قالَ: خَرجَ النَّبِيُّ ﷺ ليُخبِرَنَا بلَيلَةِ القَدرِ، فتَلاحَىٰ رَجُلانِ مِنَ المسلمينَ، فقَالَ: «**خَرَجتُ لأخبرَكُم بلَيلَةِ القَدرِ، فتلاحَىٰ فُلانٌ وَفُلانٌ فَرُفِعَت، وعَسَىٰ أَن يَكُونَ خَيرًا لَكُم، فَالتَمِسُوها فِي التَّاسِعَةِ والسَّابِعَةِ والخَامِسَةِ**».

(١) هذه التعريفاتُ مستمدَّةٌ من: «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ٤٩).

(٢) رواه البخاري (٤٩، ١٩١٩، ٥٧٠٢).

وَفِي روايةِ أَبي نَضْرَةَ عن أبي سعيدٍ الخُدرِيِّ عند مُسلمٍ قَالَ: «**فَجَاءَ رَجُلانِ يَحتَقَّانِ، مَعَهُمَا الشَّيطَانُ، فَنُسِّيتُهَا**»(١).

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «(**رَجُلانِ يَحتَقَّانِ**) هو بالقافِ، ومعناه: يطلبُ كلُّ واحدٍ منهما حقَّه ويدَّعي أنَّه المُحِقُّ، وفيه: أنَّ المخاصمةَ والمنازعة مذمومةٌ، وأنَّها سببٌ للعقوبةِ المعنويَّةِ»(٢).

وقد بوَّبَ البخاريُّ رَحِمَهُ اللَّهُ **لحديث عُبَادَةَ** رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ **الذي سَلَفَ بقوله:** «باب رَفعِ مَعرِفَةِ لَيلَةِ القَدرِ لِتَلاحِي النَّاسِ».

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: بسببِ تَلاحي النَّاسِ، وَقَيَّدَ الرَّفْعُ (بمعرفة) إشارةً أنَّها لم تُرفَع أَصلًا ورأسًا»(٣).

وعن عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «**إنَّ أَبغَضَ الرِّجَالِ إلَىٰ الله الأَلَدُّ الخَصِمُ**» متفقٌ عليه(٤)، الأَلَدُّ: الشديدُ الخُصُومَةِ، والخَصِمُ: الذي يَحُجُّ مَن يُخَاصِمُهُ.

قال الحافظُ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأَلَدُّ: الشديدُ اللَّدَدِ، أي: الجِدَال، مشتقٌّ من اللَّديدَينِ، وهما صفحتا العنقِ، والمعنىٰ: أنَّه من أيِّ الجهاتِ أَخَذَ في الخصومةِ قَوِيَ.

---

(١) رواه مسلم (١١٦٧).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٦٣).

(٣) «فتح الباري» (٤/ ٣١٤).

(٤) رواه البخاري (٢٣٢٥)، ومسلم (٢٦٦٨).

والخَصِمُ: -بفتحِ المعجمةِ وكسرِ المهملةِ-، أي: الشديدُ الخصومةِ»(١).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ ﷺ قالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِندَ بَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَتَذَاكَرُ، يَنزِعُ هَذَا بآيَةٍ، ويَنزِعُ هَذَا بآيَةٍ، فَخَرَجَ علينا رَسُولُ اللهِ ﷺ كَأَنَّمَا يُفقَأُ في وَجهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، فَقَالَ: «**يَا هَؤُلاءِ، بِهذَا بُعِثتُم، أَم بِهذَا أُمِرتُم؟ لا تَرجِعُوا بعدِي كُفَّارًا يضربُ بَعضُكُم رِقَابَ بَعضٍ**».

قال المنذريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «رواه الطبرانيُّ في «الكبير»، وفيه سُويد»، والروايةُ التي يريد المنذريُّ: في «الكبير» برقم (٥٤٤٢)، وهو يعني سويدًا أبا حاتم بن إبراهيم، وفيه ضعفٌ كما ذكر الهيثميُّ في «مجمع الزوائد» (١/ ١٥٦) عن أئمة الجرح والتعديل: النسائي، وابن معين، وأبي زرعة.

قال الألبانيُّ معلِّقًا على قولِ المنذريِّ: «يعني سويدَ بن إبراهيم أبا حاتمٍ، وفيه ضعفٌ، لكن رواه الطبرانيُّ عن أنسٍ مثله، ورجالُه ثقاتٌ أثباتٌ كما في المجمع (١/ ١٥٧)، وله شاهدٌ من حديث ابن عمروٍ عند ابن ماجه وأحمد بسندٍ حَسَنٍ، فالحديثُ صحيحٌ»(٢).

وعَن أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قالَ: قال رسول الله ﷺ: «**مَا ضَلَّ قَومٌ بَعدَ هُدًى كَانُوا عَلَيهِ إلا أُوتُوا الجَدَلَ**، ثُمَّ تَلا رَسُولُ اللهِ ﷺ هذِهِ الآيَةَ: ﴿**مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ**﴾ [الزخرف:٥٨]» رواه الترمذيُّ (٣٢٥٣)، وقال: «هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ»،

(١) «فتح الباري» (٥/ ١٢٨).
(٢) «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٦١).

وابن ماجه (٤٨)، وحسَّنَه الألبانيُّ في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ١٤)، وابن أبي الدنيا فِي «كتاب الصمت» (١٣٦).

وقال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٦١) تعليقًا علىٰ قولِ الترمذيِّ: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ: «وصحَّحه أيضًا الحاكمُ ووافقه الذهبيُّ، وإنَّما هو حَسَنٌ فقط».

وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**المِرَاءُ فِي القُرآنِ كُفرٌ**»، رواه أبو داود (٤٦٠٣)، وصحَّحه الألبانيُّ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١١٧)، وابن حبان (٧٣)، والحديثُ أخرجه أحمد (٧٤٩٩، ١٠٤١٩).

وعن أبي أُمامةَ ﷺ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**أنا زعيمٌ بِبَيتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِرَاءَ وَإنْ كَانَ مُحِقًّا، وَبِبيتٍ فِي وَسطِ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ الكَذِبَ وَإن كَانَ مَازِحًا، وَبِبيتٍ فِي أعلَىٰ الجَنَّةِ لِمَن حَسُنَ خُلُقُهُ**» رواه أبو داود (٤٨٠٠)، وحسَّنَهُ الألبانِّي في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٧٩)، وفي «سلسلة الأحاديث الصحيحة» (٢٧٣) جمعٌ لطرقه وبحثٌ في أحوالِ رواتِهِ.

وقد صحَّحه الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب»(١/ ٦٠)، وفيه أيضًا حسَّن حديثَ معاذٍ ﷺ الذي رواه البزارُ والطبرانيُّ، وفيه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قالَ: «**أنا زعيمٌ بِبيتٍ في رَبَضِ الجَنَّةِ ، وَبِبيتٍ فِي وَسطِ الجَنَّةِ، وَبِبيتٍ فِي أعلَىٰ الجَنَّةِ لِمَن تَرَكَ المِرَاءَ وَإنْ كَانَ مُحِقًّا، وتَرَكَ الكَذِبَ وَإن كَانَ مَازِحًا، وحَسَّنَ خُلُقَهُ**».

وَرَبَضُ الجنَّةِ: -هو بفتحِ الراءِ والباءِ الموحَّدةِ وبالضادِ المعجمةِ-، وهو ما حولها، فالرَّبضُ هنا، حوالي الجنةِ وأطرافُها، لا في وسطِها.

قال أبو حامد -عفا الله عنه-: «حَدُّ المراءِ: هو كلُّ اعتراضٍ علىٰ كلامِ الغيرِ بإظهارِ خَلَلٍ فيه، إمَّا في اللفظِ، وإمَّا في المعنىٰ، وإمَّا في قَصدِ المتكلِّمِ.

وتركُ المراءِ بتركِ الإنكارِ والاعتراضِ، فكلُّ كلامٍ سمعتَه، فإن كان حقًّا فصدِّق به، وإن كان بَاطلًا أو كذبًا، ولم يكن متعلِّقًا بأمورِ الدينِ فَاسكُت عنه.

والطَّعنُ في كلامِ الغيرِ تارةً يكون في لفظِهِ، بإظهارِ خَلَلٍ فيه من جهةِ النَّحوِ، أو من جهةِ اللُّغَةِ أو من جهةِ العربيةِ، أو من جهةِ النَّظمِ والترتيبِ بسوءِ تقديمٍ أو تأخيرٍ، وذلك يكون تارةً من قصورِ المعرفةِ، وتارةً يكون بطغيانِ اللِّسَانِ وكيفما كان فلا وَجهَ لإظهارِ خَلَلِهِ».

وأمَّا في المعنىٰ؛ فبأن يقول: ليس كما تقولُ، وقد أخطأتَ فيه من وجهِ كذا وكذا.

وأمَّا في قصدِهِ؛ فمثل أن يقولَ: هذا الكلامُ حَقٌّ، ولكن ليس قصدَكَ منه الحقُّ، وإنَّما أنت فيه صاحبُ غَرَضٍ، وما يجري مجراه.

وهذا الجنسُ إن جرىٰ في مسألةٍ علميةٍ ربمَّا خُصَّ باسمِ الجَدَلِ، وهو أيضًا مذمومٌ، بل الواجبُ السكوتُ، أو السؤالُ في معرضِ الاستفادةِ لا علىٰ وجهِ العنادِ والإنكارِ، أو التَّلَطُّفُ في التعريفِ لا في معرِضِ الطَّعنِ.

وأمَّا المجادلةُ، فعبارة عن قَصدِ إفحام الغيرِ وتعجيزه وتنقيصِهِ بالقَدحِ في كلامِهِ، ونسبتِهِ إلىٰ القصورِ والجهلِ فيه.

وآيةُ ذلك: أن يكونَ تنبيهُهُ للحقِّ من جهةٍ أخرىٰ مكروهًا عند المجادِلِ،

يُحِبُّ أن يكونَ هو المُظْهِرَ له خَطَأَهُ، ليبيِّن به فَضْلَ نفسِهِ، ونقصَ صاحبِهِ، ولا نجاةَ من هذا إلا بالسكوتِ عن كلِّ ما لم يَأْثَم به لو سكتَ عنه.

وأمَّا الباعث علىٰ هذا فهو الترفُّعُ بإظهارِ العلمِ والفضلِ، والتَّهَجُّمُ علىٰ الغيرِ بإظهارِ نقصِهِ، وهما شهوتان باطنتان للنفسِ قويتان لها، أمَّا إظهارُ الفضلِ فهو من قبيل تزكيةِ النَّفسِ، وهي من مقتضىٰ ما في العبدِ من طغيانِ دعوىٰ العُلُوِّ والكبرياءِ وهي من صفاتِ الربوبيةِ، وأمَّا تنقيصُ الآخرِ فهو من مقتضىٰ طَبعِ السَّبُعِيَّةِ، فإنَّه يقتضي أنَّ يمزِّقَ غيره ويقصمَهُ ويصدِمَهُ ويؤذيَهُ.

وهاتان صفتان مذمومتان مهلكتان، وإنَّما قُوَّتُهُمَا المراءُ والجدالُ، فالمواظِبُ علىٰ المراءِ والجدالِ مُقَوٍّ لهذه الصفاتِ المهلكةِ، وهذا مجاوزٌ حَدَّ الكراهيةِ، بل هو معصيةٌ مهما حصل فيه إيذاءٌ للغيرِ، ولا تنفكُّ المماراةُ عن الإيذاءِ وتهييجِ الغضَبِ وحَملِ المُعترَضِ عليه أن يعودَ فينصر كلامه بما يُمكِنُه من حقٍّ أو باطلٍ، ويقدحُ في قائلِهِ بكلِّ ما يُتَصَوَّرُ له، فيثُورُ الشِّجَارُ بين المتماريين كما يثورُ الهِراشُ بين الكلبينِ، يقصدُ كلُّ واحدٍ منهما أن يَعَضَّ صاحبَهُ بما هو أعظمُ نكايةً، وأقوىٰ في إفحامِهِ وإلجامِهِ.

فإن قلتَ: فإذا كان للإنسان حقٌّ فلابُدَّ من الخصومةِ في طلبِهِ أو في حفظِهِ مهما ظَلَمَهُ ظالمٌ، فكيف يكون حكمُهُ؟ وكيف تُذَمُّ خصومتُهُ؟

فاعلم أنَّ هذا الذَّمَّ يتناولُ الذي يخاصمُ بالباطلِ، والذي يُخاصِمُ بغيرِ علمٍ، ويتناولُ الذي يمزَحُ بالخصومةِ بكلماتٍ مؤذِيَةٍ ليس يُحتاج إليها في نُصرَةِ الحُجَّةِ وإظهارِ الحقِّ، ويتناولُ الذي يحمله علىٰ الخصومةِ مَحْضُ العنادِ لقَهرِ الخَصمِ.

وأمَّا المظلومُ الذي ينصرُ حُجَّتَهُ بطريقِ الشَّرعِ من غيرِ لَدَدٍ وإسرافٍ وزيادةِ لَجَاجٍ علىٰ قَدرِ الحاجةِ، من غيرِ قَصدِ عنادٍ وإيذاءٍ، ففعلُهُ ليس بحرامٍ، ولكنَّ الأَوْلَىٰ تركُهُ ما وجد إليه سَبِيلًا، فإنَّ ضَبْطَ اللِّسَانِ في الخصومةِ علىٰ حَدِّ الاعتدالِ مُتَعَذِّرٌ»(١).

عِلاجُ المِرَاءِ والجِدَالِ والمُخَاصَمَةِ:

عِلاجُ هذه الأدواءِ مبنيٌّ علىٰ أن «يكسرَ الكِبرَ الباعثَ له علىٰ إظهارِ فضلِهِ، والسَّبُعِيَّةَ الباعثَةَ له علىٰ تنقيصِ غيرِهِ.

فإنَّ علاجَ كلِّ عِلَّةٍ بإماطةِ أسبابِها، وسَبَبُ المِرَاءِ والجِدَالِ ما ذكرناه، ثمَّ المواظبةُ عليه تجعلُه عادةً وطَبعًا حتَّىٰ يتمكَّنَ من النَّفسِ ويعسُرَ الصبرُ عنه.

رُوي أنَّ أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال لداودَ الطائيِّ: لِمَ آثرتَ الانزواءَ؟ قال: لأُجَاهدَ نفسي بترك الجدالِ، قال: احضر المجالسَ، واستمع ما يُقَالُ، ولا تتكلَّم، قال: ففعلتُ ذلك، فما رأيتُ مجاهدةً أشدَّ عليَّ منها.

وهو كما قال، لأنَّ مَن سَمِعَ الخطأ من غيرِهِ، وهو قادرٌ علىٰ كشفِهِ، تَعَسَّرَ عليه الصبرُ عند ذلك جدًّا، ولذلك قال ﷺ: «**مَن تَرَكَ المِرَاءَ وَهُوَ مُحِقٌّ؛ بُنِيَ لَهُ بَيتٌ فِي وَسَطِ الجَنَّةِ**»(٢) لشدَّةِ ذلك علىٰ النَّفسِ، وأكثرُ ما يغلبُ ذلك فِي المذاهبِ

(١) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١١٣)، و«موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين» للقاسمي (ص٢٨٥).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤٨٩).

والعقائدِ، فإنَّ المراءَ طبعٌ، فإذا ظنَّ أنَّ له عليه ثوابًا اشتدَّ عليه حرصُهُ، وتعاون الطَّبعُ والشَّرعُ عليه، وذلك خطأٌ محضٌ، بل ينبغي للإنسانِ أن يكُفَّ لسانَه عن أهلِ القبلةِ، وإذا رأىٰ مُبتَدِعًا تلطَّفَ في نصحِهِ في خَلوَةٍ لا بطريقِ الجدالِ؛ فإنَّ الجدال يخيِّلُ إليه أنَّها حيلةٌ منه في التلبيسِ، وأنَّ ذلك صنعةٌ يقدرُ المجادلون من أهل مذهبه علىٰ أمثالها لو أرادوا فتستمر البدعة في قلبه بالجدل وتتأكد، فإذا عرفَ أنَّ النُّصحَ لا ينفعُ اشتغلَ بنفسِهِ وتركَهُ[1]، وكلُّ مَن اعتادَ المجادلةَ مدَّةً وأثنىٰ النَّاسُ عليه، ووجدَ لنفسهِ بسببِهِ عزًّا وَقبولًا، قويت فيه هذه المهلكاتُ، ولا يستطيعُ عنها نزوعًا إذا اجتمعَ عليه سلطانُ الغضبِ والكبرِ والرياءِ وحُبِّ الجاهِ والتعزُّزِ بالفضلِ، وآحادُ هذه الصفاتِ يشقُّ مجاهدتُها، فكيف بمجموعِهَا؟!»[2].

وقال أبو عمرَ بنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «روىٰ سعيدُ بنُ المسَيِّبِ، وأبو سَلمَةَ عن أبي هُريرةَ عن النبيِّ ﷺ أنَّه قالَ: «**المِرَاءُ فِي القُرآنِ كُفرٌ**».

والمعنىٰ: أن يتمارىٰ اثنان في آيةٍ يجحدُها أحدُهُمَا، ويدفعُها أو يصيرُ فيها إلىٰ الشَّكِّ، فذلك هو المراءُ الذي هو الكُفرُ.

وأمَّا التنازعُ فِي أحكامِ القرآنِ ومعانيهِ فقد تنازَعَ أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ فِي

(١) نعم، يتلطَّفُ في نصحِهِ، فإن فاءَ وإلَّا حذَّرَ منه ومن بدعتِهِ، وليس كما قال: «اشتغلَ بنفسِهِ وتَرَكَهُ»!!، بل علىٰ حَسَبِ المبتدعِ، هل هو داعٍ إلىٰ بدعتِهِ أَوْ لا؟ وهل هو رأسٌ فيها أَوْ ذنبٌ؟ وعلىٰ حَسَبِ بدعتِهِ، هل هي مكفِّرَةٌ أَوْ مُفَسِّقَةٌ؟ وهل هي كبرىٰ أَوْ صغرىٰ؟ إلىٰ غير ذلك من القواعد والأصولِ.

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ١٦٤).

كثيرٍ من ذلك، وهذا يبيِّنُ لك أنَّ المِراءَ الذي هو كُفرٌ هو الجحودُ والشَّكُّ، كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ [الحج:٥٥] ونهىٰ السَّلَفُ -رحمهم الله- عن الجدالِ فيه والتناظُرِ، لأنَّه علمٌ يُحتاجُ فيه إلىٰ رَدِّ الفروعِ علىٰ الأصولِ للحاجةِ إلىٰ ذلك، وليس الاعتقاداتُ كذلك، لأنَّ الله ﷻ لا يُوصفُ إلا بما وصَفَ به نَفسَهُ أو وَصَفَهُ به رسولُهُ ﷺ»[(١)].

التَّعَامُلُ مَعَ أَهلِ اللَّجَاجِ:

وَصَفَ الراغبُ رَحِمَهُ اللهُ سبيلَ التعامل مع أهلِ اللَّجَاجِ لا الحِجَاجِ، ومع أهلِ المراءِ والعنادِ، فقال: «إذا ابتُليت بمُهَارِشٍ مُمَاحِكٍ مُنَاوشٍ، قَصدُهُ اللَّجَاجُ لا الحِجَاجُ، ومرادُهُ مناوأةُ العلماءِ، ومماراةُ السفهاءِ، كما قال النبيُّ ﷺ: «**مَن تَعَلَّمَ العِلمَ لِيُبَاهِيَ بِهِ العُلَمَاءَ، ويُمَارِيَ بِهِ السُّفهَاءَ، وَيَصْرِفَ بِهِ وُجُوهَ النَّاسِ إليه، أدخَلَهُ الله جَهَنَّمَ**»[(٢)].

قال الشاعرُ:

تَـــرَاهُ مُعِـــدًّا لِلْخِـــلافِ كَأَنـــهُ ... بِـرَدٍّ عَلَـىٰ أَهـلِ الـصَّوَابِ مُـوَكَّلُ

فحقُّك أن تفرَّ منه فرَارَكَ من الأساوِدِ والأُسودِ، فإن لم تَجد من مزاولتِهِ بُدًّا، فكابِر إنكارَه الحقَّ بإنكارِك الباطلَ، ودفاعَهُ الصدقَ بدفاعِكَ الكذبَ، معتبرًا في ذلك قولَه تعالىٰ: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل:٥٠].

وقولَهُ: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران:٥٤].

(١) «جامع بيان العلم وفضله» (ص٣٦٠).

(٢) تقدم تخريجه (ص٤١٧).

وقولَهُ تعالىٰ حكايةً عن المنافقين: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة:١٤-١٥].

وقولَهُ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥] وبالغْ في ذلك معه، وإياك أن تعرِّجَ معه إلىٰ بَثِّ الحكمةِ، وأن تذكرَ له شيئًا من الحقائقِ ما لم تتحقَّق له قلبًا طاهرًا لائقًا للحكمةِ، وقد قالﷺ: «**لا تَدخُلُ الملائِكَةُ بَيتًا فيهِ كَلبٌ**»(١)، فإنَّ لكلِّ تربةٍ غَرسًا، ولكلِّ بناءٍ أُسًّا، وما كلُّ الرءوسِ تستحقُّ التيجانَ، ولا كلُّ طبيعةٍ تستحقُّ إفادَةَ البيانِ.

وإن كان لابُدَّ فاقتصر معه علىٰ إقناعٍ يبلغُهُ فهمُهُ، فقد قيل: كما أنَّ لبَّ الثمارِ مباحٌ للنَّحلِ، والتبنَ معدودٌ للأنعامِ كذلك لُبُّ الحكمةِ مُعَدٌّ لذوي الألبابِ، وقشورُها مجعولةٌ للأنعامِ، وكما أنَّ من المُحَالِ أن يَشُمَّ الأَخْشَمُ(٢) رَيحَانًا، فمحالٌ أن يفيدَ الحمارُ بيانًا»(٣).

بيَانُ آدَابِ المُجَادِلِ:

فَصَّلَ الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ آدابَ الجِدَالِ، وما ينبغي للمجَادِلِ أن يأخذَ به نفسَهُ فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي للمجادِلِ أن يُقَدِّمَ علىٰ جدالِه تقوىٰ الله تعالىٰ لقولِهِ سبحانه: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

(١) رواه البخاري (٣٠٥٣)، ورواه مسلم (٢١٠٤).
(٢) الأخشَمُ: الذي لا يجدُ ريحَ طيبٍ ولا نتنٍ، والخَشَمُ: سقوطُ الخياشيمِ، وانسدادُ المتنفَّسِ، ولا يكاد الأخشَمُ يَشُمُّ شيئًا. [«لسان العرب» (خشم)، (ص١١٦٨)].
(٣) «الذريعة إلىٰ مكارم الشريعة» (ص١٢٩).

ولقولِهِ تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴾ [النحل:١٢٨].

ويُخلِصُ النِّيَّةَ في جدالِهِ بأن يبتغيَ به وجهَ الله تعالىٰ، وليكن قصدُهُ في نظرِهِ[(١)]: إيضاحَ الحقِّ وَتَثبيتَهُ دون المغالبةِ للخصمِ.

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما كلَّمتُ أحدًا قطُّ إلا أحببتُ أن يوفَّقَ ويُسَدَّدَ ويُعانَ، وتكون عليه رعايةٌ من الله وحفظٌ، وما كلمتُ أحدًا قَطُّ إلا ولم أُبَالِ بيَّنَ الله الحقَّ علىٰ لساني أم لسانِهِ».

ويبني أمرَهُ علىٰ النصيحةِ لدين الله والذي يجادلُهُ، لأنَّه أجمعُ في الدينِ، مع أنَّ النصيحةَ واجبةٌ لجميعِ المسلمين، فعن جريرِ بن عبد الله رضي الله عنه قال: «بايَعتُ رسُولَ اللهِ ﷺ علَىٰ النُّصحِ لِكُلِّ مُسلمٍ»[(٢)].

وكان الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يحلِفُ ويقولُ: «ما ناظرتُ أحدًا إلا علىٰ النصيحةِ».

وقال أيضًا: «ما ناظرتُ أحدًا فأحببتُ أن يُخطِئَ».

ويستشعِرُ في مجلسِهِ أي: -المجادِلُ- الوقارَ، ويستعملُ الهَديَ، وحُسنَ السَّمْتِ، وطولَ الصَّمْتِ إلا عند الحاجةِ إلىٰ الكلامِ، وإن نَدَرَت من خصمِهِ في جدالِهِ كلمةٌ كرهها أغضَىٰ عليها، ولم يُجَازِ بمثلِها، فقد قالَ تعالىٰ: ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ [المؤمنون:٩٦].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣].

---

(١) فِي نظره: فِي بحثه وجداله.

(٢) رواه البخاري (٥٧، ٥٨)، ومسلم (٥٦).

عَن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما **قالَ:** «قَدِمَ عُيَيْنَةُ بنُ حِصنِ بن حُذَيفَةَ، فَنَزَل عَلَىٰ ابن أخيهِ الحُرِّ بن قَيسٍ -وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ(١) الذينَ يُدنِيهِم(٢) عُمَرُ- وكَانَ القُرَّاءُ(٣) أصحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ ومُشَاوَرَتِهِ(٤)، كُهولاً(٥) كانُوا أو شُبَّانًا، فَقَالَ عُيَيْنَةُ لابنِ أخيِهِ: يَا ابنَ أخِي: لَكَ وَجهٌ عِندَ هذا الأميرِ، فاستأذِن لي عَلَيه، قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: فاستأذَنَ الحُرُّ لِعُيَينَةَ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلِيهِ قالَ: هِي(٦) يَا ابنَ الخَطَّابِ، فوالله ما تُعطِينَا الجَزْلَ ولا تَحكُمُ بَينَنَا بالعَدلِ، فَغَضبَ عُمرُ حَتَّىٰ هَمَّ بِهِ(٧)، فقالَ لهُ الحُرُّ: يَا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ الله تَعَالَىٰ قالَ لِنَبيِّهِ ﷺ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ وإنَّ هذَا مِنَ الجَاهِلينَ، والله مَا جَاوَزَهَا(٨) عُمَرُ حينَ تلاهَا، وكَانَ وَقَّافًا(٩) عِندَ كِتَابِ الله»(١٠).

وينبغي ألا يتكَّلمَ بحضرةِ مَن يشهدُ لِخَصمِهِ بالزُّورِ، أو عند مَن إذا وضحت

(١) النَّفَر: الأشخاص.
(٢) يدنيهم: يقربهم إليه في مجلسِهِ.
(٣) القرَّاء: الذين يقرءون القرآن ويحفظونه، ويفقهونه.
(٤) مشاورته: يشاورهم في الأمور.
(٥) كهولًا: جمعُ كهلٍ، وهو الذي علاه الشيبُ، وقيل: هو مَن جاوز الثلاثين.
(٦) هي: كلمةُ زجرٍ وتهديدٍ. والجَزلُ: الشيءُ الكثيرُ.
(٧) همَّ أن يُوقع به: أي: العقوبة.
(٨) ما جاوزها: لـم يتعدَّ العملَ بها.
(٩) وقَّافًا: أي: إذا سمع آياتِهِ التزم أحكامه، ووقفَ عندها ولـم يتعدَّها.
(١٠) رواه البخاري (٤٣٦٦)، وروايتُه هي المثبَتةُ هنا، وقد ساق الخطيبُ الروايةَ من غير طريقِ البخاريِّ مع اختلافٍ في اللفظِ، واختصار فيه.

لديه الحُجَّةُ دَفَنَهَا ولم يتمكَّن من إقامتها، فإنَّه لا يقدرُ علىٰ نُصرَةِ الحقِّ إلا مع الإنصافِ وتركِ التعنُّتِ والإجحافِ، ويكون كلامُه يسيرًا جامعًا بليغًا، فإنَّ التحفُّظَ من الزَّلَلِ مع الإقلالِ دون الإكثارِ، وفي الإكثارِ أيضًا ما يُخفِي الفائدةَ ويُضَيِّعُ المقصودَ ويُورِثُ الحاضرين الملَلَ.

ولا يرفعُ صوتَه في كلامِهِ عاليًا فيشقَّ حَلْقَهُ ويحمي صدرَهُ ويقطعه، وذلك من دواعي الغضبِ، ولا يُخفي صوته إخفاءً لا يسمعهُ الحاضرونَ فلا يفيدُ شيئًا، بل يكون مُقْتَصِدًا بين ذلك.

ويجبُ عليه الإصلاحُ من منطقِهِ، وتَجَنُّبُ اللَّحنِ في كلامِهِ، والإفصاحُ عن بيانِهِ، فإنَّ ذلك عَونٌ له في مناظرتِهِ.

وينبغي له أن يُوَاظِبَ علىٰ مطالعةِ كُتُبِهِ عند وحدتَِه، ورياضةِ نفسِهِ في خَلوَتِهِ بذكرِ السؤالِ والجوابِ، وحكايةِ الخطأِ والصوابِ، لئَلا ينحصرَ في مجالسِ النَّظَرِ إذا رَمَقَتْه أبصارُ من حَضَرَ.

ولا يكون رَخِيَّ البَالِ قصيرَ الهمَّةِ فإنَّ مداركَ العلمِ صعبةٌ لا تُنال إلا بالجهدِ والاجتهادِ ولا يستحقرُ خصمَهُ لصغرِهِ فيسامحه في نظرِهِ، بل يكون علىٰ نَهجٍ واحدٍ في الاستفتاءِ والاستقصاءِ؛ لأنَّ تَركَ التَّحَرُّزِ والاستظهارِ يؤدِّي إلىٰ الضعفِ والانقطاعِ.

وينبغي ألا يكونَ مُعجَبًا بكلامِهِ مفتونًا بجدالِهِ؛ فإنَّ الإعجَابَ ضدُّ الصوابِ، ومنه تَقَعُ المعصيةُ، وهو رأسُ كلِّ بَلِيَّةٍ.

وإذا وقع له شيءٌ في أوَّلِ كلامِ الخَصمِ فلا يَعجَل بالحكمِ به، فربَّما كان في

آخرِهِ ما يُبَيِّنُ أنَّ الغَرَضَ بخلافِ الواقعِ له، فينبغي أن يَتَثَبَّتَ إلىٰ أن ينقضيَ الكلامُ.

ويكونُ نطقُهُ بعلمٍ، وإنصاتُهُ بحلمٍ، ولا يعجلُ إلىٰ جوابٍ، ولا يهجمُ علىٰ سؤالٍ، ويحفظُ لسانَهُ من إطلاقِهِ بما لا يعلمُ، ومن مناظرتِهِ فيما لا يفهمهُ، فإنَّه ربمَّا أخرجه ذلك إلىٰ الخجلِ والانقطاعِ، فكان فيه نقصُهُ وسقوطُ منزلتِهِ عند مَن كان ينظرُ إليه بعينِ العلمِ والفضلِ»[1].

❊ ❊ ❊

(١) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ٢٥).

٩- النِّسيَانُ

النِّسيَانُ -بِكَسْرِ النُّونِ-: ضِدُّ الذِّكرِ والحِفظِ، نَسِيَهُ نِسيًا، ونِسيَانًا، وَنِسْوَةً ونَسَاوَةً وَنِسَاوَةً، الأخيرتان علىٰ المُعَاقَبَةِ.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾ [التوبة:٦٧]، قالَ ثَعلَبٌ: لا يَنْسَىٰ الله ﷻ، إنَّما مَعنَاهُ: تَرَكُوا الله فتَرَكَهُم، فَلَمَّا كَانَ النِّسيَانُ ضَربًا مِنَ التَّركِ وَضعَهُ مَوضِعَهُ، وفي «التَّهذيبِ»: أي تَرَكُوا أَمرَ الله فَتَرَكَهُم مِن رَحمَتِهِ.

وقولُه تعالىٰ: ﴿فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٦] أي: تَركتَهَا فكَذلِكَ تُتركُ في النَّارِ.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ﴾ [طه:١١٥] معناه أيضًا: تَرَكَ؛ لأنَّ النَاسِيَ لا يؤَاخَذُ بِنسيَانِهِ،والنِّسيَانُ: التَّركُ[١].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عن سعيدِ بن جُبَيرٍ عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: إنَّما سُمِّيَ (الإنسانَ) لأنَّه عُهِدَ إليه فَنَسِيَ، وكذا رواه عليُّ بن أبي طلحةَ عنه، وقال مجاهدٌ والحسنُ: تَرَكَ»[٢].

وقال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿فَنَسِيَ﴾، له معنيان: أحدهما: تَرَكَ؛

(١) «لسان العرب» (نسي) (ص٤٤١٦).

(٢) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ١٦٧).

أي: تَرَكَ الأمرَ والعهدَ، وهذا قولُ مجاهدٍ وأكثرِ المفسِّرين، ومنه قولُهُ تعالىٰ: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

وثانيهما: قال ابن عباسٍ: «نَسِيَ» هنا من السهوِ والنسيانِ، وإنَّما أُخِذَ الإنسانُ منه لأنَّه عهد إليه فنسي وقال ابنُ زيد: نسي ما عَهِدَ الله إليه في ذلك، ولو كان له عَزمٌ ما أطاعَ عدوَّه إبليسَ، وعلىٰ هذا القولِ يُحتمل أن يكونَ آدمُ عليه السلام في ذلك الوقتِ مأخوذًا بالنسيانِ، وإن كان النسيانُ اليومَ عنَّا مرفوعًا.

ومعنىٰ: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ أي: من قَبلِ أن يأكلَ من الشجرةِ؛ لأنَّه نُهي عنها»[1].

أخرجَ الدارميُّ في سننه (١/ ١٥٨) عن حكيمِ بن جابرٍ، قالَ: قالَ عبدُ الله: «إنَّ لكلِّ شيءٍ آفةً، وآفةُ العلمِ النسيانُ».

وأخرج أبو عمر بن عبد البرِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بسنده: عن الزهري قال:** «إنما يُذهِبُ العلمَ النسيانُ، وتركُ المذاكرةِ».

وعن يزيد بن أبي زيادٍ عن عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ قال: «إنَّ إحياءَ الحديثِ مذاكرتُهُ فتذاكروا، فقال له عبدُ الله بنُ شدَّادٍ: يرحمك الله، كم من حديثٍ أحييتَهُ في صدري قد مات».

وعن الزهريِّ قال: إنَّ للعلمِ غوائلَ، فمن غوائِلِهِ[2] أن يُترَكَ العالِمُ حتَّىٰ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١١/ ٢٦٧).
(٢) قال الكسائيُّ: الغوائلُ: الدَّواهي، والغِيلَةُ في كلام العربِ: إيصالُ الشَّرِّ إليه والقتلُ من حيث لا يعلم ولا يشعر.

يذهبَ بعلمِهِ ومن غوائِلِهِ النسيانُ، ومن غوائِلِهِ الكذبُ فيه، وهو شَرُّ غوائِلِهِ.

وعن الحسنِ قالَ: غَائِلَةُ العلمِ النسيانُ وتركُ المذاكرةِ»(١).

هكذا حَذَّرَ الأئمةُ -رحمهم الله- من إهمالِ المذاكرةِ حتىٰ يُنسَىٰ العلمُ، ونبَّهوا علىٰ أنَّ من أشدِّ غوائِلِ العلمِ النسيانَ، وقد استمدُّوا -رحمهم الله- ذلك كلَّه من هدي نبيِّنَا محمَّدٍ ﷺ في تحذيرِهِ من تركِ القرآنِ حتىٰ يذهبَ ويُنسَىٰ، ومن تنبيهِهِ ﷺ علىٰ تفلُّتِ القرآنِ -وهو أصلُ العلمِ ورأسُهُ- إذا لم يُعَاهِد عليه صاحبُهُ.

عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**إنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإبلِ المُعَقَّلةِ، إن عَاهَدَ عليَهَا أمسكَهَا، وإن أطلَقَهَا ذَهَبَت**»(٢) متفقٌ عليهِ.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «**بِئسَمَا لأحَدِهِم أَن يَقُولَ: نَسِيتُ آيةَ كَيتَ وكَيتَ، بَل هُوَ نُسِّيَ، واستذكِرُوا القرآنَ فَلَهُوَ أَشَدُّ تَفَصِّيًا مِن صُدُورِ الرِّجَالِ مِنَ النَّعَمِ**»(٣) متفقٌ عليه.

«**بِئسَ مَا لأحَدِهِم**»: «ما» نكرةٌ موصوفةٌ مفسِّرَةٌ لفاعلِ بئس، أي: بئس شيئًا.

«**أن يقول**»: مخصوصٌ بالذَّمِّ؛ أي: بئس شيئًا كائنًا للرجلِ.

«**كَيتَ وكَيتَ**»: كلمتان يعبَّرُ بهما عن الجملِ الكثيرةِ والحديثِ الطويلِ؛ وسببُ الذَّمِّ ما فِي ذلك من الإشعارِ بعدمِ الاعتناءِ بالقرآنِ؛ إذ لا يقع النسيانُ إلا

(١) «جامع بيان العلم» (١/ ١٠٧).

(٢) رواه البخاري (٤٧٤٣)، ومسلم (٧٨٩).

(٣) رواه البخاري (٤٧٤٥)، ومسلم (٢٢٨).

بتركِ التعاهدِ وكثرةِ الغفلةِ.

«**بَل نُسِّي**»: «بل» إضرابٌ عن القولِ بنسبةِ النسيانِ إلىٰ النفسِ، المسبَّبِ عن عدمِ التعاهدِ، إلىٰ القولِ بالإنساءِ الذي لا صُنعَ له فيه؛ فإذا نَسَبَه إلىٰ نفسِهِ أَوهَم أنَّه انفردَ بفعلِهِ، فالذي ينبغي أن يقولَ: أُنسيتُ أو نُسِّيت، مبنيًّا للمفعولِ فيهما، أي: إنَّ الله هو الذي أنساني، فينسب الأفعالَ إلىٰ خالقِها لما فيه من الإقرارِ بالعبوديةِ والاستسلام لقدرةِ الربوبيةِ.

«**واستَذكرُوا القُرآنَ**»: السينُ للمبالغةِ، أي: اطلبوا من أنفسِكم مذاكرتَه والمحافظةَ علىٰ قراءتِهِ، والواو في قولِهِ «**واستذكروا**»، عطفٌ من حيث المعنىٰ علىٰ قولِهِ: «**بئس ما لأحدكم**» أي: لا تقصروا في معاهدتِهِ واستذكارِه.

«**فإنَّه أشَدُّ تَفَصِّيًا**»أي: تَفَلُّتًا.

«**مِنَ النَّعَمِ**»: أي: الإبلِ، لا واحدَ له من لفظِهِ؛ لأنَّ شأنَ الإبلِ طلبُ التفلُّتِ ما أمكنها، فمتىٰ لم يتعاهدها صاحبُها بربطِها تفلَّتت، فكذلكَ حافظُ القرآنِ إذَا لم يتعاهده تفلَّت، بل هو أشدُّ[١].

قال النوويُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «في هذه الألفاظِ فوائدُ: منها: كراهةُ قول: نسيتُ آيةَ كذا، وهي كراهةُ تنزيهٍ، ومنها: أنَّه لا يُكْرَهُ قولُ: أُنسيتُهَا، وإنما نهىٰ عن نسيتُها لأنَّه يتضمَّن التساهلَ فيها والتغافلَ عنها، وقد قالَ الله تعالىٰ: ﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا﴾ [طه:١٢٦].

وقال القاضي عِياضٌ: أَولَىٰ ما يتأوَّلُ عليه الحديثُ أنَّ معناه ذمُّ الحالِ، لا ذَمُّ

---

(١) انظر: «اللؤلؤ والمرجان» تعليق محمد فؤاد عبد الباقي (١/ ١٥٠).

المقالِ، أي: بِئسَتِ الحالةُ حالةُ مَن حَفِظَ القرآنَ فغفلَ عنه حتىٰ نَسيَهُ.

وقولُهُ ﷺ: «**إنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرآنِ كَمَثَلِ صَاحِبِ الإبلِ المُعَقَّلَةِ...**» إلىٰ آخره، فيه الحَثُّ علىٰ تعاهدِ القرآنِ وتلاوتِهِ والحذرِ من تعريضِهِ للنسيانِ.

قال القاضي: ومعنىٰ «**صاحب القرآن**» أي: الذي أَلِفَهُ، والمصاحبةُ: المؤالفةُ، ومنه فلانٌ صاحبُ فلانٍ، وأصحابُ الجنَّةِ، وأصحابُ النَّارِ، وأصحابُ الحديثِ، وأصحابُ الرأيِ، وأصحابُ الصُّفَّةِ، وأصحابُ إبلٍ وغنمٍ، وصاحبُ كنزٍ، وصاحبُ عبادةٍ»[(١)].

وقال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ ﷺ: «**كَمَثَلِ صَاحِبِ الإبلِ المُعَقَّلَةِ**»، أي: مع الإبلِ المعقَّلةِ، والمعقَّلةُ -بضمِّ الميمِ وفتحِ العينِ المهملةِ وتشديدِ القافِ-، أي: المشدودةِ بالعِقَالِ، وهو الحَبلُ الذي يُشَدُّ في رُكبةِ البعيرِ، شَبَّهَ دَرسَ القرآنِ واستمرارَ تلاوتِهِ بربط البعيرِ، الذي يُخشَىٰ منه الشِّرَادُ، فما زال التعاهدُ موجودًا فالحفظُ موجودٌ، كما أنَّ البعيرَ مَا دَامَ مشدودًا بالعِقَالِ فهو محفوظٌ، وخصَّ الإبلَ بالذِّكرِ لأنَّها أشدُّ الحيوانِ الإنسيِّ نفورًا، وفي تحصيلها بعد استمكانِ نفورِها صعوبةٌ»[(٢)].

ولما كان القرآنُ مَعدِنَ العلمِ وأصلَه، كان إمامَ العلومِ في ضرورةِ تعاهدِهِ، والمحافظةِ عليه، فكلُّ العلومِ يحتاجُ إلىٰ التعاهدِ والمواظبةِ علىٰ الاستذكارِ بعضًا ممَّا يحتاجُهُ القرآنُ العظيمُ.

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٦/ ٧٦).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٦٩٧).

وكما يعرضُ النسيانُ للقرآنِ ويُلِحُّ عليه، فكذلك يعرِضُ للعلومِ ويُلحُّ عليها، والمواظبةُ هي الدواءُ الذي لا دواءَ للنسيانِ مِثلُهُ.

وللذنوبِ والآثامِ أثرٌ فعَّالٌ في الحفظِ والنسيانِ، وقد ينسىٰ العبدُ العلمَ بالذنب يُصيبُهُ، نسألُ الله السلامة والعافية ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورىٰ:٣٤].

قال الضَّحَّاكُ بن مُزَاحِمٍ: «ما مِن أحدٍ تعلَّمَ القرآنَ ثمَّ نسيه إلا بذنبٍ يُحدثُهُ، وذلك أنَّ الله تعالىٰ يقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورىٰ:٣٠] ونسيانُ القرآنِ من أعظمِ المصائبِ».

وتكريرُ المحفوظِ علىٰ القلبِ أدعىٰ لتثبيتِهِ، ومَأمَنَةٌ من ذهابِهِ، وهذا دَأبُ العلماءِ من قَبلُ، لا يتوانون فيه، ولا يستحسرون عنه.

أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسنده، عن أحمد بن يحيىٰ قال:** «قيل للأصمعيِّ: كيف حفظتَ ونسيَ أصحابُك؟ قال: دَرَستُ وتركوا.

وعن سفيانَ قال: اجعلوا الحديثَ حديثَ أنفسكم، وفِكرَ قلوبكم تحفظوه.

وعن الليث بن سعدٍ قالَ: وُضِعَ طستٌ بين يدي ابن شهابٍ، فتذكَّر حديثًا، فلم تزل يدُهُ في الطَّستِ حتَّىٰ طَلَعَ الفجرُ، حتَّىٰ صَحَّحَهُ.

وعن عليِّ بن المديني قال: تَذَاكَرَ وكيعٌ وعبدُ الرحمن ليلةً في المسجدِ الحرامِ، فلم يزالا حتَّىٰ أذَّنَ المؤذِّنُ أذانَ الصُّبْحِ.

وعن ابن شهابٍ: أنَّه كان يسمعُ العلمَ من عُروَةَ وغيرِهِ، فيأتي إلىٰ جاريةٍ له -وهي نائمةٌ- فيوقظُها، فيقولُ: اسمعي، حدثني فلانٌ كذا، وفلانٌ كذا، فتقولُ: ما لي

ولهذا الحديثِ؟! فيقول: قد علمتُ أنَّكِ لا تنتفعين به، ولكن سمعتُهُ الآن فأردتُ أن أستذكرَهُ»[١].

والأئمةُ -رحمهم الله تعالىٰ- كانوا أهلَ حفظٍ ومعرفةٍ، وإنَّما امتازوا علىٰ النَّاسِ بما أودَعَ الله في قلوبهم من يقينٍ وتوكُّلٍ وصدقٍ، وبما جعلَ في عقولهم من ذكاءٍ ونَفَاذٍ وحفظٍ، فَمَن أراد القصَّ علىٰ آثارِهم فعليه أن يجتهدَ في نَفي النسيانِ عنه بالضراعةِ إلىٰ الله، وأكلِ الحلالِ، وتقليل المطاعمِ والهمومِ، ومجانبةِ الآثامِ والذنوبِ، والله من وراء القصد وهو يهدي السبيلَ.

وهذا مَثَلٌ يُضْرَبُ في نعمةِ الحفظِ ومِنَّةِ الفهمِ، وهو الإمامُ المقدَّمُ الحافظُ العَلَمُ، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقد أنعَمَ الله تعالىٰ عليه بذاكرةٍ لاقطةٍ، وقلبٍ حافظٍ، وأُذُنٍ واعيةٍ.

روىٰ الحافظُ ابنُ حجرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسنادِهِ عن أحمد بن عديٍّ الحافظِ قال: «سمعتُ عِدَّةً من مشائخِ بغدادَ يقولون: إنَّ محمدَ بن إسماعيلَ البخاريَّ قَدِمَ بغدادَ، فسمعَ به أصحابُ الحديثِ، فاجتمعوا وأرادوا امتحانَ حفظِهِ، فعمدوا إلىٰ مئةِ حديثٍ فقلبوا متونَها وأسانيدَها، وجعلوا مَتنَ هذا الإسنادِ لإسنادٍ آخرَ، وإسنادَ هذا المتنِ لمتنٍ آخر، ودفعوها إلىٰ عشرةِ أنفسٍ، لكلِّ رَجُلٍ عشرة أحاديثَ، وأمروهم إذا حضروا المجلسَ أن يُلقوا ذلك علىٰ البخاريِّ، وأخذوا عليه الموعدَ للمجلسِ فحضروا وحضَرَ جماعةٌ من الغرباءِ من أهل خُراسَان وغيرهم من البغداديين.

---

(١) «الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع» (٢/ ٢٦٦).

فلمَّا اطمأنَّ المجلسُ بأهلِهِ انتدب رجلٌ من العشرةِ فسألهُ عن حديثٍ من تلك الأحاديثِ، فقال البخاريُّ: لا أعرفُهُ، فما زَالَ يُلقي عليه واحدًا بعد واحدٍ حتىٰ فَرَغَ، والبخاريُّ يقول: لا أعرفه، وكان العلماءُ ممَّن حَضَرَ المجلسَ يلتفتُ بعضُهم إلىٰ بعضٍ، ويقولون: فَهِم الرجلُ، ومَن كان لم يَدرِ القصةَ قَضَىٰ علىٰ البخاريِّ بالعجزِ والتقصيرِ وقلَّةِ الحفظِ.

ثمَّ انتدبَ رجلٌ من العشرةِ أيضًا فسأله عن حديثٍ من تلك الأحاديثِ المقلوبةِ فقال: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، فلم يزل يُلقي عليه واحدًا واحدًا حتىٰ فَرَغَ من عَشَرَتِهِ، والبخاريُّ يقولُ: لا أعرفُهُ.

ثم انتدب الثالثُ والرابعُ إلىٰ تمامِ العَشَرَةِ، حتىٰ فرغُوا كلُّهم من إلقاءِ تلك الأحاديثِ المقلوبةِ، والبخاريُّ لا يزيدهم علىٰ: لا أعرفه.

فلمَّا عرف أنَّهم قد فرغوا التفتَ إلىٰ الأولِ فقال: أمَّا حديثُك الأولُ، فقلتَ: كذا، وصوابُهُ كذا، وحديثُك الثاني: كذا، وصوابُهُ: كذا، والثالثُ والرابعُ علىٰ الولاءِ حتىٰ أتىٰ علىٰ تمامِ العَشَرَةِ فردَّ كلَّ متنٍ إلىٰ إسنادِهِ وكلَّ إسنادٍ إلىٰ متنِهِ، وفعل بالآخرينَ مثلَ ذلكَ، فأقرَّ النَّاسُ له بالحفظِ وأذعنوا له بالفضلِ.

قال الحافظُ ابنُ حجرٍ: قلتُ: هنا يُخضع للبخاريِّ، فما العجبُ من ردِّه الخطأ إلىٰ الصوابِ، فإنَّه كان حافظًا، بل العجبُ من حفظِهِ للخطأ علىٰ ترتيبِ ما ألقَوهُ عليه من مرَّةٍ واحدةٍ.

وقال أبو الأزهرِ: كان بِسمَرقَنْدَ أربعمئةِ محدِّثٍ فتجمَّعوا وأحبُّوا أن يُغَالِطُوا

محمدَ بن إسماعيلَ البخاريَّ، فأدخلوا إسنادَ الشامِ في إسنادِ العراقِ، وإسنادَ العراقِ في إسنادِ الشامِ، وإسنادَ الحَرَمِ في إسنادِ اليمنِ، فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلقوا عليه بِسَقطَةٍ»(١).

وقد حكىٰ عنه رِفَاقُهُ فِي الطَّلَبِ فِي حِدَّةِ الذِّهنِ وسيلانِهِ عجبًا، حَدَّثَ حاشدُ ابن إسماعيلَ قالَ: «كان البخاريُّ يختلفُ معنا إلىٰ مشايخ البصرةِ وهو غلامٌ، فلا يكتبُ حتَّىٰ أتىٰ علىٰ ذلك أيامٌ فَلُمْنَاهُ بعد ستةَ عشر يومًا فقال: قد أكثرتُم عليَّ، فاعرضوا عليَّ ما كتبتُم، فأخرجناه فزادَ علىٰ خمسةَ عشر ألف حديثٍ، فقرأها كلَّها عن ظَهرِ قلبٍ، حتىٰ جعلنا نُحكِمُ كُتُبَنَا من حفظِهِ»(٢).

لقد خصَّ الله تعالىٰ أُمَّتَنَا بحفظِ القرآنِ والعلمِ، وقد كان مَن قبلنا يقرءون كُتُبَهُم من الصُّحُفِ، ولا يقدرون علىٰ الحفظِ، فلمَّا جاء عُزَيرٌ وتَلَا التوراةَ من حفظِهِ قالوا: هذا ابنُ الله!!

فكيف نقومُ بشكرِ مَن خَوَّلَنَا أنَّ ابنَ سبعِ سنين منَّا يقرأُ القرآن عن ظهرِ قلبٍ، ثمَّ ليس في الأممِ مَن ينقلُ عن نبيِّه أقوالَه وأفعالَه علىٰ وجهٍ يحصلُ به الثقةُ إلا نحن، فإنَّه يروي الحديثَ منا خَالِفٌ عن سَالِفٍ، وينظرون في ثقةِ الراوي إلىٰ أن يصل الأمرُ إلىٰ رسولِ الله ﷺ، وسائرُ الأمم يروون ما يذكرونه عن صحيفةٍ لا يُدرىٰ مَن كتبها، ولا يُعْرَفُ مَن نَقَلَهَا.

---

(١) «هدي الساري» لابن حجر العسقلاني (ص٥٠١).

(٢) «هدي الساري» (ص٥٠٢).

وهذه المنحةُ العظيمةُ نفتقرُ إلىٰ حفظِها، وحفظُها بدوامِ الدراسةِ؛ ليبقىٰ المحفوظُ، وقد كان خَلقٌ كثيرٌ من سَلَفِنَا يحفظون الكثيرَ من الأمرِ، فآلَ الأمرُ إلىٰ أقوامٍ يفرُّون من الإعادةِ ميلًا إلىٰ الكسلِ، فإذا احتاجَ أحدُهم إلىٰ محفوظٍ لم يَقْدِرْ عليه»[١].

* * *

(١) انظر: «الحث علىٰ حفظ العلم» لابن الجوزي (ص٢٣).

١٠- الغُـرُورُ

الغُرُورُ: هو سكونُ النَّفسِ إلىٰ ما يوافقُ الهوىٰ ويميلُ إليه الطَّبعُ عن شُبْهَةٍ وخُدعَةٍ من الشيطانِ، فمَن اعتقدَ أنَّه علىٰ خيرٍ إمَّا في العاجلِ أو في الآجلِ عن شبهةٍ فاسدةٍ فهو مغرورٌ، وأكثرُ النَّاسِ يظنون بأنفسهم الخيرَ وهم مخطئون فيه، فأكثرُ النَّاسِ -إذن- مغرورون، وإن اختلفت أصنافُ غرورِهم، واختلفت درجاتُهم، حتَّىٰ كان غرورُ بعضِهم أظهرَ وأشدَّ من بعضٍ[(١)].

والغرورُ آفةٌ من آفاتِ النَّفسِ قلَّما يمكن فَصلُهَا فَصلاً واضحًا في حالةٍ بعينها من حالاتِ النَّفسِ البشريةِ، بل إنَّ آفةَ الغرورِ لا تنفكُّ عن الكبرِ والعُجبِ والرِّيَاءِ والسُّمعَةِ بحالٍ، بل كلُّ ذلك كالأصلِ الذي تتفرَّعُ منه، وكالتُّربَةِ التي تَنبُتُ فيها، وكالماءِ الكَدرِ الذي يرويها.

والمقصودُ هنا: أن نُنبِّهَ علىٰ آفةِ الغرورِ التي تعرِضُ لأهلِ العلمِ خاصَّةً؛ لأنَّ لإبليسَ من خَفِي التلبيسِ ما يَغمُضُ علىٰ كثيرٍ من أهلِ العلمِ، إلا أنَّ الأئمةَ رضي الله عنهم يهتكون علىٰ اللعينِ أستارَهُ، ويهدمون عليه أسوارَهُ، وإذا ما هو حريصٌ علىٰ إخفائِهِ سافرٌ منكشفٌ.

قال ابنُ الجوزيِّ رحمه الله: «إنَّ أقوامًا عَلَت هِمَمُهُم فحصَّلوا علومَ الشَّرعِ من

---

(١) «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ١٤٦).

القرآنِ والسنَّةِ والحديثِ والفقهِ والأدبِ وغيرِ ذلك، فأتاهم إبليسُ، بخفيِّ التلبيسِ، فأراهم أنفسَهم بعينٍ عظيمةٍ لما نالوا وأفادوا غيرَهم، فمنهم مَن يستفِزُّه لطولِ عنائهِ في الطلبِ، فحسَّنَ له اللَّذَّاتِ، وقال له: إلىٰ متىٰ هذا التعبُ؟ أَرِح جوارِحَك من كُلَفِ التكاليفِ وأفسح لنفسِك في مشتهاها، فإن وقَعتَ في زَلَّةٍ فالعلمُ يدفعُ عنك العقوبةَ، وأوردَ عليه فضلَ العلماءِ، فإن خُذِلَ هذا العبدُ وَقَبِلَ هذا التلبيسَ يَهلِكُ.

وقد لَبَّسَ إبليسُ علىٰ أقوامٍ من المحكِمِينَ في العلمِ والعملِ من جهةٍ أخرىٰ، فحسَّنَ لهم الكِبرَ بالعلمِ، والحسدَ للنظيرِ، والرياءَ لطلبِ الرياسةِ، فتارةً يُريهم أنَّ هذا كالحقِّ الواجبِ لهم، وتارةً يُقَوِّي حبَّ ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمِهم بأنَّه خَطَأٌ.

وقد يتخلَّصُ العلماءُ الكاملون من تلبيساتِ إبليسَ الظاهرةِ فيأتيهم بخفيٍّ من تلبيسِهِ، بأن يقولَ له: ما لقيتُ مثلَك، ما أعرفَك بمداخلي ومخارجي! فإن سَكَنَ إلىٰ هذا هَلَكَ بالعُجبِ، وإن سَلِمَ من المسالمةِ له سَلِمَ.

وقد قالَ السَّرِيُّ السقطيُّ: لو أنَّ رجلاً دَخَلَ بستانًا فيه من جميعِ ما خَلَقَ الله ﷻ من الأشجارِ، عليها من جميع ما خَلَقَ الله تعالىٰ من الأطيارِ فخاطبَهُ كلُّ طائرٍ بلُغَتِهِ، وقال: السلامُ عليكم يا وَلِيَّ الله، فسكنت نفسُهُ إلىٰ ذلك، كان في أيديها أسيرًا، والله سبحانه الهادي لا إله إلا هو»[1].

إنَّ إمامَ المغرورين وقائدَهُم وحاملَ لوائِهم إلىٰ النَّارِ، هو إبليسُ، وقد غَرَّتِ

(١) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص١٢٩).

اللَّعِينَ نفسُهُ أنَّه مخلوقٌ من نارٍ فتأبَّىٰ علىٰ السجودِ لآدمَ إذ كان مخلوقًا من طينٍ، فقاسَ قياسًا فاسدًا، واستنتجَ نتيجةً فاسدةً؛ فتمَّردَ علىٰ الأمرِ وعَصَىٰ ربَّ العالمينَ، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف:١٢].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُ إبليسَ -لعنَهُ الله-: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ﴾ من العُذرِ الَّذي هو أكبرُ من الذَّنبِ، كأنَّه امتنع من الطاعَةِ لأنَّه لا يُؤمَرُ الفاضلُ بالسجودِ للمفضولِ، يعني -لعنهُ الله-: وأنا خيرٌ منه فكيف تأمرني بالسجودِ له؟! ثمَّ بيَّنَ أنَّه خيرٌ منه بأنَّه خُلِقَ من نارٍ، والنَّارُ أشرفُ ممَّا خلقتَهُ منه وهو الطينُ، فنظرَ اللعينُ إلىٰ أصلِ العنصرِ، ولم ينظر إلىٰ التشريفِ والتعظيمِ وهو أنَّ الله تعالىٰ خَلَقَ آدمَ بيدهِ، ونَفَخَ فيه من روحِهِ، وقاسَ اللعينُ قياسًا فاسدًا في مقابلةِ نَصِّ قولِ الله تعالىٰ: ﴿فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر:٢٩]، فَشَذَّ من بين الملائكةِ لتركِ السجودِ، فلهذا أُبلِسَ من الرحمةِ، أي: أُويسَ من الرحمةِ، فأخطأ قبَّحه الله في قياسِهِ، ودعواهُ أنَّ النَّارَ أشرفُ من الطِّينِ.

أيضًا، فإنَّ الطينَ من شأنِهِ الرزانةُ والحِلمُ والأناةُ والتثبُّتُ، والطينُ محلُّ النباتِ والنموِّ والزيادةِ والإصلاحِ، والنَّارُ من شأنِها الإحراقُ والطيشُ والسرعةُ، ولهذا خان إبليسَ عنصرُهُ، ونَفَعَ آدمَ عنصرُهُ بالرجوعِ والإنابةِ والاستكانةِ والانقيادِ والاستسلامِ لأمرِ الله، والاعترافِ وطَلَبِ التوبةِ والمغفرةِ»[(١)].

وقد حَذَّرَ الله عبادَهُ أن يَغُرَّهُمُ الشيطانُ الرجيمُ، فيقودَهم إلىٰ سواءِ الجحيمِ، فقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٢/ ٢٠٣).

جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔاۚ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾، يعني: الكافرَ والمؤمِنَ، أي: خافوه ووحِّدوه ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ أي: البعث ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ﴾، أي: لا تخدعنَّكم ﴿ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ بزينتها وما تدعو إليه فتتكلوا عليها وتركنوا إليها وتتركوا العملَ للآخرةِ ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾، هو الشيطانُ في قولِ مجاهِدٍ وغيرِهِ، وهو الذي يَغُرُّ الخَلْقَ ويمنّيهم الدنيا ويُلهيهم عن الآخرةِ، وفي سورة النساءِ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْۖ﴾ [النساء:١٢٠]»[(١)].

وأخبر تعالىٰ عن صفةٍ لازمةٍ من صفاتِ المنافقين، وهي الغرورُ، وكيف تغرُّهم الأمانيُّ والأباطيلُ في الدنيا؛ حتىٰ يأتيهم أمرُ الله وهم غافلون.

قال تعالىٰ: ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين، ﴿أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾، في الدنيا؟ يعني: نصلِّي مثلَما تصلُّون، ونغزو مثلَما تغزون، ونفعلُ مثلَما تفعلون؟ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾، أي: يقولُ المؤمنون: ﴿بَلَىٰ﴾، قد كنتم معنا في الظاهرِ، ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾، أي: استعملتموها في الفتنةِ.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ﴾، أي: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالنبيِّ ﷺ الموتَ، وبالمؤمنين الدوائرَ،

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٤/ ٨٢).

وقيل: ﴿وَتَرَبَّصۡتُمۡ﴾ بالتوبةِ، ﴿وَٱرۡتَبۡتُمۡ﴾ أي: شككتم في التوحيدِ والنبوَّةِ، ﴿وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ﴾، أي: الأباطيلُ، وقيل: طولُ الأملِ، وقيل: هو ما كانوا يتمنَّونه من ضعف المؤمنين ونزولِ الدوائرِ بهم، وقال قتادةُ: الأمانيُّ هنا: خُدَعُ الشيطانِ، وقيل: الدنيا، قاله عبدُ الله بن عباسٍ، وقال أبو سنان: هو قولهُم: ﴿سَيُغۡفَرُ لَنَا﴾، وقال بلالُ ابنُ سعدٍ: ذِكرُكَ حَسنَاتِكَ ونِسيَانُكَ سيئاتِك غِرَّةٌ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾، يعني: الموتُ وقيلَ: نُصرَةُ نبيِّه ﷺ، وقال قتادةُ: إلقاؤُهم في النار، ﴿ وَغَرَّكُم﴾ أي: خدعكم، ﴿بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾، أي: الشيطانُ، قاله عكرمة»[١].

أقسَامُ المَغرُورينَ مِن أَهلِ العلمِ:

منهم فرقةٌ: أحكموا العلومَ الشرعيةَ والعقليةَ، وأهملوا تَفَقُّدَ الجوارِحِ، وحفظَها من المعاصي، وإلزامَهَا الطاعاتِ، واغتروا بعلمهم، وظَنُّوا أنَّهم من الله بمكانٍ، ولو نَظَرَ هؤلاء بعينِ البصيرةِ، علموا أنَّ علمَ المعاملةِ لا يُرَادُ به إلا العملُ، ولولا العملُ لم يكن له قَدرٌ، قال الله تعالىٰ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ [الشمس:٩]، ولم يقل: قد أفلحَ مَن تعلَّمَ كيف يُزَكِّيها[٢]، فإن تلا عليه الشيطانُ فضائلَ أهلِ العلمِ، فليذكر ما وردَ في العالِمِ الفاجِرِ كقولِهِ تعالىٰ: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَث﴾ [الأعراف:١٧٦]، و﴿ كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا ﴾ [الجمعة:٥].

ومنهم فرقةٌ أخرىٰ: أحكموا العلمَ والعملَ الظَّاهِرَ، ولم يتفقَّدوا قلوبَهم ليمحوا

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ٢٣٧).
(٢) ما وَجَبَ عليك عملُهُ، وَجَبَ عليك تعلُّمُهُ.

الصفاتِ المذمومةَ منها؛ كالكبرِ والحسدِ والرياءِ، وطَلَبِ العُلُوِّ، وطَلَبِ الشُّهرَةِ، فهؤلاءِ زيَّنوا ظاهرهم، وأهملوا بواطنَهم، ونَسُوا قولَه ﷺ: «**إنَّ الله لا يَنظرُ إلَىٰ صُوَرِكُم وأَموَالِكُم، وإنَّمَا يَنظرُ إلَىٰ قُلُوبِكُم وأعمَالِكُم**»[١] رواه مسلم، فتعاهدوا الأعمالَ ولم يتعاهدوا القلوبَ والقلبُ هو الأصلُ؛ إذ لا ينجو إلا مَن أتىٰ الله بقلبٍ سليمٍ.

ومثَلَ هؤلاءِ كَمَثَلِ رجلٍ زَرَعَ زرعًا، فنبتَ ونبتَ معه حشيشٌ يفسدُهُ، فأُمِرَ بقلعِهِ، فأخَذَ يجُزُّ رءوسَهُ وأطرافَهُ ويترك أصولَه فلم تزل أصولُه تقوىٰ.

وفِرقَةٌ أُخرىٰ: علموا أنَّ هذه الأخلاقَ الباطنةَ مذمومةٌ، إلا أنَّهم بعُجبِهم بأنفسِهم يظنُّون بأنفسِهم أنَّهم مُنكَفُّونَ عنها، وأنَّهم أرفعُ عند الله من أن يبتليَهم بذلك، وإنَّما يُبتلىٰ بذلك العوامُّ دون مَن بَلَغَ مبلَغَهم من العلومِ، فإذا ظهر عليهم مخايلُ الكبرِ والرياسةِ، قال أحدهم: ما هذا بكبرٍ، وإنَّما هو طَلَبُ عِزِّ الدِّين، وإظهارُ شرفِ العلمِ، وإرغامُ المبتَدِعين، فإنِّي لو لَبِسْتُ الدُّونَ من الثيابِ، وجلستُ في الدُّونِ من المجالس شمتَت بي أعداءُ الدينِ، وفرحوا بذلِّي، وفي ذُلِّي ذُلُّ الدينِ؛ وينسىٰ الغُرُورَ، وأنَّ إبليسَ هو الذي سَوَّلَ له، بدليلِ أنَّ النبيَّ ﷺ وأصحابَهُ كانوا يتواضعون ويؤثرونَ الفقرَ والمسكنةَ.

وقد رُوِّينا عن عمرَ بن الخطَّابِ ﷺ أنه لمَّا قَدِمَ الشَّامَ عَرَضَت له مَخَاضَةٌ[٢]،

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤).

(٢) المخَاضُ من النَّهرِ الكبير: الموضعُ الذي يَتَخَضْخَضُ مَاؤُهُ فيُخَاضُ عند العبورِ، ويُقال: المخَاضَةُ أيضًا.

فنزلَ عن بعيرِهِ، ونزع خُفَّيهِ وأمسكهما، وخاضَ الماءَ، ومعه بعيرُهُ، فقال له أبو عبيدة: لقد صنعتَ اليوم صنعًا عظيمًا عند أهلِ الأرضِ، فَصَكَّ عمرُ في صدرِهِ وقال: أَوَّه، لو غيرُكَ يقولُ هذا يا أبا عُبيدةَ؟! إنكم كنتم أَذَلَّ وأحقرَ النَّاسِ، فأعزَّكم الله برسولِه، فمهما تطلبوا العزَّ بغيرِهِ يُذِلُّكُمُ الله.

وفي رواية عنه: لمَّا قَدِمَ الشَّامَ، استقبلهُ النَّاسُ وهو علىٰ بعيرِهِ، فقيل له: لو رَكِبتَ بِرذَونًا[1] تلقىٰ به عظماءَ النَّاسِ ووجوهَهم، فقال عمرُ ﵁: لا أراكم هاهنا إنمَّا الأمرُ من هاهنا -وأشار بيدِهِ إلىٰ السماءِ- خَلُّوا سبيلَ جملي.

ثم العَجَبُ من مغرورٍ يطلبُ عزَّ الدنيا بالثيابِ الرفيعةِ، والخيولِ الفارهةِ، ونحو ذلك، وإذا خطرَ له خاطِرُ الرياءِ قال: إنَّما غرضي بهذا إظهارُ العلمِ والعملِ لاقتداءِ النَّاسِ ليهتدوا إلىٰ الدينِ، ولو كان هذا قَصدَهُ لفرحَ باقتداءِ النَّاسِ بغيرِهِ كما يفرحُ باقتدائِهم بِهِ؛ لأنَّه مَن كان قصدُهُ صلاحَ الخَلقِ يفرحُ بصلاحهم علىٰ يدِ مَن كان، وكذلك مَن يدخلُ منهم علىٰ سلطانٍ، ويتودَّدُ إليه، ويُثني عليه، ويتواضعُ له، ويقول: إنمَّا غرضي بهذا أن أشفعَ في مسلمٍ أو أدفعَ عنه الضَّرَرَ، والله يعلمُ أنَّه لو ظهر لبعضِ أقرانِهِ قبولٌ عند السلطانِ لَثَقُل ذلك عليه.

وقد ينتهي غرورُ بعضهم إلىٰ أن يَأخُذَ من مالهم الحرامِ ويقولَ: هذا مالٌ لا مالكَ له، وهو لصالحِ المسلمين، وأنت إمامٌ من أئمتهم، فَيَغْتَرَّ بهذا التلبيسِ من جهةِ نظرِهِ إلىٰ نفسِهِ.

---

(١) البَرَاذينُ من الخيلِ: ما كان من غيرِ نتاج العِرَابِ.

وفِرقَةٌ أخرىٰ: أحكموا العلمَ، وطهَّروا جوارحَهم وزيَّنوها بالطاعاتِ، وتفقَّدوا قلوبَهم بتصفيتها من الرياءِ والحسدِ والكبرِ ونحو ذلك، ولكن بقيت في زوايا القلبِ خفايا من مكايدِ الشيطانِ وخُدَعِ النَّفسِ لم يفطنوا لها وأهملوها، فترىٰ أحدَهم يسهرُ ليلَه وَينْصَبُ نهارَهُ في جَمعِ العلومِ وترتيبها وتحسينِ ألفاظِها، ويرىٰ أنَّ باعثَه علىٰ ذلك الحرصُ علىٰ إظهار دينِ الله تعالىٰ، وربمَّا كان الباعثُ لذلك طَلَبَ الذِّكرِ وانتشارَ الصِّيتِ، ولعلَّه لا يخلو في تصنيفه من الثَّنَاءِ علىٰ نفسهِ، إمَّا تصريحًا بالدعاوىٰ الطويلةِ العريضةِ، وإمَّا ضِمنًا بالطعنِ في غيرهِ ليُبَيِّنَ في طعنِهِ في غيرهِ أنَّه أفضلُ من ذلك الغيرِ، وأعظمُ منه علمًا، فهذا وأمثالُهُ من خفايا العيوبِ التي لا يفطنُ لها إلا الأكياسُ الأقوياءُ، ولا مطمعَ فيه لأمثالنا من الضعفاءِ، إلا أنَّ أقلَّ الدرجاتِ أن يعرفَ الإنسانُ عيوبَ نفسِهِ ويحرصَ علىٰ صلاحِهَا.

فهذا غُرُوُر الذين حَصَّلوا العلومَ المهمَّةَ، فكيف بالذين قَنَعُوا من العلومِ بما لا يَهُمُّهم وتركوا المهمَّ؟!(١).

* * *

---

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (ص٣٠٤).

١١- التَّعَصُّبُ بالهَوَى، والتَّقليدُ الأعمَى، وتَحكيمُ آراء الرِّجَالِ

قَضَىٰ الله ﷻ قضاءً مُحكَمًا نافِذًا لا يُرَدُّ في شأنِ المنافقين الذين أعرضوا عن حكمِ رسولِ الله ﷺ، فقال تعالىٰ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء:٦٥].

«فقد أقسم الله في هذه الآيةِ الكريمةِ بنفسهِ أنَّ هؤلاء لا يكونون مؤمنين أبدًا حتَّىٰ يحكِّموا الرسولَ ﷺ فيما نَشِبَ بينهم من خصوماتٍ، ثمَّ لا يقابلوا حُكمَهُ بالحَرَجِ وضيقِ الصَّدرِ، بل يرضوا به ويُذْعِنوا، وبعد وفاتِهِ ﷺ إنَّما يكونُ التحاكمُ إلىٰ كتابِ الله وسنَّةِ رسولِهِ، فلا يتمُّ إيمانُ أحدٍ حتَّىٰ يُحَكِّمهما وحدهما، ويُسَلِّمَ للذي يحكمان به»(١).

قال العلامةُ ابنُ القيمِ -رحمه الله تعالىٰ-:

قَـد أقسَمَ اللهُ العَظيمُ بِنَفسِهِ	**قَسَمًا يُبينُ حَقيقَةَ الإيمَانِ**
أن لَيسَ يُؤمِنُ مَن يَكُونُ مُحَكِّمًا	**غَيرَ الرَّسُولِ الوَاضِحِ البُرهَانِ**
بَل لَيسَ يُؤمِنُ غَيرُ مَن قَد حَكَّمَ الـ	**وَحيَينِ حَسبُ فَذَاكَ ذُو إيمَانِ**

(١) «شرح القصيدة النونية» لابن القيم، شرح محمد خليل هراس (١/ ٢٥٩).

هَــذَا ومَــا ذَاكَ الْمُحَكِّـمُ مُؤمِـنًا   إن كَــانَ ذَا حَــرَجٍ وَضِـيقِ بِطَــانِ
هــذَا وَلَـيسَ بِمــؤمِنٍ حَتَّــىٰ يُـسَلْـ   ـلِـمَ للَّــذِي يَقــضِي بِــهِ الوَحــيَانِ

وقد كان التعصُّبُ لآراءِ الرجالِ سببًا في اختلافِ المسلمين فيما بينهم، وترتَّبَ علىٰ هذا الاختلافِ كثيرٌ من الأذىٰ يحلُّ بساحةِ من يصرِّحُ بمذهبِهِ أو يستعلنُ به، لذلك كانت شكوىٰ الزمخشريِّ -عفا الله عنه-، أو قُل: صرخَتُهُ حادَّةً مدوِّيةً، إذ يقولُ:

إذَا سَـأَلُوا عَـن مَذهَبِـي لَـم أَبُـحْ بِـهِ   وَأَكــتُمُهُ كِـــتْمَانُهُ لــي أســلَمُ
فَــإن حَنَفِــيًّا قُلــتُ، قَالُــوا بأَنَّنِــي   أُبــيحُ الطِّــلا وهُــوَ الـشَّرَابُ الْمُحَـرَّمُ
وإنِ مالِكِــيًّا قُلــتُ، قَالُــوا بِأَنَّنِــي   أُبِـيحُ لَهُـم لَحـمَ الكـلابِ وَهُـم هُـمُ
وَإنِ شَــافِعِيًّا قُلــتُ، قالــوا بأنَّنِــي   أُبِـيحُ نِكـاحَ البِـنتِ والبِـنتُ تَحـرُمُ
وَإن حنبلِــيًّا قلــتُ، قالــوا بأنَّنِــي   ثقِــيلٌ حُلُولِــيٌّ بغِــيضٌ مُجِــسِّمُ
وإن قُلتُ مِن أَهلِ الحَديثِ وحِزْبِهِ   يَقُولُـونَ: تَـيسٌ لَـيسَ يَـدري ويَفْهَـمُ
تَعَجَّــبْتُ مِــن هــذَا الـزَّمَانِ وأهلِــهِ   فَمَــا أَحَــدٌ مِــن أَلـسُنِ الـنَّاسِ يَـسلَمُ

وقد كان أصحابُ النبيِّ ﷺ قُدوَةَ المؤمنين من بَعدِهم في اتباعِ النبيِّ ﷺ، وفي القَصِّ علىٰ أثرِهِ، وآثارُهم في ذلك ناطقةٌ بتحرِّيهم اتباعَ آثارِه، والسيرَ علىٰ منهاجِهِ، وكذلك كان التابعون لهم بإحسانٍ، وتابعُو تابعيهم علىٰ منهاجِهم، «ثمَّ خَلَفَ من بعدهم خُلُوفٌ فرَّقوا دينَهم وكانوا شيَعًا كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون، وتقطَّعوا أمرهم بينهم زُبُرًا[1] وكلٌّ إلىٰ ربِّهم راجعون، جعلوا التعصُّبَ للمذاهبِ ديانَتَهم

(١) زُبُرًا: قطعًا، أي فِرقًا وطوائفَ، متفرقين لا مجتمعين.

التي بها يدينون، ورءوسَ أموالهم التي بها يَتَّجرون، وآخرون منهم قنعوا بمحض التقليدِ وقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف:٢٣]، والفريقانِ بمعزلٍ عمَّا ينبغي اتباعُهُ من الصوابِ، ولسانُ الحقِّ يتلو عليهم: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [النساء:١٢٣].

قال الشافعيُّ -قدَّسَ الله روحَه-: «أجمعَ المسلمونَ علىٰ أنَّ من استبانت له سُنَّةُ رسولِ الله لم يكن له أن يدَعَهَا لقولِ أحدٍ من النَّاسِ».

قال أبو عمر وغيره من العلماء: «أجمعَ النَّاسُ علىٰ أنَّ المقلَّدَ ليس معدودًا من أهلِ العلمِ، وأنَّ العلمَ معرفةُ الحقِّ بدليلِهِ».

وهذا كما قال أبو عمر -رحمه الله تعالىٰ- فإنَّ النَّاسَ لا يختلفون أنَّ العلمَ هو المعرفةُ الحاصلةُ عن الدليلِ، وأمَّا بدونِ الدليلِ فإنَّما هو تقليدٌ.

فقد تضمَّنَ هذان الإجماعان إخراجَ المتعصِّبِ بالهوىٰ والمقلِّدِ الأعمىٰ عن زُمرَةِ العلماءِ، وسقوطَهما باستكمالِ مَن فَوقَهُمَا الفروضَ من ورثةِ الأنبياءِ، فإنَّ العلماءَ هم ورثةُ الأنبياءِ، فإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثوا دينارًا ولا درهمًا، وإنَّما ورَّثُوا العلمَ، فمَن أخذه أخذَ بحظٍّ وافرٍ، وكيف يكونُ من ورثةِ الرسولِ ﷺ من يجهدُ ويكدحُ في ردِّ ما جاء به إلىٰ قولِ مُقَلِّدِهِ ومتبوعِهِ؟! ويُضَيِّعُ ساعاتِ عمرِهِ في التعصُّبِ والهوىٰ ولا يشعرُ بتضييعه؟!

تَالله إنَّها فتنةٌ عَمَّت فَأعمَت، ورَمَتِ القلوبَ فَأَصْمَت[1]، رَبَا عليها الصغيرُ،

(١) أي: أصابت مقتلًا.

وهَرَم فيها الكبيرُ، واتُّخِذَ لأجلِها القرآنُ مهجورًا، وكان ذلك بقضاء الله وقدرِهِ في الكتابِ مسطورًا، ولما عمَّت بها البليَّةُ، وعَظُمَت بسببِها الرزيَّةُ، بحيث لا يعرف أكثر النَّاسِ سواها، ولا يَعُدُّ العلمَ إلا إيَّاها، فطالِبُ الحقِّ من مَظَانِّهِ لديهم مفتونٌ، ومُؤثِرُهُ علىٰ ما سواه عندهم مغبونٌ، نصَبُوا لمن خالفهم في طريقتهم الحبائلَ، وبَغَوا له الغوائِلَ، ورَمَوهُ عن قوسِ الجهلِ والبغي والعنادِ، وقالوا لإخوانهم: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ﴾ [غافر:٢٦].

فحقيقٌ بِمَن لنفسِهِ عنده قَدرٌ وقيمةٌ ألا يلتفتَ إلىٰ هؤلاءِ ولا يرضىٰ بما لديهم، وإذا رُفِعَ له عَلَمُ السنَّةِ شَمَّرَ إليه ولم يحبس نفسَهُ عليهم، فما هي إلا ساعةٌ حتىٰ يُبَعثَرَ ما في القبورِ، ويُحَصَّلَ ما في الصدورِ، وتتساوىٰ أقدامُ الخلائقِ في القيامِ لله، وينظرَ كلُّ عبدٍ ما قَدَّمَت يداه، ويقعَ التمييزُ بين المحقِّين والمبطلين، ويعلمَ المعرضون عن كتابِ ربِّهم وسنَّةِ نبيِّهم أنَّهم كانوا كاذبين»(١).

مِن آثَارِ التَّعَصُّبِ المَمقُوتِ:

رَصَدَ الشيخُ رشيد رضا -عفا الله عنه- بعضَ آثارِ التعصُّبِ في فاتحةِ كتابه عن «الوحدة الإسلامية والأخوَّة الدينية» (ص١٣١)، فقال: «وَقَعَ من الفتنِ بين المختلفين في الأصولِ والفروعِ ما سوَّدَ صُحُفَ التاريخِ، علىٰ أنَّ الخلافَ في الفروعِ أهونُ وأقلُّ شرًّا، وقد ضعُفَ في هذا الزمانِ بضعفِ أسبابِهِ في أكثرِ البلادِ، ولكنَّنَا نسمعُ بمنكراتٍ قبيحةٍ منه في أخرىٰ.

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ٧).

من ذلك: أنَّ بعضَ الحنفيةِ من الأفغانيين سمعَ رجلاً يقرأُ الفاتحةَ وهو بجانبِهِ في الصفِّ فضربه بمجموعِ يدِهِ علىٰ صدرِهِ ضربةً وَقَعَ بها علىٰ ظهرِهِ فكادَ يموتُ.

وبلغني أنَّ بعضَهم كَسَرَ سبَّابَةَ مُصَلٍّ لرفعِهِ إيَّاها في التَّشَهُّدِ.

وقد بلغَ من إيذاءِ بعضِ المتعصِّبين لبعضٍ في طرابلسِ الشَّامِ في آخرِ القرنِ الماضي أن ذَهَبَ بعضُ شيوخِ الشافعيةِ إلىٰ المفتي وهو رئيسُ العلماءِ وقال له: اقسم المساجدَ بيننا وبين الحنفيَّةِ؛ فإنَّ فلانًا من فقهائهم يعدُّنا كأهلِ الذِّمَّةِ بما أذاعَ في هذه الأيامِ من خلافهم في تزوُّجِ الحنفيةِ بالشافعيِّ، وقولُ بعضهم: لا يصحُّ؛ لأنَّها تشكُّ في إيمانها -يعني: أنَّ الشافعيةَ وغيرَهم من الأشعريةِ يجوِّزون أن يقولَ المسلمُ: أنا مؤمنٌ إن شاء الله-، وقول آخرين: بل يصحُّ نكاحُهَا قياسًا علىٰ الذِّمِّيَّةِ!!

فأين هذا التَّعَصُّبُ والإيذاءُ والتفريقُ بين المسلمين بالآراءِ الاجتهاديةِ من تساهلِ السَّلَفِ الصَّالحِ، وأخذِهم بما أراده الرحمنُ من اليُسرِ في الشرعِ وانتفاءِ الحرجِ فيه، واتِّقَائِهم التفريقَ بين المسلمين بظنون اجتهاديةٍ رَجَّحَ بها كلُّ ناظرٍ ما رآه أقربَ إلىٰ النصوصِ أو إلىٰ حكمةِ الشرعِ، حتَّىٰ كان أشهرُ الأئمةِ لا يستحلُّون الجزمَ بالحكمِ فيها، فيقول أحدُهم: أكره كذا، أو: أستبيحُهُ، أو: أخشىٰ أن يكون كذا، أو: لا ينبغي، أو: لا يصلح، أو: لا يعجبني، أو: لا أحبُّه، أو: لا أستَحِبُّه، ويقولُ في مقابلِ ذلك: يفعلُ السائلُ كذا احتياطًا، أو: أحبُّ كذا، أو: يعجبني،أو: أعجَبُ إليَّ، أو: هذا أحسَنُ.

هكذا كان يقولُ الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ في المسائلِ الاجتهاديةِ، أو فيما لا نصَّ صحيحًا صريحًا فيه من الكتاب والسنَّةِ، ويُؤثر نحوَهُ علىٰ غيرِهِ، ولكنَّ مدوِّني

المذاهبِ جعلوا هذه التقوىٰ والورعَ في التشريعِ قواعدَ في أحكامِ التكليفِ وطُرُقِ الاستنباطِ والاستدلالِ».اهـ

وقد يُفهم من الحضِّ علىٰ اتباعِ الوحيين والتَّمَسُّكِ بهما وصرفِ النَّفسِ عمَّا سواهما؛ قد يُفهم من ذلك الدعوةُ إلىٰ إهدارِ أقوالِ العلماءِ والصدِّ عن آثارهم ومحاددَةِ أقوالهم، ولكنَّ ذلك ليس مقصودًا ولا مُرَادًا، بل يجب التفريقُ بين تجريدِ المتابعةِ للنبيِّ ﷺ وإهدارِ أقوالِ العلماءِ.

«الفَرقُ بينَ تَجريدِ المُتَابَعَةِ للمعصُومِ ﷺ وإهدَارِ أقوَالِ العلمَاءِ وإلغَائهَا:

الفرقُ بينهما: أن تجريدَ المتابعةِ ألا تُقَدِّم علىٰ ما جاء به قولَ أحدٍ ولا رأيَه كائنًا مَن كان، بل تنظرُ في صحَّةِ الحديثِ أوَّلًا، فإذا صَحَّ لك نظرتَ في معناه ثانيًا، فإذا تَبَيَّنَ لكَ لم تعدِلَ عنه ولو خالفكَ مَن بين المشرقِ والمغربِ.

ومعاذَ الله أن تَتَّفِقَ الأمَّةُ علىٰ مخالفةِ ما جاءِ به نبيُّها، بل لابُدَّ أن يكونَ في الأمةِ مَن قَال به، ولو لم تعلمه، فلا تجعل جهلَكَ بالقائلِ حُجَّةً علىٰ الله ورسولِهِ، بل اذهب إلىٰ النَّصِّ ولا تَضعُف، واعلم أنَّه قد قال به قائلٌ قطعًا ولكن لم يصل إليك.

هذا مع حفظِ مراتبِ العلماءِ وموالاتِهم واعتقادِ حرمتِهم وأمانتِهم واجتهادِهم في حفظِ الدينِ وضبطِهِ، فهم دائرون بين الأجرِ والأجرين والمغفرةِ، ولكن لا يُوجب هذا إهدارَ النصوصِ وتقديمَ قولِ الواحدِ منهم عليها بشُبهة أنَّه أعلمُ بها منك، فإن كان كذلك فَمَن ذَهَبَ إلىٰ النصِّ أعلمُ منك، فهَلا وافقتَهُ إن كنتَ صادقًا؟!

فَمَن عَرَضَ أقوالَ العلماءِ علىٰ النصوصِ ووزَنَها بها وخَالَفَ منها ما خَالفَ

النَّصَّ لم يُهدرِ أقوالَهم، ولم يهضم جانبَهُم، بل اقتدىٰ بهم فإنَّهم كلَّهم أمروا بذلك، فمتَّبِعهُم حقًّا مَن امتثلَ ما أَوصَوا به لا مَن خَالَفَهُم، فخلافُهم في القولِ الذي جاء النَّصُّ بخلافِهِ أسهلُ من مخالفتِهم في القاعدةِ الكليَّةِ التي أَمروا بها ودَعَوا إليها من تقديمِ النصِّ علىٰ أقوالِهم.

ومن هنا يتبيَّنُ الفرقُ بين تقليدِ العالِمِ في كلِّ ما قال، وبين الاستعانةِ بفهمِهِ والاستضاءةِ بنورِ علمِهِ، فالأولُ يأخذ قولَهُ من غيرِ نَظرٍ فيه ولا طلبٍ لدليلِهِ من الكتابِ والسنَّةِ، بل يجعلُ ذلك كالحَبلِ الذي يُلقيه في عُنقِهِ يقلِّده به، ولذلك سُمِّي تقليدًا، بخلافِ من استعانَ بفهمهم، واستضاءَ بنور علمهم في الوصولِ إلىٰ الرسولِ -صلواتُ الله وسلامُهُ عليه-، فإنَّه يجعلهم بمنزلةِ الدليلِ الأولِ، فإذا وَصَلَ إليه استغنىٰ بدلالتِهِ من الاستدلالِ بغيرِهِ، فَمَن استدلَّ بالنَّجمِ علىٰ القِبْلَةِ فإنَّه إذا شاهدها لم يَبقَ لاستدلالِهِ بالنَّجمِ معنًىٰ.

قال الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمعَ النَّاسُ علىٰ أنَّ مَن استبانَت له سُنَّةُ رسولِ الله ﷺ لَم يكن له أن يدعَهَا لقولِ أحدٍ»[1].

الفرقُ بَينَ الحُكمِ المُنَزَّلِ الوَاجِبِ الاتِّبَاعِ، والحُكمِ المُؤَوَّلِ:

الفرقُ بينهما: أنَّ الحُكمَ المنزَّلَ هو الذي أنزلَهُ الله علىٰ رسولِهِ، وحَكَمَ به بين عبادِهِ، وهو حكمُهُ الذي لا حُكمَ له سواه.

وأمَّا الحكمُ المؤَوَّلُ فهو أقوالُ المجتهدين المختلفةُ التي لا يجبُ اتباعُها

(١) «الروح» لابن القيم (ص٣٥٦).

ولا يكفرُ ولا يفسقُ مَن خالفها، فإنَّ أصحابَهَا لم يقولوا: هذا حُكمُ الله ورسولِهِ، بل قالوا: اجتهدنا برأينا فمَن شاءَ قَبِلَهُ ومَن شاء لم يقبله.

وكذلك مالكٌ استشارَهُ الرشيدُ أن يحملَ النَّاسَ علىٰ ما في «الموطَّأ» فمنعَهُ من ذلك، وقال: قد تفرَّقَ أصحابُ رسولِ اللهﷺ في البلادِ وصار عند كلِّ قومٍ علمٌ غير ما عند الآخرين.

وهذا الشافعيُّ ينهىٰ أصحابَهُ عن تقليدِهِ ويوصيهم بتركِ قولِهِ إذا جاء الحديثُ بخلافِه.

وهذا الإمامُ أحمدُ يُنكرُ علىٰ مَن كَتَبَ فتاواه ودَوَّنَهَا، ويقول: لا تقلِّدني ولا تقلِّد فلانًا وفلانًا وخُذ من حيثُ أخذوا.

ولو علموا ﭫ أنَّ أقوالَهم يجبُ اتباعُهاَ لحرَّموا علىٰ أصحابِهم مخالَفتَهم، ولَمَا سَاغَ لأصحابِهم أن يُفتوا بخلافهم في شيءٍ، ولَمَا كان أحدُهم يقولُ القولَ ثم يُفتي بخلافِهِ، فيُروىٰ عنه في المسألةِ القولانِ والثلاثةُ وأكثر من ذلك، فالرأيُ والاجتهادُ أحسنُ أحوالِهِ أن يسوغَ اتباعُهُ، والحُكمُ المنزَّلُ لا يحلُّ لمسلمٍ أن يخالفَهُ ويخرجَ عنه»(١).

حِرصُ الأئمةِ عَلَىٰ رَدِّ الأتباعِ إلىٰ الدليلِ:

لقد كان الأئمةُ المتَّبعون ﭫ يحرصون غايةَ الحرصِ علىٰ رَدِّ أتباعهم عن اتِّبَاعِهِم من غيرِ أن يعرفوا دليلَهم، وصرَّحوا -رضوانُ الله عليهم- في مواطنَ كثيرةٍ

(١) «الروح» لابن القيم (ص٣٦٠).

بأنَّ مذهبَهم هم أنفسهم هو ما صَحَّ من الحديثِ، وقد سَاقَ الألبانيُّ في «صفة صلاة النبيِّ ﷺ» (ص١٩)، أقوالاً كثيرةً للأئمةِ الأربعةِ رضي الله عنهم في وجوبِ اتباعِ النبيِّ ﷺ، وتَركِ كُلِّ مَن خالفه كائنًا مَن كان، نسوقُ منها بعضَها:

فأمَّا أبو حنيفةَ النعمانُ بنُ ثابتٍ رحمه الله، فقد روىٰ عنه أصحابُهُ أَقوَالًا شتَّىٰ وعباراتٍ متنوِّعَةً، كلُّها تؤدِّي إلىٰ شيءٍ واحدٍ، وهو وجوبُ الأخذِ بالحديثِ، وتركِ تقليدِ آراءِ الأئمةِ المخالفةِ له -أي: للحديث-.

١- إذا صَحَّ الحديثُ فهو مذهبي.

٢- لا يحلُّ لأحدٍ أن يأخذَ بقولنا، ما لم يعلم من أين أخذناه.

٣- إذا قلتُ قَولًا يخالفُ كتابَ الله تعالىٰ وخَبرَ الرسولِ ﷺ، فاتركوا قولي.

وأمَّا الإمامُ مالكٌ رحمه الله فقال:

١- إنمَّا أنا بَشَرٌ أُخطئُ وأصيبُ، فانظروا في رأيي، فكلُّ ما وافقَ الكتابَ والسنَّةَ فخذوه، وكلُّ ما لم يوافق الكتابَ والسنَّةَ فاتركوه.

٢- ليس أحدٌ بعد النبيِّ ﷺ إلا يُؤخَذُ من قولِه ويُترَكُ، إلا النبيُّ ﷺ.

٣- قال ابنُ وهبٍ: سمعتُ مالكًا سُئلَ عن تخليلِ أصابعِ الرِّجلَين في الوضوءِ، فقال: ليس ذلك علىٰ النَّاسِ، قال: فتركتُه حتىٰ خَفَّ النَّاسُ، فقلتُ له: عندنا في ذلك سنَّةٌ، فقال: ما هي؟ قلتُ: حدثنا الليثُ بن سعدٍ وابنُ لهيعةَ، وعمروُ ابنُ الحارثِ، عن يزيدَ بن عمرو المعافري، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن المستوردِ بن شدَّادِ القرشيِّ قال: «رأيتُ رسولَ الله ﷺ يدلُكُ بخِنْصِرِه ما بين

أصابعِ رجليه»، فقال: إنَّ هذا حديثٌ حَسَنٌ، وما سمعتُ به قطُّ إلا الساعةَ، ثمَّ سمعتُهُ بعد ذلك يُسألُ، فيأمرُ بتخليلِ الأصابعِ.

وأمَّا الإمامُ الشافعيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فالنقولُ عنه في ذلك أكثرُ وأطيبُ، وأتباعهُ أكثرُ عَمَلًا بها وأسعدُ، فمنها:

١- ما من أحدٍ إلا وتذهب عليه سنَّةٌ لرسولِ الله ﷺ وتَعزُبُ عنه، فمهما قلتُ من قولٍ، أو أصَّلتُ من أصلٍ فيه عن رسولِ الله ﷺ خلافُ ما قلتُ، فالقولُ ما قال رسولُ الله ﷺ، وهو قولي.

٢- كلُّ مسألةٍ صحَّ فيها الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ عند أهلِ النَّقلِ بخلافِ ما قلتُ، فأنا راجعٌ عنها في حياتي وبعد موتي.

٣- إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبي.

٤- أجمعَ المسلمون علىٰ أنَّ من استبانَ له سُنَّةٌ عن رسولِ الله ﷺ لم يحلَّ له أن يدعها لقولِ أحد.

وأمَّا الإمامُ أحمدُ فهو أكثرُ الأئمةِ جَمعًا للسنَّةِ وتمسُّكًا بها، حتَّىٰ كان -كما قال ابنُ الجوزي- يكره وَضعَ الكتبِ التي تشتملُ علىٰ التفريعِ والرأي، ولذلك قال:

١- لا تقلِّدني ولا تقلِّد مالكًا ولا الشافعيَّ ولا الأوزاعيَّ ولا الثوريَّ وخُذ من حيث أخذوا.

٢- رأيُ الأوزاعيِّ ورأي مالكٍ ورأي أبي حنيفة كلُّهُ رأيٌ، وهو عندي سواءٌ، وإنَّما الحُجَّةُ في الآثارِ.

٣- مَن رَدَّ حديثَ رسولِ اللهِ ﷺ فهو على شَفَا هَلَكَةٍ.

تلك هي أقوالُ الأئمةِ الأربعة ﭫ في الأمر بالتمسُّكِ بالحديثِ، والنهي عن تقليدهم دون بصيرةٍ، وهي من الوضوحِ والبيانِ بحيثُ لا تقبلُ جَدَلًا وَلَا تَأويلًا، وعليه؛ فإنَّ مَن تَمَسَّكَ بكلِّ ما ثبتَ من السُّنَّةِ ولو خَالَفَ بعضَ أقوالِ الأئمةِ، لا يكون مُبَاينًا لمذهبهم، ولا خارجًا عن طريقتهم، بل هو مُتَّبِعٌ لهم جميعًا، ومتمسِّكٌ بالعروةِ الوثقىٰ التي لا انفصامَ لها، وليس كذلك مَن تَرَكَ السنَّةَ الثابتةَ لمجرَّدِ مخالفتِها لقولهم، بل هو بذلك عاصٍ لهم، ومخالِفٌ لأقوالهم المتقدِّمَةِ، واللهُ تعالىٰ يقولُ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥]، ويقول تعالىٰ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور:٦٣]. اهـ

بيانُ فَسَادِ التَّقليدِ، والفَرقِ بَينَهُ وبَينَ الاتِّبَاعِ:

قال ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «الجامع» (٢/ ١٠٩)**: «قال الله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف:٢٣-٢٤].

فَمَنَعَهُم الاقتداءُ بآبائهم من قبولِ الاهتداءِ فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴾.

وفي هؤلاء وأمثالهم قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال:٢٢].

وقال: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧].

وقال ﷻ عائبًا لأهلِ الكفرِ وذامًّا لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء:٥٢-٥٣].

وقال: ﴿إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب:٦٧].

ومثلُ هذا في القرآنِ كثيرٌ من ذَمِّ تقليدِ الآباءِ والرُّؤسَاءِ، وقد احتجَّ العلماءُ بهذه الآياتِ في إبطالِ التقليدِ، ولم يمنعهم كُفْرُ أولئكَ من الاحتجاجِ بها، لأنَّ التشبيهَ لم يقع من جهةِ كُفرِ أحدهما وإيمانِ الآخرِ، وإنَّما وَقَعَ التشبيهُ بين التقليدين بغيرِ حُجَّةٍ للمقلِّدِ، كما لو قَلَّدَ رجلٌ فكفرَ، وقلَّدَ آخرُ فأذنبَ، وقَلَّدَ آخرُ في مسألةِ دنياه فأخطأَ وَجهَهَا، كان كلُّ واحدٍ ملومًا علىٰ التقليدِ بغيرِ حُجَّةٍ، لأنَّ كلَّ ذلكَ تقليدٌ يُشْبِهُ بعضُهُ بعضًا، وإن اختلفت الآثامُ فيه.

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥]، فإذا بَطَلَ التقليدُ بكلِّ ما ذكرنا وجبَ التسليمُ للأصولِ التي يجب التسليمُ لها، وهي الكتابُ والسُّنَّةُ، أو ما في معناهما بدليلٍ جامعٍ بين ذلك.

قال أبو عمر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يُقالُ لِمَن قالَ بالتقليدِ: لِمَ قُلتَ به وخَالَفتَ السَّلَفَ في ذلك، فإنَّهم لم يقلِّدوا؟ فإن قال: قلَّدتُ لأنَّ كتابَ الله ﷻ لا علمَ لي بتأويلِهِ، وسنَّةَ رسولِه لم أُحصها، والذي قلَّدتُهُ قد عَلِمَ ذلك، فقلَّدتُ مَن هو أعلمُ مِنِّي،

قيل له: أمَّا العلماءُ، إذا اجتمعوا علىٰ شيءٍ من تأويل الكتاب أو حكاية سنة عن رسول الله ﷺ أو اجتمع رأيهم علىٰ شيء فهو الحقُ لا شكَّ فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلَّدتَ فيه بعضهم دون بعضٍ، فما حُجَّتُك في تقليدِ بعض دون بعضٍ وكلُّهم عالِمٌ، ولعلَّ الذي رَغِبتَ عن قولِهِ أعلمُ من الذي ذهبتَ إلىٰ مذهبِهِ؟

فإن قال: قلَّدتُهُ لأنِّي علمتُ أنَّه صوابٌ، قيل له: علمتَ ذلك بدليلٍ من كتابٍ أو سنَّةٍ أو إجماعٍ؟ فإن قال: نعم، فقد أبطَلَ التقليدَ وطُولِبَ بما ادَّعاه من الدليلِ، وإن قال: قلَّدتُه لأنَّه أعلمُ منِّي، قيل له: فقلِّد كلَّ مَن هو أعلمُ منك، فإنَّك تجد من ذلك خَلقًا كثيرًا، ولا تخُصَّ مَن قَلَّدتَه، إذ عِلَّتُك فيه أنَّه أعلمُ منك، فإن قال: قَلَّدتُه لأنَّه أعلمُ النَّاسِ، قيل له: فهو -إذن- أعلمُ من الصحابةِ، وكفىٰ بقولٍ مثلِ هذا قُبحًا.

وإن قال: إنمَّا أُقَلِّدُ بعضَ الصحابةِ، قيل له: فما حُجَّتُك في تَركِ مَن لم تقلِّد منهم؟ ولعلَّ مَن تركتَ قولَه منهم أفضلُ ممَّن أخذتَ بقولِهِ، علىٰ أنَّ القولَ لا يصحُّ لِفَضلِ قائلِهِ وإنمَّا يصحُّ بدلالةِ الدليلِ فيه». اهـ

وقال العلامةُ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يُقالُ للمقلِّدِ: بأي شيء عرفتَ أنَّ الصوابَ مع مَن قلَّدتَه دون مَن لا تُقَلِّدُهُ؟ فإن قالَ: عرفتُ بالدليلِ، فليس بمقلِّدٍ، وإن قال: عرفتُه تقليدًا له، فإنَّه أفتىٰ بهذا القولِ ودانَ به وَعِلمَهُ، ودينُهُ وحُسنُ ثناءِ الأمَّةِ عليه منعه أن يقولَ غيرَ الحقِّ، قيل له: فمعصومٌ هو عندك، أم يجوزُ عليه الخطأُ؟ فإن قال بعصمتهِ أبطَلَ، وإن جوَّزَ عليه الخطأَ، قيل له: فما يُؤمنك أنَّه قد أخطأ فيما قلَّدتَه فيه وخالفه فيه غيره؟ فإن قال: وإن أخطأ فهو مأجورٌ، قيل: أجَل، هو مأجورٌ لاجتهادِهِ، وأنت غيرُ مأجورٍ لأنَّك لم تأتِ بموجبِ الأجرِ، بل قد فرَّطتَ في اتِّباعِ

الواجبِ، فأنت إذن مأزورٌ.

فإن قال: كيف يأجرُهُ الله تعالىٰ علىٰ ما أفتىٰ به ويمدحهُ عليه، ويذمُّ المستفتي علىٰ قولِهِ، وهل يُعقلُ هذا؟ قيل له: المستفتي إن هو قَصَّرَ وفَرَّطَ في معرفةِ الحقِّ مع قُدرتِهِ عليه لَحِقَهُ الذَّمُ والوعيدُ، وإن بَذَلَ جُهدَهُ، ولم يقصِّر فيما أُمِرَ به واتقىٰ الله ما استطاعَ فهو مأجورٌ أيضًا.

وأمَّا المتعصِّب الذي جَعَلَ قولَ متبوعِهِ عِيَارًا علىٰ الكتابِ والسنَّةِ وأقوالِ الصحابةِ يَزنُهَا به، فما وَافَقَ قولَ متبوعِهِ منها قَبِلَهُ، وما خَالَفهُ رَدَّهُ، فهذا إلىٰ الذَّمِّ والعقابِ أقربُ منه إلىٰ الأجرِ والثوابِ.

وإن قال -وهو الواقعُ- اتبعتُهُ وقلَّدتُهُ ولا أدري علىٰ صوابٍ هو أم لا؟ والعُهدَةُ علىٰ القَائلِ، وأنا حَاكٍ لأقوالِه.

قيل له: فهل تتخلَّصُ بهذا من الله ﷻ عند السؤالِ لك عمَّا حَكمتَ به بين عبادِ الله وأفتيتهم به؟ فوالله إنَّ للحكامِ والمفتين لموقفًا للسؤال لا يتخلَّصُ منه إلا مَن عَرَفَ الحَقَّ وحَكَمَ به، وعَرَفَهُ وأفتىٰ به، وأمَّا مَن عداهما فسيعلمُ عند انكشافِ الحالِ أنَّه لم يكن علىٰ شيءٍ»(١).

والأئمةُ أنفسُهم رضي الله عنهم لم يتعمَّد واحدٌ منهم مخالفةَ النبيِّ ﷺ في شيءٍ مما ثَبَتَ عنه، وحاشىٰ لله أن يفعلوا، بل كلُّهم صَرَّحَ رضي الله عنهم أنَّه إذا صحَّ الحديثُ فهو مذهبُهُ، وأنَّه إذا خَالَفَ ما ثَبَتَ عن النبيِّ ﷺ في مسألةٍ فهو راجعٌ عنها حَيًّا ومَيِّتًا.

(١)«إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ٢٣٢).

والمخالفةُ إن وقعت فإنَّما تقع لأعذارٍ بيَّنها شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية في رسالتِهِ «رفع الملام عن الأئمة الأعلام» (ص١٢)، فقال: «وليُعلم أنَّه ليس أحدٌ من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولًا عامًّا يتعمد مخالفةَ رسول الله ﷺ في شيء من سنَّتِهِ، دقيقٍ ولا جليلٍ، فإنَّهم متَّفقون اتفاقًا يقينيًّا علىٰ وجوبِ اتباع الرسولِ ﷺ، وعلىٰ أنَّ كلَّ أحدٍ من النَّاسِ يُؤخَذُ من قولِهِ ويُترَكُ إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وُجِدَ لواحدٍ منهم قولٌ، قد جاء حديثٌ صحيحٌ بخلافِهِ، فلابُدَّ له من عُذرٍ في تركِهِ».

وجميعُ الأعذارِ ثلاثةُ أصنافٍ:

أحدُها: عدمُ اعتقادِ أنَّ النبيَّ ﷺ قاله.

الثاني: عدمُ اعتقادِهِ إرادةَ تلك المسألةِ بذلك القولِ.

والثالثُ: اعتقادُهُ أنَّ ذلك الحكمَ منسوخٌ.

شُبهَةٌ وجَوَابُهَا:

وقد يقولُ قائلٌ: إنَّ في إهدارِ التقليدِ تكليفًا للنَّاسِ بما لا يطيقون؛ فليس كلُّ النَّاسِ عالِمًا، وليس كلُّهم قادرًا علىٰ الاستنباطِ والاستدلالِ والنَّظَرِ في الدليلِ.

وجوابُ هذا من وجوهٍ:

«**أحدُها:** أنَّ من رحمةِ الله سبحانه بنَا ورأفتِهِ أنَّه لم يكلِّفنا بالتقليدِ، فلو كلَّفنا به لضاعت أمورُنَا، وفسَدَت مصالحُنَا؛ لأنَّا لم نكن ندري مَن نُقَلِّدُ مِن المفتين والفقهاءِ، وهم عددٌ فوق المئين، ولا يدري عددَهم في الحقيقةِ إلا الله، فإنَّ المسلمين قد ملئوا الأرضَ شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالاً، وانتشر الإسلامُ بحمد الله

وفضلِهِ وبَلَغَ ما بَلَغَ الليلُ.

فلو كَلَّفَنَا بالتقليدِ لوقعنا في أعظمِ العَنَتِ والفسادِ، ولكلَّفَنَا بتحليلِ الشيءِ وتحريمِهِ، وإيجابِ الشيءِ وإسقاطِهِ معًا إن كلَّفَنَا بتقليدِ كلِّ عالِمٍ، وإن كلَّفَنَا بتقليدِ الأعلمِ فالأعلمِ فمعرفةُ ما دَلَّ عليه القرآنُ والسُّنَنُ من الأحكامِ أسهلُ بكثيرٍ من معرفةِ الأعلمِ الذي اجتمعت فيه شروطُ التقليد، ومعرفةُ ذلك مَشَقَّةٌ علىٰ العالِم الراسخِ فضلاً عن المقلِّدِ الذي هو كالأعمىٰ، وإن كلَّفَنَا بتقليدِ البعضِ، وكان جَعلَ ذلك إلىٰ تَشَهِّينَا واختيارِنا صار دينُ الله تبعًا لإرادتنا واختيارِنَا وشهواتِنَا، وهو عينُ المحالِ، فلابُدَّ أن يكون ذلك راجعًا إلىٰ مَن أَمَرَ الله باتباعِ قولِهِ وتَلَقِّي الدينِ من بين شفتيه، وذلك محمَّدُ بنُ عبد الله بن عبد المطلب رسولُ الله وأمينُه علىٰ وَحيِهِ، وحُجَّتُهُ علىٰ خَلقِهِ، ولم يَجعَلِ الله هذا المنصِبَ لسواه بَعده أبدًا.

الثاني: أنَّ بالنَّظَرِ والاستدلالِ صلاحَ الأمورِ لا ضياعَهَا، وبإهمالِهِ وتقليدِ مَن يُخطئُ ويصيبُ إضاعتها وفسادها كما الواقعُ شاهدٌ به.

الثالثُ: أنَّ كلَّ واحدٍ منَّا مأمور بأن يُصَدِّقَ الرسولَ ﷺ فيما أخبر به، ويطيعَهُ فيما أَمَرَ، وذلك لا يكون إلا بعد معرفةِ أمرِهِ وخبرِهِ، ولم يُوجب الله سبحانه من ذلك علىٰ الأمَّةِ إلا ما فيه حفظُ دينِها ودنياها وصلاحها في معاشها ومعادِها، وبإهمالِ ذلك تضيع مصالِحَها وتفسدُ أمورُها، فما خرابُ العالَمِ إلا بالجهلِ ولا عمارته إلا بالعلمِ، وإذا ظَهَرَ العلمُ في بلدٍ أو محلَّةٍ قلَّ الشرُّ في أهلِها، وإذا خَفيَ العلمُ هناك ظَهَرَ الشرُّ والفسادُ، ومَن لم يعرف هذا فهو ممَّن لم يجعل الله له نورًا.

قال الإمامُ أحمد: ولولا العلمُ كان النَّاسُ كالبهائمِ.

وقال: النَّاسُ أحوجُ إلىٰ العلمِ منهم إلىٰ الطعامِ والشراب؛ لأنَّ الطعام والشرابَ يُحتاجُ إليه في اليومِ مرتين أو ثلاثًا، والعلمُ يُحتاجُ إليه في كلِّ وقتٍ(١).

الرابعُ: أنَّ الواجبَ علىٰ كلِّ عبدٍ أن يعرفَ ما يخصُّه من الأحكامِ، ولا يجبِ عليه أن يعرفَ ما لا تدعوه الحاجةُ إلىٰ معرفتِهِ، وليس في ذلك إضاعةٌ لمصالحِ الخلقِ ولا تعطيلٌ لمعاشِهم، فقد كان الصحابةُ رضي الله عنهم قائمين بمصالحهم ومعاشهم وعِمَارةِ حروثِهم والقيامِ علىٰ مواشيهم، والضَّربِ في الأرضِ لمتاجرِهم والصَّفقِ بالأسواقِ، وهم أهدىٰ العلماءِ الذين لا يُشَقُّ في العلمِ غُبارُهُم.

الخامسُ: أنَّ العلمَ النافعَ هو الذي جاء به الرسولُ ﷺ دون مُقَدَّرَاتِ الأذهان ومسائلِ الخَرصِ والألغازِ، وذلك بحمدِ الله تعالىٰ أيسرُ شيءٍ علىٰ النفوسِ تحصيلُهُ وحفظُهُ وفهمُهُ، فإنَّه كتابُ الله الذي يَسَّرَهُ للذِّكرِ كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ [القمر:٢٢].

قال البخاريُّ في «صحيحه»: قال مطرٌ الورَّاقُ: هَل مِن طَالِبِ علمٍ فَيُعَانَ عليه؟ ولم يقل: فتضيعَ عليه مصالُحه وتتعطَّل معايشُهُ عليه، وسنَّةُ رسولِهِ وهي -بحمدِ الله تعالىٰ- مضبوطةٌ محفوظةٌ، وأصولُ الأحكامُ التي تدور عليها نحو خمسمئةِ حديثٍ، وفرشُها وتفاصيلُها نحو أربعةِ آلافِ حديثٍ.

---

(١) **فِي روايةٍ لأحمدَ** رحمه الله **قال**: النَّاسُ إلىٰ العلمِ أحوجُ منهم إلىٰ الطعامِ والشرابِ؛ لأنَّ الرَّجُلَ يحتاجُ إلىٰ الطعامِ والشرابِ فِي اليوم مرةً أو مرتين، وحاجتُهُ إلىٰ العلمِ بعَدَدِ أنفاسِهِ.

وإنَّما الذي هو في غايةِ الصعوبةِ والمشقَّةِ: مُقَدَّراتُ الأذهانِ، وأُغلُوطَاتُ[(١)] المسائلِ، والفروعُ والأصولُ التي ما أنزل الله بها من سلطانٍ، التي كلُّ مالِهَا في نموٍّ وزيادةٍ وتوليدٍ، والدينُ كلُّ مالِهِ في غُربَةٍ ونقصانٍ، والله المستعانُ»[(٢)].

فالواجبُ علىٰ كلِّ مسلمٍ أن يأخذ الحقَّ بدليلِهِ، وأن يَدَعَ التعصُّبَ والتقليدَ جانبًا، فالخيرُ كلُّ الخيرِ في الاتباعِ، والشرُّ كلُّ الشرِّ فيما أحدثَ الأتباعُ.

* * *

(١) الأُغلُوطَاتُ: واحدُها أُغلُوطَةٌ، وزنها أُفعُولَةٌ، من الغَلَطِ كالأُحمُوقَةِ من الحُمقِ، والأُسطُورَةِ من السَّطرِ.

(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ٢٥٦).

١٢- التَّسَرُّعُ في الفتوى

كان إمامُ الأنبياءِ، وصفوةُ الأتقياءِ، وأُسوَةُ الأولياءِ وصفوةُ الأصفياءِ، محمدٌ ﷺ إذا وَرَدَ عليه ما ليس عنده من ربِّه علمٌ به توقَّفَ فيه حتىٰ يأتيَهُ من ربِّه به خَبَرٌ.

وكذلك كان أمينُ الوحي جبريلُ ﵇، والملائكةُ المكرَّمون، لا يتكلَّمون إلا فيما لهم به علمٌ.

أخرجَ الإمامُ أحمدُ في «مسنده» عن محمَّدِ بن جُبَيرِ بن مُطعِمٍ عن أبيه أنَّه أتَىٰ النَّبِيَّ ﷺ فقالَ: يَا رسُولَ الله، أيُّ البُلْدَانِ شَرٌّ؟ قالَ: فقَالَ: «**لا أدرِي**»، فلَمَّا أتَاهُ جِبريلُ ﵇، قالَ: «**يَا جِبريلُ، أيُّ البُلْدَانِ شَرٌّ؟**» قَالَ: لا أدرِي حَتَّىٰ أَسأَلَ رَبِّي ﷻ، فانطَلَقَ جِبريلُ ﵇، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ الله أَن يَمكُثَ، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ سَأَلْتَنِي: أيُّ البُلْدَانِ شَرٌّ، فَقُلتُ: لا أدري، وَإِنِّي سَأَلتُ رَبِّي ﷻ: أيُّ البُلْدَانِ شَرٌّ؟ فَقَالَ: أَسوَاقُهَا» قال الألبانيُّ في «صفة الفتوىٰ والمفتي والمستفتي» (ص٩): «وقد رواه الحاكم (٢/ ٦) بسندٍ حَسَنٍ».

فيا لله! ما أجَلَّ مقامَ «لا أدري»!! فهذا هو النبيﷺ وهو مَن هو يجيبُ عن سؤالِ جبيرِ بن مطعمٍ ﵁: أيُّ البلدان شَرٌّ؟ بقولِهِﷺ: «**لا أدري**»، وكذلك صَنَعَ الأمينُ جبريلُ ﵇، وما نَطَقَ في الإجابةِ بحرفٍ حتىٰ سأل ربَّه ﷻ.

والملائكةُ المكرَّمون يتوقَّفُون عند حدودِ ما عُلِّموا لا يتقدَّمون ، فإنَّهم لما

سألهم ربُّهم ﷻ : ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [البقرة:٣١-٣٢].

فأيُّ ضَيرٍ علىٰ الرجلِ إذا سُئِلَ عن شيءٍ لا يعلمه أن يقولَ: لا أعلمه؟! أو عن أمرٍ لا يدريه، أن يقولَ: لا أدريه؟! وإمامُهُ في ذلك رسولُ الله ﷺ وجبريلُ والملائكةُ المكرَّمون، والتزامُ الأصحابِ ﷷ لهذا النَّهجِ لا يَفترُون عن الأخذِ به، ولا عنه يحيدون، ولا يتكلَّفون ما لا يُحسنون، ولا يتجمَّلون بما لا يملكون.

«**روىٰ مجاهدٌ عن عائشةَ** ﵂: أنَّه لمَّا نَزَلَ عُذرُهَا قَبَّلَ أبو بكرٍ رأسَها، قالت: فقلتُ: ألا عَذَرتَني عند النبيِّ ﷺ؟ فقال: أيُّ سماءٍ تُظلُّني، وأيُّ أرضٍ تُقِلُّنِي إذا قلتُ ما لا أعلمُ؟!

وروىٰ أيوبُ عن ابن أبي مُلَيكةَ قال: سُئلَ أبو بكرٍ الصدِّيقُ ﵁ عن آيةٍ، فقال: أيُّ أرضٍ تُقِلُّنِي؟ وأيُّ سماءٍ تُظِلُّني؟ وأين أذهبُ؟ وكيف أصنعُ إذا أنا قلتُ في كتابِ الله بغيرِ ما أرادَ الله به؟

وذكَرَ البيهقيُّ من حديثِ مسلمٍ البطين عن عزرَة التميميِّ قال: قال عليُّ بن أبي طالبٍ -كَرَّمَ الله وجهه-: وَا بَردَهَا علىٰ كبدي، ثلاثَ مَرَّاتٍ، قالوا: يا أميرَ المؤمنين، وما ذاك؟ قال: أن يُسألَ الرجلُ عمَّا لا يعلم، فيقول: لا أعلمُ.

وذكر أيضًا عن عليٍّ ﵁ **قالَ:** خَمسٌ إذا سَافَرَ فيهنَّ رَجُلٌ إلىٰ اليمنِ كُنَّ فيه عِوَضًا من سَفَرِهِ: لا يخشىٰ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافُ إلا ذَنْبَه، ولا يستحي مَن لا يعلمُ أن يتعلَّمَ، ولا يستحي مَن يعلم إذا سُئلَ عمَّا لا يعلمُ أن يقول: الله أعلمُ، والصبرُ من الدينِ بمنزلةِ الرأسِ من الجسدِ.

وقال الزهريُّ عن خالدِ بن أسلَمَ -وهو أخو زيدِ بن أسلَمَ-: خرجنا مع ابن عمر نمشي، فلحقنا أعرابيٌّ فقال: أنت عبد الله بن عمر؟ قال: نعم، قال: سألتُ عنك فَدُلِلتُ عليك، فأخبرني: أَتَرِثُ العَمَّةُ؟ قال: لا أدري. قال: أنت لا تدري؟! قال: نعم، اذهب إلىٰ العلماءِ بالمدينةِ فاسألهم، فلمَّا أدبرَ قَبَّلَ يديه وقال: نِعِمَّا قال أبو عبد الرحمن، سُئِلَ عمَّا لا يدري، فقال: لا أدري.

وقال ابنُ مسعودٍ: مَن كانَ عنده علمٌ فليقل به، ومَن لم يكن عنده علمٌ فليقل: الله أعلمُ، فإنَّ الله قالَ لنبيِّه: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦].

وصحَّ عن ابن عباسٍ وابن مسعودٍ: مَن أفتىٰ النَّاسَ في كلِّ ما يسألونَهُ عنه فهو مجنونٌ»[١].

«**وقال البراءُ** ﷺ: لقد رأيتُ ثلثمئة من أصحابِ بدرٍ ما فيهم من أحدٍ إلا وهو يحبُّ أن يكفيَهُ صاحبُهُ الفُتيا.

وقال ابنُ أبي ليلىٰ: أدركتُ عشرين ومئةً من الأنصارِ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ يُسألُ أحدُهم عن المسألةِ فيردُّها هذا إلىٰ هذا، وهذا إلىٰ هذا حتىٰ ترجعَ إلىٰ الأوَّلِ.

وفي روايةٍ: ما منهم أحدٌ يُحدِّثُ حديثًا أو يُسأَلُ عنه -وفي روايةٍ: عن شيءٍ- إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه إيَّاه، ولا يُستفتىٰ في شيءٍ إلا وَدَّ أنَّ أخاه كفاه الفُتيا.

وقال أبو حُصينٍ الأسديُّ: إنَّ أحدَكم ليُفتي في المسألةِ لو وَرَدَت عَلَىٰ عُمَرَ

(١) «إعلام الموقعين» لابن القيم (٢/ ١٨٤).

ابنِ الخطابِ لَجَمَعَ لها أهلَ بَدرٍ»[١].

وجاء مَن بَعدَ الصحابةِ من العلماءِ الصالحين فساروا علىٰ نَهجِ الحقِّ، وصراطِهِ المستقيمِ، فكانوا أئمةَ الهُدىٰ بحقٍّ، وأصحابَ اتِّبَاعٍ صادقٍ وأمينٍ.

«**سُئِلَ القاسمُ بنُ محمدِ بن أبي بكرٍ عن شيء فقال**: لا أحسنُه، فقال السائلُ: إني جئتُ إليك لا أعرفُ غيرَك! فقال القاسمُ: لا تنظر إلىٰ طُولِ لحيتي وكَثرَةِ النَّاسِ حولي، والله ما أُحسنه، فقال شيخٌ من قريشٍ جالسٌ إلىٰ جَنبِهِ: يا ابنَ أخي، الزَمهَا، فوالله ما رأيتُك في مجلسٍ أنبلَ منك اليوم، فقال القاسمُ: والله لأن يُقطَعَ لساني أحبُّ إليَّ من أن أتكلَّمَ بما لا علمَ لي به.

وسأل رجلٌ مالكَ بن أنسٍ عن شيءأيامًا، فقال: إنِّي إنَّما أتكلَّم فيما أحتسبُ فيه الخيرَ، ولستُ أُحسِنُ مسألتَك هذه.

وقال الهيثم بن جميل: شهدتُ مالكًا سُئِلَ عن ثمانٍ وأربعين مسألةً، فقال في اثنتين وثلاثين منها: لا أدري.

وقيل: ربَّما كان يُسأَلُ عن خمسين مسألةً فلا يجيبُ في واحدةٍ منها، وكان يقولُ: مَن أجابَ في مسألةٍ فينبغي من قبل أن يُجيبَ فيها أن يَعرِضَ نفسَه علىٰ الجنةِ والنَّارِ، وكيف يكون خلاصُهُ في الآخرةِ، ثمَّ يجيبُ فيها.

وسُئلَ عن مسألةٍ فقال: لا أدري، فقيل له: إنَّها مسألةٌ خفيفةٌ سهلةٌ**!!** فغضبَ وقال: ليس في العلمِ خفيفٌ، أما سمعتَ قولَ الله تعالىٰ: ﴿**إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا**

(١) «صفة الفتوىٰ والمفتي والمستفتي» لابن حمدان الحنبلي، تحقيق الألباني (ص٧).

ثَقِيلًا﴾ [المزمل:٥]، فالعلمُ كُلُّهُ ثقيلٌ وخاصَّةً ما يُسألُ عنه يومَ القيامةِ.

وقال مالكٌ أيضًا: ما أفتيتُ حتىٰ شَهِدَ لي سبعون، أَنِّي أَهلٌ لذلك، وقال: لا ينبغي لرجلٍ أن يرىٰ نفسَه أَهلًا لشيء حتىٰ يسألَ مَن كان أعلمَ منه، وما أفتيتُ حتَّىٰ سألتُ ربيعةَ ويحيىٰ بن سعيدٍ فأمراني بذلك، ولو نهياني انتهيتُ.

وقال: إذا كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ تصعُبُ عليهم المسائلُ، ولا يجيبُ أحدُهم في مسألةٍ حتىٰ يأخذَ رأيَ صاحبِهِ، مع ما رُزقوا من السَّدَادِ والتوفيقِ مع الطهارةِ، فكيف بنا الذين غَطَّت الخطايا والذنوبُ قلوبَنَا؟**!**

وقيل: كان إذا سُئِلَ عن مسألةٍ كأنَّه واقفٌ بين الجنَّةِ والنَّارِ.

وقال أبو نعيم: ما رأيتُ عالِمًا أكثرَ قولاً «لا أدري» من مالكِ بن أنسٍ.

وسُئِلَ الشعبيُّ عن شيءٍ فقال: لا أدري، فقيل: ألا تستحي من قولِك «لا أدري» وأنت فقيهُ أهلِ العراقِ؟ فقال: لكنَّ الملائكةَ لم تستحِ حين قالت: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة:٣٢].

وقال أبو الذيالِ: تعلَّم لاأدري، فإنَّك إن قلتَ: لا أدري، علَّموك حتىٰ تدري، وإن قلتَ: أدري، سألوك حتَّىٰ لا تدري.

وسُئِلَ الشافعيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عن مسألةٍ فسكتَ، فقيل: ألا تُجيبُ؟ فقال: حتىٰ أدري، الفضلُ في سكوتي أو في الجوابِ؟

وقال الأثرمُ: سمعتُ الإمامَ أحمدَ يُستفتَىٰ فيكثرُ أن يقولَ: لا أدري، وذلك فيما عُرفت فيه الأقاويلُ، وقال: مَن عَرَّضَ نفسَهُ للفُتيا فقد عَرَّضَهَا لأمرٍ عظيمٍ إلا

أنَّه قد تُلجئ الضرورةُ.

وقيل له-أي: لأحمدَ رَحِمَهُ ٱللَّهُ-: أيُّهما أفضل؛ الكلامُ أو الإمساكُ؟ فقال: الإمساكُ أحبُّ إليَّ إلا لضرورةٍ.

وكان سعيدُ بن المسيِّبِ لا يكادُ يُفتي فُتيا، ولا يقولُ شيئًا إلا قال: اللَّهُمَّ سلِّمني وسلِّم منِّي.

وقال سحنونُ صاحبُ «المدَوَّنَة»: أشقىٰ النَّاسِ مَن بَاعَ آخرتَه بدنياه، وأشقىٰ منه مَن بَاعَ آخرتَهُ بدنيا غيرِهِ ففكرتُ -يقول ابنُ حمدان- فيمنَ باعَ آخرتَه بدنيا غيرِهِ فوجدتُه المفتي يأتيه رجلٌ قد حَنَثَ في امرأتِهِ ورقيقِهِ، فيقول له: لا شيءَ عليك، فيذهبُ الحانِثُ فيتمتَّعُ بامرأتِهِ ورقيقِهِ وقد باع المفتي دينَه بدنيا هذا.

وسأله رجلٌ مسألةً فتردَّدَ إليه فيها ثلاثةَ أيامٍ فقال: وما أصنعُ لك يا خليلي ومسألتُك هذه مُعضلَةٌ وفيها أقاويلُ، وأنا متحيِّرٌ في ذلك؟! فقال له: وأنتَ أصلحك الله لكلِّ مُعضِلَة، فقال له سحنونُ: هيهاتَ يا ابنَ أخي!! ليس بقولِكَ هذا أبذُلُ لك لحمي ودمي في النَّار.

وكان يُزرِي علىٰ مَن يَعجَلُ في الفتوىٰ، ويذكرُ النهيَ في ذلك عن معلِّميه القدماءِ.

وقال: إنِّي لأُسْأَلُ عن المسألةِ أعرفُها، فما يمنعني من الجوابِ إلا كراهةَ الجَرَاءَةِ بعدي علىٰ الفتوىٰ، وقيل له: إنَّك تُسأل عن مسألةٍ لو سُئِلَ عنها بعضُ أصحابِكَ أجابَ، فتتوقَّفُ فيها، فقال: فتنةُ الجوابِ بالصوابِ أشدُّ من فتنةِ المالِ.

وقال الخليلُ بن أحمد: إنَّ الرجلَ ليُسأَلُ عن المسألةِ ويَعجَلُ في الجوابِ فيصيبُ فأذُمُّه، ويُسأَلُ عن مسألةٍ فيتثبَّتُ في الجوابِ فيخطئُ فأحمدُهُ.

وقال بشرٌ الحافي: مَن أحبَّ أن يُسأَلَ فليس بأهلٍ أن يُسأَلَ.

وقال أبو بكرٍ الخطيبُ والصيمريُّ: قَلَّ مَن حرص علىٰ الفتوىٰ وسَابَقَ إليها وثَابَرَ عليها إلا قَلَّ توفيقُهُ واضطربَ أمرُهُ، وإذا كان كارهًا لذلك غيرَ مختار له، ما وجَدَ مندوحةً عنه، وقَدرَ أن يُحيلَ بالأمرِ فيه إلىٰ غيرِهِ، كانت المعونةُ له من الله أكثرَ، والصلاحُ في جوابِهِ وفتياه أغلبَ.

ورأىٰ رجلٌ ربيعةَ بن عبد الرحمن يبكي، فقال: ما يُبكيك؟ قال: استُفتي مَن لا علمَ له وظهرَ في الإسلام أمرٌ عظيمٌ.

وقال: لَبَعضُ مَن يُفتي هاهنا أحقُّ بالسجنِ من السُّرَّاقِ، قلتُ -أي: ابنُ حمدان الحنبليُّ-: فكيف لو رأىٰ زمانَنَا، وإقدامَ مَن لا علمَ عنده علىٰ الفُتيا مع قِلَّةِ خبرتِهِ وسُوءِ سيرتِهِ وشُؤمِ سريرتِهِ، وإنَّما قصدُهُ السُّمعَةُ والرياءُ ومماثلةُ الفضلاءِ والنبلاءِ والمشهورينِ، والعلماءِ الراسخين، والمتبحِّرينَ السابقين، ومع هذا فَهُم يُنهَونَ فلا يَنتَهُونَ، ويُنَبَّهونَ فلا ينتبِهونَ، قد أُمليَ لهم باعتكافِ الجهَّالِ عليهم، وتركوا ما لهم في ذلك وما عليهم، فَمَن أقدمَ علىٰ ما ليس له أهلًا من فُتيا أو قضاءٍ أو تدريسٍ أثمَ، فإن أكثرَ منه وأصَرَّ واستمرَّ فَسَقَ، ولم يحلَّ قبولُ قولِهِ ولا فتياه ولا قضائهِ»[(١)].

وقَال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «رُوِّينا عن إبراهيمَ النخعيِّ أنَّ رجلاً سألهُ فقالَ: ما

(١) «صفة الفتوىٰ والمفتي والمستفتي» (ص٧).

وجدتَ مَن تسألُهُ غيري؟!

وعن مالكِ بن أنسٍ ﵁ **قال**: ما أفتيتُ حتىٰ سألتُ سبعين شيخًا، هل ترون لي أن أُفتِيَ؟ فقالوا: نعم، فقيل له: فلو نَهَوكَ؟ قال: لو نَهَوني انتهيتُ.

وقال رجلٌ لأحمد بن حنبلٍ ﵁: إنِّي حَلَفتُ، ولا أدري كيف حَلَفتُ، قال: ليتك دَرَيت كيف حَلَفتَ، فدَرَيتُ أنا كيف أفتيك.

وإنَّما كانت هذه سجيةَ السَّلَفِ لخشيتهم الله ﷻ وخوفِهم منه، ومَن نَظَرَ في سيرتهم تأدَّبَ»[1].

«**قالَ القاسمُ**: مِن إكرامِ الرجلِ نفسَه ألَّا يقولَ إلا ما أحاط به علمُهُ.

وقالَ: يا أهلَ العِراقِ، والله ما نعلم كثيرًا ممَّا تسألوننا عنه، ولأن يعيشَ الرجلُ جاهلاً إلا أن يعلمَ ما فَرَضَ الله عليه، خيرٌ له من أن يقولَ علىٰ الله ورسولِهِ ما لا يعلمُ.

وقال ابنُ وهبٍ: سمعتُ مالكًا يقولُ: العَجَلَةُ في الفتوىٰ نوعٌ من الجهلِ، والخَرَقِ، قال: وكان يقال: التَّأنِّي من الله، والعَجَلَةُ من الشيطان»[2].

---

(١) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص١٢١).

(٢) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٨٤).

وقولُهُ ﵀: «وكان يقال: التأنِّي من الله، والعَجَلَةُ من الشيطان بصيغة التمريض، بل هو حديث مرفوعٌ رواه أنسٌ ﵁، ورواه البيهقي في «السنن الكبرىٰ»، وأبو يعلىٰ في «مسنده»، وهو في «صحيح الجامع» برقم (٣٠٠٨)، وفي «السلسلة الصحيحة» برقم (١٧٩٥).

وأخرج ابنُ عبد البرِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **بسندِهِ عن سفيانَ بين عُيَينَةَ قال:** «أَجسَرَ النَّاسِ علىٰ الفُتيا أقلُّهم علمًا.

وعن أحمد بن أبي سليمان قال: سمعتُ سحنونَ بن سعيدٍ، يقول: أجسَرُ النَّاسِ علىٰ الفُتيا أقلُّهم علمًا، يكون عند الرجلِ البابُ الواحدُ من العلمِ فيظنُّ أنَّ الحقَّ كلَّه فيه.

قال سحنونُ: إنِّي لأحفظُ مسائلَ منها ما فيه ثمانيةُ أقوالٍ من ثمانيةِ أئمةٍ من العلماءِ، فكيف ينبغي أن أعجَلَ بالجوابِ حتَّىٰ أتخيَّر؟ فَلِمَ أُلامُ علىٰ حَبسي الجوابَ؟!»[(١)].

وكما أنَّ التساهلَ في الفتوىٰ مَّما يحرُمُ علىٰ المفتي أن يفعلَه، فكذلك يَحرُمُ علىٰ المستفتي أن يستَفتِي مَن عُرِفَ بذلك، لأنَّه لا يكون مُتَوَقِّيًا في دينِه.

«يَحرُمُ التساهلُ في الفتوىٰ واستفتاءُ مَن عُرِفَ بذلك، إمَّا لتسرُّعِهِ قبل تمامِ النظرِ والفكرِ، أو لظنِّه أنَّ الإسراعَ براعةٌ، وتركَه عجزٌ، فإن سَبَقَت معرفتُه لما سُئِلَ عنه قبلَ السؤالِ فأجابَ سريعًا جاز»[(٢)].

وكان من شأن السَّلَفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أن يتبيَّنُوا صدقَ السائلِ في مسألتِهِ، وأنَّه لا يسألُ مُتَعَنِّتًا ولا مغالِطًا، وأنَّه صاحبُ حاجةٍ مُلِحَّةٍ فيما يسألُ عنه، فإن تبيَّنوا ذلك أَفتَوا بما يعلمون، وإلا أحالوا علىٰ مَن يَعلَمُ.

---

(١) «جامع بيان العلم» (٢/ ١٦٥).

(٢) «صفة الفتوىٰ» (ص٣١).

«كان أيوبُ إذا سأله السائلُ، قال له: أعِد، فإن أعادَ السؤالَ كما سألَه عنه أولًا أجابه، وإلا لم يُجِبهُ، وهذا مِن فهمِهِ وفطنَتِهِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وفي ذلك فوائدُ عديدةٌ:

منها: أنَّ المسألةَ تزدادُ وضوحًا وبيانًا بتفهُّمِ السؤالِ.

ومنها: أنَّ السائلَ لعلَّه أهملَ فيها أمرًا يتغيَّرُ الحكمُ به، فإذا أعادها ربَّما بيَّنَهُ له.

ومنها: أنَّ المسئولَ قد يكون ذاهلًا عن السؤالِ أوَّلاً، ثم يَحضُرُ ذهنُهُ بعد ذلك.

ومنها: أنَّه ربَّما بَانَ له تَعَنُّتُ السائلِ وأنَّه وَضَعَ المسألةَ، فإذا غَيَّرَ السؤالَ وزاد فيه ونَقَصَ فربَّما ظهر له أنَّ المسألةَ لا حقيقةَ لها، وأنَّها من الأُغْلُوطَاتِ، أو غيرِ الواقعاتِ التي لا يجبُ الجوابُ عنها، فإنَّ الجوابَ بالظَّنِّ إنَّما يجوزُ عند الضرورةِ، فإن وقعت المسألةُ صارت حالَ ضرورةٍ، فيكون التوفيقُ إلىٰ الصوابِ أقربَ»(١).

وأخرج الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **بسندِهِ عن مالكٍ** رَحِمَهُ ٱللَّهُ **عن ابن هُرمز** رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنَّه كان يأتيه الرجلُ فيسأله عن الشيء فيخبره، ثمَّ يبعث في أثرِهِ مَن يَرُدُّهُ إليه، فيقول له: إنِّي قد عَجِلتُ فلا تقبل شيئًا ممَّا قُلتُ لك حتىٰ ترجعَ إليَّ، قال: وكان قليلاً مَن يُفتي من أهلِ المدينةِ، قال مالكٌ: وليس مَن يخشىٰ الله كمَن لا يخشاه»(٢).

ولعلَّ أهمَّ دافعٍ للتسرُّعِ في الفتوىٰ والخَبطِ في بيداءِ الظنون بغيرِ علمٍ، التزيُّنُ بما ليس فيه، وأمَّا مَن حَرصَ علىٰ ما ينفعُهُ في دنياه وآخرتِهِ فإنَّه لا يُقحم نفسَه فيما

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٨٧).

(٢) «الفقيه والمتفقه» (٢/ ١٦٩).

لا يُحسِنُ وما ليس له بأهلٍ، فمدارُ المسألةِ علىٰ هَضمِ النَّفسِ، وإسلامِ الوجهِ لله، وإخلاصِ القصدِ له.

كما قالَ عمرُ رضي الله عنه: «فَمَن خَلَصَتْ نِيَّتُهُ فِي الحَقِّ وَلَو عَلَىٰ نَفسِهِ كَفَاهُ الله ما بَينَهُ وبَينَ النَّاسِ، وَمَن تَزَيَّنَ بِمَا لَيسَ فيهِ شَانَهُ الله».

«قولُهُ رضي الله عنه: «مَن تَزَيَّنَ بِمَا لَيسَ فيهِ شَانَهُ الله»، لمَّا كانَ المتَزَيِّنُ بما ليس فيه ضِدَّ المخلِصِ، فإنَّه يُظهِرُ للنَّاسِ أمرًا وهو في الباطنِ بخلافِهِ -عَامَلَهُ الله بنقيضِ قَصدِهِ- فإنَّ المعاقبةَ بنقيضِ القصدِ ثابتةٌ شرعًا وَقَدَرًا، ولمَّا كانَ المخلِصُ يُعَجَّلُ له من ثوابِ إخلاصِهِ الحلاوةُ والمحبَّةُ والمهابةُ في قلوبِ النَّاسِ: عُجِّلَ للمتزيِّنِ بما ليس فيه من عقوبتِهِ أن شانَهُ الله بين النَّاسِ، لأنَّه شان باطنَهُ عندَ الله، وهذا موجبُ أسماءِ الرَّبِّ الحُسْنَىٰ وصفاتِهِ العُليَا، وحكمتِهِ في قضائِهِ وقَدَرِهِ.

هذا، ولمَّا كان مَن تَزَيَّنَ للنَّاسِ بما ليس فيه من الخشوعِ والدِّينِ والنُّسُكِ والعلمِ وغيرِ ذلك قد نصب نَفسَهُ للوازمِ هذه الأشياءِ ومقتضياتها، فلابُدَّ أن تُطلَبَ منه، فإذا لم تُوجد عنده افتَضَحَ، فيشينُه ذلك من حيثُ ظَنَّ أنَّه يزينه.

وأيضًا، فإنَّه أخفىٰ عن النَّاسِ ما أظهَرَ لله خِلافَهُ، فأظهَرَ الله من عيوبِه للنَّاسِ ما أخفاه عنهم، جزاءً له من جنسِ عملِهِ، وكان بعضُ الصحابةِ يقولُ: أعوذُ بالله من خشوعِ النفاقِ، قالوا: وما خشوعُ النفاقِ؟ قال: أن ترىٰ الجسدَ خاشعًا والقلبَ غيرَ خَاشعٍ، وأساسُ النفاقِ وأصلُهُ هو التزيُّنُ للنَّاسِ بما ليس في الباطنِ من الإيمان»[1].

(١) «إعلام الموقعين» (٢/ ١٧٨).

كلُّ ما مرَّ من ضرورةِ التثبُّتِ في الجوابِ، وعدمِ التسرُّعِ في الفتوىٰ إلا أن تدعُوَ ضرورةٌ شرعيةٌ، يَجِبُ ألَّا يؤديَ إلىٰ كتمانِ العلمِ؛ فإنَّ الكتمانَ شديدُ الخطرِ.

عن عبد الله بن عمروٍ رضي الله عنهما عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «**مَن كَتَمَ عِلمًا ألجَمَهُ الله يَومَ القيَامَةِ بِلِجَامٍ من نَارٍ**» رواه ابنُ حبان، والحاكم، وصحَّحه، وكذلك الألبانيُّ[1].

* * *

(١) تقدم تخريجه (ص٤٢٨).

١٣- التَّحَاسُدُ والحِقدُ

قال بعضُهم في تعريفِ الحسد: إنَّه أذىً يَلْحَقُ بسبب العلمِ بحُسنِ حالِ الأغنياءِ.

وقال طائفةٌ من النَّاسِ: إنَّه تمنِّي زوالِ النعمةِ عن المحسود، وإن لم يَصِرِ للحاسِدِ مثلُها، بخلافِ الغبطةِ فإنَّها تمنِّي مثلَهَا، من غير حبِّ زوالِهَا عن المغبوطِ.

والتحقيق: أنَّ الحسدَ هو البغضُ والكراهةُ لما يراه من حُسنِ حالِ المحسودِ[١].

وأمَّا الحقدُ فهو رذيلةٌ بين رذيلتين؛ لأنَّه ثمرةُ الغضبِ، وهو يثمرُ الحسدَ، فاجتمع له الشرُّ من أقطارِهِ.

«الغضبُ إذا لَزِمَ كَظمُهُ لعجزٍ عن التشفِّي في الحالِ، رجعَ إلىٰ الباطنِ واحتقن فيه فصار حقدًا، ومعنىٰ الحقد: أن يلزمَ قلبَهُ استثقالَهُ والبِغضة له، والنِّفارَ عنه، وأن يدومَ ذلك ويبقىٰ، فالحقدُ ثمرةُ الغضب»[٢].

قال تعالىٰ في بيان بعضِ أخلاقِ اليهودِ التي تقرَّحَت منها قلوبهم، ونضحت بها جوارحُهم: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ

(١) «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص١٤).

(٢) «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ٧٦).

بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [النساء:٥٤-٥٥].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ﴾، يعني: اليهود، ﴿ٱلنَّاسَ﴾، يعني: النبيَّ ﷺ خاصَّةً، عن ابن عباسٍ ومجاهدٍ وغيرهما: حسدوه علىٰ النبوَّةِ، وأصحابَهُ علىٰ الإيمانِ به، وقال قتادةُ: «النَّاس» العرب، حسدتُهم اليهودُ علىٰ النبوَّةِ، وقال الضَّحَّاكُ: حسدت اليهودُ قريشًا، لأنَّ النبوَّةَ فيهم.

والحسدُ مذمومٌ وصاحبه مغمومٌ، قال الحسنُ: ما رأيتُ ظالِمًا أشبهَ بمظلومٍ من حاسدٍ، نَفَسٌ دائمٌ، وحُزنٌ لازِمٌ، وعَبرَةٌ لا تَنْفَدُ.

وقال عبدُ الله بن مسعودٍ: لا تُعَادُوا نِعَمَ الله، قيل له: ومَن يُعَادي نِعَمَ الله؟! قال: الذين يَحسُدُونَ النَّاسَ علىٰ ما آتاهم الله من فضلِهِ، يقولُ الله في بعضِ الكُتُبِ: الحسودُ عدوٌّ نعمتي، مُتَسَخِّطٌ لقضائي غيرُ راضٍ بقسمتي.

ولمنصورٍ الفقيه:

ألا قُـل لِمَـن ظَـلَّ لِـي حَاسِـدًا ... أَتَـدرِي عَلَـىٰ مَـن أَسَـأتَ الأَدَبْ؟!
أَسَـأتَ عَلَـىٰ الله فِـي حُكمِـهِ ... إِذَا أَنـتَ لَـم تَـرضَ لِـي مَـا وَهَـبْ

ويقالُ: الحسدُ أولُ ذنبٍ عُصِيَ به اللهُ في السماءِ، وأولُ ذنبٍ عُصِيَ به في الأرضِ، فأمَّا في السماءِ: فَحَسَدُ إبليسَ لآدمَ، وأمَّا في الأرضِ: فَحَسَدُ قابيلَ لهابيلَ.

ولقد أحسنَ مَن قَالَ:

اصبِرْ عَلَـىٰ كَـيْدِ الْحَسُو ... دِ فَـإِنَّ صَـبْرَكَ قَاتِلُـهْ
فَالـنَّارُ تَأكُـلُ بَعْـضَهَا ... إِنْ لَـمْ تَجِـدْ مَـا تَأكُلُـهْ

وقالَ الشاعرُ:

إِنَّ الغُــرابَ وَكَــانَ يَمــشِي مِــشيَةً ... فِـيمَا مَـضَىٰ مِـن سَـالِفِ الأحـوَالِ

حَـسَدَ القَطَـاةَ فَـرامَ يَمـشِي مَـشيَهَا ... فَأَصَــابَهُ ضَــربٌ مِــنَ الــتَّعْقَالِ»[1]

حَالاتُ الإنسَانِ مَعَ نِعَمِ الله عَلَىٰ غيرِهِ:

«لا حَسَدَ إلا علىٰ نعمةٍ؛ فإذَا أنعمَ الله عَلَىٰ أخيكَ بنعمةٍ؛ فلكَ فيها حالتان:

إحداهما: أن تكرَهَ تلك النعمةَ وتحبَّ زوالَها، وهذه الحالةُ تسمَّىٰ حَسَدًا، فالحَسَدُ حَدُّهُ: كراهةُ النِّعمَةِ وحُبُّ زوالِها عن المنعَمِ عليه[2].

الحالةُ الثانيةُ: ألَّا تحبَّ زوالَها ولا تكرَهَ وجودَهَا ودوامَهَا، ولكن تشتهي لنفسِك مثلَها، وهذه تسمَّىٰ غِبطَةً، وقد تختصُّ باسمِ المنافسةِ.

فأمَّا الأولُ فهو حرامٌ بكلِّ حالٍ، إلا نعمةً أصابها فاجرٌ أو كافرٌ وهو يستعينُ بها علىٰ تهييجِ الفتنةِ، وإفسادِ ذاتِ البَينِ وإيذاءِ الخَلقِ، فلا يضرُّك كراهتُك لها، ومحبَّتُك لزوالِهَا، فإنَّك لا تحبُّ زوالَهَا من حيث هي نعمةٌ، بل من حيث هي آلةٌ للفسادِ.

وأمَّا المنافَسَةُ: فليست بحرامٍ، بل هي إمَّا واجبةٌ، وإمَّا مندوبةٌ، وإمَّا مباحةٌ.

والمنافسةُ في اللغة مشتقَّةٌ من النَّفَاسَةِ، والذي يدلُّ علىٰ إباحةِ المنافسةِ قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]، وقولُهُ تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الحديد:٢١]، وإنَّما المسابقةُ عند خَوفِ الفَوتِ، وهو كالعبدَينِ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (٥/ ٢٥٢).

(٢) الذي عليه المحققون: أنَّ الحسدَ: هو كراهةُ النعمةِ علىٰ أخيك.

يتسابقان إلىٰ خدمةِ مولاهما، يجزعُ كلُّ واحدٍ أن يسبقَه صاحبُهُ فيحظىٰ عند مولاه بمنزلةٍ لا يحظىٰ هو بها»[(١)].

ولكنَّ المنافسَة المشروعةَ والحسدَ المذمومَ قد يشتبهان في نظرِ الناظرِ لأنَّ الفرق بينهما دقيقٌ رقيقٌ، وقد يلتبس الأمرُ علىٰ طَلَبَةِ العلمِ فيتحاسدون بينهم، وهم يظنُّونها منافسةً محمودةً، وسعيًا مشروعًا، فَلَزِمَ بيانُ ما بين المنافسةِ المشروعةِ والحسدِ المذمومِ.

الفَرقُ بَينَ المُنَافَسَةِ والحَسَدِ:

المنافسةُ هي المبادرةُ إلىٰ الكمالِ الذي تُشاهِد من غيرك فتنافِسُهُ فيه حَتَّىٰ تلحقَه أو تجاوزَه، فهي من شَرَفِ النَّفْسِ وعُلُوِّ الهمَّةِ وكِبَرِ القَدرِ، قال تعالىٰ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦].

وأصلُها من الشيءِ النفيسِ الذي تتعلَّقُ به النفوسُ طلبًا ورغبةً، فينافِسُ فيه كلٌّ من النَّفسَينِ الأخرىٰ، وربَّما فَرِحَت إذا شاركتها فيه كما كان أصحابُ رسولِ الله ﷺ يتنافسون في الخيرِ ويفرحُ بعضهم ببعضٍ باشتراكهم فيه، بل يحضُّ بعضُهم بعضًا عليه مع تنافسهم فيه، وهي نوعٌ من المسابقةِ، وقد قال تعالىٰ: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

وقال تعالىٰ: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الحديد:٢١].

---

(١) «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ٧٩).

وكان عمرُ بن الخطابِ يسابقُ أبا بكرٍ ﷺ فلم يظفر بسبقِهِ أبدًا، فلمَّا عَلِمَ أنَّه قد استولىٰ علىٰ الإمامةِ قال: «والله لا أُسابقُك إلىٰ شيءٍ أبدًا، وقال: والله ما سابقتُهُ إلىٰ خيرٍ إلا وجدتُه قد سبقني إليه».

والمتنافسان كعبدَينِ بين يدي سيِّدهما يتباريان ويتنافسان في مرضاته ويتسابقان إلىٰ محابِّه، فسيِّدهما يعجِبهُ ذلك منهما ويحثُّهما عليه، وكلٌّ منهما يحبُّ الآخرَ ويُحَرِّضُهُ علىٰ مَرضَاةِ سَيِّده.

والحسدُ خُلُقُ نفسٍ ذميمةٍ وضيعةٍ ساقطةٍ ليس فيها حرصٌ علىٰ الخيرِ، فلعجزِها ومهانتِها تحسدُ مَن يكسِبُ الخيرَ والمحامدَ ويفوز بها دونها، وتتمنَّىٰ أن لو فاته كسبُها حتىٰ يساويَهَا في العدمِ كما قال تعالىٰ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗ﴾ [النساء:٨٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِكُمۡ كُفَّارًا حَسَدٗا مِّنۡ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [البقرة:١٠٩].

فالحسودُ عدوُّ النِّعمةِ، مُتَمَنٍّ زوالها عن المحسود كما زالت عنه هو، والمنافس مسابقُ النِّعمة مُتَمنٍّ تمامَهَا عليه وعلىٰ مَن ينافسُهُ، فهو ينافِسُ غيرَهُ أن يعلوَ عليه ويحبُّ لحاقَهُ به أو مجاوزَتَهُ له في الفضلِ، والحسودُ يحبُّ انحطاطَ غيرِهِ حتىٰ يساويَهُ في النقصانِ.

وأكثرُ النفوسِ الفاضلَةِ الخيِّرَةِ تنتفعُ بالمنافسةِ فَمَن جعلَ نُصْبَ عينيه شخصًا من أهلِ الفضلِ والسَّبقِ فنافسَه انتفع به كثيرًا، فإنَّه يتشبَّه به ويطلبُ اللِّحَاقَ به

والتقدُّمَ عليه وهذا لا نذمُّهُ.

وقد يُطلَقُ اسمُ الحسدِ علىٰ المنافَسَةِ المحمودةِ، كما في الصحيح عن النبيِّ ﷺ قال: «**لا حسَدَ إلا في اثنَتَينِ: رَجُلٌ آتاهُ الله القُرآنَ، فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آناءَ اللَّيلِ وأطرَافَ النَّهَارِ، ورَجُلٌ آتاهُ الله مَالًا فسَلَّطَهُ علَىٰ هَلَكَتِهِ في الحَقِّ**»[1] فهذا حَسَدُ منافَسَةٍ وغِبطَةٍ يدلُّ علىٰ عُلُوِّ هِمَّةِ صاحبِهِ، وكِبَرِ نفسِهِ، وطلبِها للتشبُّهِ بأهلِ الفضلِ[2].

قال الحافظُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ ﷺ: «**لا حسَدَ**» الحسدُ: تمنِّي زوالِ النِّعمَةِ عن المُنعَم عليه، وخصَّه بعضُهم بأن يتمنَّىٰ ذلك لنفسِهِ، والحقُّ أنَّه أعمُّ، وسَبَبُهُ أنَّ الطِّبَاعَ مجبولةٌ علىٰ حُبِّ الترفُّعِ علىٰ الجنسِ، فإذا رأىٰ لغيرِهِ ما ليس له أحبَّ أن يزولَ ذلك عنه له ليرتفعَ عليه، أو مُطْلَقًا ليساويه.

وصاحبُهُ مذمومٌ إذا عَمِلَ بمقتضىٰ ذلك من تصميمٍ أو قولٍ أو فعلٍ، وينبغي لمن خَطَرَ له ذلك أن يكرهَهُ كما يكره ما وُضِعَ في طبعِهِ من حُبِّ المنهيَّاتِ.

واستثنوا من ذلك ما إذا كانت النعمةُ لكافرٍ أو فاسقٍ يستعينُ بها علىٰ معاصي الله تعالىٰ، فهذا حكمُ الحسدِ بحسبِ حقيقتِهِ.

وأمَّا الحسدُ المذكورُ في الحديثِ فهو الغِبطَةُ، وأطلَقَ الحسدَ عليها مجازًا، وهي أن يتمنَّىٰ أن يكونَ له مثلُ ما لغيرِهِ من غيرِ أن يزولَ عنه، والحرصُ علىٰ هذا يسمَّىٰ منافسةً، فإن كان في الطاعةِ فهو محمودٌ، ومنه: ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٦]،

---

(١) أخرجه البخاري في مواضعَ منها (٧٠٩٠)، ومسلم (٨١٥).

(٢) «الروح» (ص٣٣٩).

وإن كان في المعصيةِ فهو مذمومٌ ومنه: «ولا تَنَافَسُوا» وإن كان في الجائزاتِ فهو مباحٌ.

فكأنَّه قال في الحديث: لا غِبطَةَ أعظمُ -أو أفضلُ- من الغِبطَةِ في هذين الأمرين، ووجهُ الحَصرِ أنَّ الطاعاتِ إمَّا بدنيةٌ أو ماليةٌ أو كائنةٌ عنهما، وقد أشار إلىٰ البدنية بإتيانِ الحكمةِ والقضاءِ بها وتعليمها، والمرادُ بالقيامِ به: العملُ به مطلقًا، أعمُّ من تلاوتِهِ داخلَ الصلاةِ أو خارجَهَا ومن تعليمِهِ، والحكمِ والفتوىٰ بمقتضاه.

ويجوز حملُ الحسدِ في الحديثِ علىٰ حقيقتِه علىٰ أنَّ الاستثناءَ منقطعٌ، والتقديرُ نفي الحسدِ مطلقًا، لكن هاتان الخصلتان محمودتان، ولا حَسَدَ فيهما فلا حَسَدَ أَصْلًا.

قولُهُ: «**مَالًا**» نكَّره ليشملَ القليلَ والكثيرَ.

قولُهُ: «**فَسَلَّطَهُ**» عبَّر بالتسليطِ لدلالتِهِ علىٰ قَهرِ النفسِ المجبولةِ علىٰ الشُّحِّ.

قولُهُ: «**هَلَكَتِهِ**» -بفتح اللامِ والكافِ- أي: إهلاكِهِ، وعبَّر بذلك ليدلَّ علىٰ أنَّه لا يُبقي منه شيئًا، وكَمَّلَهُ بقولِهِ: «**في الحَقِّ**»، أي: في الطاعاتِ ليزيلَ عنه إيهامَ الإسرافِ المذموم»[1].

فهذا الحسدُ الذي نهىٰ عنه النبيُّ ﷺ إلا في موضعين، هو الذي سمَّوه غِبطَةً، وهو أن يُحِبَّ مثلَ حالِ الغيرِ ويكره أن يُفَضَّلَ عليه.

فإن قيلَ: إذن لَم سُمِّيَ حسدًا، وإنَّما أحبَّ أن ينعمَ الله عليه؟ قيلَ: مَبدَأُ هذا الحبِّ هو نَظَرُهُ إلىٰ إنعامِهِ علىٰ الغيرِ، وكراهتِهِ أن يُفَضَّلَ عليه، ولولا وجودُ ذلك

(١) «فتح الباري» (١/ ٢٠٠).

الغيرِ لم يحبَّ ذلك، فلمَّا كان مبدأُ ذلك كراهتَه أن يُفَضَّلَ عليه الغيرُ كان حسدًا، لأنَّه كراهةٌ تتبعُهَا محبَّةٌ، وأمَّا مَن أحبَّ أن يُنعِمَ اللهُ عليه مع عدمِ التفاتِهِ إلىٰ أحوالِ النَّاسِ فهذا ليس عنده من الحسدِ شيءٌ.

ولهذا يُبتلَىٰ غالبُ النَّاسِ بهذا القسمِ الثاني، وقد يُسمَّىٰ «المنافسة» فيتنافسُ الاثنان في الأمرِ المحبوبِ المطلوبِ، كلاهما يطلُبُ أن يأخذَهُ، وذلك لكراهيةِ أحدِهما أن يتفضَّلَ عليه الآخَرُ، كما يكره المستبقان كلٌّ منهما أن يسبقَه الآخَرُ.

والتنافسُ ليس مذمومًا مطلقًا، بل هو محمودٌ في الخيرِ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين:٢٢-٢٦]، فأمَرَ المنافِسَ أن ينافِسَ في هذا النعيمِ لا ينافِسُ في نعيمِ الدنيا الزائلِ(١).

وهناك تقسيمٌ آخرُ للحَسَدِ مبنيٌّ علىٰ المدحِ والقَدْحِ، أي: علىٰ ما يُندَبُ إليه منه وما لا يُندَبُ، تَقَسَّمَ فيه الحسدُ إلىٰ مراتبَ أربعٍ:

الأولىٰ: أن يحبَّ زوالَ النعمةِ عنه وإن كان ذلك لا ينتقلُ إليه، وهذا غايةُ الخُبثِ.

الثانيةُ: أن يحبَّ زوالَ النعمةِ إليه لرغبتِهِ في تلك النعمةِ، مثل رغبتِهِ في دار حسنةٍ، أو امرأةٍ جميلةٍ، أو ولايةٍ نافذةٍ، أو سَعَةٍ نالها غيرُهُ، وهو يحبُّ أن يكونَ له.

الثالثةُ: ألَّا يشتهيَ عينَهَا لنفسِهِ، بل يشتهي مثلَها، فإن عَجَزَ عن مثلِهَا أحبَّ زوالَها، كي لا يظهرَ التفاوتُ بينهما.

(١) «أمراض القلوب وشفاؤها» لابن تيمية (ص١٤).

الرابعةُ: أن يشتهيَ لنفسِهِ مثلَها، فإن لم تحصل فلا يحبُّ زوالَها عنه.

وهذا الأخيرُ هو المعفوُّ عنه إن كان في الدنيا، والمندوبُ إليه إن كان في الدين، والثالثةُ فيها مذمومٌ وغيرُ مذمومٍ، والثانيةُ أخفُّ من الثالثةِ، والأولىٰ مذمومٌ محضٌ.

قال شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحاسِدُ المبغِضُ للنعمةِ علىٰ مَن أنعمَ الله عليه بها ظالمٌ معتدٍ، والكارهُ لتفضيلِهِ، المحبُّ لمماثلتِهِ، منهيٌّ عن ذلك إلا فيما يقرِّبُهُ إلىٰ الله، فإذا أحبَّ أن يُعطىٰ مثلَ ما أُعطيَ ممَّا يقرِّبُهُ إلىٰ الله فهذا لا بأسَ به، وإعراضُ قلبِهِ عن هذا بحيث لا ينظرُ إلىٰ حالِ الغيرِ أفضلُ».

ثمَّ هذا الحسدُ إن عَمِلَ بموجبِهِ صاحبُهُ كان ظالمًا معتديًا مستحقًّا للعقوبةِ إلا أن يتوبَ، وكان المحسودُ مظلومًا مأمورًا بالصبرِ والتقوىٰ، فيصبرُ علىٰ أذىٰ الحاسدِ ويعفو ويصفحُ عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٩].

والمقصودُ: أنَّ الحسدَ مرضٌ من أمراضِ النفسِ، وهو مَرَضٌ غالبٌ فلا يخلُصُ منه إلا القليلُ من النَّاسِ، ولهذا يُقال: ما خَلا جَسَدٌ من حَسَدٍ، لكنَّ اللئيمَ يُبديهِ، والكريمَ يُخفيه.

وقيل للحَسنِ البصري: أَيَحْسُدُ المؤمنُ؟ فقال: ما أنساك إخوةَ يوسفَ لا أبا لَكَ؟ ولكن عَمِّهِ في صدرِك فإنَّه لا يضرُّك ما لم تُعَدِّ به يدًا ولسانًا، فَمَن وجَدَ في نفسِهِ حسدًا لغيرِهِ فعليه أن يستعملَ معه التقوىٰ والصبرَ، فيكره ذلك من نفسِهِ.

وكثيرٌ من النَّاسِ الذين عندهم دينٌ لا يعتدون علىٰ المحسودِ، فلا يعينون مَن ظَلَمَهُ، ولكنَّهم أيضًا لا يقومون بما يجبُ من حَقِّه، بل إذا ذَمَّهُ أحدٌ لم يوافقوه علىٰ ذَمِّه، ولا يذكرون محامدَه، وكذلك لو قَدَحَهُ أحدٌ سكتوا، وهؤلاء مدينون في تركِ المأمورِ في حقِّه مفرِّطون في ذلك لا معتدون عليه، وجزاؤهم أنَّهم يُبخسون حقوقَهم فلا ينصفون أيضًا في مواضعَ، ولا يُنصرونَ علىٰ مَن ظلمهم كما لم ينصروا هذا المحسود، وأمَّا من اعتدىٰ بقولٍ أو فعلٍ فذلك يُعاقب، ومن اتقىٰ الله وصَبرَ فلم يدخل في الظالمين نفعَهُ الله بتقواه»[1].

وأمَّا الحقدُ فهو رذيلةٌ بين رذيلتين؛ لأنَّه يُثمره الغضبُ، وهو يُثمر الحسدَ، فاجتمع له الشرُّ من أطرافِهِ جميعها.

«والغضبُ إذا لَزِمَ كَظمُهُ لعجزٍ عن التشفِّي في الحالِ، رجعَ إلىٰ الباطنِ، واحتقن فيه فصار حقدًا، ومعنىٰ الحقدِ أن يلزمَ قلبه استثقالَهُ والبغضَةَ له، والنِّفَارَ عنه، وأن يدومَ ذلك ويبقىٰ، فالحقدُ ثمرةُ الغضبِ.

والحقدُ يُثمر ثمانيةَ أمورٍ:

الأول: الحسد: وهو أن يحملك الحقد علىٰ أن تتمنَّىٰ زوالَ النعمةِ عنهُ، فتغتمَّ بنعمةٍ إذا أصابها، وتُسَرَّ بمصيبةٍ إن نزلت به.

الثاني: أن تزيدَ علىٰ إضمارِ الحسدِ في الباطنِ، فتشمتَ بما أصابه من البلاءِ.

الثالثُ: أن تهاجره وتصارمه -أي: تُقاطعه-، وتنقطعَ عنه وإن أقبلَ عليك.

(١) «أمراض القلوب وشفاؤها» (ص٢١).

الرابعُ: وهو دونه: أن تُعرض عنه استصغارًا له.

الخامسُ: أن تتكلَّم فيه بما لا يحلُّ من كذبٍ وغيبةٍ وإفشاء سِرٍّ وهتكِ سترٍ.

السادسُ: أن تحاكيَهُ استهزاءً به، وسخريةً منه.

السابعُ: إيذاؤه بالضربِ وما يُؤلمُ بدنَه.

الثامنُ: أن تمنعَهُ حقَّهُ من أداءِ دَينٍ، وصلَةِ رَحِمٍ، أو رَدِّ مظلِمَةٍ، وكلُّ ذلك حرامٌ»[(١)].

السَّبَبُ الَّذِي لأَجلِهِ يَكثُرُ الحَسَدُ بَينَ الأمثَالِ والأقرَانِ:

الحَسَدُ يكثرُ بين قومٍ تكثُرُ بينهم الأسبابُ الداعيةُ إلىٰ الحسدِ.

وهذه الأسبابُ إنمَّا تكثُرُ بين أقوامٍ تجمعهم روابِطُ يجتمعون بسببِها في مجالسِ المخاطباتِ ويتواردون علىٰ الأغراضِ، فإذا خالفَ واحدٌ صاحبَهُ في غَرَضٍ من الأغراضِ نَفَرَ طبعُهُ منه وأبغضَه وثبتَ الحقدُ في قلبِه، فعند ذلك يريد أن يستحقره ويتكبَّرَ عليه ويكافئَهُ -أي: يجازيه- علىٰ مخالفتِهِ لغرضِهِ ويكره تمكُّنَهُ منَ النعمةِ التي توصِّله إلىٰ أغراضِهِ وتترادفُ جملةٌ من هذه الأسبابِ؛ إذ لا رابطةَ بين شخصين في بلدتين متنائيتين فلا يكون بينهما محاسدةٌ.

نعم، إذا تجاوروا في مسكنٍ أو سوقٍ أو مدرسةٍ أو مسجدٍ، توارَدَا علىٰ مقاصدَ تتناقضُ فيها أغراضُهما، فيثورُ من التناقضِ التنافرُ والتباغُضُ، ومنه تثورُ بقيَّةُ أسبابِ الحَسَدِ، ولذلك ترىٰ العالِمَ يحسدُ العالِمَ دونَ العابدِ، والعابدَ يحسدُ العابدَ دونَ

(١) «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ٧٦).

العالِم، والتاجرَ يحسدُ التاجرَ، بل الإسكافَ يحسدُ الإسكافَ ولا يحسدُ البَزَّازَ -بائعُ الثيابِ- إلا بسببٍ آخرَ سوىٰ الاجتماعِ في الحرفةِ، ويحسدُ الرجلُ أخاه وابن عَمِّه أكثرَ مَّما يحسدُ الأجانبَ، والمرأةُ تحسدُ ضَرَّتَهَا أكثرَ ممَّا تحسدُ أمَّ الزوجِ وابنتَه، ومنشأُ جميعِ ذلك حُبُّ الدنيا، فإنَّ الدنيا هي التي تضيقُ علىٰ المتزاحمين، وأمَّا الآخرةُ فلا ضيقَ فيها.

فلذلك لا يكون بين علماء الدين محاسَدَةٌ؛ لأنَّ مقصدَهم معرفةُ الله تعالىٰ، وهو بحرٌ واسعٌ لا ضيقَ فيه، وغرضَهم المنزلةُ عند الله، ولا ضيقَ أيضًا فيما عندَ الله تعالىٰ.

نعم، إذا قصدَ العلماءُ بالعلمِ المالَ والجاهَ تحاسدوا، لأنَّ المالَ أعيانٌ وأجسامٌ إذا وقعت في يدِ واحدٍ خَلَت عنها يدُ الآخرِ[(١)].

بَيَانُ الدَّوَاءِ الَّذِي يَنفِي مَرَضَ الحَسَدِ عَن القَلبِ:

الحسدُ من الأمراضِ العظيمةِ للقلوبِ، ولا تُداوىٰ أمراضُ القلوبِ إلا بالعلمِ والعملِ، والعلمُ النافعُ لمرضِ الحسدِ أن تعرفَ تحقيقًا أنَّ الحسدَ ضَرَرٌ عليك في الدنيا والدينِ.

أَمَّا كونُهُ ضررًا عليك في الدِّينِ: فهو أنَّك بالحسدِ سَخِطْتَ قضاءَ الله تعالىٰ، وكرهتَ نعمتَه التي قَسَمَها بين عبادِهِ، وعدلَهُ الذي أقامه في مُلكِهِ بخفيِّ حكمته، فاستنكرتَ ذلك واستبشعتهُ، وهذه جنايةٌ علىٰ حَدَقَةِ التوحيد، وقذًىٰ في عينِ الإيمانِ، وناهيكَ بهما جنايةً علىٰ الدِّينِ.

(١) «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ٨٢).

وأَمَّا كونُهُ ضَررًا عليك في الدنيا: فهو أَنَّك تتألَّمُ في الدنيا أو تَتعذبُ به، ولا تزال في كَمَدٍ وغَمٍّ، إذ أعداؤك لا يُخليهم الله عن نِعَمٍ يُفيضُهَا عليهم، فلا تزال تتعذَّبُ بكلِّ نعمةٍ تراها، وتتألم بكلِّ بَليَّةٍ تنصرفُ عنهم، فتبقىٰ مغمومًا محرومًا، متشعِّبَ القلبِ وضَيِّق الصدرِ، قد نزلَ بكَ ما يشتهيه الأعداءُ لكَ، وتشتهيهِ لأعدائكَ، فقد كنت تريُدُ المحنةَ لعدوِّك فتنجَّزَ في الحالِ محنتُكَ وغمُّكَ نقدًا.

فهذه هي الأدويةُ العلميةُ، فمهما تفكَّر الإنسانُ فيها بذهنٍ صافٍ وقلبٍ حاضرٍ، انطفأت نارُ الحسدِ من قلبِهِ، وعَلِمَ أنَّه مهلكٌ نفسَه ومفرحٌ عدوَّه، ومسخطٌ ربَّه، ومُنَغِّصٌ عيشَه.

وأمَّا العملُ النافعُ فهو أن يحكُمَ الحسدَ، فكلُّ ما يتقاضاه الحسدُ من قولٍ وفعلٍ فينبغي أن يكلِّفَ نفسَهُ نقيضهَ، فإن حمله الحسدُ علىٰ القَدحِ في محسودِهِ كلَّف لسانَه المدحَ له، والثناءَ عليه، وإن حمله علىٰ التكبُّرِ عليه ألزمَ نفسَه التواضعَ له والاعتذارَ إليه، وإن بعثَه علىٰ كَفِّ الإنعامِ عليه، أَلزَمَ نفسَه الزيادَةَ في الإنعامِ عليه، فمهما فعل ذلك عن تكلُّفٍ وعرفه المحسودُ طَابَ قلبُهُ وأحبَّه، ومهما ظَهَرَ حبُّه عاد الحاسدُ فأحبَّه، وتولَّدَ من ذلك الموافقةُ: التي تقطعُ مادَّةَ الحسدِ، فهذه هي أدوية الحسدِ وهي نافعةٌ جدًّا، إلا أنَّها مُرَّةٌ جدًّا علىٰ القلوبِ، ولكنَّ النفعَ في الدواءِ المُرِّ»[١].

* * *

---

(١) «تهذيب الإحياء» لعبد السلام هارون (٢/ ٨٤).

وبعدُ:

فتلكَ كانتْ آفاتُ العلمِ، وما هي في الحقيقةِ آفاتُهُ، وإنَّما هي آفاتُ الذين يسلكون سبيله علىٰ غيرِ بصيرةٍ، ومن غير جهادٍ للنفسِ، وقَمعٍ للشهواتِ.

ولمَّا كانَ العلماءُ وطلبةُ العلمِ -في حقيقة الأمر- صفوةَ الصفوةِ من النَّاسِ، كانَ قليلُ الزللِ في أخلاقهم كبيرًا عند النَّاسِ، وكانت حركاتُهم وسكناتُهم محصاةً عليهم؛ فقد وَجَبَ أن يطهِّرُوا النفوسَ؛ لا من أجلِ أن ينتفِعُوا هم بالعلمِ وكفىٰ، ولكن من أجلِ أن ينفعَ اللهُ بعلمِهِم، ويفتحَ لهم قلوبَ خلقِهِ، ويكتبَ لهم عنده ثمَّ عند النَّاسِ القبولَ والسدادَ.

❊ ❊ ❊

العلمُ والعَمَلُ

ألا إنَّ ثمرةَ العلمِ العملُ، وكلُّ علمٍ لا يُثمرُ عملًا -في القلبِ أو الجوارحِ- فهو علمٌ يُلزِمُ صاحبَهُ الحُجَّةَ أمامَ الله ﷻ .

قال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (٣/ ٣٤٣): «قال أبو قِلابَةَ لأيوبَ: يا أيوبُ! إذا أحدثَ اللهُ لك علمًا فأحدث له عبادةً، ولا يكن همك أن تُحدِّثَ به الناسَ».

وإنَّما العالِمُ مَن فَارَقَ الجُهَّالَ في العلمِ والعملِ جميعًا، فإن فارقهم في العلمِ وشاركهم في التخلُّفِ عن العمل؛ فقد شاركهم لون مشاركةٍ ظاهرةٍ، وفارقهم في حقيقةِ الأمرِ وجوهرِ الموضوعِ.

وما مَدَحَ الشارعُ العلمَ بما مدحه به إلا لكونِهِ طريقًا مستقيمًا يُفضي إلىٰ أودية من العملِ الدائبِ والجدِّ الحريصِ؛ لأنَّ العلمَ مَطيَّةُ السيرِ إلىٰ الله تعالىٰ، والسائرُ إلىٰ الله تعالىٰ لا يكفيه أن يَحُوزَ القوةَ العلميةَ جمعًا وتحصيلًا كي يفوزَ بالنجاةِ ويسعدَ بالفوزِ، بل ينبغي أن تتآزَرَ[1] لديه القوةُ العلميةُ والقوةُ العمليةُ حتىٰ يكونَ سيرُهُ إلىٰ الله تعالىٰ مُثمرًا، بل حتىٰ يكون إلىٰ الله تعالىٰ سَائِرًا.

قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ **في «منهاج السنة»** (٥/ ٤٢٨-٤٣١): «الناسُ في طلبِ العلمِ والدينِ طريقان مبتدعان، وطريقٌ شرعيٌّ: هو النظرُ فيما جاء به الرسولُ،

(١) **تتآزَرُ**: تتعاون ويُقَوِّي بعضُها بعضًا.

والاستدلالُ بأدلَّتِهِ، والعملُ بموجبهَا، فلابُدَّ من علم بما جاء به وعملٍ به، لا يكفي أحدُهما.

وهذا الطريقُ متضمنٌ للأدلةِ العقليةِ والبراهينِ اليقينيةِ، فإنَّ الرسولَ بيَّن بالبراهينِ العقليةِ ما يتوقَّف السمعُ عليه، والرسلُ بيَّنوا للناسِ العقلياتِ التي يحتاجون إليها، كما ضرب الله في القرآن من كلِّ مَثَل.

وهذا هو الصراطُ المستقيمُ الذي أمر الله عبادَهُ أن يسألوه هدايتَه.

وَأَمَّا الطَرِيقَانِ الْمُبتَدَعَانِ: فأحدُهُمَا: طريقُ أهل الكلام البدعيِّ، فإن هذا فيه باطلٌ كثيرٌ، وكثيرٌ من أهلِهِ يفرطون فيما أمر اللهُ به ورسولُهُ من الأعمالِ، فيبقىٰ هؤلاء في فسادِ علمٍ وفسادِ عملٍ، وهؤلاء منحرفون إلىٰ اليهوديةِ الباطلةِ.

والثاني: طريقُ أهل الرياضةِ والتَّصوفِ والعبادةِ البدعيةِ، وهؤلاء منحرفون إلىٰ النَّصرانيةِ الباطلةِ، فإنَّ هؤلاء يقولون: إذا صفَّىٰ الإنسانُ نفسَهُ علىٰ الوجهِ الذي يذكرونه فاضت عليه العلومُ بلا تعلُّمٍ، وكثيرٌ من هؤلاء تكون عبادتُه مبتدعةً، بل مخالفةً لِمَا جاء به الرسولُ ﷺ، فَيبقَوْن في فسادٍ من جهةِ العملِ، وفسادٍ من نقصِ العلمِ، حيث لم يعرفوا ما جاء به الرسولُ، وكثيرًا ما يقع من هؤلاء وهؤلاء، وتقدح كلُّ طائفةٍ في الآخرىٰ، وينتحل كلٌّ منهم اتِّباعَ الرسولِ، والرسولُ ليس ما جاء به موافقًا لِمَا قال هؤلاء ولا هؤلاء؛ ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾ [آل عمران:٦٧]، وما كان رسولُ اللهﷺ ولا أصحابُهُ علىٰ طريقةِ أهلِ البدعِ من أهلِ الكلامِ والرأي، ولا علىٰ طريقةِ أهلِ البدعِ من أهلِ العبادةِ والتَّصوف، بل كان علىٰ ما بعثه اللهُ من الكتابِ والحكمةِ.

وكثيرٌ من أهلِ النظرِ يزعمون أنَّه بمجرَّدِ النظرِ يحصل العلمُ، بلا عبادةٍ ولا دينٍ ولا تزكيةٍ للنفسِ، وكثيرٌ من أهلِ الإرادةِ يزعمون أنَّ طريقَ الرياضةِ بمجرَّدِهِ تحْصُلُ المعارفُ، بلا تعلُّمٍ ولا نظرٍ ولا تدبُّرٍ للقرآنِ والحديثِ، وَكِلَا الفريقين غالطٌ، بل لتزكيةِ النفسِ والعملِ بالعلمِ وتقوىٰ الله تأثيرٌ عظيمٌ في حصولِ العلمِ، لكن مجرد العمل لا يفيد ذلك إلا بنظرٍ وتدبُّرٍ وفهمٍ لِمَا بعث اللهُ به الرسولَ.

ولو تعبَّدَ الإنسانُ ما عسىٰ أن يتعبَّدَ لم يعرف ما خصَّ اللهُ به محمدًاﷺ إن لم يعرف ذلك من جهته، وكذلك لو نظر واستدلَّ ماذا عسىٰ أن ينظر لم يحصل له المطلوبُ إلَّا بالتعلُّمِ من جهتِهِ، ولا يحصل التعلُّمُ المطابقُ النافعُ إلَّا مع العملِ به، وإلَّا فقد قال اللهُ تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ [الصف:٥].

وقال تعالىٰ لأفضلِ الخلقِ الذي كان أزكَىٰ الناسِ نَفْسًا وأكمَلَهم عقلًا قبلَ الوحي: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ﴾ [الشورىٰ:٥٢]».

وعن حاجةِ السائرِ إلىٰ الله تعالىٰ إلىٰ القوةِ العلمية والقوة العملية جميعًا يقولُ الإمامُ ابنُ القيِّم -رحمه الله تعالىٰ-: «السائرُ إلىٰ الله والدارِ الآخرةِ، بل كلُّ سائرٍ إلىٰ مَقصدٍ، لا يتمُّ سيرُهُ ولا يصلُ إلىٰ مقصودِهِ إلا بقوتين: قوةٍ علميةٍ، وقوةٍ عمليةٍ.

فبالقوةِ العلميةِ يبصرُ منازِلَ الطريقِ ومواضعَ السلوكِ فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنبُ أسبابَ الهلاكِ ومواضعَ العَطَبِ وطُرُقَ المهالِكِ المنحرفَةِ عن الطريقِ الموصِّلِ فقوَّتُه العلميةُ كنورٍ عظيمٍ بيده، يمشي به في ليلةٍ مظلمةٍ شديدةِ الظُّلْمَةِ،

فهو يُبصرُ بذلك النورِ ما يقعُ الماشي في الظُّلمَةِ في مثلِهِ من الوِهادِ والمتالِفِ ويعثرُ به من الأحجارِ والشوكِ وغيرِهِ، ويبصرُ بذلك النُّورِ أيضًا أعلامَ الطريقِ وأدلَّتَهَا المنصوبةَ عليها فلا يضلُّ عنها، فيكشفُ له النُّورُ عن الأمرين: أعلامِ الطريقِ، ومعَاطبِهَا.

وبالقوَّةِ العمليةِ يسيرُ حقيقةً، بل السيرُ هو حقيقةُ القوةِ العمليةِ، فإنَّ السَّيرَ هو عملُ المسافرِ.

وكذلك السائرُ إلىٰ ربِّهِ إذا أبصرَ الطريقَ وأعلامَهَا وأبصرَ المعاثِرَ والوِهَادَ والطُّرُقَ النَّاكِبَةَ عنها، فقد حصل له شَطْرُ السعادةِ والفلاحِ، وبقي عليه الشَّطرُ الآخَرُ وهو أن يَضَعَ عَصَاهُ علىٰ عاتِقِهِ ويُشَمِّرَ مسافِرًا في الطريقِ قاطِعًا منازِلَهَا منزلةً بعد منزلةٍ، فكلَّما قَطَعَ مرحلةً استعدَّ لقطعِ الأخرىٰ، واستشعَرَ القُربَ من المنزلِ فهانت عليه مشقَّةُ السَّفَرِ، وكلَّما سَكَنَت نَفسُهُ من كلالِ السيرِ ومواصلةِ الشَّدِّ والرحيلِ وعَدَها قُربَ التلاقِي وبَردَ العيشِ عند الوصولِ، فَيُحدث لها ذلك نشاطًا وفرحًا وهِمَّةً، فهو يقولُ: يا نَفسُ أبشري فقد قَرُبَ المنزلُ ودنا التَّلاقِي، فلا تنقطعي في الطريقِ دون الوصولِ فَيُحَالَ بينكِ وبين منازلِ الأحبَّةِ، فإن صبرتِ وواصلتِ المَسرَىٰ وصلتِ حميدةً مسرورةً جَذْلَةً، وتلقَّتكَ الأحبَّةُ بأنواعِ التُّحَفِ والكراماتِ، وليس بينكِ وبين ذلك إلا صبرُ ساعةٍ، فإنَّ الدنيا كلَّها كساعةٍ من ساعاتِ الآخرةِ، وعمرك درجةٌ من دَرَجِ تلك الساعةِ، فاللهَ اللهَ لا تنقطعي في المفازةِ، فهو والله الهلاكُ والعَطَبُ لو كنتِ تعلمين.

فإن استصعبتْ عليه فليذكِّرها ما أمامها من أحبَّائِها، وما لديهم من الإكرامِ والإنعامِ، وما خلفها من أعدائِهَا وما لديهم من الإهانةِ والعذابِ وأنواعِ البلاءِ، فإن

رجعت فإلىٰ أعدائِها رجوعُها، وإن تقدَّمت فإلىٰ أحبائِها مصيرُهَا وإن وقفت في طريقها أدركها أعداؤُها، فإنَّهم وراءَها في الطَّلَبِ.

ولابُدَّ لها من قسمٍ من هذه الأقسامِ الثلاثةِ(١) فلتختر أيُّها شاءت، وليجعل حديثَ الأحبَّةِ حاديَهَا وسائقَهَا، ونورَ معرفتهم وإرشادِهم هاديَها ودليلَهَا، وصِدقَ ودَادِهم وحُبِّهم غذاءَهَا وشرابَهَا ودواءَها، ولا يُوحِشُه انفرادُهُ في طريقِ سفرِه، ولا يغترُّ بكثرةِ المنقطعين، فألمُ انقطاعِهِ وبعادِهِ واصلٌ إليه دونهم، وحظُّه من القربِ والكرامةِ مختصٌّ به دونهم، فما معنىٰ الاشتغالِ بهم والانقطاعِ معهم؟

وليعلم أنَّ هذه الوحشةَ لا تدومُ، بل هي من عوارضِ الطريقِ، فسوف تبدو له الخيامُ، وسوف يخرجُ إليه المتلقُّون يهنئونَه بالسلامة والوصولِ إليهم، فيا قُرَّةَ عينهِ إذ ذاك، ويا فرحَتَه إذ يقولُ: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ﴾ [يس:٢٦-٢٧].

ولا يَستوحِشُ مِمَّا يجده من كثافةِ الطَّبعِ وذَوْبِ النَّفسِ وبُطءِ سيرِهَا، فكلَّما أدمن علىٰ السير وواظَبَ عليه غُدُوًّا ورواحًا وسَحَرًا قَرُبَ من الدَّارِ وتَلَطَّفَت تلك الكثافةُ وذابت تلك الخبائثُ والأدرانُ، فظهرت عليه هِمَّةُ المسافرين وسيمَاهُم فتبدَّلت وحَشَتُهُ أُنسًا، وكثافتُهُ لطافةً، ودَرَنُهُ طَهَارَةً»(٢).

فاستكمالُ العبدِ لقوَّتيهِ العلميَّةِ والعمليَّةِ هما جَنَاحَا سيرهِ إلىٰ الدارِ الآخرةِ

---

(١) **الأقسام الثلاثة هي**: التقدُّمُ، والوقوفُ، والرجوعُ.

(٢) «طريق الهجرتين» لابن القيم (ص١٧١).

مهما تخلَّفَ منهما واحدٌ فقد تخلَّفَ سيرُهُ إلىٰ الدارِ الآخرةِ بحسبِهِ، والمعصومُ مَن عَصَمَهُ الله، وما كلُّ النَّاسِ بمستكمِلٍ ما أحبَّ أن يستكملَ، لذلك انقسم النَّاسُ إلىٰ سابقٍ مُقَرَّبٍ، ومُقتَصِدٍ في الْخَيراتِ، وظالمٍ لنفسهِ.

وقد قسَّم الإمامُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ النَّاس من حيث القوةُ العلميةُ والعمليةُ تقسيمًا مطابقًا فقال: «من النَّاسِ مَن يكون له القوةُ العلميةُ الكاشفةُ عن الطريقِ ومنازلِها وأعلامِها وعوارِضها ومعاثِرهَا، وتكون هذه القوةُ أغلبَ القوتين عليه، ويكون ضعيفًا في القوةِ العمليةِ يُبصرُ الحقائقَ ولا يعمل بموجبهَا، ويرىٰ المتالِفَ والمخاوِف والمعاطِبَ ولا يتوَقَّاها، فهو فقيهٌ ما لم يَحضُرِ العملُ، فإذا حَضَرَ العملُ شارك الجهَّالَ في التَّخَلُّفِ، وفارقهم في العلمِ، وهذا هو الغالِبُ علىٰ أكثرِ النفوسِ المشتغلَةِ بالعلمِ، والمعصومُ من عصَمَهُ الله، ولا قوةَ إلا بالله.

ومِنَ النَّاسِ مَن تكونُ له القوةُ العمليةُ الإراديةُ، وتكون أغلبَ القوتين عليه، وتقتضي هذه القوةُ السيرَ والسلوكَ والزهدَ في الدنيا والرغبةَ في الآخرةِ والجِدَّ والتشميرَ في العملِ، ويكون أعمىٰ البصرِ عند ورودِ الشبهاتِ في العقائدِ والانحرافاتِ في الأعمالِ والأقوالِ والمقاماتِ كما كان الأولُ ضعيفَ العقلِ عند ورودِ الشهواتِ، فَدَاءُ هذا من جهلِهِ، وداءُ الأولِ من فسادِ إرادتِهِ وضعفِ عقلِهِ، وهذا حالُ أكثرِ أربابِ الفقرِ والتصوفِ السالكين علىٰ غير طريق العلمِ، بل علىٰ طريقِ الذَّوقِ والوجدِ والعادةِ، يُرَىٰ أحدُهم أعمىٰ عن مطلوبِهِ لا يَدري مَن يعبدُ ولا بماذا يعبده، فتارةً يعبده بذوقِهِ ووجدِهِ، وتارةً يعبدُهُ بعادة قومِهِ وأصحابِهِ من لبسٍ معيَّنٍ أو كَشفِ رأسٍ أو حَلقِ لحيةٍ ونحوها، وتارةً يعبده بالأوضاعِ التي وضعها بعضُ

المتحذلقين وليس لها أصلٌ في الدينِ، وتارةً يعبدُهُ بما تحبُّه نفسُه وتهواه كائنًا ما كان، وهنا طريقٌ ومتاهاتٌ لا يحصيها إلا ربُّ العبادِ.

فهؤلاء كلهم عَمُون عن ربِّهم، وعن شريعتِهِ ودينِهِ، لا يعرفون شريعتَه ودينَه الذي بعثَ به رسلَهُ وأنزلَ به كُتُبَهُ ولا يقبلُ من أحدٍ دينًا سواه، كما أنَّهم لا يعرفون صفاتِ ربِّهم التي تَعَرَّفَ بها إلىٰ عبادِهِ علىٰ ألسنةِ رسلِهِ ودعاهم إلىٰ معرفتِهِ ومحبتِهِ من طريقها، فلا معرفةَ له بالربِّ ولا عبادةَ له.

ومَن كانت له هاتان القوتانِ[1]، استقامَ له سَيرُهُ إلىٰ الله، ورُجِيَ له النفوذُ، وقَوِي علىٰ رَدِّ القواطِعِ والموانعِ بحولِ الله وقوتِهِ، فإنَّ القواطِعَ كثيرةٌ شأنُها شديدٌ، لا يَخلُصُ من حبائِلِهَا إلا الواحدُ بعد الواحِدِ، ولولا القواطعُ والآفاتُ لكانت الطريقُ معمورةً بالسالكين ولو شاءَ الله لأزالها وذَهَبَ بها، ولكنَّ الله تعالىٰ يَفعَلُ ما يريدُ.

والوقتُ -كما قيل-: سيفٌ، فإن قطعتَه وإلا قطَعَكَ، فإذا كان السيرُ ضعيفًا والْهِمَّةُ ضعيفةً، والعلمُ بالطريقِ ضعيفًا، والقواطعُ الخارجةُ والداخلةُ كثيرةً شديدةً فإنَّه جَهدُ البلاءِ ودَرَكُ الشقاءِ وشماتَةُ الأعداءِ، إلا أن يتدارَكه الله برحمةٍ منه من حيث لا يحتسب فيأخذَ بيده ويخلِّصهُ من أيدي القواطعِ، والله وليُّ التوفيقِ»[2].

ولكنَّ الأمرَ لو مرَّ كَفَافًا علىٰ صاحبِ العلمِ، لا عليه ولا له لكان هَيِّنًا، ولكنَّه محكومٌ بقاعدةٍ من القواعدِ الهامَّةِ في دينِ الإسلامِ العظيمِ.

(١) أي: القوة العلمية والقوة العملية.

(٢) «طريق الهجرتين» (ص١٧٢).

*** قاعـدة:**

كلَّما كانت الرتبةُ في العلمِ عاليةً، كانت المؤاخذةُ علىٰ فُقدانِ العملِ شديدةً وصارمةً.

وهذه القاعدةُ من القواعدِ العظيمةِ في الدِّين، وهي تُلزِمُ كلَّ مَن عَلِمَ أن يعملَ ولا يتوانىٰ في العملِ، وتقضي بأنَّ الذين يفصلون العلمَ عن العملِ ليسوا علىٰ شيءٍ، وإنَّما أمرُهُم إلىٰ الله، هو يفصلُ بينهم بحكمِهِ، وهو العليمُ الحكيمُ.

والأدلَّةُ علىٰ هذه القاعدة من الكتابِ والسنَّةِ كثيرةٌ، منها:

١- قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾؛ أي: علىٰ الحقِّ وعصمناك من موافقتِهم.

﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ﴾، أي: تميلُ، ﴿شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾، أي: ركونًا قليلًا. قيل: ظاهرُ الخطابِ للنبيِّ ﷺ وباطنُه إخبارٌ عن ثقيفٍ، والمعنىٰ: وإن كادوا لَيُركِنُونَكَ، أي: كادوا يخبرون عنك بأنَّك مِلتَ إلىٰ قولهم؛ فنسبَ فعلَهم إليه مجازًا واتساعًا؛ كما تقولُ لرجلٍ: كدتَ تقتلُ نفسَك، أي: كاد الناسُ يقتلونك بسبب ما فعلتَ؛ ذكره المهدويُّ.

وقيل: ما كان منه هَمٌّ بالركونِ إليهم، بل المعنىٰ: ولولا فَضلُ الله عليك لكان

منكَ مَيلٌ إلىٰ موافقتهم، ولكن تَمَّ فضلُ الله عليك فلم تفعل؛ ذكره القشيريُّ.

وقال ابن عباسٍ: كان رسولُ الله ﷺ معصومًا، ولكن هذا تعريفٌ للأمَّةِ لئلا يركَنَ أحدٌ منهم إلىٰ المشركين في شيءٍ من أحكامِ الله تعالىٰ وشرائعِه.

وقولُهُ: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، أي: لو رَكَنتَ لأذقناكَ مثلَي عذابِ الحياةِ في الدنيا، ومِثلَي عذابِ المماتِ في الآخرةِ؛ قاله ابنُ عباسٍ ومجاهدٌ وغيرهما، وهذا غايةُ الوعيدِ، وكلَّما كانت أعلىٰ كان العذابُ عند المخالفةِ أعظمَ، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وضِعفُ الشيءِ مِثلُهُ مرَّتينِ، وقد يكونُ الضِّعفُ النصيبَ؛ كقولِهِ ﷻ: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ [الأعراف:٣٨][1].

وقال النَّسَفيُّ -عفا الله عنه-: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، لأذقناكَ عذابَ الآخرةِ وعذابَ القبرِ مضاعَفَينِ لعظيمِ ذنبك بشرفِ منزلَتِكَ ونبوَّتِك، كما قال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠]، وفي ذكر الكَيدُودَةِ وتقليلِهَا مع إتباعِهَا الوعيدَ الشديدَ بالعذابِ المُضَاعَفِ في الدَّارَين دليلٌ علىٰ أنَّ القبيحَ يَعظُمُ قُبحُهُ بمقدارِ عِظَمِ شأنِ فاعلِهِ»[2].

(١) «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبي (١٠/ ٣٠٥).

(٢) «تفسير النسفي» (٢/ ٣٢٣).

والنسفيُّ هو عبد الله بن أحمد بن محمود، والنسفيُّ نسبةٌ إلىٰ بلدةٍ من بلادٍ ما وراء النهر، كان حنفيًّا متعصِّبًا، واختصر تفسيره المسمَّىٰ «بمدارك التنزيل وحقائق التأويل» من تفسير =

وقال الشنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا ٧٤ إِذٗا لَّأَذَقۡنَٰكَ ضِعۡفَ ٱلۡحَيَوٰةِ وَضِعۡفَ ٱلۡمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيۡنَا نَصِيرٗا﴾، بيَّن -جلَّ وعلا- في هذه الآيةِ الكريمةِ تثبيتَه لنبيِّه ﷺ، وعصمتَه له من الركونِ إلىٰ الكفَّارِ، وأنَّه لو رَكَنَ إليهم لأذاقَهُ ضِعفَ الحياةِ وضِعفَ المماتِ؛ أي مِثلَي عذابِ الحياةِ في الدنيا ومِثْلَي عذابِ المماتِ في الآخرةِ، وبهذا جزم القرطبي في تفسيرهِ.

وقال بعضُهم: المرادُ بِضعفِ عذابِ المماتِ: العذابُ المضاعَفُ في القبرِ، والمرادُ بِضعفِ الحياةِ: العذابُ المضاعفُ في الآخرةِ بعد حياة البعثِ، وبهذا جَزَمَ الزمخشريُّ وغيرهُ، والآيةُ تشملُ الجميعَ.

وهذا الذي ذكره هنا من شِدَّةِ الجزاءِ لنبيِّه -لو خَالَفَ- بيَّنَه في غيرِ هذا الموضعِ؛ كقولِهِ: ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وهذا الذي دلَّت عليه هذه الآيةُ من أنَّه إذا كانت الدرجةُ أعلىٰ كان الجزاءُ عند المخالفةِ أعظمَ، بيَّنَهُ في موضع آخر، كقوله: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأۡتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ يُضَٰعَفۡ لَهَا ٱلۡعَذَابُ ضِعۡفَيۡنِ﴾.

وقد أجادَ مَن قال:

=

البيضاوي والزمخشري، والنسفيُّ من غلاة الأشعرية المؤولةِ، أوَّلَ جميعَ الصِّفَاتِ، وكان متعصِّبًا في التأويل.

وَكَبَائِـرُ الـرَّجُلِ الـصَّغِيرِ صَـغَائِرُ   وَصَـغَائِرُ الـرَّجُـلِ الكَبِـيـرِ كَبَائِـرُ

وهذه الآيةُ الكريمةُ أوضحت غايةَ الإيضاحِ براءةَ نبيِّنا محمَّدٍ ﷺ من مُقَاربةِ الركونِ إلىٰ الكفَّارِ، فضلًا عن نَفسِ الركونِ؛ لأنَّ «لَولا» حرفُ امتناعٍ لوجود، فمقاربةُ الركونِ منعتها «لولا» الامتناعيةُ لوجودِ التثبيتِ من الله -جلَّ وعلا- لأكرمِ خلقِهِ ﷺ، فصَحَّ يقينًا انتفاءُ مقاربةِ الركونِ فضلًا عن الركونِ نفسِهِ.

وهذه الآيةُ تبيِّنُ أنَّه لم يُقَارِب الركونَ إليهم ألبَتَّةَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ أي: قاربتَ تركنُ إليهم، هو عَينُ الممنوعِ بـ «لولا» الامتناعيةِ كما ترىٰ، ومعنىٰ: «تَركَنُ إليهِمْ»: تميلُ إليهم»[(١)].

٢- وقولُهُ تعالىٰ: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ ۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٠-٣١].

قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالىٰ واعِظًا نساءَ النبيِّ ﷺ اللاتي اخترن الله ورسولَهُ والدارَ الآخرةَ، واستقرَّ أمرهنَّ تحت رسولِ الله ﷺ، فناسَبَ أن يخبرَهُنَّ بحكمهنَّ وتخصيصهنَّ دون سائر النساءِ بأنَّ مَن يأتِ منهنَّ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ، قال ابنُ عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: وهو النُّشُوزُ وسُوءُ الخُلُقِ، وعلىٰ كلِّ تقديرٍ فهو شَرطٌ، والشَّرطُ لا يقتضي الوقوعَ؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، وكقولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر:٦٥]،

(١) «أضواء البيان» (٣/ ٥٦٤).

فلمَّا كانت محلتُهنَّ رفيعةً ناسب أن يجعلَ الذنبَ لو وقعَ منهنَّ مُغَلَّظًا؛ صيانةً لجنابهنَّ وحجابهنَّ الرفيعِ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، وقال مالكٌ عن زيدِ بن أسلمَ: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، قال: في الدنيا والآخرةِ، ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، أي: سهلًا هَيِّنًا، ثمَّ ذَكَرَ عدلَهُ وفضلَه في قولهِ: ﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، أي: تُطع الله ورسولَهُ وتَستَجِب ﴿نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾، أي: في الجنَّةِ، فإنَّهنَّ في منازلِ رسولِ اللهِ ﷺ في أعلىٰ علِّيين، فوق منازِل جميعِ الخلائقِ في «الوسيلة»، التي هي أقربُ منازلِ الجنَّةِ إلىٰ العرشِ»(١).

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماءُ: لمَّا اختار نساءُ النَّبيِّ ﷺ رسولَ الله ﷺ شكرهنَّ الله علىٰ ذلك، فقال تكرمةً لهنَّ: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ [الأحزاب:٥٢]، وبيَّن حكمهنَّ عن غيرهنَّ فقال: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾ [الأحزاب:٥٣]، وجعل ثوابَ طاعتهنَّ وعقاب معصيتهنَّ أكثرَ ممَّا لغيرهنَّ فقال: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، فأخبر تعالىٰ أنَّ مَن جاء من نساءِ النبيِّ ﷺ بفاحشةٍ -والله عاصمٌ رسولَهُ ﷺ من ذلك- يُضَاعَف لها العذابُ ضِعفين؛ لشرفِ منزلتهنَّ وفَضلِ درجتهنَّ، وتقدُّمِهنَّ علىٰ سائرِ النساءِ أجمع.

وكذلك بيَّنت الشريعةُ في غيرِ ما موضعٍ أنَّه كلَّما تضاعفت الحُرُمَاتُ فهتكت

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٤٨١).

تضاعفت العقوباتُ؛ ولذلك ضُوعِفَ حَدُّ الحُرِّ علىٰ العبدِ والثيبِ علىٰ البِكرِ»(١).

وقال النسفيُّ -عفا اللهُ عنه-: «قولُه: ضِعفَينِ، ضِعفَي عذابِ غيرهنَّ من النساءِ؛ لأنَّ ما قَبُحَ من سائرِ النساءِ كان أقبحَ منهنَّ، فزيادةُ قُبحِ المعصيةِ تتبعُ زيادةَ الفضلِ، وليس لأحدٍ من النساءِ مثلُ نساءِ النبيِّ ﷺ، ولذا كان الذَّمُّ للعاصي العالِمِ أشدَّ من العاصي الجاهلِ؛ لأنَّ المعصيةَ من العالِمِ أقبحُ»(٢).

٣- وقولُه تعالىٰ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ هَلۡ تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ [النمل: ٩٠].

قال الشنقيطيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيرِ هذه الآيةِ: وقال ابنُ مسعودٍ، وابنُ عباسٍ، وأبو هريرةَ، وأنسُ بن مالكٍ رضي الله عنهم، وعطاءٌ، وسعيدُ بن جبيرٍ، وعكرمةُ، ومجاهدٌ، وإبراهيمُ النخعيُّ، وأبو وائلٍ، وأبو صالحٍ، ومحمدُ بن كعبٍ، وزيدُ بنُ أسلم، والزهريُّ، والسُّدِّيُّ، والضَّحَّاكُ، والحسنُ، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ يعني: الشرك».

وهذه الآيةُ الكريمةُ تضمَّنَت أمرين:

الأولُ: أَنَّ مَن جاءَ ربَّه يومَ القيامةِ بالسيئةِ كالشركِ يُكَبُّ وجهُهُ في النَّارِ.

والثاني: أنَّ السيئةَ تُجزَىٰ بمثلِهَا من غيرِ زيادةٍ، وهذان الأمران جاءَا موضَّحين في غيرِ هذا الموضعِ، كقولِهِ تعالىٰ في الأولِ منهما: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأۡتِ رَبَّهُۥ مُجۡرِمٗا فَإِنَّ لَهُۥ

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٤/ ١٦٩).

(٢) «تفسير النسفي» (٣/ ٣٠١).

جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه:٧٤]، وكقولِه تعالىٰ في الثاني منهما: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [القصص:٨٤]، وقوله تعالىٰ: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ [النبأ:٢٦].

وإذا علمتَ أنَّ السيئاتِ لا تُضَاعَفُ، فاعلم أنَّ السيئةَ قد تَعظُمُ فيَعظُمُ جزاؤها بسببِ حُرمَةِ المكانِ ، كقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج:٢٥]، أو حُرمَةِ الزمانِ، كقوله تعالىٰ في الأشهرِ الحرُمِ: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ [التوبة:٣٦].

وقد دلَّت آياتٌ من كتاب الله أنَّ العذابَ يعظُمُ بسببِ عِظَمِ الإنسانِ المخالِفِ، كقولِهِ تعالىٰ في نبيِّناﷺ: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَـٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ [الإسراء:٧٤-٧٥]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة:٤٤-٤٧]، وكقولِه تعالىٰ في أزواجِهِﷺ: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ [الأحزاب:٣٠].

ومضاعفةُ السيئةِ المشار إليها في هاتين الآيتين، إن كانت بسبب عِظَمِ الذنبِ، حتىٰ صار في عِظَمِهِ كذنبين، فلا إشكالَ، وإن كانت مضاعفةُ جزاءِ السيئةِ كانت هاتان الآيتان مُخَصِّصتَينِ للآياتِ المصرِّحةِ؛ لأنَّ السيئةَ لا تُجزىٰ إلا بمثلها، والجميع محتملٌ، والعلمُ عند الله تعالىٰ»[1].

(١) «أضواء البيان» (٦/ ٤٤٥).

٤- وقولُهُ تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

قال القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ﴾، هذا استفهامُ توبيخٍ، والمرادُ في قولِ أهلِ التأويلِ: علماءُ اليهود. قال ابنُ عباسٍ: كان يهودُ المدينةِ يقولُ الرجلُ منهم لصهرِهِ ولذي قرابتِهِ ولمن بينه وبينه رَضَاعٌ من المسلمين: اثبُت علىٰ الذي أنت عليه وما يأمرك به هذا الرجلُ -يريدون محمدًا ﷺ- فإنَّ أمرَهُ حقٌّ؛ فكانوا يأمرون النَّاسَ بذلك ولا يفعلونه.

وعن ابن عباسٍ أيضًا: كان الأحبارُ يأمرون مقلِّديهم وأتباعَهم باتباعِ التوراةِ وكانوا يخالفونها في جحدِهم صفةَ مُحمَّدٍ ﷺ.

وقال ابنُ جُريجٍ: كان الأحبارُ يحضُّون علىٰ طاعة الله، وكانوا هم يُواقعون المعاصي.

وقالت فرقةٌ: كانوا يحضُّون علىٰ الصدقةِ ويبخلون، والمعنىٰ متقاربٌ.

وقد دلَّت ألفاظُ الآيةِ علىٰ أنَّ عقوبةَ مَن كان عالِمًا بالمعروفِ والمنكرِ ووجوبِ القيامِ بوظيفةِ كلِّ واحدٍ منهما أشدُّ ممَّن لم يعلمه؛ وإنما ذلك، لأنَّه كالمستهينِ بحرماتِ الله تعالىٰ، ومستخِفٌّ بأحكامِهِ، وهو ممَّن لا ينتفعُ بعلمِهِ.

واعلم وفَّقَكَ الله تعالىٰ أنَّ التوبيخَ في الآيةِ بسببِ تركِ فعلِ البرِّ لا بسببِ الأمرِ بالبرِّ، ولهذا ذَمَّ الله تعالىٰ في كتابِهِ قومًا كانوا يأمرون بأعمالِ البرِّ ولا يعملون بها، ووبَّخهم به توبيخًا يُتلَىٰ علىٰ طُولِ الدهرِ إلىٰ يوم القيامةِ، فقالَ تعَالَىٰ:

﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ وقال منصورٌ الفقيهُ فأحسنَ:

إنَّ قَوْمًا يَأمُرُونا ... بالَّذي لا يفعَلُونا
لَمَجَانِينُ وَإِن هُمْ ... لَم يَكُونُوا يُصرَعُونَا

وقال أبو العتاهية:

وَصَفتَ التُّقَي حَتَّىٰ كَأَنكَ ذُو تُقًىٰ ... وَرِيحُ الْخَطَايَا مِن ثِيَابِكَ تَسطَعُ

وقال أبو عمرِو بنُ مَطَرٍ: حضرتُ مجلسَ أبي عثمانَ الْحِيريِّ الزاهدِ فخرجَ وقَعَدَ علىٰ موضعِهِ الذي كانَ يقعدُ عليه للتذكيرِ، فسكت حتىٰ طالَ سكوتُهُ، فناداه رجلٌ كان يُعرفُ بأبي العبَّاسِ: ترىٰ أن تقولَ في سكوتِك شيئًا؟ فأنشأَ يقولُ:

وَغَيرُ تَقِيٍّ يَأمُرُ النَّاسَ بالتُّقَىٰ ... طَبِيبٌ يُدَاوِي والطَّبِيبُ مَرِيضُ

قال: فارتفعت الأصواتُ بالبكاءِ والضجيجِ»[(١)].

قلتُ: والتوبيخُ في الآيةِ -كما مرَّ- بسببِ تركِ البِرِّ لا بسببِ الأمرِ بالبِرِّ، وعليه فينبغي أن نَفصِلَ بين أمرينَ: بين فعلِ المعروفِ، والأمرِ بالمعروفِ، وكلاهما مكلَّفٌ به العبدُ، وكلاهما مطلوبٌ من العبدِ، وكذلك ينبغي الفصلُ بين النهي عن المنكرِ، وهو واجبٌ في ذاتِهِ، وبين الانتهاءِ عن المنكرِ، وهو واجبٌ في ذاتِهِ.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١/ ٣٧٢).

*** قاعدة:**

الصَّحيحُ أنَّ العالِمَ يأمرُ بالمعروفِ وإن لم يَفْعَلهُ، وينهىٰ عن المنكرِ وإن ارتكبه، فكلٌّ مَن الأمرِ بالمعروفِ وفِعْلِهِ واجبٌ لا يسقطُ أحدُهما بتركِ الآخَرِ علىٰ أصَحِّ قَوْلَي العلماءِ.

قالَ ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، يقولُ تعالىٰ: كيف يليقُ بكم يا معشرَ أهلِ الكتابِ وأنتم تأمرون النَّاسَ بالبِرِّ، وهو جِمَاعُ الخيرِ، أن تنسَوا أنفسَكم فلا تأتمرون بما تأمرون النَّاسَ به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتابَ وتعلمون ما فيه علىٰ مَن قَصَّرَ في أوامرِ الله؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسِكم؟ فتنبَّهوا من رقدتكم، وتبصَّروا من عَمايتكم.

والغرضُ أنَّ الله تعالىٰ ذَمَّهم علىٰ هذا الصنيعِ ونبَّههم علىٰ خطئهم في حقِّ أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المرادُ ذمَّهم علىٰ أمرِهم بالبِرِّ مع تركِهم له، بل علىٰ تركهم له، فإنَّ الأمرَ بالمعروفِ معروفٌ وهو واجبٌ علىٰ العالمِ، ولكنَّ الواجبَ والأولىٰ بالعالِم أن يفعلَه مع مَن أمرهم به ولا يتخلَّفَ عنهم، كما قالَ شعيبٌ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]، فكلٌّ من الأمرِ بالمعروفِ وفعلِهِ واجبٌ لا يسقطُ أحدهما بتركِ الآخَرِ علىٰ أصحِّ قَولَي العلماءِ من السَّلَفِ والخَلَفِ، وذهَبَ بعضُهم إلىٰ أنَّ مرتكبَ المعاصي لا ينهىٰ غيرَهُ عنها، وهذا ضعيفٌ، وأضعفُ منه تَمَسُّكُهم بهذه الآيةِ فإنه لا حُجَّةَ لَهُم فيها،

والصحيحُ أنَّ العالِمَ يأمرُ بالمعروف وإن لم يفعله، وينهىٰ عن المنكر وإن ارتكبه.

قال مالكٌ: عن ربيعةَ: سمعتُ سعيدَ بنَ جبيرٍ يقولُ: لو كَانَ المرءُ لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهىٰ عن المنكرِ حتَّىٰ لا يكونَ فيه شيءٌ، ما أمَرَ أحدٌ بمعروفٍ ولا نهىٰ عن منكرٍ، قال مالكٌ: وصَدَقَ، مَن ذا الذي ليس فيه شيءٌ؟!

قلتُ -أي: ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ-: لكنَّه والحالةُ هذه مذمومٌ علىٰ تَركِ الطاعةِ، وفعلِ المعصيةِ؛ لعلمِهِ بها ومخالفتِهِ علىٰ بصيرةٍ، فإنَّه ليس مَن يَعْلَمُ كَمَنْ لا يعلمُ»[(١)].

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وليسَ في الآيةِ أنَّ الإنسانَ إذا لم يَقُم بما أمَرَ به أنَّه يترك الأمرَ بالمعروفِ والنهيَ عن المنكرِ؛ لأنَّها دلَّت علىٰ التوبيخِ بالنسبةِ إلىٰ الواجبين، وإلا فِمن المعلومِ أنَّ علىٰ الإنسانِ واجبينِ: أمرُ غيره ونهيهُ، وأمرُ نفسِهِ ونهيُها، فتركُ أحدِهما لا يكونُ رخصةً في تركِ الآخَرِ، فإنَّ الكمالَ أن يقومَ الإنسانُ بالواجبين والنقصَ الكاملَ أن يتركَهُما، وأمَّا قيامُهُ بأحدِهما دون الآخرِ فليس في رتبةِ الأولِ وهو دونَ الأخيرِ، وأيضًا، فإنَّ النفوسَ مجبولةٌ علىٰ عدمِ الانقيادِ لمن يخالِفُ قولُهُ فعلَهُ، فاقتداؤهم بالأفعالِ أبلغُ من اقتدائِهم بالأقوالِ المجرَّدةِ»[(٢)].

٥- وَمَا رَوَىٰ أُسَامَةُ بنُ زَيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّه سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «**يُجَاءُ بالرَّجُلِ يَومَ القيَامَةِ، فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقتَابُهُ، فَيدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ**

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٨٥).

(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٣٤).

بِرَحَاهُ، فَتَجتَمِعُ أَهلُ النَّارِ عَلِيهِ، فَيقُولُونَ: يَا فُلانُ: مَا شأْنُكَ؟ أَلَستَ كُنتَ تَأمُرُ بالمعَرُوفِ، وتَنهَىٰ عَنِ المُنكَرِ؟ فَيقُولُ: كُنتُ آمُرُكُم بالمعرُوفِ ولا آتيهِ، وأنهَاكُم عَنِ الشَّرِّ وآتيهِ»[١]. رواه البخاري ومسلم.

وفي روايةٍ للبخاريِّ[٢] عن أُسَامَةَ ﵁، عَن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**يُجَاءُ بِرَجُلٍ فَيُطرَحُ فِي النَّارِ فَيَطْحَنُ فِيهَا كَمَا يَطْحَنُ الحِمَارُ بِرحَاهُ، فَيُطِيفُ بِهِ أَهلُ النَّارِ فَيقُولُونَ: أَي فُلانُ، أَلَستَ كُنتَ تأمُرُ بالمعَرُوفِ وتَنْهَىٰ عنِ المُنكَرِ؟ فَيَقُولُ: إنِّي كُنتُ آمُرُ بالمعَرُوفِ ولا أفعَلُهُ، وأنهَىٰ عنِ المنكَرِ وأفعَلُهُ**».

قال الحافظُ ﵀: «قولُهُ: **فَيَطحَنُ فِيهَا كَطَحْنِ الحِمَارِ**» في روايةِ الكُشْميهَنِي: «**كَمَا يُطْحَنُ الحمارُ**» كذا رأيتُ في نسخةٍ معتمدةٍ، «**فَيُطْحَنُ**» بضمِّ أَوَّلِهِ علىٰ البناءِ للمجهولِ، وفي أخرىٰ بفتحِ أولِهِ، وهو أَوجَهُ، ففي رواية سفيان وأبي معاوية «**فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ**» وفي روايةِ عاصمٍ: «**يَستَدِيرُ فِيهَا كَمَا يَستَديرُ الحِمَارُ**»، وكذا في رواية أبي معاوية.

والأقتابُ: جمعُ قتبٍ بكسرِ القافِ، وسكونِ المثنَّاةِ بعدها موحَّدةٌ هي الأمعاءُ، واندلاقُها: خروجُها بسرعةٍ، يُقال: اندلَقَ السيفُ من غِمدِهِ، إذا خرج من غيرِ أن يَسُلَّهُ أحدٌ.

قولُهُ: «**فَيُطيفُ بهِ أهلُ النَّارِ**»، أي: يجتمعون حوله، يقال: أطاف به القومُ إذا

(١) رواه البخاري (٣٠٩٤)، ومسلم (٢٩٨٩).

(٢) برقم (٦٦٨٥).

حَلَّقوا حولَه حلقةً، وإن لم يدوروا، وطافوا إذا داروا حوله، وبهذا التقديرِ يظهرُ خطأُ من قال: إنهما بمعنًىٰ واحدٍ»[1].

وقال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٣): «يُجَاءُ بالرَّجُلِ»؛ أي: الذي يُخَالِفُ علمُهُ عملَه، الاندلاقُ: خروجُ الشيءِ من مكانِه بسرعةٍ، والأقتَابُ -جمعُ قتبٍ بكسرِ القافِ-: الأمعاءُ، «**كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ بِرحَاهُ**»؛ أي: الطاحونُ.

فانظر يا أخي إلىٰ حالِ مَن قال ولم يفعل كيف تَنصَبُّ مصارينُهُ من جوفِهِ، وتخرجُ من دُبُرِه، ويدورُ بها دوران الحمارِ بالطاحونِ، والنَّاسُ تنظرُ إليه وتتعجَّبُ من هيئتِهِ، نسألُ الله السلامةَ».

٦- وعَن زَيدِ بن أَرقَم ﷺ أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إنِّي أعوذُ بِكَ مِن عِلمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِن قَلبٍ لا يَخشَعُ، وَمِن نَفسٍ لا تَشبَعُ، وَمِن دَعوَةٍ لا يُستَجَابُ لَهَا**» رواه مسلم (٢٧٢٢).

٧- وعَن أَبي بَرزَةَ الأسلَمِيِّ ﷺ قالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ: «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبدٍ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسْأَلَ عَن عُمُرِهِ فِيمَ أفنَاهُ؟ وَعَن عِلمِهِ فِيمَ عَمِلَ فيهِ؟ وعَن مَالِهِ مِن أَينَ اكتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أنفَقَهُ؟ وَعَن جِسمِهِ فِيمَ أبلاهُ؟**» رواه الترمذي (٢٤١٧)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ، وصحَّحه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٩٠).

تزولُ قدما عبدٍ، أي: من موقفه للحسابِ إلىٰ الْجَنَّةِ أو النَّار.

٨- وعن عَبدِ الله بن مَسعُودٍ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قَالَ: «**لا تَزُولُ قَدَمُ ابن آدَمَ يَومَ**

(١) «فتح الباري» (١٣/ ٥٦).

القِيَامَةِ مِن عِندِ رَبِّه حَتَّىٰ يُسأَلَ عَن خمسٍ: عَن عُمُرِهِ فِيمَ أفناهُ؟ وَعَن شَبَابِهِ فيمَ أبلاهُ؟ ومَالِهِ مِن أَينَ اكتَسَبَهُ؟ وَفِيمَ أنفقَهُ؟ ومَاذا عَمِلَ فِيمَا عَلِمَ» رواه الترمذي (٢٤١٦)، وحسَّنه الألبانيُّ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٢٨٩)، وانظر «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم (٩٤٦).

٩- وعن جُندُبِ بن عَبدِ الله الأزديِّ ﵁، صَاحِبِ النَّبِيِّ ﷺ، عن رَسُولِ الله ﷺ قَالَ: «**مَثَلُ الَّذي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيرَ وَينْسَىٰ نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ، يُضيءُ للنَّاسِ ويَحرِقُ نَفسَهُ**» رواه الطبراني في «الكبير» (١٦٨١)، وقال الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٨٥): «رجاله موثقون»، وقال المنذريُّ في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٤٨): «إسنادُهُ حسنٌ إن شاء الله». وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٦).

١٠- وعَن أَبي بَرزَةَ ﵁ قَالَ: قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيرَ وَينسَىٰ نَفسَهُ، مَثَلُ الفَتيلَةِ، تُضيءُ عَلَىٰ النَّاسِ، وتَحرِقُ نَفسَهَا**» رواه البزار، كذا قال المنذريُّ رَحِمَهُ اللهُ في «الترغيب والترهيب» (١/ ١٤٧)، وقال الألباني: «ولم ينسبه الهيثميُّ ثم السيوطيُّ إلا للطبراني في «الكبير» وضَعفُهُ ينجبرُ بالذي قبله» كذا قال الألبانيُّ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٦).

الفتيلَةُ: الذُّبَالَةُ التي تُغمَسُ في الزيتِ لتضيءَ.

١١- وعَن أَنَسٍ ﵁ قَالَ: قالَ رسُولُ الله ﷺ: «**مَرَرْتُ لَيلَةَ أُسرِيَ بِي بِأقوَامٍ تُقْرَضُ شِفَاهُهم بِمقَارِيضَ مِن نَارٍ، قُلتُ: مَن هؤلاءِ يَا جِبريلُ؟ قَالَ: خُطَبَاءُ أُمَّتِكَ الَّذينَ يَقُولُونَ مَا لا يَفعَلُونَ**» قال الألباني: هذا الحديثُ أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٥-موارد الظمآن) وابن أبي الدنيا، والبيهقي، وأحمد (٣/ ١٢٠، ٢٣١، ٢٣٩).

وصحَّحه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٣).

١٢- وفي حديثِ المنامِ الطويلِ الذي رواه سَمُرَةُ بنُ جُندُبٍ ﷺ قالَ: كَانَ رَسُولُ الله ﷺ مِمَّا يُكثِرُ أَن يَقُولَ لأصحَابِهِ: «**هَل رَأىٰ أَحَدٌ مِنكُم رؤيَا؟**»، قالَ: فَيَقُصُّ عَلَيهِ مَن شَاءَ الله أَن يَقُصَّ، وإنَّه قالَ ذاتَ غَدَاةٍ: «**إِنَّهُ أَتَانِي اللَّيلَةَ آتيَانِ، وَإِنَّهُمَا ابتَعَثَانِي، وَإِنَّهُمَا قالا لِي: انطَلِقْ، وَإِنِّي انطَلَقْتُ مَعَهُمَا، وَإِنَّا أتينا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضطَجِعٍ، وإذَا آخرُ قَائمٌ عَلَيهِ بصخرَةٍ، وَإِذَا هُوَ يَهوي بالصَّخرَةِ لِرَأسِهِ فَيثْلَغُ رَأسَهُ، فَيَتَدَهدَهُ الحجَرُ هَاهُنَا، فَيَتْبَعُ الحَجَرَ فَيَأخُذُهُ، فَلا يَرجِعُ إِلَيهِ حَتَّىٰ يَصِحَّ رَأسُهُ كَمَا كَانَ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيهِ فَيَفْعَلُ بِهِ مِثلمَا فَعَلَ بِهِ مَرَّةَ الأُولَىٰ، قَالَ: قُلتُ لَهُمَا: سُبْحَانَ الله مَا هَذَانِ؟ قَالا لِي: انطَلِق، انطَلِق...**

قَالَ: **قَالا لِي: أَمَا إِنَّا سَنُخبِرُكَ؛ أَمَّا الرَّجُلُ الأَوَّلُ الَّذِي أَتَيتَ عَلَيهِ يُثلَغُ رَأسُهُ بالحَجَرِ، فَإِنَّهُ الرَّجُلُ يَأخُذُ القُرآنَ فَيرفُضُهُ، ويَنَامُ عَنِ الصَّلاةِ المكتُوبَةِ...**»[١]، متفقٌ عليه، واللفظُ للبخاري، وهو عند مسلمٍ مختصرًا.

قال الحافظ: «قولُهُ: «**آتيَانِ**»: في آخرِ الحديثِ أنهما جبريلُ وميكائيلُ.

قولُهُ: «**وَإِنَّهُمَا ابتَعَثَانِي**»: أرسلاني، كذا قال في «الصحاح»: بعثه وابتعثه: أرسله، يقال: ابتعثه إذا أثاره وأذهبه، وقال ابنُ هبيرةَ: معنىٰ ابتعثاني: أيقظاني، ويحتمل أن يكون رأىٰ في المنامِ أنهما أيقظاه فرأىٰ ما رأىٰ في المنامِ، ووصفه بعد أن أفاقَ علىٰ أن منامه كاليقظةِ، لكن لما رأىٰ مثالًا كشفه التعبيرُ دلَّ علىٰ أنَّه كان منامًا.

(١) رواه البخاري (٦٦٤٠)، ومسلم (٢٢٧٥).

قولُهُ: «**وَإِنَّا أَتَينا عَلَىٰ رَجُلٍ مُضطَجِعٍ**» في روايةِ جريرٍ: «**مُستَلقٍ علَىٰ قَفَاهُ**».

قولُهُ: «**يَهوِي**»: يسقُط.

«**وَيَثْلَغُ رأسَهُ**»: يَشْدُخُهُ، والشَّدْخُ: كسر الشيءِ الأجوفِ.

«**فَيَتَدَهْدَهُ**»: يتدحرجُ.

«**هَاهُنَا**»: أي: إلىٰ جهةِ الضاربِ.

«**فَيَتْبَعُ**»: أي الرجلُ القائمُ.

«**فَلا يَرجِعُ إلَيه**»: أي إلىٰ الذي شُدِخَ رأسُهُ.

قولُهُ: «**فَيَرفُضُهُ**»: يتركهُ، قال ابنُ هبيرةَ: رَفضُ القرآنِ بعد حفظهِ جنايةٌ عظيمةٌ لأنَّه يُوهم أنَّه رأىٰ فيه ما يُوجب رفضه، فلمَّا رَفَضَ أشرفَ الأشياءِ وهو القرآنُ، عُوقب في أشرفِ أعضائِهِ وهو الرأسُ.

قولُهُ: «**وَينَامُ عن الصَّلاةِ المكتُوبَةِ**»: هذا أوضحُ من روايةِ جرير بن حازمٍ بلفظ: «**عَلَّمَهُ الله القُرآنَ فَنَامَ عنهُ باللَّيلِ ولم يَعمل فيه بالنَّهارِ**»، فإنَّ ظاهره أنَّه يُعَذَّبُ علىٰ تَركِ القرآنِ بالليلِ، بخلافِ روايةِ عوفٍ فإنَّه علىٰ تركهِ الصلاة المكتوبة، ويُحتمل أن يكون التعذيبُ علىٰ مجموعِ الأمرين: تركِ القراءةِ، وتركِ العملِ»[1].

١٣- وعن لُقمَانَ بن عامرٍ قالَ: كَانَ أَبُو الدَّردَاءِ ﷺ يقولُ: «إنَّمَا أخشَىٰ مِن

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٤٥٧).

رَبِّي يَومَ القِيَامَةِ أَن يَدعُونِي عَلَىٰ رُءُوسِ الخَلائِقِ، فَيقُولَ لِي: يَا عُوَيْمِرُ، فَأَقُولُ: لَبَّيكَ رَبِّ، فَيَقُولُ: مَا عَمِلتَ فِيمَا عَلِمتَ؟» قال المنذري: «رواه البيهقيُّ». وصحَّحه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٥٥)، ورواه ابن عبد البر في الجامع (٢/ ٢، ٣) والدارمي (١/ ٩٤) ولفظُهُ فيه: قال أبو الدرداء: «مَا أَخَافُ عَلَىٰ نَفسِي أَن يُقَالَ لِي: مَا عَلِمتَ؟ ولَكِن أَخَافُ أَن يُقَالَ لِي: مَاذا عَمِلتَ؟».

قلتُ: ما مرَّ من آياتِ الكتابِ العزيزِ الصريحةِ، وسنَّةِ النبيِّ ﷺ الصحيحةِ، قاضٍ بصدقِ القاعدةِ التي ذكرتُ قبلَ سَوقِ الأدلَّةِ، وهي: أنَّه كلَّما كانت الرتبةُ في العلمِ عاليةً، كانت المؤاخذةُ علىٰ فقدانِ العملِ شديدةً وصارمةً.

لذلك كان العملُ بالعلمِ أمرًا لازمًا لكلِّ مَن عَلِمَ، حتىٰ يخرجَ من دائرةِ الوعيدِ لمن عَلِمَ ولم يعمل، وتأتي الوصيةُ بذلك من الأئمةِ رضي الله عنهم كي تحثَّ علىٰ بَذلِ المجهودِ، واستفراغِ الوُسعِ في العملِ علىٰ مقتضىٰ العلمِ الذي مَنَّ الله به وأعطاه.

قال الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثمَّ إنِّي موصيك يا طالبَ العلمِ بإخلاصِ النيةِ في طَلَبِهِ، وإجهادِ النَّفسِ علىٰ العملِ بموجبِهِ، فإنَّ العلمَ شجرةٌ، والعَمَلَ ثمرةٌ، وليسَ يُعَدُّ عالِمًا مَن لم يكن بعلمِهِ عاملًا.

وقيل: العلمُ والدٌ، والعملُ مولودٌ، والعلمُ مع العملِ، والروايةُ مع الدرايةِ، فلا تَأنَس بالعملِ ما دُمتَ مستوحِشًا من العلمِ، ولا تأنَس بالعلمِ ما كنتَ مُقصِّرًا في العملِ، ولكن اجمعْ بينهما، وإن قلَّ نصيبُك منهما.

وما شيءٌ أضعَفَ من عالمٍ تَرَكَ النَّاسُ علمَهُ لفَسَادِ طريقتِهِ وجاهلٍ أَخَذَ النَّاسُ بجهلِهِ لنظرِهم إلىٰ عبادتِهِ.

والقليلُ من هذا مع القليلِ من هذا أنجىٰ في العاقبةِ، إذا تفضَّلَ الله بالرحمةِ، وتَمَّمَ علىٰ عبدِهِ النِّعمة، فأمَّا المدافعةُ والإهمالُ، وحُبُّ الهوينىٰ، والاسترسالُ، وإيثارُ الخَفضِ والدَّعَةِ، والميلُ مع الراحةِ والسَّعَةِ، فإنَّ خواتمَ هذه الخِصَالِ ذميمةٌ وعُقباها كريهةٌ وخيمةٌ.

والعلمُ يُرادُ للعمل كما العملُ يرادُ للنجاةِ، فإذا كان العملُ قاصرًا عن العلمِ كان العلمُ كَلًّا علىٰ العالِمِ، ونعوذُ بالله من علمٍ عادَ كَلًّا، وأَورَثَ ذُلًّا، وصار في رقبةِ صاحبِهِ غُلًّا.

قال بعضُ الحكماءِ: العلمُ خادمُ العملِ، والعملُ غايةُ العلم، فلولا العملُ لم يُطلَب علمٌ، ولولا العلمُ لم يُطلَب عملٌ، ولأن أَدَعَ الحَقَّ جَهلًا به، أَحَبُّ إليَّ من أن أَدَعَهُ زُهدًا فيه.

قال الشيخُ: وهل أدرَكَ مَن أدركَ من السَّلَفِ الماضين الدَّرَجَاتِ العُلَا إلا بإخلاصِ المعتَقَدِ، والعملِ الصالحِ، والزُّهدِ الغالبِ في كلِّ ما راق من الدنيا؟

وهل وصل الحكماءُ إلىٰ السعادةِ العظمىٰ إلا بالتَّشميرِ في السعي والرضا بالميسورِ وبَذلِ ما فَضَلَ عن الحاجةِ للسائلِ والمحرومِ؟

وهل جَامِعُ كُتُب العلمِ إلا كجامعِ الفِضَّة والذَّهَبِ؟ وهل المنهومُ بها إلا كالحريصِ الجَشعِ عليهما؟ وهل المُغرَمُ بحبِّهَا إلا ككانِزِهما؟

وكما لا تنفعُ الأموالُ إلا بإنفاقِها، كذلك لا تنفعُ العلوم إلا لمن عَمِلَ بها وراعَىٰ واجباتِها، فلينظر امرؤٌ لنفسِهِ، وليغتنِم وقتَه فإنَّ الثَّواءَ قليلٌ، والرحيلَ

قريبٌ، والطريقَ مخوفٌ، والاغترارَ غالِبٌ، والخَطَرَ عظيمٌ، والنَّاقِدَ بصيرٌ، والله تعالىٰ بالمرصَادِ، وإليه المرجعُ والمعادُ، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨][(١)].

فالمُعَوَّلُ علىٰ العملِ، وإنما هو المرادُ من العلمِ، وهل يُرَادُ من العلمِ إلا العملُ به؟

قال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «صيد الخاطر» (ص٣٧)**: «تأمَّلتُ المرادَ من الخلقِ؛ فإذا هو الذُّلُّ واعتقادُ التقصيرِ والعجزِ.

ومَثَّلتُ العلماءَ والزُّهَّادَ العاملين صِنْفَين: فأقمتُ في صَفِّ العلماءِ: مالكًا وسفيانَ وأبا حنيفةَ والشافعيَّ وأحمدَ، وفي صَفِّ العُبَّادِ مالكَ بن دينارٍ، ورابعةَ، ومعروفًا الكَرخِيَّ، وبشرَ بنَ الحارثِ.

فكلَّما جَدَّ العُبَّادُ في العبادةِ، وصاحَ بهم لسانُ الحالِ: عبادتُكم لا يتعداكم نفعُها وإنَّما يتعدىٰ نفعُ العلماءِ، وهم ورَثَةُ الأنبياءِ، وخُلَفَاءُ الله في الأرضِ[(٢)]، وهم الذين عليهم المعَوَّلُ، ولَهُم الفَضلُ إذا أطرقوا وانكسروا وعلموا صِدقَ تلك الحالِ، وجاء مالكُ بن دينارٍ إلىٰ الْحَسَنِ يتعلَّم منه، ويقول: الْحَسنُ أستاذُنا.

وإذا رأىٰ العلماءُ أنَّ لهم بالعلمِ فضلًا، صاحَ لسانُ الحالِ بالعلماءِ: وهل

(١) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي (ص١٤).

(٢) ليس الإنسانُ خليفةً للهِ في الأرض، والخليفةُ يخلُفُ عن غائبٍ، والنبيﷺ يقول: «**اللهم أنت الصاحبُ في السفر، والخليفةُ في الأهل والمال**».

المرادُ من العلمِ إلا العملُ؟ وقال أحمدُ بن حنبلٍ: وهل يرادُ بالعلمِ إلا ما وَصَلَ إليه معروفٌ؟

وصحَّ عن سفيانَ الثوريِّ أنَّه قال: «وَدِدتُ أنَّ يدي قُطعت ولم أكتبِ الْحَديثَ»[(١)].

وقالت أمُّ الدرداء لرجلٍ: هل عملتَ بما علمتَ؟ قال: لا، قالت: فَلِمَ تستكثرُ من حُجَجِ الله عليك؟!

وقال أبو الدرداء: ويلٌ لَمن لم يعلم ولم يعمل مَرَّةً، وويلٌ لمن عَلِمَ ولم يعمل سبعين مرَّة.

وقال الفضيلُ: يُغفَرُ للجاهلِ سبعونَ ذنبًا، قبل أن يُغفرَ للعالِمِ ذنبٌ واحدٌ.

فما يبلغ من الكلِّ قولُهُ تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

وجاء سفيانُ إلىٰ رَابِعَةَ[(٢)] فجلس بين يديها ينتفعُ بكلامِها، فدلَّ العلماءَ العلمُ علىٰ أنَّ المقصودَ منه العملُ به، وأنَّه آلةٌ فانكسروا واعترفوا بالتقصيرِ.

فَحَصَلَ الكلُّ علىٰ الاعترافِ والذُّلِّ، فاستخرَجَتِ المعرفةُ منهم حقيقةَ العبودية باعترافهم، فذلك هو المقصودُ من التكليفِ» اهـ.

قلتُ: وعَلاقةُ العلمِ بالعملِ كعَلاقَةِ الروحِ بالجسدِ، عَلاقَةٌ شفيفةٌ لا تَحُدُّهَا

(١) يقولُهُ خشيةَ طلبِ الشهرةِ به والعلوِّ، وإلَّا فعلم الحديثِ من أشرفِ العلوم.

(٢) ترجمتها في: «وفيات الأعيان» (٣/ ٢١٥)، و«سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٤١)، وخبر سفيان في «سير أعلام النبلاء» (٨/ ٢٤١-٢٤٣).

معالمُ ظاهرةٌ تدركُهَا الحواسُّ ويَقنَعُ بها الحسُّ، اللَّهمَّ إلا في ثمرتها، فإنَّ العلمَ إن عُمِلَ به زَكَا وأثمرَ، والعمل إذا كان على مقتضى العلمِ كان مباركًا ذا أثرٍ.

ومن فاتَهُ العلمُ كان تائهًا في ظلماتِ حَيرَةٍ لا مَخلَصَ منها، ومن حَصَلَ له العلمُ ولم يحصل له العملُ كان أشدَّ حيرةً وأَمعَنَ في ظلماتِ ليلٍ لا صُبحَ له ولا مَعدَىٰ عنه.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكلُّ مَن فاتَهُ العلمُ تَخبَّطَ، فإن حَصَلَ له، وفَاتَهُ العملُ به كان أَشَدَّ تَخَبُّطًا»(١).

ولا نجاةَ من هذا كلِّه -بفضل الله ورحمتِهِ- إلا بإحكامِ العملِ على مقتضى العلمِ، وإحكامِ العلمِ على نَهجِ الوحيين الشريفين: الكتابِ والسُّنَّةِ.

وقد كان السَّلَفُ رضي الله عنهم يوصُونَ طَلَبَةَ الحديثِ بالتميُّزِ في أمورِهم كلِّها؛ باستعمالِ آثارِ النبيِّ ﷺ، وكانوا يستعينون على حفظِ الحديثِ بالعملِ به.

قال الخطيبُ رَحِمَهُ اللَّهُ **في الجامع (١/ ١٤٢)**: «ينبغي لطالبِ الحديثِ أن يتميَّزَ في عامَّةِ أمورِهِ عن طرائقِ القومِ؛ باستعمالِ آثارِ النبيِّ ﷺ ما أمكنه، وتوظيفِ السُّنَنِ على نفسِهِ، فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿**لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**﴾ [الأحزاب:٢١]».

عن أبي أيوبَ سليمانَ بن إسحاقَ الجَلابِ: قال: قال لي إبراهيمُ الحَربيُّ: ينبغي للرجلِ إذا سَمِعَ شيئًا من آدابِ النبيِّ ﷺ أن يتمسَّكَ به.

(١) «تلبيس إبليس» لابن الجوزي (ص٢٧٤).

وعن الحسَنِ قال: كان الرجلُ يطلبُ العلمَ، فلا يَلبَثُ أن يُرىٰ ذلك في تَخَشُّعِهِ وهَديِهِ ولسانِهِ وبصرِهِ ويدِهِ.

وعن ابن عُيَينَةَ قالَ: كان الشابُّ إذا وَقَعَ في الحديثِ احتَسَبَهُ أَهلُهُ.

قال أبو بكر -هو الخطيبُ البغداديُّ رَحِمَهُ اللهُ-: يعني أنَّه كان يجتهد في العبادةِ اجتهادًا يقتطعُهُ عن أهلِهِ، فيحتسبونه عند ذلك.

وعن أبي عصمةَ عاصمِ بن عصامٍ البيهقي قال: بِتُّ ليلةً عند أحمد بن حنبلٍ، فجاءَ بالماءِ فوضعَهُ، فلمَّا أصبحَ نَظَرَ إلىٰ الماء فإذا هو كما كان، فقال: سبحان الله! رجلٌ يطلبُ العلمَ لا يكون له وِردٌ من الليلِ؟!

وعن أبي عمرو بن حمدان قال: سمعتُ أبي يقول: كنتُ في مجلسِ أبي عبد الله المروزيِّ، فحضرت صلاةُ الظهرِ، فَأَذَّنَ أبو عبد الله، فخرجتُ من المسجدِ، فقال: يا أبا جعفرٍ إلىٰ أين؟! قلتُ: أتطهَّرُ للصلاةِ، قال: كان ظنيِّ بك غيرَ هذا، يدخلُ عليك وقتُ الصلاةِ وأنت علىٰ غير طهارةٍ؟!

وعن قاسم بن إسماعيل بن عليٍّ قال: كنَّا ببابِ بشرِ بن الحارثِ، فخرج إلينا، فقلنا: يا أبا نصرٍ حَدِّثنا، فقالَ: أَتُؤَدُّونَ زكاةَ الحديثِ؟ قال: قلتُ له: يا أبا نصرٍ، وللحديثِ زكاةٌ؟! قال: نعم، إذا سمعتم الحديثَ، فما كان في ذلك من عملٍ أو صلاةٍ أو تسبيحٍ استعملتموه.

وعن المروزي قال: قال لي أحمدُ: ما كتبتُ حديثًا عن النبيِّ ﷺ إلا وقد عَمِلتُ به، حتىٰ مرَّ بي الحديثُ أنَّ النبي ﷺ احتجمَ وأعطىٰ أبا طَيبَةَ دينارًا،

فأعطيتُ الحجَّامَ دينارًا حين احتجَمتُ».

وهذا الذي قال الإمامُ أحمدُ وشَرَحَ، وبيَّن وصَنَعَ، هو الفهمُ المستقيمُ لروحِ الدينِ وجوهرِ الشريعةِ؛ لأنَّ الشّرعَ إنما طَلَبَ تَعَلُّمَ العلمِ وحضَّ عليه لأجل كونه وسيلةً للتعبُّدِ به لله تعالىٰ.

قال الشاطبيُّ -رحمه الله تعالىٰ-: «كلُّ علمٍ شرعيٍّ فَطَلَبُ الشارعِ له إنَّما يكون من حيث هو وسيلةٌ إلىٰ التعبُّدِ به لله تعالىٰ، لا من جهةٍ أخرىٰ، فإن ظَهرَ فيه اعتبارُ جهةٍ أخرىٰ، فبالتَّبَعِ والقصدِ الثاني، لا بالقصدِ الأول، والدليلُ علىٰ ذلك أمورٌ:

أحدُها: أنَّ كلَّ علمٍ لا يفيدُ عملًا؛ فليس في الشرعِ ما يدلُّ علىٰ استحسانِهِ، ولو كان له غايةٌ أخرىٰ شرعيةٌ؛ لكان مُستَحسنًا شرعًا، ولو كان مُستَحسَنًا شرعًا، لبَحَثَ عنه الأوَّلون من الصحابةِ والتابعين، وذلك غير موجودٍ، فما يلزم عنه كذلك(١).

والثاني: أنَّ الشرعَ إنَّما جاءَ بالتعبُّدِ، وهو المقصودُ من بَعثَةِ الأنبياءِ عليهم السلام؛ كقولِهِ تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ﴾ [النساء:١].

---

(١) لا يريدُ الشيخُ -إن شاء الله- ما استحدثه النَّاسُ من علومٍ تقتضيها حالُ العصرِ، كعلمِ الكيمياءِ والهندسةِ ومباحث الطبِّ، والحرارة والكهرباء وغيرها، فهذه داخلةٌ في المقاصد العامة للشريعةِ، وإنما يريد الشيخُ ما استحدثه الناسُ بعد الأوَّلين من علم الفلسفةِ النظريةِ المحضةِ، وعلم الكلامِ، ومباحث التصوفِ، وعلم الفلك من حيث التأثير لا من حيث التسيير والنظر في ملكوت السموات، وعليه فلا يصحُّ الاعتراضُ علىٰ الشيخِ هنا؛ لأنَّه تكلَّم علىٰ حسب معطيات عصره، ويجب أن نفهم كلامه في إطار زمانه، والله الموفق والهادي إلىٰ سواء السبيل.

وقوله تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [هود:١-٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١].

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]؛ أي: يُسوون به غيره في العبادةِ؛ فذمَّهم علىٰ ذلك.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ [المائدة:٤٩].

وقوله تعالىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الكهف:٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ﴾ [الزمر:٢-٣].

وما أشبه ذلك من الآياتِ التي لا تكادُ تُحصىٰ، كلُّها دالٌّ علىٰ أنَّ المقصودَ التعبُّدُ لله، وإنما أُتوا بأدلَّةِ التوحيدِ ليتوجَّهوا إلىٰ المعبودِ بحقٍّ وحده، سبحانه لا شريكَ له، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد:١٩].

وقال: ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [هود:١٤].

وقال: ﴿هُوَ ٱلۡحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدۡعُوهُ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [غافر:٦٥].

ومثلُهُ سائرُ المواضعِ التي نصَّ فيها علىٰ كلمةِ التوحيدِ، لابُدَّ أن أُعقبت بطلبِ التعبُّدِ لله وحده، أو جُعِلَ مقدِّمَةً لَهَا، بل أَدلَّةُ التوحيد هكذا جرىٰ مساقُ القرآنِ فيها: ألَّا تُذكَرَ إلا كذلك؛ وهو واضحٌ في أنَّ التعبُّدَ لله هو المقصودُ من العلمِ، والآياتُ في هذا المعنىٰ لا تُحصىٰ.

والثالثُ: ما جاءَ من الأدلَّةِ الدالَّةِ علىٰ أنَّ روحَ العلمِ هو العملُ، وإلا فالعلمُ عاريةٌ وغيرُ منتفعٍ به؛ فقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلۡمٖ لِّمَا عَلَّمۡنَٰهُ﴾ [يوسف:٦٨].

قال قتادةُ: يعني لذو عملٍ بما علَّمناه.

وقال تعالىٰ: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر:٩].

وقالَ تعالىٰ: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [البقرة:٤٤].

ورُوي عن أبي جعفرٍ محمد بن عليٍّ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَكُبۡكِبُواْ فِيهَا هُمۡ وَٱلۡغَاوُۥنَ﴾ [الشعراء:٩٤]. قال: قومٌ وصفوا الحق والعدل بألسنتهم، وخالفوه إلىٰ غيره.

وقال سفيانُ الثوريُّ: إنَّما يُتعَلَّمُ العلمُ لِيُتَّقَىٰ به الله، وإنَّما فُضِّلَ العلمُ علىٰ

غيرهِ، لأنَّه يُتَّقَىٰ الله به.

وعن النبيِّ ﷺ؛ أنه قالَ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا العَبدِ يومَ القِيَامَةِ حَتَّىٰ يُسأَلَ عَن خَمسٍ خِصَالٍ**»، وذكر فيها: «**وَعَن عِلمِهِ مَاذَا عَمِلَ فِيه؟**»(١).

وعن أبي الدرداء: «إنَّما أخافُ أن يُقالَ لي يوم القيامةِ: أعَلِمتَ أم جهلت؟ فأقول: علمتُ فلا تبقىٰ آيةٌ من كتابِ الله آمرةٌ أو زاجرةٌ إلا جاءتني تسألني فريضتَها، فتسألني الآمرةُ: هل ائتمرت؟ والزاجرةُ: هل ازدجرت؟ فأعوذ بالله من علمٍ لا ينفعُ، ومن قلبٍ لا يخشعُ، ومن نفسٍ لا تشبعُ، ومن دعاءٍ لا يُسمَعُ».

وحديث أبي هريرة في الثلاثةِ الذين هم أوَّلُ مَن تُسَعَّرُ بهمُ النَّارُ يومَ القِيَامَةِ: قال فيه: «**وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلمَ وعَلَّمَهُ، وقَرَأَ القُرآنَ، فَأُتِيَ بِه، فَعَرَّفَهُ نِعمَهُ فَعَرفَهَا، فقالَ: مَا عَمِلتَ فيهَا؟ قالَ: تَعَلَّمتُ فِيكَ العِلْمَ وعَلَّمتُهُ، وَقَرأتُ القُرآنَ، قالَ: كَذَبتَ، ولَكِن لِيُقَالَ: فُلانٌ قَارِئٌ، فَقَد قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجهِهِ حَتَّىٰ أُلقِيَ فِي النَّارِ**».

وقال الحكماءُ: من حَجَبَ الله عنه العلمَ، عَذَّبَهُ به علىٰ الجهلِ، وأشدُّ منه عذابًا مَن أقبل عليه العلمُ فأدبر عنه، ومن أهدىٰ الله إليه علمًا فلم يعمل به.

وقال مُعاذُ بن جبلٍ: اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجُرَكم الله بعلمِهِ حتىٰ تعملوا.

وكان رجلٌ يسألَ أبا الدرداء، فقال له: كلُّ ما تسأل عنه تعمل به؟ قال: لا،

(١) تقدم تخريجه (ص٥٨١).

قال: فما تصنع بازديادِ حُجَّةِ الله عليك؟!

وقال الحسنُ: اعتبروا النَّاسَ بأعمالهم، ودَعُوا أقوالَهم، فإنَّ الله لم يدَع قولًا إلا جَعَلَ عليه دليلًا من عملٍ يصدِّقُهُ أو يكذِّبُهُ، فإذا سمعتَ قولًا حَسنًا فَرُوَيدًا بصاحبِهِ، فإن وافَقَ قوله عمله، فنعم ونَعْمَةُ عَينٍ.

وقال ابنُ مسعودٍ: إنَّ النَّاسَ أحسنوا القولَ كلُّهم، فَمن وافَقَ فعلُه قولَه؛ فذلك الذي أصابَ حظَّه، ومَن خَالَفَ فعلُه قولَه؛ فإنَّما يُوَبِّخُ نفسَهُ.

وقال الثوريُّ: إنَّما يُطلبُ الحديثُ ليُتَّقَىٰ به الله ﷻ ، فلذلك فُضِّلَ علىٰ غيرهِ من العلومِ، ولولا ذلك كان كسائرِ الأشياءِ.

وذكر مالكٌ أنَّه بَلَغَهُ عن القاسمِ بن محمدٍ، قال: أدركتُ النَّاسَ وما يُعجبهم القولُ، إنَّما يُعجبهم العملُ.

والأدلَّةُ علىٰ هذا المعنىٰ أكثرُ من أن تُحصىٰ، وكلُّ ذلك يُحَقِّقُ أنَّ العلمَ وسيلةٌ من الوسائلِ، ليس مقصودًا لنفسهِ من حيث النظرُ الشرعيُّ، وإنَّما هو وسيلةٌ إلىٰ العملِ، وكلُّ ما وَرَدَ في فضلِ العلمِ فإنَّما هو ثابتٌ للعلمِ من جهةِ ما هو مكلَّفٌ بالعملِ به.

فلا يُقالُ: إنَّ العلمَ قد ثَبتَ في الشريعةِ فضلُهُ، وإنَّ منازلَ العلماءِ فوقَ منازل الشهداءِ، وإنَّ العلماءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ، وإنَّ مرتبةَ العلماءِ تَلي مرتبةَ الأنبياءِ، وإن كان كذلك، وكان الدليلُ الدالُّ علىٰ فضلهِ مطلقًا لا مقيَّدًا؛ فكيف يُنكَرُ أنَّه فضيلةٌ مقصودةٌ لا وسيلةٌ؟ هذا وإن كان وسيلةً من وجهٍ؛ فهو مقصودٌ لنفسهِ أيضًا،

كالإيمانِ؛ فإنَّه شرطٌ في صحَّةِ العباداتِ ووسيلةٌ إلىٰ قَبولها، ومع ذلك؛ فهو مقصودٌ لنفسهِ.

لأنَّا نقولُ: لم يثبت فضلُهُ مطلقًا بل من حيث التوسُّلُ به إلىٰ العملِ، بدليلِ ما تقدَّم ذكرهُ آنفًا، وإلا تعارضت الأدلَّةُ، وتناقضت الآياتُ والأخبارُ، وأقوالُ السلفِ الأخيارِ، فلابُدَّ من الجمعِ بينهما، وما ذُكر آنفًا شرحٌ لما ذُكر في فَضلِ العلمِ والعلماءِ، وأمَّا الإيمانُ؛ فإنه عملٌ من أعمالِ القلوبِ، وهو التصديقُ، وهو ناشئٌ عن العلمِ، والأعمالُ قد يكون بعضُها وسيلةً إلىٰ بعضٍ، وإن صَحَّ أن تكونَ مقصودةً في أنفسِها، أما العلمُ فإنَّه وسيلةٌ، وأعلىٰ ذلك العلمُ بالله، ولا تصحُّ به فضيلةٌ لصاحبِهِ حتىٰ يصدِّقَ بمقتضاه، وهو الإيمانُ بالله.

فإن قيل: هذا متناقضٌ؛ فإنَّه لا يصحُّ العلمُ بالله مع التكذيب به.

قيل: بل قد يحصل العلمُ مع التكذيبِ، فإنَّ الله قال في قومٍ: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل:١٤].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٤٦].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٢٠].

فأثبت لهم المعرفةَ بالنبيِّ ﷺ ثم بيَّن أنهم لا يؤمنون، وذلك ممَّا يوضِّح أنَّ الإيمانَ غيرُ العلمِ، كما أنَّ الجهلَ مغايرٌ للكفرِ.

نعم، قد يكون العلمُ فضيلةً، وإن لم يقع العملُ به علىٰ الجملةِ، كالعلمِ بفروعِ الشريعةِ والعَوارضِ الطارئةِ علىٰ التكليفِ، إذا فُرِضَ أنَّها لم تقع في الخارجِ، فإنَّ العلمَ بها حَسَنٌ، وصاحبُ العلمِ مُثَابٌ عليه وبالغٌ مبالغَ العلماءِ، لكن من جهةِ ما هو مَظِنَّةُ الانتفاعِ عند وجودِ مَحَلِّهِ، ولم يخرجه ذلك عن كونِهِ وسيلةً، كما أنَّ في تحصيلِ الطهارةِ للصلاةِ فضيلةً، وإن لم يأتِ وقتُ الصلاةِ بعدُ، أو جاء ولم يمكنه أداؤُها لِعُذرٍ، فلو فُرِضَ أن تَطَهَّرَ علىٰ عزيمةِ ألا يُصَلِّي؛ لم يصحَّ له ثوابُ الطهارةِ، فكذلك إذا عَلِمَ علىٰ ألا يعمَلَ؛ لم ينفعه علمُهُ، وقد وجدنا وسمعنا أنَّ كثيرًا من اليهود والنصارىٰ يعرفونَ دينَ الإسلامِ، ويعلمونَ كثيرًا من أصولِهِ وفروعِهِ، ولم يكن ذلك نافعًا لهم مع البقاء علىٰ الكفر باتفاقِ أهلِ الإسلامِ.

فالحاصلُ: أنَّ كلَّ علمٍ شرعيٍّ ليس بمطلوبٍ إلا من جهةِ ما يُتَوَسَّلُ به إليه، وهو العملُ»[1].

عَالِمُ السُّوءِ، وَمَثَلُهُ:

العملُ إذا انسَلَخَ عن العلمِ أدخَلَ حاملَهُ في دائرةِ عالمِ السوءِ، وعَلِمَ الله إنَّها لدائرةٌ قبيحةٌ لا تضمُّ إلا مَن رَقَّ دينُهُ وغَلُظَ حِجَابهُ وبَاعَ للشيطانِ نَفسَهُ.

قال الشاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «الموافقات»** (١/ ١٠٣): «إنَّ علماءَ السوءِ هُمُ الذينَ لا يعملون بما يعلمون».

وعلماءُ السُّوءِ من أخطرِ الأخطار علىٰ النَّاسِ والدينِ جميعًا.

(١) «الموافقات» للشاطبي، تحقيق مشهور حسن سلمان (١/ ٧٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلماءُ السُّوءِ جلسوا علىٰ بابِ الجَنَّةِ يَدعُونَ إليها النَّاسَ بأقوالِهم، ويدعونهم إلىٰ النَّارِ بأفعالهم، فكلَّما قالت أقوالُهم للنَّاسِ: هلمُّوا، قالت أفعالُهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دَعَوا إليه حقًّا كانوا أوَّلَ المستجيبين له، فهم في الصورةِ أَدِلَّاءُ، وفي الحقيقةِ قُطَّاعُ الطريقِ»[(١)].

وقد ضَرَبَ الله تعالىٰ لعالِمِ السُّوءِ في كتابِهِ مَثَلًا شنيعًا، قَبيحَ الطَّلْعَةِ، كَريهَ المنظَرِ، كَالِحَ الوجهِ؛ فمَا مَثَلُ عالِمِ السُّوءِ في كتابِ الله تعالىٰ إلا كَمَثَلِ الكلبِ في لَهَثَانِهِ، كذا قَضَىٰ رَبُّنَا وقَدَّرَ.

قالَ تعالىٰ: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذا مَثَلُ عالِمِ السُّوءِ الذي يعملُ بخلافِ علمِهِ، وتأمَّل ما تضمَّنته هذه الآيةُ من ذَمِّهِ، وذلك من وجوه:

أحدُها: أنَّه ضَلَّ بعد العلمِ، واختارَ الكفرَ علىٰ الإيمانِ عمدًا لا جهلًا.

وثانيها: أنَّه فَارَقَ الإيمانَ مفارقةَ مَن لا يعودُ إليه أبدًا، فإنَّه انسلخَ من الآياتِ بالجملةِ كما تنسلخُ الحيَّةُ من قِشرِهَا، ولو بقي معه منها شيءٌ لم ينسلخ منها.

وثالثُهَا: أنَّ الشيطانَ أدركه ولَحِقَهُ بحيث ظفرَ به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾، ولم يقُل: تَبِعَهُ، فإنَّ في معنىٰ أتبَعَهُ: أدركه ولحقه، وهو أبلغُ مِنْ تَبِعَهُ

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص٨١).

لفظًا ومعنىً.

ورابُعها: أنَّه غَوَىٰ بعدَ الرُّشدِ، والغَيُّ: الضلالُ في العلمِ والقَصدِ، وهو أخَصُّ بفسادِ القَصدِ والعملِ، كما أنَّ الضلالَ أخَصُّ بفسادِ العلمِ والاعتقادِ، إذا أُفرِدَ أحدُهما دَخَلَ فيه الآخَرُ، وإن اقترنا فالفَرقُ ما ذُكِر.

وخامسُهَا: أنَّه سبحانه لم يَشَأ أن يرفعَهُ بالعلمِ فكان سَبَبَ هلاكِهِ؛ لأنَّه لم يُرفع به فصار وبَالًا عليه، فلو لم يكن عالِمًا كان خيرًا له وأخَفَّ لعذابِهِ.

وسادسُها: أنَّه سبحانه أخبرَ عن خِسَّةِ همَّتِهِ، وأنَّه اختارَ الأسفلَ الأدنىٰ علىٰ الأشرفِ الأعلىٰ.

وسابِعُها: أنَّ اختيارَهُ للأدنىٰ لم يكن عن خاطرٍ وحديثِ نفسٍ، ولكنَّه كان عن إخلادٍ إلىٰ الأرضِ، ومَيلٍ بكليتهِ إلىٰ ما هناك، وأصلُ الإخلادِ: اللُّزُومُ علىٰ الدوامِ، كأنَّه قيلَ: لَزِمَ الميلَ إلىٰ الأرضِ، ومن هذا يُقَالُ: أخلَدَ فلانٌ بالمكانِ إذا لَزِمَ الإقامةَ به.

قال مالكُ بنُ نُوَيرَةَ:

بِأبنَاءِ حَيٍّ مِن قَبَائِلِ مَالِكٍ وَعَمرِو بن يَربُوعٍ أقَامُوا فأخلَدُوا

وعَبَّرَ عن ميلِهِ إلىٰ الدنيا بإخلادهِ إلىٰ الأرضِ، لأنَّ الدنيا هي الأرضُ وما فيها وما يُستخرجُ منها من الزينةِ والمتاعِ.

وثامنُهَا: أنَّه رَغبَ عن هُدَاهُ واتَّبَعَ هواه، فجعل هواه إمامًا له يقتدي به ويتبعُهُ.

وتاسعُهَا: أنَّه شَبَّهَهُ بالكلب الذي هو أخَسُّ الحيواناتِ همَّةً، وأسقطُها نفسًا،

وأبخلُها، وأشدُّها كَلَبًا، ولهذا سُمِّي كَلْبًا.

وعاشرُها: أنَّه شَبَّهَ لَهثَه على الدنيا، وعدمَ صَبرِهِ عنها، وجَزعَهُ لفقدِها، وحرصَه على تحصيلها، بلهثِ الكلبِ في حالتي تركهِ والْحَمْلِ عليه بالطَّرْدِ، وهكذا هذا إن تُرِكَ فهو لَهْثَانُ على الدنيا، وإن وُعِظَ وزُجِرَ فهو كذلك، فاللَّهْثُ لا يفارقُهُ في كلِّ حالٍ كَلَهْثِ الكلبِ.

قال ابنُ قُتَيبَةَ: كلُّ شيءٍ يلهثُ فإنَّما يلهثُ من إعياءٍ أو عطشٍ إلا الكلبَ[(١)]، فإنَّه يَلْهَثُ في حالِ الكَلالِ، وحالِ الراحةِ، وحالِ الرِّيِّ، وحالِ العطشِ؛ فضربهُ الله مثلًا لهذا الكافرِ، فقال: إن وَعَظتهُ فهو ضالٌّ، وإن تركَتهُ فهو ضالٌّ، كالكلبِ إن طردتَهُ لَهَثَ، وإن تركتَهُ على حالِهِ لَهَثَ، وهذا التمثيلُ لم يقع بكلِّ كلبٍ، وإنَّما وَقَعَ بالكلبِ اللاهثِ، وذلك أخسُّ ما يكون وأشنعُهُ»[(٢)].

فإذا عَلِمَ العالِمُ أمرَ الله ونهيَهُ، وأمرَ رسولِهِ ﷺ ونهيَهُ، فليس له أن يَنسَلِخَ ممَّا عَلِمَ، وينكص على عقبيه، وإلا فهو عالِمُ سُوءٍ.

وقال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ عند هذا الموضعِ من سُورةِ الأعرافِ في تفسيرِهِ: «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٧٢): «وفي هذه الآياتِ: الترغيبُ في العملِ بالعلمِ، وأن

---

(١) إنَّ جلودَ الكلابِ لا تحوي غُدَدًا عَرَقِيَّةً، والغددُ العرقيةُ طريقٌ من طرقِ الإخراجِ، ولأجلِ عدم وجودِها في جلود الكلاب، تستعيضُ باللهثانِ كطريقٍ من طرقِ الإخراجِ، ولذلك يُرى الكلب في حالاته كلِّهَا لاهثًا، فهذا سَبَبُهُ والله أعلم، فسبحان مَن القرآنُ العظيمُ كلامُهُ، والخلق كلُّهُ فعلهُ، ولا خلافَ بين قولِهِ وفعلِهِ، وهو اللطيفُ الخبير.

(٢) «الفوائد» لابن القيم (ص١٣٥).

ذلك رفعةٌ من الله لصاحبِهِ، وعصمةٌ من الشيطانِ، والترهيبُ من عدمِ العملِ بالعلمِ، وأنَّه نزولٌ إلىٰ أسفلِ سافلينَ، وتسليطٌ للشيطانِ عليه».

حَالُ الْمُخَالَفَةِ بَينَ العِلمِ والعَمَلِ:

حالُ المخالفةِ بين العلمِ والعملِ حالُ معصيةٍ، وحالُ جهلٍ، وقد أجمعَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ أنَّه لا يَعصِي الله إلا جاهلٌ.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأصلُ ما يُوقِعُ النَّاسَ في السيئاتِ: الجهلُ، وعدمُ العلمِ بكونها تضرُّهم ضَرَرًا راجحًا، أو ظنُّ أنَّها تنفعهم نفعًا راجحًا».

ولهذا قال الصحابةُ رضي الله عنهم: كلُّ مَن عَصَىٰ الله فهو جاهلٌ، وفَسَّروا بذلك قولَه تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾ [النساء:١٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلۡ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۖ كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ أَنَّهُۥ مَنۡ عَمِلَ مِنكُمۡ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [الأنعام:٥٤].

ولهذا يُسَمَّىٰ حالُ فعلِ السيئاتِ «جاهلية» فإنَّه يصاحبُها حالٌ من حالِ الجاهليةِ.

قال أبو العالية: سألتُ أصحابَ محمدٍ ﷺ عن هذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾، فقالوا: كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ، ومن تاب قبيلَ الموتِ فقد تابَ من قريبٍ.

وعن قَتَادَةَ قال: أجمَعَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ علىٰ أنَّ كلَّ مَن عَصَىٰ ربَّه فهو في جهالةٍ، عمدًا كان أو لم يكن، وكُلُّ مَن عَصَىٰ الله فهو جاهلٌ، وكذلك قال التابعون ومَن بَعدَهم.

قال مجاهدٌ: مَن عَمِلَ ذنبًا -من شَيخٍ أو شابٍّ- فهو بجهالة.

وقال: مَن عَصَىٰ ربَّه فهو جاهلٌ، حتىٰ ينزع عن معصيتهِ.

وقال أيضًا: هو إعطاءُ الجهلِ العَمْدَ.

وقال مجاهدٌ أيضًا: مَن عَمِلَ سوءًا خَطَأً، أو إثمًا عمدًا، فهو جاهلٌ، حتىٰ ينزِعَ منه. رواهُنَّ ابنُ أبي حاتمٍ.

ثمَّ قال: رُوي عن قتادةِ، وعمروِ بن مُرَّةَ، والثوريِّ: ونحو ذلك خطأً أو عمدًا.

ورُوي عن مجاهدٍ، والضَّحَّاكِ، قالا: ليس من جهالتِهِ ألا يعلمَ حلالًا ولا حرامًا، ولكن من جهالتِهِ حين دَخَلَ فيه»[(١)].

فحالُ المخالفةِ معصيةٌ وجهالةٌ كما رأيتَ، وليست الجهالةُ التي هي ضِدُّ العلمِ فإنَّ العلمَ بالتحريمِ شرطٌ لكون المعصيةِ معصيةً، وإنَّما الجهالةُ للوقوعِ في الذَّنبِ والولوجِ في المعصيةِ.

قال السعديُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «توبةُ الله علىٰ عبادِهِ نوعان: توفيقٌ منه للتوبةِ، وقبولٌ لها بعد وجودِها من العبدِ.

(١) «الحسنة والسيئة» لابن تيمية (ص٦٢).

فأخبرَ هنا أنَّ التوبةَ المستحقَّةَ علىٰ الله، حقٌّ أحقَّه علىٰ نفسِهِ، كرمًا منه وجُودًا، لمن عمل السُّوءَ، أي: المعاصي بجَهَالَةٍ، أي: جهالةٍ منه لعاقبتِهَا، وإيجابِهَا لسخطِ الله وعقابِهِ، وجهلٍ منه بما تَؤولُ إليه من نقصِ الإيمانِ أو إعدامِهِ.

فكلُّ عاصٍ لله، فهو جاهلٌ بهذا الاعتبارِ، وإن كان عالِمًا بالتحريمِ، بل العلمُ بالتحريمِ شرطٌ لكونها معصيةً، معاقَبًا عليها»[(١)].

قال أبو جعفر بن جريرٍ الطبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني بقولِهِ -جَلَّ ثناؤُهُ-: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾، ما التوبةُ علىٰ الله لأحدٍ من خَلقِهِ إلا للذين يعملون السُّوءَ من المؤمنين بجهالةٍ ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾، يقول: ما الله براجعٍ إلىٰ أحدٍ من خلقِهِ إلىٰ ما يحبُّه من العفوِ عنه والصفحِ عن ذنوبِهِ التي سَلَفَت منه، إلا للذين يأتون ما يأتونه من ذنوبهم جهالةً منهم، وهم بربِّهم مؤمنون، ثم يراجعون طاعةَ الله ويتوبون منه إلىٰ ما أمرهم الله به، من النَّدمِ عليه والاستغفارِ وتَركِ العَوْدِ إلىٰ مثلِهِ من قَبلِ نزولِ الموتِ، وذلك هو (القريبُ) الذي ذَكَرَهُ الله -تعالىٰ ذِكرُهُ-، فقال: ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ﴾.

وبنحو ما قلنا في تأويل ذلك قال أهلُ التأويلِ، غير أنَّهم اختلفوا في معنىٰ قولِهِ ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾.

فقال بعضُهم في ذلك بنحو ما قلنا فيه، وذهبَ إلىٰ أنَّ عَمَلَهُ السُّوءَ، هو (الجهَالَةُ) التي عَنَاهَا.

(١) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص١٣٧).

عن أبي العاليةِ، أنَّه كان يُحدِّثُ: أنَّ أصحابَ رسولِ اللهِﷺ كانوا يقولون: كلُّ ذَنبٍ أصابَهُ عَبدٌ فهو بجهالةٍ.

وعن قتادةَ قولُهُ: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال: اجتمعَ أصحابُ رسولِ اللهِﷺ فرأوا أنَّ كلَّ شيءٍ عُصيَ به فهو (جَهَالَةٌ) عمدًا كان أو غيره.

وعن مجاهدٍ: قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ قال: كلُّ مَن عَمِلَ بمعصيةِ الله، فذاك منه بجهلٍ حتىٰ يرجعَ عنه.

وعن السُّدِّيِّ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، ما دام يعصي الله فهو جاهلٌ.

وعن ابنِ زيدٍ في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، قال: «الجهالة» كلُّ امرئٍ عَمِلَ شيئًا من معاصي الله فهو جاهلٌ أبدًا حتىٰ يَنزِعَ عنها، وقرأ: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩]، وقرأ: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، قال: مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ حتىٰ يَنزِعَ عن معصيتِهِ.

وقال آخرونَ: معنىٰ قولِهِ: ﴿لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، يعملونَ ذلكَ علىٰ عَمدٍ منهم له.

عن مجاهدٍ: ﴿يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال: الجهالةُ: العَمدُ.

وعن الضَّحَّاكِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾، قال: الجَهَالةُ: العَمدُ.

وقال آخرون: معنىٰ ذلك: إنَّما التوبةُ علىٰ الله للذين يعملون السُّوءَ في الدنيا.

عن عِكْرِمَةَ: قولُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾، قال: الدنيا كلُّها جَهَالَةٌ.

قال أبو جعفرٍ -هو ابنُ جريرٍ الطبريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ- وأَولَىٰ هذه الأقوالِ بتأويلِ الآيةِ، قَولُ مَن قال: تأويلُها: إنَّما التوبةُ علىٰ الله للذين يعملون السُّوءَ، وعملُهم السُّوءَ هو الجهالَةُ التي جهلوها، عامدين كانوا للإثمِ، أو جاهلين بما أعَدَّ الله لأهلِهَا»(١).

فارتكابُ المعصيةِ، ومخالفةُ مقتضىٰ العلمِ، يتنافىٰ مع حقيقةِ العلمِ، ويُوقِعُ في الجهالةِ التي هي ضِدُّ العلمِ، والتي يفرُّ منها كلُّ عالمٍ، وهذا هو ما يُسَمَّىٰ بـ (جَهلِ العلمِ)، وقد عقدتُ له بفضلِ الله ورحمته، وحولِهِ وقوته بابًا خاصًّا به في كتابِ «ذَمِّ الجهلِ»، إذ كان هذا اللونُ من الجهلِ أخطرَ شيءٍ علىٰ العلمِ، بل هو آفتُهُ التي تصرفُ النَّاسَ عنه، وتُسيءُ ظنونَهم به.

ومَن خَالَفَ بين علمِهِ وعملِهِ، فقد أشبَهَ اليهودَ مشابهةً تزيدُ وتنقصُ علىٰ قَدرِ ما خَالَفَ، كما أنَّ مَن عَمِلَ بلا عِلمٍ فقد أشبَهَ النصارىٰ علىٰ قَدرِ ما فيه من ذلك.

«جماعُ ذلك أنَّ كُفْرَ اليَهودِ أصلُهُ: من جهةِ عدمِ العملِ بعلمهم، فهم يعلمون الحقَّ، ولا يتَّبعونه قولًا، أو عملًا، أو لا قولًا ولا عملًا، وكُفْرُ النَّصارىٰ من جهةِ عملِهم بلا علمٍ، فهم يجتهدون في أصنافِ العباداتِ بلا شريعةٍ من الله، ويقولون علىٰ الله ما لا يعلمون.

(١) «تفسير الطبري»، تحقيق محمود محمد شاكر (٨/ ٨٨).

ولهذا كان السَّلَفُ، كسفيان بن عُيينةَ وغيرِهِ يقولون: مَن فَسَدَ من علمائنَا ففيه شَبَهٌ من اليهودِ، ومَن فَسَدَ من عُبَّادِنا ففيه شَبَهٌ من النَّصارىٰ»[١].

ومشابهةُ الفاسدِ من العلماءِ لليهودِ هي من جهةِ كونِهِ غيرَ عاملٍ بعلمِهِ، فكذلك اليهودُ، فإنَّه قد حُمِّلوا التوراةَ فلم يحملوها، وأوصاهم الله تعالىٰ أن يأخذوا ما آتاهم بقوةٍ فلم يأخذوا به أصلًا لذلك شبَّههم الله بالحمارِ يحملُ الأسفارَ علىٰ ظهرِهِ، ولا علمَ له بالذي يحملُهُ، ولا استفادةَ له من الذي يحملُهُ.

قال تعالىٰ: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قاسَ سبحانه من حمَّله كتابَه ليؤمنَ به ويتدبَّره ويعملَ به ويدعوَ إليه، ثمَّ خالف ذلك، ولم يحمله إلا علىٰ ظَهرِ قلبٍ، فقراءتُهُ بغير تدبُّرٍ ولا تفهُّم ولا اتِّباعٍ له، ولا تَحكيمٍ له، وعملٍ بموجبِهِ - كحمارٍ علىٰ ظهرِهِ زاملَةُ أسفارٍ، لا يدري ما فيها، وحظُّه منها حملُهُ علىٰ ظهرِهِ ليس إلا، فحظُّه من كتابِ الله كحظِّ هذا الحمارِ من الكتبِ التي علىٰ ظهرِهِ.

فهذا المثَلُ، وإن كان قَد ضُرِبَ لليهودِ، فهو متناوِلٌ من حيث المعنىٰ لمن حَمَلَ القرآنَ، فتركَ العملَ به، ولم يُؤدِّ حقَّه، ولم يَرْعَهُ حَقَّ رعايتِهِ»[٢].

---

(١) «اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لابن تيمية، تحقيق محمد حامد الفقي (ص٥).

(٢) «إعلام الموقعين» لابن القيم (١/ ١٦٥).

وقال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالىٰ ذامًّا اليهودَ الذين أُعطوا التوراةَ وحُمِّلُوها للعملِ بها، ثمَّ لم يعملوا بها: مثلُهم في ذلك كمثلِ الحمارِ يحملُ أسفارًا؛ أي: كمثلِ الحمارِ إذا حَمَلَ كُتُبًا لا يدري ما فيها، فهو يحملها حَملًا حِسِّيًّا ولا يدري ما عليه، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتابَ الذي أُوتوه، حفظوه لفظًا ولم يتفهَّموه، ولا عملوا بمقتضاه، بل أَوَّلوه وحرَّفُوه، وبدَّلُوه، فهم أسوأ حالًا من الحميرِ؛ لأنَّ الحمارَ لا فَهْمَ له، وهؤلاء لهم فهومٌ لم يستعملوها، ولهذا قال تعالىٰ في الآيةِ الأخرىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]، وقال تعالىٰ هاهنا: ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾»[1].

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ضَرَبَ مَثَلًا لليهودِ لَمَّا تركوا العملَ بالتوراةِ ولم يؤمنوا بمحمدٍ ﷺ، ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾، أي: كُلِّفُوا العملَ بها؛ عن ابن عباسٍ.

وعن الْجُرجَانيِّ: هو من الْحَمَالَةِ، بمعنىٰ الكَفَالَةِ، أي: ضَمِنُوا أحكامَ التوراةِ، ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارَۢاۚ﴾، وهي: جمعُ سِفْرٍ، وهو الكتابُ الكبيرُ؛ لأنه يُسفِرُ عن المعنىٰ إذا قُرِئَ.

وفي هذا تنبيهٌ من الله تعالىٰ لمن حَمَلَ الكتابَ أن يتعلَّمَ معانيَهُ ويعلمَ ما فيه؛ لئلَا يلحقَهُ من الذَّمِّ ما لَحِقَ هؤلاء، قال الشاعرُ:

زَوَامِـلُ للأَسْـفَارِ لا عِلْـمَ عِـنْدَهُم ... بِجَـيِّدِهَا إلا كَعِلْـمِ الأَبَاعِـرِ
لَعَمْـرُكَ مَـا يَـدْرِي البَعِيـرُ إِذَا غَـدَا ... بِأَوْسَـاقِهِ[2] أَو رَاحَ مَـا فِـي الغَرَائـرِ

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٤/ ٣٦٤).

(٢) **الأوساقُ**: جمعُ وَسْقٍ، وهو حِملُ البعيرِ.

﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾، أي: لم يعملوا بها، شبَّههم والتوارةُ في أيديهم وهم لا يعملون بها -بالحمارِ يحملُ كُتُبًا وليس له إلا ثِقْلُ الحِملِ من غير فائدة»[(١)].

قلتُ: وقد ضَرَبَ الله ﷻ مَثَلَ عالِمِ السُّوءِ -كما مرَّ- في سورةِ الأعرافِ، فكانَ مَثَلًا رهيبًا قاسيًا علىٰ مَن كانَ له قلبٌ أو ألقىٰ السمعَ وهو شهيدٌ؛ حَذَرًا من الوقوعِ فيه أو الدخولِ في دائرتِهِ، إذ كان مَثَلُهُ كَمَثَلِ الكلبِ اللَّاهِثِ الذي لا ينفكُّ عن اللَّهَثَانِ أبدًا.

وهنا مَثَلُ العالِمِ الذي لا يعملُ بعلمِهِ، كالحمارِ يحملُ أسفارَ العلمِ علىٰ ظهرِهِ، ما حَصَّلَ منها علمًا، وما أورثته تفكُّرًا، وما أفادتهُ عقلًا.

﴿خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢].

قال تعالىٰ لنبيِّه يحيىٰ ﵇: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢].

قال السعديُّ ﵀: «أمرَ الله يحيىٰ أن يأخذ الكتابَ بقوَّةٍ؛ أي: بجدٍّ واجتهادٍ، وذلك بالاجتهادِ في حفظِ ألفاظِهِ، وفَهمِ معانيه، والعملِ بأوامرِهِ ونواهيه، هذا تمامُ أخذِ الكتابِ بقوةٍ، فامتثَلَ أَمْرَ ربِّهِ وأقبلَ علىٰ الكتابِ، فحفظَهُ وفهمَهُ، وجَعَلَ الله فيه من الذكاءِ والفطنَة، ما لا يُوجد في غيرِهِ، ولهذا قالَ: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾»[(٢)].

وقال القرطبيُّ ﵀: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾، ﴿ٱلْكِتَـٰبَ﴾

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ٩١).
(٢) «تيسير الكريم الرحمن» للسعدي (ص٤٤٠).

التوراةُ بلا خلافٍ، و﴿بِقُوَّةٍ﴾ أي: بجدٍّ واجتهادٍ؛ قاله مجاهدٌ، وقيل: العلمُ به، والحفظُ له، والعملُ به، وهو الالتزامُ لأوامرِهِ، والكفُّ عن نواهيه؛ قاله زيدُ بن أسلمَ»(١).

وقد أخذَ الله الميثاقَ علىٰ اليهودِ من قبلُ بالإيمانِ به، واتِّبَاعِ رُسُلِهِ، وأمرهم تعالىٰ أن يأخذوا ما آتاهم بقوةٍ؛ أي: بطاعةٍ وعملٍ بما فيه، فقال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣].

قال في «عُمدَة التَّفسيرِ» (١/ ١٦١): «يقولُ تعالىٰ مذكِّرًا بني إسرائيل ما أخذ عليهم من العهودِ والمواثيقِ بالإيمانِ به وحده لا شريكَ له، واتباعِ رُسُلِهِ، وأخبرَ تعالىٰ أنَّه لمَّا أخذ عليهم الميثاقَ رَفَعَ الجَبَلَ علىٰ رءوسِهم ليقرُّوا بما عُوهدوا عليه، ويأخذوه بقوةٍ وحزمٍ وامتثالٍ.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٧١]، فـ «الطور»، هو الجبلُ، كما فُسِّرَ به في الأعرافِ، ونصَّ علىٰ ذلك ابنُ عباسٍ وغيرُ واحدٍ، وهذا ظاهرٌ.

وقال الحسنُ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم﴾، يعني: التوراةَ.

وقولُهُ: ﴿بِقُوَّةٍ﴾، أي: طاعةٍ، وعملٍ بما فيه.

﴿وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ﴾: يقول: اقرءوا ما في التوراة واعملوا بهِ».

(١) «الجامع لأحكام القرآن» (١١/ ٩٢).

وقال السعديُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾، حين امتنعوا من قبول ما في التوراةِ، فألزمهم الله العملَ، ونَتَقَ فوقَ رءوسهم الجبلَ فصار فوقهم: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾.

وقيل لهم: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾، أي: بجِدٍّ واجتهادٍ، ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾، دراسةً ومباحَثةً واتصافًا بالعملِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا فعلتُم ذلك»[(١)].

ولذلك كان السَّلَفُ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يعتبرون النَّاسَ بأعمالهم لا بأقوالهم، وكلُّ مَن خالَفَ فعلُهُ قولَه، فلا اعتبارَ له عندهم.

قال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعتبروا النَّاسَ بأعمالِهم، ودعُوا أقوالَهم، فإنَّ الله لم يَدَع قولًا إلا جَعَلَ عليه دليلًا من عملٍ يُصَدِّقُهُ أو يُكَذِّبُهُ، فإذا سمعتَ قولًا حسنًا فَرُويدًا بصاحِبِهِ، فإن وَافَقَ قولٌ عملًا فنعم ونَعْمَةُ عينٍ، آخِهِ، وأَحبِبهُ، وإن خَالَفَ قولٌ عملًا فماذا يَشْبَهُ عليك منه؟! أمَّاذا يَخفَىٰ عليك منه؟! إيَّاكَ وإيَّاه لا يَخدَعَنْكَ كما خُدِعَ ابنُ آدَمَ.

إنَّ لكَ قولًا وعملًا، فعملُكَ أحقُّ بك مِن قَولِكَ، وإنَّ لك سريرةً وعلانيةً، فسريرتُكَ أحقُّ بكَ من علانيتكَ، وإنَّ لك عاجلةً وعاقبةً، فعاقبتُك أحقُّ مِن عاجلتكَ.

وعن قيسِ بن رافعٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ **قال:** اجتمعَ ناسٌ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ عند ابن عباسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، فتذاكروا الخيرَ فَرَقُّوا، وواقدُ بن الحارثِ ساكتٌ، فقالوا: يا أبا

(١) «تيسير الكريم الرحمن» (ص٢٧١).

الحارثِ ألا تتكلَّم؟ قال: قد تكلَّمتُم وكفيتُم، قالوا: تكلَّم فما أنتَ بأصغرِنا سِنًّا، فقال: أسمَعُ القولَ، فالقولُ قولُ خائفٍ، وأنظرُ الفعلَ، فالفعلُ فِعلُ آمِنٍ.

وعن ابن مسعودٍ ﷺ **قال**: إنَّ النَّاسَ قد أحسنوا القولَ كلُّهم، فَمَن وَافَقَ قولُهُ فِعلَهُ فذلك الذي أصابَ حظَّه، ومَن خَالَفَ قولُهُ عملَهُ، فإنَّما يوبِّخُ نفسَهُ»[1].

العِلمُ بَينَ الصُّورَةِ والحقِيقَةِ:

لكلِّ شيءٍ اسمٌ وصورةٌ وحقيقةٌ، وأهمُّ ذلك وأجَلُّه وأعظَمُهُ حقيقةُ الشيءِ وجوهرُهُ.

ولا يُغني الاسمُ وحده شيئًا دون الصورةِ والحقيقةِ، ولا تغني الصورةُ شيئًا أيضًا دون الحقيقةِ والجوهرِ، وأمَّا حقيقةُ الشيءِ فتدُلُّ عَلَىٰ اسمِهِ وصورتِهِ، وهي لُبُّ اللُّبَابِ، وأصلُ وجودِ الشيءِ وكينونتِهِ.

ولو أنَّ جائعًا أخذ يُرَدِّدُ إلىٰ يوم يُصعقون كلمةَ: «خُبْزٌ» ما أغْنَتْ عنه من الجوعِ شيئًا، ولا سَدَّتْ له جَوعَةً، ولا رَدَّت عنه مَسغَبَةً، بل لزادته جوعًا بما يَبذُلُ من جَهدٍ، وما يستدعيه اللفظُ من خيالاتٍ لا يملك منها شيئًا.

ولو أنَّه صَوَّرَ في قرطاسٍ صورَة رغيفٍ، وأخذَ يتأمَّلُه مُقْبِلًا ومُدبِرًا، وقائمًا وقاعدًا، ما زاده ذلك إلا جوعًا، ومَسْغَبَةً.

ولكنَّه لو وَقَعَ من حقيقةِ الخبز علىٰ كِسرَةٍ يابسةٍ، لكانت أجدىٰ في رَدِّ غائلةِ

---

(١) كتاب: «الصمت وآداب اللسان» لابن أبي الدنيا، تحقيق نجم عبد الرحمن خلف (ص ٥٦٥).

الجوعِ وكَسرِ حِدَّتِهِ.

ولو أنَّ رجلًا ترتعُ الْجِرْذَانُ في بيتِهِ وتمرحُ في مسكنِهِ، أخذ يردِّدُ كلمةَ: «قِطٌّ» ما شاء الله أن يردِّدَ، ما زادت الفئرانُ على سماعِها إلا مرحًا ونشاطًا.

ولو أنَّه صوَّر صورةَ قِطٍّ في قرطاسٍ، بل صورةَ أسدٍ(١)، ثمَّ علَّقَها هنا وهناك، وألقاها في الزوايا، لوجدت فيها الفئرانُ مادةَ غذاءٍ، وسببَ بقاءٍ.

ولكن لو أنَّه أتى بقطٍّ تعيسٍ بئيسٍ، مهزولٍ أعجفَ، فأَخَذَ يموءُ في الأرجاءِ من الضُّرِّ والألمِ، والحزنِ والكمدِ، لوقفت الجرذانُ عند حدودِ الأدبِ، إذ رأت الحقيقةَ شاخصةً، والذاتَ باديةً.

وعلى مِثل هذا يُقَاسُ «العلمُ» مع فوارقِ الرتبةِ واختلافات المرتبةِ، ومَن ظَنَّ أنَّ العلمَ حَشوُ الرأسِ بكلامٍ لا حقيقةَ له في خارجِ النفسِ فقد أَبعَدَ النُّجْعَةَ(٢)، وإنَّما ينبغي أن تتمَّ المطابقةُ بين الثابتِ في النَّفسِ والحقيقةِ ذاتِها.

«العلمُ نَقلُ صورةِ المعلومِ من الخارجِ، وإثباتُها في النفسِ.

والعملُ نَقلُ صورةٍ علمِيَّةٍ وإثباتُها في الخارجِ.

فإن كان الثابتُ في النفسِ مطابقًا للحقيقةِ في نفسِها فهو علمٌ صحيحٌ.

وكثيرًا ما يثبُتُ ويتراءى في النفسِ صورٌ ليس لها وجودٌ حقيقيٌّ، فيظنُّها الذي قد أثبتَهَا في نفسِهِ علمًا، وإنَّما هي مُقَدَّرَةٌ لا حقيقةَ لها، وأكثرُ علومِ النَّاسِ من هذا

(١) تصويرُ ذواتِ الأرواحِ حرامٌ كما هو معلومٌ.

(٢) **النُّجْعَةُ**: طلبُ الكلأِ ومساقطِ الغيثِ.

البابِ، وما كان منها مُطَابِقًا للحقيقةِ في الخارجِ فهو نوعان:

نوعٌ تكملُ النفسُ بإدراكِهِ وهو العلمُ بالله، وأسمائِهِ، وصفاتِهِ، وأفعالِهِ، وكُتُبِهِ، وأمرِهِ، ونهيِهِ.

ونوعٌ لا يحصلُ للنفسِ به كمالٌ، وهو كلُّ علمٍ لا يضرُّ الجهلُ به، فإنَّه لا ينفعُ العلمُ به، وكان النبيُّ ﷺ يستعيذُ بالله من علمٍ لا ينفعُ، وهذا حالُ أكثرِ العلومِ الصحيحةِ المطابقةِ التي لا يَضُرُّ الجهلُ بها شيئًا؛ كالعلمِ بالفلكِ ودقائقِهِ ودرجاتِهِ، وعددِ الكواكبِ ومقاديرِها، والعلم بعددِ الجبالِ وألوانِها ومساحاتِهَا، ونحو ذلك[1]، فَشَرَفُ العلمِ بحسبِ شَرَفِ معلومِهِ وشِدَّةِ الحاجةِ إليه، وليس ذلك إلا العلم بالله وتوابع ذلك.

وأمَّا العلمُ فآفتُهُ عدمُ مطابقتِهِ لمرادِ الله الدينيِّ الذي يحبُّه الله ويرضاه، وذلك يكون من فسادِ العلمِ تارةً، ومن فسادِ الإرادة تارةً، ففسادُهُ من جهةِ العلمِ أن يعتقدَ أنَّ هذا مشروعٌ محبوبٌ لله وليس كذلك، أو يعتقد أنَّه يقَرِّبُهُ إلىٰ الله وإن لم يكن مشروعًا، فيظنُّ أنَّه يتقرَّبُ إلىٰ الله بهذا العملِ، وإن لم يعلم أنَّه مشروعٌ.

وأمَّا فسادُهُ من جهةِ القَصدِ فألَّا يقصدَ به وَجْهَ الله والدارَ الآخرةَ، بل يقصدُ به

(١) ما ذكره الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا هو بحسب الأفرادِ؛ فلا يضرُّ مسلمًا بعينِهِ ألا يعلم مما ذكره الشيخُ شيئًا، ولكنَّ مجموع الأمة فإنَّ الجهلَ بما ذكره الشيخ يضرُّها ضررًا بليغًا، إذ إن النظَرَ في ملكوتِ السموات والأرض لاستنباطِ أسرارِ المادةِ التي أودعها الله مصنوعاته، وامتلاكِ أسبابِ القوةِ فرضٌ واجبٌ علىٰ الأمة، وإلا امتلك ذلك أعداؤها، وتداعىٰ عليها الأَكَلَةُ من كلِّ صوبٍ، كما هو الواقعُ، فلينزَّل كلامُ الشيخِ علىٰ مراده -رحمه الله تعالىٰ-.

الدنيا والْخَلْقَ، وهاتان الآفتان في العلمِ والعملِ لا سبيلَ إلىٰ السلامةِ منهما إلا بمعرفةِ ما جاء به الرسولُ في باب العلمِ والمعرفةِ، وإرادةِ وجه الله والدارِ الآخرةِ في بابِ القصدِ والإرادةِ، فمتىٰ خلا من هذه المعرفةِ وهذه الإرادةِ فَسَدَ علمُهُ وعملُهُ.

والإيمانُ واليقينُ يورِّثان صحَّةَ المعرفةِ وصحَّةَ الإرادةِ،وهما يورِّثان الإيمان ويمدَّانهِ، ومن هنا يُتَبَيَّنُ انحرافُ أكثر النَّاسِ عن الإيمان لانحرافِهم عن صحَّةِ المعرفةِ وصحَّةِ الإرادةِ، ولا يتمُّ الإيمانُ إلا بتلقِّي المعرفةِ من مشكاةِ النبوةِ، وتجريدِ الإرادةِ عن شوائبِ الهوىٰ وإرادةِ الْخَلقِ، فيكون علمُهُ مُقْتَبَسًا من مشكاةِ الوحي، وإرادتُه لله والدارِ الآخرةِ، فهذا أصحُّ النَّاسِ علمًا وعملًا، وهو من الأئمةِ الذين يهدون بأمرِ الله، ومن خلفاءِ رسولِهِ في أمَّتِه»[(١)].

وقد يكون العبدُ هاجرًا لكتاب الله تعالىٰ، وهو مقيمٌ لحروفِهِ يلوكُ بها لسانَهُ، ويظنُّ أنه قد أَوفَىٰ علىٰ الغايةِ وبلغَ النهايةِ، وما هو في حقيقةِ الأمرِ إلا هاجرٌ لكتابِ ربِّه بهجرِهِ للعملِ به.

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هَجرُ القرآنِ أنواعٌ:

أحدُها: هَجرُ سماعِهِ، والإيمانِ به، والإصغاءِ إليه.

والثاني: هَجرُ العملِ به، والوقوفِ عند حلالِهِ وحرامِهِ، وإن قَرَأَهُ وآمَنَ به.

والثالثُ: هَجرُ تحكيمِهِ والتحاكمِ إليه في أصولِ الدينِ وفروعِهِ، واعتقادُ أنَّه لا يفيد اليقينَ، وأنَّ أدلَّته لفظيَّةٌ،لا تحصِّلُ العلمَ.

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١١٢).

والرابعُ: هَجرُ تدبُّرِهِ وتفهُّمِهِ، ومعرفةِ ما أرادَ المتكلِّمُ به منه.

والخامسُ: هَجرُ الاستشفاءِ والتداوي به في جميعِ أمراضِ القلوبِ وأدوائِهَا، فيطلب شفاءَ دائِهِ من غيرِهِ، ويهجرُ التداوي به.

وكلُّ هذا داخلٌ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾ [الفرقان:٣٠]»(١).

وقال ابنُ كثيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يقولُ تعالىٰ مُخبرًا عن رسولِه ونبيِّهِ محمَّدٍ ﷺ أنَّه قالَ: ﴿يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا﴾، وذلك أنَّ المشركين كانوا لا يُصغُون للقرآنِ ولا يستمعونه، كما قالَ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت:٢٦]، فكانوا إذا تُلِيَ عليهم القرآنُ أكثروا اللَّغَطَ والكلامَ في غيرِهِ حتىٰ لا يسمعوه، فهذا من هِجرَانِهِ.

وتَرْكُ الإيمانِ به، وتَرْكُ التصديقِ به من هِجرَانِهِ.

وتَرْكُ تدبُّرِهِ وتفهُّمِهِ من هِجرَانِهِ.

وتَرْكُ العملِ به، وامتثالِ أوامرِهِ، واجتنابِ نواهيه من هِجْرَانِهِ.

والعدولُ عنه إلىٰ غيرِهِ من شعرٍ أو قولٍ أو غناءٍ أو لهوٍ أو كلامٍ أو طريقةٍ مأخوذةٍ من غيره من هِجرَانِهِ.

فنسألُ الله الكريمَ المنَّانَ القادِرَ علىٰ كلِّ شيءٍ، أن يُخلِّصَنا ممَّا يُسخِطُهُ،

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٠٩).

ويستعملَنَا فيما يرضيه من حِفظِ كتابِهِ، وفهمِهِ، والقيامِ بمقتضاه، آناءَ الليل وأطرافَ النَّهارِ، علىٰ الوجهِ الذي يُحبُّه ويرضاه، إنَّه كريمٌ وهَّابٌ»(١).

فَمِنْ هَجْرِ القرآنِ كما رأيتَ: تركُ العملِ به، وإن كان الهاجِرُ مقيمًا لحروفِهِ، بارعًا في تلاوتِهِ، إذ كان من أوَّلِ القَصدِ بالقرآنِ العملُ به، والوقوفُ عند حلالِهِ وحرامِهِ، والائتمارُ بأمرِهِ، والانتهاءُ بنهيه.

ومهما يكن للعالِمِ من بيانٍ مُشرِقِ السِّمَاتِ، حُلوِ القَسَمَاتِ، فعملُهُ ينبغي أن يكون مُصَدِّقًا لقولِهِ، دليلًا عليه وبرهانًا له.

وفي مخالفةِ القولِ للعملِ مفسدةُ الصَّدِّ عن سبيلِ الله، كما قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علماءُ السُّوءِ جلسوا علىٰ بابِ الجنَّةِ، يدعون إليها النَّاسَ بأقوالهم، ويدعُونهم إلىٰ النَّارِ بأفعالهم، فكلَّما قالت أقوالُهم للنَّاسِ: هَلمُّوا، قالت أفعالُهُم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دَعَوا إليه حقًّا كانوا أولَ المستجيبين له، فهم في الصورةِ أَدِلَّاءُ، وفي الحقيقة قُطَّاعُ الطريقِ»(٢).

الدَّليلُ بالفِعلِ أَرشَدُ مِنَ الدَّليلِ بالقَولِ:

ما أرسل الله تعالىٰ رسولًا، ولا بَعثَ نبيًّا، إلا وهو قُدوَةٌ سلوكيةٌ يجسِّدُ للمدعوِّين ما يدعوهم إليه من مكارِمِ الأخلاقِ، وحميدِ الخِصَالِ وكريمِ الخِلالِ، وحقيقةِ التوحيدِ.

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٣/ ٣١٧).

(٢) «الفوائد» (ص٨١).

وقد كان النبيُّ ﷺ أعظمَ الْخَلْقِ اتباعًا لأمرِ ربِّه، واجتنابًا لنهيه، وقد كان ﷺ يجسِّدُ الدينَ تجسيدًا، فما أَمَرَ بشيءٍ إلا وكان أولَ الناسِ إتيانًا له، ولا نهىٰ عن شيءٍ إلا كانَ أولَ النَّاسِ انتهاءً عنه وأبعدَ النَّاس عنه، فصلَّىٰ الله تعالىٰ وسلَّم عليه وعلىٰ آله الطيبين الطاهرين.

والنَّاسُ إلىٰ الاقتداءِ بالعملِ أحوجُ منهم إلىٰ استماعِ القولِ، وقديمًا قيل: فِعلُ رَجُلٍ أَنْفَعُ لأَلفِ رَجُلٍ مِن كَلامِ أَلفِ رَجُلٍ لِرَجُلٍ.

فالدليلُ بالفعلِ أرشدُ من الدليلِ بالقولِ، وهو دَرسٌ تعلَّمه ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهو بَعدُ حَدَثٌ صغيرٌ، فكان أفعَلَ في نفسِهِ من السِّحرِ، وأَجدَىٰ عليه من كثيرٍ من القولِ، ثمَّ هاهو يدلُّ عليه ويُرشِدُ إليه فيقول: «لقيتُ مشايخَ أحوالُهُم مختلفةٌ، يتفاوتون في مقاديرِهم في العلمِ، وكان أنفَعَهم لي في صحبتِهِ العاملُ منهم بعلمِهِ، وإن كان غَيرُهُ أعلمَ منه.

ولقيتُ جماعةً من علماء الحديثِ يحفظون ويعرفون، ولكنَّهم كانوا يتسامحون بغِيبةٍ يُخرجونها مَخْرَجَ جَرحٍ وتعديلٍ، ويأخذون علىٰ قراءةِ الحديثِ أُجرَةً ويُسرعون بالجوابِ لِئلاَ ينكسرَ الجاهُ، وإن وَقَعَ الخطأُ.

ولقيتُ عبد الوهابِ الأنماطيَّ، فكان علىٰ قانونِ السَّلَفِ لم يُسمَع في مجلسِهِ غِيبَةٌ ولا كان يطلبُ أجرًا علىٰ سماعِ الحديثِ، وكنتُ إذا قرأتُ عليه أحاديثَ الرقائقِ بكىٰ، واتَّصَلَ بكاؤُهُ.

فكان -وأنا صغيرُ السِّنِّ حينئذٍ- يعمل بكاؤُهُ في قلبي، ويبني قواعدَ، وكان

علىٰ سَمتِ المشايخِ الذين سمعنا أوصافَهم في النقلِ.

ولقيتُ الشيخَ أبا منصورٍ الجواليقيَّ، فكان كثيرَ الصمتِ، شديدَ التحرِّي فيما يقولُ، مُتقِنًا مُحَقِّقًا، وربَّما سُئِلَ المسألةَ الظاهرةَ التي يبادرُ بجوابِهَا بعضُ غلمانِهِ، فيتوقَّفُ فيها حتىٰ يتيقَّنَ.

وكان كثيرَ الصومِ والصمتِ، فانتفعتُ برؤيةِ هذين الرجلين أكثرَ من انتفاعي بغيرِهما.

ففهمتُ من هذه الحالةِ أنَّ الدليلَ بالفعلِ أرشدُ من الدليلِ بالقولِ.

ورأيتُ مشايخَ كانت لهم خَلوَاتٌ في انبساطٍ ومُزَاحٍ، فراحوا عن القلوب، وبَدَّدَ تفريطُهم ما جمعوا من العلمِ، فقَلَّ الانتفاعُ بهم في حياتهم، ونُسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحدٌ أن يلتفت إلىٰ مصنَّفَاتِهم، فاللَّهَ اللَّهَ في العملِ بالعلمِ، فإنَّه الأصلُ الأكبرُ.

والمسكينُ كلُّ المسكينِ مَن ضاعَ عُمُرُهُ في علمٍ لم يعمل به، ففاتَتهُ لذَّاتُ الدنيا وخيراتُ الآخرةِ، فقَدِمَ مُفْلسًا مع قُوَّةِ الْحُجَّةِ عليه»[1].

وَصفُ الطَّريقِ، ومَا يلزَمُ السَّفرَ العظيمَ:

وصفَ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ الطريقَ، والزَّادَ، والمَركَبَ اللازمَ للسفرِ العظيمِ؛ سَفَرِ العبدِ إلىٰ ربِّه وآخرتِهِ، فقال: «أمَّا زَادُهُ: فالعلمُ الموروثُ من خاتَمِ الأنبياءِ ﷺ، ولا زَادَ له سواه، فَمَن لم يحصِّل هذا الزَّادَ فلا يخرج من بيته، وليقعد مع الخَالِفينَ.

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي، تحقيق عبد القادر عطا (ص١٦٨).

فرفقاءُ المتَخَلِّفِ البطَّالون أكثرُ من أن يُحصَوا، فَلَهُ أُسْوَةٌ بهم، ولن ينفعَهُ هذا التَّأسِّي يومَ الحسرةِ شيئًا، كما قالَ تعالىٰ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف:٣٩]، فقطعَ الله سبحانه انتفاعَهم بعضهم ببعضٍ في العذابِ؛ فإنَّ مصائبَ الدنيا إذا عَمَّتْ صارت مَسْلَاةً، وتأسَّىٰ بعضُ المصابين ببعضٍ كما قالت الخنساءُ:

وَلَــولا كَثــرَةُ البَاكِــينَ حَولِــي ... عَلَــىٰ إخــوانِهِم لَقَــتَلتُ نَفــسِي

ومَــا يَــبْكُونَ مِــثلَ أخِــي ولَكِــن ... أُسَــلِّي الــنَّفسَ عَــنهُ بالتَّأسِّــي

فهذا الرَّوحُ الحاصلُ من التأسِّي معدومٌ بين المشتركين في العذابِ يومَ القيامةِ.

وأمَّا طَرِيقُهُ: فهو بَذلُ الجهدِ واستفراغُ الوُسعِ، فلا يُنَالُ بِالْمُنَىٰ ولن يُدرَكَ بالْهُوَينىٰ، وإنما هو كما قيل:

فَخُضْ غَمَراتِ الْمَوتِ وَاسمُ إلَـىٰ ... لِكَـي تُـدرِكَ العِـزَّ الـرَّفِيعَ الـدَّائمِ[1]

فَلا خَيرَ فِي نَفْسٍ تَخَافُ مِن الرَّدَىٰ ... ولا هِـمَّـةٍ تَـصبُو إلَــىٰ لَــومِ لائــمِ

ولا سبيلَ إلىٰ ركوبِ هذا الظَّهرِ إلا بأمرين:

أحدُهما: ألا يصبوَ في الحقِّ إلىٰ لومِ لائم، فإنَّ اللَّومَ يصيبُ الفارسَ فيصرعُهُ عن فرسِهِ، ويَجعلُهُ صريعًا في الأرضِ.

(١) هكذا وَرَدَ البيتُ في جميعِ طَبعَاتِ كتاب الإمام رَحِمَهُ ٱللَّهُ، بهذه الضرورة الشعريةِ القبيحةِ في كسرِ رقبةِ النحو، وما كان أجدرَ الإمامَ ابنَ القيمِ، وهو مَن هو سَعَةَ حفظٍ واطلاعٍ أن يستشهد بغيرِ هذا الشعرِ، وفيه ما فيه.

وَالثَّانِي: أن تهونَ عليه نفسهُ فِي اللهِ؛ فيُقدِمَ حينئذٍ ولا يخاف الأهوالَ، فمتىٰ خافت النفسُ تأخَّرت وأحجمت وأخلدت إلىٰ الأرضِ.

ولا يتمُّ له هذان الأمران إلا بالصبرِ، فَمَن صَبَرَ قليلًا صارت تلك الأهوالُ ريحًا رُخَاءً فِي حَقِّهِ تحملُهُ بنفسِها إلىٰ مطلوبهِ، فبينما هو يخاف منها، إذ صارت أعظمَ أعوانِهِ وخَدَمِهِ، وهذا أمرٌ لا يعرفه إلا من دَخَلَ فيه.

وأمَّا مَركبُهُ: فَصِدقُ اللُّجأ إلىٰ الله والانقطاعُ إليه بكُلِّيتِهِ، وتحقيقُ الافتقارِ إليه بكلِّ وجهٍ، والضراعةُ إليه، وصِدقُ التوكُّلِ والاستعانةِ، والانطراحُ بين يديه انطراحَ المثلومِ المكسورِ الفارغِ الذي لا شيء عنده، فهو يتطلَّعُ إلىٰ قيِّمِهِ ووَلِيِّهِ أن يُجِدَّهُ[(١)] ويَلُمَّ شَعَثَهُ، ويمدَّهُ من فضلِهِ ويستره، فهذا الذي يُرجىٰ له أن يتولَّىٰ الله هدايتَه، وأن يكشفَ له ما خَفِي علىٰ غيرِهِ من طريقِ هذه الهجرةِ، أي: الهجرة إليه سبحانه ومنازِلها»[(٢)].

مَدارُ صَلاحِ أَمرِ العَبْدِ:

مَدَارُ صَلاحِ أَمْرِ العبدِ -بعد توفيقِ الله تعالىٰ له- مَنُوطٌ بِعُلُوِّ هِمَّتِهِ، فمَن رُزِقَ همَّةً عاليةً لم تقف به عند منزلٍ، وإنَّما تسمو به عند كلِّ منزلٍ إلىٰ ما وراءه من المنازِلِ، كما قال عمرُ بن عبد العزيز ﷺ بعد أن رُزِقَ الخلافةَ وزَهِدَ فِي أُبَّهَتِهَا:

(١) **يُجِدُّهُ**: من أجَدَّ فلانٌ: صار ذا جِدٍّ واجتهادٍ، ويجدُّه: يجعله ذا جِدٍّ واجتهادٍ. القاموس المحيط (جدد) (١/ ١٠٩).

(٢)«زاد المهاجر إلىٰ ربه»، لابن القيم (ص٤٠).

«لقد رُزقتُ نفسًا تَوَّاقَةً، ما وصلت إلىٰ شيء إلا وتاقت إلىٰ ما وراءه، وقد رُزقتُ الدنيا فتاقت نفسي إلىٰ الآخرةِ».

والْجَمعُ بين العلم والعملِ شاقٌّ عسيرٌ، يَحتاجُ إلىٰ هِمَّةٍ عاليةٍ، تُورِثُ نَصَبًا لا يَزُولُ وتَعَبًا لا يَحُولُ.

قال ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن رُزِقَ همَّةً عاليةً يُعَذَّبُ بمقدارِ عُلُوِّهَا، كما قال الشاعرُ:

وإذَا كَانَـتِ الـنُّفُـوسُ كِـبَـارًا ... تَعِـبَت فِـي مُـرَادِهَا الأجـسَامُ

وقال الآخرُ:

وَلِكُـلِّ جِـسمٍ فِـي الـنُّحُـولِ بَلـيَّةٌ ... وَبَـلاءُ جِـسمِي مِـن تَفَـاوُتِ هِـمَّـتِي

وبيانُ هذا أنَّ مَن عَلَت هِمَّتُهُ؛ طَلَبَ العلومَ كلَّها، ولم يقتصر علىٰ بعضها، وطَلَبَ من كلِّ علمٍ نهايتَه، وهذا لا يحتمله البدنُ.

ثمَّ يرىٰ أنَّ المرادَ العملُ، فيجتهدُ في قيام الليلِ وصيام النَّهارِ، والجمعُ بين ذلك وبين العلم صعبٌ، ثمَّ يرىٰ تَركَ الدنيا ويحتاجُ إلىٰ ما لابُدَّ منه.

ويُحبُّ الإيثارَ ولا يقدرُ علىٰ البخلِ، ويتقاضاه الكرمُ البذلَ، ويمنعه عزُّ النفسِ عن الكسبِ من وجوه التبذُّلِ[1].

فإن هو جرىٰ علىٰ طبعِهِ من الكرمِ، احتاجَ وافتقرَ وتأثَّر بدَنُهُ وعائلتُهُ، وإن أمسكَ فطبعُهُ يأبىٰ ذلك.

---

(١) **التبذُّل**: تركُ الصيانةِ والترفعِ.

وفي الجملة يحتاجُ إلىٰ معاناةٍ وجمعٍ بين أضدادٍ، فهو أبدًا في نَصَبٍ لا ينقضي، وتعبٍ لا يفرغُ.

ثمَّ إذا حقَّقَ الإخلاصَ في الأعمالِ زادَ تعبُهُ، وقوي نَصبهُ، فأين هو ومَن دَنَت هِمَّتُهُ؟ إن كان فقيهًا فسئُلِ عن حديث قال: ما أعرفه، وإن كان محدِّثًا فسُئِلَ عن مسألةٍ فقهيَّةٍ، قال: ما أدري، ولا يبالي إن قيل عنه: مُقَصِّرٌ.

والعالي الهمَّةِ يرىٰ التقصيرَ في بعضَ العلومِ فضيحةً قد كشفت عيبَهُ، وقد أرَتِ النَّاسَ عَورَتَهُ.

والقصيرُ الهمَّةِ لا يُبَالي بمنَنِ النَّاسِ، ولا يستقبحُ سؤالهم، ولا يأنَفُ من رَدٍّ، والعالي الهمَّةِ لا يحملُ ذلك، ولكنَّ تعبَ العالي الهمَّةِ راحةٌ في المعنىٰ، وراحةُ القصيرِ الهمةِ تعبٌ وشَينٌ، إن كان ثَمَّ فَهمٌ.

والدنيا دارُ سباقٍ إلىٰ أعالي المعالي، فينبغي لذي الهمَّةِ ألا يُقَصِّرَ في شَوطِهِ، فإن سَبَقَ فهو المقصودُ، وإن كَبَا جوادُهُ مع اجتهادِهِ لم يُلَم»(١).

قال أبو الطيِّبِ:

إذَا غَامَـرتَ فِـي شَـرَفٍ مَـرُومِ ... فَـلا تَقْـنَعْ بِمَـا دُونَ الـنُّجُـومِ
فَطَعـمُ الْمَـوتِ فِـي أمـرٍ حَقِيـرٍ ... كَطَعـمِ الْمَـوتِ فِـي أمـرٍ عَظِـيمِ

---

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي (ص٥٧٠).

العَمَلُ مِن مَرَاتِبِ العلمِ، وَهُوَ ثَمَرَتُهُ:

جعلَ الإمامُ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ ٱللَّهُ العملَ مرتبةً من مراتبِ العلمِ، وجعلَ عدَمَ العملِ بالعلمِ موجِبًا للحرمانِ منه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق:٣٧]:

«**للعلمِ سِتُّ مراتبَ:**

أولها: حُسنُ السؤالِ.

الثانيةُ: حُسنُ الإنصاتِ والاستماعِ.

الثالثةُ: حُسنُ الفَهمِ.

الرابعةُ: الحفْظُ.

الخامسةُ: التَّعلِيمُ.

السادسةُ: وهي ثمرتُهُ، وهي العملُ به، ومراعاةُ حدودِهِ.

فَمِنَ النَّاسِ مَن يُحرَمُهُ لعَدَمِ حُسنِ سؤالِهِ؛ إمَّا أنَّه لا يَسأَلُ بحالٍ، أو يسأَلُ عن شيءٍ وغيرُهُ أهمُّ منه؛ كَمَن يسأَلُ عن فضولِهِ التي لا يضرُّ جهلُهُ بها، ويَدَعُ ما لا غِنَىٰ لَهُ عن معرفتِهِ، وهذه حالُ كثيرٍ من الْجُهَّالِ المتعلِّمين.

ومن النَّاس مَن يُحرَمُهُ لسُوءِ إنصاتِهِ، فيكونُ الكلامُ والمماراةُ آثَرَ عنده وأحبَّ إليه من الإنصاتِ؛ وهذه آفَةٌ كامنةٌ في أكثَرِ النفوسِ الطَّالِبَةِ للعلمِ، وهي تمنعُهُم علمًا كثيرًا، ولو كان حَسَنَ الفَهمِ...

والمقصودُ: بيانُ حرمانِ العلمِ من هذه الوجوهِ الستَّةِ:

أحدُها: تركُ السؤالِ.

الثاني: سوءُ الإنصاتِ وعدم إلقاءِ السَّمعِ.

الثالثُ: سُوءُ الفَهمِ.

الرابعُ: عَدَمُ الحفظِ.

الخامسُ: عَدَمُ نشرِهِ وتعليمِهِ، فإنَّ من خَزَنَ علمَهُ ولم ينشرهُ ولم يُعَلِّمْهُ ابتلاهُ الله بنسيانِهِ وذَهَابِهِ منه، جَزَاءً من جنسِ عملِهِ، وهذا أمرٌ يشهد به الحِسُّ والوجودُ.

السادسُ: عَدَمُ العملِ به؛ فإنَّ العملَ به يُوجِبُ تَذكُّرَهُ وتَدَبُّرهُ ومراعاتَهُ والنَّظَرَ فيه، فإذا أهمَلَ العملَ به نَسِيَهُ.

قال بعضُ السَّلفِ: كُنَّا نستعينُ علىٰ حفظ العلم بالعمل به.

وقال بعضُ السَّلفِ أيضًا: العلمُ يهتفُ بالعمل، فإن أجابَهُ حَلَّ وإلا ارتَحَل.

فالعملُ به من أعظمِ أسبابِ حفظِهِ وثباتِهِ، وتركُ العملِ به إضاعةٌ له.

فما استُدِرَّ العلمُ ولا استُجلِبَ بمثلِ العملِ؛ قالَ الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد:٢٨].

وأمَّا قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة:٢٨٢]، فليس من هذا البابِ، بل هما جملتان مستقلَّتان: طلبيَّةٌ؛ وهي الأمرُ بالتقوىٰ، وخَبَرِيَّة؛ وهي

قولُهُ تعالىٰ: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾، أي: ما تتَّقونَ، وليست جوابًا للأمرِ بالتقوىٰ، ولو أُريدَ بها الجزاءُ لأتىٰ بها مجزومَةً عن الواوِ، فكان يقولُ: فَاتَّقُوا الله يُعَلِّمْكُم كما قال: ﴿إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال:٢٩] فتدبَّرهُ»[(١)].

* العَقَبَاتُ الثَّلاثُ:

دون العبدِ ونجاتِهِ عَقَبَاتٌ ثلاثٌ؛ فالعقبةُ الأولىٰ: عقبةُ العلمِ بما جاء به النبيُّ ﷺ، فإن تَجاوزها وعَلِمَ، فعقبةُ العملِ بما عَلِمَ، فإن تجاوزها وعَمِلَ، فعقبةُ الإخلاصِ في العملِ.

وما من شرٍّ في العالَمِ إلا ومَبعثُهُ مخالفةُ الرسولِ ﷺ ظاهرًا وباطنًا أو هما معًا، فإذا صَحَّ التلقِّي عنه ﷺ وصحَّت المتابعةُ زالت الشرورُ علىٰ حَسَبِ قَوَّةِ التلقِّي وقوَّةِ المتابعةِ.

قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء:٥٩].

قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قولُهُ تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ أي: هذا الذي أمرتُكم به من طاعتي وطاعةِ رسولي وأولياءِ الأمرِ، ورَدِّ ما تنازعتم فيه إليَّ وإلىٰ رسولي، خيرٌ لكم في معاشِكم ومعادِكم، وهو سعادتُكم في الدارينِ، فهو خيرٌ لكم وأحسنُ عاقبةً.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥١١).

فدلَّ هذا علىٰ أنَّ طاعةَ الله ورسولِهِ، هو سببُ السعادةِ عاجلًا وآجلًا، ومَن تدبَّر العالَمَ والشرورَ الواقعةَ فيه علم أنَّ كلَّ شرٍّ في العالَمِ سَبَبُهُ مخالفةُ الرسولِ والخروجُ عن طاعتِهِ، وكلُّ خيرٍ في العالَمِ فإنَّه بسبب طاعةِ الرسولِ ﷺ.

وكذلك شرورُ الآخرةِ وآلامُها وعذابُها إنَّما هو من موجباتِ مخالفةِ الرسولِ ومقتضياتها، فعاد شَرُّ الدنيا والآخرةِ إلىٰ مخالفةِ الرسولِ وما يترتبُ عليه، فلو أنَّ النَّاسَ أطاعوا الرسولَ حقَّ طاعتِهِ لم يكن في الأرضِ شَرٌّ قطُّ، وهذا كما هو معلومٌ في الشرورِ العامَّةِ والمصائبِ الواقعةِ في الأرضِ، فكذلك هو في الشَّرِّ والألَمِ والغَمِّ الذي يصيبُ العبدَ في نفسِهِ، فإنَّما هو بسببِ مخالفةِ الرسولِ ﷺ، ولأنَّ طاعتَهُ هي الحصنُ الذي مَن دَخَلَهُ كان من الآمنين، والكهفُ الذي مَن لَجأَ إليه كانَ من الناجينَ.

فعُلِمَ أنَّ شرورَ الدنيا والآخرةِ إنَّما هو الجهلُ بما جاء به الرسولُ ﷺ والخروجُ عنه.

وهذا برهانٌ قاطعٌ علىٰ أنَّه لا نجاةَ للعبدِ ولا سعادةَ إلا بالاجتهادِ في معرفةِ ما جاء به الرسولُ ﷺ علمًا، والقيامِ به عملًا.

وكمالُ هذه السعادةِ بأمرين آخرين:

أحدُهما: دعوةُ الخلقِ إليه.

والثاني: صَبْرُهُ واجتهادُهُ علىٰ تلك الدعوةِ.

فانحصر الكمالُ الإنسانيُّ علىٰ هذه المراتبِ الأربعِ:

أحدُها: العلمُ بما جاء به الرسولُ ﷺ.

والثانيةُ: العمل به.

والثالثةُ: نشرُهُ في النَّاسِ ودعوتُهم إليه.

والرابعةُ: صبرُهُ وجهادُهُ في أدائِهِ وتنفيذِهِ.

ومَن تطلَّعت همَّتُه إلىٰ معرفةِ ما كانَ عليه الصحابةُ ﷺ وأراد اتباعَهم، فهذه طريقتُهم حقًّا.

فَإِن شِئتَ وَصْلَ القَومِ فَاسْلُكْ سَبيلَهم   فَقَدْ وَضَحَتْ لِلسَّالِكِينَ عِيَانَا»(١)

وعليه فالعِلمُ بما جاءَ به الرسولُ ﷺ من غيرِ عَملٍ به لا يُؤَدِّي إلىٰ النجاة فضلًا عن أن يؤدي إلىٰ كمالِ السعادةِ وتمامِ الفَلاحِ.

قالَ بعضُ الحكماءِ: «لولا العقلُ لم يكن علمٌ، ولولا العلمُ لم يكن عملٌ، ولأن أدَعَ الحقَّ جهلًا به خيرٌ من أن أدعه زهدًا فيه.

وقالوا: مَن حَجَبَ الله عنه العلمَ عذَّبَهُ علىٰ الجهلِ، وأشدُّ منه عذابًا مَن أقبل عليه العلمُ فأدبرَ عنه، ومَن أهدىٰ الله إليه علمًا فلم يعمل به.

وعن ميمون بن مهران قال: قال أبو الدرداء: ويلٌ لمن لا يعلمُ ولا يعملُ مَرَّةً، وويلٌ لمن يعلمُ ولا يعملُ سَبعَ مرَّاتٍ.

وقال رجلٌ لإبراهيمَ بنِ أدهمَ: قال الله ﷻ: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ فما لنا ندعو فلا يُستجابُ لنا؟ فقال إبراهيم: من أجلِ خمسةِ أشياءَ، قال: وما هي؟ قال:

(١) «زاد المهاجر إلىٰ ربِّه» لابن القيم (ص٢٩).

عرفتم الله فلم تؤدُّوا حقَّه، وقرأتُم القرآنَ فلم تعملوا بما فيه، وقلتم نحبُّ الرسولَ وتركتُم سنَّتَهُ، وقلتم: نلعنُ إبليس وأطعتموه، والخامسة: تركتُم عيوبَكم وأخذتُم في عيوبِ النَّاسِ»(١).

مَنْزِلَةُ الفِـرَارِ:

ومن منازِل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ : منزلةُ الفِرارِ.

قال الله تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات:٥٠]، وحقيقةُ الفرارِ: الهربُ من شيءٍ إلىٰ شيءٍ، وهو نوعان: فرارُ السُّعَدَاءِ، وفرارُ الأشقياءِ.

ففرارُ السعداءِ: الفرارُ إلىٰ الله ﷻ، وفرارُ الأشقياءِ: الفرارُ منه لا إليه.

وأمَّا الفرارُ منه إليه: ففرارُ أوليائِه، قال ابن عباسٍ في قوله تعالىٰ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾، فِرُّوا منه إليه، واعملوا بطاعتِهِ، وقال سهلُ بنُ عبد الله: فرُّوا ممَّا سوىٰ الله إلىٰ الله، وقال آخرون: اهربوا من عذابِ الله إلىٰ ثوابِهِ بالإيمانِ والطاعةِ.

وقال صاحبُ المنازِلِ: «هو الهربُ ممَّا لم يكن إلىٰ مَن لم يَزَلْ، وهو علىٰ ثلاث درجاتٍ: فرار العامةِ من الجهلِ إلىٰ العلمِ عَقْدًا وسَعيًا، ومن الكسلِ إلىٰ التشميرِ جِدًّا وعَزمًا، ومن الضيق إلىٰ السَّعةِ ثقةً ورجاءً».

يريدُ بما لم يَكُنْ: الْخَلقَ، وبما لم يَزَلْ: الْحَقَّ.

وقولُهُ: فِرارُ العامَّةِ من الجهلِ إلىٰ العلمِ عَقْدًا وسَعيًا.

---

(١) «جامع بيان العلم» لابن عبد البر (٢/ ٤).

الجهل نوعان: عدُم العلمِ بالحقِّ النافعِ، وعدمُ العملِ بموجبِهِ ومقتضاه.

فكلاهما جهلٌ لغةً وعُرفًا وشرعًا وحقيقةً، قال موسىٰ: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة:٦٧]، لما قال له قومُهُ: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾، أي: من المستهزئين، وقال يوسفُ الصِّدِّيقُ: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، أي: مِنْ مرتكبي ما حرَّمتَ عليهم، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ﴾ [النساء:١٧]، قال قتادةُ: أجمع أصحابُ رسولِ اللهِ ﷺ أنَّ كلَّ ما عُصِيَ اللهُ به فهو جهالةٌ، وقال غيرُهُ: أجمعَ الصحابةُ أنَّ كلَّ مَن عصىٰ اللهَ فهو جاهلٌ، وقال الشاعرُ:

أَلَا لَا يَجهَلَــــن أحَـــدٌ عَلَيــــنَا ... فَــنَجْهَلَ فَــوقَ جَهْــلِ الْجَاهِلِيــنَا

وسُمِّيَ عدمُ مراعاةِ العلمِ جهلًا، إمَّا لأنَّه لم يُنتفع به، فَنُزِّلَ منزلة الجهلِ، وإمَّا لجهلِهِ بسوءِ ما تجني عواقبُ فعلِهِ.

فالفرارُ المذكورُ: هو الفرارُ من الجهلين: من الجهلِ بالعلمِ إلىٰ تحصيلِهِ، اعتقادًا ومعرفةً وبصيرةً، ومن جهلِ العملِ إلىٰ السعي النافعِ، والعملِ الصالحِ قصدًا وسعيًا.

قولُهُ: ومن الكسلِ إلىٰ التشميرِ جِدًّا وعزمًا.

أي: يفرُّ من إجابةِ داعي الكسلِ إلىٰ داعي العملِ والتشميرِ بالجِدِّ والاجتهادِ.

والجِدُّ هاهنا هو صِدقُ العملِ، وإخلاصُهُ من شوائبِ الفتورِ، ووعودِ التسويفِ والتهاونِ وهو تحت السين وسوفَ، وعسىٰ، ولعلَّ، فهي أضرُّ شيءٍ علىٰ العبدِ، وهي شجرةٌ ثمرُهَا الحسراتُ والنداماتُ.

والفرقُ بين الْجِدِّ والعزمِ: أنَّ العزمَ صِدقُ الإرادةِ واستجماعُهَا، والجِدَّ صِدقُ العملِ وبذلُ الجَهدِ فيه.

وقد أمر الله ﷻ بتلقِّي أوامرِهِ بالعزمِ والْجِدِّ فقال: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ [البقرة:٦٣]. وقال: ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ [الأعراف:١٤٥]. وقال: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖ﴾ [مريم:١٢] أي: بجدٍّ واجتهادٍ وعزمٍ، لا كمن يأخذُ ما أُمِرَ بِهِ بتردُّدٍ وفتورٍ»[١].

وقد أخرج الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بسندِهِ عن أبي القاسمِ الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: «متىٰ أردتَ أن تشرَّفَ بالعلمِ وتُنسبَ إليه، وتكونَ من أهلِهِ، قبل أن تُعطيَ العلمَ ما له عليك، احتَجَبَ عنكَ نورُهُ، وبقي عليك وسمُهُ وظهورُهُ.

ذلك العلمُ عليك لا لك، وذلك أنَّ العِلمَ يشيرُ إلىٰ استعمالِهِ، فإذا لم تستعمل العلم في مراتبِهِ رحلت بركاتُهُ.

وقال أبو قلابَةَ لأيوبَ -رحمهما الله-: يا أيوبُ، إذا أحدَثَ الله لك علمًا فأحدث لله عبادةً، ولا يكوننَّ هَمَّكَ أن تُحَدِّثَ به النَّاسَ.

وقال فضيلُ بن عياضٍ: لا يزالُ العالمُ جاهلًا بما علم، حتىٰ يعملَ به، فإذا عَمِلَ به كان عالمًا»[٢].

والعملُ بالعلمِ، وحَملُ النَّفسِ علىٰ ما تكره من مضادَّةِ الْهَوىٰ، ومُجانبةُ

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٤٦٩).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب (ص٣١).

الشهواتِ من جهادِ النفسِ.

«**وجهادُ النَّفسِ أربعُ مراتبَ:**

إحداها: أن يُجَاهِدَهَا علىٰ تعلُّمِ الْهُدَىٰ، ودينِ الْحَقِّ الذي لا فلاحَ لَهَا، ولا سعادةَ في معاشِهَا ومعادِهَا إلا به، ومتىٰ فاتَهَا عِلمُهُ، شقيت في الدَّارين.

الثانيةُ: أن يُجَاهِدَهَا، علىٰ العمل به بعد علمِهِ، وإلا فمجرَّدُ العلمِ بلا عملٍ إن لم يَضُرَّها لم ينفعها.

الثالثةُ: أن يُجَاهِدَهَا علىٰ الدعوة إليه، وتعليمِهِ مَن لا يعلمُهُ، وإلا كان من الذين يكتُمون ما أنزل الله من الهدىٰ والبيناتِ، ولا ينفُعُه علمُهُ، ولا يُنجِيه، من عذابِ الله.

الرابعةُ: أن يُجَاهِدَهَا علىٰ الصبرِ علىٰ مشاقِّ الدعوةِ إلىٰ الله، وأذىٰ الخلقِ، ويتحمَّل ذلك كلَّه لله.

فإذا استكملَ هذه المراتبَ الأربعَ صار من الرَّبَّانيينَ، فإنَّ السَّلَفَ مُجمِعُونَ علىٰ أنَّ العَالِمَ لا يستحِقُّ أن يُسمَّىٰ ربانيًّا حتىٰ يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَهُ فمَن علم وعَمِلَ وعَلَّمَ فذاك يُدعىٰ عظيمًا فِي ملكوتِ السَّمَوات»[1].

«**ومراتبُ العلمِ والعملِ ثلاثٌ:**

روايةٌ: وهي مجرَّدُ النَّقلِ وحَملِ المرويِّ.

ودرايةٌ: وهي فهمُهُ وتعقُّلُ معناه.

---

(١) «زاد المعاد» لابن القيم، تحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوطيين (٣/ ١٠).

ورعايةٌ: وهي العملُ بموجبِ ما علمَهُ ومقتضاه.

فالنَّقَلَةُ هِمَّتُهم الروايةُ، والعلماءُ همَّتُهم الدرايةُ، والعارفون همَّتُهم الرعايةُ.

وقد ذَمَّ الله مَن لم يَرعَ ما اختارَهُ وابتدعَهُ من الرهبانيةِ حقَّ رعايتِهِ، فقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَـٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَـآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧]، فالوقفُ التامُّ عند قولِهِ: ﴿وَرَحْمَةً﴾، ثمَّ يبتدئُ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾؛ أي: لم نشرعها لهم، بل هم ابتدعوها من عند أنفسِهم، ولم نكتبها عليهم، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾، منصوبٌ بمقدَّرٍ محذوفٍ مُفَسَّرٍ بهذا المذكورِ، علىٰ قولِ البصريين،أي: وابتدعوا رهبانيةً، وليس منصوبًا بوقوعِ الْجَعلِ عليه.

أمَّا نَصبُ قولِهِ تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَـآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾، فالصوابُ أنَّه منصوبٌ نَصبَ الاستثناءِ المنقطعِ؛ أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلبِ رضوانِ الله، ودلَّ علىٰ هذا قولُهُ: ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾، ثم ذكر الحاملَ لهم والباعثَ علىٰ ابتداعِ هذه الرهبانيةِ، وأنَّه هو طلبُ رضوانِ الله، ثمَّ ذمَّهم بتركِ رعايتها.

والقصدُ: أنَّ الله ﷻ ذَمَّ مَن لم يَرعَ قُربَةً ابتدعها لله تعالىٰ حَقَّ رعايَتِهَا، فكيف بِمَن لم يَرعَ قُربَةً شرعَها الله لعبادِهِ، وأَذِنَ بها وحَثَّ عليها؟!»[١].

وأعلىٰ أصنافِ العلماء منزلةً: العالمُ العاملُ المعلِّمُ، ويليها العالمُ العاملُ الذي لم يفرِّط، وأمَّا العلمُ الخالي من العملِ، الحالي بالبطالةِ والأملِ، فهو وَبَالٌ علىٰ صاحبِهِ، وفتنةٌ للخَلقِ.

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٦٠).

«**العلماءُ ثلاثةٌ**:

* عالِمٌ استنارَ بنورِهِ واستنار به النَّاسُ، فهذا من خلفاءِ الرُّسُلِ وورثةِ الأنبياءِ.

* وعالِمٌ استنارَ بنورِهِ ولم يستنر به غيرُهُ، فهذا إن لم يفرِّط كان نفعُهُ قاصرًا علىٰ نفسِهِ.

* وعالِمٌ لم يستنر بنورِهِ، ولا استنارَ به غيرهُ، فهذا علمُهُ وبالٌ عليه»[1].

وللعلمِ الصحيحِ ثمرةٌ في القلبِ والجوارحِ واللِّسَانِ، فمَن فَقَدَ تلك الثمرةَ فهو مغبونٌ، وعلمُهُ صورةُ العلمِ دون حقيقتِهِ، والوقوفُ مع صورةِ العلمِ دون حقيقتِهِ ضربٌ من الْخَبَالِ.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَجدتُ رَأيَ نفسي في العلمِ حَسَنًا، فهي تقدِّمُهُ علىٰ كلِّ شيءٍ، وتعتقدُ الدليلَ، وتفضِّلُ ساعةَ التشاغلِ به علىٰ ساعاتِ النوافلِ، وتقولُ: أقوىٰ دليلٍ لي علىٰ فَضلِهِ علىٰ النوافلِ، أنِّي رأيتُ كثيرًا ممَّن شغلتهم نوافلُ الصلاةِ والصومِ عن نوافلِ العلمِ عاد ذلك عليهم بالقَدحِ في الأصولِ، فرأيتُهَا في هذا الاتجاه علىٰ الجادَّةِ السَّهلةِ والرأي الصحيحِ.

إلا أنِّي وجدتُها واقفةً مع صورةِ التشاغلِ بالعلمِ، فصحتُ بها: فما الذي أفَادَكِ العلمُ؟ أين الخوفُ؟ أين القلقُ؟ أين الحَذَرُ؟

أَوَمَا سمعت بأخبارِ أخيارِ الأحبارِ في تعبُّدهم واجتهادهم؟

أمَا كانَ الرسولُ ﷺ سيِّدَ الكُلِّ، ثمَّ إنَّه قام حتَّىٰ وَرِمَت قدماه؟

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٠٢).

أمَا كان أبو بكرٍ رضي الله عنه شَجِيَّ النشيجِ، كثيرَ البكاءِ؟

أمَا كان في خَدِّ عمر رضي الله عنه خَطَّانِ من آثارِ الدموعِ؟

أمَا كانَ عثمانُ رضي الله عنه يختمُ القرآنَ في ركعةٍ(١)؟

أمَا كان عليٌّ رضي الله عنه يبكي بالليلِ في محرابِهِ حتىٰ تَخضَلَّ لحيتُهُ بالدموعِ؟

ويقول: يا دُنيَا غُرِّي غيري؟

أمَا كانَ الحسنُ البصري يحيا علىٰ قوَّةِ القَلَقِ؟

أمَا كانَ سعيدُ بنُ المسيِّبِ ملازمًا للمسجدِ، فلم تَفُتْهُ صلاةٌ في جماعةٍ أربعين سنةً؟

أمَا صَامَ الأسودُ بنُ يزيدَ حتىٰ اخضَرَّ واصفرَّ؟(٢).

أما قالت بنتُ الربيعِ بن خثَيمٍ له: ما لي أرىٰ النَّاسَ ينامون وأنت لا تنامُ؟

فقال: إنَّ أباكِ يخافُ عذَابَ البياتِ.

أمَا كان أبو مسلمٍ الخولانيُّ يُعَلِّقُ سَوطًا في المسجدِ يؤدِّبُ به نفسَه إذا فتَرَ؟

أمَا صَامَ يزيدُ الرقاشيُّ أربعين سنةً؟ وكان يقولُ: وا لهفاهُ! سبقني العابدون، وقُطِعَ بي.

---

(١) نُقلت آثارٌ كثيرةٌ في هذا ومثله في مثل: «التبيان» للنووي، وهو مُسَلَّمٌ لأصحابِهِ إن صحَّ النقلُ عنهم، ولا يُقَاسُ عليه، والسنَّةُ ألا تَقلَّ أيامُ الختم عن ثلاثة، ومرة أخرىٰ: أولئك مسلَّمٌ لهم حالُهم -رضي الله عنهم وأرضاهم- ولا يُقاسُ عليهم.

(٢) ذكر الذَّهبيُّ في «سير أعلام النبلاء» (٤/ ٥٢): أنَّه لعلَّه لم يبلغه النهيُ أو تأوَّل.

أمَا صَامَ منصورُ بن المعتمرِ أربعين سنةً؟

أمَا كان سفيانُ الثوريُّ يبكي الدمَ من الخوفِ؟

أمَا كَانَ إبراهيمُ بن أدهم يبولُ الدمَ من الخوفِ؟

أما تعلمين أخبارَ الأئمةِ الأربعةِ في زهدِهم وتعبُّدِهم؟ أبو حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد.

احذري من الإخلادِ إلىٰ صورةِ العلمِ، مع ترك العمل به، فإنَّها حالةُ الكُسَالَىٰ والزَّمْنَىٰ(١):

وَخُذْ لَكَ مِنكَ عَلَىٰ مُهلَةٍ ... وَمُقْبِلُ عَيشِكَ لم يُدبِرِ

وَخَفْ هَجْمَةً لا تُقِيلُ العِثَا ... رَ وَتَطوِي الوُرُودَ عَلَىٰ الْمَصدَرِ

وَمَثِّلِ لِنَفسِكَ أيُّ الرَّعِيـ ... ـلِ يَضُمُّكَ فِي حَلْبَةِ الْمَحشَرِ»(٢)

ولا يغيبنَّ عن البالِ هنا ذلك التوجيهُ النبويُّ العظيمُ بوضعِ العملِ في دائرةِ الطاقةِ، وجَعلِ الفعلِ في إطارِ الاستطاعةِ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «**اكْلَفُوا مِنَ الأعمَالِ مَا تُطِيقُونَ**»(٣) متفقٌ عليه.

---

(١) **الزَّمانةُ**: مرضٌ يدوم، والزَّمِنُ: وصفٌ من الزمانة، والجمعُ: زَمْنَىٰ.

(٢) «صيد الخاطر» (ص٧٠).

(٣) رواه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١١٠٣).

اكلفوا: خذوا وتحملوا.

ما تطيقون: ما تقدرون عليه دون مشقَّةٍ.

ومن هذا التوجيه النبويِّ ينطلقُ ابنُ الجوزي فيقول فِي «صيد الخاطر» (ص ٢٠٥): «ينبغي للعاقلِ ألا يُقدم علىٰ العزائمِ حتَىٰ يزنَ نفسَه، هل يطيقها؟ ويجرِّبَ نفسَه في ركوبِ بعضِها سِرًّا من الخَلقِ، فإنَّه لا يأمن أن يُرَىٰ في حالةٍ لا يصبر عليها، ثمَّ يعود فَيُفْتَضَحَ.

مثالُهُ: رجلٌ سمع بذكرِ الزُّهَّادِ فرمىٰ ثيابَهُ الجميلةَ، ولبسَ الدُّونَ، وانفردَ في زاويةٍ، وغَلَبَ علىٰ قلبِهِ ذِكرُ الموتِ والآخرةِ، فلم يلبث مُتَقَاضي الطَّبعِ أن ألحَّ بما جَرَت به العادةُ.

فمن القومِ مَن عادَ بمرَّةٍ إلىٰ أكثرَ ممَّا كان عليه؛ كأكلِ النَّاقِهِ(١) من مرضٍ، ومنهم مَن توسَّطَ الحالَ فبقيَ كالمذبذبِ.

وإنما العاقلُ هو الذي يسترُ نفسَهُ بين النَّاسِ بثوبٍ وَسَطٍ لا يُخرجُهُ من أهلِ الخيرِ ولا يُدخلُهُ في زِيِّ أهلِ الفاقةِ، فإن قويت عزيمتُهُ عَمِلَ في بيتِهِ ما يطيقُ، وتَرَكَ ثَوبَ التجمُّلِ لسَترِ الحالِ، ولم يُظهر شيئًا للخلقِ، فإنَّه أبعدُ من الرياءِ وأسلمُ من الفضيحةِ.

وفي النَّاسِ مَن غَلَبَ عليه قصرُ الأملِ وذكرُ الآخرةِ حتىٰ دَفَنَ كتبَ العلمِ، وهذا الفعلُ عندي من أعظمِ الخطأِ، وإن كان منقولًا عن جماعةٍ من الكبارِ.

ولقد ذكرتُ هذا لبعضِ مشايخنا فقال: أخطَؤوا كلُّهم.

وقد تأوَّلتُ لبعضِهم بأنَّه كان فيها أحاديثُ عن قومٍ ضعفاءَ ولم يميِّزُوها، كما

(١) **النَّاقهُ**: منْ شفي من مرضٍ وهو حديثُ عهدٍ به.

رُوي عن سفيانَ عندما دَفَنَ كُتُبَهُ.

أو كان فيها شيءٌ من الرأي فلم يحبُّوا أن يُؤخذَ عنهم، فكان من جنسِ تحريقِ عثمان بن عفانَ رضي الله عنه للمصاحفِ، لِئَلَّا يُؤخَذَ بشيءٍ مِمَّا فيها من المجمعِ علىٰ غيرهِ.

وهذا التأويلُ يصحُّ في حقِّ علمائهم.

فأمَّا غسلُ أحمد بن أبي الحواري كتبَهُ، وابن أسباطٍ، فتفريطٌ مَحضٌ.

فالحذَرَ الحذَرَ من فِعلٍ يمنعُ منه الشَّرعُ، أو من ارتكابِ ما يظنُّ عزيمةً وهو خطيئةٌ، أو من إظهارِ ما لا يقوىٰ عليه المظهِرُ فيرجع القهقرىٰ.

وعليكم من العملِ بما تُطيقون، كما قَالَ ﷺ».

ومعنىٰ هذا أن يبذُلَ المرءُ جهدَهُ ويستفرِغَ وُسعَه، ولا يقصِّرَ في بذلٍ، ولا يبخل علىٰ العملِ بعطاءٍ، لأنَّه لا يصلُحَ العلمُ مع قِلَّةِ العملِ، وهذه نظرةُ ابن الجوزيِّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سبيلِ صلاح القلوبِ بالجمعِ بين العلم والعملِ، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «رأيتُ الاشتغالَ بالفقهِ وسماعِ الحديثِ لا يكادُ يكفي في صلاحِ القلبِ، إلا أن يُمزَجَ بالرقائقِ والنظرِ في سِيرَ السَّلَفِ الصالحين، لأنَّهم تناولوا مقصودَ النَّقلِ، وخرجوا عن صُورِ الأفعالِ المأمورِ بها إلىٰ ذوقِ معانيها، والمرادِ بها.

وما أخبرتُك بهذا إلا بعد معالجةٍ وذَوقٍ؛ لأنِّي وَجَدتُ جمهورَ المحدِّثين وطلابَ الحديثِ، همَّةُ أحدِهم في الحديثِ العالي وتكثيرِ الأجزاءِ.

وجمهورَ الفقهاءِ في علوم الجَدَلِ، وما يُغَالَبُ به الخَصمُ.

وكيف يَرِقُّ القلبُ مع هذه الأشياءِ؟

وقد كان جماعةٌ من السَّلَفِ يقصدون العبدَ الصالحَ للنظرِ إلىٰ سَمتِهِ وهَديه لا لاقتباسِ علمِهِ.

وذلك أنَّ ثمرةَ علمِهِ هديُهُ وسمتُهُ، فافهم هذا وامزج طَلَبَ الفقهِ والحديثِ بمطالعةِ سِيَرِ السَّلَفِ والزُّهَّادِ في الدنيا، ليكون سببًا لرقَّةِ قلبكِ، والله الموفِّقُ للمقصودِ، ولا يصلحُ العملُ مع قِلَّةِ العلمِ.

فَهُمَا في ضَربِ المثَلِ كسائقٍ وقائدٍ، والنَّفسُ بينهما حَرُونٌ، ومع جِدِّ السائقِ والقائدِ ينقطعُ المنزلُ، ونعوذُ بالله من الفُتُورِ»[1].

لقد حضَّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ علىٰ النظرِ في سِيَرِ السَّلَفِ، وقد صار هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ لنا سلفًا، فالنظرُ في سيرته هو، يرويها بنفسِهِ عن نفسه بليغٌ في بلاغِ البيانِ، وفصيحٌ في الإفصاحِ عن حقيقةِ هذا الشانِ.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ **في «صيد الخاطر» (ص٢٧٥)**: «لقد تأمَّلتُ نفسي بالإضافةِ إلىٰ عشيرتي الذين أنفقوا أعمارَهم في اكتسابِ الدنيا، وأنفقتُ زَمَن الصَّبْوَةِ والشبابِ في طَلَبِ العلمِ، فرأيتني لم يفتني مما نالوه إلا ما لو حَصَلَ لي نَدِمتُ عليه. ثمَّ تأمَّلتُ حالي فإذا عيشي في الدنيا أجودُ من عيشهم، وجاهي بين النَّاسِ أعلىٰ من جاههم، وما نلتهُ من معرفةِ العلمِ لا يُقَاوَمُ.

فقالَ لي إبليسُ: ونسيتَ تَعبَكَ وسَهَرَك؟

فقلتُ له: أيُّهَا الجاهلُ، تقطيعُ الأيدي لا وَقعَ له عند رؤيةِ يوسفَ.

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٥٣).

وما طالت طريقٌ أدَّت إلىٰ صديقٍ:

جَـزَىٰ اللَّـه الْمَـسيرَ إلَيـهِ خَيـرًا وَإن تَـرَكَ الْمَطَايَـا كَالْمَـزَادِ(١)

ولقد كنتُ في حلاوةِ طلبي العلمَ ألقىٰ من الشدائدِ ما هو عندي أحلىٰ من العسلِ لأجلِ ما أطلبُ وأرجو.

كنتُ زمانَ الصِّبَا آخُذُ معي أرغفةً يابسةً فأخرج في طلبِ الحديثِ، وأقعدُ علىٰ نهرِ عيسىٰ، فلا أقدرُ علىٰ أكلِهَا إلا عند الماءِ، فكلَّما أكلتُ لقمةً شربتُ عليها، وعَينُ همتي لا ترىٰ إلا لَذَّةَ تَحصيلِ العلمِ.

فأثمر ذلك عندي أنِّي عُرفتُ بكثرةِ سماعي لحديث الرسولِ ﷺ وأحوالِهِ وآدابِهِ، وأحوالِ أصحابِهِ وتابعيهم.

وأثمرَ ذلك عندي من المعاملةِ ما لا يُدركُ إلا بالعلمِ، حتىٰ إنني أَذكُرُ في زمانِ الصبوةِ، ووقتِ الغُلمَةِ(٢) والعُزبَةِ قدرتي علىٰ أشياءَ كانت النفسُ تَتُوقُ إليها توقَان العطشان إلىٰ الماءِ الزُّلالِ، ولم يمنعني عنها إلا ما أثمر عندي العلمُ من خوفِ الله ﷻ .

ولولا خطايا لا يخلو منها البشرُ، لقد كنتُ أخاف علىٰ نفسي من العُجبِ، غير أنَّه ﷻ صانني، وعلَّمني، وأطلعني من أسرارِ العلمِ علىٰ معرفتِهِ، وإيثارِ الخَلوةِ به، حتَّىٰ إنَّه لو حَضَرَ معي معروفٌ وبِشرٌ(٣) لرأيتُهما زَحْمَةً.

(١) **المزادةُ**: وعاءٌ يُحمل فيه الماءُ في السَّفَرِ، كالقِربَةِ ونحوِها، والجمعُ: مَزَادٌ.

(٢) **الغُلمَةُ**:شدَّةُ الشهوةِ للجماعِ.

(٣) معروفٌ الكرخيُّ أبو محفوظ من كبار الزهاد، وبشرُ بن الحارثِ الزاهدُ المعروف.

ثمَّ عادَ فغمسني في التقصيرِ والتفريطِ حتَّىٰ رأيتُ أقلَّ النَّاسِ خيرًا مني.

وتارةً يُوقظني لقيامِ الليلِ ولذَّةِ مناجاتِهِ، وتارةً يحرمني ذلك مع سلامةِ بدني.

ولولا بشارةُ العلمِ بأنَّ هذا نوعُ تهذيبٍ وتأديبٍ لخرجتُ إمَّا إلىٰ العجبِ عند العملِ، وإمَّا إلىٰ اليأسِ عند البطالةِ لكنَّ رجائي في فضلِهِ قد عَادَلَ خوفي منه.

وقد يغلبُ الرجاءُ بقوَّةِ أسبابِهِ؛ لأنِّي رأيتُ أنَّه قد ربَّاني منذ كنتُ طفلًا، فإنَّ أبي قد مات وأنا لا أعقلُ، والأمُّ لم تلتفت إليَّ، فركزَ في طبعي حبَّ العلمِ، وما زال يوقعني علىٰ المهمِّ فالمهمِّ، ويحملني إلىٰ مَن يحملني علىٰ الأصوبِ حتَّىٰ قَوَّمَ أمري.

وكم قد قَصَدَني عدوٌّ فصدَّه عَنِّي، وإذ رأيتُه قد نصرني وبصَّرني ودافعَ عني ووهبَ لي، وقَوَّىٰ رجائي في المستقبلِ بما قد رأيتُ في الماضي.

ولقد تاب علىٰ يديَّ في مجالسِ الذِّكرِ أكثرُ من مئتي ألفٍ، وأسلم علىٰ يديَّ أكثرُ من مئتي نَفسٍ.

وكم سالت عينُ متجبِّرٍ بوعظي لم تكن تسيلُ.

ويحقُّ لمن تَلَمَّحَ هذا الإنعامَ أن يرجو التمامَ.

وربَّما لاحت أسبابُ الخوفِ بنظري إلىٰ تقصيري وزَلَلي.

ولقد جلستُ يومًا فرأيتُ حولي أكثرَ من عشرةِ آلافٍ ما فيهم إلا مَن قد رَقَّ قلبُهُ، أو دمعت عينُهُ، فقلتُ لنفسي: كيف بكِ إذا نَجَوا وهلكت؟ فصحتُ بلسانِ وَجدِي: إلهي وسيدي! إن قضيتَ عليَّ بالعذابِ غدًا فلا تُعْلِمْهُم بعذابي، صيانةً لكرمكَ لا لأجلي، لِئلا يقولوا: عَذَّبَ مَن دَلَّ عليه.

إِلَهِي! قد قيل لنبيِّك ﷺ: اقتل ابن أُبيٍّ المنافقَ، فقال: «**لا يتحدَّثُ النَّاسُ أنَّ محمدًا يقتلُ أصحابَهُ**»(١).

إِلَهِي! فاحفظ حسنَ عقائِدهم فيَّ بكرمِكَ أن تُعْلِمَهُم بعذابِ الدليلِ عليك.

حاشاك وعزَّتِكَ يا ربِّ من تكديرِ الصافي.

لا تَبْرِ عُودًا أنتَ ريَّشتَهُ ... حَاشَىٰ لِبَانِي الْجُودِ أن يَنْقُضَا

لا تُعْطِشِ الزَّرعَ الذي نَبتُهُ ... بِصَوبِ إنعَامِكَ قَد رَوَّضَا»

تَسَاؤلٌ وَجَوَابٌ:

«لَمَّا كان طلبُ العلمِ والبحثُ عنه وكتابتُهُ والتفتيشُ عليه من عَمَلِ القلبِ والجوارحِ كان من أفضلِ الأعمالِ، ومنزلتُهُ من عَمَلِ الجوارحِ كمنزلةِ أعمالِ القلب من الإخلاصِ والتوكُّلِ والمحبَّةِ والإنابةِ والخشيةِ والرِّضَا ونحوها من الأعمالِ الظاهرةِ.

فإن قيل: فالعلمُ إنما هو وسيلةٌ إلىٰ العَمَلِ ومُرَادٌ له، والعملُ هو الغايةُ، ومعلومٌ أنَّ الغايةَ أشرفُ من الوسيلةِ فكيف تُفَضَّلُ الوسائلُ علىٰ غاياتِها؟

قيل: كلٌّ من العلمِ والعملِ ينقسمُ قسمين:

منه ما يكونُ وسيلةً.

ومنه ما يكونُ غايةً.

(١) رواه البخاري (٤٦٢٤)، ومسلم (٢٥٨٤).

فليس العلمُ كلُّه وسيلةً مرادةً لغيرِها؛ فإنَّ العلمَ بالله وأسمائِه وصفاتِهِ هو أشرَفُ العلومِ على الإطلاقِ، وهو مطلوبٌ لنفسهِ مُرادٌ لذاتِهِ، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق:١٢]، فقد أخبر سبحانه أنَّه خَلقَ السَّمَواتِ والأرضَ ونزَّلَ الأمرَ بينهنَّ ليُعلِمَ عبادَهُ أنَّه بكلِّ شيءٍ عليمٌ، وعلىٰ كلِّ شيءٍ قديرٌ، فهذا العلمُ هو غايةُ الخَلقِ المطلوبةُ، وقال تعالىٰ:﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد:١٩].

فالعلمُ بوحدانيتهِ تعالىٰ وأنَّه لا إله إلا هو مطلوبٌ لذاتِهِ وإن كان لا يُكتفىٰ به وحدَهُ، بل لابُدَّ معه من عبادتِهِ وحدَهُ لا شريكَ له، فهما أمران مطلوبان لأنفسِهما: أن يُعرَفَ الرَّبُّ تعالىٰ بأسمائِهِ وصفاتِهِ وأفعالِهِ وأحكامِهِ، وأن يُعبَدَ بموجبِها ومُقتَضاها، فكما أنَّ عبادَتهُ مطلوبةٌ مرادةٌ لذاتها، فكذلك العلمُ به ومعرفتُهُ.

وأيضًا؛ فإنَّ العلمَ مِن أفضلِ أنواعِ العباداتِ، فهو مُتضَمِّنٌ للغايةِ والوسيلةِ.

وقولُكم: إنَّ العملَ غايةٌ، إمَّا أن تريدوا به العملَ الذي يَدخُلُ فيه عملُ القلبِ والجوارحِ، أو العملَ المختصَّ بالجوارحِ فقط.

فإن أُريد الأولُ فهو حَقٌّ، وهو يدلُّ علىٰ أنَّ العلمَ غايةٌ مطلوبةٌ لأنَّه من أعمالِ القلبِ.

وإن أريد به الثاني، وهو عملُ الجوارحِ فقط، فليس بصحيحٍ، فإنَّ أعمالَ القلوبِ مقصودةٌ ومرادةٌ لذاتِها، بل في الحقيقةِ أعمالُ الجوارحِ وسيلةٌ مرادةٌ لغيرها؛ فإنَّ الثوابَ والعقابَ والمدحَ والذَّمَّ وتوابِعَها هو للقلبِ أصلًا وللجوارحِ تبعًا،

وكذلك الأعمالُ المقصودُ بها أوَّلًا صلاحُ القلبِ واستقامتُهُ وعبوديتُهُ لربِّه ومليكِهِ، وجُعلت أعمالُ الجوارحِ تابعةً لهذا المقصودِ مُرَادَةً، وإن كان كثيرٌ منها مُرادٌ لأجلِ المصلحةِ المترَتِّبَةِ عليه، فَمِن أجَلِّها صلاحُ القلبِ وزكاؤهُ وطهارتهُ واستقامتُهُ، فعُلِمَ أنَّ الأعمالَ منها غايةٌ ومنها وسيلةٌ، وأنَّ العلمَ كذلك.

وأيضًا: فالعلمُ الذي هو وسيلةٌ إلىٰ العملِ فقط إذا تَجَرَّدَ عن العملِ لم ينتفع به صاحبُهُ فالعملُ أشرفُ منه.

وأمَّا العلمُ المقصودُ الذي تنشأُ ثمرتُهُ المطلوبةُ منه من نفسِهِ فهذا لا يُقَالُ: إنَّ العملَ المجرَّدَ أشرفُ منه، فكيف يكون مُجَرَّدُ العبادةِ البدنيةِ أفضلَ من العلمِ بالله وأسمائهِ وصفاتِهِ وأحكامِهِ في خلقِهِ وأمرِهِ، ومنَ العلمِ بأعمالِ القلوبِ وآفاتِ النفوسِ والطُّرقِ التي تُفسِدُ الأعمالَ وتمنع وصولَها من القلبِ إلىٰ الله، والمسافاتِ التي بين الأعمالِ والقلب، وبين القلب والرَّبِّ تعالَىٰ، وبما تُقطعُ تلك المسافاتُ، إلىٰ غير ذلك من علمِ الإيمانِ وما يُقَوِّيهِ وما يُضعِفُهُ؟!

فكيف يُقال: إنَّ مجرَّدَ التَّعبُّدِ الظاهرِ بالجوارحِ أفضلُ من هذا العلمِ؟! بل مَن قام بالأمرين فهو أكملُ، فإذا كان في أحدهما فضلٌ ففضلُ هذا العلمِ خَيرٌ من فَضلِ العبادةِ، فإذا كان في العبدِ فَضلَةٌ -زيادةٌ وبقيةٌ- كان صَرفُهَا إلىٰ العلمِ الموروثِ عن الأنبياءِ أفضلَ من صَرفها إلىٰ مجرَّدِ العبادةِ.

فهذا فَصلُ الخِطَابِ في هذه المسألةِ، والله أعلمُ»[1].

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٣٤).

الاغتِرَارُ بالعلمِ دَاعيةُ البَطَالَةِ وتَركِ العَمَلِ:

فِي رَصدٍ دقيقٍ لهذه الظاهرةِ من ظواهرِ تعلُّقِ العلمِ بالعملِ يُظهر ابنُ الجوزيِّ -وهو عالمٌ من علماءِ القلوبِ الحاذقينَ- عَوَارَ أقوامٍ وَسَمَهُم العلمُ بوَسمِهِ، ولم تَنفُذ بشاشتُهُ إلىٰ قلوبهم، فكان العلمُ وبالًا عليهم ونقمةً مَسُوقَةً إليهم، والله العاصمُ من الضلالِ لا ربَّ غيرُهُ ولا إلهَ سواه.

قال ابنُ الجوزيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ **في «صيد الخاطر» (ص٣٨٠)**: «رأيت جماعةً من العلماءِ يتفسَّحون[1] ويظنُّون أنَّ العلمَ يدفعُ عنهم، وما يدرون أنَّ العلم خصمُهم، وأنَّه يُغفَرُ للجاهلِ سبعون ذنبًا قبلَ أن يُغفَرَ للعالِمِ ذنبٌ[2].

وذاك أنَّ الجاهلَ لم يتعرَّض بالحقِّ، والعالِمَ لم يتأدَّب معه.

ورأيتُ بعضَ القومِ يقول: أنا قد ألقيتُ منجلي بين الحصَّادين ونمتُ، ثمَّ يتفسَّح في أشياءَ لا تجوزُ.

فتفكَّرتُ فإذا العلمُ الذي هو معرفةُ الحقائقِ، والنظرُ في سيرِ القدماءِ والتأدُّبُ بآدابِ القومِ ومعرفةُ الحقِّ وما يجب له، ليس عند القومِ.

وإنَّما عندهم صورُ ألفاظٍ يعرفون بها ما يحلُّ وما يحرُمُ، وليس ذلك العلمَ النافعَ.

---

(١) يتوسعون في استعمالِ الرُّخَصِ.

(٢) هذا من كلام الفضيل بن عياض، وكأنه للترهيب قيل. [الحلية؛ لأبي نعيم (٧/ ٢٨٦)].

إنَّما فَهمُ الأصولِ ومعرفةُ المعبودِ وعظمتِهِ وما يستحقُّه، والنظرُ في سيَرِ الرسولِ ﷺ وصحابتِهِ، والتأدُّبُ بآدابِهم، وفهمُ ما نُقِلَ عنهم -هو العلمُ النافعُ الذي يَدَعُ أعظمَ العلماءِ أحقرَ عند نفسِهِ من أجهلِ الجهَّالِ.

ورأيتُ بعضَ مَن تَعبَّدَ مدَّةً ثمَّ فتَرَ، فبلغني أنَّه قال: قد عبدتُهُ عبادةً ما عَبَدَهُ بها أحدٌ، والآن قد ضَعُفْتُ.

فقلتُ: ما أخوفني أن تكون كلمتُه هذه سببًا لردِّ الكلِّ؛ لأنَّه قد رأىٰ أنَّه عَمِلَ مع الحقِّ شيئًا، وإنَّما وقف يسأَلُ النجاةَ بطلبِ الدرجاتِ، ففي حقِّ نفسِهِ فَعَلَ، وما مَثَلُهُ إلا كَمَثَلِ مَن وقف يُكدِي[1] فلا ينبغي أن يَمُنَّ علىٰ المعطي.

وإنَّما سببُ هذا الانبساطِ الجهلُ بالحقائقِ، وأين هو من كبارِ علماءِ المعاملةِ الذين كان فيهم مثلُ: صلَةَ بنِ أشيمَ إذا رآه السَّبُعُ هرب منه، وهو يقول إذا انقضىٰ الليلُ عند صلاتِهِ: يا ربِّ أجرني من النَّارِ، أَوَ مِثلي يَسأَلُ الجنَّةَ؟[2].

وأبلغُ من ذا قولُ عمر رضي الله عنه: وَدِدتُ أن أنجوَ كفافًا لا لي ولا عليَّ.

وقولُ سفيانَ عند موته لحمادِ بن سلمةَ: أترجو لمثلي أن ينجو من النَّارِ.

وقولِ أحمد: لَا بَعدُ!

فأنا أحمَدُ الله عز وجل إذ تخلَّصتُ من جهلِ المتَّسمينَ بالعلمِ من هؤلاء الذين

(١) يُكدي: يُلِحُّ في المسألةِ.

(٢) انظر قصة صلة بن أشيم التي ذكرها ابن الجوزي في كتابه: «صفة الصفوة» (٢/ ١٢٩)، وانظر ترجمته في «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٩٧).

ذممتُهم، وبالزهدِ من هؤلاء الذين عبتُهم، فإنِّي قد اطَّلعتُ من عظمةِ الخالقِ وسِيَرِ المحقِّقين علىٰ ما يُخرِسُ لسانَ الانبساطِ، ويمحو النظرَ إلىٰ كلِّ فعلٍ.

وكيف أنظرُ إلىٰ فعلي المستحسَنِ، وهو الذي وَهَبَهُ لي وأطلعني علىٰ ما خَفِيَ عن غيري؟!

فهل حَصَلَ ذلك بي أو بلطفهِ؟ وكيف أشكرُ توفيقي للشكرِ؟

ثمَّ أيُّ عالمٍ إذا سَبَرَ أمورَ العلماءِ من القدماءِ لم يحتقر نفسَه؟

هذا في صورةِ العلمِ، فدَع معناه.

وأيُّ عابدٍ يسمعُ بالعبَّادِ ولا يجري في صورةِ التعبُّدِ؟! فَدَعِ المعنىٰ.

نسألُ الله ﷻ معرفةً تعرِّفُنَا أقدارنا، حتىٰ لا يبقىٰ للعُجْبِ بمحتَقَرِ ما عندنا أثرٌ في قلوبنا، ونرغبُ إليه في معرفةٍ لعظمتهِ تُخرِسُ الألسُنَ أن تنطقَ بالإدلالِ، ونرجو من فضلِهِ توفيقًا نلاحظُ به آفاتِ الأعمالِ التي بها نزهو حتىٰ تُثمِرَ الملاحظةُ لعيوبها الخَجلَ من وجودها، إنَّه قريبٌ مجيبٌ». اهـ

«رَأَيتُ أكثرَ العلماءِ مشتغلين بصورةِ العلمِ دون فَهمِ حقيقتِهِ ومقصودِهِ.

فالقارئُ مشغولٌ بالرواياتِ، عاكفٌ علىٰ الشواذِّ، يرىٰ أنَّ المقصودَ نفسُ التلاوةِ، ولا يتلمَّحُ عظمةَ المتكلِّمِ، ولا زَجرَ القرآنِ ووعدَهُ.

وربَّما ظنَّ أنَّ حفظَ القرآنِ يدفعُ عنه، فتراه يترخَّصُ في الذنوبِ، ولو فَهِمَ لَعَلِمَ أنَّ الحجَّةَ عليه أقوىٰ مِمَّن لم يقرأ.

والمحدِّثُ يجمعُ الطُّرُقَ، ويحفظُ الأسانيدَ، ولا يتأمَّلُ مقصودَ المنقولِ، ويرىٰ أنَّه قد حَفِظَ علىٰ النَّاسِ الأحاديثَ، فهو يرجو بذلك السلامةَ، وربَّما ترخَّصَ في الخطايا ظَنًّا منه أنَّ ما فَعَلَ في الشريعةِ يدفعُ عنه.

والفقيهُ قد وَقَعَ له أنَّه بما قد عَرَفَ من الجِدَالِ الذي يقوِّي به خصامَهُ، والمسائلِ التي قد عرف فيها المذهبَ، قد حصَّلَ بما يُفتي به النَّاسَ ما يرفعُ قَدرَهُ، ويمحو ذَنْبَهُ.

فربَّما هَجَمَ علىٰ الخطايا ظَنًّا منه أنَّ ذلك يدفعُ عنه، وربَّما لم يحفظ القرآنَ ولم يعرف الحديثَ، وأنهما ينهيان عن الفواحشِ بزجرٍ ورفقٍ، وينضاف إليه مع الجهلِ بهما حُبُّ الرياسةِ، وإيثارُ الغَلَبَةِ في الْجَدَلِ، فتزيدُ قسوةُ قلبه.

وعلىٰ هذا أكثرُ النَّاسِ، صورُ العلمِ عندهم صناعةٌ، فهي تُكسبهم الكبرَ والحماقةَ.

وقد حكىٰ بعضُ المعتبرين عن شيخٍ أفنىٰ عُمُرَهُ في علومٍ كثيرةٍ، أنَّه فُتِنَ في آخرِ عُمُرِهِ بفسقٍ أصرَّ عليه، وبارزَ الله به، وكانت حالُهُ بمضمونها: أنَّ علمي يدفع عني شَرَّ ما أنا فيه ولا يبقىٰ له أثرٌ.

وكان كأنَّه قد قَطَعَ لنفسهِ بالنجاةِ، فلا يُرىٰ عنده أثرٌ لخوفٍ ولا نَدَمٌ علىٰ ذنبٍ.

قال: فتغيَّر في آخرِ عمرِهِ، ولازمه الفقرُ، فكان يلقىٰ الشدائدَ، ولا ينتهي عن قُبحِ حالِهِ، إلىٰ أن جُمِعَت له يومًا قراريطُ علىٰ سبيلِ الكُديةِ[1]، فاستحيا من ذلك، وقال: يا رب إلىٰ هذا الحدِّ؟

---

(١) **الكُديةُ**: السؤالُ.

قال الحاكي: فتعجَّبتُ من غَفْلَتِهِ كيف نسيَ الله ﷻ، وأراد منه حُسنَ التدبيرِ له، والصيانةَ، وسعَةَ الرزقِ، وكأنَّه ما سمع قولَه تعالىٰ: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦].

ولا عَلِمَ أنَّ المعاصي تَسُدُّ أبوابَ الرزقِ، وأنَّ من ضَيَّعَ أمرَ الله ضيَّعه الله.

فما رأيتُ علمًا ما أفاد كعلمِ هذا؛ لأنَّ العالِمَ إذا زَلَّ انكسَر، وهذا مُصِرٌّ لا تُؤلِمُه معصيتُه، وكأنَّه يجوزُ له ما يفعلُ، أو كأنَّ له التصرُّفَ في الدِّينِ تَحليلًا وتَحريمًا!! فمرضَ عاجلًا، ومات علىٰ أقبحِ حالٍ.

قال الحاكي: ورأيتُ شيخًا آخرَ حَصَّلَ صُورَ علمٍ، فما أفادته، كان أيُّ فسقٍ أمكنه لم يتحاش منه، وأيُّ أمرٍ لم يُعجبه من القَدَرِ عارضَهُ بالاعتراضِ علىٰ المقدَّرِ واللَّومِ فعاش أكدَرَ عيشٍ، وعلىٰ أقبحِ اعتقادٍ حَتَّىٰ دَرجَ[1].

وهؤلاء لم يفهموا معنىٰ العلمِ، وليس العلمُ صورَ الألفاظِ، إنَّما المقصودُ فهمُ المرادِ منه، وذاك يورث الخشيةَ والخوفَ، ويُري المنَّةَ للمنعمِ بالعلمِ، وقوَّةَ الحجَّةِ له علىٰ المتعلِّمِ.

نسأَلُ الله يقظةً تُفَهِّمُنا المقصودَ،وتعرِّفنا المعبودَ.

ونعوذُ بالله من سبيلِ رَعَاعٍ يتسمون بالعلماءِ، لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويتكبَّرون علىٰ النَّاسِ بما لا يعلمون، ويأخذون عَرَضَ هذا الأدنىٰ وقد نُهوا عمَّا يأخذون، غَلَبَتهم طباعهم، وما راضتهم علومهم التي يدرسون، فهم

(١) دَرَجَ: مات.

أخسُّ حالًا من العوامِّ الذين يجهلون: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم:٧]»(١).

جَهْلُ العَمَلِ:

جَهلُ العملِ هو عدمُ العملِ علىٰ مقتضىٰ الحقِّ النافعِ والعلمِ الرشيدِ.

وهذا سفيانُ بنُ عُيينةَ رَحِمَهُ اللهُ يَعظُ خَلاد بن يزيد الأرقط، وكان أبو زيدٍ عمرُ ابن شبَّة إذا ذَكَرَ خَلادًا قال: كان من الجبالِ الرواسي نُبلًا؛ يَصِفُ جلالَته ونُبْلَهُ.

قال خلاد: أتيتُ سفيانَ بن عيينة فقال: «إنَّما يأتي بك الجهلُ لا ابتغاءُ العلمِ، لو اقتصر جيرانُك علىٰ علمِك كفاهم، ثمَّ كَوَّم كومةً من بطحاءَ ثمَّ شقَّها بأصبعِهِ ثمَّ قال: هذا العلمُ أخذتَ نصفَه، ثم جئتَ تبتغي النصفَ الباقي، فلو قيل: أرأيت ما أخذتَ هل استعملتَه؟ فإذا صدقتَ قلتَ: لا، فيُقَالُ لكَ: ما حاجتُك إلىٰ ما تزيدُ به نفسَك وِقرًا علىٰ وِقرٍ؟ استعمل ما أخذت أوَّلًا»(٢).

فالسَّلَفُ -رحمهم الله تعالىٰ- يذمُّونَ جهلَ العملِ ذَمًّا شديدًا، ويحذِّرونَ من علماءِ السُّوءِ الذين لهم ظاهرٌ يَغُرُّ وباطنٌ يَضرُّ، ويفيضون في رميهم بكل نقيصةٍ وتهمةٍ، ويضربون لهم الأمثالَ.

وهذا وهيبُ بن الوردِ رَحِمَهُ اللهُ يضربُ المثلَ فيقول: «مَثَلُ عَالِمِ السُّوءِ كَمَثَلِ حَجَرٍ دُفِعَ في ساقيةٍ فلا هو يشربُ من الماءِ، ولا هو يُخلي عن الماءِ فيحيا به

(١) «صيد الخاطر» (ص٥٤٤).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» للخطيب البغدادي(ص٨٤).

الشجرُ، ولو أنَّ علماءَ السُّوءِ نصحوا لله في عبادِهِ فقالوا: يا عبادَ الله، اسمعوا ما نخبركم به عن نبيكم، وصالحِ سلفكم، فاعملوا به، ولا تنظروا إلىٰ أعمالنا فإنَّا مفتونون، كانوا قد نصحوا لله في عبادِهِ، ولكنهم يريدون أن يدعُوا عبادَ الله إلىٰ أعمالهم القبيحةِ فيدخلوا معهم فيها»(١).

هذا هو شأنُ العلمِ، إن لم يتحقَّق منه النفعُ، استُجلِبَ به الضُّرُّ، كما قال سفيانُ ابنُ عُيينةَ: «العلمُ إن لم ينفعك ضَرَّك»، يقولُ الخطيبُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ شارحًا ومفسِّرًا: «يعني إن لم ينفعه بأن يعملَ به، ضَرَّه بكونِهِ حجَّةً عليه»(٢).

وتوضِّحُ حكمةُ «مالك بن دينارٍ» الأمرَ، إذ يقولُ: إني وجدتُ في بعضِ الحكمةِ: «لا خيرَ لك أن تعلمَ ما لم تعلم ولم تعمل بما قد علمتَ؛ فإنَّ مَثَلَ ذلك مَثَلُ رجلٍ احتطبَ حَطَبًا، فَحَزَمَ حُزْمَةً ذَهَبَ يحملُها فَعجَزَ عنها، فَضَمَّ إليها أخرىٰ»(٣).

وأحرىٰ بِمَن مَنَّ الله عليه بالانتسابِ إلىٰ العلمِ، أن يكونَ مخبتًا لله قانتًا، وأن يكونَ بعلمِهِ عاملًا، وأن يدَعَ الغفلةَ جانبًا، وأن يجتهدَ في أن ينسلخَ من جهلِهِ بعدمِ مواقعةِ السيئاتِ؛ إذ السيئاتُ أصلُها الجهلُ، وهو إلىٰ العلمِ منتسبٌ.

قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أمَّا السيئاتُ فمنشَؤُها الجهلُ والظلمُ، فإنَّ أحدًا لا يفعلُ سيئةً قبيحةً إلا لعدمِ علمِهِ بكونها سيئةً قبيحةً، أو لهواه وميلِ نفسهِ إليها، ولا يتركُ حسنةً واجبةً إلا لعدمِ علمِهِ بوجوبِها، أو لبغضِ نفسِهِ لها.

(١) «اقتضاء العلم العمل» (ص٦٧).

(٢) «اقتضاء العلم العمل» (ص٥٦).

(٣) «اقتضاء العلم العمل» (ص٥٧).

وَفِي الحقيقة: فالسيئاتُ كلُّها ترجعُ إلىٰ الجهلِ، وإلا فلو كان عالِمًا بأنَّ فعل هذا يضرُّهُ ضررًا راجحًا، لم يفعله، فإنَّ هذا خاصيَّةُ العاقلِ، ولهذا إذا كان من الحسناتِ ما يعلم أنَّه يضرُّه ضررًا راجحًا؛ كالسقوطِ من مكانٍ عالٍ، أو في نهرٍ يُغرقُهُ، أو المرور بجنبِ حائطٍ مائلٍ، أو دخولِ نارٍ مُتأجِّجَةٍ، أو رَمي ماله في البحرِ ونحو ذلك؛ لم يفعله، لعلمِهِ بأنَّ هذا ضررٌ لا منفعةَ فيه.

ومَن لم يعلم أنَّ هذا يضرُّه، كالصبي، والمجنون، والسَّاهي، والغافلِ، فقد يفعل ذلك.

ومَن أقدَمَ علىٰ ما يضُرُّهُ -مع علمهِ من الضررِ عليه- فَلِظَنِّه أنَّ منفعتَه راجحةٌ، فإمَّا أن يجزمَ بضررٍ مرجوحٍ، أو يظنَّ أنَّ الخيرَ راجحٌ، فلابُدَّ من رجحان الخيرِ، إمَّا في الظنِّ وإمَّا في المظنونِ؛ كالذي يركبُ البحرَ ويسافر الأسفارَ البعيدةَ للربحِ فإنَّه لو جَزَمَ بأنَّه يغرقُ أو يَخسَرُ لما سَافَرَ، لكنَّه يترجَّحُ عنده السلامةُ والربحُ، وإن كان مخطئًا في هذا الظَنَّ.

وكذلك الذنوبُ: إذا جَزَمَ السارقُ بأنَّه يُؤخَذُ ويُقطع، لم يسرق، وكذلك الزاني: إذا جَزَمَ بأنَّه يُرجَمُ، لم يَزنِ، والشاربُ يختلفُ حالُهُ، فقد يُقدِمُ علىٰ جلدِ أربعين أو ثمانين، ويُدِيم الشُّربَ مع ذلك، ولهذا كان الصحيحُ: أنَّ عقوبَةَ الشاربِ غيرُ محدودةٍ، بل يجوز أن تنتهي إلىٰ القتلِ، إذا لم ينتهِ إلا بذلك، كما جاءت بذلك الأحاديثُ.

وكذلك العقوباتُ: متىٰ جَزَمَ طالبُ الذنبِ بأنَّه يحصلُ له به الضَّرَرُ الراجحُ

لم يفعله، بل إمَّا ألا يكون جازمًا بتحريمِهِ، أو يكون غيرَ جازمٍ بعقوبتِهِ، بل يرجو العفوَ بحسناتٍ، أو توبةٍ، أو بعفوِ الله، أو يغفلُ عن هذا كلِّه، ولا يستحضرُ تحريمًا، ولا وعيدًا، فيبقىٰ غافلًا، غيرَ مستحضرٍ للتحريمِ، والغفلةُ من أضدادِ العلمِ.

فالغفلةُ والشهوةُ أصلُ الشرِّ، قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

والهوىٰ وحده لا يستقلُّ بفعل السيئاتِ إلا مع الجهلِ، وإلا فصاحبُ الْهَوىٰ إذا عَلِمَ قطعًا أنَّ ذلك يضرُّهُ ضررًا راجحًا؛ انصرفت نفسُهُ عنه بالطبعِ، فإنَّ الله تعالىٰ جَعَلَ في النَّفسِ حُبًّا لِمَا ينفعها، وبُغضًا لِمَا يضرُّها، فلا تفعل ما تجزم بأنَّه يضرُّها ضررًا راجحًا، بل متىٰ فعلته كان لضعفِ العقلِ، ولهذا كان البلاءُ العظيمُ من الشيطانِ، لا من مجرَّدِ النفسِ، فإنَّ الشيطانَ يُزَيِّنُ لها السيئاتِ، ويأمرها بها، ويذكر لها ما فيها من المحاسِنِ؛ التي هي منافعُ لا مَضارُّ، كما فعل إبليسُ بآدمَ وحواء، فقالَ: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ [طه:١٢٠-١٢١] ، ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف:٢٠].

فأصلُ ما يُوقِع النَّاسَ في السيئَاتِ: الجهلُ، وعدمُ العلمِ بكونها تضرُّهم ضررًا راجحًا أو ظنُّ أنَّها تنفعهم نفعًا راجحًا.

ولهذا قال الصحابةُ رضي الله عنهم: «كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ»، وفسَّروا بذلك قولَهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾ [النساء:١٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:٥٤]، ولهذا يسمَّىٰ حالُ فعلِ السيئاتِ جاهلية، فإنَّه يصاحبها حالٌ من حالِ الجاهليةِ.

قال أبو العاليةِ: سألتُ أصحابَ محمدﷺ عن هذه الآيةِ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ﴾، فقالوا: كلُّ مَن عصىٰ الله فهو جاهلٌ، ومَن تابَ قبيلَ الموتِ، فقد تابَ من قريبٍ.

وعن قتادةَ قالَ: أجمعَ أصحابُ محمدٍ رسولِ اللهﷺ علىٰ أنَّ كلَّ مَن عصىٰ الله رَبَّهُ فهو في جهالةٍ، عمدًا كان أو لم يكن، وكلَّ مَن عَصَىٰ الله فهو جاهلٌ، وكذلك قال التابعون مِنْ بعدهم.

قال مُجَاهدٌ: مَن عملَ ذنبًا -من شيخٍ أو شابٍّ- فهو بجهالةٍ.

وقال: مَن عصىٰ ربَّه فهو جاهلٌ حتىٰ ينزعَ عن معصيتِهِ.

وقال أيضًا: هو إعطاءُ الجهلِ العمد.

وقال مُجَاهدٌ أيضًا: مَن عَمِلَ سوءاً خطأً أو إثمًا عمدًا، فهو جاهلٌ حتىٰ ينزع منه.

ورُوي عن مُجَاهدٍ والضَّحَاكِ قالا: ليس من جهالتِهِ ألا يعلمَ حلالًا ولا حرامًا؛ ولكن من جهالتِهِ حين دَخَلَ فيه.

وقال عكرمةُ: الدنيا كلُّها جهالةٌ.

وعن الحسن البصريِّ أنَّه سُئِلَ عنها -أي: الآية- فقال: هم قومٌ لم يعلموا ما لهم

ممَّا عليهم، قيل له: أرأيتَ لو كانوا قد علموا؟ قال: فليخرجوا منها فإنَّها جهالةٌ.

قلتُ: وممَّا يبيِّنُ ذلك: قولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]، وكلُّ مَن خشيَه، وأطاعَه، وتركَ معصيتَه؛ فهو عالِمٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وقال رجلٌ للشعبيِّ: أيُّها العالِمُ، فقال: إنَّما العالِمُ مَن يخشىٰ الله.

وقولُهُ تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾، يقتضي أنَّ كلَّ مَن خشي الله فهو عالِمٌ؛ لأنَّه لا يخشاه إلا عالِمٌ، ويقتضي أيضًا: أنَّ العالِمَ مَن يخشىٰ الله كما قال السَّلَفُ.

قال ابن مسعودٍ: كفىٰ بخشية الله علمًا، وكفىٰ بالاغترارِ به جهلًا.

ومثلُ هذا الحصرِ يكون من الطرفين، حصرِ الأوَّلِ في الثاني، وهو مطَّردٌ، وحَصرِ الثاني في الأولِ نحو قولِهِ: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يس: ١١]، وقولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٥]، وقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٥-١٦].

ومن ذلك:

أنَّه أثبتَ الخشيةَ للعلماءِ، ونفاها عن غيرِهم، وهذا كالاستثناءِ، فَإِنَّهُ من النفي إثباتٌ عند جمهورِ العلماءِ، كقولنا: «لا إله إلا الله» وقولِهِ تعالىٰ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ

﴿إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء:٢٨]، فإذا كان العلمُ يوجبُ الخشيةَ الحاملةَ علىٰ فِعلِ الحسناتِ، وتركِ السيئاتِ، وكلُّ عاصٍ فهو جاهلٌ ليس بتامِّ العلمِ، تَبَيَّنَ ما ذكرنا من أنَّ أصلَ السيئاتِ الجهلُ، وعدمُ العلمِ»[1].

الخَلاصُ في الإخلاصِ، وإنَّمَا يَتَعَثَّرُ مَن لم يُخلِصْ:

كما ينبغي أن يكون العلمُ -تحصيلًا وجمعًا- لله خالصًا، كذلك ينبغي أن يكون العملُ -أداءً وفعلًا- لله خالصًا، لأنَّ الله تعالىٰ طيِّبٌ لا يقبل من العملِ إلا ما كان طَيِّبًا وأُريد به وجهه.

«ينبغي أن يكون العملُ كلُّه لله، ومعه، ولأجلِهِ.

وقد كفاك كلَّ مخلوقٍ وجَلَبَ لك كلَّ خيرٍ.

وإيَّاك أن تميلَ عنه بموافقةِ هوًىٰ وإرضاءِ مخلوقٍ، فإنَّه يعكس عليك الحالَ، ويفوتُك المقصودُ.

وفي الحديثِ: «**مَن أَرضَىٰ النَّاسَ بِسَخَطِ الله وَكَلَهُ الله إِلَىٰ النَّاسِ، وَمَن أَسْخَطَ النَّاسَ بِرِضَا الله كَفَاهُ الله مؤنَةَ النَّاسِ**»[2].

وأطيبُ العَيشِ عَيشُ من يعيشُ مع الخالق سبحانه.

(١) «الحسنة والسيئة» لابن تيمية (ص٥٩)، وانظر: ذم الجهل، لمحمد بن سعيد بن رسلان، باب: بيان جهل العمل.

(٢) **حديث صحيح**: أخرجه الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها. «صحيح الجامع» رقم (٥٨٨٦) وانظر: «سلسلة الأحاديث الصحيحة» رقم(٢٣١١).

فإن قيل: كيف يعيشُ معه؟

قلتُ: بامتثالِ أمرِهِ، واجتنابِ نهيه، ومراعاةِ حدودِهِ، والرضا بقضائِهِ، وحُسنِ الأدبِ في الخَلوَةِ، وكَثْرَةِ ذِكرِهِ، وسلامةِ القلبِ من الاعتراضِ في أقدارِهِ.

فإن احتجتَ سألتَهُ، فإن أَعطَىٰ وإلا رضيتَ بالمنعِ، وعلمتَ أنَّه لم يمنع بُخلًا وإنَّما نظرًا لك.

ولا تنقطع عن السؤال لأنَّك تتعبَّدُ به، ومتىٰ دُمتَ علىٰ ذلك رزقَك محبَّتَه وصِدقَ التوكُّلِ عليهِ، فصارتِ المحبَّةُ تدلُّكَ علىٰ المقصودِ، وأثمرت لك محبَّتَهُ إياكَ، فحينئذٍ تعيشُ عَيْشَ الصدِّيقين.

ولا خَيرَ في عيشٍ إن لم يكن كذا، فإنَّ أكثرَ النَّاسِ مخبِّطٌ في عيشِهِ، يُداري الأسبابَ، ويميلُ إليها بقلبِهِ، ويتعبُ في تحصيلِ الرزقِ بحرصٍ زائدٍ علىٰ الحدِّ، وبرغبةٍ إلىٰ الخَلقِ، ويعترضُ عند انكسارِ الأغراضِ.

والقَدَرُ يجري ولا يبالي بسخطٍ، ولا يحصلُ له إلا ما قُدِّرَ.

وقد فاتهُ القُربُ من الحقِّ والمحبَّةُ له، والتأدُّبُ معه، فذلك العيشُ عيشُ البهائمِ»[(١)].

قال مالكُ بن دينارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ العالِمَ إذا لم يعمل بعلمِهِ زَلَّت موعظتُهُ عن القلوبِ كما يزِلُّ القَطرُ عن الصَّفَا».

(١) «صيد الخاطر» (ص٥٦٣).

وكان سوَّارٌ يقول: «كلامُ القلبِ يقرعُ القلبَ، وكلامُ اللسانِ يمرُّ علىٰ القلبِ صَفْحًا».

وقال زيادٌ: «إذا خرج الكلامُ من القلبِ وَقَعَ في القلبِ، وإذا خرج من اللِّسَانِ لم يجاوز الآذانَ».

وقال بعضُ الحكماءِ: «إذا كانت حياتي حياةَ السَّفيهِ، وموتي موتَ الجاهلِ، فما يُغني عني ما جمعتُ من غرائبِ الحكمةِ».

وقال الحسنُ بن آدم: «ما يغني عنك ما جمعتَ من حكمةِ الحكماءِ وأنت تجري في العملِ مجرىٰ السفهاءِ».

وقالَ عبدُ الملكِ بنُ إدريس الحزيريُّ الوزيرُ الكاتبُ:

والعِلمُ لَيسَ بِنَافعٍ أربَابَهُ ... مَا لم يُفِدْ عَمَلاً وحُسَنَ تَبَصُّرِ
سِيَّانَ عِندي عِلمُ مَن لم يَستَفِد ... عَمَلاً بِهِ وصَلاةُ مَن لم يَطهُرِ
فاعمَل بِعِلمِكَ تُوفِ نَفسَكَ وَزنَهَا ... لا تَرضَ بالتَّضييعِ وَزنَ الْمُخسِرِ

وأنشد أحمد بن محمد بن مسروقٍ:

إِذَا كُنتَ لا تَرتَابُ أنَّكَ مَيِّتٌ ... وَلَستَ بَعدَ الْمَوتِ تَسعَىٰ وتَعمَلُ
فَعِلمُكَ مَا يُجدي وَأنتَ مُفَرِّطٌ ... وَذِكرُكَ فِي الْمَوتَىٰ مُعَدٌّ مُحَصَّلُ

وقالَ منصورُ بنُ إسماعيلَ الفقيهُ:

إذَا كُنتَ تَعلَمُ أن الفِرَا ... قَ فِرَاقَ الْحَيَاةِ قَرِيبٌ قَرِيب
وَأنَّ الْمُعِدَّ جِهَازَ الرَّحيلِ ... لِيَومِ الرَّحيلِ مُصِيبٌ مُصِيب

وَأَنَّ الْمُقَــــدِّمَ مَــــا لا يَفُـــو تُ عَلَـىٰ مَـا يَفُـوتُ مَعِـيبٌ مَعِـيب

وَأَنْــــتَ عَـــنْ ذَاكَ لا تَـــرعَـــوِي فَأَمْـرُكَ عــنْدِي عَجِــيبٌ عَجِــيب

وقال الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الذي يفوقُ النَّاسَ في العلمِ جديرٌ أن يفوقهم في العملِ».

وقال الفضيلُ بنُ عياضٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال لي ابنُ المبارك: أكثرُكم علمًا ينبغي أن يكون أكثرَكم خوفًا».

وعن الحسَنِ في قولِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ﴾ [الأنعام:٩١]، قال: «عُلِّمتُم ولم تعملوا، فوالله ما ذلكم بعلمٍ».

وقال أيوبُ السختيانيُّ: «قالَ لي أبو قلابة: يا أيوبُ إذا أحدَثَ الله لكَ علمًا فأحدث له عبادةً، ولا يكن هَمَّكَ أن تحدِّثَ به».

وقال عليُّ بن الحسينِ: «كان نقشُ خاتمِ حسينِ بن عليٍّ: عَلِمتَ فاعمل».

وعن مالكِ بن مغولٍ في قولِهِ تعالىٰ: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧] قال: «تركوا العملَ به».

وقال الحسنُ: «إنَّ أشدَّ النَّاسِ حسرةً يومَ القيامةِ رجلان: رجلٌ نَظَرَ إلىٰ مالِهِ في ميزانِ غيرِهِ سَعِدَ به وشَقِيَ هو به، ورجلٌ نَظَرَ إلىٰ علمِهِ في ميزانِ غيرِهِ سَعِدَ به وشَقِيَ هو به»[(١)].

ألا وإنَّ من جملةِ العملِ بالعلمِ أن يقومَ العالِمُ ببثِّه ويتوفَّر علىٰ نشرِهِ وإذاعتِهِ،

---

(١) انظر هذه الآثار في «جامع بيان العلم» (٢/ ٨).

وقد بلغ العلماءُ في هذا المسلكِ مبالغَ عظيمةً جدًّا، فرحمةُ الله تعالىٰ عليهم أجمعين.

وهذا مَثَلٌ قريبٌ؛ لأنَّ الإمامَ الشوكانيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ تُوفِّي سنةَ خمسين ومئتين وألفٍ من الهجرةِ، وقد كان رَحِمَهُ اللَّهُ مستفرِغًا طاقتَه كلَّها في التعلُّم وبثِّ العلمِ وإذاعتِهِ، بحيث يعجبُ المرءُ كيف يتسعُ زمانٌ لمثلِ هذا، ولكنها بركةُ الله تعالىٰ تشملُ الأزمانَ كما تشمل الأمكنةَ وتشملُ الأحياءَ.

وقد ذكَرَ رَحِمَهُ اللَّهُ مسموعاتِهِ ومقروءاتِهِ علىٰ شيوخه، وهي جملةٌ وافرةٌ، ثم ذكر ما أُجيزَ به من الشيوخ إجمالًا وقال: إنَّها لا تدخل تحت الحصرِ كما يحكي ذلك مجموعُ أسانيدِهِ.

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في ترجمته لنفسهِ: «وقد دَرَّسَ في جميعِ ما تقدَّم ذكره وأخذه عنه الطَّلَبَةُ، وتكرَّرَ أخذُهم عنه في كلِّ يومٍ من تلك الكتبِ، وكثيرًا ما كان يقرأ علىٰ مشايخِهِ، فإذا فرَغَ من قراءةِ كتابٍ أخذه عنه تلامذتُهُ: بل اجتمعوا علىٰ الأخذِ عنه قبل أن يفرغَ من قراءةِ الكتابِ علىٰ شيخِهِ.

وكان يبلغُ دروسُهُ في اليوم والليلةِ إلىٰ نحو ثلاثةَ عشر درسًا، منها ما يأخذه عن مشايخِهِ، ومنها ما يأخذه عنه تلامذتُه، واستمرَّ علىٰ ذلك مُدَّةً حتىٰ لم يبقَ عند أحدٍ من شيوخِهِ ما لم يكن من جملةِ ما قد قرأه، بل انفردَ بمقروءاتٍ بالنسبةِ إلىٰ كلِّ واحدٍ منهم علىٰ انفرادِهِ، إلا شيخه العلامة عبد القادر بن أحمد فإنه مات ولم يكن قد استوفىٰ ما عنده.

ثُمَّ إنَّ صاحبَ الترجمةِ -أي: الشوكانيَّ- فَرَّغَ نفسَهُ لإفادةِ الطلبةِ، فكانوا يأخذون عنه في كلِّ يومٍ زيادةً علىٰ عشرةِ دروسٍ في فنونٍ متعدِّدةٍ، واجتمع فيها في

بعضِ الأوقات:

التفسيرُ، والحديثُ، والأصولُ، والنحوُ، والصرفُ، والمعاني، والبيانُ، والمنطقُ، والفقهُ، والْجَدَلُ، والعَروضُ.

وكان في أيام قراءتِهِ علىٰ الشيوخِ وإقرائِهِ لتلامذتِهِ يُفتي أهلَ صنعاءَ، بل ومَن وَفَدَ إليها، بل تَرِدُ الفتاوىٰ من الديارِ التهاميَّةِ، وشيوخُهُ إذ ذاك أحياءٌ، وكادت الفتيا تدور عليه من عوامِّ النَّاسِ وخاصَّتِهم، واستمر يُفتي من نحو العشرين من عُمُره فما بعد ذلك، وكان لا يأخذ علىٰ الفُتيا شيئًا تنزُّهًا، فإذا عُوتِبَ في ذلك قال: أنا أخذتُ العلمَ بلا ثمنٍ فأريد إنفاقَهُ كذلك.

وأخذ عنه الطلَبَةُ كتبًا غير الكتبِ المتقدمةِ، أي: التي ذكرها قراءةً علىٰ شيوخِهِ ممَّا لا طريقَ له فيها إلا الإجازة، وهي كثيرةٌ جدًّا في فنونٍ عدَّةٍ، بل أخذوا عنه في فنونٍ دقيقةٍ لم يقرأ في شيءٍ منها كعلمِ الحكمةِ التي منها: علمُ الرياضي، والطبيعي، والإلهي، وكعلمِ الهيئةِ، وعلمِ المناظرِ، وعلمِ الوضعِ، وصنَّفَ تصانيفَ مطوَّلاتٍ ومختصراتٍ»(١).

وقد قدَّمتُ الشوكانيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ في الذِّكرِ لقُربِ زمانِهِ من زماننا، وحتىٰ لا يحتجَّ أحدٌ بمضيِّ زمانِ الهممِ السوابقِ، وانقطاعِ زمانِ السَّبقِ، والنبوغِ، وإلا فإن كثيرًا ممَّن تقدَّم الشوكانيَّ من علمائنا، كانوا أعلىٰ همَّةً وأرفعَ في سماء المجدِ هامةً.

فقد كان شيخُ الإسلامِ ابنُ تيمية متوفِّرًا علىٰ العبادةِ والعلمِ والإفادةِ لا يقطعه

---

(١) «البدر الطالع» للشوكاني (٢/ ٢١٨).

عن ذلك قاطعٌ، ولا يشغله عنه شاغلٌ، حتىٰ أفضىٰ إلىٰ ربِّه، رحمة الله عليه.

قال في «العلماء العُزَّاب» (ص١٠٧): «قال الذهبيُّ عنه: لم يتزوَّج ولا تسرَّىٰ، ولا كان له من المعلوم إلا شيءٌ قليلٌ[1]، وكان أخوه يقوم بمصالحِه، وكان لا يطلب منهم غداءً ولا عَشَاءً غالبًا، وما كانت الدنيا منه علىٰ بالٍ».

«ومع عُلُوِّ كعبِهِ في العلمِ فقد كانَ في العملِ طويلَ الباعِ جدًّا، ذا تعبُّدٍ وإنابةٍ وخشوعٍ، وقد كان كما قال الأئمةُ الناقلون عنه: قلَّ أن سُمِعَ بمثلِهِ، إنَّه كان قد قطع جُلَّ وقتِهِ وزمانِهِ في العبادةِ، حتَّىٰ إنَّه لم يجعل لنفسِهِ شاغلةً تشغلُهُ عن الله وما يُزاوِلُه، لا من أهلٍ ولا من مالٍ، وكان في ليلِهِ منفردًا عن النَّاسِ كلِّهم خاليًا بربِّه ﷻ، ضارِعًا إليه، مواظبًا علىٰ تلاوةِ القرآنِ العظيمِ مكرِّرًا لأنواعِ التعبُّداتِ الليليةِ والنهاريةِ، وكان إذا دخل الصلاة ترتعد فرائصه وأعضاؤهُ.

وكان إذا رأىٰ في طريقه منكرًا أزاله، أو سمع بجنازةٍ سارع للصلاةِ عليها، أو تأسَّفَ علىٰ فواتِها، ولا يزالُ تارةً في إفتاءِ النَّاسِ، وتارةً في قضاء حوائجهم حتىٰ يصلِّي الظهرَ مع الجماعةِ، ثم كذلك بقيةُ يومه، وكان مجلسُهُ عامًّا للكبيرِ والصغيرِ والجليلِ والحقيرِ، ويرىٰ كلٌّ منهم في نفسِهِ أنَّه لم يكرم أحدًا بقدرِهِ، ثمَّ يصلِّي المغربَ وتُقرأ عليه الدروسُ، ثم يُصلِّي العشاءَ، ثمَّ يُقبل علىٰ العلومِ إلىٰ أن يذهبَ طويلٌ من الليلِ، وهو في خلالِ ذلك كلِّه الليل والنهار لا يزال يذكرُ الله تعالىٰ ويوحِّدُهُ ويستغفرُهُ.

---

(١) **يقصدون بالمعلومِ**: الراتبَ الذي يُرتفق به من بيتِ المال.

وقد كان من الغايةِ التي يُنتهىٰ إليها في الورعِ أنَّ الله تعالىٰ أجراه مُدَّةَ عُمُرِهِ كلَّها علىٰ الوَرَعِ، فإنَّه ما خالَطَ النَّاس في بيعٍ ولا شراءٍ، ولا معاملةٍ ولا تجارةٍ ولا مشاركةٍ، ولا مزارعةٍ، ولا عمارةٍ، ولا كانَ ناظرًا ولا مباشرًا لمالِ وَقفٍ، ولم يقبل جرايةً ولا صلةً لنفسِهِ من سلطانٍ، ولا أميرٍ، ولا تاجرٍ، ولا كان مُدَّخِرًا دينارًا ولا درهمًا ولا متاعًا ولا طعامًا، وإنما كانت بضاعتهُ مُدَّةَ حياتِهِ، وميراثُه بعد وفاتِه رحمه الله تعالىٰ، العلم، اقتداءً بسيِّدِ المرسلين ﷺ، فإنَّه قال: «**إنَّ العلمَاءَ وَرَثَةُ الأنبيَاءِ، إنَّ الأنبيَاءَ لم يُوَرِّثُوا دِينارًا ولا دِرهَمًا ولكِن وَرثوا العلمَ؛ فَمَن أخَذَ بِهِ فقَد أخذَ بِحظٍّ وافِرٍ**»(١).

وقد جعلَ الله الزهدَ شعارَهُ من صغرِهِ، واتفق كلُّ مَن رآه، خصوصًا مَن مَالَ إلىٰ ملازمتِهِ، أنَّه ما رأىٰ مِثلَه في الزهدِ في الدنيا، واشتُهر عنه ذلك حتىٰ لو سُئِلَ عاميٌّ من أهلِ بلدٍ بعيدٍ: مَن أزهدُ أهلِ هذا العصرِ وأكملُهم في رَفضِ فضولِ الدنيا، وأحرصُهم علىٰ طَلَبِ الآخرةِ؟ لقال: ما سمعتُ بمثل ابن تيمية.

وما اشتُهرَ بذلك إلا لمبالغتِهِ في الزهدِ مع تصحيحِ النيةِ؛ لم يُسمع أنَّه حرص علىٰ دينارٍ ولا درهمٍ، ولا رَغِبَ في دوابَّ ولا نَعَمٍ، ولا ثيابٍ فاخرةٍ ولا حَشَمٍ، ولا زاحم في طَلَبِ الرياساتِ، ولا رؤي ساعيًا في تحصيلِ المباحاتِ، مع أنَّ الملوكَ والأمراءَ والتجارَ والكبراءَ كانوا طَوعَ أمرِهِ خاضعين لقولِهِ، وادِّين أن يتقرَّبوا إلىٰ قلبِه مهما أمكنهم، مظهرين لإجلالِهِ، فأين حالُه هذا من حالِ مَن أغراهم الشيطانُ بالوقيعةِ

(١) رواه أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان في «صحيحه»، والبيهقي، وحسَّنه الألباني في «صحيح الترغيب والترغيب» (١/ ٣٣).

فيه، أمَا نظروا ببصائرهم إلىٰ صفاتِهم وصفاتِهِ، وسماتِهم وسماتِه، وتحاسدهم في طلبِ الدنيا وفراغِهِ عنها، ومبالغتِهِ في الهربِ منها، وخدمتهم للأمراءِ واختلافهم إلىٰ أبوابِهم، وذُلِّ الأمراءِ بين يديه وعدم اكتراثِهِ بهم، وقوةِ جأشِهِ في محاوراتهم؟ بلىٰ والله، ولكن قتلتهم الحالقةُ حالقةُ الدينِ، لا حالقةُ الشعرِ.

وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع رفضِهِ للدنيا وتقلُّلِهِ منها: مُؤثرًا بما عساه يجدهُ منها قليلًا كان أو كثيرًا، لا يحتقر القليلَ فيمنعه ذلك عن التصدقِ به، ولا الكثيرَ فيصرفه النظرُ إليه عن الإسعافِ به، فقد كان يتصدَّق حتَّىٰ إذا لم يجد شيئًا نَزَعَ بعضَ ثيابِهِ فيصلُ به الفقراءَ، وكان يستفضِلُ من قوتِهِ الرغيفَ والرغيفين فيُؤثر بذلك علىٰ نفسِهِ.

وكان رَحِمَهُ ٱللَّهُ متوسطًا في لباسِهِ لا يلبس فاخرَ الثيابِ بحيث يُرمَقُ ويُمَدُّ النظرُ إليه، ولا أطمارًا ولا غليظةً تشهرُ لابسَها من عالمٍ أو عابدٍ، بل كان لباسُهُ وهيئتُه كغالبِ النَّاسِ ومتوسطيهم، ولم يكن يلبس نوعًا واحدًا من اللباسِ، بل يلبس ما اتفقَ وحصلَ، ويأكُلُ ما حَضرَ، وكانت بذاذةُ الإيمانِ عليه ظاهرةً، لا يُرىٰ متصنِّعًا في عمامةٍ ولا لباسٍ، ولا مشيةٍ ولا قيامٍ ولا جلوسٍ، ولم يُسمع أنَّه أَمَرَ أن يُتَّخَذَ له ثوبٌ بعينِهِ، بل كان أهلهُ يأتون بلباسِهِ وقتَ حاجتِهِ لبدلِ ثيابِه التي عليه، وربَّما اتَّسخت ولا يأمرُ بغسلِها حتىٰ يسأله أهلُه ذلك، وكذا كان في المأكلِ، فما سُمع أنَّه طَلَبَ طعامًا قطُّ ولا عَشَاءً ولا غَدَاءً، ولو بقي مهما بقي لشدَّةِ اشتغالِهِ بما هو فيه من العلمِ والعملِ، بل كان ربَّما يُؤتىٰ بالطعامِ وربَّما يُترَكُ عنده فيبقىٰ زمانًا حتىٰ يلتفت إليه، وإذا أَكَلَ يأكُلُ شيئًا يسيرًا، وما ذكر من ملاذِّ الدنيا ونعيمها، ولا كان يخوضُ في شيءٍ من حديثِها، ولا يسألُ عن شيءٍ من معيشتها، بل جُلُّ همِّه وحديثِهِ

في طَلَبِ الآخرةِ وما يقرِّبُ إلىٰ الله تعالىٰ.

وكان مع عُلُوِّ كعبِهِ ورِفعةِ مقامِهِ جَمَّ التواضعِ، ما سُمع بأحدٍ من أهلِ عصرِهِ مثلُه رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ذلك، فكان يتواضعُ للكبير والصغيرِ، والجليلِ والحقيرِ، والفقير، ويدنيه ويكرمه ويباسطه بحديثٍ زيادةً عن الغني، حتىٰ إنَّه ربما خدمه بنفسِهِ وأعانه بحملِ حاجتِهِ جبرًا لقلبِهِ، وكان لا يسأم ممَّن يستعتبُهُ أو يسألُهُ، بل يُقبل عليه ببشاشةِ وجهٍ ولين عريكةٍ، ويقف معه حتىٰ يكون هو الذي يفارقه، ولا يجبهه ولا يتفوَّه بكلامٍ يوحشه، بل يُجيبه ويُفهمه، ويُعَرِّفُه الخطأ من الصوابِ بلطفٍ وانبساطٍ، وكان يلزم التواضعَ في حضورِهِ مع النَّاسِ ومغيبِهِ عنهم في قيامِهِ وقعودِهِ ومشيه ومجلسِهِ وغيره.

وأما شجاعتُهُ وجهادُه أعداءَ الإسلامِ فأمرٌ متجاوِزٌ للوصفِ، وحدَّثوا أنهم رأوا منه في فتحِ عَكَّةَ أمورًا من الشجاعةِ يعجز الواصف عن وصفِها، وقالوا: لقد كان السببَ في تملُّكِ المسلمين إياها بفعلِهِ ومشورَتِهِ وحُسنِ نظرِهِ.

وكان من شجاعتِهِ في مواقفِ الحروبِ نوبةُ «شقحب» سنة اثنتين وسبعمئة، ونوبةُ «كسروان» ما لم يُسمع إلا عن صناديدِ الرجالِ، وشجعان الأبطالِ، فكان تارةً يباشر القتالَ، وتارةً يحرِّضُ عليه قائمًا بسلاحِهِ يوصي النَّاسَ بالثباتِ، ويعدهم بالنصر ويبشِّرهم بالغنيمةِ»[1]. اهـ

ألا إنَّ ثمرةَ العملِ بالعلمِ لعظيمةُ القدرِ، جليلةُ المقدارِ.

---

(١) «غاية الأماني» لمحمود شكري الآلوسي (٢/ ١٧١).

ولقد عدَّ علماؤنا العلمَ الممدوحَ في الكتابِ والسنةِ والمعتبرَ شرعًا هو ما أثمرَ عملًا، وأمَّا ما لم يثمر عملًا فليس بعلمٍ عندهم.

قال الشاطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «العلمُ الذي هو العلمُ المعتَبرُ شرعًا -أعني الذي مدحَ الله ورسولُهُ ﷺ أهلَه على الإطلاقِ- هو العلمُ الباعثُ على العملِ، الذي لا يُخلِّي صاحبَه جاريًا مع هواه كيفما كان، بل هو المقيِّدُ لصاحبِهِ بمقتضاه، الحاملُ له على قوانينه طوعًا أو كَرهًا.

ومعنى هذه الجملةِ أنَّ أهلَ العلمِ في طلبِهِ وتحصيله على ثلاثِ مراتبَ:

* **المرتبةُ الأولى**: الطالبون له ولَمَّا يَحصلوا على كمالِهِ بعدُ، وإنما هم في طلبِهِ في رتبةِ التقليدِ، فهؤلاء إذا دخلوا في العملِ به؛ فبمقتضى الْحَملِ التكليفي، والْحَثِّ الترغيبي والترهيبي، وعلى مقدارِ شدَّةِ التصديقِ يخفُّ ثقلُ التكليفِ، فلا يكتفي العلمُ هاهنا بالحملِ دون أمرٍ آخر خارجَ مَقُولِهِ، من زجرٍ أو قِصَاصٍ، أو حَدٍّ، أو تعزيرٍ، أو ما جرى هذا المجرى، ولا احتياج هاهنا إلى إقامةِ برهانٍ على ذلك؛ إذ التجرِبةُ الجاريةُ في الخَلقِ قد أعطت في هذه المرتبةِ برهانًا لا يحتمل متعلَّقُهُ النقيضَ بوجهٍ.

* **والمرتبةُ الثانية**: الواقفون منه على براهينِهِ، ارتفاعًا عن حضيضِ التقليدِ المجرَّدِ، واستبصارًا فيه، حسبما أعطاه شاهدُ النقلِ الذي يصدِّقُه العقلُ تصديقًا يطمئن إليه، ويعتمد عليه، إلا أنَّه بعدُ منسوبٌ إلى العقلِ لا إلى النفسِ، بمعنى أنَّه لم يَصِر كالوصفِ الثابتِ للإنسانِ، وإنما هو كالأشياءِ المكتسبةِ، والعلومِ المحفوظةِ، التي يتحكم عليها العقلُ، وعليه يعتمد في استجلابها، حتى تصير من جملة مُودَعاتِهِ،

فهؤلاء إذا دخلوا في العملِ، خفَّ عليهم خِفَّةً أخرىٰ زائدةً علىٰ مجرَّدِ التصديقِ في المرتبةِ الأولىٰ، بل لا نسبةَ بينهما، إذ هؤلاء يأبىٰ لهم البرهانُ المصدَّقُ أن يُكَذِّبوا، ومن جملةِ التكذيبِ الخفيِّ: العملُ علىٰ مخالفةِ العلمِ الحاصلِ لهم، ولكنهم حين لم يَصِر لهم كالوصفِ، ربما كانت أوصافُهم الثابتةُ من الهوىٰ والشهوةِ الباعثةِ الغالبةِ أقوىٰ الباعثين، فلابد من الافتقار إلىٰ أمرٍ زائدٍ من خارجٍ، غير أنَّه يتَّسع في حقِّهم، فلا يُقتصر فيه علىٰ مجرد الحدودِ والتعزيراتِ، بل ثَمَّ أمورٌ أُخرُ كمحاسنِ العاداتِ، ومطالبةِ المراتبِ التي بلغوها بما يليق بها، وأشباه ذلك.

وهذه المرتبةُ أيضًا يقوم البرهانُ عليها مِنَ التجربةِ، إلا أنَّها أخفىٰ مِمَّا قبلها، فيحتاجُ إلىٰ فضلِ نظرٍ موكولٍ إلىٰ ذَوي النباهةِ في العلومِ الشرعيةِ، والأخذِ في الاتِّصافاتِ السلوكيةِ.

* **والمرتبةُ الثالثةُ**: الذين صار لهم العلمُ وصفًا من الأوصافِ الثابتةِ، بمثابةِ الأمورِ البديهيةِ في المعقولاتِ الأُوَلِ، أو تُقاربها، ولا يُنظرُ إلىٰ طريقِ حصولِهَا، فإنَّ ذلك لا يُحتاج إليه، فهؤلاء لا يُخَلِّيهم العلمُ وأهواءَهم إذا تبيَّن لهم الحقُّ، بل يرجعون إليه رجوعَهم إلىٰ دواعيهم البشرية، وأوصافهم الْخَلقيَّةِ، وهذه المرتبةُ هي المترجَمُ لَهَا.

والدليلُ علىٰ صحَّتِها من الشريعةِ كثيرةٌ، كقوله تعالىٰ: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر:٩]، ثمَّ قالَ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر:٩]، فنسب هذه المحاسن إلي أولي العلم مِن أجلِ العِلْمِ لا مِن أجلِ غيرِهِ.

وقال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ [الزمر:٢٣]، والذين يخشون ربَّهم هم العلماءُ، لقولِهِ: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣].

ولَمَّا كان السَّحَرةُ قد بلغوا في علمِ السِّحرِ مبلغَ الرسوخِ فيه، وهو معنىٰ هذه المرتبةِ، بادروا إلىٰ الانقيادِ والإيمانِ حين عرفوا من علمهم أن ما جاء به موسىٰ عَلَيۡهِ السَّلَامُ حقٌّ، ليس بالسحرِ ولا الشعوذةِ، ولم يمنعهم من ذلك التخويفُ ولا التعذيبُ الذي يتوعَّدُهُم به فرعونُ.

وقال تعالىٰ: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣]. فَحَصَرَ تعقُّلَهَا في العالِمِينَ، وهو قَصدُ الشارعِ من ضَربِ الأمثالِ.

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓ﴾ [الرعد:١٩].

ثم وَصَفَ أهلَ العلمِ بقولِه: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد:٢٠].

إلىٰ آخرِ الأوصافِ وحاصلُها يرجعُ إلىٰ أنَّ العلماءَ هم العاملون.

والأدلَّةُ أكثرُ من إحصائها هنا، وجميعُها يدلُّ علىٰ أنَّ العلمَ المعتبرَ هو الْمُلجئُ إلىٰ العملِ به»(١)، والآثارُ في هذا الشأنِ كثيرةٌ وجليلةٌ، وما أردتُ إلا التمثيلَ والتنبيه، ولم أُرد استقصاءً ولا جمعًا.

(١) «الموافقات» للشاطبي (١/ ٨٩).

ومَفادُ ما ذكرتُه أنَّ رَبطَ العلمِ بالعملِ أمرٌ حَتمٌ لا محيصَ عنه، ولا مَفرَّ منه، بل إنَّ كثيرًا من الصَّدِّ عن سبيلِ العلمِ إنَّما يأتي من أنَّ كثيرًا من المشتغلين بالعلمِ ظاهرًا أبعدُ ما يكونون عن العملِ، فيُحدِثُ هذا من التلبيسِ ما تقبُحُ نتيجتُه ويَسُوءُ أثرُهُ.

ولو أنَّ العلمَ ارتبطَ بالعملِ لأقبلَ النَّاسُ علىٰ سَبيلِهِ زَرَافاتٍ ووُحْدَانًا، فاللهمَّ عَلِّمنا مَا ينفعُنَا، وانفعنَا بما علَّمتَنَا، وزِدنَا عِلمًا، إنَّك أنتَ العليمُ الحكيمُ.

* * *

خاتمة

لَقَد يسَّرَ الله ﷻ لِي جَمْعَ ما جمعتُ وتحريرَ مَا حرَّرتُ بحولِهِ وقوَّتِهِ، لا حولَ ولا قوةَ إلا بِهِ، وَإنَّما حَدَاني[١] عَلَىٰ أَن أطرق هَذَا المَوضُوعَ، وألِجَ فِي هَذَا البابِ: ما هو مشهورٌ بين المشتغلين بالعلمِ مِن عَظِيم فَضلِهِ، ورَفِيعِ قدرِهِ، ممَّا وَرَدَ فِي الكتابِ العزيز، والسُّنَّةِ المطهَّرةِ، وآثارِ السَّلَفِ الصالحين.

وحداني علىٰ ذلك أيضًا: عظيمُ حاجةِ النَّاسِ إِلَىٰ العلمِ، كما قال الإمامُ أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: «النَّاسُ إلىٰ العلمِ أحوجُ منهم إلىٰ الطعامِ والشرابِ؛ لأنَّ الرجلَ يَحتاجُ إلىٰ الطعامِ والشرابِ في اليومِ مَرَّةً أو مرَّتين، وحاجتُه إلىٰ العلمِ بعددِ أنفاسِهِ»[٢].

وأيضًا، فقد دفع -بحولِ الله وقوته- إلىٰ ذلك: صَدُّ أكثرِ النَّاسِ عن سبيلِ العلمِ والحقِّ، وهو معرفةُ الحقِّ بدليله والاغترافُ من مَعينِ[٣] الكتابِ والسنةِ العذبِ النَّميرِ، والإقبالُ علىٰ علوم تُسمَّىٰ في ظاهرِ الأمرِ: الشرعيةِ، وما هي بها، وإنَّما هي آراءُ الرجالِ أصبحت مقدَّمةً علىٰ الكتابِ والسنَّةِ، وهدي النبيِّ ﷺ.

(١) **قال في اللسان**: وفي حديث الدعاء: تحدوني عليها خَلَّةٌ واحدةٌ، أي: تبعثني وتسوقني عليها خصلةٌ واحدةٌ، وهو من حَدوِ الإبلِ، فإنَّه من أكبرِ الأشياءِ علىٰ سَوقها وبعثها. «لسان العرب» (ص٨٠٨).

(٢) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/ ٤٧٠).

(٣) **المعينُ**: الماءُ السائلُ. «لسان العرب» (ص٤٢٣٦).

نعم، إنَّما دفعني إلىٰ ذلك -بحول الله وقوتِهِ- إعراضُ كثيرٍ من المسلمين عن الكتابِ والسنَّة، الأمرُ الذي مَهَّدَ لغزوهم فكريًّا، وإدخالِ الشُّبَهِ والشكوك عليهم في دينهم، «واعلم يا أخي أنَّ هذا الإعراضَ عن كتابِ الله وسنَّةِ رسولِهِ ﷺ، واعتقاد الاستغناءِ عنهما بالمذاهبِ المدوَّنةِ الَّذِي عمَّ جُلَّ مَن في المعمورةِ مِن المسلمين مِن أعظمِ المآسي والمصائبِ، والدواهي التي دَهَت المسلمين من مُدَّةِ قرونٍ عديدةٍ.

ولا شكَّ أنَّ النتائجَ الوخيمةَ الناشئةَ عن الإعراضِ عن الكتابِ والسنَّةِ من جملتها ما عليه المسلمون في واقعهم الآن من تحكيمِ القوانينِ الوضعيةِ المنافي لأصلِ الإسلامِ.

لأنَّ الكفارَ إنَّما اجتاحوهم بفصلهم عن دينهم بالغزوِ الفكريِّ عن طريق الثقافةِ وإدخالِ الشُّبَهِ والشكوكِ في دينِ الإسلامِ.

ولو كان المسلمون يتعلَّمون كتابَ الله وسنةَ رسولِهِ ﷺ ويعملون بما فيهما لكان ذلك حصنًا منيعًا لهم من تأثير الغزوِ الفكريِّ في عقائدهم ودينهم.

ولكن لَمَّا تركوا الوحي ونبذوه وراء ظهورهم، واستبدلوا به أقوالَ الرجالِ لم تَقُم لهم أقوالُ الرجالِ ومذاهبُ الأئمةِ -رحمهم الله- مقامَ كلامِ الله والاعتصامِ بالقرآنِ، وكلام النبيِّ ﷺ والتحصُّنِ بسنَّتِهِ.

ولذلك وجد الغزوُ الفكريُّ طريقًا إلىٰ قلوبِ الناشئةِ من المسلمين، ولو كان سلاحُهم المضادُّ الكتابَ والسنةَ لم يجد إليهم سبيلًا.

ولا شكَّ أنَّ كلَّ منصفٍ يعلم أنَّ كلامَ النَّاسِ، ولو بلغوا ما بلغوا من العلمِ والفضلِ، لا يمكن أن يقومَ مقامَ كلام الله وكلامِ رسولهﷺ.

وبالجملةِ فممَّا لا شكَّ فيه أنَّ هذا الغزوَ الفكريَّ الذي قضىٰ علىٰ كيانِ المسلمين، ووحدتِهم، وفَصَلَهم عن دينهم لو صادفهم وهم متمسِّكون بكتابِ الله وسنَّةِ رسولِهِ لرجعَ مدحورًا في غايةِ الفَشَلِ لوضوحِ أدلَّةِ الكتابِ والسنَّةِ، وكون الغزوِ الفكريِّ المذكور لم يستند إلَّا علىٰ الباطلِ والتمويه كما هو معلومٌ»[١].

ورحم الله العلامةَ ابن القيم، فقد لَخَّصَ المسألةَ في قولِهِ:

قَــد أقْــسَمَ الله العظــيمُ بنَفْــسِهِ ... قَــسَمًا يُبــينُ حَقِــيقَةَ الإيمَـــانِ

أَن لَـيسَ يُـؤمِنُ مَـن يَكُـونُ مُحَكِّمًـا ... غَيـرَ الرَّسُـولِ الوَاضِـحِ البُـرهَانِ

بَـل لَـيسَ يـؤمِنُ غَيـر مَـن قَـد حَكَّمَ الـ ... ـوَحْيَـينِ حَـسْبُ فَـذَاكَ ذُوإيمَـانِ

هَــذَا ومَــا ذَاكَ الْمُحَكِّــمُ مُؤمِــنًا ... إِن كَــانَ ذَا حَـرَجٍ وَضِـيقِ بِطَـانِ

هَـذَا وَلَـيسَ بِمـؤمِنٍ حَتَّـىٰ يُـسلْـ ... ـلِمَ للَّـذِي يَقـضِي بِـهِ الوَحـيَانِ

وهو رَحِمَهُ اللَّهُ يشيرُ إلىٰ قولِ الله تعالىٰ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

فطاعةُ الله ورسولِهِ، وتحكيمُ الله ورسولِهِ، هو سببُ السعادةِ عاجلًا وآجلًا،

(١) «أضواء البيان» للشنقيطي (٧/ ٥٨٢).

ومَن تدبَّرَ العالَمَ والشرورَ الواقعةَ فيه، عَلِمَ أنَّ كلَّ شرٍّ فِي العالَمِ سَبَبُهُ مخالفَةُ الرسولِ والخروجُ عن طاعتِهِ، وكلُّ خيرٍ فِي العالَمِ فإنَّ سَبَبَهُ طاعةُ الرسولِ ﷺ.

وكذلك شرورُ الآخرةِ وآلامُها وعذابُها، إنَّما هو من موجباتِ مخالفةِ الرسولِ ﷺ ومقتضياتِها، فعاد شرُّ الدنيا والآخرةِ إلىٰ مخالفةِ الرسولِ وما يترتَّبُ عليه.

فلو أنَّ النَّاسَ أطاعوا الرسولَ حقَّ طاعتِهِ، لم يكن في الأرضِ شَرٌّ قطُّ، وهذا كما أنَّه معلومٌ في الشرورِ العامَّةِ والمصائبِ الواقعةِ في الأرضِ، فكذلك هو في الشرِّ والألمِ والغَمِّ الذي يصيبُ العبدَ في نَفسِهِ، فإنَّما هو بسبب مخالفةِ الرسولِ، ولأنَّ طاعتَه هي الحصنُ الذي مَن دخله كان آمنًا والكهفُ الَّذِي مَن لَجَأ إليه كان من الناجين.

فَعُلِمَ أنَّ شرورَ الدنيا والآخرةِ إنَّما هو الجهلُ بما جاء به الرسولُ ﷺ والخروجُ عنه.

وهذا برهانٌ قاطعٌ عَلَىٰ أنَّه لا نجاةَ للعبدِ ولا سعادةَ إلا بالاجتهادِ في معرفةِ ما جاء به الرسولُ ﷺ عِلمًا والقيامِ به عملًا».

فالعلمُ ما قال الله ﷻ وقال رسوله ﷺ.

ولله دَرُّ ابنُ القيمِ رَحِمَهُ اللَّهُ إذ يقولُ:

والعِلمُ أقسَامٌ ثَلاثٌ مَا لَهَا ... مِن رَابِعٍ والْحَقُّ ذُو تبيَانِ

عِلمٌ بِأَوصَافِ الإلَهِ وَفِعلِهِ ... وَكَذَلِكَ الأسمَاءِ للرَّحْمَنِ

وَالأَمـر والنَّهـي الَّـذِي هُـوَ دِينُهُ وَجَـزَاؤُهُ يَـومَ الْمَعَـادِ الثَّانِـي
وَالكُـلُّ فِـي القُـرآنِ وَالـسُّنَنِ الَّتِـي جَـاءَت عَـنِ الْمَـبعُوثِ بالقُـرآنِ
والله مَـا قَـالَ امـرُؤٌ مُـتَحَذلِقٌ بِـسِوَاهُمَا إلا مِـنَ الْهَـذَيَانِ

والعلمُ الصحيحُ من أعظم أسبابِ شرحِ الصدرِ، وحياةِ القلبِ، وطيبِ العيشِ، شَريطَةَ أن يكونَ العلمَ الموروثَ عن الرسولِ ﷺ، كما قال الشاعرُ في تعريفهِ، وأحسنَ وأجادَ:

العِلـمُ قَـالَ الله قَـالَ رَسُـولُهُ قَـالَ الـصَّحَابَةُ لَـيس بالْهَـذَيَانِ
مَـا العِلـمُ نَـصبَكَ للخِـلافِ سَـفَاهَةً بَـينَ الرَّسُـولِ وبَـينِ قَـولِ فُـلانِ

ومن أعظمِ أسبابِ شرح الصدرِ: «العلمُ: فإنَّه يشرحُ الصدرَ، ويوسِّعه حتَّىٰ يكون أوسعَ من الدنيا، والجهلُ يورثه الضِّيقَ والحَصرَ والحبسَ، فكلَّما اتَّسعَ علمُ العبدِ، انشرحَ صدرُهُ واتَّسع، وليس هذا لكلِّ علمٍ، بل للعلمِ الموروث عن الرسولِ ﷺ وهو العلمُ النافعُ، فأهلُهُ أشرحُ النَّاسِ صدرًا، وأوسعُهم قلوبًا وأحسنُهم أخلاقًا، وأطيبُهم عيشًا»[(١)].

«والرسولُ ﷺ كان أكملَ الخَلقِ في كلِّ صفةٍ يحصلُ بها انشراحُ الصدرِ، واتِّساعُ القلبِ، وقُرَّةُ العين، وحياةُ الروحِ، فهو أكملُ الخلقِ في هذا الشَّرحِ والحياةِ، وقُرَّةِ العينِ، مع ما خُصَّ به من الشرحِ الحِسِّيِّ.

وأكملُ الخَلقِ متابعةً له، أكملُهم انشراحًا ولذَّةً وقُرَّةَ عينٍ، وعلىٰ حَسَبِ

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٢٤).

متابعتِهِ ينالُ العبدُ من انشراحِ صدرِهِ، وقُرَّةِ عينِهِ، ولَذَّةِ روحِهِ ما ينالُ، فهو ﷺ في ذروةِ الكمالِ من شَرحِ الصدرِ، ورَفعِ الذِّكرِ، ووَضعِ الوزرِ، ولأتباعِهِ من ذلك بحسب نصيبهم من اتِّباعه، والله المستعان.

وهكذا لأتباعِهِ نصيبٌ من حفظِ الله لهم، وعصمتِهِ إياهم، ودفاعِهِ عنهم، وإعزازِهِ لهم، ونصرِهِ لهم، بحسبِ نصيبهم من المتابعةِ فمستقِلٌّ ومستكثرٌ، فمَن وجَدَ خيرًا، فليحمد الله، ومَن وجَدَ غيرَ ذلك، فلا يلومَنَّ إلا نفسَه»(١).

ولقد استكثر علماؤنا ولم يستقلوا -رحمهم الله- وظلُّوا في الطلبِ إلىٰ المماتِ، فأبقىٰ الله ذكرهم، ونفعَ بآثارِهم وفيهم قدوة للمقتدي، وأسوةٌ للسائرينَ.

«كان أئمةُ الإسلامِ إذا قيل لأحدهم: إلىٰ متىٰ تطلبُ العلمَ؟ يقول: إلىٰ المماتِ».

قال نُعيمُ بنُ حمَّادٍ: «سمعتُ عبد الله بن المباركِ رضي الله عنه، يقول -وقد عابَهُ قومٌ في كَثرَةِ طَلَبِهِ للحديثِ- فقالوا له: إلىٰ متىٰ تسمعُ؟ قال: إلىٰ المماتِ».

وقال الحسنُ بن منصورٍ الجصَّاصُ: «قلتُ لأحمدَ بن حنبلٍ رضي الله عنه: إلىٰ متىٰ يكتبُ الرجلُ الحديثَ؟ قال: إلىٰ الموتِ».

وقال عبد الله بن محمد البغوي: «سمعت أحمد بن حنبل رضي الله عنه يقول: إنما أطلبُ العلمَ إلىٰ أن أدخلَ القبرَ».

وقال محمد بن إسماعيل الصائغُ: «كنت أصُوغُ مع أبي ببغداد، فَمَرَّ بنا أحمدُ ابن حنبلٍ وهو يعدو، ونعلاه في يديه، فأخذ أبي بمجامعِ ثوبِهِ، فقال: يا أبا عبد الله،

(١) «زاد المعاد» (٢/ ٢٧).

ألا تستحيي! إلىٰ متىٰ تعدو مع هؤلاء؟! قال: إلىٰ الموتِ».

وقال عبدُ الله بن بشرٍ الطالقاني: «أرجو أن يأتيني أمرُ ربِّي والْمِحْبَرَةُ في يدي، ولم يفارقني القلمُ والْمِحْبرةُ».

وقيل لبعضِ العلماءِ: «إلىٰ متىٰ يَحسُنُ بالمرءِ أن يتعلَّمَ؟ قال: ما حَسُنَت به الحياةُ»[١].

لقد حَقَّقَ علماؤنا -رحمهم الله- التوازنَ الصحيحَ في مقاييسِ الوجودِ والنظرةِ إلىٰ الحياةِ، ولم يكن ذلك إلا بالعلمِ الصحيحِ، فالعلمُ الصحيحُ وحده هو الذي يُحقِّقُ التوازن بين مَلَكَاتِ النَّفسِ وقُوىٰ الوجودِ وجَواذِبِ الحياةِ، وَمَا مِن خَلَلٍ في واقعِ الحياةِ تعاني منه النفسِ ويضنىٰ به الجَسَدُ إلا ومنبعه في حمأة الجهلِ والضلالِ، ألا إنَّ العلمَ هو الحياة.

وقد نبَّه الرسولُ ﷺ عَلَىٰ تحقيق التوازنِ في الحياة بين باطنِ الإنسانِ وظاهرِهِ، ومخبرِهِ ومظهرِه، فقالﷺ: «**خصلتَانِ لا يَجتَمِعَانِ في مُنَافِقٍ: حُسنُ سَمتٍ، وَفِقْهٌ في الدِّينِ**»[٢] رواه الترمذي.

فانظر كيف جعَلَﷺ نفيَ النفاقِ في تحقيقِ التوازن بين الفقه في الدين بعملِ القلبِ، وحُسنِ السَّمتِ ونظافةِ الظاهرِ وطهارتهِ.

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٨١).

(٢) رواه الترمذي (٢٦٨٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٣٤٣)، وانظر: «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٧٨).

بل إنَّ في الحديث دلالةً علىٰ الربطِ التامِّ بين العلمِ والعملِ، «بل لم يكنُ السَّلفُ يُطلقون اسم الفقه إلا علىٰ العلمِ الذي يصحبه العملُ، كما سُئِلَ سعد بن إبراهيم عن أفقهِ أهلِ المدينةِ، فقال: أتقاهم».

وسأل فرقدٌ السبخيُّ الحَسَنَ البصريَّ عن شيء فأجابهُ فقالَ: «إنَّ الفقهاءَ يخالفونكَ، فقال الحسنُ: ثكلتكَ أمُّكَ يا فريقدُ، وهل رأيتَ بعينيك فقيهًا؟! إنَّما الفقيهُ: الزاهدُ في الدنيا، الراغبُ في الآخرةِ، البصيرُ بدينه، المداومُ علىٰ عبادةِ ربِّه، الذي لا يهمز مَن فوقَه، ولا يسخرُ ممَّن دونه، ولا يبتغي علىٰ علم علَّمه الله تعالىٰ أجرًا»[(١)].

فَشَمِّر مَا استَطَعتَ السَّاقَ وَاجهَد ... لَعَلَّكَ أَن تَفُوزَ بِذِي العطَايَا
وَصُم عَن لَذَّةٍ حُشيَتْ بَلاءً ... لِلَذَّاتٍ خَلُصْنَ مِنَ البَلايَا
وَدَع أُمنِيَّةً إِنْ لَم تَنَلْهَا ... تُعَذِّبْ أَو تَنَلْ كَانَت مَنَايَا
وَلا تَسْتَبْطِ وَعْدًا مِنْ رَسُولٍ ... أَتَىٰ بالحَقِّ مِن خَيرِ البَرَايَا
فَهَذَا الوَعْدُ أَدْنَىٰ مِن نَعِيمٍ ... مَضَىٰ بالأمسِ لَو وُفِّقْتَ رَايَا[(٢)]

وَبَعْدُ:

فَمَا مَنَّ الله ﷻ به فِي هَذَا الكتاب مِن بيانِ بعض النصوصِ الشريفةِ في بيانِ فضلِ العلمِ والعلماءِ، وبيانِ آدابِ طالبِ العلمِ، وبيان طرقِ تحصيلِ العلمِ ومراتبِ طلبِهِ، وبيان آفاتِ العلمِ، وبيانِ ارتباطِ العلمِ بالعملِ، كلُّ ذلك إنَّما هو:

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٣١٩).
(٢) رايًا: رأيًا.

«تذكيرٌ للنبهَاءِ من نشئنا بأن يُقبلوا علىٰ العلمِ بهممٍ كبيرةٍ، صيانةً للوقتِ من أن يُنفقَ في غير فَائِدةٍ، وعزمٍ يَبْلَىٰ الجديدان[1] وهو صارمٌ صقيلٌ، وحرصٍ لا يروي غليلَهُ إلا أن يغترفَ من مواردِ العلومِ بأكوابِ طافحةٍ، وغوصٍ في البحثِ لا تحول بينه وبين نفائسِ العلومِ وعورةُ المسلَكِ، ولا طولُ مسافةِ الطريقِ، وألسنةٍ مهذَّبةٍ لا تقع في لغوٍ ولا مهاترةٍ.

وذلك عنوانُ كِبَرِ الهمةِ في العلمِ، وذلك ما يجعل أَمَّتَنَا مَنْبِتَ نهضةٍ فائقةٍ، ومطلعَ حياةٍ علميةٍ رائعةٍ، وما نبتت الحياةُ العلميةُ الصحيحةُ في وَطَنٍ نباتًا حسنًا إلا كانت أرضُه كرامةً، وسماؤُهُ عِزَّةً، وجوانبُه حَصَانَةً، ومَنَعَةً»[2].

* * *

أسألُ الله العظيمَ، ربَّ العرشِ العظيمِ أن يُخلِصَ نيَّاتنا، ويحسِّن أعمالنا، وأن يجنِّبَنَا مواطنَ الزَّللِ، ومواضِعَ الخَلَلِ، ومزالِقَ الخطَلِ، وأن يتقبَّل منَّا برحمته وجوده وهو الجوادُ الكريمُ، والبرُّ الرحيمُ.

اللهمَّ منك وإليك.

اللهمَّ مُنَّ علينا بالعبوديةِ الحقَّةِ لوجهكِ الكريم، وعافنا مما ابتُلي به غيرُنا من العبوديةِ لسواكَ، والذُّلِّ لغيرِ وجهكَ الكريم.

اللهمَّ اجمع شتاتَ أَمَّتَنَا، وارحم ضَعْفَهَا، ولُمَّ شَعَثَهَا، واجبُر كَسْرَهَا، واهدِ

(١) **الجديدان**: الليل والنهار.

(٢) «رسائل الإصلاح» لمحمد الخضر حسين (١/ ٨٩).

أبناءَها لِمَا فيه خيرُ الإسلامِ والمسلمينَ وصلاحِ أمرِ العبادِ والمعادِ يا أرحمَ الراحمينَ.

والحمدُ لله أولاً وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، والحمدُ لله الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصالحاتُ، وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وأبويه إبراهيم وإسماعيلَ، وآلهِ، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

سبحانكَ اللهمَّ وبحمدِكَ، أشهدُ أن لا إله إلا أنتَ، أستغفركَ وأتوبُ إليكَ.

وآخرُ دعوَانَا أنِ الحمدُ لله ربِّ العالمين.

وكان الفراغُ بحمدِ الله ومِنَّتِهِ، وحولِهِ وطولِهِ وقوَّتِهِ، وجُودِهِ وكرمِهِ ورحمتِهِ من هذا الكتابِ في ليلةِ الجمعة الرابع عشر من شهر الله الحرام المحرم لسنة عشرين وأربعمئة وألف من هجرةِ خير البرية ﷺ، الموافقُ لتمامِ شهرِ أبريل لسنة تسع وتسعينَ وتسعمئة وألف من ميلادِ عبد الله ورسولهِ عيسىٰ علىٰ نبينا وعليه أفضَلُ الصَّلاةِ وأزكَىٰ التَّسْلِيم.

وَكَتَبَ

أبو عبد الله

محمد بن سعيد بن رسلان

-عفا الله عنه وعن والديه-

الفِهرِسُ

فهرس الموضوعات

* **مُقدِّمَةُ الطَّبعَةِ الجَدِيدَةِ**........ ٥

* **مُقدِّمَةُ الطَّبعَةِ الأُولَىٰ**........ ٧

حديث النصيحة وشرح النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ له........ ٧-٨

ضرورة ضبط النسبة بين الوسائل والغايات........ ١٢

مراحلُ الوصول إلىٰ الحقِّ........ ١٧

* **الباب الأول: بَيَان مَا هُوَ العِلمُ الفَرضُ**........ ٢٤

شرح حديث أنس في فرضية طلب العلم........ ٢٨

اختلافُ النَّاسِ في مُسَمَّىٰ العلمِ........ ٣٣

تقسيمُ العلومِ الشرعيةِ........ ٣٩

* **الباب الثاني: بَيَان فَضلِ العلمِ والعُلَمَاءِ**........ ٤٠

أولًا: مِن نُصُوصِ الكِتَابِ العَزيزِ........ ٤٠

ثانيًا: مِن نُصُوصِ السُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ........ ١٣٠

ثالثًا: مِن آثَارِ السَّلَفِ الصَّالِحِينَ........ ٢٠٦

* **الباب الثالث: بَيَانِ أنَّ العِلمَ أَفضَلُ مِنَ الْمَالِ** ٢٣٣

* **الباب الرابع: بيانِ آدَابِ طالِبِ العِلْمِ** ٢٥٥

١ - إخلاصُ النِّيَّةِ لله في طَلَبِ العلمِ ٢٥٧

٢ - الاشتِغَالُ بِتَطهِيرِ الظَّاهِرِ وَالبَاطِنِ من شَوَائبِ الْمُخَالَفَاتِ ٢٦٢

٣- تَفريغُ القَلبِ للعِلمِ، وقَطعُ العلائِقِ، وَهَجرُ العَوَائِدِ ٢٦٧

٤ - أكلُ القَدرِ اليَسيرِ مِن الحَلالِ، والأخذُ بالوَرَعِ، وإدمَانُ الذِّكرِ ٢٧٣

٥ - تَقْلِيلُ الطَّعَام والْمَنَامِ والكَلام، مَا أمكَنَ ٢٨٠

٦ - تَركُ العِشْرَةِ مَا أمكَنَ، واختِيَارُ الصَّاحبِ والرَّفِيقِ ٢٨٥

٧- اختيارُ العلمِ والشيخِ ٢٩١

٨- التِزَامُ الأدَبِ التَّامِّ مَعَ شَيْخِهِ وَقُدوَتِهِ ٢٩٩

آدَابُ الاستئذانِ عَلَىٰ الشَّيخِ ٣٠٤

٩ - مُرَاعَاةُ الآدابِ مَعَ الكُتُبِ ٣١١

١٠ - آدَابُ طَالِبِ العلمِ عِندَ دَرسِهِ ٣١٦

* **الباب الخامس: مَرَاتبُ الطَّلَبِ وطَرَائقُ التَّحْصِيلِ** ٣١٩

أولًا: مَرَاتِبُ الطَّلَب ٣١٩

ثانيًا: طَرَائقُ التَّحصيلِ ٣٣٧

١ - سبيلُ العلم: الإقلاعُ عن الذنوبِ والمعاصي، والإقبالُ علىٰ الله تعالىٰ ٣٣٧
٢ - اغتنام تحصيل العلم فِي الصِّغَرِ ٣٤١
٣- طلب العلم ممدود ما امتدَّ العُمرُ ٣٤٧
٤ - التحلِّي بالحِلمِ والصَّبْرِ ٣٥١
٥ - الهمة العالية ٣٥٦
٦ - الاهتمام بضبطِ المحفوظ ضَبطًا صحيحًا مُتقَنًا ٣٦٦
٧- الحِرصُ والْمُواظَبَةُ والخُلُقُ الكَريمُ ٣٧٢
٨- المداومة عَلَىٰ الطلبِ مَهمَا بَلَغَ مِن العلمِ ٣٨٠
٩ - العِنَاية التَامَّة بالحِفْظِ والاستِظْهَارِ ٣٨٩
١٠ - مُرَاعَاةُ آدَابِ الاستفَادَةِ والتَّحصِيلِ ٤٠١
❊ **الباب السادس**: آفَاتِ العِلمِ ٤٠٨
١ - تَعَلُّم العِلمِ لِغَيرِ وَجهِ الله تَعَالَىٰ ٤١١
٢ - كِتْمَانُ العِلمِ ٤٢٣
٣- القَولُ عَلَىٰ الله بِلا عِلمٍ ٤٣٤
٤ - الدَّعْوَىٰ فِي العلمِ والقُرآنِ ٤٤٣

٥- إذلالُ أَهلِ العِلمِ للْعِلْمِ ٤٥٤
الفرق بين التواضع والمهانة ٤٥٥
التواضع المحمود علىٰ نوعين ٤٥٦
٦- الكِبْرُ والعُجْبُ ٤٦٦
الفرق بين الكبر والمهابة ٤٦٩
درجات العبَّاد والعلماء في الكبر ٤٧٠
الكبر بالعلم، وطريقة دفعه ٤٧١-٤٧٢
الفرق بين الكبر والعُجب ٤٧٢
الفرق بين الصيانة والكبر ٤٧٤
٧- فَقْدُ الخَشيَةِ فيهِ ٤٧٩
٨- الْمِرَاءُ والجِدَالُ والْمُخَاصَمَةُ ٤٨٨
علاج المراء والجدال والمخاصمة ٤٩٤
التعامل مع أهل اللجاج ٤٩٦
بيان آداب المجادل ٤٩٧
٩- النِّسيَانُ ٥٠٢
١٠- الغُرُورُ ٥١٢

أقسام المغرورين من أهل العلم ٥١٦
١١- التَّعَصُّبُ بالهَوَىٰ، والتَّقليدُ الأعمَىٰ، وتَحكيمُ آراء الرِّجَالِ......... ٥٢٠
من آثار التعصب المذموم ٥٢٣
الفرق بين تجريد المتابعة للمعصوم ﷺ، وإهدار أقوال العلماء....... ٥٢٥
الفرق بين الحكم المنزَّل الواجب الاتباع، والحكم المؤوَّل.......... ٥٢٦
حرص الأئمة علىٰ ردِّ الأتباع إلىٰ الدليل.................... ٥٢٧
الفرق بين التقليد والاتباع ٥٣٠
١٢- التَّسَرُّعُ فِي الفَتوَىٰ ٥٣٨
١٣- التَّحَاسُدُ والحِقدُ ٥٥٠
حالات الإنسان مع نعم الله علىٰ غيره ٥٥٢
الفرق بين المنافسة والحسد.................................... ٥٥٣
السبب الذي لأجله يكثر الحسد بين الأمثال والأقران................ ٥٦٠
بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب...................... ٥٦١
الباب السابع: العلمُ والعَمَلُ ٥٦٤
قاعدة: كلَّما كانت الرتبةُ فِي العلمِ عاليةً، كانت المؤاخذةُ علىٰ فُقدانِ
العملِ شديدةً وصارمةً.. ٥٧١

قاعدة: العالِم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهىٰ عن المنكر وإن ارتكبه ... ٥٨٠
حَالُ الْمُخَالَفَةِ بَينَ العِلمِ والعَمَلِ ٦٠٣
العِلمُ بَينَ الصُّورَةِ والحقِيقَةِ ٦١٣
الدَّلِيلُ بالفِعلِ أَرشَدُ مِنَ الدَّلِيلِ بالقَولِ ٦١٨
وَصفُ الطَّرِيقِ، ومَا يَلزَمُ السَّفَرَ العظيمَ ٦٢٠
مَدَارُ صَلاحِ أَمرِ العَبْدِ ٦٢٢
العَمَلُ مِن مَرَاتِبِ العلمِ، وَهُوَ ثمَرَتُهُ ٦٢٥
* العَقَبَاتُ الثلاثُ ٦٢٧
مَنْزِلَةُ الفِرَارِ ٦٣٠
تَسَاؤلٌ وَجَوَابٌ ٦٤٣
الاغتِرَارُ بالعلمِ دَاعيةُ البَطَالَةِ وتَركِ العَمَلِ ٦٤٦
جَهْلُ العَمَلِ ٦٥١
الخَلاصُ في الإخلاصِ، وإنَّمَا يَتَعَثرُ مَن لم يُخلِصْ ٦٥٧
* **الخاتمة** ٦٧١
* **فهرس الموضوعات** ٦٨٣